تاريخ ابن خلدون

المسمى

بكتاب العبر، وديوان المبتدإ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر
ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر

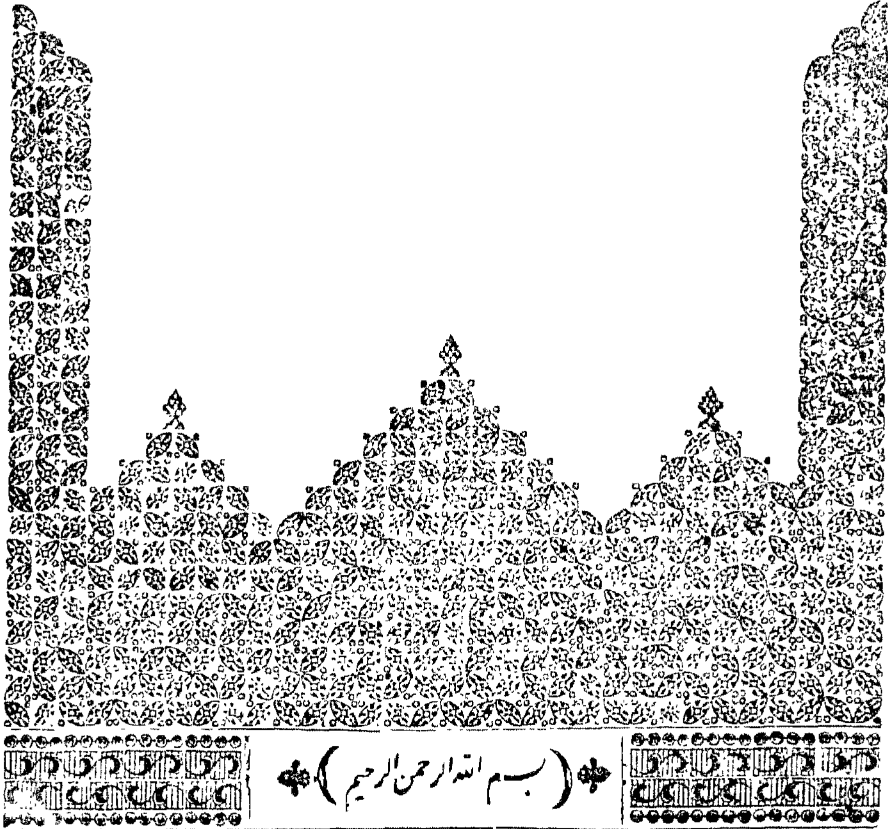
لوحيد عصره العلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي
المتوفى سنة ٨٠٨ هجرية

الجزء الاول

مؤسسة جمال للطباعة والنشر

وطى المصيطبة - شارع حبيب أبي شهلا - بناية المكن

بيروت - لبنان



﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ يقول العبد الفقير الى رحمة ربه الغنى بلطفه عبد الرحمن
ابن محمد بن خلدون الحضرمى وفقه الله تعالى ﴾

الحمد لله الذى له العزة والجبروت * وبيده الملك والملكوت * وله الاسماء الحسنى والنعوت * العالم فلا يعزب عنه ما تظهره النجوى أو يخفيه السكوت * القادر فلا يعجزه شئ فى السموات والارض ولا يفوت * أنشأنا من الارض نسما * واستعمرنا فيها أجيالا وأمما * ويسر لنا منها أرزاقا وقسما * تكنفنا الارحام والبيوت * ويكفلنا الرزق والقوت * وتبلينا الايام والوقوت * وتتعاورنا الآجال التى خط علينا كتابها الموقوت * وله البقاء والثبوت * وهو الحى الذى لا يموت * والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد النبى الامى العربى المكتوب فى التوراة والانجيل المنعوت * الذى تمخض لفصاله الكون قبل أن تتعاقب الآحاد والسبوت * ويتباين زحل والبهموت * وشهد بصدقه الحمام والعنكبوت * وعلى آله وأصحابه الذين لهم فى محبته واتباعه الاثر البعيد والصيت * والشمل الجميع فى مظاهرته ولعدوهم الشمل الشتيت * صلى الله عليه وعليهم ما اتصل بالاسلام جده المبخوت * وانقطع

بالكفر حبله المبتوت * وسلم كثيرا (أما بعد) فان فن التاريخ من الفنون التي يتداولها الامم والاجيال * وتشد اليه الركائب والرحال * وتسمو الى معرفته السوقة والاغفال * وتتنافس فيه الملوك والاقيال * ويتساوى في فهمه العلماء والجهال * اذ هو في ظاهره لا يزيد على اخبار عن الايام والدول * والسوابق من القرون الاول * تنمى فيها الاقوال * وتضرب فيها الامثال * وتطرف بها الاندية اذا غصها الاحتفال * وتؤدي الينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الاحوال * واتسع للدول فيها النطاق والمجال * وعمروا الارض حتى نادى بهم الارتحال * وحان منهم الزوال * وفي باطنه نظر وتحقيق * وتعليل للكائنات ومباديها دقيق * وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق * فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق * وجدير بأن يعد في علومها وخليق * وان فحول المؤرخين في الاسلام قد استوعبوا أخبار الايام وجمعوها * وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها * وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها أو ابتدعوها * وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها * واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها * وأدوها الينا كما سمعوها * ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والاحوال ولم يراعوها * ولا رفضوا ترهات الاحاديث ولا دفعوها * فالتحقيق قليل * وطرف التنقيح في الغالب كليل * والغلط والوهم نسيب للاخبار وخليل * والتقليد عريق في الآدميين وسليل * والتطفل على الفنون عريض وطويل * ومرعى الجهل بين الانام وخيم وبيل * والحق لا يقاوم سلطانه * والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه * والناقل انما هو يملي وينقل * والبصيرة تنقد الصحيح اذا تمقل * والعلم يجلو لها صفحات الصواب ويصقل * (هذا) وقد دون الناس في الاخبار وأكثروا * وجمعوا تواريخ الامم والدول في العالم وسطروا * والذين ذهبوا بفضل الشهرة والامانة المعتبرة * واستفرغوا دواوين من قبلهم في صحفهم المتأخرة * هم قليلون لا يكادون يجاوزون عدد الانامل * ولا حركات العوامل * مثل ابن اسحق والطبري وابن الكلبي ومحمد بن عمر الواقدي وسيف بن عمر الاسدي والمسعودي وغيرهم من المشاهير * المتميزين عن الجماهير * وان كان في كتب المسعودي والواقدي من المطعن والمغمز ماهو معروف عند الاثبات * ومشهور بين الحفظة الثقات * الا أن الكافة اختصتهم بقبول أخبارهم * واقتفاء سننهم في التصنيف واتباع آثارهم * والناقد البصير قسطاس نفسه في تزييفهم فيما ينقلون أو اعتبارهم * فللعمران طبائع في أحواله ترجع اليها الاخبار * وتحمل عليها الروايات والآثار * ثم ان أكثر

التواريخ لهؤلاء عامة المناهج والمسالك * لعموم الدولتين صدر الاسلام فى الآفاق والممالك * وتناولها البعيد من الغايات فى المآخذ والمتارك * ومن هؤلاء من استوعب ما قبل الملة من الدول والامم * والامر العمم * كالمسعودى ومن نحا منحاه وجاء من بعدهم من عدل عن الاطلاق الى التقييد * ووقف فى العموم والاحاطة عن الشأو البعيد * فقيد شوارد عصره * واستوعب أخبار أفقه وقطره * واقتصر على أحاديث دولته ومصره * كما فعل أبو حيان مؤرخ الاندلس والدولة الاموية بها وابن الرفيق مؤرخ افريقية والدول التى كانت بالقيروان ثم لم يأت من بعد هؤلاء الا مقلد * وبليد الطبع والعقل أو متبلد * ينسج على ذلك المنوال * ويحتذى منه بالمثال * ويذهل عما أحالته الايام من الاحوال * واستبدلت به من عوائد الامم والاجيال * فيجلبون الاخبار عن الدول * وحكايات الوقائع فى العصور الاول * صورا قد تجردت عن موادها * وصفاحا انتضيت من أغمادها * ومعارف تستنكر للجهل بطارفها وتلادها * انما هى حوادث لم تعلم أصولها * وأنواع لم تعتبر أجناسها ولا تحققت فصولها * يكررون فى موضوعاتهم الاخبار المتداولة بأعيانها * اتباعا لمن عنى من المتقدمين بشأنها * ويغفلون أمر الاجيال الناشئة فى ديوانها * بما أعوز عليهم من ترجمانها * فتستعجم صحفهم عن بيانها * ثم اذا تعرضوا لذكر الدولة نسقوا أخبارها نسقا * محافظين على نقلها وهما أو صدقا * لا يتعرضون لبدايتها * ولا يذكرون السبب الذى رفع من رايتها * وأظهر من آيتها * ولا علة الوقوف عند غايتها * فيبقى الناظر متطلعا بعد الى افتقاد أحوال مبادى الدول ومراتبها * مفتشا عن أسباب تزاحمها أو تعاقبها * باحثا عن المقنع فى تباينها أو تناسبها حسبما نذكر ذلك كله فى مقدمة الكتاب * ثم جاء آخرون بافراط الاختصار * وذهبوا الى الاكتفاء بأسماء الملوك والاقتصار * مقطوعة عن الانساب والاخبار * موضوعة عليها أعداد أيامهم بحروف الغبار * كما فعله ابن رشيق فى ميزان العمل * ومن اقتفى هذا الاثر من الهمل * وليس يعتبر لهؤلاء مقال * ولا يعد لهم ثبوت ولا انتقال * لما أذهبوا من الفوائد * وأخلوا بالمذاهب المعروفة للمؤرخين والعوائد (ولما طالعت) كتب القوم * وسبرت غور الامس واليوم * نبهت عين القريحة من سنة الغفلة والنوم * وسمت التصنيف من نفسى وأنا المفلس أحسن السوم * فأنشأت فى التاريخ كتابا * رفعت به عن أحوال الناشئة من الاجيال حجابا * وفصلته فى الاخبار والاعتبار بابا بابا * وأبديت فيه لاولية الدول والعمران عللا وأسبابا * وبنيته على أخبار الامم الذين

عمروا المغرب فى هذه الاعصار * وملؤا أكناف النواحى منه والامصار * وما كان لهم من الدول الطوال أو القصار * ومن سلف من الملوك والانصار * وهم العرب والبربر * اذهما الجيلان اللذان عرف بالمغرب مأواهما * وطال فيه على الاحقاب مثواهما * حتى لا يكاد يتصور فيه ماعداهما * ولا يعرف أهله من أجيال الآدميين سواهما * فهذبت مناحيه تهذيبا * وقربته لافهام العلماء والخاصة تقريبا * وسلكت فى ترتيبه وتبويبه مسلكا غريبا * واخترعته من بين المناحى مذهبا عجيبا * وطريقة مبتدعة وأسلوبا * وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن وما يعرض فى الاجتماع الانسانى من العوارض الذاتية ما يمتعك بعلل الكوائن وأسبابها * ويعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها * حتى تنزع من التقليد يدك * وتقف على أحوال من قبلك من الايام والاجيال وما بعدك * (ورتبته) على مقدمة وثلاثة كتب

(المقدمة) فى فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والالماع بمغالط المؤرخين *

(الكتاب الاول) فى العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم وما لذلك من العلل والاسباب

(الكتاب الثانى) فى أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ مبدا الخليقة الى هذا العهد وفيه الالماع ببعض من عاصرهم من الامم المشاهير ودولهم مثل النبط والسريانيين والفرس وبنى اسرائيل والقبط ويونان والروم والترك والافرنجة

(الكتاب الثالث) فى أخبار البربر ومن اليهم من زناتة وذكر أوليتهم وأجيالهم وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول ثم كانت الرحلة الى المشرق لاجتلاء أنواره * وقضاء الفرض والسنة فى مطافه ومزاره * والوقوف على آثاره فى دواوينه وأسفاره * فأفدت ما نقص من أخبار ملوك العجم بتلك الديار * ودول الترك فيما ملكوه من الاقطار * واتبعت بها ما كتبته فى تلك الاسطار * وأدرجتها فى ذكر المعاصرين لتلك الاجيال من أمم النواحى * وملوك الامصار والضواحى * سالكا سبيل الاختصار والتلخيص * مفتديا بالمرام السهل من العويص * داخلا من باب الاسباب على العموم الى الاخبار على الخصوص فاستوعب أخبار الخليقة استيعابا * وذلل من الحكم النافرة صعابا * وأعطى لحوادث الدول عللا وأسبابا * وأصبح للحكمة صوانا وللتاريخ جرابا * (ولما كان) مشتملا على أخبار العرب والبربر * من أهل المدن والوبر * والالماع بمن عاصرهم من الدول الكبر * وأفصح بالذكرى والعبر * فى مبتدا الاحوال وما بعدها من الخبر (سميته) كتاب

العبر * وديوان المبتدا والخبر في أيام العرب والعجم والبربر * ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر * ولم أترك شيأ في أولية الاجيال والدول * وتعاصر الامم الاول * وأسباب التصرّف والحول * في القرون الخالية والملل * ومايعرض في العمران من دولة وملة * ومدينة وحلة * وعزة وذلة * وكثرة وقلة * وعلم وصناعة * وكسب واضاعة * وأحوال متقلبة مشاعة * وبدو وحضر * وواقع ومنتظر * الاواستوعبت جمله * وأوضحت براهينه وعلله * فجاء هذا الكتاب فذا بما ضمنته من العلوم الغريبة * والحكم المحجوبة القريبة * وأنا من بعدها موقن بالقصور * بين أهل العصور * معترف بالعجز عن المضاء * في مثل هذا القضاء * راغب من أهل اليد البيضاء * والمعارف المتسعة الفضاء * النظر بعين الانتقاد لا بعين الارتضاء * والتغمد لما يعثرون عليه بالإصلاح والاغضاء * فالبضاعة بين أهل العلم مزجاة * والاعتراف من اللوم منجاة * والحسنى من الاخوان مرتجاة * والله أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم وهو حسبي ونعم الوكيل (وبعد) أن استوفيت علاجه * وأنرت مشكاته للمستبصرين وأذكيت سراجه * وأوضحت بين العلوم طريقه ومنهاجه * وأوسعت في فضاء المعارف نطاقه وأدرت سياجه * اتحفت بهذه النسخة منه (٨) خزانة مولانا السلطان الامام المجاهد * الفاتح الماهد * المتحلى منذ خلع التمائم * ولوث العمائم * بحلى القانت الزاهد * المتوشح من زكاء المناقب والمحامد * وكرم الشمائل والشواهد * بأجل من القلائد * في نحور الولائد * المتناول بالعزم القوى الساعد * والجد الموافى المساعد * والمجد الطارف والتالد * ذوائب ملكهم الراسى القواعد * الكريم المعالى والمصاعد * جامع أشتات العلوم والفوائد * وناظم شمل المعارف الشوارد * ومظهر الآيات الربانية * في فضل المدارك الانسانية * بفكره الثاقب الناقد * ورأيه الصحيح المعاقد * النير المذاهب والعقائد * نور الله الواضح المراشد * ونعمته العذبة الموارد * ولطفه الكامن بالمراصد للشدائد * ورحمته الكريمة المقالد * التي وسعت صلاح الزمان الفاسد * واستقامة المائد من الاحوال والعوائد * وذهبت بالخطوب الاوابد * وخلعت على الزمان رونق الشباب العائد * وحجته التي لا يبطلها انكار الجاحد ولا شبهات المعاند * (أمير المؤمنين) أبو فارس عبد العزيز ابن مولانا السلطان الكبير المجاهد المقدس أمير المؤمنين * أبي الحسن ابن السادة الاعلام من بنى مرين * الذين جددوا الدين * ونهجوا السبيل للمهتدين * ومحوا آثار البغاة المفسدين * أفاء الله على الامة ظلاله *

وبلغه فى نصر دعوة الاسلام آماله * وبعثته الى خزائنهم الموقفة لطلبة العلم بجامع القرويين من مدينة فاس حضرة ملكهم * وكرسى سلطانهم * حيث مقر الهدى * ورياض المعارف خضلة الندى * وفضاء الاسرار الربانية فسيح المدى * والامامة الكريمة الفارسية (١) العزيزة ان شاء الله بنظرها الشريف * وفضلها الغنى عن التعريف * تبسط له من العناية مهادا * وتفسح له فى جانب القبول آمادا * فتوضح بها أدلته على رسوخه واشهادا * فنى سوقها تنفق بضائع الكتاب * وعلى حضرتها تعكف ركائب العلوم والآداب * ومن مدد بصائرها المنيرة نتائج القرائح والالباب * والله يوزعنا شكر نعمتها * ويوفر لنا حظوظ المواهب من رحمتها * ويعيننا على حقوق خدمتها * ويجعلنا من السابقين فى ميدانها * المحلين فى حومتها * ويضفى على أهل ايالتها * وما أوى من الاسلام الى حرم عمالتها * لبوس حمايتها وحرمتها * وهو سبحانه المسئول أن يجعل أعمالنا خالصة فى وجهتها * بريئة من شوائب الغفلة وشبهتها * وهو حسبنا ونعم الوكيل

(المقدمة)

في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والالماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط والاوهام وذكر شيء من اسبابها

(اعلم) أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية اذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الامم فى أخلاقهم * والانبياء فى سيرهم * والملوك فى دولهم وسياستهم * حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدين والدنيا فهو محتاج الى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما الى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط لان الأخبار اذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم اصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والاحوال فى الاجتماع الانسانى ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق وكثيرا ما وقع للمورخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط فى الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا لم يعرضوها على اصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة فى الاخبار فضلوا عن الحق وتاهوا فى بيداء الوهم والغلط سيما فى احصاء الاعداد من الاموال والعساكر

اذا عرضت في الحكايات اذ هي مظنة الكذب ومطية الهذر ولا بد من ردها الى
الاصول وعرضها على القواعد وهذا كما نقل المسعودي وكثير من المؤرخين في
جيوش بني اسرائيل وأن موسى عليه السلام أحصاهم في التيه بعد أن أجاز من
يطيق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها فكانوا ستمائة ألف أو يزيدون
ويذهل في ذلك عن تقدير مصر والشأم واتساعهما لمثل هذا العدد من الجيوش لكل
مملكة من الممالك حصة من الحامية تتسع لها وتقوم بوظائفها وتضيق عما فوقها تشهد
بذلك العوائد المعروفة والاحوال المألوفة ثم ان مثل هذه الجيوش البالغة الى مثل هذا
العدد يبعد أن يقع بينها زحف أو قتال لضيق ساحة الارض عنها وبعدها اذا اصطفت
عن مدى البصر مرتين أو ثلاثا أو أزيد فكيف يقتتل هذان الفريقان أو تكون
غلبة أحد الصفين وشيء من جوانبه لا يشعر بالجانب الآخر والحاضر يشهد لذلك
فالماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء (ولقد كان) ملك الفرس ودولتهم أعظم
من ملك بني اسرائيل بكثير يشهد لذلك ما كان من غلب بختنصر لهم والتهامه بلادهم
واستيلائه على أمرهم وتخريب بيت المقدس قاعدة ملتهم وسلطانهم وهو من بعض
عمال مملكة فارس يقال انه كان مرزبان المغرب من تخومها وكانت ممالكهم
بالعراقين وخراسان وماوراء النهر والابواب أوسع من ممالك بني اسرائيل بكثير ومع ذلك
لم تبلغ جيوش الفرس قط مثل هذا العدد ولا قريبا منه وأعظم ما كانت جموعهم
بالقادسية مائة وعشرون ألفا كلهم متبوع على ما نقله سيف قال وكانوا في أتباعهم أكثر
من مائتي ألف (وعن عائشة والزهري) أن جموع رستم التي زحف بها سعد
بالقادسية انما كانوا ستين ألفا كلهم متبوع وأيضا فلو بلغ بنو اسرائيل مثل هذا
العدد لاتسع نطاق ملكهم وانفسح مدى دولتهم فان العمالات والممالك في الدول على
نسبة الحامية والقبيل القائمين بها في قلتها وكثرتها حسبما نبين في فصل الممالك
من الكتاب الاول والقوم لم تتسع ممالكهم الى غير الاردن وفلسطين من الشام وبلاد
يثرب وخيبر من الحجاز على ما هو المعروف وأيضا فالذي بين موسى واسرائيل انما هو
أربعة آباء على ما ذكره المحققون فانه موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بفتح الهاء
وكسرها ابن لاوي بكسر الواو وفتحها ابن يعقوب وهو اسرائيل الله هكذا نسبه في
التوراة والمدة بينهما على ما نقله المسعودي قال دخل اسرائيل مصر مع ولده الاسباط
وأولادهم حين أتوا الى يوسف سبعين نفسا وكان مقامهم بمصر الى أن خرجوا مع موسى
عليه السلام الى التيه مائتين وعشرين سنة تتداولهم ملوك القبط من الفراعنة ويبعد
أن يتشعب النسل في أربعة أجيال الى مثل هذا العدد وان زعموا أن عدد تلك الجيوش

انما كان فى زمن سليمان ومن بعده فبعيد أيضا اذ ليس بين سليمان واسرائيل الا أحد عشر أبا فانه سليمان بن داود بن ايشا بن عوفيذ ويقال بن عوفذ بن باعز ويقال بوعز بن سلمون بن نحشون بن عمينوذب ويقال حميناذاب بن رم بن حصرون ويقال حسرون بن بارس ويقال بيرس بن يهوذا بن يعقوب ولا يتشعب النسل فى أحد عشر من الولد الى مثل هذا العدد الذى زعموه اللهم الى المئين والآلاف فربما يكون وأما أن يتجاوز الى ما بعدهما من عقود الاعداد فبعيد واعتبر ذلك فى الحاضر المشاهد والقريب المعروف تجد زعمهم باطلا ونقلهم كاذبا (والذى ثبت فى الاسرائيليات) أن جنود سليمان كانت اثنى عشر ألفا خاصة وأن مقرباته كانت ألفا وأربعمائة فرس مرتبطة على أبوابه هذا هو الصحيح من أخبارهم ولا يلتفت الى خرافات العامة منهم (وفى أيام سليمان عليه السلام وملكه) كان عنفوان دولتهم واتساع ملكهم هذا وقد نجد الكافة من أهل العصر اذا أفاضوا فى الحديث عن عساكر الدول التى لعهدهم أو قريبا منه وتفاوضوا فى الاخبار عن جيوش المسلمين أو النصارى أو أخذوا فى احصاء أموال الجبايات وخراج السلطان ونفقات المترفين وبضائع الاغنياء الموسرين توغلوا فى العدد وتجاوزوا حدود العوائد وطاوعوا وساوس الاغراب فاذا استكشفت أصحاب الدواوين عن عساكرهم واستنبطت أحوال أهل الثروة فى بضائعهم وفوائدهم واستجليت عوائد المترفين فى نفقاتهم لم تجد معشار ما يعدونه وما ذلك الا لولوع النفس بالغرائب وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة على المتعقب والمنتقد حتى لا يحاسب نفسه على خطا ولا عمد ولا يطالبها فى الخبر بتوسط ولا عدالة ولا يرجعها الى بحث وتفتيش فيرسل عنانه ويسيم فى مراتع الكذب لسانه ويتخذ آيات الله هزوا ويشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله وحسبك بها صفقة خاسرة (ومن الاخبار الواهية للمؤرخين) ما ينقلونه كافة فى أخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب أنهم كانوا يغزون من قراهم باليمن الى افريقية والبربر من بلاد المغرب وأن افريقش بن قيس بن صيفى من أعاظم ملوكهم الاول وكان لعهد موسى عليه السلام أو قبله بقليل غزا افريقية وأثخن فى البربر وأنه الذى سماهم بهذا الاسم حين سمع رطانتهم وقال ما هذه البربرة فأخذ هذا الاسم عنه ودعوا به من حينئذ وأنه لما انصرف من المغرب حجز هنالك قبائل من حمير فأقاموا بها واختلطوا بأهلها ومنهم صنهاجة وكتامة ومن هذا ذهب الطبرى والجرجانى والمسعودى وابن الكلبى والبيلى الى أن صنهاجة وكتامة من حمير وتأباه نسابة البربر وهو الصحيح (وذكر المسعودى أيضا) أن ذا الاذعار من ملوكهم قبل افريقش وكان على عهد سليمان

عليه السلام غزا المغرب ودوّخه وكذلك ذكر مثله عن ياسر ابنه من بعده وأنه بلغ وادي الرمل من بلاد المغرب ولم يجد فيه مسلكا لكثرة الرمل فرجع وكذلك يقولون في تبّع الآخر وهو أسعد أبو كرب وكان على عهد يستاسف من ملوك الفرس الكيانية أنه ملك الموصل وأذربيجان ولقي الترك فهزمهم وأثخن ثم غزاهم ثانية وثالثة كذلك وأنه بعد ذلك أغزى ثلاثة من بنيه بلاد فارس والى بلاد الصغد من بلاد أمم الترك وراء النهر والى بلاد الروم فملك الأول البلاد الى سمرقند وقطع المفازة الى الصين فوجد أخاه الثاني الذي غزا الى سمرقند قد سبقه اليها فأثخنا في بلاد الصين ورجعا جميعا بالغنائم وتركوا ببلاد الصين قبائل من حمير فهم بها الى هذا العهد وبلغ الثالث الى قسطنطينية فدرسها ودوّخ بلاد الروم ورجع (وهذه الاخبار) كلها بعيدة عن الصحة عريقة في الوهم والغلط وأشبه بأحاديث القصص الموضوعة * وذلك أن ملك التبابعة انما كان بجزيرة العرب وقرارهم وكرسيهم بصنعاء اليمن وجزيرة العرب يحيط بها البحر من ثلاث جهاتها فبحر الهند من الجنوب وبحر فارس الهابط منه الى البصرة من المشرق وبحر السويس الهابط منه الى السويس من أعمال مصر من جهة المغرب كما تراه في مصوّر الجغرافيا فلا يجد السالكون من اليمن الى المغرب طريقا من غير السويس والمسلك هنالك ما بين بحر السويس والبحر الشامي قدر مرحلتين فما دونهما ويبعد أن يمرّ بهذا المسلك ملك عظيم في عساكر موفورة من غير أن تصير من أعماله هذا ممتنع في العادة * وقد كان بتلك الاعمال العمالقة وكنعان بالشام والقبط بمصر ثم ملك العمالقة مصر وملك بنو اسرائيل الشام ولم ينقل قط أن التبابعة حاربوا أحدا من هؤلاء الامم ولا ملكوا شيأ من تلك الاعمال وأيضا فالشقة من البحر الى المغرب بعيدة والازودة والعلوفة للعساكر كثيرة فاذا ساروا في غير أعمالهم احتاجوا الى انتهاب الزرع والنعم وانتهاب البلاد فيما يمرّون عليه ولا يكفي ذلك للازودة وللعلوفة عادة وان نقلوا كفايتهم من ذلك من أعمالهم فلا تفي لهم الرواحل بنقله فلا بدّ وان يمرّوا في طريقهم كلها بأعمال قد ملكوها ودوّخوها لتكون الميرة منها وان قلنا ان تلك العساكر تمرّ بهؤلاء الامم من غير أن تهيجهم فتحصل لهم الميرة بالمسالمة فذلك أبعد وأشد امتناعا فدل على أن هذه الاخبار واهية أو موضوعة (وأمّا) وادي الرمل الذي يعجز السالك فلم يسمع قط ذكره في المغرب على كثرة سالكه ومن يقص طرقه من الركاب والقرى في كل عصر وكل جهة وهو على ما ذكروه من الغرابة تتوفر الدواعي على نقله * وأما غزوهم بلاد المشرق وأرض الترك وان كانت طريقه أوسع من مسالك السويس الا أن الشقة

هذا أبعد وأمم فارس والروم معترضون فيها دون الترك ولم ينقل قط أن التبابعة ملكوا بلاد فارس ولا بلاد الروم وانما كانوا يحاربون أهل فارس على حدود بلاد العراق وما بين البحرين والحيرة والجزيرة بين دجلة والفرات وما بينهما في الأعمال وقد وقع ذلك بين ذي الأذعار منهم وكيكاوس من ملوك الكيانية وبين تبع الأصغر أبو كرب ويستاسف منهم أيضا ومع ملوك الطوائف بعد الكيانية والساسانية من بعدهم بمجاوزة أرض فارس بالغزو الى بلاد الترك والتبت وهو ممتنع عادة من أجل الأمم المعترضة منهم والحاجة الى الأزودة والعلوفات مع بعد الشقة كما مر فالأخبار بذلك واهية مدخولة وهي لو كانت صحيحة النقل لكان ذلك قادحا فيها فكيف وهي لم تنقل من وجه صحيح وقول ابن اسحق في خبر يثرب والأوس والخزرج ان تبعا الآخر سار الى المشرق محمول على العراق وبلاد فارس وأما بلاد الترك والتبت فلا يصح غزوهم اليها بوجه لما تقرر فلا تثقن بما يلقى اليك من ذلك وتأمل الأخبار واعرضها على القوانين الصحيحة يقع لك تمحيصها بأحسن وجه والله الهادي الى الصواب .

(فصل) وأبعد من ذلك وأعرق في الوهم ما يتناقله المفسرون في تفسير سورة والفجر في قوله تعالى ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد فيجعلون لفظة ارم اسما لمدينة وصفت بأنها ذات عماد أي أساطين وينقلون أنه كان لعاد بن عوص بن ارم ابنان هما شديد وشداد ملكا من بعده وهلك شديد فخلص الملك لشداد ودانت له ملوكهم وسمع وصف الجنة فقال لأبنين مثلها فبنى مدينة ارم في صحاري عدن في مدة ثلثمائة سنة وكان عمره تسعمائة سنة وانها مدينة عظيمة قصورها من الذهب وأساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها أصناف الشجر والانهار المطردة ولما تم بناؤها سار اليها بأهل مملكته حتى اذا كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا كلهم ذكر ذلك الطبري والثعالبي والزمخشري وغيرهم من المفسرين وينقلون عن عبد الله بن قلابة من الصحابة أنه خرج في طلب ابل له فوقع عليها وحمل منها ما قدر عليه وبلغ خبره الى معاوية فأحضره وقص عليه فبحث عن كعب الأحبار وسأله عن ذلك فقال هي ارم ذات العماد وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال يخرج في طلب ابل له ثم التفت فأبصر ابن قلابة فقال هذا والله ذلك الرجل * وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ في شيء من بقاع الأرض * وصحاري عدن التي زعموا انها بنيت فيها هي في وسط اليمن وما زال عمرانه متعاقبا والأدلاء تقص طرقه من كل وجه ولم ينقل عن هذه المدينة خبر ولا ذكرها أحد من الأخباريين ولا من الأمم ولو قالوا انها درست فيما درس من الآثار لكان

أشبه الا أن ظاهر كلامهم انها موجودة وبعضهم يقول انها دمشق بناء على ان قوم عاد ملكوها وقد ينتهي الهذيان ببعضهم الى انها غائبة وانما يعثر عليها أهل الرياضة والسحر مزاعم كلها أشبه بالخرافات والذي حمل المفسرين على ذلك ما اقتضته صناعة الاعراب في لفظة ذات العماد أنها صفة ارم وحملوا العماد على الاساطين فتعين أن يكون بناء ورشح لهم ذلك قراءة ابن الزبير عاد ارم على الاضافة من غير تنوين ثم وقفوا على تلك الحكايات التي هي أشبه بالاقاصيص الموضوعة التي هي أقرب الى الكذب المنقولة في عداد المضحكات والا فالعماد هي عماد الاخبية بل الخيام وان أريد بها الاساطين فلا بدع في وصفهم بأنهم أهل بناء وأساطين على العموم بما اشتهر من قوتهم لا أنه بناء خاص في مدينة معينة أو غيرها وان أضيفت كما في قراءة ابن الزبير فعلى اضافة الفصيلة الى القبيلة كما تقول قريش كنانة والياس مضر وربيعة نزار وأي ضرورة الى هذا المحمل البعيد الذي تمحلت لتوجيهه لامثال هذه الحكايات الواهية التي ينزه كتاب الله عن مثلها لبعدها عن الصحة (ومن الحكايات) المدخولة للمؤرخين ما ينقلونه كافة في سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصة العباسة أخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه وانه لكلفه بمكانهما من معاقرته اياهما الخمر أذن لهما في عقد النكاح دون الخلوة حرصا على اجتماعهما في مجلسه وأن العباسة تحيلت عليه في التماس الخلوة به لما شغفها من حبه حتى واقعها زعموا في حالة سكر فحملت ووشي بذلك للرشيد فاستغضب وهيهات ذلك من منصب العباسة في دينها وأبويها وجلالها وأنها بنت عبد الله بن عباس ليس بينها وبينه الا أربعة رجال هم أشراف الدين وعظماء الملة من بعده * والعباسة بنت محمد المهدي بن عبد الله أبي جعفر المنصور بن محمد السجاد بن علي أبي الخلفاء بن عبد الله ترجمان القرآن بن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ابنة خليفة أخت خليفة محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته وامامة الملة ونور الوحي ومهبط الملائكة من سائر جهاتها قريبة عهد ببداوة العروبية وسذاجة الدين البعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفواحش فأين يطلب الصون والعفاف اذا ذهب عنها أو أين توجد الطهارة والذكاء اذا فقد من بيتها أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربي بمولى من موالي العجم بملكة جده من الفرس أو بولاء جدها من عمومة الرسول وأشراف قريش وغايته أن جذبت دولتهم بضبعه وضبع أبيه واستخلصتهم ورقتهم الى منازل الاشراف وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر الى موالي الاعاجم على بعد همته وعظم آبائه ولو نظر المتأمل في ذلك نظر المنصف وقاس

العباسة بابنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالى دولتها وفي سلطان قومها واستنكره ولج في تكذيبه وأين قدر العباسة والرشيد من الناس وانما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجابهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم يقال انه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيسا من بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحموا فيها أهل الدولة بالمناكب ودفعوهم عنها بالراح لمكان أبيهم يحيى من كفالة هرون ولى عهد وخليفة حتى شب في حجره ودرج من عشه وغلب على أمره وكان يدعوه يا أبت فتوجه الايثار من السلطان اليهم وعظمت الدالة منهم وانبسط الجاه عندهم وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وقصرت عليهم الآمال وتخطت اليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الامراء وسيرت الى خزائنهم في سبيل التزلف والاستمالة أموال الجباية وأفاضوا في رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء وطوقوهم المنن وكسبوا من بيوتات الاشراف المعدم وفكوا العاني ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم وأسنوا لعفاتهم الجوائز والصلات واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والامصار في سائر الممالك حتى آسفوا البطانة وأحقدوا الخاصة وأغصوا أهل الولاية فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ودبت الى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية حتى لقد كان بنو قحطبة اخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم لم تعطفهم لما وقر في نفوسهم من الحسد عواطف الرحم ولا وزعتهم أواصر القرابة وقارن ذلك عند مخدومهم نواشئ الغيرة والاستنكاف من الحجر والانفة وكامن الحقود التي بعثتها منهم صغائر الدالة وانتهى بها الاصرار على شأنهم الى كبائر المخالفة كقصتهم في يحيى بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على بن أبي طالب أخي محمد المهدى الملقب بالنفس الزكية الخارج على المنصور ويحيى هذا هو الذي استنزله الفضل بن يحيى من بلاد الديلم على أمان الرشيد بخطه وبذل لهم فيه ألف ألف درهم على ما ذكره الطبرى ودفعه الرشيد الى جعفر وجعل اعتقاله بداره والى نظره فحبسه مدة ثم حملته الدالة على تخلية سبيله والاستبداد بحل عقاله حرما لدماء أهل البيت بزعمه ودالة على السلطان في حكمه * وسأله الرشيد عنه لما وشي به اليه ففطن وقال أطلقته فأبدى له وجه الاستحسان وأسرها في نفسه فأوجد السبيل بذلك على نفسه وقومه

حتى ثل عرشهم وألقيت عليهم سماؤهم وخسفت الأرض بهم وبدارهم وذهبت سلفا ومثلا للآخرين أيامهم ومن تأمل أخبارهم واستقصى سير الدولة وسيرهم وجد ذلك محقق الاثر ممهد الاسباب (وانظر) مانقله ابن عبد ربه فى مفاوضة الرشيد عم جده داود بن على فى شأن نكبتهم وماذكره فى باب الشعراء من كتاب العقد فى محاورة الاصمعى للرشيد وللفضل بن يحيى فى سمرهم تتفهم انه انما قتلتهم الغيرة والمنافسة فى الاستبداد من الخليفة فمن دونه وكذلك ماتحيل به أعداؤهم من البطانة فيما دسوه للمغنين من الشعر احتيالا على اسماعه للخليفة وتحريك حفائظه لهم وهو قوله

ليت هندا أنجزتنا ماتعد * وشفت أنفسنا مما نجد

واستبدت مرة واحدة * انما العاجز من لا يستبد

وأن الرشيد لما سمعها قال اى والله انى عاجز حتى بعثوا بأمثال هذه كامن غيرته وسلطوا عليهم بأس انتقامه نعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال (وأما) ماتموه به الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر واقتران سكره بسكر الندمان فحاش لله ماعلمنا عليه من سوء وأين هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة وما كان عليه من صحابة العلماء والاولياء ومحاوراته للفضيل بن عياض وابن السماك والعمرى ومكاتبته سفيان الثورى وبكائه من مواعظهم ودعائه بمكة فى طوافه وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلوات وشهود الصبح لاول وقتها (حكى) الطبرى وغيره انه كان يصلى فى كل يوم مائة ركعة نافلة وكان يغزو عاما ويحج عاما ولقد زجر ابن أبى مريم مضحكه فى سمره حين تعرض له بمثل ذلك فى الصلاة لما سمعه يقرأ ومالى لا أعبد الذى فطرنى وقال والله ماأدرى لم فما تمالك الرشيد أن ضحك ثم التفت اليه مغضبا وقال ياابن أبى مريم فى الصلاة أيضا اياك اياك والقرآن والدين ولك ماشئت بعدهما وأيضا فقد كان من العلم والسذاجة بمكان لقرب عهده من سلفه المنتحلين لذلك ولم يكن بينه وبين جده أبى جعفر بعيد زمن انما خلفه غلاما وقد كان أبو جعفر بمكان من العلم والدين قبل الخلافة وبعدها وهو القائل لمالك حين أشار عليه بتأليف الموطا ياأباعبد الله انه لم يبق على وجه الارض أعلم منى ومنك وانى قد شغلتنى الخلافة فضع أنت للناس كتابا ينتفعون به تجنب فيه رخص ابن عباس وشدائد ابن عمر ووطئه للناس توطئة قال مالك فوالله لقد علمنى التصنيف يومئذ ولقد أدركه ابنه المهدى أبو الرشيد هذا وهو يتورع عن كسوة الجديد لعياله من بيت المال ودخل عليه يوما وهو بمجلسه يباشر الخياطين فى ارقاع الخلقان من ثياب عياله فاستنكف المهدى من ذلك وقال ياأمير المؤمنين على كسوة العيال عامنا هذا من

عطائى فقال له الث ذلك ولم يصده عنه ولا سمح بالانفاق من أموال المسلمين فكيف يليق بالرشيد على قرب العهد من هذا الخليفة وأبوته وماربى عليه من أمثال هذه السير فى أهل بيته والتخلق بها أن يعاقر الخمر أو يجاهر بها وقد كانت حالة الاشراف من العرب الجاهلية فى اجتناب الخمر معلومة ولم يكن الكرم شجرتهم وكان شربها مذمة عند الكثير منهم والرشيد وآباؤه كانوا على ثبج من اجتناب المذمومات فى دينهم ودنياهم والتخلق بالمحامد وأوصاف الكمال ونزعات العرب (وانظر) مانقله الطبرى والمسعودى فى قصة جبريل بن بختيشوع الطبيب حين أحضر له السمك فى مائدته فحماه عنه ثم أمر صاحب المائدة بحمله الى منزله وفطن الرشيد وارتاب به ودس خادمه حتى عاينه يتناوله فأعد ابن بختيشوع للاعتذار ثلاث قطع من السمك فى ثلاثة أقداح خلط احداها باللحم المعالج بالتوابل والبقول والبوارد والحلوى وصب على الثانية ماء مثلجا وعلى الثالثة خمرا صرفا وقال فى الاول والثانى هذا طعام أمير المؤمنين ان خلط السمك بغيره أو لم يخلطه وقال فى الثالث هذا طعام ابن بختيشوع ودفعها الى صاحب المائدة حتى اذا انتبه الرشيد وأحضره للتوبيخ أحضر الثلاثة الاقداح فوجد صاحب الخمر قد اختلط وأماع وتفتت ووجد الآخرين قد فسدا وتغيرت رائحتهما فكانت له فى ذلك معذرة وتبين من ذلك ان حال الرشيد فى اجتناب الخمر كانت معروفة عند بطانته وأهل مائدته ولقد ثبت عنه انه عهد بحبس أبى نواس لما بلغه من انهماكه فى المعاقرة حتى تاب وأقلع وانما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق وفتاويهم فيها معروفة وأما الخمر الصرف فلا سبيل الى اتهامه به ولا تقليد الاخبار الواهية فيها فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرما من أكبر الكبائر عند أهل الملة ولقد كان أولئك القوم كلهم بمنجاة من ارتكاب السرف والترف فى ملابسهم وزينتهم وسائر متناولاتهم لما كانوا عليه من خشونة البداوة وسذاجة الدين التى لم يفارقوها بعد فما ظنك بما يخرج عن الاباحة الى الحظر وعن الحلية الى الحرمة ولقد اتفق المؤرخون الطبرى والمسعودى وغيرهم على أن جميع من سلف من خلفاء بنى أمية وبنى العباس انما كانوا يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة فى المناطق والسيوف واللجم والسروج وأن أول خليفة أحدث الركوب بحلية الذهب هو المعتز بن المتوكل ثامن الخلفاء بعد الرشيد وهكذا كان حالهم أيضا فى ملابسهم فما ظنك بمشاربهم ويتبين ذلك بأتم من هذا اذا فهمت طبيعة الدولة فى أولها من البداوة والغضاضة كما نشرح فى مسائل الكتاب الاول ان شاء الله والله الهادى الى الصواب (ويناسب) هذا أو قريب منه ما ينقلونه كافة

عن يحيى بن أكثم قاضي المأمون وصاحبه وانه كان يعاقر المأمون الخمر وانه سكر ليلة مع شرب فدفن في الريحان حتى أفاق وينشدون على لسانه

ياسيدي وأمير الناس كلهم * قد جار في حكمه من كان يسقيني
اني غفلت عن الساقي فصيرني * كما تراني سليب العقل والدين

وحال ابن أكثم والمأمون في ذلك من حال الرشيد وشرابهم انما كان النبيذ ولم يكن محظورا عندهم وأما السكر فليس من شأنهم وصحابته للمأمون انما كانت خلة في الدين ولقد ثبت انه كان ينام معه في البيت ونقل من فضائل المأمون وحسن عشرته انه انتبه ذات ليلة عطشان فقام يتحسس ويلتمس الاناء مخافة أن يوقظ يحيى بن أكثم وثبت أنهما كانا يصليان الصبح جميعا فأين هذا من المعاقرة وأيضا فان يحيى ابن أكثم كان من علية أهل الحديث وقد أثنى عليه الامام أحمد بن حنبل واسمعيل القاضي وخرج عنه الترمذي كتابه الجامع وذكر المزني الحافظ أن البخاري روى عنه في غير الجامع فالقدح فيه قدح في جميعهم وكذلك ماينبزه المجان بالميل الى الغلمان بهتانا على الله وفرية على العلماء ويستندون في ذلك الى أخبار القصاص الواهية التي لعلها من افتراء أعدائه فانه كان محسودا في كماله وخلته للسلطان وكان مقامه من العلم والدين منزها عن مثل ذلك ولقد ذكر لابن حنبل مايرميه به الناس فقال سبحان الله سبحان الله ومن يقول هذا وأنكر ذلك انكارا شديدا وأثنى عليه اسمعيل القاضي فقيل له ماكان يقال فيه فقال معاذ الله أن تزول عدالة مثله بتكذب باغ وحاسد وقال أيضا يحيى بن أكثم أبرأ الى الله من أن يكون فيه شئ مما كان يرمى به من أمر الغلمان ولقد كنت أقف على سرائره فأجده شديد الخوف من الله لكنه كانت فيه دعابة وحسن خلق فرمي بما رمي به وذكره ابن حبان في الثقات وقال لايشتغل بما يحكى عنه لان أكثرها لايصح عنه (ومن أمثال هذه الحكايات) مانقله ابن عبد ربه صاحب العقد من حديث الزنبيل في سبب اصهار المأمون الى الحسن بن سهل في بنته بوران وأنه عثر في بعض الليالي في تطوافه بسكك بغداد في زنبيل مدلى من بعض السطوح بمعالق وجدل مغارة الفتل من الحرير فاقتعده وتناول المعالق فاهتزت وذهب به صعدا الى مجلس شأنه كذا ووصف من زينة فرشه وتنضيد أبنيته وجمال رؤيته مايستوقف الطرف ويملك النفس وأن امرأة برزت له من خلل الستور في ذلك المجلس رائقة الجمال فتانة المحاسن فحيته ودعته الى المنادمة فلم يزل يعاقرها الخمر حتى الصباح ورجع الى أصحابه بمكانهم من انتظاره وقد شغفته حبا بعثه على الاصهار الى أبيها وأين هذا كله من حال المأمون المعروفة في دينه وعلمه واقتفائه سنن الخلفاء

الراشدين من آبائه وأخذه بسير الخلفاء الاربعة أركان الملة ومناظرته للعلماء وحفظه
لحدود الله تعالى في صلواته وأحكامه فكيف تصح عنه أحوال الفساق المستهترين
في التطواف بالليل وطروق المنازل وغشيان السمر سبيل عشاق الاعراب وأين
ذلك من منصب ابنة الحسن بن سهل وشرفها وما كان بدار أبيها من الصون والعفاف
وأمثال هذه الحكايات كثيرة وفي كتب المؤرخين معروفة وانما يبعث على وضعها
والحديث بها الانهماك في اللذات المحرمة وهتك قناع المخدرات ويتعللون بالتأسي
بالقوم فيما يأتونه من طاعة لذاتهم فلذلك تراهم كثيرا ما يلهجون بأشباه هذه الاخبار
وينقرون عنها عند تصفحهم لاوراق الدواوين ولو ائتسوا بهم في غير هذا من
أحوالهم وصفات الكمال اللائقة بهم المشهورة عنهم لكان خيرا لهم لو كانوا يعلمون
ولقد عذلت يوما بعض الامراء من أبناء الملوك في كلفه بتعلم الغناء وولوعه بالاوتار
وقلت له ليس هذا من شأنك ولا يليق بمنصبك فقال لي أفلا ترى الى ابراهيم بن المهدي
كيف كان امام هذه الصناعة ورئيس المغنين في زمانه فقلت له يا سبحان الله وهلا
تأسيت بأبيه أو أخيه أوما رأيت كيف قعد ذلك بابراهيم عن مناصبهم فصم عن عذلي
وأعرض والله يهدي من يشاء (ومن الاخبار الواهية) ما يذهب اليه الكثير من
المؤرخين والاثبات في العبيديين خلفاء الشيعة بالقيروان والقاهرة من نفيهم عن
أهل البيت صلوات الله عليهم والطعن في نسبهم الى اسمعيل الامام ابن جعفر الصادق
يعتمدون في ذلك على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بني العباس تزلفا اليهم
بالقدح فيمن ناصبهم وتفننا في الشمات بعدوهم حسبما نذكر بعض هذه الاحاديث
في أخبارهم ويغفلون عن التفطن لشواهد الواقعات وأدلة الاحوال التي اقتضت
خلاف ذلك من تكذيب دعواهم والرد عليهم فانهم متفقون في حديثهم عن مبدا
دولة الشيعة ان أبا عبد الله المحتسب لما دعى بكتامة للرضى من آل محمد واشتهر خبره
وعلم تحويمه على عبيد الله المهدي وابنه أبي القاسم خشيا على أنفسهما فهربا من
المشرق محل الخلافة واجتازا بمصر وأنهما خرجا من الاسكندرية في زي التجار ونمى
خبرهما الى عيسى النوشري عامل مصر والاسكندرية فسرح في طلبهما الخيالة حتى
اذا أدركا خفي حالهما على تابعهما بما لبسوا به من الشارة والزي فأفلتوا الى المغرب
وأن المعتضد أوعز الى الاغالبة أمراء افريقية بالقيروان وبني مدرار أمراء سجلماسة
بأخذ الآفاق عليهما واذكاء العيون في طلبهما فعثر اليسع صاحب سجلماسة
من آل مدرار على خفي مكانهما ببلده واعتقلهما مرضاة للخليفة هذا قبل أن تظهر
الشيعة على الاغالبة بالقيروان ثم كان بعد ذلك ما كان من ظهور دعوتهم بالمغرب

وافريقية ثم باليمن ثم بالاسكندرية ثم بمصر والشام والحجاز وقاسموا بنى العباس فى ممالك الاسلام شق الابلمة وكادوا يلجون عليهم مواطنهم ويزايلون من أمرهم ولقد أظهر دعوتهم ببغداد وعراقها الامير البساسيرى من موالى الديلم المتغلبين على خلفاء بنى العباس فى مغاضبة جرت بينه وبين أمراء العجم وخطب لهم على منابرها حولا كاملا ومازال بنو العباس يغصون بمكانهم ودولتهم وملوك بنى أمية وراء البحر ينادون بالويل والحرب منهم وكيف يقع هذا كله لدعى فى النسب يكذب فى انتحال الامر واعتبر حال القرمطى اذ كان دعيا فى انتسابه كيف تلاشت دعوته وتفرقت أتباعه وظهر سريعا على خبثهم ومكرهم فساءت عاقبتهم وذاقوا وبال أمرهم ولو كان أمر العبيديين كذلك لعرف ولو بعد مهلة

ومهما تكن عند امرئ من خليقة ● وان خالها تخفى على الناس تعلم

فقد اتصلت دولتهم نحوا من مائتين وسبعين سنة وملكوا مقام ابراهيم عليه السلام ومصلاه وموطن الرسول صلى الله عليه وسلم ومدفنه وموقف الحجيج ومهبط الملائكة ثم انقرض أمرهم وشيعتهم فى ذلك كله على أتم ما كانوا عليه من الطاعة لهم والحب فيهم واعتقادهم بنسب الامام اسمعيل بن جعفر الصادق ولقد خرجوا مرارا بعد ذهاب الدولة ودروس أثرها داعين الى بدعتهم هاتفين بأسماء صبيان من أعقابهم يزعمون استحقاقهم للخلافة ويذهبون الى تعيينهم بالوصية ممن سلف قبلهم من الائمة ولو ارتابوا فى نسبهم لما ركبوا أعناق الاخطار فى الانتصار لهم فصاحب البدعة لا يلبس فى أمره ولا يشبه فى بدعته ولا يكذب نفسه فيما ينتحله (والعجب) من القاضى أبى بكر الباقلانى شيخ النظار من المتكلمين يجنح الى هذه المقالة المرجوحة ويرى هذا الرأى الضعيف فان كان ذلك لما كانوا عليه من الالحاد فى الدين والتعمق فى الرافضية فليس ذلك بدافع فى صدر دعوتهم وليس اثبات منتسبهم بالذى يغنى عنهم من الله شيأ فى كفرهم فقد قال تعالى لنوح عليه السلام فى شأن ابنه انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم وقال صلى الله عليه وسلم لفاطمة يعظها يا فاطمة اعملى فلن أغنى عنك من الله شيأ ومتى عرف امرؤ قضية أو استيقن أمرا وجب عليه أن يصدع به والله يقول الحق وهو يهدى السبيل والقوم كانوا فى مجال لظنون الدول بهم وتحت رقبة من الطغاة لتوفر شيعتهم وانتشارهم فى القاصية بدعوتهم وتكرر خروجهم مرة بعد أخرى فلاذت رجالاتهم بالاختفاء ولم يكادوا يعرفون كما قيل

فلو تسأل الايام ما اسمى ما درت ● وأين مكانى ما عرفن مكانيا

حتى لقد سمي محمد بن اسمعيل الامام جد عبيد الله المهدي بالمكتوم سمته بذلك شيعتهم لما تفقوا عليه من اخفائه حذرا من المتغلبين عليهم فتوصل شيعة بني العباس بذلك عند ظهورهم الى الطعن في نسبهم وازدلفوا بهذا الرأي الفائل للمستضعفين من خلفائهم وأعجب به أولياؤهم وأمراء دولتهم المتولون لحروبهم مع الاعداء يدفعون به عن أنفسهم وسلطانهم معرة العجز عن المقاومة والمدافعة لمن غلبهم على الشأم ومصر والحجاز من البربر الكتاميين شيعة العبيديين وأهل دعوتهم حتى لقد أسجل القضاة ببغداد بنفيهم عن هذا النسب وشهد بذلك عندهم من أعلام الناس جماعة منهم الشريف الرضي وأخوه المرتضى وابن البطحاوي ومن العلماء أبو حامد الاسفرايني والقدوري والصيمري وابن الاكفاني والابيوردي وأبو عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة وغيرهم من أعلام الامة ببغداد في يوم مشهود وذلك سنة ستين وأربعمائة في أيام القادر وكانت شهادتهم في ذلك على السماع لما اشتهر وعرف بين الناس ببغداد وغالبها شيعة بني العباس الطاعنون في هذا النسب فنقله الاخباريون كما سمعوه ورووه حسبما وعوه والحق من ورائه وفي كتاب المعتضد في شأن عبيد الله الى ابن الاغلب بالقيروان وابن مدرار بسجلماسة أصدق شاهد وأوضح دليل على صحة نسبهم فالمعتضد أقعد بنسب أهل البيت من كل أحد والدولة والسلطان سوق للعالم تجلب اليه بضائع العلوم والصنائع وتلتمس فيه ضوال الحكم وتحدى اليه ركائب الروايات والاخبار وما نفق فيها نفق عند الكافة فان تنزهت الدولة عن التعسف والميل والافن والسفسفة وسلكت النهج الامم ولم تجر عن قصد السبيل نفق في سوقها الابريز الخالص واللجين المصفى وان ذهبت مع الاغراض والحقود وماجت بسماسرة البغي والباطل نفق البهرج والزائف والناقد البصير قسطاس نظره وميزان بحثه وملتمسه (ومثل هذا) وأبعد منه كثيرا ما يتناجى به الطاعنون في نسب ادريس بن ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين الامام بعد أبيه بالمغرب الاقصى ويعرضون تعريض الحد بالتظنن في الحمل المخلف عن ادريس الاكبر أنه لراشد مولاهم قبحهم الله وأبعدهم ما أجهلهم أما يعلمون أن ادريس الاكبر كان أصهاره في البربر وأنه منذ دخل المغرب الى أن توفاه الله عز وجل عريق في البدو وأن حال البادية في مثل ذلك غير خافية اذ لا مكامن لهم يتأتى فيها الريب وأحوال حرمهم أجمعين بمرأى من جاراتهن ومسمع من جيرانهن لتلاصق الجدران وتطامن البنيان وعدم الفواصل بين المساكن وقد كان راشد يتولى خدمة الحرم أجمع من بعد مولاه بمشهد من أوليائهم وشيعتهم ومراقبة من كافتهم وقد اتفق برابرة المغرب

الاقصى عامة على بيعة ادريس الاصغر من بعد أبيه وآتوه طاعتهم عن رضا واصفاق وبايعوه على الموت الاحمر وخاضوا دونه بحار المنايا في حروبه وغزواته ولو حدثوا أنفسهم بمثل هذه الريبة أو قرعت أسماعهم ولو من عدو كاشح أو منافق مرتاب لتخلف عن ذلك ولو بعضهم كلا والله انما صدرت هذه الكلمات من بني العباس أقتالهم ومن بني الاغلب عمالهم كانوا بافريقية وولاتهم وذلك انه لما فر ادريس الاكبر الى المغرب بين وقعة فخ أوعز الهادي الى الاغالبة أن يقعدوا له بالمراصد ويذكوا عليه العيون فلم يظفروا به وخلص الى المغرب فتم أمره وظهرت دعوته وظهر الرشيد من بعد ذلك على ما كان من واضح مولاهم وعاملهم على الاسكندرية من دسيسة التشيع للعلوية وادهانه في نجاة ادريس الى المغرب فقتله ودس الشماخ من موالي المهدي أبيه للتحيل على قتل ادريس فأظهر اللحاق به والبراءة من بني العباس مواليه فاشتمل عليه ادريس وخلطه بنفسه وناوله الشماخ في بعض خلواته سما استهلكه به ووقع خبر مهلكه من بني العباس أحسن المواقع لما رجوه من قطع أسباب الدعوة العلوية بالمغرب واقتلاع جرثومتها ولما تأدى اليهم خبر الحمل المخلف لادريس فلم يكن لهم الا كلا ولا واذا بالدعوة قد عادت والشيعة بالمغرب قد ظهرت ودولتهم بادريس بن ادريس قد تجددت فكان ذلك عليهم أنكى من وقع السهام وكان الفشل والهرم قد نزل بدولة العرب عن أن يسموا الى القاصية فلم يكن منتهى قدرة الرشيد على ادريس الاكبر بمكانه من قاصية المغرب واشتمال البربر عليه الا التحيل في اهلاكه بالسموم فعند ذلك فزعوا الى أوليائهم من الاغالبة بافريقية في سد تلك الفرجة من ناحيتهم وحسم الداء المتوقع بالدولة من قبلهم واقتلاع تلك العروق قبل أن تشج منهم يخاطبهم بذلك المأمون ومن بعده من خلفائهم فكان الاغالبة عن برابرة المغرب الاقصى أعجز ولمثلها من الزبون على ملوكهم أحوج لما طرق الخلافة من انتزاء مماليك العجم على سدتها واستطالتهم صهوة التغلب عليها وتصريفهم أحكامها طوع أغراضهم في رجالها وجبايتها وأهل خططها وسائر نقضها وابرامها كما قال شاعرهم

خليفة في قفص * بين وصيف وبغا

يقول ما قالا له * كما تقول الببغا

فخشي هؤلاء الامراء الاغالبة بوادر السعايات وتلوا بالمعاذير فطورا باحتقار المغرب وأهله وطورا بالارهاب بشأن ادريس الخارج به ومن قام مقامه من أعقابه يخاطبونهم بتجاوزه حدود التخوم من عمله وينفذون سكته في تحفهم وهداياهم

ومن تقع جباياتهم تعريضا باستعماله وتهويلا باشتداد شوكته وتعظيما لما دفعوا اليه من مطالبته ومراسه وتهديدا بقلب الدعوة ان ألجؤا اليه وطورا يطعنون فى نسب ادريس بمثل ذلك الطعن الكاذب تخفيضا لشأنه لا يبالون بصدقه من كذبه لبعد المسافة وأفن عقول من خلفهم من صبية بنى العباس ومماليكهم العجم فى القبول من كل قائل والسمع لكل ناعق ولم يزل هذا دأبهم حتى انقضى أمر الاغالبة فقرعت هذه الكلمة الشنعاء أسماع الغوغاء وصر عليها بعض الطاعنين أذنه واعتدها ذريعة الى النيل من خلفهم عند المنافسة وما لهم قبحهم الله والعدول عن مقاصد الشريعة فلا تعارض فيها بين المقطوع والمظنون وادريس ولد على فراش أبيه والولد للفراش على أن تنزيه أهل البيت عن مثل هذا من عقائد أهل الايمان فالله سبحانه قد أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ففراش ادريس طاهر من الدنس ومنزه عن الرجس بحكم القرآن ومن اعتقد خلاف هذا فقد باء باثمه وولج الكفر من بابه وانما أطنبت فى هذا الرد سدا لابواب الريب ودفعا فى صدر الحاسد لما سمعته اذناى من قائله المعتدى عليهم به القادح فى نسبهم بفريته وينقله بزعمه عن بعض مؤرخى المغرب ممن انحرف عن أهل البيت وارتاب فى الايمان بسلفهم والا فالمحل منزه عن ذلك معصوم منه ونفى العيب حيث يستحيل العيب عيب لكنى جادلت عنهم فى الحياة الدنيا وأرجو أن يجادلوا عنى يوم القيامة (ولنعلم) أن أكثر الطاعنين فى نسبهم انما هم الحسدة لاعقاب ادريس هذا من منتم الى أهل البيت أو دخيل فيهم فان ادعاء هذا النسب الكريم دعوى شرف عريض على الامم والاجيال من أهل الآفاق فتعرض التهمة فيه ولما كان نسب بنى ادريس هؤلاء بمواطنهم من فاس وسائر ديار المغرب قد بلغ من الشهرة والوضوح مبلغا لا يكاد يلحق ولا يطمع أحد فى دركه اذ هو نقل الامة والجيل من الخلف عن الامة والجيل من السلف وبيت جدهم ادريس مختط فاس ومؤسسها بين بيوتهم ومسجده لصق محلتهم ودروبهم وسيفه منتضى برأس المأذنة العظمى من قرار بلدهم وغير ذلك من آثاره التى جاوزت أخبارها حدود التواتر مرات وكادت تلحق بالعيان فاذا نظر غيرهم من أهل هذا النسب الى ما آتاهم الله من أمثالها وما عضد شرفهم النبوى من جلال الملك الذى كان لسلفهم بالمغرب واستيقن أنه بمعزل عن ذلك وأنه لا يبلغ مد أحدهم ولا نصيفه وأن غاية أمر المنتمين الى البيت الكريم ممن لم يحصل له أمثال هذه الشواهد أن يسلم لهم حالهم لان الناس مصدقون فى أنسابهم وبون ما بين العلم والظن واليقين والتسليم فاذا علم ذلك من نفسه غص بريقه وود كثير منهم لو يردونهم عن شرفهم ذلك سوقة ووضعاء حسدا من عند أنفسهم

يرجعون الى العناد وارتكاب اللجاج والبهت بمثل هذا الطعن الفائل والقول المكذوب تعللا بالمساواة في الظنة والمشابهة في تطرق الاحتمال وهيهات لهم ذلك ليس في المغرب فيما نعلمه من أهل هذا البيت الكريم من يبلغ في صراحة نسبه ووضوحه مبالغ أعقاب ادريس هذا من آل الحسن وكبراؤهم لهذا العهد بنو عمران بفاس من ولد يحيى الجوطي بن محمد بن يحيى العوام بن القاسم بن ادريس ابن ادريس وهم نقباء أهل البيت هنالك والساكنون ببيت جدهم ادريس ولهم السيادة على أهل المغرب كافة حسبما نذكرهم عند ذكر الادارسة ان شاء الله تعالى (ويلحق) بهذه المقالات الفاسدة والمذاهب الفائلة ما يتناوله ضعفة الرأي من فقهاء المغرب من القدح في الامام المهدي صاحب دولة الموحدين ونسبته الى الشعوذة والتلبيس فيما أتاه من القيام بالتوحيد الحق والنعي على أهل البغي قبله وتكذيبهم لجميع مدعياته في ذلك حتى فيما يزعم الموحدون اتباعه من انتسابه في أهل البيت وانما حمل الفقهاء على تكذيبه ما كمن في نفوسهم من حسده على شأنه فانهم لما رأوا من أنفسهم مناهضته في العلم والفتيا وفي الدين بزعمهم ثم امتاز عنهم بأنه متبوع الرأي مسموع القول موطأ العقب نفسوا ذلك عليه وغضوا منه بالقدح في مذاهبه والتكذيب لمدعياته وأيضا فكانوا يؤنسون من ملوك لمتونة أعدائه تجلة وكرامة لم تكن لهم من غيرهم لما كانوا عليه من السذاجة وانتحال الديانة فكان لحملة العلم بدولتهم مكان من الوجاهة والانتصاب للشورى كل في بلده وعلى قدره في قومه فأصبحوا بذلك شيعة لهم وحربا لعدوهم ونقموا على المهدي ما جاء به من خلافهم والتثريب عليهم والمناصبة لهم تشيعا للمتونة وتعصبا لدولتهم ومكان الرجل غير مكانهم وحاله على غير معتقداتهم وما ظنك برجل نقم على أهل الدولة ما نقم من أحوالهم وخالف اجتهاده فقهاءهم فنادى في قومه ودعا الى جهادهم بنفسه فاقتلع الدولة من أصولها وجعل عاليها سافلها أعظم ما كانت قوة وأشد شوكة وأعز أنصارا وحامية وتساقطت في ذلك من أتباعه نفوس لا يحصيها الا خالقها قد بايعوه على الموت ووقوه بأنفسهم من الهلكة وتقربوا الى الله تعالى باتلاف مهجهم في اظهار تلك الدعوة والتعصب لتلك الكلمة حتى علت على الكلم ودالت بالعدوتين من الدول وهو بحالة من التقشف والحصر والصبر على المكاره والتقلل من الدنيا حتى قبضه الله وليس على شيء من الحظ والمتاع في دنياه حتى الولد الذي ربما تجنح اليه النفوس وتخادع عن تمنيه فليت شعري ما الذي قصد بذلك ان لم يكن وجه الله وهو لم يحصل له حظ من الدنيا في عاجله ومع هذا فلو كان قصده غير صالح لما تم أمره وانفسحت دعوته سنة الله

التي قد خلت في عباده (وأما) انكارهم نسبه في أهل البيت فلا تعضده حجة لهم مع انه ان ثبت أنه ادّعاه وانتسب اليه فلا دليل يقوم على بطلانه لان الناس مصدّقون في أنسابهم وان قالوا ان الرياسة لا تكون على قوم في غير أهل جلدتهم كما هو الصحيح حسبما يأتي في الفصل الاول من هذا الكتاب والرجل قد رأس سائر المصامدة ودانوا باتباعه والانقياد اليه والى عصابته من هرغة حتى تم أمر الله في دعوته فاعلم أن هذا النسب الفاطمي لم يكن أمر المهدي يتوقف عليه ولا اتبعه الناس بسببه وانما كان اتباعهم له بعصبية الهرغية والمصمودية ومكانه منها ورسوخ شجرته فيها وكان ذلك النسب الفاطمي خفيا قد درس عند الناس وبقي عنده وعند عشيرته يتناقلونه بينهم فيكون النسب الاول كانه انسلخ منه ولبس جلدة هؤلاء وظهر فيها فلا يضره الانتساب الاول في عصبيته اذ هو مجهول عند أهل العصابة ومثل هذا واقع كثيرا اذ كان النسب الاول خفيا (وانظر) قصة عرفجة وجرير في رياسة بجيلة وكيف كان عرفجة من الازد ولبس جلدة بجيلة حتى تنازع مع جرير رياستهم عند عمر رضي الله عنه كما هو مذكور تتفهم منه وجه الحق والله الهادي للصواب (وقد) كدنا أن نخرج عن غرض الكتاب بالاطناب في هذه المغالط فقد زلت أقدام كثير من الاثبات والمؤرخين الحفاظ في مثل هذه الاحاديث والآراء وعلقت بأفكارهم ونقلها عنهم الكافة من ضعفة النظر والغفلة عن القياس وتلقوها هم أيضا كذلك من غير بحث ولا روية واندرجت في محفوظاتهم حتى صار فن التاريخ واهيا مختلطا وناظره مرتبكا وعد من مناحي العامة فاذا يحتاج صاحب هذا الفن الى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الامم والبقاع والاعصار في السير والاخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الاحوال والاحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو بون ما بينهما من الخلاف وتعليل المتفق منها والمختلف والقيام على أصول الدول والملل ومبادي ظهورها وأسباب حدوثها ودواعي كونها وأحوال القائمين بها وأخبارهم حتى يكون مستوعبا لاسباب كل حادث واقفا على أصول كل خبر وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والاصول فان وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا والا زيفه واستغنى عنه وما استكبر القدماء علم التاريخ الا لذلك حتى انتحله الطبري والبخاري وابن اسحق من قبلهما وأمثالهم من علماء الامة وقد ذهل الكثير عن هذا السر فيه حتى صار انتحاله مجهلة واستخف العوام ومن لا رسوخ له في المعارف مطالعته وحمله والخوض فيه والتطفل عليه فاختلط المرعي بالهمل واللباب بالقشر والصادق بالكاذب والى الله عاقبة الامور

(ومن الغلط) الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الاحوال في الامم والاجيال بتبدل الاعصار ومرور الايام وهو داء دوي شديد الخفاء اذ لا يقع الا بعد أحقاب متطاولة فلا يكاد يتفطن له الا الآحاد من أهل الخليقة (وذلك) ان أحوال العالم والامم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر انما هو اختلاف على الايام والازمنة وانتقال من حال الى حال وكما يكون ذلك في الاشخاص والاوقات والامصار فكذلك يقع في الآفاق والاقطار والازمنة والدول سنة الله التي قد خلت في عباده وقد كانت في العالم أمم الفرس الاولى والسريانيون والنبط والتبابعة وبنو اسرائيل والقبط وكانوا على أحوال خاصة بهم في دولهم وممالكهم وسياستهم وصنائعهم ولغاتهم واصطلاحاتهم وسائر مشاركاتهم مع أبناء جنسهم وأحوال اعتمارهم للعالم تشهد بها آثارهم ثم جاء من بعدهم الفرس الثانية والروم والعرب فتبدلت تلك الاحوال وانقلبت بها العوائد الى ما يجانسها أو يشابهها والى ما يباينها أو يباعدها ثم جاء الاسلام بدولة مضر فانقلبت تلك الاحوال أجمع انقلابة أخرى وصارت الى ما أكثره متعارف لهذا العهد يأخذه الخلف عن السلف ثم درست دولة العرب وأيامهم وذهبت الاسلاف الذين شيدوا عزهم ومهدوا ملكهم وصار الامر في أيدي سواهم من العجم مثل الترك بالمشرق والبربر بالمغرب والفرنجة بالشمال فذهبت بذهابهم أمم وانقلبت أحوال وعوائد نسي شأنها واغفل أمرها (والسبب) الشائع في تبدل الاحوال والعوائد أن عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه كما يقال في الامثال الحكمية الناس على دين الملك وأهل الملك والسلطان اذا استولوا على الدولة والامر فلا بد وأن يفزعوا الى عوائد من قبلهم ويأخذوا الكثير منها ولا يغفلوا عوائد جيلهم مع ذلك فيقع في عوائد الدولة بعض المخالفة لعوائد الجيل الاول فاذا جاءت دولة أخرى من بعدهم ومزجت من عوائدهم وعوائدها خالفت أيضا بعض الشيء وكانت للاولى أشد مخالفة ثم لا يزال التدريج في المخالفة حتى ينتهي الى المباينة بالجملة فما دامت الامم والاجيال تتعاقب في الملك والسلطان لا تزال المخالفة في العوائد والاحوال واقعة والقياس والمحاكاة للانسان طبيعة معروفة ومن الغلط غير مأمونة تخرجه مع الذهول والغفلة عن قصده وتعوج به عن مرامه فربما يسمع السامع كثيرا من أخبار الماضين ولا يتفطن لما وقع من تغير الاحوال وانقلابها فيجريها لأول وهلة على ما عرف ويقيسها بما شهد وقد يكون الفرق بينهما كثيرا فيقع في مهواة من الغلط (فمن هذا الباب) ما ينقله المؤرخون من أحوال الحجاج وأن أباه كان من المعلمين مع أن التعليم لهذا العهد من جملة الصنائع

المعاشية البعيدة من اعتزاز أهل العصبية والمعلم مستضعف مسكين منقطع الجذم فيتشوف الكثير من المستضعفين اهل الحرف والصنائع المعاشية الى نيل الرتب التى ليسوا لها بأهل ويعدونها من الممكنات لهم فتذهب بهم وساوس المطامع وربما انقطع حبلها من أيديهم فسقطوا فى مهواة الهلكة والتلف ولا يعلمون استحالتها فى حقهم وأنهم أهل حرف وصنائع للمعاش وأن التعليم صدر الاسلام والدولتين لم يكن كذلك ولم يكن العلم بالجملة صناعة انما كان نقلا لما سمع من الشارع وتعليما لما جهل من الدين على جهة البلاغ فكان أهل الانساب والعصبية الذين قاموا بالملة هم الذين يعلمون كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم على معنى التبليغ الخبرى لا على وجه التعليم الصناعى اذ هو كتابهم المنزل على الرسول منهم وبه هدايتهم والاسلام دينهم قاتلوا عليه وقتلوا واختصوا به من بين الامم وشرفوا فيحرصون على تبليغ ذلك وتفهيمه للامة لا تصدهم عنه لائمة الكبر ولا يزعهم عاذل الانفة ويشهد لذلك بعث النبى صلى الله عليه وسلم كبار أصحابه مع وفود العرب يعلمونهم حدود الاسلام وما جاء به من شرائع الدين بعث فى ذلك من أصحابه العشرة فمن بعدهم فلما استقر الاسلام ووشجت عروق الملة حتى تناولها الامم البعيدة من أيدى أهلها واستحالت بمرور الايام أحوالها وكثر استنباط الاحكام الشرعية من النصوص لتعدد الوقائع وتلاحقها فاحتاج ذلك لقانون يحفظه من الخطا وصار العلم ملكة يحتاج الى التعلم فأصبح من جملة الصنائع والحرف كما يأتى ذكره فى فصل العلم والتعليم واشتغل أهل العصبية بالقيام بالملك والسلطان فدفع للعلم من قام به من سواهم وأصبح حرفة للمعاش وشمخت أنوف المترفين وأهل السلطان عن التصدى للتعليم واختص انتحاله بالمستضعفين وصار منتحله محتقرا عند أهل العصبية والملك والحجاج بن يوسف كان أبوه من سادات ثقيف وأشرافهم ومكانهم من عصبية العرب ومناهضة قريش فى الشرف ماعلمت ولم يكن تعليمه للقرآن على ماهو الامر عليه لهذا العهد من أنه حرفة للمعاش وانما كان على ماوصفناه من الامر الاول فى الاسلام (ومن هذا الباب) أيضا مايتوهمه المتصفحون لكتب التاريخ اذا سمعوا أحوال القضاة وما كانوا عليه من الرياسة فى الحروب وقود العساكر فتترامى بهم وساوس الهمم الى مثل تلك الرتب يحسبون أن الشان فى خطة القضاء لهذا العهد على ما كان عليه من قبل ويظنون بابن أبى عامر صاحب هشام المستبد عليه وابن عباد من ملوك الطوائف باشبيلية اذا سمعوا أن آباءهم كانوا قضاة أنهم مثل القضاة لهذا العهد ولا يتفطنون لما وقع فى رتبة القضاء من مخالفة العوائد كما نبينه فى فصل القضاء من الكتاب الاول

وابن أبي عامر وابن عباد كانا من قبائل العرب القائمين بالدولة الاموية بالاندلس وأهل عصبيتها وكان مكانهم فيها معلوما ولم يكن نيلهم لما نالوه من الرياسة والملك بخطة القضاء كما هي لهذا العهد بل انما كان القضاء في الامر القديم لاهل العصبية من قبيل الدولة ومواليها كما هي الوزارة لعهدنا بالمغرب وانظر خروجهم بالعساكر في الطوائف وتقليدهم عظائم الامور التي لا تقلد الا لمن له الغنى فيها بالعصبية فيغلط السامع في ذلك ويحمل الاحوال على غير ماهي وأكثر مايقع في هذا الغلط ضعفاء البصائر من أهل الاندلس لهذا العهد لفقدان العصبية في مواطنهم منذ أعصار بعيدة لفناء العرب ودولتهم بها وخروجهم عن ملكة أهل العصبيات من البربر فبقيت أنسابهم العربية محفوظة والذريعة الى العز من العصبية والتناصر مفقودة بل صاروا من جملة الرعايا المتخاذلين الذين تعبدهم القهر ورئموا للمذلة يحسبون ان أنسابهم مع مخالطة الدولة هي التي يكون لهم بها الغلب والتحكم فتجد أهل الحرف والصنائع منهم متصدين لذلك ساعين في نيله فأما من باشر أحوال القبائل والعصبية ودولهم بالعدوة الغربية وكيف يكون التغلب بين الامم والعشائر فقلما يغلطون في ذلك ويخطئون في اعتباره (ومن هذا الباب) أيضا مايسلكه المؤرخون عند ذكر الدول ونسق ملوكها فيذكرون اسمه ونسبه وأباه وأمه ونساءه ولقبه وخاتمه وقاضيه وحاجبه ووزيره كل ذلك تقليد لمؤرخي الدولتين من غير تفطن لمقاصدهم والمؤرخون لذلك العهد كانوا يضعون تواريخهم لاهل الدولة وأبناؤها متشوفون الى سير أسلافهم ومعرفة أحوالهم ليقتفوا آثارهم وينسجوا على منوالهم حتى في اصطناع الرجال من خلف دولتهم وتقليد الخطط والمراتب لأبناء صنائعهم وذويهم والقضاة أيضا كانوا من أهل عصبية الدولة وفي عداد الوزراء كما ذكرناه لك فيحتاجون الى ذكر ذلك كله وأما حين تباينت الدول وتباعد ما بين العصور ووقف الغرض على معرفة الملوك بأنفسهم خاصة ونسب الدول بعضها من بعض في قوتها وغلبتها ومن كان يناهضها من الامم أو يقصر عنها فما الفائدة للمصنف في هذا العهد في ذكر الابناء والنساء ونقش الخاتم واللقب والقاضي والوزير والحاجب من دولة قديمة لا يعرف فيها أصولهم ولا أنسابهم ولا مقاماتهم انما حملهم على ذلك التقليد والغفلة عن مقاصد المؤلفين الاقدمين والذهول عن تحري الاغراض من التاريخ اللهم الا ذكر الوزراء الذين عظمت آثارهم وعفت على الملوك أخبارهم كالحجاج وبني المهلب والبرامكة وبني سهل بن نوبخت وكافور الاخشيدي وابن أبي عامر وأمثالهم فغير نكير الالماع بآبائهم والاشارة الى أحوالهم لانتظامهم في عداد الملوك (ولنذكر) هنا فائدة نختم كلامنا في هذا الفصل بها وهي أن التاريخ انما هو ذكر

الاخبار الخاصة بعصر أو جيل (فاما) ذكر الاحوال العامة للآفاق والاجيال والاعصار فهو أس للمؤرخ تنبني عليه أكثر مقاصده وتتبين به أخباره وقد كان الناس يفردونه بالتاليف كما فعله المسعودي في كتاب مروج الذهب شرح فيه أحوال الامم والآفاق لعهده في عصر الثلاثين والثلثمائة غربا وشرقا وذكر نحلهم وعوائدهم ووصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول وفرق شعوب العرب والعجم فصار اماما للمؤرخين يرجعون اليه وأصلا يعولون في تحقيق الكثير من أخبارهم عليه ثم جاء البكري من بعده ففعل مثل ذلك في المسالك والممالك خاصة دون غيرها من الاحوال لان الامم والاجيال لعهده لم يقع فيها كثير انتقال ولا عظيم تغير وأما لهذا العهد وهو آخر المائة الثامنة فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه وتبدلت بالجملة واعتاض من أجيال البربر أهله على القدم بمن طرأ فيه من لدن المائة الخامسة من أجيال العرب بما كسروهم وغلبوهم وانتزعوا منهم عامة الاوطان وشاركوهم فيما بقي من البلدان لملكهم هذا الى ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف الامم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها فقلص من ظلالها وفل من حدها وأوهن من سلطانها وتداعت الى التلاشي والاضمحلال أحوالها وانتقص عمران الارض بانتقاص البشر فخربت الامصار والمصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبته ومقدار عمرانه وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالاجابة والله وارث الارض ومن عليها واذا تبدلت الاحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها والعوائد والنحل التي تبدلت لاهلها ويقفو مسلك المسعودي لعصره ليكون أصلا يقتدي به من يأتي من المؤرخين من بعده (وأنا ذاكر في كتابي) هذا ما أمكنني منه في هذا القطر المغربي اما صريحا أو مندرجا في أخباره وتلويحا لاختصاص قصدي في التأليف بالمغرب وأحوال أجياله وأممه وذكر ممالكه ودوله دون ما سواه من الاقطار لعدم اطلاعي على أحوال المشرق وأممه وان الاخبار المتناقلة لا توفي كنه ما أريده منه والمسعودي انما استوفى ذلك لبعد رحلته وتقلبه في البلاد كما ذكر في كتابه مع أنه لما ذكر المغرب قصر في استيفاء أحواله وفوق كل ذي علم عليم ومرد العلم كله الى الله والبشر عاجز قاصر والاعتراف متعين واجب ومن

فكان الله فى عونه تيسرت عليه المذاهب وأنجحت له المساعى والمطالب (ونحن) آخذون بعون الله فيما رمناه من أغراض التأليف والله المسدد والمعين وعليه التكلان (وقد) بقى علينا أن نقدم مقدمة فى كيفية وضع الحروف التى ليست من لغات العرب اذا عرضت فى كتابنا هذا (اعلم) أن الحروف فى النطق كما يأتى شرحه بعد هى كيفيات الاصوات الخارجة من الحنجرة تعرض من تقطيع الصوت بقرع اللهات وأطراف اللسان مع الحنك والحلق والاضراس أو بقرع الشفتين أيضا فتتغاير كيفيات الاصوات بتغاير ذلك القرع وتجىء الحروف متمايزة فى السمع وتتركب منها الكلمات الدالة على ما فى الضمائر وليست الأمم كلها متساوية فى النطق بتلك الحروف فقد يكون لأمة من الحروف ما ليس لأمة أخرى والحروف التى نطقت بها العرب هى ثمانية وعشرون حرفا كما عرفت ونجد للعبرانيين حروفا ليست فى لغتنا وفى لغتنا أيضا حروف ليست فى لغتهم وكذلك الافرنج والترك والبربر وغير هؤلاء من العجم ثم ان اهل الكتاب من العرب اصطلحوا فى الدلالة على حروفهم المسموعة بأوضاع حروف مكتوبة متميزة بأشخاصها كوضع ألف وباء وجيم وراء وطاء الى آخر الثمانية والعشرين واذا عرض لهم الحرف الذى ليس من حروف لغتهم بقى مهملا عن الدلالة الكتابية مغفلا عن البيان وربما يرسمه بعض الكتاب بشكل الحرف الذى يليه من لغتنا قبله أو بعده وليس ذلك بكاف فى الدلالة بل هو تغيير للحرف من أصله (ولما) كان كتابنا مشتملا على أخبار البربر وبعض العجم وكانت تعرض لنا فى أسمائهم أو بعض كلماتهم حروف ليست من لغة كتابتنا ولا اصطلاح أوضاعنا اضطررنا الى بيانه ولم نكتف برسم الحرف الذى يليه كما قلناه لانه عندنا غير واف بالدلالة عليه فاصطلحت فى كتابى هذا على أن أضع ذلك الحرف العجمى بما يدل على الحرفين اللذين يكتنفانه ليتوسط القارئ بالنطق به بين مخرجى ذينك الحرفين فتحصل تأديته وانما اقتبست ذلك من رسم أهل المصحف حروف الاشمام كالصراط فى قراءة خلف فان النطق بصاده فيها معجم متوسط بين الصاد والزاى فوضعوا الصاد ورسموا فى داخلها شكل الزاى ودل ذلك عندهم على التوسط بين الحرفين فكذلك رسمت أنا كل حرف يتوسط بين حرفين من حروفنا كالكاف المتوسطة عند البربر بين الكاف الصريحة عندنا والجيم أو القاف مثل اسم بلكين فأضعها كافا وأنقطها بنقطة الجيم واحدة من أسفل أو بنقطة القاف واحدة من فوق أو ثنتين فيدل ذلك على انه متوسط بين الكاف والجيم أو القاف وهذا الحرف أكثر ما يجىء فى لغة البربر وما جاء من غيره فعلى هذا القياس أضع الحرف المتوسط بين حرفين من لغتنا بالحرفين معا ليعلم

القارئ أنه متوسط فينطق به كذلك فيكون قد دللنا عليه ولو وضعناه برسم الحرف الواحد عن جانبيه لكنا قد صرفناه من مخرجه الى مخرج الحرف الذى من لغتنا وغيرنا لغة القوم فاعلم ذلك والله الموفق للصواب بمنه وفضله

الكتاب الاول فى طبيعة العمران فى الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والاسباب

(اعلم) أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الانسانى الذى هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث فى ذلك العمران بطبيعته من الاحوال (ولما كان) الكذب متطرقا للخبر بطبيعته وله أسباب تقتضيه فمنها التشيعات للآراء والمذاهب فان النفس اذا كانت على حال الاعتدال فى قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر حتى تتبين صدقه من كذبه واذا خامرها تشيع لرأى أو نحلة قبلت ما يوافقه من الاخبار لأول وهلة وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فتقع فى قبول الكذب ونقله (ومن الاسباب) المقتضية للكذب فى الاخبار أيضا الثقة بالناقلين وتمحيص ذلك يرجع الى التعديل والتجريح (ومنها) الذهول عن المقاصد فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع وينقل الخبر على ما فى ظنه وتخمينه فيقع فى الكذب (ومنها) توهم الصدق وهو كثير وانما يجيء فى الاكثر من جهة الثقة بالناقلين (ومنها) الجهل بتطبيق الاحوال على الوقائع لاجل ما يداخلها من التلبيس والتصنع فينقلها المخبر كما رآها وهى بالتصنع على غير الحق فى نفسه (ومنها) تقرب الناس فى الاكثر لاصحاب التجلة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الاحوال واشاعة الذكر بذلك فيستفيض الاخبار بها على غير حقيقة فالنفوس مولعة بحب الثناء والناس متطلعون الى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة وليسوا فى الاكثر براغبين فى الفضائل ولا متنافسين فى أهلها (ومن الاسباب) المقتضية له أيضا وهى سابقة على جميع ما تقدم الجهل بطبائع الاحوال فى العمران فان كل حادث من الحوادث ذاتا كان أو فعلا لا بد له من طبيعة تخصه فى ذاته وفيما يعرض له من أحواله فاذا كان السامع عارفا بطبائع الحوادث والاحوال فى الوجود ومقتضياتها أعانه ذلك فى تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب وهذا

أبلغ فى التمحيص من كل وجه يعرض وكثيرا ما يعرض للسامعين قبول الاخبار المستحيلة وينقلونها وتؤثر عنهم كما نقله المسعودى عن الاسكندر لما صدته دواب البحر عن بناء الاسكندرية وكيف اتخذ تابوت الخشب وفى باطنه صندوق الزجاج وغاص فيه الى قعر البحر حتى كتب صور تلك الدواب الشيطانية التى رآها وعمل تماثيلها من أجساد معدنية ونصبها حذاء البنيان ففرت تلك الدواب حين خرجت وعاينتها وتم له بناؤها فى حكاية طويلة من أحاديث خرافة مستحيلة من قبل اتخاذه التابوت الزجاجى ومصادمة البحر وأمواجه بجرمه ومن قبل ان الملوك لا تحمل أنفسها على مثل هذا الغرر ومن اعتمده منهم فقد عرض نفسه للهلكة وانتقاض العقدة واجتماع الناس الى غيره وفى ذلك اتلافه ولا ينتظرون به رجوعه من غروره ذلك طرفة عين ومن قبل ان الجن لا يعرف لها صور ولا تماثيل تختص بها انما هى قادرة على التشكل وما يذكر من كثرة الرؤس لها فانما المراد به البشاعة والتهويل لا أنه حقيقة (وهذه) كلها قادحة فى تلك الحكاية والقادح المحيل لها من طريق الوجود أبين من هذا كله وهو ان المنغمس فى الماء ولو كان فى الصندوق يضيق عليه الهواء للتنفس الطبيعى وتسخن روحه بسرعة تقلبه فيفقد صاحبه الهواء البارد المعدل لمزاج الرئة والروح القلبى ويهلك مكانه وهذا هو السبب فى هلاك أهل الحمامات اذا أطبقت عليهم عن الهواء البارد والمتدلين فى الآبار والمطامير العميقة المهوى اذا سخن هواؤها بالعفونة ولم تداخلها الرياح فتخلخلها فان المتدلى فيها يهلك لحينه وبهذا السبب يكون موت الحوت اذا فارق البحر فان الهواء لا يكفيه فى تعديل رئته اذ هو حار بافراط والماء الذى يعدله بارد والهواء الذى خرج اليه حار فيستولى الحار على روحه الحيوانى ويهلك دفعة ومنه هلاك المصعوقين وأمثال ذلك (ومن الاخبار) المستحيلة ما نقله المسعودى أيضا فى تمثال الزرزور الذى برومة تجتمع اليه الزرازير فى يوم معلوم من السنة حاملة الزيتون ومنه يتخذون زيتهم وانظر ما أبعد ذلك عن المجرى الطبيعى فى اتخاذ الزيت (ومنها) ما نقله البكرى فى بناء المدينة المسماة ذات الابواب تحيط بأكثر من ثلاثين مرحلة وتشتمل على عشرة آلاف باب والمدن انما اتخذت للتحصن والاعتصام كما يأتى وهذه خرجت عن ان يحاط بها فلا يكون فيها حصن ولا معتصم وكما نقله المسعودى أيضا فى حديث مدينة النحاس وانها مدينة كل بنائها نحاس بصحراء سجلماسة ظفر بها موسى بن نصير فى غزوته الى المغرب وانها مغلقة الابواب وان الصاعد اليها من أسوارها اذا أشرف على الحائط صفق ورمى بنفسه فلا يرجع آخر الدهر فى حديث مستحيل عادة من خرافات القصاص وصحراء سجلماسة قد نفضها

الركاب والادلاء ولم يقفوا لهذه المدينة على خبر ثم ان هذه الاحوال التي ذكروا عنها كلها مستحيل عادة مناف للامور الطبيعية في بناء المدن واختطاطها وان المعادن غاية الموجود منها أن يصرف في الآنية والخرثي وأما تشييد مدينة منها فكما تراه من الاستحالة والبعد وأمثال ذلك كثير وتمحيصه انما هو بمعرفة طبائع العمران وهو أحسن الوجوه وأوثقها في تمحيص الاخبار وتمييز صدقها من كذبها وهو سابق على التمحيص بتعديل الرواة ولا يرجع الى تعديل الرواة حتى يعلم ان ذلك الخبر في نفسه ممكن أو ممتنع وأما اذا كان مستحيلا فلا فائدة للنظر في التعديل والتجريح ولقد عد أهل النظر من المطاعن في الخبر استحالة مدلول اللفظ وتأويله أن يؤول بما لا يقبله العقل وانما كان التعديل والتجريح هو المعتبر في صحة الاخبار الشرعية لان معظمها تكاليف انشائية أوجب الشارع العمل بها حتى حصل الظن بصدقها وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة بالعدالة والضبط (وأما الاخبار) عن الواقعات فلابد في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة فلذلك وجب أن ينظر في امكان وقوعه وصار فيها ذلك أهم من التعديل ومقدما عليه اذ فائدة الانشاء مقتبسة منه فقط وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة واذا كان ذلك فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الاخبار بالامكان والاستحالة أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ونميز ما يلحقه من الاحوال لذاته وبمقتضى طبعه وما يكون عارضا لا يعتد به وما لا يمكن أن يعرض له واذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانونا في تمييز الحق من الباطل في الاخبار والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه وحينئذ فاذا سمعنا عن شئ من الاحوال الواقعة في العمران علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه وكان ذلك لنا معيارا صحيحا يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه وهذا هو غرض هذا الكتاب الاول من تأليفنا وكأن هذا علم مستقل بنفسه فانه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الانساني وذو مسائل وهي بيان ما يلحقه من العوارض والاحوال لذاته واحدة بعد اخرى وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيا كان أو عقليا

(واعلم) ان الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة عزيز الفائدة أعثر عليه البحث وأدى اليه الغوص وليس من علم الخطابة الذي هو أحد العلوم المنطقية فان موضوع الخطابة انما هو الاقوال المقنعة النافعة في استمالة الجمهور الى رأي أو صدهم عنه ولا هو أيضا من علم السياسة المدنية اذ السياسة المدنية هي تدبير المنزل أو المدينة بما يجب بمقتضى الاخلاق والحكمة ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه فقد خالف موضوعه موضوع هذين الفنين اللذين

ربما يشبهانه وكأنه علم مستنبط النشأة ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة ما أدري لغفلتهم عن ذلك وليس الظن بهم أو لعلهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه ولم يصل الينا فالعلوم كثيرة والحكماء في أمم النوع الانساني متعددون وما لم يصل الينا من العلوم أكثر مما وصل فأين علوم الفرس التي أمر عمر رضي الله عنه بمحوها عند الفتح وأين علوم الكلدانيين والسريانيين وأهل بابل وما ظهر عليهم من آثارها ونتائجها وأين علوم القبط ومن قبلهم وانما وصل الينا علوم أمة واحدة وهم يونان خاصة لكلف المأمون باخراجها من لغتهم واقتداره على ذلك بكثرة المترجمين وبذل الاموال فيها ولم نقف على شئ من علوم غيرهم واذا كانت كل حقيقة متعقلة طبيعية يصلح أن يبحث عما يعرض لها من العوارض لذاتها وجب أن يكون باعتبار كل مفهوم وحقيقة علم من العلوم يخصه لكن الحكماء لعلهم انما لاحظوا في ذلك العناية بالثمرات وهذا انما ثمرته في الاخبار فقط كما رأيت وان كانت مسائله في ذاتها وفي اختصاصها شريفة لكن ثمرته تصحيح الاخبار وهي ضعيفة فلهذا هجروه والله أعلم وما أوتيتم من العلم الا قليلا (وهذا الفن) الذي لاح لنا النظر فيه نجد منه مسائل تجري بالعرض لاهل العلوم في براهين علومهم وهي من جنس مسائله بالموضوع والمطلب مثل ما يذكره الحكماء والعلماء في اثبات النبوة من أن البشر متعاونون في وجودهم فيحتاجون فيه الى الحاكم والوازع ومثل ما يذكر في أصول الفقه في باب اثبات اللغات أن الناس محتاجون الى العبارة عن المقاصد بطبيعة التعاون والاجتماع وتبيان العبارات أخف ومثل ما يذكره الفقهاء في تعليل الاحكام الشرعية بالمقاصد في أن الزنا مخلط للانساب مفسد للنوع وأن القتل أيضا مفسد للنوع وان الظلم مؤذن بخراب العمران المفضي لفساد النوع وغير ذلك من سائر المقاصد الشرعية في الاحكام فانها كلها مبنية على المحافظة على العمران فكان لها النظر فيما يعرض له وهو ظاهر من كلامنا هذا في هذه المسائل الممثلة (وكذلك) أيضا يقع الينا القليل من مسائله في كلمات متفرقة لحكماء الخليقة لكنهم لم يستوفوه (فمن كلام) الموبذان بهرام بن بهرام في حكاية البوم التي نقلها المسعودي أيها الملك ان الملك لا يتم عزه الا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه ولا قوام للشريعة الا بالملك ولا عز للملك الا بالرجال ولا قوام للرجال الا بالمال ولا سبيل الى المال الا بالعمارة ولا سبيل للعمارة الا بالعدل والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الرب وجعل له قيما وهو الملك (ومن كلام أنوشروان) في هذا المعنى بعينه الملك بالجند والجند بالمال والمال بالخراج والخراج بالعمارة والعمارة بالعدل والعدل باصلاح العمال

واصلاح العمال باستقامة الوزراء . ورأس الكل باقتقاد الملك حال رعيته بنفسه واقتداره على تأديبها حتى يملكها ولا تملكه (وفى الكتاب) المنسوب لارسطو فى السياسة المتداول بين الناس جزء صالح منه الا أنه غير مستوفى ولا معطى حقه من البراهين ومختلط بغيره وقد أشار فى ذلك الكتاب الى هذه الكلمات التى نقلناها عن الموبذان وأنوشروان وجعلها فى الدائرة القريبة التى أعظم القول فيها وهو قوله العالم بستان سياجه الدولة الدولة سلطان تحيا به السنة السنة سياسة يسوسها الملك الملك نظام يعضده الجند الجند أعوان يكفلهم المال المال رزق تجمعه الرعية الرعية عبيد يكنفهم العدل العدل مألوف وبه قوام العالم العالم بستان ثم ترجع الى أول الكلام فهذه ثمان كلمات حكمية سياسية ارتبط بعضها ببعض وارتدت أعجازها على صدورها واتصلت فى دائرة لا يتعين طرفها فخر بعثوره عليها وعظم من فوائدها وأنت اذا تأملت كلامنا فى فصل الدول والملك وأعطيته حقه من التصفح والتفهم عثرت فى أثنائه على تفسير هذه الكلمات وتفصيل اجمالها مستوفى بينا بأوعب بيان وأوضح دليل وبرهان أطلعنا الله عليه من غير تعليم ارسطو ولا افادة موبذان وكذلك تجد فى كلام ابن المقفع وما يستطرد فى رسائله من ذكر السياسات الكثير من مسائل كتابنا هذا غير مبرهنة كما برهناه انما يجليها فى الذكر على منحى الخطابة فى أسلوب الترسل وبلاغة الكلام وكذلك حوم القاضى أبو بكر الطرطوشى فى كتاب سراج الملوك وبوبه على أبواب تقرب من أبواب كتابنا هذا ومسائله لكنه لم يصادف فيه الرمية ولا أصاب الشاكلة ولا استوفى المسائل ولا أوضح الادلة انما يبوب الباب للمسئلة ثم يستكثر من الاحاديث والآثار وينقل كلمات متفرقة لحكماء الفرس مثل بزرجمهر والموبذان وحكماء الهند والمأثور عن دانيال وهرمس وغيرهم من أكابر الخليقة ولا يكشف عن التحقيق قناعا ولا يرفع بالبراهين الطبيعية حجابا انما هو نقل وترغيب شبيه بالمواعظ وكأنه حوم على الغرض ولم يصادفه ولا تحقق قصده ولا استوفى مسائله ونحن ألهمنا الله الى ذلك الهاما وأعثرنا على علم جعلنا بين بكرة وجهينة خبره فان كنت قد استوفيت مسائله وميزت عن سائر الصنائع أنظاره وأنحاءه فتوفيق من الله وهداية وان فاتنى شئ فى احصائه واشتبهت بغيره مسائله فللناظر المحقق اصلاحه ولى الفضل لانى نهجت له السبيل وأوضحت له الطريق والله يهدى بنوره من يشاء (ونحن) الآن نبين فى هذا الكتاب ما يعرض للبشر فى اجتماعهم من أحوال العمران فى الملك والكسب والعلوم والصنائع بوجوه برهانية يتضح بها التحقيق فى معارف الخاصة والعامة وتدفع

بها الاوهام وترفع الشكوك (ونقول) لما كان الانسان متميزا عن سائر الحيوانات بخواص اختص بها فنها العلوم والصنائع التي هي نتيجة الفكر الذي تميز به عن الحيوانات وشرف بوصفه على المخلوقات ومنها الحاجة الى الحكم الوازع والسلطان القاهر اذ لا يمكن وجوده دون ذلك من بين الحيوانات كلها الا ما يقال عن النحل والجراد وهذه وان كان لها مثل ذلك فبطريق الهامي لا بفكر وروية ومنها السعي في المعاش والاعتمال في تحصيله من وجوهه واكتساب أسبابه لما جعل الله فيه من الافتقار الى الغذاء في حياته وبقائه وهداه الى التماسه وطلبه قال تعالى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ومنها العمران وهو التساكن والتنازل في مصر أو حلة للانس بالعشير واقتضاء الحاجات لما في طباعهم من التعاون على المعاش كما سنبينه ومن هذا العمران ما يكون بدويا وهو الذي يكون في الضواحي وفي الجبال وفي الحلل المنتجعة في القفار وأطراف الرمال ومنه ما يكون حضريا وهو الذي بالامصار والقرى والمدن والمداشر للاعتصام بها والتحصن بجدرانها وله في كل هذه الاحوال أمور تعرض من حيث الاجتماع عروضا ذاتيا له فلا جرم انحصر الكلام في هذا الكتاب في ستة فصول (الاول) في العمران البشري على الجملة وأصنافه وقسطه من الارض (والثاني) في العمران البدوي وذكر القبائل والامم الوحشية (والثالث) في الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية (والرابع) في العمران الحضري والبلدان والامصار (والخامس) في الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه (والسادس) في العلوم واكتسابها وتعلمها (وقد) قدمت العمران البدوي لانه سابق على جميعها كما نبين لك بعد وكذا تقديم الملك على البلدان والامصار وأما تقديم المعاش فلان المعاش ضروري طبيعي وتعلم العلم كمالي أو حاجي والطبيعي أقدم من الكمالي وجعلت الصنائع مع الكسب لانها منه ببعض الوجوه ومن حيث العمران كما نبين لك بعد والله الموفق للصواب والمعين عليه

(الفصل الاول من الكتاب الاول)

(في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات)

(الاولى) في أن الاجتماع الانساني ضروري ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم الانسان مدني بالطبع أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم وهو معنى العمران وبيانه أن الله سبحانه خلق الانسان وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها الا بالغذاء وهداه الى التماسه بفطرته وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله

الا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادة حياته منه ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلا فلا يحصل الا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ وكل واحد من هذه الاعمال الثلاثة يحتاج الى مواعين وآلات لا تتم الا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخورى هب أنه يأكله حبا من غير علاج فهو أيضا يحتاج فى تحصيله أيضا حبا الى أعمال أخرى أكثر من هذه من الزراعة والحصاد والدراس الذى يخرج الحب من غلاف السنبل ويحتاج كل واحد من هذه الى آلات متعددة وصنائع كثيرة أكثر من الاولى بكثير ويستحيل أن توفى بذلك كله أو ببعضه قدرة الواحد فلا بد من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضا فى الدفاع عن نفسه الى الاستعانة بأبناء جنسه لان الله سبحانه لما ركب الطباع فى الحيوانات كلها وقسم القدر بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة أكمل من حظ الانسان فقدرة الفرس مثلا أعظم بكثير من قدرة الانسان وكذا قدرة الحمار والثور وقدرة الاسد والفيل أضعاف من قدرته ولما كان العدوان طبيعيا فى الحيوان جعل لكل واحد منها عضوا يختص بمدافعته ما يصل اليه من عادية غيره وجعل للانسان عوضا من ذلك كله الفكر واليد فاليد مهيئة للصنائع بخدمة الفكر والصنائع تحصل له الآلات التى تنوب له عن الجوارح المعدة فى سائر الحيوانات للدفاع مثل الرماح التى تنوب عن القرون الناطحة والسيوف النائبة عن المخالب الجارحة والتراس النائبة عن البشرات الجاسية الى غير ذلك مما ذكره جالينوس فى كتاب منافع الاعضاء فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العجم سيما المفترسة فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة ولا تفى قدرته أيضا باستعمال الآلات المعدة للمدافعة لكثرتها وكثرة الصنائع والمواعين المعدة لها فلا بد فى ذلك كله من التعاون عليه بأبناء جنسه وما لم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قوت ولا غذاء ولا تتم حياته لما ركبه الله تعالى عليه من الحاجة الى الغذاء فى حياته ولا يحصل له أيضا دفاع عن نفسه لفقدان السلاح فيكون فريسة للحيوانات ويعاجله الهلاك عن مدى حياته ويبطل نوع البشر واذا كان التعاون حصل له القوت للغذاء والسلاح للمدافعة وتمت حكمة الله فى بقائه وحفظ نوعه فاذن هذا الاجتماع ضرورى للنوع الانسانى والا لم يكمل وجودهم وما أراده الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه اياهم وهذا هو معنى العمران الذى جعلناه موضوعا لهذا العلم وفى هذا الكلام نوع اثبات

للموضوع في فنه الذي هو موضوع له وهذا وان لم يكن واجبا على صاحب الفن لما تقرر في الصناعة المنطقية أنه ليس على صاحب علم اثبات الموضوع في ذلك العلم فليس أيضا من الممنوعات عندهم فيكون اثباته من التبرعات والله الموفق بفضله ثم ان هذا الاجتماع اذا حصل للبشر كما قررناه وتم عمران العالم بهم فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم وليست السلاح التي جعلت دافعة لعدوان الحيوانات العجم عنهم كافية في دفع العدوان عنهم لانها موجودة لجميعهم فلا بد من شيء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض ولا يكون من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم والهاماتهم فيكون ذلك الوازع واحدا منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل أحد الى غيره بعدوان وهذا هو معنى الملك وقد تبين لك بهذا أنه خاصة للانسان طبيعية ولا بد لهم منها وقد يوجد في بعض الحيوانات العجم على ما ذكره الحكماء كما في النحل والجراد لما استقرى فيهما من الحكم والانقياد والاتباع لرئيس من أشخاصها متميز عنهم في خلقه وجثمانه الا أن ذلك موجود لغير الانسان بمقتضى الفطرة والهداية لا بمقتضى الفكرة والسياسة أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وتزيد الفلاسفة على هذا البرهان حيث يحاولون اثبات النبوة بالدليل العقلي وأنها خاصة طبيعية للانسان فيقررون هذا البرهان الى غايته وأنه لا بد للبشر من الحكم الوازع ثم يقولون بعد ذلك وذلك الحكم يكون بشرع مفروض من عند الله يأتي به واحد من البشر وأنه لا بد أن يكون متميزا عنهم بما يودع الله فيه من خواص هدايته ليقع التسليم له والقبول منه حتى يتم الحكم فيهم وعليهم من غير انكار ولا تزيف وهذه القضية للحكماء غير برهانية كما تراه اذ الوجود وحياة البشر قد تتم من دون ذلك بما يفرضه الحاكم لنفسه أو بالعصبية التي يقتدر بها على قهرهم وحملهم على جادته فأهل الكتاب والمتبعون للانبياء قليلون بالنسبة الى المجوس الذين ليس لهم كتاب فانهم أكثر أهل العالم ومع ذلك فقد كانت لهم الدول والآثار فضلا عن الحياة وكذلك هي لهم لهذا العهد في الاقاليم المنحرفة في الشمال والجنوب بخلاف حياة البشر فوضى دون وازع لهم البتة فانه يمتنع وبهذا يتبين لك غلطهم في وجوب النبوات وأنه ليس بعقلي وانما مدركه الشرع كما هو مذهب السلف من الامة والله ولي التوفيق والهداية

(المقدمة الثانية)

(في قسط العمران من الارض والاشارة الى بعض ما فيه من الاشجار والانهار والاقاليم)

(اعلم) أنه قد تبين في كتب الحكماء الناظرين في أحوال العالم أنّ شكل الارض كرى وأنها محفوفة بعنصر الماء كأنها عنبة طافية عليه فانحسر الماء عن بعض جوانبها لما أراد الله من تكوين الحيوانات فيها وعمرانها بالنوع البشرى الذى له الخلافة على سائرها وقد يتوهم من ذلك أنّ الماء تحت الارض وليس بصحيح وانما التحت الطبيعى قلب الارض ووسط كرتها الذى هو مركزها والكل يطلبه بما فيه من الثقل وماعدا ذلك من جوانبها وأما الماء المحيط بها فهو فوق الارض وان قيل فى شئ منها انه تحت الارض فبالاضافة الى جهة أخرى منه وأما الذى انحسر عنه الماء من الارض فهو النصف من سطح كرتها فى شكل دائرة أحاط العنصر المائى بها من جميع جهاتها بحرا يسمى البحر المحيط ويسمى أيضا البلايه بتفخيم اللام الثانية ويسمى أوقيانوس أسماء أعجمية ويقال له البحر الاخضر والاسود ثم انّ هذا المنكشف من الارض للعمران فيه القفار والخلاء أكثر من عمرانه والخالى من جهة الجنوب منه أكثر من جهة الشمال وانما المعمور منه قطعة أميل الى الجانب الشمالى على شكل مسطح كرى ينتهى من جهة الجنوب الى خط الاستواء ومن جهة الشمال الى خط كرى ووراءه الجبال الفاصلة بينه وبين الماء العنصرى الذى بينهما سدّ يأجوج ومأجوج وهذه الجبال مائلة الى جهة المشرق وينتهى من المشرق والمغرب الى عنصر الماء أيضا بقطعتين من الدائرة المحيطة وهذا المنكشف من الارض قالوا هو مقدار النصف من الكرة أو أقل والمعمور منه مقدار ربعه وهو المنقسم بالاقاليم السبعة وخط الاستواء يقسم الارض بنصفين من المغرب الى المشرق وهو طول الارض وأكبر خط فى كرتها كما أنّ منطقة فلك البروج ودائرة معدّل النهار أكبر خط فى الفلك ومنطقة البروج منقسمة بثلثمائة وستين درجة والدرجة من مسافة الارض خمسة وعشرون فرسخا والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع فى ثلاثة أميال لانّ الميل أربعة آلاف ذراع والذراع أربعة وعشرون أصبعا والاصبع ست حبات شعير مصفوفة ملصق بعضها الى بعض ظهرا لبطن وبين دائرة معدّل النهار التى تقسم الفلك بنصفين وتسامت خط الاستواء من الارض وبين كل واحد من القطبين تسعون درجة لكن العمارة فى الجهة الشمالية من خط الاستواء أربع وستون درجة والباقى منها خلاء لا عمارة فيه لشدّة البرد والجمود كما كانت الجهة الجنوبية خلاء كلها لشدّة الحر كما نبين ذلك كله ان شاء الله تعالى ثم انّ المخبرين عن هذا المعمور وحدوده وما فيه من الامصار والمدن والجبال والبحار والانهار والقفار والرمال مثل بطليموس فى كتاب الجغرافيا وصاحب كتاب زجار من بعده قسموا هذا المعمور

بسبعة أقسام يسمونها الاقاليم السبعة بحدود وهمية بين المشرق والمغرب متساوية في العرض مختلفة في الطول فالاقليم الاول أطول مما بعده وكذا الثاني الى آخرها فيكون السابع أقصرلما اقتضاه وضع الدائرة الناشئة من انحسار الماء عن كرة الارض وكل واحد من هذه الاقاليم عندهم منقسم بعشرة أجزاء من المغرب الى المشرق على التوالي وفي كل جزء الخبر عن أحواله وأحوال عمرانه (وذكروا) أن هذا البحر المحيط يخرج منه من جهة المغرب في الاقليم الرابع البحر الرومي المعروف يبدأ في خليج متضايق في عرض اثني عشر ميلا أو نحوها ما بين طنجة وطريف ويسمى الزقاق ثم يذهب مشرقا وينفسح الى عرض ستمائة ميل ونهايته في آخر الجزء الرابع من الاقليم الرابع على ألف فرسخ ومائة وستين فرسخا من مبدئه وعليه هنالك سواحل الشام وعليه من جهة الجنوب سواحل المغرب أولها طنجة عند الخليج ثم افريقية ثم برقة الى الاسكندرية ومن جهة الشمال سواحل القسطنطينية عند الخليج ثم البنادقة ثم رومة ثم الافرنجة ثم الاندلس الى طريف عند الزقاق قبالة طنجة ويسمى هذا البحر الرومي والشامي وفيه جزر كثيرة عامرة كبار مثل اقريطش وقبرص وصقلية وميورقة وسردانية ودانية (قالوا) ويخرج منه في جهة الشمال بحران آخران من خليجين أحدهما مسامت للقسطنطينية يبدأ من هذا البحر متضايقا في عرض رمية السهم ويمر ثلاثة بحار فيتصل بالقسطنطينية ثم ينفسح في عرض أربعة أميال ويمر في جريه ستين ميلا ويسمى خليج القسطنطينية ثم يخرج من فوهة عرضها ستة أميال فيمد بحر نيطش وهو بحر ينحرف من هنالك في مذهبه الى ناحية الشرق فيمر بأرض هريقلية وينتهي الى بلاد الخزرية على ألف وثلثمائة ميل من فوهته وعليه من الجانبين أمم من الروم والترك وبرجان والروس والبحر الثاني من خليجي هذا البحر الرومي وهو بحر البنادقة يخرج من بلاد الروم على سمت الشمال فاذا انتهى الى سمت الجبل انحرف في سمت المغرب الى بلاد البنادقة وينتهي الى بلاد انكلاية على ألف ومائة ميل من مبدئه وعلى حافتيه من البنادقة والروم وغيرهم أمم ويسمى خليج البنادقة (قالوا) وينساح من هذا البحر المحيط أيضا من الشرق على ثلاث عشرة درجة في الشمال من خط الاستواء بحر عظيم متسع يمر الى الجنوب قليلا حتى ينتهي الى الاقليم الاول ثم يمر فيه مغربا الى أن ينتهي في الجزء الخامس منه الى بلاد الحبشة والزنج والى بلاد باب المندب منه على أربعة آلاف فرسخ وخمسمائة فرسخ من مبدئه ويسمى البحر الصيني والهندي والحبشي وعليه من جهة الجنوب بلاد الزنج وبلاد بربرا التي ذكرها امرؤ القيس في شعره وليسوا من البربر

الذين هم قبائل المغرب ثم بلاد مقدشو ثم بلد سفالة وأرض الواق واق وأمم آخر ليس
بعدهم الا القفار والخلاء وعليه من جهة الشمال الصين من عند مبدئه ثم الهند
ثم السند ثم سواحل اليمن من الاحقاف وزبيد وغيرها ثم بلاد الزنج عند نهايته
وبعدهم الحبشة (قالوا) ويخرج من هذا البحر الحبشي بحران آخران (أحدهما)
يخرج من نهايته عند باب المندب فيبدأ متضايقا ثم يمر مستبحرا الى ناحية الشمال
ومغربا قليلا الى أن ينتهي الى مدينة القلزم في الجزء الخامس من الاقليم الثاني على
ألف وأربعمائة ميل من مبدئه ويسمى بحر القلزم وبحر السويس وبينه وبين
فسطاط مصر من هنالك ثلاث مراحل وعليه من جهة الشرق سواحل اليمن ثم
الحجاز وجدة ثم مدين وأيلة وفاران عند نهايته ومن جهة الغرب سواحل الصعيد
وعيذاب وسواكن وزيلع ثم بلاد الحبشة عند مبدئه وآخره عند القلزم يسامت البحر
الرومي عند العريش وبينهما نحو ست مراحل ومازال الملوك في الاسلام وقبله
يرومون خرق ما بينهما ولم يتم ذلك (والبحر الثاني) من هذا البحر الحبشي ويسمى
الخليج الاخضر يخرج ما بين بلاد السند والاحقاف من اليمن ويمر الى ناحية الشمال
مغربا قليلا الى أن ينتهي الى الابلة من سواحل البصرة في الجزء السادس من الاقليم
الثاني على أربعمائة فرسخ وأربعين فرسخا من مبدئه ويسمى بحر فارس وعليه من
جهة الشرق سواحل السند ومكران وكرمان وفارس والابلة عند نهايته ومن جهة
الغرب سواحل البحرين واليمامة وعمان والشحر والاحقاف عند مبدئه وفيما بين
بحر فارس والقلزم جزيرة العرب كأنها دخلة من البر في البحر يحيط بها البحر
الحبشي من الجنوب وبحر القلزم من الغرب وبحر فارس من الشرق وتفضي الى
العراق فيما بين الشأم والبصرة على ألف وخمسمائة ميل بينهما وهنالك الكوفة
والقادسية وبغداد وايوان كسرى والحيرة ووراء ذلك أمم الاعاجم من الترك والخزر
وغيرهم وفي جزيرة العرب بلاد الحجاز في جهة الغرب منها وبلاد اليمامة والبحرين
وعمان في جهة الشرق منها وبلاد اليمن في جهة الجنوب منها وسواحله على البحر
الحبشي (قالوا) وفي هذا المعمور بحر آخر منقطع من سائر البحار في ناحية
الشمال بأرض الديلم يسمى بحر جرجان وطبرستان طول ألف ميل في عرض ستمائة
ميل في غربيه أذربيجان والديلم وفي شرقيه أرض الترك وخوارزم وفي جنوبيه
طبرستان وفي شماله أرض الخزر واللان (هذه) جملة البحار المشهورة التي ذكرها
أهل الجغرافيا (قالوا) وفي هذا الجزء المعمور أنهار كثيرة أعظمها أربعة أنهار
وهي النيل والفرات ودجلة ونهر بلخ المسمى جيحون (فأما النيل) فمبدؤه من

جبل عظيم وراء خط الاستواء بست عشرة درجة على سمت الجزء الرابع من الاقليم الاول ويسمى جبل القمر ولا يعلم فى الارض جبل أعلى منه تخرج منه عيون كثيرة فيصب بعضها فى بحيرة هناك وبعضها فى أخرى ثم تخرج أنهار من البحيرتين فتصب كلها فى بحيرة واحدة عند خط الاستواء على عشر مراحل من الجبل ويخرج من هذه البحيرة نهران يذهب أحدهما الى ناحية الشمال على سمته ويمر ببلاد النوبة ثم بلاد مصر فاذا جاوزها تشعب فى شعب متقاربة يسمى كل واحد منها خليجا وتصب كلها فى البحر الرومى عند الاسكندرية ويسمى نيل مصر وعليه الصعيد من شرقيه والواحات من غربيه ويذهب الآخر منعطفا الى المغرب ثم يمر على سمته الى أن يصب فى البحر المحيط وهو نهر السودان وأممهم كلهم على ضفتيه (وأما الفرات) فمبدؤه من بلاد أرمينية فى الجزء السادس من الاقليم الخامس ويمر جنوبا فى أرض الروم وملطية الى منبج ثم يمر بصفين ثم بالرقة ثم بالكوفة الى أن ينتهى الى البطحاء التى بين البصرة وواسط ومن هناك يصب فى البحر الحبشى وتنجلب اليه فى طريقه أنهار كثيرة ويخرج منه أنهار أخرى تصب فى دجلة (وأما دجلة) فمبدؤها عين ببلاد خلاط من أرمينية أيضا وتمر على سمت الجنوب بالموصل وأذربيجان وبغداد الى واسط فتتفرق الى خلجان كلها تصب فى بحيرة البصرة وتفضى الى بحر فارس وهو فى الشرق على يمين الفرات وينجلب اليه أنهار كثيرة عظيمة من كل جانب وفيما بين الفرات ودجلة من أوله جزيرة الموصل قبالة الشأم من عدوتى الفرات وقبالة أذربيجان من عدوة دجلة (وأما نهر جيحون) فمبدؤه من بلخ فى الجزء الثامن من الاقليم الثالث من عيون هناك كثيرة وتنجلب اليه أنهار عظام ويذهب من الجنوب الى الشمال فيمر ببلاد خراسان ثم يخرج منها الى بلاد خوارزم فى الجزء الثامن من الاقليم الخامس فيصب فى بحيرة الجرجانية التى بأسفل مدينتها وهى مسيرة شهر فى مثله واليها ينصب نهر فرغانة والشاش الآتى من بلاد الترك وعلى غربى نهر جيحون بلاد خراسان وخوارزم وعلى شرقيه بلاد بخارى وترمذ وسمرقند ومن هنالك الى ما وراءه بلاد الترك وفرغانة والخزلجية وأمم الاعاجم وقد ذكر ذلك كله بطليموس فى كتابه والشريف فى كتاب زجار وصوروا فى الجغرافيا جميع ما فى المعمور من الجبال والبحار والاودية واستوفوا من ذلك ما لا حاجة لنا به لطوله ولان عنايتنا فى الاكثر انما هى بالمغرب الذى هو وطن البربر وبالاوطان التى للعرب من المشرق والله الموفق

تكميلة لهذه المقدمة الثانية

في أن الربع الشمالي من الارض اكثر عمراناً من الربع الجنوبي وذكر السبب في ذلك

ونحن نرى بالمشاهدة والاخبار المتواترة أنّ الاوّل والثانى من الاقاليم المعمورة أقل عمرانا مما بعدهما وما وجد من عمرانه فيتخلله الخلاء والقفار والرمال والبحر الهندى الذى فى الشرق منهما وأمم هذين الاقليمين وأناسيهما ليست لهم الكثرة البالغة وأمصاره ومدنه كذلك والثالث والرابع وما بعدهما بخلاف ذلك فالقفار فيها قليلة والرمال كذلك أو معدومة وأممها وأناسيها تجوز الحدّ من الكثرة وأمصارها ومدنها تجاوز الحدّ عددا والعمران فيها مندرج ما بين الثالث والسادس والجنوب خلاء كله وقد ذكر كثير من الحكماء أنّ ذلك لافراط الحرّ وقلة ميل الشمس فيها عن سمت الرؤس فلنوضح ذلك ببرهانه ويتبين منه سبب كثرة العمارة فيما بين الثالث والرابع من جانب الشمال الى الخامس والسابع (فنقول) انّ قطبي الفلك الجنوبى والشمالى اذا كانا على الافق فهنالك دائرة عظيمة تقسم الفلك بنصفين هى أعظم الدوائر المارة من المشرق الى المغرب وتسمى دائرة معدّل النهار وقد تبين فى موضعه من الهيئة أنّ الفلك الاعلى متحرك من المشرق الى المغرب حركة يومية يحرك بها سائر الافلاك التى فى جوفه قهرا وهذه الحركة محسوسة وكذلك تبين أنّ للكواكب فى أفلاكها حركة مخالفة لهذه الحركة وهى من المغرب الى المشرق ويختلف مؤدّاها باختلاف حركة الكواكب فى السرعة والبطء وممرّات هذه الكواكب فى أفلاكها توازيها كلها دائرة عظيمة من الفلك الاعلى تقسمه بنصفين وهى دائرة فلك البروج منقسمة باثنى عشر برجا وهى على ما تبين فى موضعه مقاطعة لدائرة معدّل النهار على نقطتين متقابلتين من البروج هما أوّل الحمل وأوّل الميزان فتقسمها دائرة معدّل النهار بنصفين نصف مائل عن معدل النهار الى الشمال وهو من أوّل الحمل الى آخر السنبلة ونصف مائل عنه الى الجنوب وهو من أوّل الميزان الى آخر الحوت واذا وقع القطبان على الافق فى جميع نواحى الارض كان على سطح الارض خط واحد يسامت دائرة معدّل النهار يمرّ من المغرب الى المشرق ويسمى خط الاستواء ووقع هذا الخط بالرصد على ما زعموا فى مبدا الاقليم الاوّل من الاقاليم السبعة والعمران كله فى الجهة الشمالية عنه والقطب الشمالى يرتفع عن آفاق هذا المعمور بالتدريج الى أن ينتهى ارتفاعه الى أربع وستين درجة وهنالك ينقطع العمران وهو آخر الاقليم السابع * واذا ارتفع على الافق تسعين درجة وهى التى بين القطب ودائرة معدّل النهار صار القطب على سمت الرؤس وصارت دائرة معدّل النهار على الافق وبقيت ستة من البروج فوق الافق وهى الشمالية وستة تحت الافق وهى الجنوبية والعمارة فيما بين الاربعة والستين الى التسعين ممتنعة لانّ الحرّ والبرد حينئذ لا يحصلان ممتزجين لبعد الزمان بينهما فلا يحصل التكوين

فاذا الشمس تسامت الرؤس على خط الاستواء فى رأس الحمل والميزان ثم تميل عن المسامتة الى رأس السرطان ورأس الجدى ويكون نهاية ميلها عن دائرة معدل النهار أربعا وعشرين درجة ثم اذا ارتفع القطب الشمالى عن الافق مالت دائرة معدل النهار عن سمت الرؤس بمقدار ارتفاعه وانخفض القطب الجنوبى كذلك بمقدار متساو فى الثلاثة وهو المسمى عند أهل المواقيت عرض البلد واذا مالت دائرة معدل النهار عن سمت الرؤس علت عليها البروج الشمالية مندرجة فى مقدار علوها الى رأس السرطان وانخفضت البروج الجنوبية من الافق كذلك الى رأس الجدى لانحرافها الى الجانبين فى أفق الاستواء كما قلناه فلا يزال الافق الشمالى يرتفع حتى يصير أبعد الشمالية وهو رأس السرطان فى سمت الرؤس وذلك حيث يكون عرض البلد أربعا وعشرين فى الحجاز وما يليه وهذا هو الميل الذى اذا مال رأس السرطان عن معدل النهار فى أفق الاستواء ارتفع بارتفاع القطب الشمالى حتى صار مسامتا فاذا ارتفع القطب أكثر من أربع وعشرين نزلت الشمس عن المسامتة ولا تزال فى انخفاض الى أن يكون ارتفاع القطب أربعا وستين ويكون انخفاض الشمس عن المسامتة كذلك وانخفاض القطب الجنوبى عن الافق مثلها فينقطع التكوين لافراط البرد والجمد وطول زمانه غير ممتزج بالحر ثم ان الشمس عند المسامتة وما يقاربها تبعث الاشعة على الارض على زوايا قائمة وفيما دون المسامتة على زوايا منفرجة وحادة واذا كانت زوايا الاشعة قائمة عظم الضوء وانتشر بخلافه فى المنفرجة والحادة فلهذا يكون الحر عند المسامتة وما يقرب منها أكثر منه فيما بعد لان الضوء سبب الحر والتسخين * ثم ان المسامتة فى خط الاستواء تكون مرتين فى السنة عند نقطتى الحمل والميزان واذا مالت فغير بعيد ولا يكاد الحر يعتدل فى آخر ميلها عند رأس السرطان والجدى الا وقد صعدت الى المسامتة فتبقى الاشعة القائمة الزوايا تلح على ذلك الافق ويطول مكثها أو يدوم فيشتعل الهواء حرارة ويفرط فى شدتها وكذا مادامت الشمس تسامت مرتين فيما بعد خط الاستواء الى عرض أربعة وعشرين فان الاشعة ملحة على الافق فى ذلك بقريب من الحاحها فى خط الاستواء وافراط الحر يفعل فى الهواء تجفيفا ويبسا يمنع من التكوين لانه اذا أفرط الحر جفت المياه والرطوبات وفسد التكوين فى المعدن والحيوان والنبات اذ التكوين لا يكون الا بالرطوبة ثم اذا مال رأس السرطان عن سمت الرؤس فى عرض خمسة وعشرين فما بعده نزلت الشمس عن المسامتة فيصير الحر الى الاعتدال أو يميل عنه ميلا قليلا فيكون التكوين ويتزايد على التدريج الى أن يفرط

البرد في شدته لقلة الضوء وكون الاشعة منفرجة الزوايا فينقص التكوين ويفسد الا أن فساد التكوين من جهة شدة الحر أعظم منه من جهة شدة البرد لان الحر أسرع تأثيرا في التجفيف من تأثير البرد في الجمد فلذلك كان العمران في الاقليم الاول والثاني قليلا وفي الثالث والرابع والخامس متوسطا لاعتدال الحر بنقصان الضوء وفي السادس والسابع كثيرا لنقصان الحر وأن كيفية البرد لا تؤثر عند أولها في فساد التكوين كما يفعل الحر اذ لا تجفيف فيها الاعند الافراط بما يعرض لها حينئذ من اليبس كما بعد السابع فلهذا كان العمران في الربع الشمالي أكثر وأوفر والله أعلم * ومن هنا أخذ الحكماء خلاء خط الاستواء وما وراءه وأورد عليهم أنه معمور بالمشاهدة والاخبار المتواترة فكيف يتم البرهان على ذلك والظاهر أنهم لم يريدوا امتناع العمران فيه بالكلية انما أداهم البرهان الى أن فساد التكوين فيه قوي بافراط الحر والعمران فيه اما ممتنع أو ممكن أقلي وهو كذلك فان خط الاستواء والذي وراءه وان كان فيه عمران كما نقل فهو قليل جدا (وقد زعم) ابن رشد أن خط الاستواء معتدل وأن ما وراءه في الجنوب بمثابة ما وراءه في الشمال فيعمر منه ما عمر من هذا والذي قاله غير ممتنع من جهة فساد التكوين وانما امتنع فيما وراء خط الاستواء في الجنوب من جهة أن العنصر المائي غمر وجه الارض هنالك الى الحد الذي كان مقابله من الجهة الشمالية قابلا للتكوين ولما امتنع المعتدل لغلبة الماء تبعه ما سواه لان العمران متدرج ويأخذ في التدريج من جهة الوجود لا من جهة الامتناع وأما القول بامتناعه في خط الاستواء فيرده النقل المتواتر والله أعلم * ولنرسم بعد هذا الكلام صورة الجغرافيا كما رسمها صاحب كتاب زجار ثم نأخذ في تفصيل الكلام عليها الخ

تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا .

اعلم أن الحكماء قسموا هذا المعمور كما تقدم ذكره على سبعة أقسام من الشمال الى الجنوب يسمون كل قسم منها اقليما فانقسم المعمور من الارض كله على هذه السبعة الاقاليم كل واحد منها آخذ من الغرب الى الشرق على طوله * فالاول منها مار من المغرب الى المشرق مع خط الاستواء بحده من جهة الجنوب وليس وراءه هنالك الا القفار والرمال وبعض عمارة ان صحت فهي كلا عمارة ويليه من جهة شماليه الاقليم الثاني ثم الثالث كذلك ثم الرابع والخامس والسادس والسابع وهو آخر العمران من جهة الشمال وليس وراء السابع الا الخلاء والقفار الى أن ينتهي الى البحر المحيط

كالحال فيما وراء الاقاليم الاول في جهة الجنوب الا أن الخلاء في جهة الشمال أقل بكثير من الخلاء الذي في جهة الجنوب * ثم ان أزمنة الليل والنهار تتفاوت في هذه الاقاليم بسبب ميل الشمس عن دائرة معدل النهار وارتفاع القطب الشمالي عن آفاقها فيتفاوت قوس النهار والليل لذلك وينتهي طول الليل والنهار في آخر الاقليم الاول وذلك عند حلول الشمس برأس الجدي لليل وبرأس السرطان للنهار كل واحد منهما الى ثلاث عشرة ساعة وكذلك في آخر الاقليم الثاني مما يلي الشمال فينتهي طول النهار فيه عند حلول الشمس برأس السرطان وهو منقلبها الصيفي الى ثلاث عشرة ساعة ونصف ساعة ومثله أطول الليل عند منقلبها الشتوي برأس الجدي ويبقى للاقصر من الليل والنهار ما يبقى بعد الثلاث عشرة ونصف من جملة أربع وعشرين الساعات الزمانية لمجموع الليل والنهار وهو دورة الفلك الكاملة وكذلك في آخر الاقليم الثالث مما يلي الشمال أيضا ينتهيان الى أربع عشرة ساعة وفي آخر الرابع الى أربع عشرة ساعة ونصف ساعة وفي آخر الخامس الى خمس عشرة ساعة وفي آخر السادس الى خمس عشرة ساعة ونصف وفي آخر السابع الى ست عشرة ساعة وهنالك ينقطع العمران فيكون تفاوت هذه الاقاليم في الاطول من ليلها ونهارها بنصف ساعة لكل اقليم يتزايد من أوله في ناحية الجنوب الى آخره في ناحية الشمال موزعة على أجزاء هذا البعد * وأما عرض البلدان في هذه الاقاليم فهو عبارة عن بعد ما بين سمت رأس البلد ودائرة معدل النهار الذي هو سمت رأس خط الاستواء وبمثله سواء ينخفض القطب الجنوبي عن افق ذلك البلد ويرتفع القطب الشمالي عنه وهو ثلاثة أبعاد متساوية تسمى عرض البلد كما مر ذلك قبل * والمتكلمون على هذه الجغرافيا قسموا كل واحد من هذه الاقاليم السبعة في طوله من المغرب الى المشرق بعشرة أجزاء متساوية ويذكرون ما اشتمل عليه كل جزء منها من البلدان والامصار والجبال والانهار والمسافات بينها في المسالك ونحن الآن نوجز القول في ذلك ونذكر مشاهير البلدان والانهار والبحار في كل جزء منها ونحاذي بذلك ما وقع في كتاب نزهة المشتاق الذي ألفه العلوي الادريسي الحمودي لملك صقلية من الافرنج وهو رجار بن رجار عندما كان نازلا عليه بصقلية بعد خروج صقلية من امارة مالقة وكان تأليفه للكتاب في منتصف المائة السادسة وجمع له كتبا جمة للمسعودي وابن خرداذبه والحوقلي والقدري وابن اسحق المنجم وبطليموس وغيرهم ونبدأ منها بالاقليم الاول الى آخرها والله سبحانه وتعالى يعصمنا بمنه وفضله

(الاقليم الاول) وفيه من جهة غربيه الجزائر الخالدات التي منها بدأ بطليموس

بأخذ أطوال البلاد وليست في بسيط الاقليم وانما هي في البحر المحيط جزر متكثرة أكبرها وأشهرها ثلاثة ويقال انها معمورة وقد بلغنا أن سفائن من الافرنج مرت بها في أواسط هذه المائة وقاتلوهم فغنموا منهم وسبوا وباعوا بعض أساراهم بسواحل المغرب الاقصى وصار والى خدمة السلطان فلما تعلموا اللسان العربي أخبروا عن حال جزائرهم وأنهم يحتفرون الارض للزراعة بالقرون وأن الحديد مفقود بأرضهم وعيشهم من الشعير وماشيتهم المعز وقتالهم بالحجارة يرمونها الى خلف وعبادتهم السجود للشمس اذا طلعت ولا يعرفون دينا ولم تبلغهم دعوة ولا يوقف على مكان هذه الجزائر الا بالعثور لا بالقصد اليها لان سفر السفن في البحر انما هو بالرياح ومعرفة جهات مهابها والى أين يوصل اذا مرت على الاستقامة من البلاد التي في ممر ذلك المهب واذا اختلف المهب وعلم حيث يوصل على الاستقامة حوذى به القلع محاذاة يحمل السفينة بها على قوانين في ذلك محصلة عند النواتية والملاحين الذين هم رؤساء السفن في البحر والبلاد التي في حفافي البحر الرومي وفي عدوته مكتوبة كلها في صحيفة على شكل ما هي عليه في الوجود وفي وضعها في سواحل البحر على ترتيبها ومهاب الرياح وممراتها على اختلافها مرسوم معها في تلك الصحيفة ويسمونها الكنباص وعليها يعتمدون في أسفارهم وهذا كله مفقود في البحر المحيط فلذلك لا تلجج فيه السفن لانها ان غابت عن مرأى السواحل فقل أن تهتدى الى الرجوع اليها مع ما ينعقد في جو هذا البحر وعلى سطح مائه من الابخرة المانعة للسفن في مسيرها وهي لبعدها لا تدركها أضواء الشمس المنعكسة من سطح الارض فتحللها فلذلك عسر الاهتداء اليها وصعب الوقوف على خبرها * وأما الجزء الاول من هذا الاقليم ففيه مصب النيل الآتي من مبدئه عند جبل القمر كما ذكرناه ويسمى نيل السودان ويذهب الى البحر المحيط فيصب فيه عند جزيرة أوليل وعلى هذا النيل مدينة سلا وتكرور وغانة وكلها لهذا العهد في مملكة ملك مالي من امم السودان والى بلادهم تسافر تجار المغرب الاقصى وبالقرب منها من شمالها بلاد لمتونة وسائر طوائف الملثمين ومفاوز يجولون فيها وفي جنوبي هذا النيل قوم من السودان يقال لهم لملم وهم كفار ويكتوون في وجوههم وأصداغهم وأهل غانة والتكرور يغيرون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم للتجار فيجلبونهم الى المغرب وكلهم عامة رقيقهم وليس وراءهم في الجنوب عمران يعتبر الا أناسي أقرب الى الحيوان العجم من الناطق يسكنون الفيافي والكهوف ويأكلون العشب والحبوب غير مهيأة وربما يأكل بعضهم بعضا وليسوا في عداد البشر وفواكه بلاد السودان كلها من قصور صحراء المغرب مثل توات وتكدرارين وو ركلان

• فكان فى غانة فيما يقال ملك ودولة لقوم من العلويين يعرفون ببنى صالح وقال
صاحب كتاب زجار انه صالح بن عبد الله بن حسن بن الحسن ولا يعرف صالح هذا
فى ولد عبد الله بن حسن وقد ذهبت هذه الدولة لهذا العهد وصارت غانة لسلطان مالى •
وفى شرقى هذا البلد فى الجزء الثالث من هذا الاقليم بلد كوكو على نهر ينبع
من بعض الجبال هنالك ويمر مغربا فيغوص فى رمال الجزء الثانى * وكان ملك كوكو
قائما بنفسه ثم استولى عليها سلطان مالى وأصبحت فى مملكته وخربت لهذا العهد
من أجل فتنة وقعت هنالك نذكرها عند ذكر دولة مالى فى محلها من تاريخ البربر وفى
جنوبى بلد كوكو بلاد كانم من امم السودان وبعدهم ونغارة على ضفة النيل من شماليه
وفى شرقى بلاد ونغارة وكانم بلاد زغاوة وتاجرة المتصلة بأرض النوبة فى الجزء الرابع
من هذا الاقليم وفيه يمر نيل مصر ذاهبا من مبدئه عند خط الاستواء الى البحر
الرومى فى الشمال * ومخرج هذا النيل من جبل القمر الذى فوق خط الاستواء
بست عشرة درجة واختلفوا فى ضبط هذه اللفظة فضبطها بعضهم بفتح القاف والميم
نسبة الى قمر السماء لشدة بياضه وكثرة ضوئه وفى كتاب المشترك لياقوت بضم
القاف وسكون الميم نسبة الى قوم من أهل الهند وكذا ضبطه ابن سعيد فيخرج
من هذا الجبل عشر عيون تجتمع كل خمسة منها فى بحيرة وبينهما ستة أميال ويخرج
من كل واحدة من البحيرتين ثلاثة أنهار تجتمع كلها فى بطيحة واحدة فى أسفلها جبل
معترض يشق البحيرة من ناحية الشمال وينقسم ماؤها بقسمين فيمر الغربى منه الى
بلاد السودان مغربا حتى يصب فى البحر المحيط ويخرج الشرقى منه ذاهبا الى
الشمال على بلاد الحبشة والنوبة وفيما بينهما وينقسم فى أعلى أرض مصر فيصب
ثلاثة من جداوله فى البحر الرومى عند الاسكندرية ورشيد ودمياط ويصب واحد فى
بحيرة ملحة قبل أن يتصل بالبحر فى وسط هذا الاقليم الاول * وعلى هذا النيل بلاد
النوبة والحبشة وبعض بلاد الواحات الى أسوان وحاضرة بلاد النوبة مدينة دنقلة
وهى فى غربى هذا النيل وبعدها علوة وبلاق وبعدهما جبل الجنادل على ستة
مراحل من بلاق فى الشمال وهو جبل عال من جهة مصر ومنخفض من جهة النوبة
فينفذ فيه النيل ويصب فى مهوى بعيد صبا مهولا فلا يمكن أن تسلكه المراكب
بل يحول الوسق من مراكب السودان فيحمل على الظهر الى بلد أسوان قاعدة
الصعيد وكذا وسق مراكب الصعيد الى فوق الجنادل وبين الجنادل وأسوان اثنتا
عشرة مرحلة والواحات فى غربيها عدوة النيل وهى الآن خراب وبها آثار العمارة
القديمة * وفى وسط هذا الاقليم فى الجزء الخامس منه بلاد الحبشة على واد يأتى من

وراء خط الاستواء ذاهبا الى أرض النوبة فيصب هنالك في النيل الهابط الى مصر وقد وهم فيه كثير من الناس وزعموا أنه من نيل القمر وبطليموس ذكره في كتاب الجغرافيا وذكر أنه ليس من هذا النيل * والى وسط هذا الاقليم في الجزء الخامس ينتهي بحر الهند الذي يدخل من ناحية الصين ويغمر عامة هذا الاقليم الى هذا الجزء الخامس فلا يبقى فيه عمران الا ما كان في الجزائر التي في داخله وهي متعددة يقال تنتهي الى ألف جزيرة أو فيما على سواحله الجنوبية وهي آخر المعمور في الجنوب أو فيما على سواحله من جهة الشمال وليس منها في هذا الاقليم الاول الا طرف من بلاد الصين في جهة الشرق وفي بلاد اليمن * وفي الجزء السادس من هذا الاقليم فيما بين البحرين الهابطين من هذا البحر الهندي الى جهة الشمال وهما بحر قلزم وبحر فارس وفيما بينهما جزيرة العرب وتشتمل على بلاد اليمن وبلاد الشحر في شرقيها على ساحل هذا البحر الهندي وعلى بلاد الحجاز واليمامة وما اليهما كما نذكره في الاقليم الثاني وما بعده فأما الذي على ساحل هذا البحر من غربيه فبلد زالع من أطراف بلاد الحبشة ومجالات البجة في شمالي الحبشة ما بين جبل العلاقي في أعالي الصعيد وبين بحر القلزم الهابط من البحر الهندي وتحت بلاد زالع من جهة الشمال في هذا الجزء خليج باب المندب يضيق البحر الهابط هنالك بمزاحمة جبل المندب المائل في وسط البحر الهندي ممتدا مع ساحل اليمن من الجنوب الى الشمال في طول اثني عشر ميلا فيضيق البحر بسبب ذلك الى أن يصير في عرض ثلاثة أميال أو نحوها ويسمى باب المندب وعليه تمر مراكب اليمن الى ساحل السويس قريبا من مصر وتحت باب المندب جزيرة سواكن ودهلك وقبالته من غربيه مجالات البجة من أمم السودان كما ذكرناه ومن شرقيه في هذا الجزء تهائم اليمن ومنها على ساحله بلد علي بن يعقوب وفي جهة الجنوب من بلد زالع وعلى ساحل هذا البحر من غربيه قرى بربر يتلو بعضها بعضا وينعطف مع جنوبيه الى آخر الجزء السادس ويليها هنالك من جهة شرقيها بلاد الزنج ثم بلاد سفالة على ساحله الجنوبي في الجزء السابع من هذا الاقليم وفي شرقي بلاد سفالة من ساحله الجنوبي بلاد الواق واق متصلة الى آخر الجزء العاشر من هذا الاقليم عند مدخل هذا البحر من البحر المحيط * وأما جزائر هذا البحر فكثيرة من أعظمها جزيرة سرنديب مدورة الشكل وبها الجبل المشهور يقال ليس في الارض أعلى منه وهي قبالة سفالة * ثم جزيرة القمر وهي جزيرة مستطيلة تبدأ من قبالة أرض سفالة وتذهب الى الشرق منحرفة بكثير الى الشمال الى أن تقرب من سواحل أعالي الصين ويحتف بها في هذا البحر من جنوبيها جزائر الواق واق ومن شرقيها جزائر السيلان الى جزائر

أخر في هذا البحر كثيرة العدد وفيها أنواع الطيب والافاويه وفيها يقال معادن الذهب والزمرذ وعامة أهلها على دين المجوسية وفيهم ملوك متعددون وبهذه الجزائر من أحوال العمران عجائب ذكرها أهل الجغرافيا وعلى الضفة الشمالية من هذا البحر في الجزء السادس من هذا الاقليم بلاد اليمن كلها فمن جهة بحر القلزم بلد زبيد والمهجم وتهامة اليمن وبعدها بلد صعدة مقر الامامة الزيدية وهي بعيدة عن البحر الجنوبي وعن البحر الشرقي وفيما بعد ذلك مدينة عدن وفي شمالها صنعاء وبعدهما الى المشرق أرض الاحقاف وظفار وبعدها أرض حضرموت ثم بلاد الشحر ما بين البحر الجنوبي وبحر فارس * وهذه القطعة من الجزء السادس هي التي انكشف عنها البحر من أجزاء هذا الاقليم الوسطى وينكشف بعدها قليل من الجزء التاسع وأكثر منه من العاشر فيه أعالي بلاد الصين ومن مدنه الشهيرة خانكو وقبالتها من جهة الشرق جزائر السيلان وقد تقدم ذكرها وهذا آخر الكلام في الاقليم الاول والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق بمنه وفضله

(الاقليم الثاني) وهو متصل بالاول من جهة الشمال وقبالة المغرب منه في البحر المحيط جزيرتان من الجزائر الخالدات التي مر ذكرها وفي الجزء الاول والثاني منه في الجانب الاعلى منهما أرض قنورية وبعدها في جهة الشرق أعالي أرض غانة ثم مجالات زغاوة من السودان وفي الجانب الاسفل منهما صحراء نيسر متصلة من الغرب الى الشرق ذات مفاوز تسلك فيها التجار ما بين بلاد المغرب وبلاد السودان وفيها مجالات الملثمين من صنهاجة وهم شعوب كثيرة ما بين كزولة ولمتونة ومسراتة ولمطة ووريكة وعلى سمت هذه المفاوز شرقا أرض فزان ثم مجالات أركار من قبائل البربر ذاهبة الى أعالي الجزء الثالث على سمتها في الشرق وبعدها من هذا الجزء بلاد كوار من أمم السودان ثم قطعة من أرض التاجوين وفي أسافل هذا الجزء الثالث وهي جهة الشمال منه بقية أرض ودان وعلى سمتها شرقا أرض سنترية وتسمى الواحات الداخلة وفي الجزء الرابع من أعلاه بقية أرض التاجوين ثم يعترض في وسط هذا الجزء بلاد الصعيد حافتي النيل الذاهب من مبدئه في الاقليم الاول الى مصبه في البحر فيمر في هذا الجزء بين الجبلين الحاجزين وهما جبل الواحات من غربيه وجبل المقطم من شرقيه وعليه من أعلاه بلد اسنا وأرمنت ويتصل كذلك حافتيه الى أسيوط وقوص ثم الى صول * ويفترق النيل هنالك على شعبين ينتهي الايمن منهما في هذا الجزء عند اللاهون والايسر عند دلاص وفيما بينهما أعالي ديار مصر وفي الشرق من جبل المقطم صحارى عيذاب ذاهبة في الجزء الخامس الى أن

تنتهى الى بحر السويس وهو بحر القلزم الهابط من البحر الهندى فى الجنوب الى جهة الشمال وفى عدوته الشرقية من هذا الجزء أرض الحجاز من جبل يلملم الى بلاد يثرب وفى وسط الحجاز مكة شرفها الله وفى ساحلها مدينة جدة تقابل بلد عيذاب فى العدوة الغربية من هذا البحر وفى الجزء السادس من غربيه بلاد نجد أعلاها فى الجنوب وتبالة وجرش الى عكاظ من الشمال وتحت نجد من هذا الجزء بقية أرض الحجاز وعلى سمتها فى الشرق بلاد نجران وخيبر وتحتها أرض اليمامة وعلى سمت نجران فى الشرق أرض سبا ومأرب ثم أرض الشحر وينتهى الى بحر فارس وهو البحر الثانى الهابط من البحر الهندى الى الشمال كما مر ويذهب فى هذا الجزء بانحراف الى الغرب فيمر ما بين شرقيه وجوفيه قطعة مثلثة عليها من أعلاه مدينة قلهات وهى ساحل الشحر ثم تحتها على ساحله بلاد عمان ثم بلاد البحرين وهجر منها فى آخر الجزء وفى الجزء السابع فى الاعلى من غربيه قطعة من بحر فارس تتصل بالقطعة الاخرى فى السادس ويغمر بحر الهند جانبه الاعلى كله وعليه هنالك بلاد السند الى بلاد مكران ويقابلها بلاد الطوبران وهى من السند أيضا فيتصل السند كله فى الجانب الغربى من هذا الجزء وتحول المفاوز بينه وبين أرض الهند ويمر فيه نهره الآتى من ناحية بلاد الهند ويصب فى البحر الهندى فى الجنوب وأول بلاد الهند على ساحل البحر الهندى وفى سمتها شرقا بلاد بلهرا وتحتها الملتان بلاد الصنم المعظم عندهم ثم الى أسفل من السند ثم الى أعالى بلاد سجستان وفى الجزء الثامن من غربيه بقية بلاد بلهرا من الهند وعلى سمتها شرقا بلاد القندهار ثم بلاد منيبار وفى الجانب الاعلى على ساحل البحر الهندى وتحتها فى الجانب الاسفل أرض كابل وبعدها شرقا الى البحر المحيط بلاد القنوج ما بين قشمير الداخلة وقشمير الخارجة عند آخر الاقليم وفى الجزء التاسع ثم فى الجانب الغربى منه بلاد الهند الاقصى ويتصل فيه الى الجانب الشرقى فيتصل من أعلاه الى العاشر ويبقى فى أسفل ذلك الجانب قطعة من بلاد الصين فيها مدينة شيغون ثم تتصل بلاد الصين فى الجزء العاشر كله الى البحر المحيط والله ورسوله أعلم وبه سبحانه التوفيق وهو ولى الفضل والكرم

(الاقليم الثالث) هو متصل بالثانى من جهة الشمال ففى الجزء الاول منه وعلى نحو الثلث من أعلاه جبل درن معترض فيه من غربيه عند البحر المحيط الى الشرق عند آخره ويسكن هذا الجبل من البربر أمم لا يحصيهم الا خالقهم حسبما يأتى ذكره وفى القطعة التى بين هذا الجبل والاقليم الثانى وعلى البحر المحيط منها رباط ماسة ويتصل به شرقا بلاد سوس ونول وعلى سمتها شرقا بلاد درعة ثم بلاد سجلماسة ثم قطعة

من صحراء تيسر المفازة التى ذكرناها فى الاقليم الثانى وهذا الجبل مطل على هذه البلاد كلها فى هذا الجزء وهو قليل الثنايا والمسالك فى هذه الناحية الغربية الى أن يسامت وادى ملوية فتكثر ثناياه ومسالكه الى أن ينتهى وفى هذه الناحية منه أمم المصامدة ثم هنتاتة ثم تينملك ثم كدميوة ثم مشكورة وهم آخر المصامدة فيه ثم قبائل صنهاجة وهم صنهاجة وفى آخر هذا الجزء منه بعض قبائل زناتة ويتصل به هنالك من جوفيه جبل أوراس وهو جبل كتامة وبعد ذلك أمم أخرى من البرابرة نذكرهم فى أماكنهم * ثم ان جبل درن هذا من جهة غربيه مطل على بلاد المغرب الاقصى وهى فى جوفيه ففى الناحية الجنوبية منها بلاد مراكش واغمات وتادلا وعلى البحر المحيط منها رباط اسفى ومدينة سلا وفى الجوف عن بلاد مراكش بلاد فاس ومكناسة وتازا وقصر كتامة وهذه هى التى تسمى المغرب الاقصى فى عرف أهلها وعلى ساحل البحر المحيط منها بلدان أصيلا والعرايش وفى سمت هذه البلاد شرقا بلاد المغرب الاوسط وقاعدتها تلمسان وفى سواحلها على البحر الرومى بلد هنين ووهران والجزائر لان هذا البحر الرومى يخرج من البحر المحيط من خليج طنجة فى الناحية الغربية من الاقليم الرابع ويذهب مشرقا فينتهى الى بلاد الشأم فاذا خرج من الخليج المتضايق غير بعيد انفسح جنوبا وشمالا فدخل فى الاقليم الثالث والخامس فلهذا كان على ساحله من هذا الاقليم الثالث الكثير من بلاده ثم يتصل ببلاد الجزائر من شرقيها بلاد بجاية فى ساحل البحر ثم قسنطينة فى الشرق منها وفى آخر الجزء الاول وعلى مرحلة من هذا البحر فى جنوب هذه البلاد ومرتفعا الى جنوب المغرب الاوسط بلد أشير ثم بلد المسيلة ثم الزاب وقاعدته بسكرة تحت جبل أوراس المتصل بدرن كما مر وذلك عند آخر هذا الجزء من جهة الشرق والجزء الثانى من هذا الاقليم على هيئة الجزء الاول ثم جبل درن على نحو الثلث من جنوبه ذاهبا فيه من غرب الى شرق فيقسمه بقطعتين ويغمر البحر الرومى مسافة من شماله فالقطعة الجنوبية عن جبل درن غربيها كله مفاوز وفى الشرق منها بلد غدامس وفى سمتها شرقا أرض ودان التى بقيتها فى الاقليم الثانى كما مر والقطعة الجوفية عن جبل درن ما بينه وبين البحر الرومى فى الغرب منها جبل أوراس وتبسة والاربس وعلى ساحل البحر بلد بونة ثم فى سمت هذه البلاد شرقا بلاد افريقية فعلى ساحل البحر مدينة تونس ثم سوسة ثم المهدية وفى جنوب هذه البلاد تحت جبل درن بلاد الجريد توزر وقفصة ونفزاوة وفيما بينها وبين السواحل مدينة القيروان وجبل وسلات وسبيطلة وعلى سمت هذه البلاد كلها شرقا بلد طرابلس على البحر الرومى وبازائها فى الجنوب جبل

دمر ونفرة من قبائل هوارة متصلة بجبل درن وفى مقابلة غدامس التى مرّ ذكرها فى آخر القطعة الجنوبية وآخر هذا الجزء فى الشرق سويقة ابن مشكورة على البحر وفى جنوبها مجالات العرب فى أرض ودّان وفى الجزء الثالث من هذا الاقليم يمرّ أيضا فيه جبل درن الا أنه ينعطف عند آخره الى الشمال ويذهب على سمته الى أن يدخل فى البحر الرومى ويسمى هنالك طرف أوثان والبحر الرومى من شماليه غمر طائفة منه الى أن يضايق ما بينه وبين جبل درن فالذى وراء الجبل فى الجنوب وفى الغرب منه بقية أرض ودّان ومجالات العرب فيها ثم زويلة ابن خطاب ثم رمال وقفار الى آخر الجزء فى الشرق وفيما بين الجبل والبحر فى الغرب منه بلد سرت على البحر ثم خلاء وقفار تجول فيها العرب ثم اجدابية ثم برقة عند منعطف الجبل ثم طلمسة على البحر هنالك ثم فى شرق المنعطف من الجبل مجالات هيب ورواحة الى آخر الجزء وفى الجزء الرابع من هذا الاقليم وفى الاعلى من غربيه صحارى برقيق وأسفل منها بلاد هيب ورواحة ثم يدخل البحر الرومى فى هذا الجزء فيغمر طائفة منه الى الجنوب حتى يزاحم طرفه الاعلى ويبقى بينه وبين آخر الجزء قفار تجول فيها العرب وعلى سمتها شرقا بلاد الفيوم وهى على مصب أحد الشعبين من النيل الذى يمر على اللاهون من بلاد الصعيد فى الجزء الرابع من الاقليم الثانى ويصب فى بحيرة فيوم وعلى سمته شرقا أرض مصر ومدينتها الشهيرة على الشعب الثانى الذى يمر بدلاص من بلاد الصعيد عند آخر الجزء الثانى ويفترق هذا الشعب افتراقة ثانية من تحت مصر على شعبين آخرين من شطنوف وزفتى وينقسم الايمن منهما من قرمط بشعبين آخرين ويصب جميعها فى البحر الرومى فعلى مصب الغربى من هذا الشعب بلد الاسكندرية وعلى مصب الوسط بلد رشيد وعلى مصب الشرقى بلد دمياط وبين مصر والقاهرة وبين هذه السواحل البحرية أسافل الديار المصرية كلها محشوة عمرانا وفلجا وفى الجزء الخامس من هذا الاقليم بلاد الشام وأكثرها على ما أصف وذلك لان بحر القلزم ينتهى من الجنوب وفى الغرب منه عند السويس لانه فى ممره مبتدئ من البحر الهندى الى الشمال ينعطف آخذا الى جهة الغرب فتكون قطعة من انعطافه فى هذا الجزء طويلة فينتهى فى الطرف الغربى منه الى السويس وعلى هذه القطعة بعد السويس فاران ثم جبل الطور ثم أيلة مدين ثم الحوراء فى آخرها ومن هنالك ينعطف بساحله الى الجنوب فى أرض الحجاز كما مر فى الاقليم الثانى فى الجزء الخامس منه وفى الناحية الشمالية من هذا الجزء قطعة من البحر الرومى غمرت كثيرا من غربيه عليها الفرما والعريش وقارب طرفها بلد القلزم فيضايق ما بينهما من هنالك وبقى شبه الباب مفضيا الى أرض الشأم

وفى غربى هذا الباب فحص التيه أرض جرداء لاتنبت كانت مجالا لبنى اسرائيل بعد خروجهم من مصر وقبل دخولهم الى الشأم أربعين سنة كما قصه القرآن وفى هذه القطعة من البحر الرومى فى هذا الجزء طائفة من جزيرة قبرس وبقيتها فى الاقليم الرابع كما نذكره وعلى ساحل هذه القطعة عند الطرف المتضايق لبحر السويس بلد العريش وهو آخر الديار المصرية وعسقلان وبينهما طرف هذا البحر ثم تنحط هذه القطعة فى انعطافها من هنالك الى الاقليم الرابع عند طرابلس وغزة وهنالك ينتهى البحر الرومى فى جهة الشرق وعلى هذه القطعة أكثر سواحل الشأم ففى شرقه عسقلان وبانحراف يسير عنها الى الشمال بلد قيسارية ثم كذلك بلد عكا ثم صور ثم صيدا ثم غزة ثم ينعطف البحر الى الشمال فى الاقليم الرابع ويقابل هذه البلاد الساحلية من هذه القطعة فى هذا الجزء جبل عظيم يخرج من ساحل أيلة من بحر القلزم ويذهب فى ناحية الشمال منحرفا الى الشرق الى أن يجاوز هذا الجزء ويسمى جبل اللكام وكأنه حاجز بين أرض مصر والشأم ففى طرفه عند أيلة العقبة التى يمر عليها الحجاج من مصر الى مكة ثم بعدها فى ناحية الشمال مدفن الخليل عليه الصلاة والسلام عند جبل السراة يتصل من عند جبل اللكام المذكور من شمال العقبة ذاهبا على سمت الشرق ثم ينعطف قليلا وفى شرقه هنالك بلد الحجر وديار ثمود وتيماء ودومة الجندل وهى أسافل الحجاز وفوقها جبل رضوى وحصون خيبر فى جهة الجنوب عنها وفيما بين جبل السراة وبحر القلزم صحراء تبوك وفى شمال جبل السراة مدينة القدس عند جبل اللكام ثم الاردن ثم طبرية وفى شرقيها بلاد الغور الى أذرعات وفى سمتها شرقا دومة الجندل آخر هذا الجزء وهى آخر الحجاز * وعند منعطف جبل اللكام الى الشمال من آخر هذا الجزء مدينة دمشق مقابلة صيدا وبيروت من القطعة البحرية وجبل اللكام يعترض بينها وبينها وعلى سمت دمشق فى الشرق مدينة بعلبك ثم مدينة حمص فى الجهة الشمالية آخر الجزء عند منقطع جبل اللكام وفى الشرق عن بعلبك وحمص بلد تدمر ومجالات البادية الى آخر الجزء وفى الجزء السادس من أعلاه مجالات الاعراب تحت بلاد نجد واليمامة ما بين جبل العرج والصمان الى البحرين وهجر على بحر فارس وفى أسافل هذا الجزء تحت المجالات بلد الحيرة والقادسية ومغايض الفرات * وفيما بعدها شرقا مدينة البصرة وفى هذا الجزء ينتهى بحر فارس عند عبادان والابلة من أسافل الجزء من شماله وينصب فيه عند عبادان نهر دجلة بعد أن ينقسم بجداول كثيرة وتختلط به جداول أخرى من الفرات ثم تجتمع كلها عند عبادان وتصب فى بحر فارس وهذه القطعة من البحر متسعة فى أعلاه

متضايقة فى آخره فى شرقيه وضيقة عند منتهاه مضايقة للعدا الشمالى منه وعلى عدوتها الغربية منه أسافل البحرين وهجر والاحسا وفى غربها أخطب والصمان وبقية أرض اليمامة وعلى عدوته الشرقية سواحل فارس من أعلاها وهو من عند آخر الجزء من الشرق على طرف قد امتد من هذا البحر مشرقا وورآءه الى الجنوب فى هذا الجزء جبال القفص من كرمان وتحت هرمز على الساحل بلد سيراف ونجيرم على ساحل هذا البحر * وفى شرقيه الى آخر الجزء وتحت هرمز بلاد فارس مثل صابور ودارابجرد ونسا واصطخر والشاهجان وشيراز وهى قاعدتها كلها وتحت بلاد فارس الى الشمال عند طرف البحر بلاد خوزستان ومنها الاهواز وتستر وصدى وصابور والسوس ورام هرمز وغيرها وأرجان وهى حد ما بين فارس وخوزستان وفى شرقى بلاد خوزستان جبال الاكراد متصلة الى نواحى اصبهان وبها مساكنهم ومجالاتهم وراءها فى أرض فارس وتسمى الرسوم وفى الجزء السابع فى الاعلى منه من المغرب بقية جبال القفص ويليها من الجنوب والشمال بلاد كرمان ومكران ومن مدنها الرودان والشيرجان وجيرفت ويزدشير والبهرج وتحت أرض كرمان الى الشمال بقية بلاد فارس الى حدود اصبهان ومدينة اصبهان فى طرف هذا الجزء ما بين غربه وشماله ثم فى المشرق عن بلاد كرمان وبلاد فارس أرض سجستان وكوهستان فى الجنوب وأرض كوهستان فى الشمال عنها ويتوسط بين كرمان وفارس وبين سجستان وكوهستان فى وسط هذا الجزء المفاوز العظمى القليلة المسالك لصعوبتها ومن مدن سجستان بست والطاق وأما كوهستان فهى من بلاد خراسان ومن مشاهير بلادها سرخس وقوهستان آخر الجزء * وفى الجزء الثامن من غربه وجنوبه مجالات الخلج من أمم الترك متصلة بأرض سجستان من غربها وبأرض كابل الهند من جنوبها وفى الشمال عن هذه المجالات جبال الغور وبلادها وقاعدتها غزنة فرضة الهند وفى آخر الغور من الشمال بلاد استراباذ ثم فى الشمال عنها الى آخر الجزء بلاد هراة أوسط خراسان وبها اسفراين وقاشان وبوشنج ومرو الروذ والطالقان والجوزجان وتنتهى خراسان هنالك الى نهر جيحون * وعلى هذا النهر من بلاد خراسان من غربيه مدينة بلخ وفى شرقيه مدينة ترمذ ومدينة بلخ كانت كرسى مملكة الترك وهذا النهر نهر جيحون مخرجه من بلاد وجار فى حدود بذخشان مما يلى الهند ويخرج من جنوب هذا الجزء وعند آخره من الشرق فينعطف عن قرب مغربا الى وسط الجزء ويسمى هنالك نهر خرناب ثم ينعطف الى الشمال حتى يمر بخراسان ويذهب على سمته الى أن يصب فى بحيرة خوارزم فى الاقليم الخامس كما نذكره ويمده عند انعطافه فى وسط

الجزء من الجنوب الى الشمال خمسة أنهار عظيمة من بلاد الختل والوخش من شرقيه وأنهاراً أخرى من جبال البتم من شرقيه أيضاً وجوفي الجبل حتى يتسع ويعظم بما لا كفاء له ومن هذه الانهار الخمسة الممدة له نهر وخشاب يخرج من بلاد التبت وهي بين الجنوب والشرق من هذا الجزء فيمر مغرباً بانحراف الى الشمال الى أن يخرج الى الجزء التاسع قريباً من شمال هذا الجزء يعترضه في طريقه جبل عظيم يمر من وسط الجنوب في هذا الجزء ويذهب مشرقاً بانحراف الى الشمال الى أن يخرج الى الجزء التاسع قريباً من شمال هذا الجزء فيجوز بلاد التبت الى القطعة الشرقية الجنوبية من هذا الجزء ويحول بين الترك وبين بلاد الختل وليس فيه الا مسلك واحد في وسط الشرق من هذا الجزء جعل فيه الفضل بن يحيى سداً وبنى فيه باباً كسد يأجوج ومأجوج فاذا خرج نهر وخشاب من بلاد التبت واعترضه هذا الجبل فيمر تحته في مدى بعيد الى أن يمر في بلاد الوخش ويصب في نهر جيحون عند حد ود بلخ ثم يمر هابطاً الى الترمذ في الشمال الى بلاد الجوزجان وفي الشرق عن بلاد الغور فيما بينها وبين نهر جيحون بلاد الناسان من خراسان وفي العدوة الشرقية هنالك من النهر بلاد الختل وأكثرها جبال وبلاد الوخش ويحدها من جهة الشمال جبال البتم تخرج من طرف خراسان غربي نهر جيحون وتذهب مشرقة الى أن يتصل طرفها بالجبل العظيم الذي خلفه بلاد التبت ويمر تحته نهر وخشاب كما قلناه فيتصل به عند باب الفضل بن يحيى ويمر نهر جيحون بين هذه الجبال وأنهاراً أخرى تصب فيه منها نهر بلاد الوخش يصب فيه من الشرق تحت الترمذ الى جهة الشمال ونهر بلخ يخرج من جبال البتم من مبدئه عند الجوزجان ويصب فيه من غربيه وعلى هذا النهر من غربيه بلاد آمد من خراسان وفي شرقي النهر من هنالك أرض الصغد وأسروشنة من بلاد الترك وفي شرقها أرض فرغانة أيضاً الى آخر الجزء شرقاً وكل بلاد الترك تحوزها جبال البتم الى شمالها وفي الجزء التاسع من غربيه أرض التبت الى وسط الجزء وفي جنوبيها بلاد الهند وفي شرقيها بلاد الصين الى آخر الجزء وفي أسفل هذا الجزء شمالاً عن بلاد التبت بلاد الخزلجية من بلاد الترك الى آخر الجزء شرقاً وشمالاً ويتصل بها من غربيها أرض فرغانة أيضاً الى آخر الجزء شرقاً ومن شرقيها أرض التغزغز من الترك الى آخر الجزء شرقاً وشمالاً * وفي الجزء العاشر في الجنوب منه جميعاً بقية الصين وأسافله وفي الشمال بقية بلاد التغزغز ثم شرقاً عنهم بلاد خرخير من الترك أيضاً الى آخر الجزء شرقاً وفي الشمال من أرض خرخير بلاد كيماك من الترك وقبالتها في البحر المحيط جزيرة الياقوت في وسط جبل مستدير لا منفذ منه اليها ولا مسلك والصعود الى أعلاه من

خارجه صعب في الغاية وفي الجزيرة حيات قتالة وحصى من الياقوت كثيرة فيحتال أهل تلك الناحية في استخراجه بما يلهمهم الله اليه وأهل هذه البلاد في هذا الجزء التاسع والعاشر فيما وراء خراسان والجبال كلها مجالات للترك أمم لا تحصى وهم ظواعن رحالة أهل ابل وشاء وبقر وخيل للنتاج والركوب والاكل وطوائفهم كثيرة لا يحصيهم الا خالقهم وفيهم مسلمون مما يلي بلاد النهر نهر جيحون ويغزون الكفار منهم الدائنين بالمجوسية فيبيعون رقيقهم لمن يليهم ويخرجون الى بلاد خراسان والهند والعراق

(الاقليم الرابع) يتصل بالثالث من جهة الشمال * والجزء الاول منه في غربيه قطعة من البحر المحيط مستطيلة من أوله جنوبا الى آخره شمالا وعليها في الجنوب مدينة طنجة ومن هذه القطعة تحت طنجة من البحر المحيط الى البحر الرومي في خليج متضايق بمقدار اثني عشر ميلا ما بين طريف والجزيرة الخضراء شمالا وقصر المجاز وسبتة جنوبا ويذهب مشرقا الى أن ينتهي الى وسط الجزء الخامس من هذا الاقليم وينفسح في ذهابه بتدريج الى أن يغمر الاربعة أجزاء وأكثر الخامس ويغمر عن جانبيه طرفا من الاقليم الثالث والخامس كما سنذكره ويسمى هذا البحر البحر الشامي أيضا وفيه جزائر كثيرة أعظمها في جهة الغرب يابسة ثم مايرقة ثم منرقة ثم سردانية ثم صقلية وهي أعظمها ثم بلونس ثم اقريطش ثم قبرص كما نذكرها كلها في أجزائها التي وقعت فيها ويخرج من هذا البحر الرومي عند آخر الجزء الثالث منه وفي الجزء الثالث من الاقليم الخامس خليج البنادقة يذهب الى ناحية الشمال ثم ينعطف عند وسط الجزء من جوفيه ويمر مغربا الى أن ينتهي في الجزء الثاني من الخامس ويخرج منه أيضا في آخر الجزء الرابع شرقا من الاقليم الخامس خليج القسطنطينية يمر في الشمال متضايقا في عرض رمية السهم الى آخر الاقليم ثم يفضي الى الجزء الرابع من الاقليم السادس وينعطف الى بحر نيطش ذاهبا الى الشرق في الجزء الخامس كله ونصف السادس من الاقليم السادس كما نذكر ذلك في أماكنه وعند ما يخرج هذا البحر الرومي من البحر المحيط في خليج طنجة وينفسح الى الاقليم الثالث يبقى في الجنوب عن الخليج قطعة صغيرة من هذا الجزء فيها مدينة طنجة على مجمع البحرين وبعدها مدينة سبتة على البحر الرومي ثم قطاون ثم باديس ثم يغمر هذا البحر بقية هذا الجزء شرقا ويخرج الى الثالث وأكثر العمارة في هذا الجزء في شماله وشمال الخليج منه وهي كلها بلاد الاندلس الغربية منها ما بين البحر المحيط والبحر الرومي أولها طريف عند مجمع البحرين وفي الشرق منها على ساحل البحر الرومي الجزيرة الخضراء ثم مالقة ثم المنكب

ثم المرية وتحت هذه من لدن البحر المحيط غربا وعلى مغربه منه شريش ثم لبلة وقبالتها فيه جزيرة قادس وفى الشرق عن شريش ولبلة اشبيلية ثم استجة وقرطبة ومديلة ثم غرناطة وجيان وأبدة ثم واداياش وبسطة وتحت هذه شنترية وشلب على البحر المحيط غربا وفى الشرق عنهما بطليوس وماردة ويابرة ثم غافق وبزجالة ثم قلعة رباح وتحت هذه أشبونة على البحر المحيط غربا وعلى نهر باجة وفى الشرق عنها شنترين وموزية على النهر المذكور ثم قنطرة السيف ويسامت اشبونة من جهة الشرق جبل الشارات يبدأ من المغرب هنالك ويذهب مشرقا مع آخر الجزء من شماليه فينتهى الى مدينة سالم فيما بعد النصف منه وتحت هذا الجبل طلبيرة فى الشرق من فورنه ثم طليطلة ثم وادى الحجارة ثم مدينة سالم وعند أول هذا الجبل فيما بينه وبين اشبونة بلد قلمرية هذه غربى الاندلس * وأما شرقى الاندلس فعلى ساحل البحر الرومى منها بعد المرية قرطاجنة ثم لقنة ثم دانية ثم بلنسية الى طرطوشة آخر الجزء فى الشرق وتحتها شمالا اليورقة وشقورة تتاخمان بسطة وقلعة رباح من غرب الاندلس ثم مرسية شرقا ثم شاطبة تحت بلنسية شمالا ثم شقر ثم طرطوشة ثم طركونة آخر الجزء ثم تحت هذه شمالا أرض منجالة وريدة متاخمان لشقورة وطليطلة من الغرب ثم افراغة شرقا تحت طرطوشة وشمالا عنها ثم فى الشرق عن مدينة سالم قلعة أيوب ثم سرقسطة ثم لاردة آخر الجزء شرقا وشمالا * والجزء الثانى من هذا الاقليم غمر الماء جميعه الا قطعة من غربيه فى الشمال فيها بقية جبل البرتات ومعناه جبل الثنايا والسالك يخرج اليه من آخر الجزء الاول من الاقليم الخامس يبدأ من الطرف المنتهى من البحر المحيط عند آخر ذلك الجزء جنوبا وشرقا ويمر فى الجنوب بانحراف الى الشرق فيخرج فى هذا الاقليم الرابع منحرفا عن الجزء الاول منه الى هذا الجزء الثانى فيقع فيه قطعة منه تفضى ثناياها الى البر المتصل وتسمى أرض غشكونية وفيه مدينة خريدة وقرقشونة وعلى ساحل البحر الرومى من هذه القطعة مدينة برسلونة ثم أربونة وفى هذا البحر الذى غمر الجزء جزائر كثيرة والكثير منها غير مسكون لصغرها ففى غربيه جزيرة سردانية وفى شرقيه جزيرة صقلية متسعة الاقطار يقال ان دورها سبعمائة ميل وبها مدن كثيرة من مشاهيرها سرقوسة وبلرم وطرابغة ومازر ومسينى وهذه الجزيرة تقابل أرض افريقية وفيما بينهما جزيرة أعدوش ومالطة * والجزء الثالث من هذا الاقليم مغمور أيضا بالبحر الا ثلاث قطع من ناحية الشمال الغربية منها أرض قلوزية والوسطى من أرض ابكبرده والشرقية من بلاد البنادقة * والجزء الرابع من هذا الاقليم مغمور أيضا بالبحر كما مر

وجزائره كثيرة وأكثرها غير مسكون كما فى الثالث والمعمور منها جزيرة بلونس فى الناحية الغربية الشمالية وجزيرة اقريطش مستطيلة من وسط الجزء الى ما بين الجنوب والشرق منه * والجزء الخامس من هذا الاقليم غمر البحر منه مثلثة كبيرة بين الجنوب والغرب ينتهى الضلع الغربى منها الى آخر الجزء فى الشمال وينتهى الضلع الجنوبى منها الى نحو الثلثين من الجزء ويبقى فى الجانب الشرقى من الجزء قطعة نحو الثلث يمر الشمالى منها الى الغرب منعطفا مع البحر كما قلناه وفى النصف الجنوبى منها أسافل الشام ويمر فى وسطها جبل اللكام الى أن ينتهى الى آخر الشأم فى الشمال فينعطف من هنالك ذاهبا الى القطر الشرقى الشمالى ويسمى بعد انعطافه جبل السلسلة ومن هنالك يخرج الى الاقليم الخامس ويجوز من عند منعطفه قطعة من بلاد الجزيرة الى جهة الشرق ويقوم من عند منعطفه من جهة المغرب جبال متصلة بعضها ببعض الى أن ينتهى الى طرف خارج من البحر الرومى متأخر الى آخر الجزء من الشمال وبين هذه الجبال ثنايا تسمى الدروب وهى التى تفضى الى بلاد الارمن وفى هذا الجزء قطعة منها بين هذه الجبال وبين جبل السلسلة فأما الجهة الجنوبية التى قدمنا أن فيها أسافل الشأم وأن جبل اللكام معترض فيها بين البحر الرومى وآخر الجزء من الجنوب الى الشمال فعلى ساحل البحر منه بلد أنطرطوس فى أول الجزء من الجنوب متاخمة لغزة وطرابلس على ساحله من الاقليم الثالث وفى شمال أنطرطوس جبلة ثم اللاذقية ثم اسكندرونة ثم سلوقية وبعدها شمالا بلاد الروم وأما جبل اللكام المعترض بين البحر وآخر الجزء بحفافيه فيصاقبه من بلاد الشأم من أعلى الجزء جنوبا من غربيه حصن الحوانى وهو للحشيشة الاسماعيلية ويعرفون لهذا العهد بالفداوية ويسمى الحصن مصيات وهو قبالة انطرطوس وقبالة هذا الحصن فى شرق الجبل بلد سلمية فى الشمال عن حمص وفى الشمال عن مصيات بين الجبل والبحر بلد انطاكية ويقابلها فى شرق الجبل المعرة وفى شرقها المراغة وفى شمال انطاكية المصيصة ثم أذنة ثم طرسوس آخر الشأم ويحاذيها من غرب الجبل قنسرين ثم عين زربة وقبالة قنسرين فى شرق الجبل حلب ويقابل عين زربة منبج آخر الشأم * وأما الدروب فعن يمينها ما بينها وبين البحر الرومى بلاد الروم التى هى لهذا العهد للتركمان وسلطانها ابن عثمان وفى ساحل البحر منها بلد انطاكية والعلايا * وأما بلاد الارمن التى بين جبل الدروب وجبل السلسلة ففيها بلد مرعش وملطية والمعرة الى آخر الجزء الشمالى ويخرج من الجزء الخامس فى بلاد الارمن نهر جيحان ونهر سيحان فى شرقيه فيمر بها جيحان جنوبا حتى يتجاوز الدروب ثم يمر بطرسوس ثم بالمصيصة ثم ينعطف هابطا الى الشمال ومغربا

حتى يصب فى البحر الرومى جنوب سلوقية ويمر نهر سيحان وازيا النهر جيحان فيحاذى المعرة ومرعش ويتجاوز جبال الدروب الى أرض الشأم ثم يمر بعين زربة ويجوز عن نهر جيحان ثم ينعطف الى الشمال مغربا يختلط بنهر جيحان عند المصيصة ومن غربها * وأما بلاد الجزيرة التى يحيط بها منعطف جبل اللكام الى جبل السلسلة ففى جنوبها بلد الرافضة والرقة ثم حران ثم سروج والرها ثم نصيبين ثم سميساط وآمد تحت جبل السلسلة وآخر الجزء من شماله وهو أيضا آخر الجزء من شرقيه ويمر فى وسط هذه القطعة نهر الفرات ونهر دجلة يخرجان من الاقليم الخامس ويمران فى بلاد الارمن جنوبا الى أن يتجاوزا جبل السلسلة فيمر نهر الفرات من غربى سميساط وسروج وينحرف الى الشرق فيمر بقرب الرافضة والرقة ويخرج الى الجزء السادس وتمر دجلة فى شرق آمد وتنعطف قريبا الى الشرق فيخرج قريبا الى الجزء السادس * وفى الجزء السادس من هذا الاقليم من غربيه بلاد الجزيرة وفى الشرق منها بلاد العراق متصلة بها تنتهى فى الشرق الى قرب آخر الجزء ويعترض من آخر العراق هنالك جبل اصبهان هابطا من جنوب الجزء منحرفا الى الغرب فاذا انتهى الى وسط الجزء من آخره فى الشمال يذهب مغربا الى أن يخرج من الجزء السادس ويتصل على سمته بجبل السلسلة فى الجزء الخامس فينقطع هذا الجزء السادس بقطعتين غربية وشرقية ففى الغربية من جنوبيها مخرج الفرات من الخامس وفى شماليها مخرج دجلة منه أما الفرات فأول ما يخرج الى السادس يمر بقرقيسيا ويخرج من هنالك جدول الى الشمال ينساب فى أرض الجزيرة ويغوص فى نواحيها ويمر من قرقيسيا غير بعيد ثم ينعطف الى الجنوب فيمر بقرب الخابور الى غرب الرحبة ويخرج منه جدول من هنالك يمر جنوبا ويبقى صفين فى غربيه ثم ينعطف شرقا وينقسم بشعوب فيمر بعضها بالكوفة وبعضها بقصر ابن هبيرة وبالجامعين وتخرج جميعا فى جنوب الجزء الى الاقليم الثالث فيغوص هنالك فى شرق الحيرة والقادسية ويخرج الفرات من الرحبة مشرقا على سمته الى هيت من شمالها يمر الى الزاب والانبار من جنوبهما ثم يصب فى دجلة عند بغداد * وأما نهر دجلة فاذا دخل من الجزء الخامس الى هذا الجزء يمر مشرقا على سمته ومحاذيا لجبل السلسلة المتصل بجبل العراق على سمته فيمر بجزيرة ابن عمر على شمالها ثم بالموصل كذلك وتكريت وينتهى الى الحديثة فينعطف جنوبا وتبقى الحديثة فى شرقه والزاب الكبير والصغير كذلك ويمر على سمته جنوبا وفى غرب القادسية الى أن ينتهى الى بغداد ويختلط بالفرات ثم يمر جنوبا على غرب جرجرايا الى أن يخرج من الجزء الى الاقليم الثالث فتنتشر هنالك شعوبه وجداوله ثم يجتمع ويصب هنالك فى بحر فارس

عنـد عبادان وفيما بين نهر الدجلة والفرات قبل مجمعهما ببغداد هي بلاد الجزيرة
ويختلط بنهر دجلة بعد مفارقته بغداد نهر آخر يأتي من الجهة الشرقية الشمالية منه
وينتهي الى بلاد النهروان قبالة بغداد شرقاً ثم ينعطف جنوباً ويختلط بدجلة قبل خروجه
الى الاقليم الثالث ويبقى ما بين هذا النهر وبين جبل العراق والاعاجم بلاد جلولاء وفي
شرقها عند الجبل بلد حلوان وصيمرة * وأمّا القطعة الغربية من الجزء فيعترضها جبل
يبدأ من جبل الاعاجم مشرقاً الى آخر الجزء ويسمى جبل شهرزور ويقسمها بقطعتين
وفي الجنوب من هذه القطعة الصغرى بلد خونجان في الغرب والشمال عن اصبهان
وتسمى هذه القطعة بلد الهلوس وفي وسطها بلد نهاوند وفي شمالها بلد شهرزور وغرباً عند
ملتقى الجبلين والدينور شرقاً عند آخر الجزء وفي القطعة الصغرى الثانية طرف من بلاد
ارمينية قاعدتها المراغة والذي يقابلها من جبل العراق يسمى باريا وهو مساكن
للاكراد والزاب الكبير والصغير الذي على دجلة من ورائه وفي آخر هذه القطعة من
جهة الشرق بلاد اذربيجان ومنها تبريز والبيلقان وفي الزاوية الشرقية الشمالية من
هذا الجزء قطعة من بحر نيطش وهو بحر الخزر * وفي الجزء السابع من هذا الاقليم من
غربه وجنوبه معظم بلاد الهلوس وفيها همذان وقزوين وبقيتها في الاقليم الثالث
وفيها هنالك اصبهان ويحيط بها من الجنوب جبل يخرج من غربها ويمر بالاقليم
الثالث ثم ينعطف من الجزء السادس الى الاقليم الرابع ويتصل بجبل العراق في شرقيه
الذي مر ذكره هنالك وأنه محيط ببلاد الهلوس في القطعة الشرقية ويهبط
هذا الجبل المحيط باصبهان من الاقليم الثالث الى جهة الشمال ويخرج الى هذا الجزء
السابع فيحيط ببلاد الهلوس من شرقها وتحته هنالك قاشان ثم قم وينعطف في قرب
النصف من طريقه مغرباً بعض الشيء ثم يرجع مستديراً فيذهب مشرقاً ومنحرفاً
الى الشمال حتى يخرج الى الاقليم الخامس ويشتمل على منعطفه واستدارته على بلد
الري في شرقيه ويبدأ من منعطفه جبل آخر يمر غرباً الى آخر الجزء ومن جنوبه من
هنالك قزوين ومن جانبه الشمالي وجانب جبل الري المتصل معه ذاهباً الى الشرق
والشمال الى وسط الجزء ثم الى الاقليم الخامس بلاد طبرستان فيما بين هذه الجبال
وبين قطعة من بحر طبرستان ويدخل من الاقليم الخامس في هذا الجزء في نحو النصف
من غربه الى شرقه ويعترض عند جبل الري وعند انعطافه الى الغرب جبل متصل
يمر على سمته مشرقاً وبانحراف قليل الى الجنوب حتى يدخل في الجزء الثامن من غربه
ويبقى بين جبل الري وهذا الجبل من عند مبدئهما بلاد جرجان فيما بين الجبلين ومنها
بسطام ووراء هذا الجبل قطعة من هذا الجزء فيها بقية المفازة التي بين فارس وخراسان

وهي في شرقي قاشان وفي آخرها عند هذا الجبل بلد استراباذ وحفافي هذا الجبل من شرقيه الى آخر الجزء بلاد نيسابور من خراسان ففي جنوب الجبل وشرق المفازة بلد نيسابور ثم مرو الشاهجان آخر الجزء وفي شماله وشرقي جرجان بلد مهرجان وخازرون وطوس آخر الجزء شرقا وكل هذه تحت الجبل وفي الشمال عنها بلاد نسا ويحيط بها عند زاوية الجزء بين الشمال والشرق مفاوز معطلة * وفي الجزء الثامن من هذا الاقليم وفي غربيه نهر جيحون ذاهبا من الجنوب الى الشمال ففي عدوته الغربية زم وآمل من بلاد خراسان والطاهرية والجرجانية من بلاد خوارزم ويحيط بالزاوية الغربية الجنوبية منه جبل استراباذ المعترض في الجزء السابع قبله ويخرج في هذا الجزء من غربيه ويحيط بهذه الزاوية وفيها بقية بلاد هراة ويمر الجبل في الاقليم الثالث بين هراة والجوزجان حتى يتصل بجبل البتم كما ذكرناه هنالك وفي شرقي نهر جيحون من هذا الجزء وفي الجنوب منه بلاد بخارى ثم بلاد الصغد وقاعدتها سمرقند ثم بلاد أسروشنة ومنها خجندة آخر الجزء شرقا وفي الشمال عن سمرقند وأسروشنة أرض يلاق ثم في الشمال عن يلاق أرض الشاش الى آخر الجزء شرقا ويأخذ قطعة من الجزء التاسع في جنوب تلك القطعة بقية أرض فرغانة ويخرج من تلك القطعة التي في الجزء التاسع نهر الشاش يمر معترضا في الجزء الثامن الى أن ينصب في نهر جيحون عند مخرجه من هذا الجزء الثامن في شماله الى الاقليم الخامس ويختلط معه في أرض يلاق نهر يأتي من الجزء التاسع من الاقليم الثالث من تخوم بلاد التبت ويختلط معه قبل مخرجه من الجزء التاسع نهر فرغانة وعلى سمت نهر الشاش جبل جبراغون يبدأ من الاقليم الخامس وينعطف شرقا ومنحرفا الى الجنوب حتى يخرج الى الجزء التاسع محيطا بأرض الشاش ثم ينعطف في الجزء التاسع فيحيط بالشاش وفرغانة هنالك الى جنوبه فيدخل في الاقليم الثالث وبين نهر الشاش وطرف هذا الجبل في وسط الجزء بلاد فاراب وبينه وبين أرض بخارى وخوارزم مفاوز معطلة وفي زاوية هذا الجزء من الشمال والشرق أرض خجندة وفيها بلد اسبيجاب وطراز * وفي الجزء التاسع من هذا الاقليم في غربيه بعد أرض فرغانة والشاش أرض الخزلجية في الجنوب وأرض الخليجية في الشمال وفي شرق الجزء كله أرض الكيماكية ويتصل في الجزء العاشر كله الى جبل قوقيا آخر الجزء شرقا وعلى قطعة من البحر المحيط هنالك وهو جبل يأجوج ومأجوج وهذه الامم كلها من شعوب الترك انتهى

(الاقليم الخامس) الجزء الاول منه أكثره مغمور بالماء الا قليلا من جنوبه وشرقه لان البحر المحيط بهذه الجهة الغربية دخل في الاقليم الخامس والسادس

والسابع عن الدائرة المحيطة بالاقليم فأما المنكشف من جنوبه فقطعة على شكل مثلث متصلة من هنالك بالاندلس وعليها بقيتها ويحيط بها البحر من جهتين كأنهما ضلعان محيطان بزاوية المثلث ففيهما من بقية غرب الاندلس سمورة على البحر عند أول الجزء من الجنوب والغرب وسلمنكة شرقاعنها وفي جوفها سمورة وفي الشرق عن سلمنكة ابلة آخر الجنوب وأرض قستالية شرقاعنها وفيها مدينة شقوبية وفي شمالها أرض ليون وبرغشت ثم وراءها في الشمال أرض جليقية الى زاوية القطعة وفيها على البحر المحيط في آخر الضلع الغربي بلد شنتياقو ومعناه يعقوب وفيها من شرق بلاد الاندلس مدينة شطالية عند آخر الجزء في الجنوب وشرقاعن قستالية وفي شمالها وشرقها وشقة وبنبلونة على سمتها شرقا وشمالا وفي غرب بنبلونة قسطالة ثم ناجرة فيما بينها وبين برغشت ويعترض وسط هذه القطعة جبل عظيم محاذ للبحر وللضلع الشمالي الشرقي منه وعلى قرب ويتصل به وبطرف البحر عند بنبلونة في جهة الشرق الذي ذكرنا من قبل أن يتصل في الجنوب بالبحر الرومي في الاقليم الرابع ويصير حجرا على بلاد الاندلس من جهة الشرق وثناياه أبواب لها تفضي الى بلاد غشكونية من امم الفرنج فمنها من الاقليم الرابع برشلونة واربونة على ساحل البحر الرومي وخريدة وقرقشونة وراءهما في الشمال ومنها من الاقليم الخامس طلوشة شمالا عن خريدة * وأما المنكشف في هذا الجزء من جهة الشرق فقطعة على شكل مثلث مستطيل زاويته الحادة وراء البرنات شرقا وفيها على البحر المحيط على رأس القطعة التي يتصل بها جبل البرنات بلدنيونة وفي آخرهذه القطعة في الناحية الشرقية الشمالية من الجزء أرض بنطو من الفرنج الى آخر الجزء وفي الجزء الثاني في الناحية الغربية منه ارض غشكونية وفي شمالها أرض بنطو وبرغشت وقد ذكرناهما وفي شرق بلاد غشكونية في شمالها قطعة أرض من البحر الرومي دخلت في هذا الجزء كالضرس مائلة الى الشرق قليلا وصارت بلاد غشكونية في غربها داخلة في جون من البحر وعلى رأس هذه القطعة شمالا بلاد جنوة وعلى سمتها في الشمال جبل نيت جون وفي شماله وعلى سمته أرض برغونة وفي الشرق عن طرف جنوة الخارج من البحر الرومي طرف آخر خارج منه يبقى بينهما جون داخل من البر في البحر في غربيه بيش وفي شرقيه مدينة رومة العظمى كرسي ملك الافرنجة ومسكن البابا بتركهم الاعظم وفيها من المباني الضخمة والهياكل المهولة والكنائس العادية ماهو معروف الاخبار ومن عجائبها النهر الجاري في وسطها من المشرق الى المغرب مفروش قاعه ببلاط النحاس وفيها كنيسة بطرس وبولس من الحواريين وهما مدفونان بها وفي الشمال عن بلاد رومة بلاد افرنصيصة الى آخر الجزء

وعلى هذا الطرف من البحر الذي في جنوبه رومة بلاد نابل في الجانب الشرقي منه متصلة ببلد قلورية من بلاد الفرنج وفي شمالها طرف من خليج البنادقة دخل في هذا الجزء من الجزء الثالث مغربا ومحاذيا للشمال من هذا الجزء وانتهى الى نحو الثلث منه وعليه كثير من بلاد البنادقة دخل في هذا الجزء من جنوبه فيما بينه وبين البحر المحيط ومن شماله بلاد انكلاية في الاقليم السادس * وفي الجزء الثالث من هذا الاقليم في غربيه بلاد قلورية بين خليج البنادقة والبحر الرومي يحيط بها من شرقيه يوصل من برها في الاقليم الرابع في البحر الرومي في جون بين طرفين خرجا من البحر على سمت الشمال الى هذا الجزء وفي شرقي بلاد قلورية بلاد انكبردة في جون بين خليج البنادقة والبحر الرومي ويدخل طرف من هذا الجزء في الجون في الاقليم الرابع وفي البحر الرومي ويحيط به من شرقيه خليج البنادقة من البحر الرومي ذاهبا الى سمت الشمال ثم ينعطف الى الغرب محاذيا لآخر الجزء الشمالي ويخرج على سمته من الاقليم الرابع جبل عظيم يوازيه ويذهب معه في الشمال ثم يغرب معه في الاقليم السادس الى أن ينتهي قبالة خليج في شماله في بلاد انكلاية من أمم اللمانيين كما نذكر وعلى هذا الخليج وبينه وبين هذا الجبل ما داما ذاهبين الى الشمال بلاد البنادقة فاذا ذهبا الى المغرب فبينهما بلاد حروايا ثم بلاد الالمانيين عند طرف الخليج * وفي الجزء الرابع من هذا الاقليم قطعة من البحر الرومي خرجت اليه من الاقليم الرابع مضرسة كلها بقطع من البحر ويخرج منها الى الشمال وبين كل ضرسين منها طرف من البحر في الجون بينهما وفي آخر الجزء شرقا قطع من البحر ويخرج منها الى الشمال خليج القسطنطينية يخرج من هذا الطرف الجنوبي ويذهب على سمت الشمال الى أن يدخل في الاقليم السادس وينعطف من هنالك عن قرب مشرقا الى بحر نيطش في الجزء الخامس وبعض الرابع قبله والسادس بعده من الاقليم السادس كما نذكر وبلد القسطنطينية في شرقي هذا الخليج عند آخر الجزء من الشمال وهي المدينة العظيمة التي كانت كرسي القياصرة وبها من آثار البناء والفخامة ما كثرت عنه الاحاديث والقطعة التي ما بين البحر الرومي وخليج القسطنطينية من هذا الجزء وفيها بلاد مقدونية التي كانت لليونانيين ومنها ابتداء ملكهم وفي شرقي هذا الخليج الى آخر الجزء قطعة من أرض باطوس وأظنها لهذا العهد مجالات للتركمان وبها ملك ابن عثمان وقاعدته بها برصة وكانت من قبلهم للروم وغلبهم عليها الامم الى أن صارت للتركمان * وفي الجزء الخامس من هذا الاقليم من غربيه وجنوبه أرض باطوس وفي الشمال عنها الى آخر الجزء بلاد عمورية وفي شرقي عمورية نهر قباقب الذي يمد الفرات يخرج من

جبل هنالك ويذهب فى الجنوب حتى يخالط الفرات قبل وصوله من هـذا الجزء الى عموريه فى الاقليم الرابع وهنالك فى غربيـه آخر الجزء فى مبدا نهر سيحان ثم نهر جيحان غربيه الذاهبين على سمته وقد مر ذكرهما وفى شرقه هنالك مبـدأ نهر الدجلة الذاهب على سمته وفى موازاته حتى يخالطه عنـد بغداد وفى الزاوية التى بين الجنوب والشرق من هذا الجزء وراء الجبل الذى يبدأ منه نهر دجلة بلد ميافارقين ونهر قباقب الذى ذكرناه يقسم هـذا الجزء بقطعتين احداهـما غربية جنوبيـة وفيها أرض باطوس كما قلناه وأسافلها الى آخر الجزء شمالا ووراء الجبل الذى يبدأ منه نهر قباقب أرض عمورية كما قلناه والقطعة الثانية شرقيـة شمالية على الثلث فى الجنوب منها مبـدأ الدجلة والفرات وفى الشمال بلاد البيلقان متصلة بأرض عمورية من وراء جبـل قباقب وهى عريضة وفى آخرها عند مبدا الفرات بلد خرشنة وفى الزاوية الشرقية الشمالية قطعة من بحر نيطش الذى يمده خليج القسطنطينية * وفى الجزء السادس من هـذا الاقليم فى جنوبه وغربه بلاد ارمينية متصـلة الى أن تجاوز وسط الجزء الى جانب الشرق وفيها بلد أردن فى الجنوب والغرب وفى شمالها تفليس ودبيل وفى شرق أردن مدينة خلاط ثم بردعة وفى جنوبها بانحراف الى الشرق مدينـة ارمينية ومن هنالك مخرج بلاد ارمينية الى الاقليم الرابع وفيها هنالك بلد المراغة فى شرقى جبل الاكراد المسمى بارمى وقد مر ذكـره فى الجزء السادس منه ويتاخم بلاد ارمينية فى هـذا الجزء وفى الاقليم الرابع قبله من جهة الشرق فيها بلاد أذربيجان وآخرها فى هذا الجزء شرقا بلاد أردبيل على قطعة من بحر طبرستان دخلت فى الناحية الشرقية من الجزء السابع ويسمى بحر طبرسـتان وعليه من شماله فى هـذا الجزء قطعة من بلاد الخزر وهم التركمان ويبدأ من عند آخر هـذه القطعة البحرية فى الشمال جبال يتصل بعضها ببعض عـلى سمت الغرب الى الجزء الخامس فتمر فيـه منعطفة ومحيطة ببلد ميافارقين ويخرج الى الاقليم الرابع عند آمد ويتصل بجبل السلسلة فى أسافل الشأم ومن هنالك يتصل بجبل اللكام كما مر وبين هـذه الجبال الشمالية فى هـذا الجزء ثنايا كالابواب تفضى من الجانبين ففى جنوبيها بلاد الابواب متصلة فى الشرق الى بحر طبرسـتان وعليه من هـذه البلاد مدينة باب الابواب وتتصل بلاد الابواب فى الغرب من ناحية جنوبيها ببلد ارمينية وبينهما فى الشرق وبين بلاد أذربيجان الجنوبيـة بلاد الزاب متصلة الى بحر طبرسـتان وفى شمال هذه الجبال قطعة من هـذا الجزء فى غربها مملكة السرير فى الزاوية الغربية الشمالية منها وفى زاوية الجزء كـلها قطعة أيضا من بحر نيطش الذى يمده خليج القسطنطينية وقد مر ذكره ويحف بهذه القطعة من نيطش بلاد

السرير وعليها منها بلد أطرابزندة وتتصل بلاد السرير بين جبل الابواب والجهة الشمالية من الجزء الى أن ينتهى شرقا الى جبل حاجز بينها وبين أرض الخزر وعند آخرها مدينة صول ووراء هذا الجبل الحاجز قطعة من أرض الخزر تنتهى الى الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء من بحر طبرستان وآخر الجزء شمالا * والجزء السابع من هذا الاقليم غربيه كله مغمور ببحر طبرستان وخرج من جنوبه فى الاقليم الرابع القطعة التى ذكرنا هنالك أن عليها بلاد طبرستان وجبال الديلم الى قزوين وفى غربى تلك القطعة متصلة بها القطيعة التى فى الجزء السادس من الاقليم الرابع ويتصل بها من شمالها القطعة التى فى الجزء السادس من شرقه أيضا وينكشف من هذا الجزء قطعة عند زاويته الشمالية الغربية يصب فيها نهر اثل فى هذا البحر ويبقى من هذا الجزء فى ناحية الشرق قطعة منكشفة من البحر هى مجالات للغز من أمم الترك يحيط بها جبل من جهة الجنوب داخل فى الجزء الثامن ويذهب فى الغرب الى ما دون وسطه فينعطف الى الشمال الى أن يلاقى بحر طبرستان فيحتف به ذاهبا معه الى بقيته فى الاقليم السادس ثم ينعطف مع طرفه ويفارقه ويسمى هنالك جبل سياه ويذهب مغربا الى الجزء السادس من الاقليم السادس ثم يرجع جنوبا الى الجزء السادس من الاقليم الخامس وهذا الطرف منه هو الذى اعترض فى هذا الجزء بين أرض السرير وأرض الخزر واتصلت أرض الخزر فى الجزء السادس والسابع حفافى هذا الجبل المسمى جبل سياه كما سيأتى * والجزء الثامن من هذا الاقليم الخامس كله مجالات للغز من أمم الترك وفى الجهة الجنوبية الغربية منه بحيرة خوارزم التى يصب فيها نهر جيحون دورها ثلثمائة ميل ويصب فيها أنهار كثيرة من أرض هذه المجالات وفى الجهة الشمالية الشرقية منه بحيرة عرعون دورها أربعمائة ميل وماؤها حلو وفى الناحية الشمالية من هذا الجزء جبل مرغار ومعناه جبل الثلج لانه لا يذوب فيه وهو متصل بآخر الجزء وفى الجنوب عن بحيرة عرعون جبل من الحجر الصلد لا ينبت شيأ يسمى عرعون وبه سميت البحيرة وينحلب منه ومن جبل مرغار شمالى البحيرة أنهار لا تنحصر عدتها فتصب فيها من الجانبين * وفى الجزء التاسع من هذا الاقليم بلاد أركس من أمم الترك فى غرب بلاد الغز وشرق بلاد الكيماكية ويحف به من جهة الشرق آخر الجزء جبل قوقيا المحيط بيأجوج ومأجوج يعترض هنالك من الجنوب الى الشمال حتى ينعطف أول دخوله من الجزء العاشر وقد كان دخل اليه من آخر الجزء العاشر من الاقليم الرابع قبله احتف هنالك بالبحر المحيط الى آخر الجزء فى الشمال ثم انعطف مغربا فى الجزء العاشر من الاقليم الرابع الى ما دون نصفه وأحاط من أوله الى هنا ببلاد

الكيماكية ثم خرج الى الجزء العاشر من الاقليم الخامس فذهب فيه مغربا الى آخره وبقيت فى جنوبيه من هذا الجزء قطعة مستطيلة الى الغرب قبل آخر بلاد الكيماكية ثم خرج الى الجزء التاسع فى شرقيه وفى الاعلى منه وانعطف قريبا الى الشمال وذهب على سمته الى الجزء التاسع من الاقليم السادس وفيه السد هنالك كما نذكره وبقيت منه القطعة التى أحاط بها جبل قوقيا عند الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء مستطيلة الى الجنوب وهى من بلاد يأجوج ومأجوج وفى الجزء العاشر من هذا الاقليم أرض يأجوج متصلة فيه كله الا قطعة من البحر المحيط غمرت طرفا فى شرقيه من جنوبه الى شماله والا القطعة التى يفصلها الى جهة الجنوب والغرب جبل قوقيا حين مر فيه وماسوى ذلك فأرض يأجوج ومأجوج والله سبحانه وتعالى أعلم

(الاقليم السادس) فالجزء الاول منه غمر البحر أكثر من نصفه واستدار شرقا مع الناحية الشمالية ثم ذهب مع الناحية الشرقية الى الجنوب وانتهى قريبا من الناحية الجنوبية فانكشفت قطعة من هذه الارض فى هذا الجزء داخلة بين طرفين وفى الزاوية الجنوبية الشرقية من البحر المحيط كالجون فيه وينفسح طولا وعرضا وهى كلها أرض بريطانية وفى بابها بين الطرفين وفى الزاوية الجنوبية الشرقية من هذا الجزء بلاد صاقس متصلة ببلاد بنطو التى مر ذكرها فى الجزء الاول والثانى من الاقليم الخامس * والجزء الثانى من هذا الاقليم دخل البحر المحيط من غربه وشماله فمن غربه قطعة مستطيلة أكبر من نصفه الشمالى من شرق أرض بريطانية فى الجزء الاول واتصلت بها القطعة الاخرى فى الشمال من غربه الى شرقه وانفسحت فى النصف الغربى منه بعض الشئ وفيه هنالك قطعة من جزيرة انكلطرة وهى جزيرة عظيمة متسعة مشتملة على مدن وبها ملك ضخم وبقيتها فى الاقليم السابع وفى جنوب هذه القطعة وجزيرتها فى النصف الغربى من هذا الجزء بلاد ارمندية وبلاد افلادش متصلين بها ثم بلاد افرنسية جنوبا وغربا من هذا الجزء وبلاد برغونية شرقا عنها وكلها لامم الافرنجة وبلاد اللمانيين فى النصف الشرقى من الجزء فجنوبيه بلاد انكلاية ثم بلاد برغونية شمالا ثم أرض لهويكة وشطونية وعلى قطعة البحر المحيط فى الزاوية الشمالية الشرقية أرض افريرة وكلها الامم اللمانيين * وفى الجزء الثالث من هذا الاقليم فى الناحية الغربية بلاد مراتيه فى الجنوب وبلاد شطونية فى الشمال وفى الناحية الشرقية بلاد انكوية فى الجنوب وبلاد بلونية فى الشمال يعترض بينهما جبل بلواط داخلا من الجزء الرابع ويمر مغربا بانحراف الى الشمال الى أن يقف فى بلاد شطونية آخر النصف الغربى * وفى الجزء الرابع فى ناحية الجنوب أرض جثولية وتحتها فى الشمال بلاد الروسية

ويفصل بينهما جبل بلواط من أول الجزء غربا الى أن يقف فى النصف الشرقى وفى شرق أرض جثولية بلاد جرمانية وفى الزاوية الجنوبية الشرقية أرض القسطنطينية ومدينتها عند آخر الخليج الخارج من البحر الرومى وعند مدفعه فى بحر نيطش فتقع قطعة من بحر نيطش فى أعالى الناحية الشرقية من هذا الجزء ويمده الخليج و بينهما فى الزاوية بلد مسيناه * وفى الجزء الخامس من الاقليم السادس ثم فى الناحية الجنوبية عند بحر نيطش يتصل من الخليج فى آخر الجزء الرابع ويخرج على سمته مشرقا فيمر فى هذا الجزء كله وفى بعض السادس على طول ألف وثلثمائة ميل من مبدئه فى عرض ستمائة ميل و يبقى وراء هذا البحر فى الناحية الجنوبية من هذا الجزء فى غربها الى شرقها بر مستطيل فى غربه هرقلية على ساحل بحر نيطش متصلة بأرض لبيلقان من الاقليم الخامس وفى شرقه بلاد اللانية وقاعدتها سوتلى على بحر نيطش وفى شمال بحر نيطش فى هذا الجزء غربا أرض ترخان وشرقا بلاد الروسية وكلها على ساحل هذا البحر و بلاد الروسية محيطة ببلاد ترخان من شرقها فى هذا الجزء من شمالها فى الجزء الخامس من الاقليم السابع ومن غربها فى الجزء الرابع من هذا الاقليم *

وفى الجزء السادس فى غربيه بقية بحر نيطش وينحرف قليلا الى الشمال و يبقى بينه هنالك و بين آخر الجزء شمالا بلاد قمانية وفى جنوبه ومنفسحا الى الشمال بما انحرف هو كذلك بقية بلاد اللانية التى كانت آخر جنوبه فى الجزء الخامس وفى الناحية الشرقية من هذا الجزء متصل أرض الخزر وفى شرقها أرض برطاس وفى الزاوية الشرقية الشمالية أرض بلغار وفى الزاوية الشرقية الجنوبية أرض بلجر يجوزها هنالك قطعة من جبل سياه كوه المنعطف مع بحر الخزر فى الجزء السابع بعده و يذهب بعد مفارقته مغربا فيجوز فى هذه القطعة و يدخل الى الجزء السادس من الاقليم الخامس فيتصل هنالك بجبل الابواب وعليه من هنالك ناحية بلاد الخزر * وفى الجزء السابع من هذا الاقليم فى الناحية الجنوبية ما جازه جبل سياه بعد مفارقته بحر طبرستان وهو قطعة من أرض الخزر الى آخر الجزء غربا وفى شرقها القطعة من بحر طبرستان التى يجوزها هذا الجبل من شرقها وشمالها ووراء جبل سياه فى الناحية الغربية الشمالية أرض برطاس وفى الناحية الشرقية من الجزء أرض سحرب وبجناك وهم أمم الترك * وفى الجزء الثامن والناحية الجنوبية منه كلها أرض الخولخ من الترك فى الناحية الشمالية غربا والارض المنتنة وشرق الارض التى يقال ان يأجوج ومأجوج خربوها قبل بناء السد وفى هذه الارض المنتنة مبدأ نهر الاثل من أعظم أنهار العالم وممره فى بلاد الترك ومصبه فى بحر طبرستان

فى الاقليم الخامس فى الجزء السابع منه وهو كثير الانعطاف يخرج من جبل فى الارض المنتنة من ثلاثة ينابيع تجتمع فى نهر واحد ويمرّ على سمت الغرب الى آخر السابع من هذا الاقليم فينعطف شمالا الى الجزء السابع من الاقليم السابع فيمرّ فى طرفه بين الجنوب والمغرب فيخرج فى الجزء السادس من السابع ويذهب مغرّبا غير بعيد ثم ينعطف ثانية الى الجنوب ويرجع الى الجزء السادس من الاقليم السادس ويخرج منه جدول يذهب مغرّبا ويصب فى بحر نيطش فى ذلك الجزء ويمرّ هو فى قطعة بين الشمال والشرق فى بلاد بلغار فيخرج فى الجزء السابع من الاقليم السادس ثم ينعطف ثالثة الى الجنوب وينفذ فى جبل سياه ويمرّ فى بلاد الخزر ويخرج الى الاقليم الخامس فى الجزء السابع منه فيصب هنالك فى بحر طبرستان فى القطعة التى انكشفت من الجزء عند الزاوية الغربية الجنوبية وفى الجزء التاسع من هذا الاقليم فى الجانب الغربى منه بلاد خفشاخ من الترك وهم قفجاق وبلاد التركس منهم أيضا وفى الشرق منه بلاد يأجوج يفصل بينهما جبل قوقيا المحيط وقد مرّ ذكره يبدأ من البحر المحيط فى شرق الاقليم الرابع ويذهب معه الى آخر الاقليم فى الشمال ويفارقه مغربا وبانحراف الى الشمال حتى يدخل فى الجزء التاسع من الاقليم الخامس فيرجع الى سمته الاول حتى يدخل فى هذا الجزء التاسع من الاقليم من جنوبه الى شماله بانحراف الى المغرب وفى وسطه ههنا السدّ الذى بناه الاسكندر ثم يخرج على سمته الى الاقليم السابع وفى الجزء التاسع منه فيمرّ فيه الى الجنوب الى أن يلقى البحر المحيط فى شماله ثم ينعطف معه من هنالك مغرّبا الى الاقليم السابع الى الجزء الخامس منه فيتصل هنالك بقطعة من البحر المحيط فى غربيه وفى وسط هذا الجزء التاسع هو السدّ الذى بناه الاسكندر كما قلناه والصحيح من خبره فى القرآن وقد ذكر عبد الله بن خرداذبه فى كتابه فى الجغرافيا أن الواثق رأى فى منامه كأنّ السدّ انفتح فانتبه فزعا وبعث سلاما الترجمان فوقف عليه وجاء بخبره ووصفه فى حكاية طويلة ليست من مقاصد كتابنا * وفى الجزء العاشر من هذا الاقليم بلاد مأجوج متصلة فيه الى آخره على قطعة من هنالك من البحر المحيط أحاطت به من شرقه وشماله مستطيلة فى الشمال وعريضة بعض الشئ فى الشرق

(الاقليم السابع) والبحر المحيط قد غمر عامته من جهة الشمال الى وسط الجزء الخامس حيث يتصل بجبل قوقيا المحيط بيأجوج ومأجوج * فالجزء الاول والثانى مغموران بالماء الا ما انكشف من جزيرة انكلطرة التى معظمها فى الثانى وفى الاول منها طرف انعطف بانحراف الى الشمال وبقيتها مع قطعة من البحر مستديرة عليه فى الجزء الثانى

من الاقليم السادس وهي مذكورة هنالك والمجاز منها الى البر فى هذه القطعة تسعة اثنى عشر ميلا وورا هذه الجزيرة فى شمال الجزء الثانى جزيرة رسلانده مستطيلة من الغرب الى الشرق * والجزء الثالث من هذا الاقليم مغمور أكثره بالبحر الا قطعة مستطيلة فى جنوبه وتتسع فى شرقها وفيها هنالك متصل أرض فلونية التى مرّ ذكرها فى الثالث من الاقليم السادس وأنها فى شماله وفى القطعة من البحر التى تغمر هذا الجزء ثم فى الجانب الغربى منها مستديرة فسيحة وتتصل بالبر من باب فى جنوبها يفضى الى بلاد فلونية وفى شمالها جزيرة بوقاعة مستطيلة مع الشمال من المغرب الى المشرق * والجزء الرابع من هذا الاقليم شماله كله مغمور بالبحر المحيط من المغرب الى المشرق وجنوبه منكشف وفى غربه أرض قيمازك من الترك وفى شرقها بلاد طست ثم أرض رسلانده الى آخر الجزء شرقا وهى دائمة الثلوج وعمرانها قليل وتتصل ببلاد الروسية فى الاقليم السادس وفى الجزء الرابع والخامس منه * وفى الجزء الخامس من هذا الاقليم فى الناحية الغربية منه بلاد الروسية وينتهى فى الشمال الى قطعة من البحر المحيط التى يتصل بها جبل قوقيا كما ذكرناه من قبل وفى الناحية الشرقية منه متصل أرض القمانية التى على قطعة بحر نيطش من الجزء السادس من الاقليم السادس وينتهى الى بحيرة طرمى من هذا الجزء وهى عذبة تنجلب اليها أنهار كثيرة من الجبال عن الجنوب والشمال وفى شمال الناحية الشرقية من هذا الجزء أرض التتارية من التركمان الى آخره * وفى الجزء السادس من الناحية الغربية الجنوبية متصل بلاد القمانية وفى وسط الناحية بحيرة غثور عذبة تنجلب اليها الانهار من الجبال فى النواحى الشرقية وهى جامدة دائما الشدة البرد الا قليلا فى زمن الصيف وفى شرق بلاد القمانية بلاد الروسية التى كان مبدؤها فى الاقليم السادس فى الناحية الشرقية الشمالية من الجزء الخامس منه وفى الزاوية الجنوبية الشرقية من هذا الجزء بقية أرض بلغار التى كان مبدؤها فى الاقليم السادس وفى الناحية الشرقية الشمالية من الجزء السادس منه وفى وسط هذه القطعة من أرض بلغار منعطف نهر اثل القطعة الاولى الى الجنوب كما مرّ وفى آخر هذا الجزء السادس من شماله جبل قوقيا متصل من غربه الى شرقه * وفى الجزء السابع من هذا الاقليم فى غربه بقية أرض بخناك من أمم الترك وكان مبدؤها من الناحية الشمالية الشرقية من الجزء السادس قبله وفى الناحية الجنوبية الغربية من هذا الجزء ويخرج الى الاقليم السادس من فوقه وفى الناحية الشرقية بقية أرض بحرب ثم بقية الارض المنتنة الى آخر الجزء شرقا وفى آخر الجزء من جهة الشمال جبل قوقيا المحيط متصلا من غربه الى شرقه * وفى الجزء

الثامن من هذا الاقليم فى الجنوبية الغربية منه متصل الارض المنتنة وفى شرقها الارض المحفورة وهى من العجائب خرق عظيم فى الارض بعيد المهوى فسيح الاقطار ممتنع الوصول الى قعره يستدل على عمرانه بالدخان فى النهار والنيران فى الليل تضىء وتخفى وربما رؤى فيها نهر يشقها من الجنوب الى الشمال وفى الناحية الشرقية من هذا الجزء البلاد الخراب المتاخمة للسد وفى آخر الشمال منه جبل قوقيا متصلا من الشرق الى الغرب * وفى الجزء التاسع من هذا الاقليم فى الجانب الغربي منه بلاد خفشاخ وهم قفجق يجوزها جبل قوقيا حين ينعطف من شماله عند البحر المحيط ويذهب فى وسطه الى الجنوب بانحراف الى الشرق فيخرج فى الجزء التاسع من الاقليم السادس ويعترض فيه وفى وسطه هنالك سد يأجوج ومأجوج وقد ذكرناه وفى الناحية الشرقية من هذا الجزء أرض يأجوج وراء جبل قوقيا على البحر قليلة العرض مستطيلة أحاطت به من شرقه وشماله * والجزء العاشر غمر البحر جميعه * هذا آخر الكلام على الجغرافيا وأقاليمها السبعة وفى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات للعالمين

(المقدمة الثالثة)

(فى المعتدل من الاقاليم والمنحرف وتأثير الهواء فى ألوان البشر والكثير من أحوالهم)

(قد بينا) أن المعمور من هذا المنكشف من الارض انما هو وسطه لافراط الحر فى الجنوب منه والبرد فى الشمال * ولما كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادين فى الحر والبرد وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما الى الوسط فيكون معتدلا فالاقليم الرابع أعدل العمران والذى حفافيه من الثالث والخامس أقرب الى الاعتدال والذى يليهما والثانى والسادس بعيدان من الاعتدال والاول والسابع أبعد بكثير فلهذا كانت العلوم والصنائع والمبانى والملابس والاقوات والفواكه بل والحيوانات وجميع ما يتكون فى هذه الاقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال وسكانها من البشر أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا وأديانا حتى النبوات فانما توجد فى الاكثر فيها ولم نقف على خبر بعثة فى الاقاليم الجنوبية ولا الشمالية وذلك أن الانبياء والرسل انما يختص بهم أكمل النوع فى خلقهم وأخلاقهم قال تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس وذلك ليتم القبول لما يأتيهم به الانبياء من عند الله وأهل هذه الاقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم فتجدهم على غاية من التوسط فى مساكنهم وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم يتخذون البيوت

المنجدة بالحجارة المنمقة بالصناعة ويتناغون فى استجادة الآلات والمواعين ويذهبون فى ذلك الى الغاية وتوجد لديهم المعادن الطبيعية من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص والقصدير ويتصرفون فى معاملاتهم بالنقدين العزيزين ويبعدون عن الانحراف فى عامة أحوالهم وهؤلاء أهل المغرب والشأم والحجاز واليمن والعراقين والهند والسند والصين وكذلك الاندلس ومن قرب منها من الفرنجة والجلالقة والروم واليونانيين ومن كان مع هؤلاء أو قريبا منهم فى هذه الاقاليم المعتدلة ولهذا كان العراق والشأم أعدل هذه كلها لانها وسط من جميع الجهات * وأما الاقاليم البعيدة من الاعتدال مثل الاول والثانى والسادس والسابع فأهلها أبعد من الاعتدال فى جميع أحوالهم فبناؤهم بالطين والقصب وأقواتهم من الذرة والعشب وملابسهم من أوراق الشجر يخصفونها عليهم أو الجلود وأكثرهم عرايا من اللباس وفواكه بلادهم وأدمها غريبة التكوين مائلة الى الانحراف ومعاملاتهم بغير الحجرين الشريفين من نحاس أو حديد أو جلود يقدرونها للمعاملات وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات العجم حتى ينقل عن الكثير من السودان أهل الاقليم الاول أنهم يسكنون الكهوف والغياض ويأكلون العشب وأنهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضا وكذا الصقالبة والسبب فى ذلك أنهم لبعدهم عن الاعتدال يقرب عرض أمزجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العجم ويبعدون عن الانسانية بمقدار ذلك وكذلك أحوالهم فى الديانة أيضا فلا يعرفون نبوة ولا يدينون بشريعة الا من قرب منهم من جوانب الاعتدال وهو فى الاقل النادر مثل الحبشة المجاورين لليمن الدائنين بالنصرانية فيما قبل الاسلام وما بعده لهذا العهد ومثل أهل مالى وكوكو والتكرور المجاورين لأرض المغرب الدائنين بالاسلام لهذا العهد يقال انهم دانوا به فى المائة السابعة ومثل من دان بالنصرانية من أمم الصقالبة والافرنجة والترك من الشمال ومن سوى هؤلاء من أهل تلك الاقاليم المنحرفة جنوبا وشمالا فالدين مجهول عندهم والعلم مفقود بينهم وجميع أحوالهم بعيدة من أحوال الاناسى قريبة من أحوال البهائم ويخلق ما لا تعلمون ولا يعترض على هذا القول بوجود اليمن وحضرموت والاحقاف وبلاد الحجاز واليمامة وما اليها من جزيرة العرب فى الاقليم الاول والثانى فان جزيرة العرب كلها أحاطت بها البحار من الجهات الثلاث كما ذكرنا فكان لرطوبتها أثر فى رطوبة هوائها فنقص ذلك من اليبس والانحراف الذى يقتضيه الحر وصار فيها بعض الاعتدال بسبب رطوبة البحر * وقد توهم بعض النسابين ممن لا علم لديه بطبائع

الكائنات أنّ السودان هم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها فى لونه وفيما جعل الله من الرق فى عقبه وينقلون فى ذلك حكاية من خرافات القصاص ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع فى التوراة وليس فيه ذكر السواد وانما دعا عليه بأن يكون ولده عبيدا لولد اخوته لاغيره وفى القول بنسبة السواد الى حام غفلة عن طبيعة الحرّ والبرد وأثرهما فى الهواء وفيما يتكوّن فيه من الحيوانات وذلك أنّ هذا اللون شمل أهل الاقليم الاوّل والثانى من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب فانّ الشمس تسامت رؤسهم مرّتين فى كل سنة قريبة احداهما من الاخرى فتطول المسامتة عامة الفصول فيكثر الضوء لاجلها ويلح القيظ الشديد عليهم وتسودّ جلودهم لافراط الحرّ ونظير هذين الاقليمين مما يقابلهما من الشمال الاقليم السابع والسادس شمل سكانهما أيضا البياض من مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال اذ الشمس لاتزال بأفقهم فى دائرة مرئىّ العين أو ما قرب منها ولا ترتفع الى المسامتة ولا ما قرب منها فيضعف الحرّ فيها ويشتدّ البرد عامة الفصول فتبيض ألوان أهلها وتنتهى الى الزعورة ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون وبرش الجلود وصهوبة الشعور وتوسطت بينهما الاقاليم الثلاثة الخامس والرابع والثالث فكان لها فى الاعتدال الذى هو مزاج المتوسط حظ وافر والرابع أبلغها فى الاعتدال غاية لنهايته فى التوسط كما قدمناه فكان لاهله من الاعتدال فى خلقهم وخلقهم ما اقتضاه مزاج أهويتهم وتبعه عن جانبيه الثالث والخامس وان لم يبلغا غاية التوسط لميل هذا قليلا الى الجنوب الحار وهذا قليلا الى الشمال البارد الا أنهما لم ينتهيا الى الانحراف وكانت الاقاليم الاربعة منحرفة وأهلها كذلك فى خلقهم وخلقهم فالاوّل والثانى للحر والسواد والسابع والسادس للبرد والبياض ويسمى سكان الجنوب من الاقليمين الاول والثانى باسم الحبشة والزنج والسودان أسماء مترادفة على الامم المتغيرة بالسواد وان كان اسم الحبشة مختصا منهم بمن تجاه مكة واليمن والزنج بمن تجاه بحر الهند وليست هذه الاسماء لهم من أجل انتسابهم الى آدمى أسود لا حام ولا غيره وقد نجد من السودان أهل الجنوب من يسكن الرابع المعتدل أو السابع المنحرف الى البياض فتبيض ألوان أعقابهم على التدريج مع الايام وبالعكس فيمن يسكن من أهل الشمال أو الرابع بالجنوب تسودّ ألوان أعقابهم وفى ذلك دليل على أنّ اللون تابع لمزاج الهواء قال ابن سينا فى أرجوزته فى الطب

بالزنج حرّ غير الاجسادا * حتى كسا جلودها سوادا

والصقلب اكتسبت البياضا * حتى غدت جلودها بضاضا

وأما أهل الشمال فلم يسموا باعتبار ألوانهم لان البياض كان لونا لاهل تلك اللغة الواضعة للاسماء فلم يكن فيه غرابة تحمل على اعتباره فى التسمية لموافقته واعتياده ووجدنا سكانه من الترك والصقالبة والطغرغز والخزر واللان والكثير من الافرنجة ويأجوج ومأجوج أسماء متفرقة وأجيالا متعددة مسمين بأسماء متنوعة وأما أهل الاقاليم الثلاثة المتوسطة أهل الاعتدال فى خلقهم وخلقهم وسيرهم وكافة الاحوال الطبيعية للاعتمار لديهم من المعاش والمساكن والصنائع والعلوم والرياسات والملك فكانت فيهم النبوات والملك والدول والشرائع والعلوم والبلدان والامصار والمبانى والفراسة والصنائع الفائقة وسائر الاحوال المعتدلة وأهل هذه الاقاليم التى وقفنا على أخبارهم مثل العرب والروم وفارس وبنى اسرائيل واليونان وأهل السند والهند والصين * ولما رأى النسابون اختلاف هذه الامم بسماتها وشعارها حسبوا ذلك لاجل الانساب فجعلوا أهل الجنوب كلهم السودان من ولد حام وارتابوا فى ألوانهم فتكلفوا نقل تلك الحكاية الواهية وجعلوا أهل الشمال كلهم أو أكثرهم من ولد يافث وأكثر الامم المعتدلة وأهل الوسط المنتحلين للعلوم والصنائع والملل والشرائع والسياسة والملك من ولد سام وهذا الزعم وان صادف الحق فى انتساب هؤلاء فليس ذلك بقياس مطرد انما هو اخبار عن الواقع لا أن تسمية أهل الجنوب بالسودان والحبشان من أجل انتسابهم الى حام الاسود وما أداهم الى هذا الغلط الا اعتقادهم ان التمييز بين الامم انما يقع بالانساب فقط وليس كذلك فان التمييز للجيل أو الامة يكون بالنسب فى بعضهم كما للعرب وبنى اسرائيل والفرس ويكون بالجهة والسمة كما للزنج والحبشة والصقالبة والسودان ويكون بالعوائد والشعار والنسب كما للعرب ويكون بغير ذلك من أحوال الامم وخواصهم ومميزاتهم فتعميم القول فى أهل جهة معينة من جنوب أو شمال بأنهم من ولد فلان المعروف لما شملهم من نحلة أو لون أو سمة وجدت لذلك الاب انما هو من الاغاليط التى أوقع فيها الغفلة عن طبائع الاكوان والجهات وأن هذه كلها تتبدل فى الاعقاب ولا يجب استمرارها سنة الله فى عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا والله ورسوله أعلم بغيبه وأحكم وهو المولى المنعم الرؤف الرحيم

(المقدمة الرابعة)

(فى اثر الهواء فى اخلاق البشر)

(قد رأينا) من خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب فتجدهم

مولعين بالرقص على كل توقيع موصوفين بالحمق فى كل قطر والسبب الصحيح فى ذلك أنه تقرر فى موضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح والسرور هى انتشار الروح الحيوانى وتفشيه وطبيعة الحزن بالعكس وهو انقباضه وتكاثفه وتقرر أن الحرارة مفشية للهواء والبخار مخلخلة له زائدة فى كميته ولهذا يجد المنتشى من الفرح والسرور ما لا يعبر عنه وذلك بما يداخل بخار الروح فى القلب من الحرارة الغريزية التى تبعثها سورة الخمر فى الروح من مزاجه فيتفشى الروح وتجئ طبيعة الفرح وكذلك نجد المتنعمين بالحمامات اذا تنفسوا فى هوائها واتصلت حرارة الهواء فى أرواحهم فتسخنت لذلك حدث لهم فرح وربما انبعث الكثير منهم بالغناء الناشئ عن السرور * ولما كان السودان ساكنين فى الاقليم الحار واستولى الحر على أمزجتهم وفى أصل تكوينهم كان فى أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم واقليمهم فتكون أرواحهم بالقياس الى أرواح أهل الاقليم الرابع أشد حرا فتكون أكثر تفشيا فتكون أسرع فرحا وسرورا وأكثر انبساطا ويجئ الطيش على اثر هذه وكذلك يلحق بهم قليلا أهل البلاد البحرية لما كان هواؤها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه من أضواء بسيط البحر وأشعته كانت حصتهم من توابع الحرارة فى الفرح والخفة موجودة أكثر من بلاد التلول والجبال الباردة وقد نجد يسيرا من ذلك فى أهل البلاد الجزيرية من الاقليم الثالث لتوفر الحرارة فيها وفى هوائها لانها عريقة فى الجنوب عن الارياف والتلول واعتبر ذلك أيضا بأهل مصر فانها فى مثل عرض البلاد الجزيرية أو قريبا منها كيف غلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب حتى انهم لا يدخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم وعامة مآكلهم من أسواقهم * ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها فى التوغل فى التلول الباردة كيف ترى أهلها مطرقين اطراق الحزن وكيف أفرطوا فى نظر العواقب حتى ان الرجل منهم ليدخر قوت سنتين من حبوب الحنطة ويباكر الاسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يرزأ شيأ من مدخره وتتبع ذلك فى الاقاليم والبلدان تجد فى الاخلاق أثرا من كيفيات الهواء والله الخلاق العليم * وقد تعرض المسعودى للبحث عن السبب فى خفة السودان وطيشهم وكثرة الطرب فيهم وحاول تعليله فلم يأت بشئ أكثر من أنه نقل عن جالينوس ويعقوب بن اسحق الكندى أن ذلك لضعف أدمغتهم وما نشأ عنه من ضعف عقولهم وهذا كلام لا محصل له ولا برهان فيه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

(المقدمة الخامسة)

فى اختلاف أحوال العمران فى الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار فى أبدان البشر وأخلاقهم

(اعلم) أنّ هذه الاقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد بها الخصب ولا كل سكانها في رغد من العيش بل فيها ما يوجد لاهله خصب العيش من الحبوب والادم والحنطة والفواكه لزكاء المنابت واعتدال الطينة ووفور العمران وفيها الارض الحرّة التي لا تنبت زرعا ولا عشبا بالجملة فسكانها في شظف من العيش مثل أهل الحجاز وجنوب اليمن ومثل الملثمين من صنهاجة الساكنين بصحراء المغرب وأطراف الرمال فيما بين البربر والسودان فانّ هؤلاء يفقدون الحبوب والادم جملة وانما أغذيتهم وأقواتهم الالبان واللحوم ومثل العرب أيضا الجائلين في القفار فانهم وان كانوا يأخذون الحبوب والادم من التلول الا أنّ ذلك في الاحايين وتحت ربقة من حاميتها وعلى الاقلال لقلة وجدهم فلا يتوصلون منه الى سدّ الخلة أو دونها فضلا عن الرغد والخصب وتجدهم يقتصرون في غالب أحوالهم على الالبان وتعوّضهم من الحنطة أحسن معاض وتجد مع ذلك هؤلاء الفاقدين للحبوب والادم من أهل القفار أحسن حالا في جسومهم وأخلاقهم من أهل التلول المنغمسين في العيش فألوانهم أصفى وأبدانهم أنقى وأشكالهم أتمّ وأحسن وأخلاقهم أبعد من الانحراف وأذهانهم أثقب في المعارف والادراكات هذا أمر تشهد له التجربة في كل جيل منهم فكثير ما بين العرب والبربر فيما وصفناه وبين الملثمين وأهل التلول يعرف ذلك من خبره والسبب في ذلك والله أعلم انّ كثرة الاغذية ورطوباتها تولد في الجسم فضلات رديئة ينشأ عنها بعد أقطارها في غير نسبة وكثرة الاخلاط الفاسدة العفنة ويتبع ذلك انكساف الالوان وقبح الاشكال من كثرة اللحم كما قلناه وتغطي الرطوبات على الاذهان والافكار بما يصعد الى الدماغ من أبخرتها الرديئة فتجيء البلادة والغفلة والانحراف عن الاعتدال بالجملة واعتبر ذلك في حيوان القفر ومواطن الجدب من الغزال والنعام والمهى والزرافة والحمر الوحشية والبقر مع أمثالها من حيوان التلول والارياف والمراعي الخصبة كيف تجد بينها بونا بعيدا في صفاء أديمها وحسن رونقها وأشكالها وتناسب اعضائها وحدة مداركها فالغزال أخو المعز والزرافة أخو البعير والحمار والبقر أخو الحمار والبقر والبون بينها ما رأيت وما ذاك الا لاجل أنّ الخصب في التلول فعل في أبدان هذه من الفضلات الرديئة والاخلاط الفاسدة ما ظهر عليها أثره والجوع لحيوان القفر حسن في خلقها وأشكالها ما شاء واعتبر ذلك في الآدميين أيضا فانا نجد أهل الاقاليم المخصبة العيش الكثيرة الزرع والضرع والادم والفواكه يتصف أهلها غالبا بالبلادة في أذهانهم والخشونة في أجسامهم وهذا شأن البربر المنغمسين في الادم والحنطة مع المتقشفين في عيشهم المقتصرين على الشعير أو الذرة

مثل المصامدة منهم وأهل غمارة والسوس تجد هؤلاء أحسن حالا في عقولهم وجسومهم وكذا أهل بلاد المغرب على الجملة المنغمسون في الادم والبرّ مع أهل الاندلس المفقود بأرضهم السمن جملة وغالب عيشهم الذرة فتجد لاهل الاندلس من ذكاء العقول وخفة الاجسام وقبول التعليم ما لا يوجد لغيرهم وكذا أهل الضواحي من المغرب بالجملة مع أهل الحضر والامصار فان أهل الامصار وان كانوا مكثرين مثلهم من الادم ومخصبين في العيش الا أن استعمالهم اياها بعد العلاج بالطبخ والتلطيف بما يخلطون معها فيذهب لذلك غلظها ويرق قوامها وعامة ماكلهم لحوم الضأن والدجاج ولا يغبطون السمن من بين الادم لتفاهته فتقل الرطوبات لذلك في أغذيتهم ويخف ما تؤديه الى أجسامهم من الفضلات الرديئة فلذلك تجد جسوم أهل الامصار ألطف من جسوم البادية المخشنين في العيش وكذلك تجد المعوّدين بالجوع من أهل البادية لا فضلات في جسومهم غليظة ولا لطيفة * واعلم أن أثر هذا الخصب في البدن وأحواله يظهر حتى في حال الدين والعبادة فنجد المتقشفين من أهل البادية أو الحاضرة ممن يأخذ نفسه بالجوع والتجافي عن الملاذ أحسن دينا واقبالا على العبادة من أهل الترف والخصب بل نجد أهل الدين قليلين في المدن والامصار لما يعمها من القساوة والغفلة المتصلة بالاكثار من اللحمان والادم ولباب البرّ ويختص وجود العباد والزهاد لذلك بالمتقشفين في غذائهم من أهل البوادي وكذلك نجد حال أهل المدينة الواحدة في ذلك مختلفا باختلاف حالها في الترف والخصب وكذلك نجد هؤلاء المخصبين في العيش المنغمسين في طيباته من أهل البادية وأهل الحواضر والامصار اذا نزلت بهم السنون وأخذتهم المجاعات يسرع اليهم الهلاك أكثر من غيرهم مثل برابرة المغرب وأهل مدينة فاس ومصر فيما يبلغنا لا مثل العرب أهل القفر والصحراء ولا مثل أهل بلاد النخل الذين غالب عيشهم التمر ولا مثل أهل افريقية لهذا العهد الذين غالب عيشهم الشعير والزيت وأهل الاندلس الذين غالب عيشهم الذرة والزيت فان هؤلاء وان أخذتهم السنون والمجاعات فلا تنال منهم ما تنال من أولئك ولا يكثر فيهم الهلاك بالجوع بل ولا يندر والسبب في ذلك والله أعلم أن المنغمسين في الخصب المتعوّدين للادم والسمن خصوصا تكتسب من ذلك أمعاؤهم رطوبة فوق رطوبتها الاصلية المزاجية حتى تجاوز حدها فاذا خولف بها العادة بقلة الاقوات وفقدان الادم واستعمال الخشن غير المألوف من الغذاء أسرع الى المعى اليبس والانكماش وهو عضو ضعيف في الغاية فيسرع اليه المرض ويهلك صاحبه دفعة لانه من المقاتل فالهالكون في المجاعات انما قتلهم الشبع المعتاد

السابق لا الجوع الحادث اللاحق * وأما المتعودون لقلة الادم والسمن فلا
تزال رطوبتهم الاصلية واقفة عند حدها من غير زيادة وهي قابلة لجميع الاغذية
الطبيعية فلا يقع في معاهم بتبدل الاغذية يبس ولا انحراف فيسلمون في الغالب من
الهلاك الذي يعرض لغيرهم بالخصب وكثرة الادم في المآكل وأصل هذا
كله أن تعلم أن الاغذية وائتلافها أو تركها انما هو بالعادة فمن عود نفسه غذاء
ولاءمه تناوله كان له مألوفا وصار الخروج عنه والتبدل به داء ما لم يخرج عن غرض
الغذاء بالجملة كالسموم واليتوع وما أفرط في الانحراف فأما ما وجد فيه التغذي
والملاءمة فيصير غذاء مألوفا بالعادة فاذا أخذ الانسان نفسه باستعمال اللبن
والبقل عوضا عن الحنطة حتى صار له ديدنا فقد حصل له ذلك غذاء واستغنى به
عن الحنطة والحبوب من غير شك وكذا من عود نفسه الصبر على الجوع
والاستغناء عن الطعام كما ينقل عن أهل الرياضات فانا نسمع عنهم في ذلك أخبارا
غريبة يكاد ينكرها من لا يعرفها والسبب في ذلك العادة فان النفس اذا ألفت شيأ
صار من جبلتها وطبيعتها لانها كثيرة التلون فاذا حصل لها اعتياد الجوع بالتدريج
والرياضة فقد حصل ذلك عادة طبيعية لها وما يتوهمه الاطباء من أن الجوع مهلك
فليس على ما يتوهمونه الا اذا حملت النفس عليه دفعة وقطع عنها الغذاء بالكلية فانه
حينئذ ينحسم المعى ويناله المرض الذي يخشى معه الهلاك وأما اذا كان ذلك القدر
تدريجا ورياضة باقلال الغذاء شيأ فشيأ كما يفعله المتصوفة فهو بمعزل عن
الهلاك وهذا التدريج ضروري حتى في الرجوع عن هذه الرياضة فانه اذا رجع به
الى الغذاء الاول دفعة خيف عليه الهلاك وانما يرجع به كما بدأ في الرياضة بالتدريج
ولقد شاهدنا من يصبر على الجوع أربعين يوما وصالا وأكثر * وحضر أشياخنا
بمجلس السلطان أبي الحسن وقد رفع اليه امرأتان من أهل الجزيرة الخضراء ورندة
حبستا أنفسهما عن الاكل جملة منذ سنين وشاع أمرهما ووقع اختبارهما فصح
شأنهما واتصل على ذلك حالهما الى أن ماتتا ورأينا كثيرا من أصحابنا أيضا من يقتصر
على حليب شاة من المعز يلتقم ثديها في بعض النهار أو عند الافطار ويكون ذلك غذاءه
واستدام على ذلك خمس عشرة سنة وغيرهم كثير ولا يستنكر ذلك * واعلم أن الجوع
أصلح للبدن من اكثار الاغذية بكل وجه لمن قدر عليه أو على الاقلال منها وأن له
أثرا في الاجسام والعقول في صفائها وصلاحها كما قلناه واعتبر ذلك بآثار الاغذية
التي تحصل عنها في الجسوم فقد رأينا المتغذين بلحوم الحيوانات الفاخرة العظيمة
الجثمان تنشأ أجيالهم كذلك وهذا ما نشاهد في أهل البادية مع أهل الحاضرة وكذا

المتغذون بألبان الابل ولحومها أيضا مع مايؤثر في أخلاقهم من الصبر والاحتمال والقدرة على حمل الاثقال الموجود ذلك للابل وتنشأ أمعاؤهم أيضا على نسبة أمعاء الابل في الصحة والغلظ فلا يطرقها الوهن ولا الضعف ولا ينالها من مضار الاغذية ما ينال غيرهم فيشربون اليتوعات لاستطلاق بطونهم غير محجوبة كالحنظل قبل طبخه والدرياس والقربيون ولا ينال أمعاءهم منها ضرر وهي لو تناولها أهل الحضر الرقيقة أمعاؤهم بما نشأت عليه من لطيف الاغذية لكان الهلاك أسرع اليهم من طرفة العين لما فيها من السمية ومن تأثير الاغذية في الابدان ماذكره أهل الفلاحة وشاهده أهل التجربة أن الدجاج اذا غذيت بالحبوب المطبوخة في بعر الابل واتخذ بيضها ثم حضنت عليه جاء الدجاج منها أعظم ما يكون وقد يستغنون عن تغذيتها وطبخ الحبوب بطرح ذلك البعر مع البيض المحضن فيجيء دجاجها في غاية العظم وأمثال ذلك كثير فاذا رأينا هذه الآثار من الاغذية في الابدان فلا شك أن للجوع أيضا آثارا في الابدان لان الضدين على نسبة واحدة في التأثير وعدمه فيكون تأثير الجوع في نقاء الابدان من الزيادات الفاسدة والرطوبات المختلطة المخلة بالجسم والعقل كما كان الغذاء مؤثرا في وجود ذلك الجسم والله محيط بعلمه

(المقدمة السادسة)

(في أصناف المدركين للغيب من البشر بالفطرة او بالرياضة وتقدمة الكلام في الوحي والرؤيا)

(اعلم) أن الله سبحانه اصطفى من البشر أشخاصا فضلهم بخطابه وفطرهم على معرفته وجعلهم وسائل بينه وبين عباده يعرفونهم بمصالحهم ويحرضونهم على هدايتهم ويأخذون بحجزاتهم عن النار ويدلونهم على طريق النجاة وكان فيما يلقيه اليهم من المعارف ويظهره على ألسنتهم من الخوارق والاخبار الكائنات المغيبة عن البشر التي لاسبيل الى معرفتها الا من الله بوساطتهم ولا يعلمونها الا بتعليم الله اياهم قال صلى الله عليه وسلم ألا واني لا أعلم الا ماعلمني الله واعلم أن خبرهم في ذلك من خاصيته وضرورته الصدق لما يتبين لك عند بيان حقيقة النبوة وعلامة هذا الصنف من البشر أن توجد لهم في حال الوحي غيبة عن الحاضرين معهم مع غطيط كأنها غشي أو اغماء في رأي العين وليست منهما في شئ وانما هي في الحقيقة استغراق في لقاء الملك الروحاني بادراكهم المناسب لهم الخارج عن مدارك البشر بالكلية ثم يتنزل الى المدارك البشرية اما بسماع دوي من الكلام فيتفهمه أو يتمثل له صورة شخص يخاطبه بما جاء به من عند الله ثم تنجلي عنه تلك الحال وقد وعى ما ألقي اليه قال صلى الله

عليه وسلم وقد سئل عن الوحى أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فيفصم عنى وقد وعيت ما قال وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول ويدركه أثناء ذلك من الشدة والغط مالا يعبر عنه ففى الحديث كان مما يعالج من التنزيل شدة وقالت عائشة كان ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا وقال تعالى انا سنلقى عليك قولا ثقيلا ولاجل هذه الحالة فى تنزل الوحى كان المشركون يرمون الانبياء بالجنون ويقولون له رئى أو تابع من الجن وانما لبس عليهم بما شاهدوه من ظاهر تلك الاحوال ومن يضلل الله فما له من هاد * ومن علاماتهم أيضا أنه يوجد لهم قبل الوحى خلق الخير والزكاء ومجانبة المذمومات والرجس أجمع وهذا هو معنى العصمة وكأنه مفطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها وكأنها منافية لجبلته وفى الصحيح أنه حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة فجعلها فى ازاره فانكشف فسقط مغشيا عليه حتى استتر بازاره ودعى الى مجتمع وليمة فيها عرس ولعب فأصابه غشى النوم الى أن طلعت الشمس ولم يحضر شيأ من شأنهم بل نزهه الله عن ذلك كله حتى أنه بجبلته يتنزه عن المطعومات المستكرهة فقد كان صلى الله عليه وسلم لا يقرب البصل والثوم فقيل له فى ذلك فقال انى أناجى من لا تناجون (وانظر) لما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم خديجة رضى الله عنها بحال الوحى أول ما جاء وأرادت اختباره فقالت اجعلنى بينك وبين ثوبك فلما فعل ذلك ذهب عنه فقالت انه ملك وليس بشيطان ومعناه أنه لا يقرب النساء وكذلك سألته عن أحب الثياب اليه أن يأتيه فيها فقال البياض والخضرة فقالت انه الملك يعنى أن البياض والخضرة من ألوان الخير والملائكة والسواد من ألوان الشر والشياطين وأمثال ذلك * ومن علاماتهم أيضا دعاؤهم الى الدين والعبادة من الصلاة والصدقة والعفاف وقد استدلت خديجة على صدقه صلى الله عليه وسلم بذلك وكذلك أبو بكر ولم يحتاجا فى أمره الى دليل خارج عن حاله وخلقه وفى الصحيح ان هرقل حين جاءه كتاب النبى صلى الله عليه وسلم يدعوه الى الاسلام أحضر من وجد ببلده من قريش وفيهم أبو سفيان ليسألهم عن حاله فكان فيما سأل أن قال بم يأمركم فقال أبو سفيان بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف الى آخر ما سأل فأجابه فقال ان يكن ما تقول حقا فهو نبى وسيملك ما تحت قدمى هاتين والعفاف الذى أشار اليه هرقل هو العصمة فانظر كيف أخذ من العصمة والدعاء الى الدين والعبادة دليلا على صحة نبوته ولم يحتج الى معجزة فدل على أن ذلك من علامات النبوة (ومن علاماتهم) أيضا أن يكونوا ذوى حسب فى قومهم وفى الصحيح ما بعث الله نبيا الا فى منعة من قومه وفى رواية اخرى

فى ثروة من قومه استدركه الحاكم على الصحيحين وفى مساءلة هرقل لابى سفيان كما هو فى الصحيح قال كيف هو فيكم فقال أبو سفيان هو فينا ذو حسب فقال هرقل والرسل تبعث فى أحساب قومها ومعناه أن تكون له عصبة وشوكة تمنعه عن أذى الكفار حتى يبلغ رسالة ربه ويتم مراد الله من اكمال دينه وملته (ومن علاماتهم) أيضا وقوع الخوارق لهم شاهدة بصدقهم وهى أفعال يعجز البشر عن مثلها فسميت بذلك معجزة وليست من جنس مقدور العباد وانما تقع فى غير محل قدرتهم وللناس فى كيفية وقوعها ودلالتها على تصديق الانبياء خلاف فالمتكلمون بناء على القول بالفاعل المختار قائلون بأنها واقعة بقدرة الله لا بفعل النبى وان كانت أفعال العباد عند المعتزلة صادرة عنهم الا أن المعجزة لا تكون من جنس أفعالهم وليس للنبى فيها عند سائر المتكلمين الا التحدى بها باذن الله وهو أن يستدل بها النبى صلى الله عليه وسلم قبل وقوعها على صدقه فى مدعاه فاذا وقعت تنزلت منزلة القول الصريح من الله بأنه صادق وتكون دلالتها حينئذ على الصدق قطعية فالمعجزة الدالة بمجموع الخارق والتحدى ولذلك كان التحدى جزأ منها (وعبارة المتكلمين) صفة نفسها وهو واحد لانه معنى الذاتى عندهم والتحدى هو الفارق بينها وبين الكرامة والسحر اذ لا حاجة فيهما الى التصديق فلا وجود للتحدى الا أن وجد اتفاقا وان وقع التحدى فى الكرامة عند من يجيزها وكانت لها دلالة فانما هى على الولاية وهى غير النبوة ومن هنا منع الاستاذ أبو اسحق وغيره وقوع الخوارق كرامة فرارا من الالتباس بالنبوة عند التحدى بالولاية وقد أريناك المغايرة بينهما وأنه يتحدى بغير ما يتحدى به النبى فلا لبس على أن النقل عن الاستاذ فى ذلك ليس صريحا وربما حمل على انكار أن تقع خوارق الانبياء لهم بناء على اختصاص كل من الفريقين بخوارقه * وأما المعتزلة فالمانع من وقوع الكرامة عندهم أن الخوارق ليست من أفعال العباد وأفعالهم معتادة فلا فرق وأما وقوعها على يد الكاذب تلبيسا فهو محال أما عند الاشعرية فلان صفة نفس المعجزة التصديق والهداية فلو وقعت بخلاف ذلك انقلب الدليل شبهة والهداية ضلالة والتصديق كذبا واستحالت الحقائق وانقلبت صفات النفس وما يلزم من فرض وقوعه المحال لا يكون ممكنا وأما عند المعتزلة فلان وقوع الدليل شبهة والهداية ضلالة قبيح فلا يقع من الله * وأما الحكماء فالخارق عندهم من فعل النبى ولو كان فى غير محل القدرة بناء على مذهبهم فى الايجاب الذاتى ووقوع الحوادث بعضها عن بعض متوقف على الاسباب والشروط الحادثة مستندة أخيرا الى الواجب الفاعل بالذات لا بالاختيار وأن النفس النبوية عندهم لها خواص ذاتية منها صدور هذه الخوارق

بقدرته وطاعة العناصر له فى التكوين والنبى عندهم مجبول على التصريف فى الاكوان مهما توجه اليها واستجمع لها بما جعل الله له من ذلك والخارق عندهم يقع للنبى كان للتحدى أولم يكن وهو شاهد بصدقه من حيث دلالته على تصرف النبى فى الاكوان الذى هو من خواص النفس النبوية لابانه يتنزل منزلة القول الصريح بالتصديق فلذلك لاتكون دلالتها عندهم قطعية كما هى عند المتكلمين ولايكون التحدى جزأ من المعجزة ولم يصح فارقا لها عن السحر والكرامة وفارقها عندهم عن السحر أن النبى مجبول على أفعال الخير مصروف عن أفعال الشر فلا يلم الشر بخوارقه والساحر على الضد فأفعاله كلها شر وفى مقاصد الشر وفارقها عن الكرامة أن خوارق النبى مخصوصة كالصعود الى السماء والنفوذ فى الاجسام الكثيفة واحياء الموتى وتكليم الملائكة والطيران فى الهواء وخوارق الولى دون ذلك كتكثير القليل والحديث عن بعض المستقبل وأمثاله مما هو قاصر عن تصريف الانبياء ويأتى النبى بجميع خوارقه ولا يقدر هو على مثل خوارق الانبياء وقد قرر ذلك المتصوفة فيما كتبوه فى طريقتهم ولقنوه عمن اخبرهم واذا تقرر ذلك فاعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة القرآن الكريم المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فان الخوارق فى الغالب تقع مغايرة للوحى الذى يتلقاه النبى ويأتى بالمعجزة شاهدة بصدقه والقرآن هو بنفسه الوحى المدعى وهو الخارق المعجز فشاهده فى عينه ولا يفتقر الى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحى فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم مامن نبى من الانبياء الا وأوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وانما كان الذى أوتيته وحيا أوحى الى فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة يشير الى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة فى الوضوح وقوة الدلالة وهو كونها نفس الوحى كان الصدق لها أكثر لوضوحها فكثر المصدق المؤمن وهو التابع والامة

ولنذكر الآن تفسير حقيقة النبوة على ما شرحه كثير من المحققين ثم نذكر حقيقة الكهانة ثم الرؤيا ثم شأن العرافين وغير ذلك من مدارك الغيب فنقول

(اعلم) أرشدنا الله واياك أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والاحكام وربط الاسباب بالمسببات واتصال الاكوان بالاكوان واستحالة بعض الموجودات الى بعض لاتنقضى عجائبه فى ذلك ولاتنتهى غاياته وأبدأ من ذلك بالعالم المحسوس الجثمانى وأولا عالم العناصر المشاهدة كيف تدرج صاعدا من الارض الى الماء ثم الى الهواء ثم الى النار متصلا بعضها ببعض وكل واحد منها

مستعدّا الى أن يستحيل الى ما يليه صاعدا وهابطا ويستحيل بعض الاوقات والصاعد منها ألطف مما قبله الى أن ينتهي الى عالم الافلاك وهو ألطف من الكل على طبقات اتصل بعضها ببعض على هيئة لا يدرك الحس منها الا الحركات فقط وبها يهتدي بعضهم الى معرفة مقاديرها وأوضاعها وما بعد ذلك من وجود الذوات التي لها هذه الآثار فيها ثم انظر الى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف ولم يوجد لهما الا قوة اللمس فقط ومعنى الاتصال في هذه المكوّنات أن آخر أفق منها مستعدّ بالاستعداد الغريب لان يصير أوّل أفق الذي بعده واتسع عالم الحيوان وتعدّدت أنواعه وانتهى في تدريج التكوين الى الانسان صاحب الفكر والروية ترتفع اليه من عالم القدرة الذي اجتمع فيه الحس والادراك ولم ينته الى الروية والفكر بالفعل وكان ذلك أوّل أفق من الانسان بعده وهذا غاية شهودنا ثم انا نجد في العوالم على اختلافها آثارا متنوّعة ففي عالم الحس آثار من حركات الافلاك والعناصر وفي عالم التكوين آثار من حركة النموّ والادراك تشهد كلها بأنّ لها مؤثرا مباينا للاجسام فهو روحاني ويتصل بالمكوّنات لوجود اتصال هذا العالم في وجودها وذلك هو النفس المدركة والمحركة ولا بدّ فوقها من وجود آخر يعطيها قوى الادراك والحركة ويتصل بها أيضا ويكون ذاته ادراكا صرفا وتعقلا محضا وهو عالم الملائكة فوجب من ذلك ان يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية الى الملكية ليصير بالفعل من جنس الملائكة وقتا من الاوقات في لمحة من اللمحات وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل كما نذكره بعد ويكون لها اتصال بالافق الذي بعدها شأن الموجودات المرتبة كما قدمناه فلها في الاتصال جهتا العلو والسفل هي متصلة بالبدن من أسفل منها ومكتسبة به المدارك الحسية التي تستعد بها للحصول على التعقل بالفعل ومتصلة من جهة الاعلى منها بأفق الملائكة ومكتسبة به المدارك العلمية والغيبية فانّ عالم الحوادث موجود في تعقلاتهم من غير زمان وهذا على ما قدّمناه من الترتيب المحكم في الوجود باتصال ذواته وقواه بعضها ببعض ثم انّ هذه النفس الانسانية غائبة عن العيان وآثارها ظاهرة في البدن فكأنه وجميع أجزائه مجتمعة ومفترقة آلات للنفس ولقواها أمّا الفاعلية فالبطش باليد والمشي بالرجل والكلام باللسان والحركة الكلية بالبدن متدافعا وأمّا المدركة وان كانت قوى الادراك مرتبة ومرتقية الى القوّة العليا منها ومن المفكرة التي يعبر عنها بالناطقة فقوى الحس الظاهرة بآلاته من

السمع والبصر وسائرها يرتقي الى الباطن وأوّله الحس المشترك وهو قوة تدرك المحسوسات مبصرة ومسموعة وملموسة وغيرها في حالة واحدة وبذلك فارقت قوة الحس الظاهر لان المحسوسات لا تزدحم عليها في الوقت الواحد ثم يؤدّيه الحس المشترك الى الخيال وهي قوة تمثل الشيء المحسوس في النفس كما هو مجرّد عن المواد الخارجة فقط وآلة هاتين القوتين في تصريفهما البطن الاوّل من الدماغ مقدّمه للاولى ومؤخره للثانية ثم يرتقي الخيال الى الواهمة والحافظة فالواهمة لادراك المعاني المتعلقة بالشخصيات كعداوة زيد وصداقة عمرو ورحمة الاب وافتراس الذئب والحافظة لايداع المدركات كلها متخيلة وغير متخيلة وهي لها كالخزانة تحفظها لوقت الحاجة اليها وآلة هاتين القوتين في تصريفهما البطن المؤخر من الدماغ أوّله للاولى ومؤخره للاخرى ثم ترتقي جميعها الى قوة الفكر وآلته البطن الاوسط من الدماغ وهي القوة التي يقع بها حركة الروية والتوجه نحو التعقل فتحرك النفس بها دائماً لما ركب فيها من النزوع للتخلص من درك القوة والاستعداد الذي للبشرية وتخرج الى الفعل في تعقلها متشبهة بالملا الاعلى الروحاني وتصير في أوّل مراتب الروحانيات في ادراكها بغير الآلات الجسمانية فهي متحركة دائماً ومتوجهة نحو ذلك وقد تنسلخ بالكلية من البشرية وروحانيتها الى الملكية من الافق الاعلى من غير اكتساب بل بما جعل الله فيها من الجبلة والفطرة الاولى في ذلك (والنفوس البشرية) على ثلاثة أصناف صنف عاجز بالطبع عن الوصول الى الادراك الروحاني فينقطع بالحركة الى الجهة السفلى نحو المدارك الحسية والخيالية وتركيب المعاني من الحافظة والواهمة على قوانين محصورة وترتيب خاص يستفيدون به العلوم التصورية والتصديقية التي للفكر في البدن وكلها خيالي منحصر نطاقه اذ هو من جهة مبدئه ينتهي الى الاوّليات ولا يتجاوزها وان فسد فسد ما بعدها وهذا هو في الاغلب نطاق الادراك البشري الجسماني واليه تنتهي مدارك العلماء وفيه ترسخ أقدامهم وصنف متوجه بتلك الحركة الفكرية نحو العقل الروحاني والادراك الذي لا يفتقر الى الآلات البدنية بما جعل فيه من الاستعداد لذلك فيتسع نطاق ادراكه عن الاوّليات التي هي نطاق الادراك الاوّل البشري ويسرح في فضاء المشاهدات الباطنية وهي وجدان كلها لا نطاق لها من مبدئها ولا من منتهاها وهذه مدارك العلماء الاولياء أهل العلوم اللدنية والمعارف الربانية وهي الحاصلة بعد الموت لاهل السعادة في البرزخ وصنف مفطور على الانسلاخ من البشرية جملة جسمانيتها وروحانيتها الى الملائكة من الافق الاعلى ليصير في لمحة من اللمحات ملكا بالفعل ويحصل له شهود الملا الاعلى

فى أفقهم وسماع الكلام النفسانى والخطاب الالهى فى تلك اللمحة وهؤلاء الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم جعل الله لهم الانسلاخ من البشرية فى تلك اللمحة وهى حالة الوحى فطرة فطرهم الله عليها وجبلة صورهم فيها ونزههم عن موانع البدن وعوائقه ما داموا ملابسين لها بالبشرية بما ركب فى غرائزهم من القصد والاستقامة التى يحاذون بها تلك الوجهة وركز فى طباعهم رغبة فى العبادة تكشف بتلك الوجهة وتسيغ نحوها فهم يتوجهون الى ذلك الافق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاؤا بتلك الفطرة التى فطروا عليها لا باكتساب ولا صناعة فلذا توجهوا وانسلخوا عن بشريتهم وتلقوا فى ذلك الملأ الاعلى ما يتلقونه عاجوا به على المدارك البشرية منزلا فى قواها لحكمة التبليغ للعباد فتارة يسمع دويا كأنه رمز من الكلام يأخذ منه المعنى الذى ألقى اليه فلا ينقضى الدوى الا وقد وعاه وفهمه وتارة يتمثل له الملك الذى يلقى اليه رجلا فيكلمه ويعى ما يقوله والتلقى من الملك والرجوع الى المدارك البشرية وفهمه ما ألقى عليه كله كأنه فى لحظة واحدة بل أقرب من لمح البصر لانه ليس فى زمان بل كلها تقع جميعا فيظهر كأنها سريعة ولذلك سميت وحيا لان الوحى فى اللغة الاسراع (واعلم) أن الاولى وهى حالة الدوى هى رتبة الانبياء غير المرسلين على ما حققوه والثانية وهى حالة تمثل الملك رجلا يخاطب هى رتبة الانبياء المرسلين ولذلك كانت أكمل من الاولى وهذا معنى الحديث الذى فسر فيه النبى صلى الله عليه وسلم الوحى لما سأله الحرث بن هشام وقال كيف يأتيك الوحى فقال أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فيفصم عنى وقد وعيت ما قال وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول وانما كانت الاولى أشد لانها مبدأ الخروج فى ذلك الاتصال من القوة الى الفعل فيعسر بعض العسر ولذلك لما عاج فيها على المدارك البشرية اختصت بالسمع وصعب ما سواه وعندما يتكرر الوحى ويكثر التلقى يسهل ذلك الاتصال فعندما يعرج الى المدارك البشرية يأتى على جميعها وخصوصا الاوضح منها وهو ادراك البصر وفى العبارة عن الوعى فى الاولى بصيغة الماضى وفى الثانية بصيغة المضارع لطيفة من البلاغة وهى أن الكلام جاء مجىء التمثيل لحالتى الوحى فمثل الحالة الاولى بالدوى الذى هو فى المتعارف غير كلام وأخبر أن الفهم والوعى يتبعه غب انقضائه فناسب عند تصوير انقضائه وانفصاله العبارة عن الوعى بالماضى المطابق للانقضاء والانقطاع ومثل الملك فى الحالة الثانية برجل يخاطب ويتكلم والكلام يساوقه الوعى فناسب العبارة بالمضارع المقتضى للتجدد * واعلم أن فى حالة الوحى كلها صعوبة على الجملة وشدة قد أشار اليها القرآن قال تعالى انا سنلقى عليك قولا ثقيلا وقالت عائشة كان

مما يعانى من التنزيل شدة وقالت كان ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا ولذلك كان يحدث عنه فى تلك الحالة من الغيبة والغطيط ماهو معروف وسبب ذلك أن الوحى كما قررنا مفارقة البشرية الى المدارك الملكية وتلقى كلام النفس فيحدث عنه شدة من مفارقة الذات ذاتها وانسلاخها عنها من أفقها الى ذلك الافق الآخر وهذا هو معنى الغط الذى عبر به فى مبدإ الوحى فى قوله فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارئ وكذا ثانية وثالثة كما فى الحديث وقد يفضى الاعتياد بالتدريج فيه شيأ فشيأ الى بعض السهولة بالقياس الى ما قبله ولذلك كان تنزل نجوم القرآن وسوره وآيه حين كان بمكة أقصر منها وهو بالمدينة وانظر الى ما نقل فى نزول سورة براءة فى غزوة تبوك وأنها نزلت كلها أو أكثرها عليه وهو يسير على ناقته بعد أن كان بمكة ينزل عليه بعض السورة من قصار المفصل فى وقت وينزل الباقى فى حين آخر وكذلك كان آخر ما نزل بالمدينة آية الدين وهى ما هى فى الطول بعد أن كانت الآية تنزل بمكة مثل آيات الرحمن والذاريات والمدثر والضحى والفلق وأمثالها واعتبر من ذلك علامة تميز بها بين المكى والمدنى من السور والآيات والله المرشد للصواب هذا محصل أمر النبوة * (وأما الكهانة) فهى أيضا من خواص النفس الانسانية وذلك أنه قد تقدم لنا فى جميع ما مر أن للنفس الانسانية استعدادا للانسلاخ من البشرية الى الروحانية التى فوقها وأنه يحصل من ذلك لمحة للبشر فى صنف الانبياء بما فطروا عليه من ذلك وتقرر أنه يحصل لهم من غير اكتساب ولا استعانة بشيء من المدارك ولا من التصورات ولا من الافعال البدنية كلاما أو حركة ولا بأمر من الامور انما هو انسلاخ من البشرية الى الملكية بالفطرة فى لحظة أقرب من لمح البصر واذا كان كذلك وكان ذلك الاستعداد موجودا فى الطبيعة البشرية فيعطى التقسيم العقلى أن هنا صنفا آخر من البشر ناقصا عن رتبة الصنف الاول نقصان الضد عن ضده الكامل لان عدم الاستعانة فى ذلك الادراك ضد الاستعانة فيه وشتان ما بينهما فاذا أعطى تقسيم الوجود أن هنا صنفا آخر من البشر مفطورا على أن تتحرك قوته العقلية حركتها الفكرية بالارادة عندما يبعثها النزوع لذلك وهى ناقصة عنه بالجبلة فيكون لها بالجبلة عندما يعوقها العجز عن ذلك تشبث بأمور جزئية محسوسة أو متخيلة كالاجسام الشفافة وعظام الحيوانات وسجع الكلام وما سنح من طير أو حيوان فيستديم ذلك الاحساس أو التخيل مستعينا به فى ذلك الانسلاخ الذى يقصده ويكون كالمشيع له وهذه القوة التى فيهم مبدأ لذلك الادراك هى الكهانة ولكون هذه النفوس مفطورة على النقص والقصور عن الكمال كان

ادراكها فى الجزئيات أكثر من الكليات ولذلك تكون المخيلة فيهم فى غاية القوة لانها آلة الجزئيات فتنفذ فيها نفوذا تاما فى نوم أو يقظة وتكون عندها حاضرة عتيدة تحضرها المخيلة وتكون لها كالمرآة تنظر فيها دائما ولا يقوى الكاهن على الكمال فى ادراك المعقولات لان وحيه من وحى الشيطان وأرفع أحوال هذا الصنف أن يستعين بالكلام الذى فيه السجع والموازنة ليشتغل به عن الحواس ويقوى بعض الشئ على ذلك الاتصال الناقص فيهجس فى قلبه عن تلك الحركة والذى يشيعها من ذلك الاجنبى ما يقذفه على لسانه فربما صدق ووافق الحق وربما كذب لانه يتمم نقصه بأمر أجنبى عن ذاته المدركة ومباين لها غير ملائم فيعرض له الصدق والكذب جميعا ولا يكون موثوقا به وربما يفزع الى الظنون والتخمينات حرصا على الظفر بالإدراك بزعمه وتمويها على السائلين وأصحاب هذا السجع هم المخصوصون باسم الكهان لانهم أرفع سائر أصنافهم وقد قال صلى الله عليه وسلم فى مثله هذا من سجع الكهان فجعل السجع مختصا بهم بمقتضى الاضافة وقد قال لابن صياد حين سأله كاشفا عن حاله بالاختبار كيف يأتيك هذا الامر قال يأتينى صادق وكاذب فقال خلط عليك الامر يعنى أن النبوة خاصتها الصدق فلا يعتريها الكذب بحال لانها اتصال من ذات النبى بالملا الاعلى من غير مشيع ولا استعانة بأجنبى والكهانة لما احتاج صاحبها بسبب عجزه الى الاستعانة بالتصورات الاجنبية كانت داخلة فى ادراكه والتبست بالادراك الذى توجه اليه فصار مختلطا بها وطرقه الكذب من هذه الجهة فامتنع أن تكون نبوة وانما قلنا ان أرفع مراتب الكهانة حالة السجع لان معنى السجع أخف من سائر المغيبات من المرئيات والمسموعات وتدل خفة المعنى على قرب ذلك الاتصال والادراك والبعد فيه عن العجز بعض الشئ (وقد زعم) بعض الناس أن هذه الكهانة قد انقطعت منذ زمن النبوة بما وقع من شأن رجم الشياطين بالشهب بين يدى البعثة وأن ذلك كان لمنعهم من خبر السماء كما وقع فى القرآن والكهان انما يتعرفون أخبار السماء من الشياطين فبطلت الكهانة من يومئذ ولا يقوم من ذلك دليل لان علوم الكهان كما تكون من الشياطين تكون من نفوسهم أيضا كما قررناه وأيضا فالآية انما دلت على منع الشياطين من نوع واحد من أخبار السماء وهو ما يتعلق بخبر البعثة ولم يمنعوا مما سوى ذلك وأيضا فانما كان ذلك الانقطاع بين يدى النبوة فقط ولعلها عادت بعد ذلك الى ما كانت عليه وهذا هو الظاهر لان هذه المدارك كلها تخمد فى زمن النبوة كما تخمد الكواكب والسرج عند وجود الشمس لان النبوة هى النور الاعظم الذى يخفى معه كل نور ويذهب

وقد زعم بعض الحكماء أنها انما توجد بين يدى النبوة ثم تنقطع وهكذا مع كل نبوة وقعت لان وجود النبوة لا بدّ له من وضع فلكي يقتضيه وفي تمام ذلك الوضع تمام تلك النبوة التي دل عليها ونقص ذلك الوضع عن التمام يقتضي وجود طبيعة من ذلك النوع الذي يقتضيه ناقصة وهو معنى الكاهن على ما قررناه فقبل أن يتم ذلك الوضع الكامل يقع الوضع الناقص ويقتضي وجود الكاهن اما واحدا أو متعددا فاذا تم ذلك الوضع تم وجود النبي بكماله وانقضت الاوضاع الدالة على مثل تلك الطبيعة فلا يوجد منها شئ بعد وهذا بناء على أن بعض الوضع الفلكي يقتضي بعض أثره وهو غير مسلم فلعل الوضع انما يقتضي ذلك الاثر بهيئته الخاصة ولو نقص بعض أجزائها فلا يقتضي شيأ لا أنه يقتضي ذلك الاثر ناقصا كما قالوه ثم ان هؤلاء الكهان اذا عاصروا زمن النبوة فانهم عارفون بصدق النبي ودلالة معجزته لان لهم بعض الوجدان من أمر النبوة كما لكل انسان من أمر اليوم ومعقولية تلك النسبة موجودة للكاهن بأشد مما للنائم ولا يصدهم عن ذلك ويوقعهم في التكذيب الا قوة المطامع في أنها نبوة لهم فيقعون في العناد كما وقع لامية بن أبي الصلت فانه كان يطمع أن يتنبأ وكذا وقع لابن صياد ولمسيلمة وغيرهم فاذا غلب الايمان وانقطعت تلك الاماني آمنوا أحسن ايمان كما وقع لطليحة الاسدي وسواد بن قارب وكان لهما في الفتوحات الاسلامية من الآثار الشاهدة بحسن الايمان * (وأما الرؤيا) فحقيقتها مطالعة النفس الناطقة في ذاتها الروحانية لمحة من صور الواقعات فانها عندما تكون روحانية تكون صور الواقعات فيها موجودة بالفعل كما هو شأن الذوات الروحانية كلها وتصير روحانية بأن تتجرد عن المواد الجسمانية والمدارك البدنية وقد يقع لها ذلك لمحة بسبب النوم كما نذكر فتقتبس بها علم ما تتشوف اليه من الامور المستقبلة وتعود به الى مداركها فان كان ذلك الاقتباس ضعيفا وغير جلي بالمحاكاة والمثال في الخيال لتخلطه فيحتاج من أجل هذه المحاكاة الى التعبير وقد يكون الاقتباس قويا يستغني فيه عن المحاكاة فلا يحتاج الى تعبير لخلوصه من المثال والخيال والسبب في وقوع هذه اللمحة للنفس أنها ذات روحانية بالقوة مستكملة بالبدن ومداركه حتى تصير ذاتها تعقلا محضا ويكمل وجودها بالفعل فتكون حينئذ ذاتا روحانية مدركة بغير شئ من الآلات البدنية الا أن نوعها في الروحانيات دون نوع الملائكة أهل الافق الاعلى على الذين لم يستكملوا ذواتهم بشئ من مدارك البدن ولا غيره فهذا الاستعداد حاصل لها مادامت في البدن ومنه خاص كالذي للاولياء ومنه عام للبشر على العموم وهو أمر الرؤيا * وأما الذي للانبياء فهو استعداد بالانسلاخ من البشرية الى الملكية

المحضة التي هي أعلى الروحانيات ويخرج هذا الاستعداد فيهم متكررا في حالات الوحي وهو عندما يعرج على المدارك البدنية ويقع فيها ما يقع من الادراك شبيها بحال النوم شبها بيّنا وان كان حال النوم أدون منه بكثير فلاجل هذا الشبه عبر الشارع عن الرؤيا بأنها جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوّة وفي رواية ثلاثة وأربعين وفي رواية سبعين وليس العدد في جميعها مقصودا بالذات وانما المراد الكثرة في تفاوت هذه المراتب بدليل ذكر السبعين في بعض طرقه وهو للتكثير عند العرب وماذهب اليه بعضهم في رواية ستة وأربعين من أن الوحي كان في مبتدئه بالرؤيا ستة أشهر وهي نصف سنة ومدة النبوّة كلها بمكة والمدينة ثلاثة وعشرون سنة فنصف السنة منها جزء من ستة وأربعين فكلام بعيد من التحقيق لانه انما وقع ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ومن أين لنا أن هذه المدة وقعت لغيره من الانبياء مع أن ذلك انما يعطي نسبة زمن الرؤيا من زمن النبوّة ولا يعطي نسبة حقيقتها من حقيقة النبوّة واذا تبين لك هذا مما ذكرناه أولا علمت أن معنى هذا الجزء نسبة الاستعداد الاول الشامل للبشر الى الاستعداد القريب الخاص بصنف الانبياء الفطري لهم صلوات الله عليهم اذ هو الاستعداد البعيد وان كان عاما في البشر ومعه عوائق وموانع كثيرة من حصوله بالفعل ومن أعظم تلك الموانع الحواس الظاهرة ففطر الله البشر على ارتفاع حجاب الحواس بالنوم الذي هو جبلي لهم فتتعرض النفس عند ارتفاعه الى معرفة ما تتشوّف اليه في عالم الحق فتدرك في بعض الاحيان منه لمحة يكون فيها الظفر بالمطلوب ولذلك جعلها الشارع من المبشرات فقال لم يبق من النبوّة الا المبشرات قالوا وما المبشرات يارسول الله قال الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له (وأما سبب ارتفاع حجاب الحواس) بالنوم فعلى ما أصفه لك وذلك أن النفس الناطقة انما ادراكها وأفعالها بالروح الحيواني الجسماني وهو بخار لطيف مركزه بالتجويف الايسر من القلب على ما في كتب التشريح لجالينوس وغيره وينبعث مع الدم في الشريانات والعروق فيعطي الحس والحركة وسائر الافعال البدنية ويرتفع لطيفه الى الدماغ فيعتدل من برده وتتم أفعال القوى التي في بطونه فالنفس الناطقة انما تدرك وتعقل بهذا الروح البخاري وهي متعلقة به لما اقتضته حكمة التكوين في أن اللطيف لا يؤثر في الكثيف ولما لطف هذا الروح الحيواني من بين المواد البدنية صار محلا لآثار الذات المباينة له في جسمانيته وهي النفس الناطقة وصارت آثارها حاصلة في البدن بواسطته وقد كنا قدمنا أن ادراكها على نوعين ادراك بالظاهر وهو بالحواس الخمس وادراك بالباطن وهو بالقوى الدماغية وأن هذا الادراك كله صارف لها عن

ادراكها مافوقها من ذواتها الروحانية التي هي مستعدة له بالفطرة ولما كانت الحواس الظاهرة جسمانية كانت معرضة للوسن والفشل بما يدركها من التعب والكلال وتغشى الروح بكثرة التصرف فخلق الله لها طلب الاستجمام لتجرد الادراك على الصورة الكاملة وانما يكون ذلك بانخناس الروح الحيواني من الحواس الظاهرة كلها ورجوعه الى الحس الباطن ويعين على ذلك ما يغشى البدن من البرد بالليل فتطلب الحرارة الغريزية أعماق البدن وتذهب من ظاهره الى باطنه فتكون مشيعة مركبها وهو الروح الحيواني الى الباطن ولذلك كان النوم للبشر في الغالب انما هو بالليل فاذا انخنس الروح عن الحواس الظاهرة ورجع الى القوى الباطنة وخفت عن النفس شواغل الحس وموانعه ورجعت الى الصورة التي في الحافظة تمثل منها بالتركيب والتحليل صور خيالية وأكثر ما تكون معتادة لانها منتزعة من المدركات المتعاهدة قريبا ثم ينزلها الحس المشترك الذي هو جامع الحواس الظاهرة فيدركها على أنحاء الحواس الخمس الظاهرة وربما التفتت النفس لفتة الى ذاتها الروحانية مع منازعتها القوى الباطنية فتدرك بادراكها الروحاني لانها مفطورة عليه وتقتبس من صور الاشياء التي صارت متعلقة في ذاتها حينئذ ثم يأخذ الخيال تلك الصور المدركة فيمثلها بالحقيقة أو المحاكاة في القوالب المعهودة والمحاكاة من هذه هي المحتاجة للتعبير وتصرفها بالتركيب والتحليل في صور الحافظة قبل أن تدرك من تلك اللمحة ما تدركه هي أضغاث أحلام (وفي الصحيح) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الرؤيا ثلاث رؤيا من الله ورؤيا من الملك ورؤيا من الشيطان وهذا التفصيل مطابق لما ذكرناه فالجلي من الله والمحاكاة الداعية الى التعبير من الملك وأضغاث الاحلام من الشيطان لانها كلها باطل والشيطان ينبوع الباطل هذه حقيقة الرؤيا وما يسببها ويشيعها من النوم وهي خواص للنفس الانسانية موجودة في البشر على العموم لا يخلو عنها أحد منهم بل كل واحد من الانساني رأى في نومه ما صدر له في يقظته مرارا غير واحدة وحصل له على القطع أن النفس مدركة للغيب في النوم ولابد واذا جاز ذلك في عالم النوم فلا يمتنع في غيره من الاحوال لان الذات المدركة واحدة وخواصها عامة في كل حال والله الهادي الى الحق بمنه وفضله

(فصل) ووقوع ما يقع للبشر من ذلك غالبا انما هو من غير قصد ولا قدرة عليه وانما تكون النفس متشوفة لذلك الشيء فيقع لها بتلك اللمحة في النوم لا أنها تقصد الى ذلك فتراه وقد وقع في كتاب الغاية وغيره من كتب أهل الرياضات ذكر أسماء تذكر عند النوم فتكون عنها الرؤيا فيما يتشوف اليه ويسمونها الحالومية وذكر منها مسلمة في

كتاب الغاية حالومة سماها حالومة الطباع التام وهو أن يقال عند النوم بعد فراغ السر وصحة التوجه هذه الكلمات الاعجمية وهي تماغس بعدان يسواد وغداس نوفنا غادس ويذكر حاجته فانه يرى الكشف عما يسأل عنه في النوم (وحكي) أن رجلا فعل ذلك بعد رياضة ليال في مأكله وذكره فتمثل له شخص يقول له أنا طباعك التام فسأله وأخبره عما كان يتشوف اليه وقد وقع لي أنا بهذه الاسماء مرائي عجيبة اطلعت بها على أمور كنت أتشوف اليها من أحوالي وليس ذلك بدليل على أن القصد للرؤيا يحدثها وانما هذه الحالومات تحدث استعدادا في النفس لوقوع الرؤيا فاذا قوى الاستعداد كان أقرب الى حصول ما يستعد له وللشخص أن يفعل من الاستعداد ما أحب ولا يكون دليلا على ايقاع المستعد له فالقدرة على الاستعداد غير القدرة على الشئ فاعلم ذلك وتدبره فيما تجد من أمثاله والله الحكيم الخبير.

(فصل) ثم انا نجد في النوع الانساني أشخاصا يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فيهم يتميز بها صنفهم عن سائر الناس ولا يرجعون في ذلك الى صناعة ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم ولا غيرها انما نجد مداركهم في ذلك بمقتضى فطرتهم التي فطروا عليها وذلك مثل العرافين والناظرين في الاجسام الشفافة كالمرايا وطساس الماء والناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها وأهل الزجر في الطير والسباع وأهل الطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى وهذه كلها موجودة في عالم الانسان لا يسع أحدا جحدها ولا انكارها وكذلك المجانين يلقى على ألسنتهم كلمات من الغيب فيخبرون بها وكذلك النائم والميت لاول موته أو نومه يتكلم بالغيب وكذلك أهل الرياضات من المتصوفة لهم مدارك في الغيب على سبيل الكرامة معروفة * ونحن الآن نتكلم على هذه الادراكات كلها ونبتدئ منها بالكهانة ثم نأتي عليها واحدة واحدة الى آخرها ونقدم على ذلك مقدمة في أن النفس الانسانية كيف تستعد لادراك الغيب في جميع الاصناف التي ذكرناها وذلك أنها ذات روحانية موجودة بالقوة من بين سائر الروحانيات كما ذكرناه قبل وانما تخرج من القوة الى الفعل بالبدن وأحواله وهذا أمر مدرك لكل أحد وكل ما بالقوة فله مادة وصورة وصورة هذه النفس التي بها يتم وجودها هو عين الادراك والتعقل فهي توجد أولا بالقوة مستعدة للادراك وقبول الصور الكلية والجزئية ثم يتم نشؤها ووجودها بالفعل بمصاحبة البدن وما يعوده ها بورود مدركاتها المحسوسة عليها وما تنتزع من تلك الادراكات من المعاني الكلية فتتعقل الصور مرة بعد أخرى حتى يحصل لها الادراك والتعقل طورا بالفعل فتتم ذاتها وتبقى النفس كالهيولى والصور متعاقبة عليها بالادراك

واحدة بعد واحدة ولذلك نجد الصبي في أول نشأته لا يقدر على الادراك الذي لها من ذاتها لا بنوم ولا بكشف ولا بغيرهما وذلك لان صورتها التي هي عين ذاتها وهي الادراك والتعقل لم يتم بعد بل لم يتم لها انتزاع الكليات ثم اذا تمت ذاتها بالفعل حصل لها ما دامت مع البدن نوعان من الادراك ادراك بآلات الجسم تؤديه اليها المدارك البدنية وادراك بذاتها من غير واسطة وهي محجوبة عنه بالانغماس في البدن والحواس وبشواغلها لان الحواس أبدا جاذبة لها الى الظاهر بما فطرت عليه أولا من الادراك الجسماني وربما تنغمس من الظاهر الى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظة اما بالخاصية التي هي للانسان على الاطلاق مثل النوم أو بالخاصية الموجودة لبعض البشر مثل الكهانة والطرق أو بالرياضة مثل أهل الكشف من الصوفية فتلتفت حينئذ الى الذوات التي فوقها من الملا الاعلى لما بين أفقها وأفقهم من الاتصال في الوجود كما قررناه قبل وتلك الذوات روحانية وهي ادراك محض وعقول بالفعل وفيها صور الموجودات وحقائقها كما مر فيتجلى فيها شيء من تلك الصور وتقتبس منها علوما وربما دفعت تلك الصور المدركة الى الخيال فيصرفه في القوالب المعتادة ثم يراجع الحس بما أدركت اما مجردا أو في قوالبه فتخبر به * هذا هو شرح استعداد النفس لهذا الادراك الغيبي * ولنرجع الى ما وعدنا به من بيان أصنافه (فاما) الناظرون في الاجسام الشفافة من المرايا وطساس المياه وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها وأهل الطرق بالحصى والنوى فكلهم من قبيل الكهان الا أنهم أضعف رتبة فيه في أصل خلقهم لان الكاهن لا يحتاج في رفع حجاب الحس الى كثير معاناة وهؤلاء يعانونه بانحصار المدارك الحسية كلها في نوع واحد منها وأشرفها البصر فيعكف على المرئي البسيط حتى يبدو له مدركه الذي يخبر به عنه وربما يظن أن مشاهدة هؤلاء لما يرونه هو في سطح المرآة وليس كذلك بل لا يزالون ينظرون في سطح المرآة الى أن يغيب عن البصر ويبدو فيما بينهم وبين سطح المرآة حجاب كأنه غمام يتمثل فيه صور هي مداركهم فيشيرون اليهم بالمقصود لما يتوجهون الى معرفته من نفي أو اثبات فيخبرون بذلك على نحو ما أدركوه وأما المرآة وما يدرك فيها من الصور فلا يدركونه في تلك الحال وانما ينشأ لهم بها هذا النوع الآخر من الادراك وهو نفساني ليس من ادراك البصر بل يتشكل به المدرك النفساني للحس كما هو معروف ومثل ذلك ما يعرض للناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادها وللناظرين في الماء والطساس وأمثال ذلك * وقد شاهدنا من هؤلاء من يشغل الحس بالبخور فقط ثم بالعزائم للاستعداد ثم يخبر كما أدرك ويزعمون أنهم يرون الصور متشخصة في الهواء تحكي لهم أحوال ما يتوجهون الى ادراكه بالمثال

والاشارة وغيبة هؤلاء عن الحس أخف من الاولين والعالم أبو الغرائب * وأما الزجر وهو ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سنوح طائر أو حيوان والفكر فيه بعد مغيبه وهي قوة في النفس تبعث على الحرص والفكر فيما زجر فيه من مرئي أو مسموع وتكون قوته المخيلة كما قدمناه قوية فيبعثها في البحث مستعينا بما رآه أو سمعه فيؤديه ذلك الى ادراك ما كما تفعله القوة المتخيلة في النوم وعند ركود الحواس تتوسط بين المحسوس المرئي في يقظته وتجمعه مع ما عقلته فيكون عنها الرؤيا * وأما المجانين فنفوسهم الناطقة ضعيفة التعلق بالبدن لفساد أمزجتهم غالبا وضعف الروح الحيواني فيها فتكون نفسه غير مستغرقة في الحواس ولا منغمسة فيها بما شغلها في نفسها من ألم النقص ومرضه وربما زاحمها على التعلق به روحانية أخرى شيطانية تتشبث به وتضعف هذه عن ممانعتها فيكون عنه التخبط فاذا أصابه ذلك التخبط اما لفساد مزاجه من فساد في ذاتها أو لمزاحمة من النفوس الشيطانية في تعلقه غاب عن حسه جملة فادرك لمحة من عالم نفسه وانطبع فيها بعض الصور وصرفها الخيال وربما نطق على لسانه في تلك الحال من غير ارادة النطق وادراك هؤلاء كلهم مشوب فيه الحق بالباطل لانه لا يحصل لهم الاتصال وان فقدوا الحس الا بعد الاستعانة بالتصورات الاجنبية كما قررناه ومن ذلك يجيء الكذب في هذه المدارك * وأما العرافون فهم المتعلقون بهذا الادراك وليس لهم ذلك الاتصال فيسلطون الفكر على الامر الذي يتوجهون اليه ويأخذون فيه بالظن والتخمين بناء على ما يتوهمونه من مبادي ذلك الاتصال والادراك ويدعون بذلك معرفة الغيب وليس منه على الحقيقة (هذا تحصيل هذه الامور) وقد تكلم عليها المسعودي في مروج الذهب فما صادف تحقيقا ولا اصابة ويظهر من كلام الرجل أنه كان بعيدا عن الرسوخ في المعارف فينقل ما سمع من أهله ومن غير أهله وهذه الادراكات التي ذكرناها موجودة كلها في نوع البشر فقد كان العرب يفزعون الى الكهان في تعرف الحوادث ويتنافرون اليهم في الخصومات ليعرفوهم بالحق فيها من ادراك غيبهم وفي كتب أهل الادب كثير من ذلك واشتهر منهم في الجاهلية شق من انمار بن نزار وسطيح بن مازن بن غسان وكان يدرج كما يدرج الثوب ولا عظم فيه الا الجمجمة ومن مشهور الحكايات عنهما تأويل رؤيا ربيعة ابن مضر وما أخبراه به من ملك الحبشة لليمن وملك مضر من بعدهم وظهور النبوة المحمدية في قريش ورؤيا الموبذان التي أولها سطيح لما بعث اليه بها كسرى عبد المسيح فأخبره بشأن النبوة وخراب ملك فارس وهذه كلها مشهورة وكذلك العرافون كان في العرب منهم كثير وذكروهم في أشعارهم قال

فقلت لعراف اليمامة داوني * فانك ان داويتني لطبيب

وقال الآخر

جعلت لعراف اليمامة حكمه * وعراف نجد ان هما شفياني

فقالا شفاك الله والله مالنا * بما حملت منك الضلوع يدان

وعراف اليمامة هو رباح بن عجلة وعراف نجد الابلق الاسدي (ومن هذه المدارك الغيبية) ما يصدر لبعض الناس عند مفارقة اليقظة والتباسه بالنوم من الكلام على الشيء الذي يتشوف اليه بما يعطيه غيب ذلك الامر كما يريد ولا يقع ذلك الا في مبادي النوم عند مفارقة اليقظة وذهاب الاختيار في الكلام فيتكلم كانه مجبول على النطق وغايته أن يسمعه ويفهمه وكذلك يصدر عن المقتولين عند مفارقة رؤسهم وأوساط أبدانهم كلام بمثل ذلك * ولقد بلغنا عن بعض الجبابرة الظالمين أنهم قتلوا من سجونهم أشخاصا ليتعرفوا من كلامهم عند القتل عواقب أمورهم في أنفسهم فأعلموهم بما يستبشع * وذكر مسلمة في كتاب الغاية له في مثل ذلك أن آدميا اذا جعل في دن مملوء بدهن السمسم ومكث فيه أربعين يوما يغذى بالتين والجوز حتى يذهب لحمه ولا يبقى منه الا العروق وشؤن رأسه فيخرج من ذلك الدهن فحين يجف عليه الهواء يجيب عن كل شيء يسئل عنه من عواقب الامور الخاصة والعامة وهذا فعل من مناكير أفعال السحرة لكن يفهم منه عجائب العالم الانساني * ومن الناس من يحاول حصول هذا المدرك الغيبي بالرياضة فيحاولون بالمجاهدة موتا صناعيا باماتة جميع القوى البدنية ثم محو آثارها التي تلونت بها النفس ثم تغذيتها بالذكر لتزداد قوة في نشئها ويحصل ذلك بجمع الفكر وكثرة الجوع ومن المعلوم على القطع أنه اذا نزل الموت بالبدن ذهب الحس وحجابه واطلعت النفس على ذاتها وعالمها فيحاولون ذلك بالاكتساب ليقع لهم قبل الموت ما يقع لهم بعده وتطلع النفس على المغيبات ومن هؤلاء أهل الرياضة السحرية يرتاضون بذلك ليحصل لهم الاطلاع على المغيبات والتصرفات في العوالم وأكثر هؤلاء في الاقاليم المنحرفة جنوبا وشمالا خصوصا بلاد الهند ويسمون هنالك الحوكية ولهم كتب في كيفية هذه الرياضة كثيرة والاخبار عنهم في ذلك غريبة * وأما المتصوفة فرياضتهم دينية وعرية عن هذه المقاصد المذمومة وانما يقصدون جمع الهمة والاقبال على الله بالكلية ليحصل لهم أذواق أهل العرفان والتوحيد ويزيدون في رياضتهم الى الجمع والجوع التغذية بالذكر فبها تتم وجهتهم في هذه الرياضة لانه اذا نشأت النفس على الذكر كانت أقرب الى العرفان بالله واذا عريت عن الذكر كانت شيطانية وحصول ما يحصل من معرفة الغيب والتصرف

لهؤلاء المتصوّفة انما هو بالعرض ولا يكون مقصودا من أوّل الامر لانه اذا قصد ذلك كانت الوجهة فيه لغير الله وانما هي لقصد التصرف والاطلاع على الغيب وأخسر بها صفقة فانها في الحقيقة شرك قال بعضهم من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني فهم يقصدون بوجهتهم المعبود لا شيأ سواه واذا حصل أثناء ذلك ما يحصل فبالعرض وغير مقصود لهم وكثير منهم يفر منه اذا عرض له ولا يحفل به وانما يريد الله لذاته لا لغيره وحصول ذلك لهم معروف ويسمون ما يقع لهم من الغيب والحديث على الخواطر فراسة وكشفا وما يقع لهم من التصرف كرامة وليس شئ من ذلك بنكير في حقهم وقد ذهب الى انكاره الاستاذ أبو اسحق الاسفرايني وأبو محمد بن أبي زيد المالكي في آخرين فرارا من التباس المعجزة بغيرها والمعوّل عليه عند المتكلمين حصول التفرقة بالتحدي فهو كاف * وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان فيكم محدّثين وانّ منهم عمر وقد وقع للصحابة من ذلك وقائع معروفة تشهد بذلك في مثل قول عمر رضي الله عنه يا سارية الجبل وهو سارية بن زنيم كان قائدا على بعض جيوش المسلمين بالعراق أيام الفتوحات وتورّط مع المشركين في معترك وهمّ بالانهزام وكان بقربه جبل يتحيز اليه فرفع لعمر ذلك وهو يخطب على المنبر بالمدينة فناداه يا سارية الجبل وسمعه سارية وهو بمكانه ورأى شخصه هنالك والقصة معروفة ووقع مثله أيضا لأبي بكر في وصيته عائشة ابنته رضي الله عنهما في شأن ما نحلها من أوسق التمر من حديقته ثم نبهها على جذاذه لتحوزه عن الورثة فقال في سياق كلامه وانما هما أخواك وأختاك فقالت انما هي أسماء فمن الاخرى فقال ان ذا بطن بنت خارجة أراها جارية فكانت جارية وقع في الموطأ في باب ما لا يجوز من النحل ومثل هذه الوقائع كثيرة لهم ولمن بعدهم من الصالحين وأهل الاقتداء الا أن أهل التصوّف يقولون انه يقل في زمن النبوّة اذ لا يبقى للمريد حالة بحضرة النبي حتى انهم يقولون ان المريد اذا جاء للمدينة النبوية يسلب حاله ما دام فيها حتى يفارقها والله يرزقنا الهداية ويرشدنا الى الحق

(فصل) ومن هؤلاء المريدين من المتصوّفة قوم بهاليل معتوهون أشبه بالمجانين من العقلاء وهم مع ذلك قد صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصدّيقين وعلم ذلك من أحوالهم من يفهم عنهم من أهل الذوق مع أنهم غير مكلفين ويقع لهم من الاخبار عن المغيبات عجائب لانهم لا يتقيدون بشئ فيطلقون كلامهم في ذلك ويأتون منه بالعجائب وربما ينكر الفقهاء أنهم على شئ من المقامات لما يرون من سقوط التكليف عنهم والولاية لا تحصل الا بالعبادة وهو غلط فانّ فضل الله يؤتيه من

يشاء ولا يتوقف حصول الولاية على العبادة ولا غيرها واذا كانت النفس الانسانية ثابتة الوجود فالله تعالى يخصها بما شاء من مواهبه وهؤلاء القوم لم تعدم نفوسهم الناطقة ولا فسدت كحال المجانين وانما فقد لهم العقل الذى يناط به التكليف وهى صفة خاصة للنفس وهى علوم ضرورية للانسان يشتد بها نظره ويعرف أحوال معاشه واستقامة منزله وكانه اذا ميز أحوال معاشه واستقامة منزله لم يبق له عذر فى قبول التكاليف لاصلاح معاده وليس من فقد هذه الصفة بفاقد لنفسه ولا ذاهل عن حقيقته فيكون موجود الحقيقة معدوم العقل التكليفى الذى هو معرفة المعاش ولا استحالة فى ذلك ولا يتوقف اصطفاء الله عباده للمعرفة على شئ من التكاليف واذا صح ذلك فاعلم أنه ربما يلتبس حال هؤلاء بالمجانين الذين تفسد نفوسهم الناطقة ويلتحقون بالبهائم ولك فى تمييزهم علامات منها أن هؤلاء البهاليل تجد لهم وجهة ما لا يخلون عنها أصلا من ذكر وعبادة لكن على غير الشروط الشرعية لما قلناه من عدم التكليف والمجانين لا تجد لهم وجهة أصلا ومنها أنهم يخلقون على البله من أول نشأتهم والمجانين يعرض لهم الجنون بعد مدة من العمر لعوارض بدنية طبيعية فاذا عرض لهم ذلك وفسدت نفوسهم الناطقة ذهبوا بالخيبة ومنها كثرة تصرفهم فى الناس بالخير والشر لانهم لا يتوقفون على اذن لعدم التكليف فى حقهم والمجانين لا تصرف لهم وهذا فصل انتهى بنا الكلام اليه والله المرشد للصواب

(فصل) وقد يزعم بعض الناس أن هنا مدارك للغيب من دون غيبة عن الحس فمنهم المنجمون القائلون بالدلالات النجومية ومقتضى أوضاعها فى الفلك وآثارها فى العناصر وما يحصل من الامتزاج بين طباعها بالتناظر ويتأدى من ذلك المزاج الى الهواء وهؤلاء المنجمون ليسوا من الغيب فى شئ انما هى ظنون حدسية وتخمينات مبنية على التأثير النجومية وحصول المزاج منه للهواء مع مزيد حدث يقف به الناظر على تفصيله فى الشخصيات فى العالم كما قاله بطليموس ونحن نبين بطلان ذلك فى محله ان شاء الله وهو لو ثبت فغايته حدس وتخمين وليس مما ذكرناه فى شئ * ومن هؤلاء قوم من العامة استنبطوا الاستخراج الغيب وتعرف الكائنات صناعة سموها خط الرمل نسبة الى المادة التى يضعون فيها عملهم ومحصول هذه الصناعة أنهم صيروا من النقط أشكالا ذات أربع مراتب تختلف باختلاف مراتبها فى الزوجية والفردية واستوائها فيهما فكانت ستة عشر شكلا لانها ان كانت أزواجا كلها أو أفرادا كلها فشكلان وان كان الفرد فيهما فى مرتبة واحدة فقط فأربعة أشكال وان كان الفرد فى مرتبتين فستة أشكال وان كان فى ثلاث مراتب فأربعة أشكال جاءت

ستة عشر شكلا ميزوها كلها باسمائها وأنواعها الى سعود ونحوس شأن الكواكب وجعلوا لها ستة عشر بيتا طبيعية بزعمهم وكأنها البروج الاثنا عشر التى للفلك والاوتاد الاربعة وجعلوا لكل شكل منها بيتا وحظوظا ودلالة على صنف من موجودات عالم العناصر يختص به واستنبطوا من ذلك فنا حاذوا به فن النجامة ونوع قضايه الا أن أحكام النجامة مستندة الى أوضاع طبيعية كما زعم بطليموس وهذه انما مستندها أوضاع تحكمية وأهواء اتفاقية ولا دليل يقوم على شئ منها ويزعمون أن أصل ذلك من النبوة القديمة فى العالم وربما نسبوها الى دانيال أو الى ادريس صلوات الله عليهما شأن الصنائع كلها وربما يدعون مشروعيتها ويحتجون بقوله صلى الله عليه وسلم كان نبى يخط فمن وافق خطه فذاك وليس فى الحديث دليل على مشروعية خط الرمل كما يزعمه بعض من لا تحصيل لديه لان معنى الحديث كان نبى يخط فيأتيه الوحى عند ذلك الخط ولا استحالة فى أن يكون ذلك عادة لبعض الانبياء فمن وافق خطه ذلك النبى فهو ذاك أى فهو صحيح من بين الخط بما عضده من الوحى لذلك النبى الذى كانت عادته أن يأتيه الوحى عند الخط وأما اذا أخذ ذلك من الخط مجردا من غير موافقة وحى فلا وهذا معنى الحديث والله أعلم * فاذا أرادوا استخراج مغيب بزعمهم عمدوا الى قرطاس أو رمل أو دقيق فوضعوا النقط سطورا على عدد المراتب الاربعة ثم كرروا ذلك أربع مرات فتجئ ستة عشر سطرا ثم يطرحون النقط أزواجا ويضعون ما بقى من كل سطر زوجا كان أو فردا فى مرتبته على الترتيب فتجئ أربعة أشكال يضعونها فى سطر متتالية ثم يولدون منها أربعة أشكال أخرى من جانب العرض باعتبار كل مرتبة وما قابلها من الشكل الذى بازائه وما يجتمع منهما من زوج أو فرد فتكون ثمانية أشكال موضوعة فى سطر ثم يولدون من كل شكلين شكلا تحتهما باعتبار ما يجتمع فى كل مرتبة من مراتب الشكلين أيضا من زوج أو فرد فتكون أربعة أخرى تحتها ثم يولدون من الاربعة شكلين كذلك تحتها ثم من الشكلين شكلا كذلك تحتهما ثم من هذا الشكل الخامس عشر مع الشكل الاول شكلا يكون آخر الستة عشر ثم يحكمون على الخط كله بما اقتضته أشكاله من السعودة والنحوسة بالذات والنظر والحلول والامتزاج والدلالة على أصناف الموجودات وسائر ذلك تحكما غريبا وكثرت هذه الصناعة فى العمران ووضعت فيها التآليف واشتهر فيها الاعلام من المتقدمين والمتأخرين وهى كما رأيت تحكم وهوى والتحقيق الذى ينبغى أن يكون نصب فكرك أن الغيوب لا تدرك بصناعة البتة ولا سبيل الى تعرفها الا للخواص من البشر المفطورين على الرجوع عن عالم الحس الى عالم الروح ولذلك يسمى المنجمون هذا

الصنف كلهم بالزهريين نسبة الى ماتقتضيه دلالة الزهرة بزعمهم فى أصل مواليدهم على ادراك الغيب فالخط وغيره من هذه ان كان الناظر فيه من أهل هذه الخاصية وقصد بهذه الامور التى ينظر فيها من النقط أو العظام أو غيرها اشغال الحس لترجع النفس الى عالم الروحانيات لحظة ما فهو من باب الطرق بالحصى والنظر فى قلوب الحيوانات والمرايا الشفافة كما ذكرناه وان لم يكن كذلك وانما قصد معرفة الغيب بهذه الصناعة وأنها تفيده ذلك فهذر من القول والعمل والله يهدى من يشاء * والعلامة لهذه الفطرة التى فطر عليها أهل هذا الادراك الغيبى أنهم عند توجههم الى تعرّف الكائنات يعتريهم خروج عن حالتهم الطبيعية كالتثاؤب والتمطط ومبادى الغيبة عن الحس ويختلف ذلك بالقوّة والضعف على اختلاف وجودها فيهم فمن لم توجد له هذه العلامة فليس من ادراك الغيب فى شئ وانما هو ساع فى تنفيق كذبه

(فصل) ومنهم طوائف يضعون قوانين لاستخراج الغيب ليست من الطور الاوّل الذى هو من مدارك النفس الروحانية ولا من الحدس المبنىّ على تأثيرات النجوم كما زعمه بطليموس ولا من الظنّ والتخمين الذى يحاول عليه العرافون وانما هى مغالط يجعلونها كالمصايد لاهل العقول المستضعفة ولست أذكر من ذلك الا ماذكره المصنفون وولع به الخواص * فمن تلك القوانين الحساب الذى يسمونه حساب النيم وهو مذكور فى آخر كتاب السياسة المنسوب لارسطو يعرف به الغالب من المغلوب فى المتحاربين من الملوك وهو أن تحسب الحروف التى فى اسم أحدهما بحساب الجمل المصطلح عليه فى حروف أبجد من الواحد الى الالف آحادا وعشرات ومئين وألوفا فاذا حسبت الاسم وتحصل لك منه عدد فاحسب اسم الآخر كذلك ثم اطرح كل واحد منهما تسعة تسعة واحفظ بقية هذا وبقية هذا ثم انظر بين العددين الباقيين من حساب الاسمين فان كان العددان مختلفين فى الكمية وكانا معا زوجين أو فردين معا فصاحب الاقلّ منهما هو الغالب وان كان أحدهما زوجا والآخر فردا فصاحب الاكثر هو الغالب وان كانا متساويين فى الكمية وهما معا زوجان فالمطلوب هو الغالب وان كانا معا فردين فالطالب هو الغالب ويقال هنالك بيتان فى هذا العمل اشتهرا بين الناس وهما

أرى الزوج والافراد يسمو أقلها * وأكثرها عند التخالف غالب
ويغلب مطلوب اذا الزوج يستوى * وعند استواء الفرد يغلب طالب

ثم وضعوا لمعرفة ما بقى من الحروف بعد طرحها بتسعة قانونا معروفا عندهم فى طرح تسعة وذلك أنهم جمعوا الحروف الدالة على الواحد فى المراتب الاربع وهى ا

الدالة على الواحد و ى الدالة على العشرة وهي واحد في مرتبة العشرات و ق الدالة على المائة لانها واحد في مرتبة المئين و ش الدالة على الالف لانها واحد في مرتبة الآلاف وليس بعد الالف عدد يدل عليه بالحروف لان الشين هي آخر حروف أبجد ثم رتبوا هذه الاحرف الاربعة على نسق المراتب فكان منها كلمة رباعية وهي ايقش ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة على اثنين في المراتب الثلاث وأسقطوا مرتبة الآلاف منها لانها كانت آخر حروف أبجد فكان مجموع حروف الاثنين في المراتب الثلاث ثلاثة حروف وهي ب الدالة على اثنين في الآحاد و لـ الدالة على اثنين في العشرات وهي عشرون و ر الدالة على اثنين في المئين وهي مائتان وصيروها كلمة واحدة ثلاثية على نسق المراتب وهي بكر ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة على ثلاثة فنشأت عنها كلمة جلس وكذلك الى آخر حروف أبجد وصارت تسع كلمات نهاية عدد الآحاد وهي ايقش بكر جلس دمت هنث وصخ زعذ حفظ طضغ مرتبة على توالي الاعداد ولكل كلمة منها عددها الذي هي في مرتبته فالواحد لكلمة ايقش والاثنان لكلمة بكر والثلاثة لكلمة جلس وكذلك الى التاسعة التي هي طضغ فتكون لها التسعة فاذا أرادوا طرح الاسم بتسعة نظروا كل حرف منه في أي كلمة هو من هذه الكلمات وأخذوا عددها مكانه ثم جمعوا الاعداد التي يأخذونها بدلا من حروف الاسم فان كانت زائدة على التسعة أخذوا ما فضل عنها والا أخذوه كما هو ثم يفعلون كذلك بالاسم الآخر وينظرون بين الخارجين بما قدمناه والسر في هذا القانون بين وذلك أن الباقي من كل عقد من عقود الاعداد بطرح تسعة انما هو واحد فكأنه يجمع عدد العقود خاصة من كل مرتبة فصارت أعداد العقود كأنها آحاد فلا فرق بين الاثنين والعشرين والمائتين والالفين وكلها اثنان وكذلك الثلاثة والثلاثون والثلثمائة والثلاثة الآلاف كلها ثلاثة ثلاثة فوضعت الاعداد على التوالي دالة على اعداد العقود لاغير وجعلت الحروف الدالة على أصناف العقود في كل كلمة من الآحاد والعشرات والمئين والالوف وصار عدد الكلمة الموضوع عليها نائبا عن كل حرف فيها سواء دل على الآحاد أو العشرات أو المئين فيؤخذ عدد كل كلمة عوضا من الحروف التي فيها وتجمع كلها الى آخرها كما قلناه هذا هو العمل المتداول بين الناس منذ الامر القديم وكان بعض من لقيناه من شيوخنا يرى أن الصحيح فيها كلمات أخرى تسعة مكان هذه ومتوالية كتواليها ويفعلون بها في الطرح بتسعة مثل ما يفعلونه بالاخرى سواء وهي هذه أرب يسقك جزلط مدوص هف تحذن عش خغ ثضظ تسع كلمات على توالي العدد

ولكل كلمة منها عددها الذى فى مرتبته فيها الثلاثى والرباعى والثنائى وليست جارية على أصل مطرد كما تراه لكن كان شيوخنا ينقلونها عن شيخ المغرب فى هذه المعارف من السيميا وأسرار الحروف والنجامة وهو أبو العباس بن البناء ويقولون عنه ان العمل بهذه الكلمات فى طرح حساب النيم أصح من العمل بكلمات ايقش والله أعلم كيف ذلك وهذه كلها مدارك للغيب غير مستندة الى برهان ولا تحقيق والكتاب الذى وجد فيه حساب النيم غير معزو الى ارسطو عند المحققين لما فيه من الآراء البعيدة عن التحقيق والبرهان يشهد لك بذلك تصفحه ان كنت من أهل الرسوخ اه ومن هذه القوانين الصناعية لاستخراج الغيوب فيما يزعمون الزايرجة المسماة بزايرجة العالم المعزوة الى أبى العباس سيدى أحمد السبتى من أعلام المتصوفة بالمغرب كان فى آخر المائة السادسة بمراكش ولعهد أبى يعقوب المنصور من ملوك الموحدين وهى غريبة العمل صناعة وكثير من الخواص يولعون بافادة الغيب منها بعملها المعروف الملغوز فيحرضون بذلك على حل رمزه وكشف غامضه وصورتها التى يقع العمل عندهم فيها دائرة عظيمة فى داخلها دوائر متوازية للافلاك والعناصر والمكونات والروحانيات وغير ذلك من أصناف الكائنات والعلوم وكل دائرة مقسومة بأقسام فلكها اما البروج واما العناصر أو غيرهما وخطوط كل قسم مارة الى المركز ويسمونها الاوتار وعلى كل وتر حروف متتابعة موضوعة فمنها برشوم الزمام التى هى أشكال الاعداد عند أهل الدواوين والحساب بالمغرب لهذا العهد ومنها برشوم الغبار المتعارفة فى داخل الزايرجة وبين الدوائر أسماء العلوم ومواضع الاكوان وعلى ظاهر الدوائر جدول متكثر البيوت المتقاطعة طولا وعرضا يشتمل على خمسة وخمسين بيتا فى العرض ومائة وواحد وثلاثين فى الطول جوانب منه معمورة البيوت تارة بالعدد وأخرى بالحروف وجوانب خالية البيوت ولا تعلم نسبة تلك الاعداد فى أوضاعها ولا القسمة التى عينت البيوت العامرة من الخالية وحفافى الزايرجة أبيات من عروض الطويل على روى اللام المنصوبة تتضمن صورة العمل فى استخراج المطلوب من تلك الزايرجة الا أنها من قبيل الالغاز فى عدم الوضوح والجلاء وفى بعض جوانب الزايرجة بيت من الشعر منسوب لبعض أكابر أهل الحدثان بالمغرب وهو مالك بن وهيب من علماء اشبيلية كان فى الدولة اللمتونية ونص البيت

سؤال عظيم الخلق حزت فصن اذن * غرائب شك ضبطه الجد مثلا

وهو البيت المتداول عندهم فى العمل لاستخراج الجواب من السؤال فى هذه

الزايرجة وغيرها فاذا أرادوا استخراج الجواب عما يسئل عنه من المسائل كتبوا ذلك السؤال وقطعوه حروفا ثم أخذوا الطالع لذلك الوقت من بروج الفلك ودرجها وعمدوا الى الزايرجة ثم الى الوتر المكتنف فيها بالبرج الطالع من أوله مارّا الى المركز ثم الى محيط الدائرة قبالة الطالع فيأخذون جميع الحروف المكتوبة عليه من أوله الى آخره والاعداد المرسومة بينها ويصيرونها حروفا بحساب الجمل وقد ينقلون آحادها الى العشرات وعشراتها الى المئين وبالعكس فيهما كما يقتضيه قانون العمل عندهم ويضعونها مع حروف السؤال ويضيفون الى ذلك جميع ما على الوتر المكتنف بالبرج الثالث من الطالع من الحروف والاعداد من أوله الى المركز فقط لا يتجاوزونه الى المحيط ويفعلون بالاعداد ما فعلوه بالاول ويضيفونها الى الحروف الاخرى ثم يقطعون حروف البيت الذى هو أصل العمل وقانونه عندهم وهو بيت مالك بن وهيب المتقدم ويضعونها ناحية ثم يضربون عدد درج الطالع فى أس البرج وأسه عندهم هو بعد البرج عن آخر المراتب عكس ما عليه الأس عند أهل صناعة الحساب فانه عندهم البعد عن أول المراتب ثم يضربونه فى عدد آخر يسمونه الأس الاكبر والدور الاصلى ويدخلون بما تجمع لهم من ذلك فى بيوت الجدول على قوانين معروفة وأعمال مذكورة وأدوار معدودة ويستخرجون منها حروفا ويسقطون أخرى ويقابلون بما معهم فى حروف البيت وينقلون منه ما ينقلون الى حروف السؤال وما معها ثم يطرحون تلك الحروف بأعداد معلومة يسمونها الادوار ويخرجون فى كل دور الحرف الذى ينتهى عنده الدور ويعاودون ذلك بعدد الادوار المعينة عندهم لذلك فيخرج آخرها حروف متقطعة وتؤلف على التوالى فتصير كلمات منظومة فى بيت واحد على وزن البيت الذى يقابل به العمل ورويه وهو بيت مالك بن وهيب المتقدم حسبما نذكر ذلك كله فى فصل العلوم عند كيفية العمل بهذه الزايرجة *

وقد رأينا كثيرا من الخواص يتهافتون على استخراج الغيب منها بتلك الاعمال ويحسبون أن ما وقع من مطابقة الجواب للسؤال فى توافق الخطاب دليل على مطابقة الواقع وليس ذلك بصحيح لانه قد مرّ لك أن الغيب لا يدرك بأمر صناعى البتة وانما المطابقة التى فيها بين الجواب والسؤال من حيث الافهام والتوافق فى الخطاب حتى يكون الجواب مستقيما أو موافقا للسؤال ووقوع ذلك بهذه الصناعة فى تكسير الحروف المجتمعة من السؤال والاوتار والدخول فى الجدول بالاعداد المجتمعة من ضرب الاعداد المفروضة واستخراج الحروف من الجدول بذلك وطرح أخرى ومعاودة ذلك فى الادوار المعدودة ومقابلة ذلك كله بحروف البيت على التوالى غير

مستنكر وقد يقع الاطلاع من بعض الأذكياء على تناسب بين هذه الأشياء فيقع له معرفة المجهول فالتناسب بين الأشياء هو سبب الحصول على المجهول من المعلوم الحاصل للنفس وطريق لحصوله سيما من أهل الرياضة فانها تفيد العقل قوة على القياس وزيادة في الفكر وقد مرّ تعليل ذلك غير مرّة ومن أجل هذا المعنى ينسبون هذه الزايرجة في الغالب لاهل الرياضة فهي منسوبة للسبتي ولقد وقفت على أخرى منسوبة لسهل بن عبد الله ولعمري انها من الاعمال الغريبة والمعاناة العجيبة والجواب الذي يخرج منها فالسر في خروجه منظوما يظهر لي أنما هو المقابلة بحروف ذلك البيت ولهذا يكون النظم على وزنه ورويه ويدل عليه أنا وجدنا أعمالا أخرى لهم في مثل ذلك أسقطوا فيها المقابلة بالبيت فلم يخرج الجواب منظوما كما تراه عند الكلام على ذلك في موضعه وكثير من الناس تضيق مداركهم عن التصديق بهذا العمل ونفوذه الى المطلوب فينكر صحتها ويحسب أنها من التخيلات والايهامات وأن صاحب العمل بها يثبت حروف البيت الذي ينظمه كما يريد بين أثناء حروف السؤال والاوتار ويفعل تلك الصناعات على غير نسبة ولا قانون ثم يجيء بالبيت ويوهم أن العمل جاء على طريقة منضبطة وهذا الحسبان توهم فاسد حمل عليه القصور عن فهم التناسب بين الموجودات والمعدومات والتفاوت بين المدارك والعقول ولكن من شأن كل مدرك انكار ما ليس في طوقه ادراكه ويكفينا في رد ذلك مشاهدة العمل بهذه الصناعة والحدس القطعي فانها جاءت بعمل مطرد وقانون صحيح لا مرية فيه عند من يباشر ذلك ممن له ذكاء وحدس واذا كان كثير من المعاياة في العدد الذي هو أوضح الواضحات يعسر على الفهم ادراكه لبعد النسبة فيه وخفائها فما ظنك بمثل هذا مع خفاء النسبة فيه وغرابتها فلنذكر مسئلة من المعاياة يتضح لك بها شيء مما ذكرنا مثاله لو قيل لك خذ عددا من الدراهم واجعل بازاء كل درهم ثلاثة من الفلوس ثم اجمع الفلوس التي أخذت واشتر بها طائرا ثم اشتر بالدراهم كلها طيورا بسعر ذلك الطائر فكم الطيور المشتراة بالدراهم فجوابه أن تقول هي تسعة لانك تعلم أن فلوس الدراهم أربعة وعشرون وأن الثلاثة ثمنها وأن عدة أثمان الواحد ثمانية فاذا جمعت الثمن من الدراهم الى الثمن الآخر فكان كله ثمن طائر فهي ثمانية طيور عدة أثمان الواحد وتزيد على الثمانية طائرا آخر وهو المشترى بالفلوس المأخوذة أولا وعلى سعره اشتريت بالدراهم فتكون تسعة فأنت ترى كيف خرج لك الجواب المضمر بسر التناسب الذي بين اعداد المسئلة والوهم أول ما يلقي اليك هذه وأمثالها انما يجعله من قبيل الغيب الذي لا يمكن معرفته وظهر أن التناسب بين

الامور هو الذي يخرج مجهولها من معلومها وهذا انما هو في الواقعات الحاصلة في الوجود أو العلم وأما الكائنات المستقبلة اذا لم تعلم أسباب وقوعها ولا يثبت لها خبر صادق عنها فهو غيب لا يمكن معرفته واذا تبين لك ذلك فالاعمال الواقعة في الزايرجة كلها انما هي في استخراج الجواب من ألفاظ السؤال لانها كما رأيت استنباط حروف على ترتيب من تلك الحروف بعينها على ترتيب آخر وسر ذلك انما هو من تناسب بينهما يطلع عليه بعض دون بعض فمن عرف ذلك التناسب تيسر عليه استخراج ذلك الجواب بتلك القوانين والجواب يدل في مقام آخر من حيث موضوع ألفاظه وتراكيبه على وقوع أحد طرفي السؤال من نفي أو اثبات وليس هذا من المقام الاول بل انما يرجع لمطابقة الكلام لما في الخارج ولا سبيل الى معرفة ذلك من هذه الاعمال بل البشر محجوبون عنه وقد استأثر الله بعلمه والله يعلم وأنتم لا تعلمون

(الفصل الثاني)

في العمران البدوي والامم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الاحوال وفيه اصول وتمهيدات

١ (فصل في ان اجيال البدو والحضر طبيعية)

(اعلم) أن اختلاف الاجيال في أحوالهم انما هو باختلاف نحلتهم من المعاش فان اجتماعهم انما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه ونشيط قبل الحاجي والكمالي فمنهم من يستعمل الفلح من الغراسة والزراعة ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنحل والدود لنتاجها واستخراج فضلاتها وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة ولا بد الى البدو لانه متسع لما لا يتسع له الحواضر من المزارع والفدن والمسارح للحيوان وغير ذلك فكان اختصاص هؤلاء بالبدو أمرا ضروريا لهم وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والكن والدفاء انما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك ثم اذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه دعاهم ذلك الى السكون والدعة وتعاونوا في الزائد على الضرورة واستكثروا من الاقوات والملابس والتأنق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والامصار للتحضر ثم تزيد أحوال الرفه والدعة فتجيء عوائد الترف البالغة مبالغها في التأنق في علاج

القوت واستجادة المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة فى أنواعها من الحرير والديباج وغير ذلك ومعالاة البيوت والصروح واحكام وضعها فى تنجيدها والانتهاء فى الصنائع فى الخروج من القوة الى الفعل الى غاياتها فيتخذون القصور والمنازل ويجرون فيها المياه ويعالون فى صرحها ويبالغون فى تنجيدها ويختلفون فى استجادة ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس أو فراش أو آنية أو ماعون وهؤلاء هم الحضر ومعناه الحاضرون أهل الامصار والبلدان ومن هؤلاء من ينتحل فى معاشه الصنائع ومنهم من ينتحل التجارة وتكون مكاسبهم أنمى وأرفه من أهل البدو لان أحوالهم زائدة على الضرورى ومعاشهم على نسبة وجدهم فقد تبين أن أجيال البدو والحضر طبيعية لابد منهما كما قلناه

٢ (فصل في ان جيل العرب في الخلقة طبيعي)

قد قدمنا فى الفصل قبله أن أهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعى من الفلح والقيام على الانعام وأنهم مقتصرون على الضرورى من الاقوات والملابس والمساكن وسائر الاحوال والعوائد ومقصرون عما فوق ذلك من حاجى أو كمالى يتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة غير منجدة انما هو قصد الاستظلال والكن لا ما وراءه وقد يأوون الى الغيران والكهوف وأما أقواتهم فيتناولون بها يسيرا بعلاج أو بغير علاج البتة الا ما مسته النار فمن كان معاشه منهم فى الزراعة والقيام بالفلح كان المقام به أولى من الظعن وهؤلاء سكان المداشر والقرى والجبال وهم عامة البربر والاعاجم ومن كان معاشه فى السائمة مثل الغنم والبقر فهم ظعن فى الاغلب لارتياد المسارح والمياه لحيواناتهم فالتقلب فى الارض أصلح بهم ويسمون شاوية ومعناه القائمون على الشاء والبقر ولا يبعدون فى القفر لفقدان المسارح الطيبة وهؤلاء مثل البربر والترك واخوانهم من التركمان والصقالبة وأما من كان معاشهم فى الابل فهم أكثر ظعنا وأبعد فى القفر مجالا لان مسارح التلول ونباتها وشجرها لا يستغنى بها الابل فى قوام حياتها عن مراعى الشجر بالقفر وورود مياهه الملحة والتقلب فصل الشتاء فى نواحيه فرارا من أذى البرد الى دفاء هوائه وطلبا لماخض النتاج فى رماله اذ الابل أصعب الحيوان فصالا ومخاضا وأحوجها فى ذلك الى الدفاء فاضطروا الى ابعاد النجعة وربما ذادتهم الحامية عن التلول أيضا فأوغلوا فى القفار نفرة عن الضعة منهم فكانوا لذلك أشد الناس توحشا وينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوان العجم وهؤلاء هم

العرب وفي معناهم ظعون البربر وزناتة بالمغرب والاكراد والتركمان والترك بالمشرق الا ان العرب أبعد نجعة وأشد بداوة لانهم مختصون بالقيام على الابل فقط وهؤلاء يقومون عليها وعلى الشياه والبقر معها فقد تبين لك أن جيل العرب طبيعي لابد منه في العمران والله سبحانه وتعالى أعلم

٣ فصل في ان البدو أقدم من الحضر وسابق عليه وان البادية اصل العمران والامصار مدد لها

قد ذكرنا أن البدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم العاجزون عما فوقه وأن الحضر المعتنون بحاجات الترف والكمالي في أحوالهم وعوائدهم ولاشك أن الضروري أقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه لان الضروري أصل والكمالي فرع ناشئ عنه فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما لان أول مطالب الانسان الضروري ولا ينتهي الى الكمال والترف الا اذا كان الضروري حاصلا فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة ولهذا نجد التمدن غاية للبدوي يجري اليها وينتهي بسعيه الى مقترحه منها ومتى حصل على الرياش الذي يحصل له به أحوال الترف وعوائده عاج الى الدعة وأمكن نفسه الى قياد المدينة وهكذا شأن القبائل المتبدية كلهم والحضري لا يتشوف الى أحوال البادية الا لضرورة تدعوه اليها أو لتقصير عن أحوال أهل مدينته ومما يشهد لنا أن البدو أصل للحضر ومتقدم عليه أنا اذا فتشنا أهل مصر من الامصار وجدنا أولية أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية ذلك المصر وفي قراه وأنهم أيسروا فسكنوا المصر وعدلوا الى الدعة والترف الذي في الحضر وذلك يدل على أن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة وأنها أصل لها فتفهمه ثم ان كل واحد من البدو والحضر متفاوت الاحوال من جنسه فرب حي أعظم من حي وقبيلة أعظم من قبيلة ومصر أوسع من مصر ومدينة أكثر عمرانا من مدينة فقد تبين أن وجود البدو متقدم على وجود المدن والامصار وأصل لها بما أن وجود المدن والامصار من عوائد الترف والدعة التي هي متأخرة عن عوائد الضرورة المعاشية والله أعلم

٤ (فصل في ان اهل البدو اقرب الى الخير من اهل الحضر)

وسببه ان النفس اذا كانت على الفطرة الاولى كانت متهيئة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير أو شر قال صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه وبقدر ما سبق اليها من أحد الخلقين تبعد عن الآخر ويصعب عليها اكتسابه فصاحب الخير اذا سبقت الى نفسه عوائد

الخير وحصلت لها ملكته بعد عن الشر وصعب عليه طريقه وكذا صاحب الشر اذا سبقت اليه أيضا عوائده وأهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والاقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها قد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم فتجد الكثير منهم يقذعون في أقوال الفحشاء في مجالسهم وبين كبرائهم وأهل محارمهم لا يصدهم عنه وازع الحشمة لما أخذتهم به عوائد السوء في التظاهر بالفواحش قولا وعملا وأهل البدو وان كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم الا أنه في المقدار الضروري لا في الترف ولا في شئ من أسباب الشهوات واللذات ودواعيها فعوائدهم في معاملاتهم على نسبتها وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة الى أهل الحضر أقل بكثير فهم أقرب الى الفطرة الاولى وأبعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة وقبحها فيسهل علاجهم عن علاج الحضر وهو ظاهر وقد توضح فيما بعد أن الحضارة هي نهاية العمران وخروجه الى الفساد ونهاية الشر والبعد عن الخير فقد تبين أن أهل البدو أقرب الى الخير من أهل الحضر والله يحب المتقين ولا يعترض على ذلك بما ورد في صحيح البخاري من قول الحجاج لسلمة بن الاكوع وقد بلغه أنه خرج الى سكنى البادية فقال له ارتددت على عقبيك تعربت فقال لا ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لي في البدو فاعلم أن الهجرة افترضت أول الاسلام على أهل مكة ليكونوا مع النبي صلى الله عليه وسلم حيث حل من المواطن ينصرونه ويظاهرونه على أمره ويحرسونه ولم تكن واجبة على الاعراب أهل البادية لان أهل مكة يمسهم من عصبية النبي صلى الله عليه وسلم في المظاهرة والحراسة ما لا يمس غيرهم من بادية الاعراب وقد كان المهاجرون يستعيذون بالله من التعرب وهو سكنى البادية حيث لا تجب الهجرة وقال صلى الله عليه وسلم في حديث سعد بن أبي وقاص عند مرضه بمكة اللهم أمض لاصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم ومعناه أن يوفقهم لملازمة المدينة وعدم التحول عنها فلا يرجعوا عن هجرتهم التي ابتدؤا بها وهو من باب الرجوع على العقب في السعي الى وجه من الوجوه وقيل ان ذلك كان خاصا بما قبل الفتح حين كانت الحاجة داعية الى الهجرة لقلة المسلمين وأما بعد الفتح وحين كثر المسلمون واعتزوا وتكفل الله لنبيه بالعصمة من الناس فان الهجرة ساقطة حينئذ لقوله صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد الفتح وقيل سقط انشاؤها عمن يسلم بعد الفتح وقيل سقط وجوبها عمن أسلم وهاجر قبل الفتح والكل مجمعون على أنها بعد الوفاة

ساقطة لأن الصحابة افترقوا من يومئذ في الآفاق وانتشروا ولم يبق الا فضل السكنى بالمدينة وهو هجرة فقول الحجاج لسلمة حين سكن البادية ارتددت على عقبيك تعربت نعي عليه في ترك السكنى بالمدينة بالاشارة الى الدعاء المأثور الذي قدمناه وهو قوله ولا تردهم على أعقابهم وقوله تعربت اشارة الى أنه صار من الاعراب الذين لا يهاجرون وأجاب سلمة بانكار ما ألزمه من الامرين وأن النبي صلى الله عليه وسلم أذن له في البدو ويكون ذلك خاصا به كشهادة خزيمة وعناق أبي بردة أو يكون الحجاج انما نعي عليه ترك السكنى بالمدينة فقط لعلمه بسقوط الهجرة بعد الوفاة وأجابه سلمة بأن اغتنامه لاذن النبي صلى الله عليه وسلم أولى وأفضل فما آثره به واختصه الا لمعنى علمه فيه وعلى كل تقدير فليس دليلا على مذمة البدو الذي عبر عنه بالتعرب لأن مشروعية الهجرة انما كانت كما علمت لمظاهرة النبي صلى الله عليه وسلم وحراسته لا لمذمة البدو فليس في النعي على ترك هذا الواجب بالتعرب دليل على مذمة التعرب والله سبحانه أعلم وبه التوفيق

٥ (فصل في ان اهل البدو اقرب الى الشجاعة من اهل الحضر)

والسبب في ذلك أن أهل الحضر ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة وانغمسوا في النعيم والترف ووكلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم الى واليهم والحاكم الذي يسوسهم والحامية التي تولت حراستهم واستناموا الى الاسوار التي تحوطهم والحرز الذي يحول دونهم فلا تهيجهم هيعة ولا ينفر لهم صيد فهم غارون آمنون قد ألقوا السلاح وتوالت على ذلك منهم الاجيال وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على أبي مثواهم حتى صار ذلك خلقا يتنزل منزلة الطبيعة وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي وبعدهم عن الحامية وانتباذهم عن الاسوار والابواب قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها الى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم فهم دائما يحملون السلاح ويتلفتون عن كل جانب في الطرق ويتجافون عن الهجوع الا غرارا في المجالس وعلى الرحال وفوق الاقتاب ويتوجسون للنبآت والهيعات ويتفردون في القفر والبيداء مدلين ببأسهم واثقين بأنفسهم قد صار لهم البأس خلقا والشجاعة سجية يرجعون اليها متى دعاهم داع أو استنفرهم صارخ وأهل الحضر مهما خالطوهم في البادية أو صاحبوهم في السفر عيال عليهم لا يملكون معهم شيئا من أمر أنفسهم وذلك مشاهد بالعيان حتى في معرفة النواحي والجهات وموارد المياه ومشارع السبل وسبب ذلك ما شرحناه وأصله أن الانسان ابن عوائده

ويألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه فالذي ألفه في الاحوال حتى صار خلقا وملكة وعادة تنزل منزلة الطبيعة والجبلة واعتبر ذلك في الآدميين تجده كثيرا صحيحا والله يخلق ما يشاء

(فصل في ان معاناة اهل الحضر للاحكام مفسدة للبأس فيهم ذاهبة بالمنعة منهم)

وذلك أنه ليس كل أحد مالك أمر نفسه اذ الرؤساء والامراء المالكون لامر الناس قليل بالنسبة الى غيرهم فمن الغالب أن يكون الانسان في ملكة غيره ولا بد فان كانت الملكة رفيقة وعادلة لا يعاني منها حكم ولا منع وصد كان من تحت يدها مدلين بما في أنفسهم من شجاعة أو جبن واثقين بعدم الوازع حتى صار لهم الادلال جبلة لا يعرفون سواها وأما اذا كانت الملكة وأحكامها بالقهر والسطوة والاخافة فتكسر حينئذ من سورة بأسهم وتذهب المنعة عنهم لما يكون من التكاسل في النفوس المضطهدة كما نبينه وقد نهى عمر سعدا رضي الله عنهما عن مثلها لما أخذ زهرة بن حوية سلب الجالنوس وكانت قيمته خمسة وسبعين ألفا من الذهب وكان اتبع الجالنوس يوم القادسية فقتله وأخذ سلبه فانتزعه منه سعد وقال له هلا انتظرت في اتباعه اذني وكتب الى عمر يستأذنه فكتب اليه عمر تعمد الى مثل زهرة وقد صلى بما صلى به وبقي عليك ما بقي من حربك وتكسر فوقه وتفسد قلبه وأمضى له عمر سلبه وأما اذا كانت الاحكام بالعقاب فمذهبة للبأس بالكلية لان وقوع العقاب به ولم يدافع عن نفسه يكسبه المذلة التي تكسر من سورة بأسه بلا شك وأما اذا كانت الاحكام تأديبية وتعليمية وأخذت من عهد الصبا أثرت في ذلك بعض الشئ لمرباه على المخافة والانقياد فلا يكون مدلا ببأسه ولهذا نجد المتوحشين من العرب أهل البدو أشد بأسا ممن تأخذه الاحكام ونجد أيضا الذين يعانون الاحكام وملكتها من لدن مرباهم في التأديب والتعليم في الصنائع والعلوم والديانات ينقص ذلك من بأسهم كثيرا ولا يكادون يدفعون عن أنفسهم عادية بوجه من الوجوه وهذا شأن طلبة العلم المنتحلين للقراءة والاخذ عن المشايخ والائمة الممارسين للتعليم والتأديب في مجالس الوقار والهيبة فيهم هذه الاحوال وذهابها بالمنعة والبأس ولا تستنكر ذلك بما وقع في الصحابة من أخذهم بأحكام الدين والشريعة ولم ينقص ذلك من بأسهم بل كانوا أشد الناس بأسا لان الشارع صلوات الله عليه لما أخذ المسلمون عنه دينهم كان وازعهم فيه من أنفسهم لما تلي عليهم من الترغيب والترهيب ولم يكن بتعليم صناعي ولا تأديب تعليمي انما هي أحكام الدين وآدابه المتلقاة نقلا يأخذون أنفسهم

بها بما رسخ فيهم من عقائد الايمان والتصديق فلم تزل سورة بأسهم مستحكمة كما كانت ولم تخدشها أظفار التأديب والحكم قال عمر رضي الله عنه من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله حرصا على أن يكون الوازع لكل أحد من نفسه ويقينا بأن الشارع أعلم بمصالح العباد ولما تناقص الدين في الناس وأخذوا بالاحكام الوازعة ثم صار الشرع علما وصناعة يؤخذ بالتعليم والتأديب ورجع الناس الى الحضارة وخلق الانقياد الى الاحكام نقصت بذلك سورة البأس فيهم فقد تبين أن الاحكام السلطانية والتعليمية مفسدة للبأس لان الوازع فيها أجنبي وأما الشرعية فغير مفسدة لان الوازع فيها ذاتي ولهذا كانت هذه الاحكام السلطانية والتعليمية مما تؤثر في أهل الحواضر في ضعف نفوسهم وخضد الشوكة منهم بمعاناتهم في وليدهم وكهولهم والبدو بمعزل عن هذه المنزلة لبعدهم عن أحكام السلطان والتعليم والآداب ولهذا قال محمد بن أبي زيد في كتابه في أحكام المعلمين والمتعلمين انه لا ينبغي للمؤدب أن يضرب أحدا من الصبيان في التعليم فوق ثلاثة أسواط نقله عن شريح القاضي واحتج له بعضهم بما وقع في حديث بدء الوحي من شأن الغط وأنه كان ثلاث مرات وهو ضعيف ولا يصلح شأن الغط أن يكون دليلا على ذلك لبعده عن التعليم المتعارف والله الحكيم الخبير

٧ (فصل في ان سكنى البدو لا يكون الا للقبائل اهل العصبية)

* (اعلم) * أن الله سبحانه ركب في طبائع البشر الخير والشر كما قال تعالى وهديناه النجدين وقال فألهمها فجورها وتقواها والشر أقرب الخلال اليه اذا أهمل في مرعى عوائده ولم يهذبه الاقتداء بالدين وعلى ذلك الجم الغفير الا من وفقه الله ومن أخلاق البشر فيهم الظلم والعدوان بعض على بعض فمن امتدت عينه الى متاع أخيه امتدت يده الى أخذه الا أن يصده وازع كما قال

والظلم من شيم النفوس فان تجد * ذا عفة فلعلة لا يظلم

فأما المدن والامصار فعدوان بعضهم على بعض تدفعه الحكام والدولة بما قبضوا على أيدي من تحتهم من الكافة أن يمتد بعضهم على بعض أو يعدو عليه فهم مكبوحون بحكمة القهر والسلطان عن التظالم الا اذا كان من الحاكم بنفسه أما العدوان الذي من خارج المدينة فيدفعه سياج الاسوار عند الغفلة أو الغرة ليلا أو العجز عن المقاومة نهارا أو يدفعه ذياد الحامية من أعوان الدولة عند الاستعداد والمقاومة وأما أحياء البدو فيزع بعضهم عن بعض مشايخهم وكبراؤهم بما وقر في نفوس الكافة لهم من الوقار والتجلة وأما حللهم فانما يذود عنها من خارج حامية الحي من انجادهم

وقتيانهم المعروفين بالشجاعة فيهم ولا يصدق دفاعهم وذيادهم الا اذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد لانهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم اذ نعرة كل أحد على نسبه وعصبيته أهم وما جعل الله في قلوب عباده من الشفقة والنعرة على ذوى أرحامهم وقربائهم موجودة في الطبائع البشرية وبها يكون التعاضد والتناصر وتعظم رهبة العدو لهم واعتبر ذلك فيما حكاه القرآن عن اخوة يوسف عليه السلام حين قالوا لأبيه لئن أكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون والمعنى أنه لا يتوهم العدوان على أحد مع وجود العصبة له وأما المتفردون في انسابهم فقل أن تصيب أحدا منهم نعرة على صاحبه فاذا أظلم الجو بالشر يوم الحرب تسلل كل واحد منهم يبغي النجاة لنفسه خيفة واستيحاشا من التخاذل فلا يقدرون من أجل ذلك على سكنى القفر لما أنهم حينئذ طعمة لمن يلتهمهم من الامم سواهم واذا تبين ذلك في السكنى التي تحتاج للمدافعة والحماية فبمثله يتبين لك في كل أمر يحمل الناس عليه من نبوة أو اقامة ملك أو دعوة اذ بلوغ الغرض من ذلك كله انما يتم بالقتال عليه لما في طبائع البشر من الاستعصاء ولا بد في القتال من العصبية كما ذكرناه آنفا فاتخذه اماما تقتدي به فيما نورده عليك بعد والله الموفق للصواب

(فصل في ان العصبية انما تكون من الالتحام بالنسب او ما في معناه)

وذلك أن صلة الرحم طبيعي في البشر الا في الاقل ومن صلتها النعرة على ذوى القربى وأهل الارحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة فان القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه أو العداء عليه ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك نزعة طبيعية في البشر مذ كانوا فاذا كان النسب المتواصل بين المتناصرين قريبا جدا بحيث حصل به الاتحاد والالتحام كانت الوصلة ظاهرة فاستدعت ذلك بمجردها ووضوحها واذا بعد النسب بعض الشيء فربما تنوسي بعضها ويبقى منها شهرة فتحمل على النصرة لذوى نسبه بالامر المشهور منه فرارا من الغضاضة التي يتوهمها في نفسه من ظلم من هو منسوب اليه بوجه ومن هذا الباب الولاء والحلف اذ نعرة كل أحد على أهل ولائه وحلفه للالفة التي تلحق النفس من اهتضام جارها أو قريبها أو نسيبها بوجه من وجوه النسب وذلك لاجل اللحمة الحاصلة من الولاء مثل لحمة النسب أو قريبا منها ومن هذا تفهم معنى قوله صلى الله عليه وسلم تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم بمعنى أن النسب انما فائدته هذا الالتحام الذي يوجب صلة الارحام حتى تقع المناصرة والنعرة وما فوق ذلك مستغنى عنه اذ النسب أمر وهمي لا حقيقة له

ونفعه انما هو في هذه الوصلة والالتحام فاذا كان ظاهرا واضحا حمل النفوس على طبيعتها من النعرة كما قلناه واذا كان انما يستفاد من الخبر البعيد ضعف فيه الوهم وذهبت فائدته وصار الشغل به مجانا ومن أعمال اللهو المنهى عنه ومن هذا الاعتبار معنى قولهم النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر بمعنى أن النسب اذا خرج عن الوضوح وصار من قبيل العلوم ذهبت فائدة الوهم فيه عن النفس وانتفت النعرة التي تحمل عليها العصبية فلا منفعة فيه حينئذ والله سبحانه وتعالى أعلم

٩ (فصل في ان الصريح من النسب انما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معناهم.)

وذلك لما اختصوا به من نكد العيش وشظف الاحوال وسوء المواطن حملتهم عليها الضرورة التي عينت لهم تلك القسمة وهي لما كان معاشهم من القيام على الابل ونتاجها ورعايتها والابل تدعوهم الى التوحش في القفر لرعيها من شجره ونتاجها في رماله كما تقدم والقفر مكان الشظف والسغب فصار لهم الفا وعادة وربيت فيه أجيالهم حتى تمكنت خلقا وجبلة فلا ينزع اليهم أحد من الامم أن يساهمهم في حالهم ولا يأنس بهم أحد من الاجيال بل لو وجد واحد منهم السبيل الى الفرار من حاله وأمكنه ذلك لما تركه فيؤمن عليهم لاجل ذلك من اختلاط انسابهم وفسادها ولا تزال بينهم محفوظة صريحة واعتبر ذلك في مضر من قريش وكنانة وثقيف وبني أسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة لما كانوا أهل شظف ومواطن غير ذات زرع ولا ضرع وبعدوا من أرياف الشأم والعراق ومعادن الأدم والحبوب كيف كانت انسابهم صريحة محفوظة لم يدخلها اختلاط ولا عرف فيهم شوب * وأما العرب الذين كانوا بالتلول وفي معادن الخصب للمراعي والعيش من حمير وكهلان مثل لخم وجذام وغسان وطيئ وقضاعة واياد فاختلطت أنسابهم وتداخلت شعوبهم ففي كل واحد من بيوتهم من الخلاف عند الناس ما تعرف وانما جاءهم ذلك من قبل العجم ومخالطتهم وهم لا يعتبرون المحافظة على النسب في بيوتهم وشعوبهم وانما هذا للعرب فقط * قال عمر رضي الله تعالى عنه تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد اذا سئل أحدهم عن أصله قال من قرية كذا هذا الى ما لحق هؤلاء العرب أهل الارياف من الازدحام مع الناس على البلد الطيب والمراعي الخصيبة فكثر الاختلاط وتداخلت الانساب وقد كان وقع في صدر الاسلام الانتماء الى المواطن فيقال جند قنسرين جند دمشق جند العواصم وانتقل ذلك الى الاندلس ولم يكن لاطراح العرب أمر النسب وانما كان لاختصاصهم

بالمواطن بعد الفتح حتى عرفوا بها وصارت لهم علامة زائدة على النسب يتميزون بها عند أمرائهم ثم وقع الاختلاط في الحواضر مع العجم وغيرهم وفسدت الانساب بالجملة وفقدت ثمرتها من العصبية فاطرحت ثم تلاشت القبائل ودثرت فدثرت العصبية بدثورها وبقي ذلك في البدو كما كان والله وارث الارض ومن عليها

١٠ (فصل في اختلاط الانساب كيف يقع)

* (اعلم) * أنه من البين أن بعضا من أهل الانساب يسقط الى أهل نسب آخر بقرابة اليهم أو حلف أو ولاء أو لفرار من قومه بجناية أصابها فيدعى بنسب هؤلاء ويعد منهم في ثمراته من النعرة والقود وحمل الديات وسائر الاحوال واذا وجدت ثمرات النسب فكأنه وجد لانه لامعنى لكونه من هولاء ومن هؤلاء الا جريان أحكامهم وأحوالهم عليه وكأنه التحم بهم ثم انه قد يتناسى النسب الاول بطول الزمان ويذهب أهل العلم به فيخفى على الاكثر ومازالت الانساب تسقط من شعب الى شعب ويلتحم قوم بآخرين في الجاهلية والاسلام والعرب والعجم * وانظر خلاف الناس في نسب آل المنذر وغيرهم يتبين لك شيء من ذلك ومنه شأن بجيلة في عرفجة بن هرثمة لما ولاه عمر عليهم فسألوه الاعفاء منه وقالوا هو فينا لزيق أي دخيل ولصيق وطلبوا أن يولي عليهم جريرا فسأله عمر عن ذلك فقال عرفجة صدقوا يا أمير المؤمنين انا رجل من الازد أصبت دما في قومي ولحقت بهم وانظر منه كيف اختلط عرفجة ببجيلة ولبس جلدتهم ودعي بنسبهم حتى ترشح للرياسة عليهم لولا علم بعضهم بوشائجه ولو غفلوا عن ذلك وامتد الزمن لتنوسي بالجملة وعد منهم بكل وجه ومذهب فافهمه واعتبر سر الله في خليقته ومثل هذا كثير بهذا العهد ولما قبله من العهود والله الموفق للصواب بمنه وفضله وكرمه

١١ (فصل في ان الرياسة لا تزال في نصابها المخصوص من اهل العصبية)

* (اعلم) * أن كل حي أو بطن من القبائل وان كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام ففيهم أيضا عصبيات اخرى لانساب خاصة هي أشد التحاما من النسب العام لهم مثل عشير واحد أو أهل بيت واحد أو اخوة بني أب واحد لامثل بني العم الاقربين أو الابعدين فهؤلاء أقعد بنسبهم المخصوص ويشاركون من سواهم من العصائب في النسب العام والنعرة تقع من أهل نسبهم المخصوص ومن أهل النسب العام الا أنها في النسب الخاص أشد لقرب اللحمة والرياسة فيهم انما تكون في نصاب واحد منهم ولا تكون في الكل ولما كانت الرياسة انما تكون بالغلب وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصائب ليقع الغلب

بهـا وتمت الرياسة لاهلها فاذا وجب ذلك تعين أن الرياسة عليهم لا تزال في ذلك النصاب المخصوص أهل الغلب عليهم اذ لو خرجت عنهم وصارت في العصائب الاخرى النازلة عن عصابتهم في الغلب لما تمت لهم الرياسة فلا تزال في ذلك النصاب متناقلة من فرع منهم الى فرع ولا تنتقل الا الى الاقوى من فروعه لما قلناه من سر الغلب لان الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج للمتكون والمزاج في المتكون لا يصلح اذا تكافأت العناصر فلا بد من غلبة أحدها والا لم يتم التكوين فهذا هو سر اشتراط الغلب في العصبية ومنه تعين استمرار الرياسة في النصاب المخصوص بها كما قررناه

١٢ (فصل في ان الرياسة على اهل العصبية لا تكون في غير نسبهم)

وذلك أن الرياسة لا تكون الا بالغلب والغلب انما يكون بالعصبية كما قدمناه فلا بد في الرياسة على القوم أن تكون من عصبية غالبة لعصبياتهم واحدة واحدة لان كل عصبية منهم اذا أحست بغلب عصبية الرئيس لهم أقروا بالاذعان والاتباع والساقط في نسبهم بالجملة لا تكون له عصبية فيهم بالنسب انما هو ملصق لزيق وغاية التعصب له بالولاء والحلف وذلك لا يوجب له غلبا عليهم البتة واذا فرضنا أنه قد التحم بهم واختلط وتنوسي عهده الاول من الالتصاق ولبس جلدتهم ودعى بنسبهم فكيف له الرياسة قبل هذا الالتحام أو لاحد من سلفه والرياسة على القوم انما تكون متناقلة في منبت واحد تعين له الغلب بالعصبية فالاولية التي كانت لهذا الملصق قد عرف فيها التصاقه من غير شك ومنعه ذلك الالتصاق من الرياسة حينئذ فكيف تنوقلت عنه وهو على حال الالصاق والرياسة لا بد وأن تكون موروثة عن مستحقها لما قلناه من التغلب بالعصبية وقد يتشوف كثير من الرؤساء على القبائل والعصائب الى انساب يلهجون بها اما لخصوصية فضيلة كانت في أهل ذلك النسب من شجاعة أو كرم أو ذكر كيف اتفق فينزعون الى ذلك النسب ويتورطون بالدعوى في شعوبه ولا يعلمون ما يوقعون فيه أنفسهم من القدح في رياستهم والطعن في شرفهم وهذا كثير في الناس لهذا العهد فمن ذلك ما يدعيه زناتة جملة أنهم من العرب ومنه ادعاء أولاد رباب المعروفين بالحجازيين من بني عامر أحد شعوب زغبة أنهم من بني سليم ثم من الشريد منهم لحق جدهم ببني عامر نجارا يصنع الحرجان واختلط بهم والتحم بنسبهم حتى رأس عليهم ويسمونه الحجازي ومن ذلك ادعاء بني عبد القوي بن العباس بن توجين أنهم من ولد العباس بن عبد المطلب رغبة في هذا النسب الشريف وغلطا باسم العباس بن عطية أبي عبد القوي ولم يعلم دخول أحد من العباسيين الى المغرب لانه كان منذ أول دولتهم على دعوة العلويين أعدائهم من الادارسة والعبيديين فكيف يسقط العباس الى أحد من شيعة

العلويين * وكذلك ما يدعيه أبناء زيان ملوك تلمسان من بني عبد الواحد أنهم من ولد القاسم بن ادريس ذهابا الى ما اشتهر في نسبهم انهم من ولد القاسم فيقولون بلسانهم الزناتي أنت القاسم أي بنو القاسم ثم يدعون أن القاسم هذا هو القاسم بن ادريس أو القاسم بن محمد بن ادريس ولو كان ذلك صحيحا فغاية القاسم هذا انه فر من مكان سلطانه مستجيرا بهم فكيف تتم له الرياسة عليهم في باديتهم وانما هو غلط من قبل اسم القاسم فانه كثير الوجود في الادارسة فتوهموا أن قاسمهم من ذلك النسب وهم غير محتاجين لذلك فان منالهم للملك والعزة انما كان بعصبيتهم ولم يكن بادعاء علوية ولا عباسية ولا شيء من الانساب وانما يحمل على هذا المتقربون الى الملوك بمنازعهم ومذاهبهم ويشتهر حتى يبعد عن الرد * ولقد بلغني عن يغمراسن بن زيان مؤثل سلطانهم أنه لما قيل له ذلك أنكره وقال بلغته الزناتية ما معناه أما الدنيا والملك فنلناه بسيوفنا لا بهذا النسب وأما نفعه في الآخرة فمردود الى الله وأعرض عن التقرب اليه بذلك * ومن هذا الباب ما يدعيه بنو سعد شيوخ بني يزيد من زغبة أنهم من ولد أبي بكر الصديق رضي الله عنه وبنو سلامة شيوخ بني يدللتن من توجين أنهم من سليم والزواودة شيوخ رياح أنهم من أعقاب البرامكة وكذا بنو مهني أمراء طيء بالمشرق يدعون فيما بلغنا أنهم من أعقابهم وأمثال ذلك كثير ورياستهم في قومهم مانعة من ادعاء هذه الانساب كما ذكرناه بل تعين أن يكونوا من صريح ذلك النسب وأقوى عصبيته فاعتبره واجتنب المغالط فيه ولا تجعل من هذا الباب الحاق مهدي الموحدين بنسب العلوية فان المهدي لم يكن من منبت الرياسة في هرغة قومه وانما رأس عليهم بعد اشتهاره بالعلم والدين ودخول قبائل المصامدة في دعوته وكان مع ذلك من أهل المنابت المتوسطة فيهم والله عالم الغيب والشهادة

١٣ فصل في ان البيت والشرف بالاصالة والحقيقة لاهل العصبية ويكون لغيرهم بالمجاز والشبه

وذلك أن الشرف والحسب انما هو بالخلال ومعنى البيت أن يعد الرجل في آبائه أشرافا مذكورين تكون له بولادتهم اياه والانتساب اليهم تجلة في أهل جلدته لما وقر في نفوسهم من تجلة سلفه وشرفهم بخلالهم والناس في نشأتهم وتناسلهم معادن قال صلى الله عليه وسلم الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا فمعنى الحسب راجع الى الانساب وقد بينا أن ثمرة الانساب وفائدتها انما هي العصبية للنعرة والتناصر فحيث تكون العصبية مرهوبة ومخشية والمنبت فيها زكي محمي تكون فائدة النسب أوضح وثمرتها أقوى وتعديد الاشراف من الآباء زائد في فائدتها فيكون الحسب والشرف أصليا في أهل العصبية لوجود ثمرة النسب وتفاوت

البيوت في هذا الشرف بتفاوت العصبية لأنه سرّها ولا يكون للمنفردين من أهل
الأمصار بيت إلا بالمجاز وإن توهموه فزخرف من الدعاوي وإذا اعتبرت الحسب في أهل
الأمصار وجدت معناه أن الرجل منهم يعدّ سلفا في خلال الخير ومخالطة أهله مع
الركون إلى العافية ما استطاع وهذا مغاير لسرّ العصبية التي هي ثمرة النسب وتعديد
الآباء لكنه يطلق عليه حسب وبيت بالمجاز لعلاقة ما فيه من تعديد الآباء المتعاقبين
على طريقة واحدة من الخير ومسالكه وليس حسبا بالحقيقة وعلى الإطلاق وإن ثبت
أنه حقيقة فيهما بالوضع اللغوي فيكون من المشكك الذي هو في بعض مواضعه أولى
وقد يكون للبيت شرف أول بالعصبية والخلال ثم ينسلخون منه لذهابها بالحضارة
كما تقدم ويختلطون بالغمار ويبقى في نفوسهم وسواس ذلك الحسب يعدّون به أنفسهم
من أشراف البيوتات أهل العصائب وليسوا منها في شيء لذهاب العصبية جملة وكثير من
أهل الأمصار الناشئين في بيوت العرب أو العجم لأول عهدهم موسوسون بذلك وأكثر
ما رسخ الوسواس في ذلك لبني إسرائيل فإنه كان لهم بيت من أعظم بيوت العالم بالمنبت
أولا لما تعدد في سلفهم من الأنبياء والرسل من لدن إبراهيم عليه السلام إلى موسى
صاحب ملتهم وشريعتهم ثم بالعصبية ثانيا وما آتاهم الله بها من الملك الذي وعدهم
به ثم انسلخوا من ذلك أجمع وضربت عليهم الذلة والمسكنة وكتب عليهم الجلاء في
الأرض وانفردوا بالاستعباد للكفر آلافا من السنين وما زال هذا الوسواس مصاحبا
لهم فتجدهم يقولون هذا هاروني هذا من نسل يوشع هذا من عقب كالب هذا من
سبط يهوذا مع ذهاب العصبية ورسوخ الذل فيهم منذ أحقاب متطاولة وكثير من
أهل الأمصار وغيرهم المنقطعين في أنسابهم عن العصبية يذهب إلى هذا الهذيان *
وقد غلط أبو الوليد بن رشد في هذا لما ذكر الحسب في كتاب الخطابة من تلخيص كتاب
المعلم الأول والحسب هو أن يكون من قوم قديم نزلهم بالمدينة ولم يتعرض لما ذكرناه
وليت شعري ما الذي ينفعه قدم نزلهم بالمدينة إن لم تكن له عصابة يرهب بها جانبه
وتحمل غيرهم على القبول منه فكأنه أطلق الحسب على تعديد الآباء فقط مع أن
الخطابة إنما هي استمالة من تؤثر استمالته وهم أهل الحل والعقد وأما من لا قدرة
له البتة فلا يلتفت إليه ولا يقدر على استمالة أحد ولا يستمال هو وأهل الأمصار من
الحضر بهذه المثابة إلا أن ابن رشد ربي في جيل وبلد لم يمارسوا العصبية ولا آنسوا
أحوالها فبقي في أمر البيت والحسب على الأمر المشهور من تعديد الآباء على الإطلاق
ولم يراجع فيه حقيقة العصبية وسرّها في الخليقة والله بكل شيء عليم اهـ

١٤ فصل في أن البيت والشرف للموالي وأهل الاصطناع إنما هو بمواليهم لا بأنسابهم

وذلك أنا قدمنا أن الشرف بالاصالة والحقيقة انما هو لاهل العصبية فاذا اصطنع أهل العصبية قوما من غير نسبهم أو استرقوا العبدان والموالي والتحموا به كما قلناه ضرب معهم أولئك الموالي والمصطنعون بنسبهم في تلك العصبية ولبسوا جلدتها كأنها عصبتهم وحصل لهم من الانتظام في العصبية مساهمة في نسبها كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم مولى القوم منهم وسواء كان مولى رق أو مولى اصطناع وحلف وليس نسب ولادته بنافع له في تلك العصبية اذ هي مباينة لذلك النسب وعصبية ذلك النسب مفقودة لذهاب سرها عند التحامه بهذا النسب الآخر وفقدانه أهل عصبيتها فيصير من هؤلاء ويندرج فيهم فاذا تعددت له الآباء في هذه العصبية كان له بينهم شرف وبيت على نسبته في ولائهم واصطناعهم لا يتجاوزه الى شرفهم بل يكون أدون منهم على كل حال وهذا شأن الموالي في الدول والخدمة كلهم فانهم انما يشرفون بالرسوخ في ولاء الدولة وخدمتها وتعدد الآباء في ولايتها ألا ترى الى موالي الاتراك في دولة بني العباس والى بني برمك من قبلهم وبني نوبخت كيف أدركوا البيت والشرف وبنوا المجد والاصالة بالرسوخ في ولاء الدولة فكان جعفر بن يحيى بن خالد من أعظم الناس بيتا وشرفا بالانتساب الى ولاء الرشيد وقومه لا بالانتساب في الفرس وكذا الموالي في كل دولة وخدمها انما يكون لهم البيت والحسب بالرسوخ في ولائها والاصالة في اصطناعها ويضمحل نسبه الاقدم من غير نسبها ويبقى ملغى لا عبرة به في اصالته ومجده وانما المعتبر نسبة ولائه واصطناعه اذ فيه سر العصبية التي بها البيت والشرف فكان شرفه مشتقا من شرف مواليه وبناؤه من بنائهم فلم ينفعه نسب ولادته وانما بنى مجده نسب الولاء في الدولة ولحمة الاصطناع فيها والتربية وقد يكون نسبه الاول في لحمة عصبيته ودولته فاذا ذهبت وصار ولاؤه واصطناعه في أخرى لم تنفعه الاولى لذهاب عصبيتها وانتفع بالثانية لوجودها وهذا حال بني برمك اذ المنقول أنهم كانوا أهل بيت في الفرس من سدنة بيوت النار عندهم ولما صاروا الى ولاء بني العباس لم يكن بالاول اعتبار وانما كان شرفهم من حيث ولايتهم في الدولة واصطناعهم وما سوى هذا فوهم توسوس به النفوس الجامحة ولا حقيقة له والوجود شاهد بما قلناه وان أكرمكم عند الله أتقاكم والله ورسوله أعلم

١٥ (فصل في ان نهاية الحسب في العقب الواحد اربعة آباء)

(اعلم) أن العالم العنصري بما فيه كائن فاسد لا من ذواته ولا من أحواله فالمكونات من المعدن والنبات وجميع الحيوانات الانسان وغيره كائنة فاسدة

بالمعاينة وكذلك ما يعرض لها من الاحوال وخصوصا الانسانية فالعلوم تنشأ
ثم تدرس وكذا الصنائع وأمثالها والحسب من العوارض التى تعرض للآدميين
فهو كائن فاسد لا محالة وليس يوجد لاحد من أهل الخليقة شرف متصل فى آبائه من لدن
آدم اليه الا ما كان من ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم كرامة به وحياطة على السر فيه
وأول كل شرف خارجية كما قيل وهى الخروج عن الرياسة والشرف الى الضعة
والابتذال وعدم الحسب ومعناه أن كل شرف وحسب فعدمه سابق عليه شأن كل
محدث ثم ان نهايته فى أربعة آباء وذلك ان بانى المجد عالم بما عاناه فى بنائه ومحافظ على
الخلال التى هى أسباب كونه وبقائه وابنه من بعده مباشر لابيه قد سمع منه ذلك وأخذه
عنه الا أنه مقصر فى ذلك تقصير السامع بالشئ عن المعاين له ثم اذا جاء الثالث كان
حظه الاقتفاء والتقليد خاصة فقصر عن الثانى تقصير المقلد عن المجتهد ثم اذا جاء الرابع
قصر عن طريقتهم جملة وأضاع الخلال الحافظة لبناء مجدهم واحتقرها وتوهم أن
ذلك البنيان لم يكن بمعاناة ولا تكلف وانما هو أمر وجب لهم منذ أول النشأة بمجرد
انتسابهم وليس بعصابة ولا بخلال لما يرى من التجلة بين الناس ولا يعلم كيف كان
حدوثها ولا سببها ويتوهم أنه النسب فقط فيربأ بنفسه عن أهل عصبيته ويرى الفضل
له عليهم وثوقا بما ربى فيه من استتباعهم وجهلا بما أوجب ذلك الاستتباع من الخلال
التى منها التواضع لهم والاخذ بمجامع قلوبهم فيحتقرهم بذلك فينغصون عليه
ويحتقرونه ويديلون منه سواه من أهل ذلك المنبت ومن فروعه فى غير ذلك العقب
للاذعان لعصبيتهم كما قلناه بعد الوثوق بما يرضونه من خلاله فتنمو فروع هذا وتذوى
فروع الاول وينهدم بناء بيته هذا فى الملوك وهكذا فى بيوت القبائل والامراء
وأهل العصبية أجمع ثم فى بيوت أهل الامصار اذا انحطت بيوت نشأت بيوت أخرى
من ذلك النسب ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز واشتراط
الاربعة فى الاحساب انما هو فى الغالب والا فقد يدثر البيت من دون الاربعة ويتلاشى
وينهدم وقد يتصل أمرها الى الخامس والسادس الا أنه فى انحطاط وذهاب واعتبار
الاربعة من قبل الاجيال الاربعة بان ومباشر له ومقلد وهادم وهو أقل ما يمكن
وقد اعتبرت الاربعة فى نهاية الحسب فى باب المدح والثناء قال صلى الله عليه وسلم
انما الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم
اشارة الى أنه بلغ الغاية من المجد وفى التوراة ما معناه أنا الله ربك طائق غيور مطالب
بذنوب الآباء للبنين على الثوالث وعلى الروابع وهذا يدل على أن الاربعة الاعقاب غاية
فى الانساب والحسب * ومن كتاب الاغانى فى أخبار عريف الغوانى أن كسرى

قال النعمان هل في العرب قبيلة تشرف على قبيلة قال نعم قال بأي شئ قال من كان له ثلاثة آباء متوالية رؤساء ثم اتصل ذلك بكمال الرابع فالبيت من قبيلته وطلب ذلك فلم يجده الا في آل حذيفة بن بدر الفزاري وهم بيت قيس وآل ذي الجدين بيت شيبان وآل الاشعث بن قيس من كندة وآل حاجب بن زرارة وآل قيس بن عاصم المنقري من بني تميم فجمع هؤلاء الرهط ومن تبعهم من عشائرهم وأقعد لهم الحكام والعدول فقام حذيفة بن بدر ثم الاشعث بن قيس لقرابته من النعمان ثم بسطام بن قيس بن شيبان ثم حاجب بن زرارة ثم قيس بن عاصم وخطبوا ونثروا فقال كسرى كلهم سيد يصلح لموضعه وكانت هذه البيوتات هي المذكورة في العرب بعد بني هاشم ومعهم بيت بني الذبيان من بني الحرث بن كعب بيت اليمني وهذا كله يدل على أن الاربعة الآباء نهاية في الحسب والله أعلم

١٦ (فصل في ان الامم الوحشية اقدر على التغلب ممن سواها)

(اعلم) أنه لما كانت البداوة سببا في الشجاعة كما قلناه في المقدمة الثالثة لاجرم كان هذا الجيل الوحشي أشد شجاعة من الجيل الآخر فهم أقدر على التغلب وانتزاع ما في أيدي سواهم من الامم بل الجيل الواحد تختلف أحواله في ذلك باختلاف الاعصار فكلما نزلوا الارياف وتفنكوا النعيم وألفوا عوائد الخصب في المعاش والنعيم نقص من شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحشهم وبداوتهم واعتبر ذلك في الحيوانات العجم بدواجن الظباء والبقر الوحشية والحمر اذا زال توحشها بمخالطة الآدميين وأخصب عيشها كيف يختلف حالها في الانتهاض والشدة حتى في مشيتها وحسن أديمها وكذلك الآدمي المتوحش اذا أنس وألف وسببه أن تكون السجايا والطبائع انما هو عن المألوفات والعوائد واذا كان الغلب للامم انما يكون بالاقدام والبسالة فمن كان من هذه الاجيال أعرق في البداوة وأكثر توحشا كان أقرب الى التغلب على سواه اذا تقاربا في العدد وتكافآ في القوة والعصبية وانظر في ذلك شأن مضر مع من قبلهم من حمير وكهلان السابقين الى الملك والنعيم ومع ربيعة المتوطنين أرياف العراق ونعيمه لما بقي مضر في بداوتهم وتقدمهم الآخرون الى خصب العيش وغضارة النعيم كيف أرهفت البداوة حدهم في التغلب فغلبوهم على ما في أيديهم وانتزعوه منهم وهذا حال بني طيء وبني عامر بن صعصعة وبني سليم بن منصور من بعدهم لما تأخروا في باديتهم عن سائر قبائل مضر واليمن ولم يتلبسوا بشيء من دنياهم كيف أمسكت حال البداوة عليهم قوة عصبيتهم ولم تخلفها مذاهب الترف حتى صاروا أغلب على الامر منهم وكذ

كل حي من العرب يلي نعيماً وعيشاً خصباً دون الحي الآخر فان الحي المبدي يكون أغلب له وأقدر عليه اذا تكافآ في القوة والعدد سنة الله في خلقه

١٧ (فصل في ان الغاية التي تجري اليها العصبية هي الملك)

وذلك لانا قدمنا أن العصبية بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة وكل أمر يجتمع عليه وقدمنا أن الآدميين بالطبيعة الانسانية يحتاجون في كل اجتماع الى وازع وحاكم يزع بعضهم عن بعض فلا بد أن يكون متغلباً عليهم بتلك العصبية والالم تتم قدرته على ذلك وهذا التغلب هو الملك وهو أمر زائد على الرياسة لان الرياسة انما هي سودد وصاحبها متبوع وليس له عليهم قهر في أحكامه وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر وصاحب العصبية اذا بلغ الى رتبة طلب ما فوقها فاذا بلغ رتبة السودد والاتباع ووجد السبيل الى التغلب والقهر لا يتركه لانه مطلوب للنفس ولا يتم اقتدارها عليه الا بالعصبية التي يكون بها متبوعاً فالتغلب الملكي غاية للعصبية كما رأيت ثم ان القبيل الواحد وان كانت فيه بيوتات متفرقة وعصبيات متعددة فلا بد من عصبية تكون أقوى من جميعها تغلبها وتستتبعها وتلتحم جميع العصبيات فيها وتصير كأنها عصبية واحدة كبرى والا وقع الافتراق المفضي الى الاختلاف والتنازع ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ثم اذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها فان كافأتها أو مانعتها كانوا اقتالاً وأنظاراً ولكل واحدة منهما التغلب على حوزتها وقومها شأن القبائل والامم المفترقة في العالم وان غلبتها واستتبعتها التحمت بها أيضاً وزادتها قوة في التغلب الى قوتها وطلبت غاية من التغلب والتحكم أعلى من الغاية الاولى وأبعد وهكذا دائماً حتى تكافئ بقوتها قوة الدولة فان أدركت الدولة في هرمها ولم يكن لها ممانع من أولياء الدولة أهل العصبيات استولت عليها وانتزعت الامر من يدها وصار الملك أجمع لها وان انتهت الى قوتها ولم يقارن ذلك هرم الدولة وانما قارن حاجتها الى الاستظهار بأهل العصبيات انتظمتها الدولة في أوليائها تستظهر بها على ما يعن من مقاصدها وذلك ملك آخر دون الملك المستبد وهو كما وقع للترك في دولة بني العباس ولصنهاجة وزناتة مع كتامة ولبني حمدان مع ملوك الشيعة من العلوية والعباسية فقد ظهر أن الملك هو غاية العصبية وأنها اذا بلغت الى غايتها حصل للقبيلة الملك اما بالاستبداد أو بالمظاهرة على حسب ما يسعه الوقت المقارن لذلك وان عاقها عن بلوغ الغاية عوائق كما نبينه وقفت في مقامها الى أن يقضي الله بأمره

١٨ فصل في ان من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم

وسبب ذلك أن القبيل اذا غلبت بعصبيتها بعض الغلب استولت على النعمة بمقداره وشاركت أهل النعم والخصب في نعمتهم وخصبهم وضربت معهم في ذلك بسهم وحصة بمقدار غلبها واستظهار الدولة بها فان كانت الدولة من القوة بحيث لا يطمع أحد في انتزاع أمرها ولا مشاركتها فيه أذعن ذلك القبيل لولايتها والقنوع بما يسوغون من نعمتها ويشركون فيه من جبايتها ولم تسم آمالهم الى شيء من منازع الملك ولا أسبابه انما همتهم النعيم والكسب وخصب العيش والسكون في ظل الدولة الى الدعة والراحة والاخذ بمذاهب الملك في المباني والملابس والاستكثار من ذلك والتأنق فيه بمقدار ما حصل من الرياش والترف وما يدعو اليه من توابع ذلك فتذهب خشونة البداوة وتضعف العصبية والبسالة ويتنعمون فيما آتاهم الله من البسطة وتنشأ بنوهم وأعقابهم في مثل ذلك من الترفع عن خدمة أنفسهم وولاية حاجاتهم ويستنكفون عن سائر الامور الضرورية في العصبية حتى يصير ذلك خلقا لهم وسجية فتنقص عصبيتهم وبسالتهم في الاجيال بعدهم بتعاقبها الى أن تنقرض العصبية فيأذنون بالانقراض وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون اشرافهم على الفناء فضلا عن الملك فان عوارض الترف والغرق في النعيم كاسر من سورة العصبية التي بها التغلب واذا انقرضت العصبية قصر القبيل عن المدافعة والحماية فضلا عن المطالبة والتهمتهم الامم سواهم فقد تبين أن الترف من عوائق الملك والله يؤتي ملكه من يشاء

١٩ (فصل في ان من عوائق الملك حصول المذلة للقبيل والانقياد الى سواهم)

وسبب ذلك أن المذلة والانقياد كاسران لسورة العصبية وشدتها فان انقيادهم ومذلتهم دليل على فقدانها فما رئموا للمذلة حتى عجزوا عن المدافعة ومن عجز عن المدافعة فأولى أن يكون عاجزا عن المقاومة والمطالبة واعتبر ذلك في بني اسرائيل لما دعاهم موسى عليه السلام الى ملك الشام وأخبرهم بأن الله قد كتب لهم ملكها كيف عجزوا عن ذلك وقالوا ان فيها قوما جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها أي يخرجهم الله تعالى منها بضرب من قدرته غير عصبيتنا وتكون من معجزاتك يا موسى ولما عزم عليهم لجوا وارتكبوا العصيان وقالوا له اذهب أنت وربك فقاتلا وما ذلك الا لما آنسوا من أنفسهم من العجز عن المقاومة والمطالبة كما تقتضيه الآية وما يؤثر في تفسيرها وذلك بما حصل فيهم من خلق الانقياد وما رئموا من الذل للقبط أحقابا حتى ذهبت العصبية منهم جملة مع أنهم لم يؤمنوا حق الايمان بما أخبرهم به موسى من

أن الشأم لهم وأن العمالقة الذين كانوا بأريحاء فريستهم بحكم من الله قدره لهم فأقصروا عن ذلك وعجزوا تعويلا على ما علموا من أنفسهم من العجز عن المطالبة لما حصل لهم من خلق المذلة وطعنوا فيما أخبرهم به نبيهم من ذلك وما أمرهم به فعاقبهم الله بالتيه وهو أنهم تاهوا في قفر من الارض ما بين الشأم ومصر أربعين سنة لم يأووا فيها العمران ولا نزلوا مصرا ولا خالطوا بشرا كما قصه القرآن لغلظة العمالقة بالشأم والقبط بمصر عليهم لعجزهم عن مقاومتهم كما زعموه ويظهر من مساق الآية ومفهومها أن حكمة ذلك التيه مقصودة وهي فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر والقوة وتخلقوا به وأفسدوا من عصبيتهم حتى نشأ في ذلك التيه جيل آخر عزيز لا يعرف الاحكام والقهر ولا يسام بالمذلة فنشأت لهم بذلك عصبية أخرى اقتدروا بها على المطالبة والتغلب ويظهر لك من ذلك أن الاربعين سنة أقل ما يأتي فيها فناء جيل ونشأة جيل آخر سبحان الحكيم العليم وفي هذا أوضح دليل على شأن العصبية وأنها هي التي تكون بها المدافعة والمقاومة والحماية والمطالبة وأن من فقدها عجز عن جميع ذلك كله ويلحق بهذا الفصل فيما يوجب المذلة للقبيل شأن المغارم والضرائب فان القبيل الغارمين ما أعطوا اليد من ذلك حتى رضوا بالمذلة فيه لان في المغارم والضرائب ضيما ومذلة لا تحتملها النفوس الابية الا اذا استهونته عن القتل والتلف وان عصبيتهم حينئذ ضعيفة عن المدافعة والحماية ومن كانت عصبيته لا تدفع عنه الضيم فكيف له بالمقاومة والمطالبة وقد حصل له الانقياد للذل والمذلة عائقة كما قدمناه ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في شأن الحرث لما رأى سكة المحراث في بعض دور الانصار ما دخلت هذه دار قوم الا دخلهم الذل فهو دليل صريح على أن المغرم موجب للذلة هذا الى ما يصحب ذل المغارم من خلق المكر والخديعة بسبب ملكة القهر فاذا رأيت القبيل بالمغارم في ربقة من الذل فلا تطمعن لها بملك آخر الدهر ومن هنا يتبين لك غلط من يزعم أن زناتة بالمغرب كانوا شاوية يؤدون المغارم لمن كان على عهدهم من الملوك وهو غلط فاحش كما رأيت اذ لو وقع ذلك لما استتب لهم ملك ولا تمت لهم دولة وانظر فيما قاله شهربراز ملك الباب لعبد الرحمن بن ربيعة لما أطل عليه وسأل شهربراز أمانه على أن يكون له فقال أنا اليوم منكم يدي في أيديكم وصعري معكم فمرحبا بكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا اليكم النصر لكم والقيام بما تحبون ولا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم فاعتبر هذا فيما قلناه فانه كاف

٢٠ (فصل في ان من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة وبالعكس)

لما كان الملك طبيعيا للانسان لما فيه من طبيعة الاجتماع كما قلناه وكان الانسان أقرب الى خلال الخير من خلال الشر بأصل فطرته وقوته الناطقة العاقلة لان الشر انما جاءه من قبل القوى الحيوانية التى فيه وأما من حيث هو انسان فهو الى الخير وخلاله أقرب والملك والسياسة انما كان له من حيث هو انسان لانها خاصة للانسان لا للحيوان فاذن خلال الخير فيه هي التي تناسب السياسة والملك اذ الخير هو المناسب للسياسة وقد ذكرنا أن المجد له أصل ينبني عليه وتتحقق به حقيقته وهو العصبية والعشير وفرع يتم وجوده ويكمله وهو الخلال واذا كان الملك غاية للعصبية فهو غاية لفروعها ومتمماتها وهي الخلال لان وجوده دون متمماته كوجود شخص مقطوع الاعضاء أو ظهوره عريانا بين الناس واذا كان وجود العصبية فقط من غير انتحال الخلال الحميدة نقصا في أهل البيوت والاحساب فما ظنك بأهل الملك الذى هو غاية لكل مجد ونهاية لكل حسب وأيضا فالسياسة والملك هي كفالة للخلق وخلافة لله في العباد لتنفيذ أحكامه فيهم وأحكام الله في خلقه وعباده انما هي بالخير ومراعاة المصالح كما تشهد به الشرائع وأحكام البشر انما هي من الجهل والشيطان بخلاف قدرة الله سبحانه وقدره فانه فاعل للخير والشر معا ومقدرهما اذ لا فاعل سواه فمن حصلت له العصبية الكفيلة بالقدرة وأونست منه خلال الخير المناسبة لتنفيذ أحكام الله في خلقه فقد تهيأ للخلافة في العباد وكفالة الخلق ووجدت فيه الصلاحية لذلك وهذا البرهان أوثق من الاول وأصح مبنى فقد تبين أن خلال الخير شاهدة بوجود الملك لمن وجدت له العصبية فاذا نظرنا في أهل العصبية ومن حصل لهم الغلب على كثير من النواحي والامم فوجدناهم يتنافسون في الخير وخلاله من الكرم والعفو عن الزلات والاحتمال من غير القادر والقرى للضيوف وحمل الكل وكسب المعدم والصبر على المكاره والوفاء بالعهد وبذل الاموال في صون الاعراض وتعظيم الشريعة واجلال العلماء الحاملين لها والوقوف عند ما يحددونه لهم من فعل أو ترك وحسن الظن بهم واعتقاد أهل الدين والتبرك بهم ورغبة الدعاء منهم والحياء من الاكابر والمشايخ وتوقيرهم واجلالهم والانقياد الى الحق مع الداعي اليه وانصاف المستضعفين من أنفسهم والتبذل في أحوالهم والانقياد للحق والتواضع للمسكين واستماع شكوى المستغيثين والتدين بالشرائع والعبادات والقيام عليها وعلى أسبابها والتجافي عن الغدر والمكر والخديعة ونقض العهد وأمثال ذلك علمنا أن هذه خلق السياسة قد حصلت لديهم واستحقوا بها أن يكونوا ساسة لمن تحت أيديهم أو على العموم وأنه خير ساقه الله تعالى اليهم مناسب لعصبيتهم وغلبهم وليس ذلك سدى فيهم

ولا وجدعبثا منهم والملك أنسب المراتب والخيرات لعصبيتهم فعلمنا بذلك أن الله تأذن لهم بالملك وساقه اليهم وبالعكس من ذلك اذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل وسلوك طرقها فتفقد الفضائل السياسية منهم جملة ولا تزال في انتقاص الى أن يخرج الملك من أيديهم ويتبدل به سواهم ليكون نعيا عليهم في سلب ما كان الله قد آتاهم من الملك وجعل في أيديهم من الخير واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا واستقر ذلك وتتبعه في الامم السابقة تجد كثيرا مما قلناه ورسمناه والله يخلق ما يشاء ويختار

(واعلم) أن من خلال الكمال التي يتنافس فيها القبائل أولو العصبية وتكون شاهدة لهم بالملك اكرام العلماء والصالحين والاشراف وأهل الاحساب وأصناف التجار والغرباء وانزال الناس منازلهم وذلك أن اكرام القبائل وأهل العصبيات والعشائر لمن يناهضهم في الشرف ويجاذبهم حبل العشير والعصبية ويشاركهم في اتساع الجاه أمر طبيعي يحمل عليه في الاكثر الرغبة في الجاه أو المخافة من قوم المكرم أو التماس مثلها منه وأما أمثال هؤلاء ممن ليس لهم عصبية تتقى ولا جاه يرتجى فيندفع الشك في شأن كرامتهم ويتمحض القصد فيهم أنه للمجد وانتحال الكمال في الخلال والاقبال على السياسة بالكلية لان اكرام أقتاله وأمثاله ضروري في السياسة الخاصة بين قبيله ونظرائه واكرام الطارئين من أهل الفضائل والخصوصيات كمال في السياسة العامة فالصالحون للدين والعلماء للجاء اليهم في اقامة مراسم الشريعة والتجار للترغيب حتى تعم المنفعة بما في أيديهم والغرباء من مكارم الاخلاق وانزال الناس منازلهم من الانصاف وهو من العدل فيعلم بوجود ذلك من أهل عصبيته انتماؤهم للسياسة العامة وهي الملك وأن الله قد تأذن بوجودها فيهم لوجود علاماتها ولهذا كان أول ما يذهب من القبيل اهل الملك اذا تأذن الله تعالى بسلب ملكهم وسلطانهم اكرام هذا الصنف من الخلق فاذا رأيته قد ذهب من أمة من الامم فاعلم أن الفضائل قد أخذت في الذهاب عنهم وارتقب زوال الملك منهم واذا أراد الله بقوم سوأ فلا مرد له والله تعالى أعلم .

٢١ (فصل في انه اذا كانت الامة وحشية كان ملكها اوسع)

وذلك لانهم أقدر على التغلب والاستبداد كما قلناه واستعباد الطوائف لقدرتهم على محاربة الامم سواهم ولانهم يتنزلون من الاهلين منزلة المفترس من الحيوانات العجم وهؤلاء مثل العرب وزناتة ومن في معناهم من الاكراد والتركمان وأهل اللثام من

صنهاجة وأيضا فهؤلاء المتوحشون ليس لهم وطن يرتافون منه ولا بلد يجنحون اليه فنسبة الاقطار والمواطن اليهم على السواء فلهذا لا يقتصرون على ملكة قطرهم وما جاورهم من البلاد ولا يقفون عند حدود أفقهم بل يطفرون الى الاقاليم البعيدة و يتغلبون على الامم النائية وانظر ما يحكى فى ذلك عن عمر رضى الله عنه لما بويع وقام يحرض الناس على العراق فقال ان الحجاز ليس لكم بدار الا على النجعة ولا يقوى عليه أهله الا بذلك أين القراء المهاجرون عن موعد الله سيروا فى الارض التى وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها فقال ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون واعتبر ذلك أيضا بحال العرب السالفة من قبل مثل التبابعة وحمير كيف كانوا يخطون من اليمن الى المغرب مرة والى العراق والهند أخرى ولم يكن ذلك لغير العرب من الامم وكذا حال الملثمين من المغرب لما نزعوا الى الملك طفروا من الاقليم الاول ومجالاتهم منه فى جوار السودان الى الاقليم الرابع والخامس فى ممالك الاندلس من غير واسطة وهذا شأن هذه الامم الوحشية فلذلك تكون دولتهم أوسع نطاقا وأبعد من مراكزها نهاية والله يقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار لا شريك له

٢٢ فصل في ان الملك اذا ذهب عن بعض الشعوب من امة فلا بد من عوده الى شعب آخر منها ما دامت لهم العصبية

والسبب فى ذلك أن الملك انما حصل لهم بعد سورة الغلب والاذعان لهم من سائر الامم سواهم فيتعين منهم المباشرون للامر الحاملون لسرير الملك ولا يكون ذلك لجميعهم لما هم عليه من الكثرة التى يضيق عنها نطاق المزاحمة والغيرة التى تجدع أنوف كثير من المتطاولين للرتبة فاذا تعين أولئك القائمون بالدولة انغمسوا فى النعيم وغرقوا فى بحر الترف والخصب واستعبدوا اخوانهم من ذلك الجيل وأنفقوهم فى وجوه الدولة ومذاهبها و بقى الذين بعدوا عن الامر وكبحوا عن المشاركة فى ظل من عز الدولة التى شاركوها بنسبهم وبنجاة من الهرم لبعدهم عن الترف وأسبابه فاذا استولت على الاولين الايام وأباد غضراءهم الهرم فطبختهم الدولة وأكل الدهر عليهم وشرب بما أرهف النعيم من حدهم واشتفت غريزة الترف من مائهم و بلغوا غايتهم من طبيعة التمدن الانسانى والتغلب السياسى (شعر)

كدود القز ينسج ثم يفنى * بمركز نسجه فى الانعكاس

كانت حينئذ عصبية الآخرين موفورة وسورة غلبهم من الكاسر محفوظة وشارتهم فى الغلب معلومة فتسمو آمالهم الى الملك الذى كانوا ممنوعين منه بالقوة الغالبة من

جنس عصبيتهم وترتفع المنازعة لما عرف من غلبهم فيستولون على الامر ويصير اليهم وكذا يتفق فيهم مع من بقي أيضا منتبذا عنه من عشائر أمتهم فلا يزال الملك ملجأ في الامة الى أن تنكسر سورة العصبية منها أو يفنى سائر عشائرها سنة الله في الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين واعتبر هذا بما وقع في العرب لما انقرض ملك عاد قام به من بعدهم اخوانهم من ثمود ومن بعدهم اخوانهم العمالقة ومن بعدهم اخوانهم من حمير ومن بعدهم اخوانهم التبابعة من حمير أيضا ومن بعدهم الاذواء كذلك ثم جاءت الدولة لمضر وكذا الفرس لما انقرض أمر الكينية ملك من بعدهم الساسانية حتى تأذن الله بانقراضهم أجمع بالاسلام وكذا اليونانيون انقرض أمرهم وانتقل الى اخوانهم من الروم وكذا البربر بالمغرب لما انقرض أمر مغراوة وكتامة الملوك الاول منهم رجع الى صنهاجة ثم الملثمين من بعدهم ثم المصامدة ثم من بقي من شعوب زناتة وهكذا سنة الله في عباده وخلقه وأصل هذا كله انما يكون بالعصبية وهي متفاوتة في الاجيال والملك يخلقه الترف ويذهبه كما سنذكره بعد فاذا انقرضت دولة فانما يتناول الامر منهم من له عصبية مشاركة لعصبيتهم التي عرف لها التسليم والانقياد وأونس منها الغلب لجميع العصبيات وذلك انما يوجد في النسب القريب منهم لان تفاوت العصبية بحسب ما قرب من ذلك النسب التي هي فيه أو بعد حتى اذا وقع في العالم تبديل كبير من تحويل ملة أو ذهاب عمران أو ما شاء الله من قدرته فحينئذ يخرج عن ذلك الجيل الى الجيل الذي يأذن الله بقيامه بذلك التبديل كما وقع لمضر حين غلبوا على الامم والدول وأخذوا الامر من أيدي أهل العالم بعد أن كانوا مكبوحين عنه أحقابا

٢٣ فصل في ان المغلوب مولع ابدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر احواله وعوائده

والسبب في ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت اليه اما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي انما هو لكمال الغالب فاذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقادا فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الاقتداء أو لما تراه والله أعلم من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس وانما هو بما انتحله من العوائد والمذاهب تغالط أيضا بذلك عن الغلب وهذا راجع للاول ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبدا بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها بل وفي سائر أحواله وانظر ذلك في

الابناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائما وما ذلك الا لاعتقادهم الكمال فيهم وانظر الى كل قطر من الاقطار كيف يغلب على أهله زي الحامية وجند السلطان في الاكثر لانهم الغالبون لهم حتى انه اذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها فيسري اليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير كما هو في الاندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة فانك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة انه من علامات الاستيلاء والامر لله * وتأمل في هذا سر قولهم العامة على دين الملك فانه من بابه اذ الملك غالب لمن تحت يده والرعية مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه اعتقاد الابناء بآبائهم والمتعلمين بمعلميهم والله العليم الحكيم وبه سبحانه وتعالى التوفيق

٢٤ (فصل في ان الامة اذا غلبت وصارت في ملك غيرها اسرع اليها الفناء)

والسبب في ذلك والله أعلم ما يحصل في النفوس من التكاسل اذا ملك أمرها عليها وصارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم فيقصر الامل ويضعف التناسل والاعتمار انما هو عن جدة الامل وما يحدث عنه من النشاط في القوى الحيوانية فاذا ذهب الامل بالتكاسل وذهب ما يدعو اليه من الاحوال وكانت العصبية ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم تناقص عمرانهم وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم بما خضد الغلب من شوكتهم فأصبحوا مغلبين لكل متغلب طعمة لكل آكل وسواء كانوا حصلوا على غايتهم من الملك أو لم يحصلوا وفيه والله أعلم سر آخر وهو أن الانسان رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذي خلق له والرئيس اذا غلب على رياسته وكبح عن غاية عزه تكاسل حتى عن شبع بطنه وري كبده وهذا موجود في أخلاق الاناسي ولقد يقال مثله في الحيوانات المفترسة وانها لا تسافد اذا كانت في ملكة الآدميين فلا يزال هذا القبيل المملوك عليه أمره في تناقص واضمحلال الى أن يأخذهم الفناء والبقاء لله وحده واعتبر ذلك في أمة الفرس كيف كانت قد ملأت العالم كثرة ولما فنيت حاميتهم في أيام العرب بقي منهم كثير وأكثر من الكثير يقال ان سعدا أحصى من وراء المدائن فكانوا مائة ألف وسبعة وثلاثين ألفا منهم سبعة وثلاثون ألفا رب بيت ولما تحصلوا في ملكة العرب وقبضة القهر لم يكن بقاؤهم الا قليلا ودثروا كأن لم يكونوا ولا تحسبن أن ذلك لظلم نزل بهم أو عدوان شملهم فملكة الاسلام في العدل ما علمت وانما هي طبيعة في الانسان اذا غلب على أمره

وصار آلة لغيره ولهذا انما تذعن للرق في الغالب أمم السودان لنقص الانسانية فيهم وقربهم من عرض الحيوانات العجم كما قلناه أو من يرجو بانتظامه في ربقة الرق حصول رتبة أو افادة مال أو عز كما يقع لمماليك الترك بالمشرق والعلوج من الجلالقة والافرنجة بالاندلس فان العادة جارية باستخلاص الدولة لهم فلا يأنفون من الرق لما يأملونه من الجاه والرتبة باصطفاء الدولة والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٢٥ (فصل في ان العرب لا يتغلبون الا على البسائط)

وذلك أنهم بطبيعة التوحش الذي فيهم أهل انتهاب وعيث ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ويفرون الى منتجعهم بالقفر ولا يذهبون الى المزاحفة والمحاربة الا اذا دفعوا بذلك عن أنفسهم فكل معقل أو مستصعب عليهم فهم تاركوه الى ما يسهل عنه ولا يعرضون له والقبائل الممتنعة عليهم بأوعار الجبال بمنجاة من عيثهم وفسادهم لانهم لا يتسنمون اليهم الهضاب ولا يركبون الصعاب ولا يحاولون الخطر وأما البسائط متى اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة فهي نهب لهم وطعمة لآكلهم يرددون عليها الغارة والنهب والزحف لسهولتها عليهم الى أن يصبح أهلها مغلبين لهم ثم يتعاورونهم باختلاف الايدي وانحراف السياسة الى أن ينقرض عمرانهم والله قادر على خلقه وهو الواحد القهار لا رب غيره

٢٦ (فصل في ان العرب اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب)

والسبب في ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم فصار لهم خلقا وجبلة وكان عندهم ملذوذا لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له فغاية الاحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومناف له فالحجر مثلا انما حاجتهم اليه لنصبه أثافي للقدر فينقلونه من المباني ويخربونها عليه ويعدونه لذلك والخشب أيضا انما حاجتهم اليه ليعمروا به خيامهم ويتخذوا الاوتاد منه لبيوتهم فيخربون السقف عليه لذلك فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران هذا في حالهم على العموم وأيضا فطبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس وان رزقهم في ظلال رماحهم وليس عندهم في أخذ أموال الناس حد ينتهون اليه بل كلما امتدت أعينهم الى مال أو متاع أو ماعون انتهبوه فاذا تم اقتدارهم على ذلك بالتغلب والملك بطلت السياسة في حفظ أموال الناس وخرب العمران وأيضا فلانهم

يتلفون على أهل الاعمال من الصنائع والحرف أعمالهم لا يرون لها قيمة ولا قسطا من الاجر والثمن والاعمال كما سنذكره هي أصل المكاسب وحقيقتها واذا فسدت الاعمال وصارت مجانا ضعفت الآمال في المكاسب وانقبضت الايدي عن العمل وابذعر الساكن وفسد العمران وأيضا فانهم ليست لهم عناية بالاحكام وزجر الناس عن المفاسد ودفاع بعضهم عن بعض انما همهم ما يأخذونه من أموال الناس نهبا أو مغرما فاذا توصلوا الى ذلك وحصلوا عليه أعرضوا عما بعده من تسديد أحوالهم والنظر في مصالحهم وقهر بعضهم عن أغراض المفاسد وربما فرضوا العقوبات في الاموال حرصا على تحصيل الفائدة والجباية والاستكثار منها كما هو شأنهم وذلك ليس بمغن في دفع المفاسد وزجر المتعرض لها بل يكون ذلك زائدا فيها لاستسهال الغرم في جانب حصول الغرض فتبقى الرعايا في ملكتهم كأنها فوضى دون حكم والفوضى مهلكة للبشر مفسدة للعمران بما ذكرناه من أن وجود الملك خاصة طبيعية للانسان لا يستقيم وجودهم واجتماعهم الابها وتقدم ذلك أول الفصل وأيضا فهم متنافسون في الرئاسة وقل أن يسلم أحد منهم الامر لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته الا في الاقل وعلى كره من أجل الحياء فيتعدد الحكام منهم والامراء وتختلف الايدي على الرعية في الجباية والاحكام فيفسد العمران وينتقض قال الاعرابي الوافد على عبد الملك لما سأله عن الحجاج وأراد الثناء عليه عنده بحسن السياسة والعمران فقال تركته يظلم وحده وانظر الى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الاوطان من لدن الخليقة كيف تقوض عمرانه وأقفر ساكنه وبدلت الارض فيه غير الارض فاليمن قرارهم خراب الا قليلا من الامصار وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذي كان للفرس أجمع والشأم لهذا العهد كذلك وافريقية والمغرب لما جاز اليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت بسائطه خرابا كلها بعد أن كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمرانا تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمداشر والله يرث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

٢٧ فصل في ان العرب لا يحصل لهم الملك الا بصبغة دينية من نبوة او ولاية او اثر عظيم من الدين على الجملة

والسبب في ذلك أنهم لخلق التوحش الذي فيهم أصعب الامم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والانفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة فقلما تجتمع أهواؤهم فاذا كان

الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والانفة الوازع عن التحاسد والتنافس فاذا كان فيهم النبي أو الولي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله ويذهب عنهم مذمومات الاخلاق ويأخذهم بمحمودها ويؤلف كلمتهم لاظهار الحق تم اجتماعهم وحصل لهم التغلب والملك وهم مع ذلك أسرع الناس قبولا للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الاخلاق الا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة المتهيئ لقبول الخير ببقائه على الفطرة الاولى وبعده عما ينطبع في النفوس من قبيح العوائد وسوء الملكات فان كل مولود يولد على الفطرة كما ورد في الحديث وقد تقدم

٢٨ (فصل في ان العرب ابعد الامم عن سياسة الملك)

والسبب في ذلك أنهم أكثر بداوة من سائر الامم وأبعد مجالا في القفر وأغنى عن حاجات التلول وحبوبها لاعتيادهم الشظف وخشونة العيش فاستغنوا عن غيرهم فصعب انقياد بعضهم لبعض لايلافهم ذلك وللتوحش ورئيسهم محتاج اليهم غالبا للعصبية التي بها المدافعة فكان مضطرا الى احسان ملكتهم وترك مراغمتهم لئلا يختل عليه شأن عصبيته فيكون فيها هلاكه وهلاكهم وسياسة الملك والسلطان تقتضي أن يكون السائس وازعا بالقهر والا لم تستقم سياسته وأيضا فان من طبيعتهم كما قدمناه أخذ ما في أيدي الناس خاصة والتجافي عما سوى ذلك من الاحكام بينهم ودفاع بعضهم عن بعض فاذا ملكوا أمة من الامم جعلوا غاية ملكهم الانتفاع بأخذ ما في أيديهم وتركوا ما سوى ذلك من الاحكام بينهم وربما جعلوا العقوبات على المفاسد في الاموال حرصا على تكثير الجبايات وتحصيل الفوائد فلا يكون ذلك وازعا وربما يكون باعثا بحسب الاغراض الباعثة على المفاسد واستهانة ما يعطى من ماله في جانب غرضه فتنمو المفاسد بذلك ويقع تخريب العمران فتبقى تلك الامة كأنها فوضى مستطيلة أيدي بعضها على بعض فلا يستقيم لها عمران وتخرب سريعا شأن الفوضى كما قدمناه فبعدت طباع العرب لذلك كله عن سياسة الملك وانما يصيرون اليها بعد انقلاب طباعهم وتبدلها بصبغة دينية تمحو ذلك منهم وتجعل الوازع لهم من أنفسهم وتحملهم على دفاع الناس بعضهم عن بعض كما ذكرناه واعتبر ذلك بدولتهم في الملة لما شيد لهم الدين أمر السياسة بالشريعة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهرا وباطنا وتتابع فيها الخلفاء عظم حينئذ ملكهم وقوي سلطانهم كان رستم اذا رأى

المسلمين يجتمعون للصلاة يقول أكل عمر كبدي يعلم الكلاب الآداب ثم انهم بعد ذلك انقطعت منهم عن الدولة أجيال نبذوا الدين فنسوا السياسة ورجعوا الى قفرهم وجهلوا شأن عصبيتهم مع أهل الدولة يبعدهم عن الانقياد واعطاء النصفة فتوحشوا كما كانوا ولم يبق لهم من اسم الملك الا أنهم من جنس الخلفاء ومن جيلهم ولما ذهب أمر الخلافة وامحى رسمها انقطع الامر جملة من أيديهم وغلب عليهم العجم دونهم وأقاموا بادية في قفارهم لا يعرفون الملك ولا سياسته بل قد يجهل الكثير منهم أنهم قد كان لهم ملك في القديم وما كان في القديم لاحد من الامم في الخليقة ما كان لاجيالهم من الملك ودول عاد وثمود والعمالقة وحمير والتبابعة شاهدة بذلك ثم دولة مضر في الاسلام بني أمية وبني العباس لكن بعد عهدهم بالسياسة لما نسوا الدين فرجعوا الى أصلهم من البداوة وقد يحصل لهم في بعض الاحيان غلب على الدول المستضعفة كما في المغرب لهذا العهد فلا يكون مآله وغايته الا تخريب ما يستولون عليه من العمران كما قدمناه والله يؤتي ملكه من يشاء

٢٩ (فصل في ان البوادي من القبائل والعصائب مغلوبون لأهل الأمصار)

قد تقدم لنا أن عمران البادية ناقص عن عمران الحواضر والامصار لان الامور الضرورية في العمران ليس كلها موجودة لاهل البدو وانما توجد لديهم في مواطنهم أمور الفلح وموادها معدومة ومعظمها الصنائع فلا توجد لديهم بالكلية من نجار وخياط وحداد وأمثال ذلك مما يقيم لهم ضروريات معاشهم في الفلح وغيره وكذا الدنانير والدراهم مفقودة لديهم وانما بأيديهم أعواضها من مغل الزراعة وأعيان الحيوان أو فضلاته ألبانا وأوبارا وأشعارا واهابا مما يحتاج اليه أهل الامصار فيعوضونهم عنه بالدنانير والدراهم الا أن حاجتهم الى الامصار في الضروري وحاجة أهل الامصار اليهم في الحاجي والكمالي فهم محتاجون الى الامصار بطبيعة وجودهم فما داموا في البادية ولم يحصل لهم ملك ولا استيلاء على الامصار فهم محتاجون الى أهلها ويتصرفون في مصالحهم وطاعتهم متى دعوهم الى ذلك وطالبوهم به وان كان في المصر ملك كان خضوعهم وطاعتهم لغلب الملك وان لم يكن في المصر ملك فلا بد فيه من رياسة ونوع استبداد من بعض أهله على الباقين والا انتقص عمرانه وذلك الرئيس يحملهم على طاعته والسعي في مصالحه اما طوعا ببذل المال لهم ثم يبدي لهم ما يحتاجون اليه من الضروريات في مصره فيستقيم عمرانهم واما كرها ان تمت قدرته على ذلك ولو بالتغريب بينهم حتى يحصل له جانب منهم يغالب به الباقين

فيضطر الباقين الى طاعته بما يتوقعون لذلك من فساد عمرانهم وربما لا يسعهم مفارقة تلك النواحي الى جهات أخرى لان كل الجهات معمور بالبدو الذين غلبوا عليها ومنعوها من غيرهم فلا يجد هؤلاء ملجأ الا الطاعة المصر فهم بالضرورة مغلوبون لاهل الامصار والله قاهر فوق عباده وهو الواحد الاحد القهار

الفصل الثالث من الكتاب الاول في الدولة العامة والملك ولمراتب السلطانية وما يعرض في ذلك الاحوال ؛ وفيه قواعد ومتمات .

١ (فصل في ان الملك والدولة العامة انما يحصل بالقبيل والعصبية)

وذلك أنا قررنا في الفصل الاول أن المغالبة والممانعة انما تكون بالعصبية لما فيها من النعرة والتذامر واستماتة كل واحد منهم دون صاحبه ثم ان الملك منصب شريف ملذوذ يشتمل على جميع الخيرات الدنيوية والشهوات البدنية والملاذ النفسانية فيقع فيه التنافس غالبا وقل أن يسلمه أحد لصاحبه الا اذا غلب عليه فتقع المنازعة وتفضي الى الحرب والقتال والمغالبة وشيء منها لا يقع الا بالعصبية كما ذكرناه آنفا وهذا الامر بعيد عن أفهام الجمهور بالجملة ومتناسون له لانهم نسوا عهد تمهيد الدولة منذ أولها وطال أمدهم باهم في الحضارة وتعاقبهم فيها جيلا بعد جيل فلا يعرفون ما فعل الله أول الدولة انما يدركون أصحاب الدولة وقد استحكمت صبغتهم ووقع التسليم لهم والاستغناء عن العصبية في تمهيد أمرهم ولا يعرفون كيف كان الامر من أوله وما لقي أولهم من المتاعب دونه وخصوصا أهل الاندلس في نسيان هذه العصبية وأثرها لطول الامد واستغنائهم في الغالب عن قوة العصبية بما تلاشى وطنهم وخلا من العصائب والله قادر على ما يشاء وهو بكل شيء عليم وهو حسبنا ونعم الوكيل

٢ (فصل في انه اذا استقرت الدولة وتمهدت فقد تستغني عن العصبية)

والسبب في ذلك أن الدول العامة في أولها يصعب على النفوس الانقياد لها الا بقوة قوية من الغلب للغرابة وان الناس لم يألفوا ملكها ولا اعتادوه فاذا استقرت الرياسة في أهل النصاب المخصوص بالملك في الدولة وتوارثوه واحدا بعد آخر في أعقاب كثيرين ودول متعاقبة نسيت النفوس شأن الاولية واستحكمت لاهل ذلك النصاب صبغة الرياسة ورسخ في العقائد دين الانقياد لهم والتسليم وقاتل الناس معهم على أمرهم قتالهم على العقائد الايمانية فلم يحتاجوا حينئذ في أمرهم الى كبير عصابة بل كان طاعتها

كتاب الله لا يبدل ولا يعلم خلافه ولا أمر تما يوضع الكلام في الامامة آخر الكلام على العقائد الايمانية كأنه من جملة عقودها ويكون استظهارهم حينئذ على سلطانهم ودولتهم المخصوصة اما بالموالي والمصطنعين الذين نشؤا في ظل العصبية وغيرها واما بالعصائب الخارجين عن نسبها الداخلين في ولايتها ومثل هذا وقع لبني العباس فان عصبية العرب كانت فسدت لعهد دولة المعتصم وابنه الواثق واستظهارهم بعد ذلك انما كان بالموالي من العجم والترك والديلم والسلجوقية وغيرهم ثم تغلب العجم الاولياء على النواحي وتقلص ظل الدولة فلم تكن تعدو أعمال بغداد حتى زحف اليها الديلم وملكوها وصار الخلائف في حكمهم ثم انقرض أمرهم وملك السلجوقية من بعدهم فصاروا في حكمهم ثم انقرض أمرهم وزحف آخر التتار فقتلوا الخليفة ومحوا رسم الدولة وكذا صنهاجة بالمغرب فسدت عصبيتهم منذ المائة الخامسة أو ما قبلها واستمرت لهم الدولة متقلصة الظل بالمهدية وبجاية والقلعة وسائر ثغور افريقية وربما انتزى بتلك الثغور من نازعهم الملك واعتصم فيها والسلطان والملك مع ذلك مسلم لهم حتى تأذن الله بانقراض الدولة وجاء الموحدون بقوة قوية من العصبية في المصامدة فمحوا آثارهم وكذا دولة بني امية بالاندلس لما فسدت عصبيتها من العرب استولى ملوك الطوائف على أمرها واقتسموا خطتها وتنافسوا بينهم وتوزعوا ممالك الدولة وانتزى كل واحد منهم على ما كان في ولايته وشمخ بأنفه وبلغهم شأن العجم مع الدولة العباسية فتلقبوا بألقاب الملك ولبسوا شارته وأمنوا ممن ينقض ذلك عليهم أو يغيره لان الاندلس ليس بدار عصائب ولا قبائل كما سنذكره واستمر لهم ذلك كما قال ابن شرف

مما يزهدني في أرض اندلس * أسماء معتصم فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها * كالهر يحكي انتفاخا صورة الاسد

فاستظهروا على أمرهم بالموالي والمصطنعين والطراء على الاندلس من أهل العدوة من قبائل البربر وزناتة وغيرهم اقتداء بالدولة في آخر أمرها في الاستظهار بهم حين ضعفت عصبية العرب واستبد ابن أبي عامر على الدولة فكان لهم دول عظيمة استبد كل واحد منها بجانب من الاندلس وحظ كبير من الملك على نسبة الدولة التي اقتسموها ولم يزالوا في سلطانهم ذلك حتى جاز اليهم البحر المرابطون أهل العصبية القوية من لمتونة فاستبدلوا بهم وأزالوهم عن مراكزهم ومحوا آثارهم ولم يقدروا على مدافعتهم لفقدان العصبية لديهم فبهذه العصبية يكون تمهيد الدولة وحمايتها من أولها وقد ظن الطرطوشي أن حامية الدول باطلاق هم الجند أهل العطاء المفروض مع الاهلة ذكر ذلك في كتابه الذي سماه سراج الملوك وكلامه لا يتناول تأسيس الدول العامة في أولها

وانما هو مخصوص بالدول الاخيرة بعد التمهيد واستقرار الملك في النصاب واستحكام الصبغة لاهله فان الرجل انما أدرك الدولة عند هرمها وخلق جدتها ورجوعها الى الاستظهار بالموالي والصنائع ثم الى المستخدمين من ورائهم بالاجر على المدافعة فانه انما أدرك دول الطوائف وذلك عند اختلال دولة بني امية وانقراض عصبيتها من العرب واستبداد كل أمير بقطره وكان في ايالة المستعين بن هود وابنه المظفر أهل سرقسطة ولم يكن بقي لهم من أمر العصبية شيء لاستيلاء الترف على العرب منذ ثلثمائة من السنين وهلاكهم ولم ير الا سلطانا مستبدا بالملك عن عشائره قد استحكمت له صبغة الاستبداد منذ عهد الدولة وبقية العصبية فهو لذلك لا ينازع فيه ويستعين على أمره بالاجراء من المرتزقة فأطلق الطرطوشي القول في ذلك ولم يتفطن لكيفية الامر منذ أول الدولة وأنه لا يتم الا لاهل العصبية فتفطن أنت له وافهم سر الله فيه والله يؤتي ملكه من يشاء

٣ (فصل في انه قد يحدث لبعض اهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبية)

وذلك أنه اذا كان لعصبية غلب كثير على الامم والاجيال وفي نفوس القائمين بأمره من أهل القاصية اذعان لهم وانقياد فاذا نزع اليهم هذا الخارج وانتبذ عن مقر ملكه ومنبت عزه اشتملوا عليه وقاموا بأمره وظاهروه على شأنه وعنوا بتمهيد دولته يرجون استقراره في نصابه وتناوله الامر من يد أعياصه وجزاءه لهم على مظاهرته باصطفائهم لرتب الملك وخططه من وزارة أو قيادة أو ولاية ثغر ولا يطمعون في مشاركته في شيء من سلطانه تسليما لعصبيته وانقيادا لما استحكم له ولقومه من صبغة الغلب في العالم وعقيدة ايمانية استقرت في الاذعان لهم فلو راموه هامعه أو دونه لزلزلت الارض زلزالها وهذا كما وقع للادارسة بالمغرب الاقصى والعبيديين بافريقية ومصر لما انتبذ الطالبيون من المشرق الى القاصية وابتعدوا عن مقر الخلافة وسموا الى طلبها من أيدي بني العباس بعد أن استحكمت الصبغة لبني عبد مناف لبني أمية أولا ثم لبني هاشم من بعدهم فخرجوا بالقاصية من المغرب ودعوا لانفسهم وقام بأمرهم البرابرة مرة بعد أخرى فأوربة ومغيلة للادارسة وكتامة وصنهاجة وهوارة للعبيديين فشيدوا دولتهم ومهدوا بعصائبهم أمرهم واقتطعوا من ممالك العباسيين المغرب كله ثم افريقية ولم يزل ظل الدولة يتقلص وظل العبيديين يمتد الى أن ملكوا مصر والشام والحجاز وقاسموهم في الممالك الاسلامية شق الابلمة وهؤلاء البرابرة القائمون بالدولة مع ذلك كلهم مسلمون للعبيديين أمرهم مذعنون لملكهم وانما كانوا يتنافسون

فى الرتبة عندهم خاصة تسليما لما حصل من صبغة الملك لبنى هاشم ولما استحكم من الغلب لقريش ومضر على سائر الامم فلم يزل الملك فى أعقابهم الى أن انقرضت دولة العرب بأسرها والله يحكم لا معقب لحكمه

٤ فصل في ان الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك اصلها الدين اما من نبوة او دعوة حق

وذلك لان الملك انما يحصل بالتغلب والتغلب انما يكون بالعصبية واتفاق الاهواء على المطالبة وجمع القلوب وتأليفها انما يكون بمعونة من الله فى اقامة دينه قال تعالى لو أنفقت ما فى الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم وسره أن القلوب اذا تداعت الى أهواء الباطل والميل الى الدنيا حصل التنافس وفشا الخلاف واذا انصرفت الى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله اتحدت وجهتها فذهب التنافس وقل الخلاف وحسن التعاون والتعاضد واتسع نطاق الكلمة لذلك فعظمت الدولة كما نبين لك بعد ان شاء الله سبحانه وتعالى وبه التوفيق لا رب سواه

٥ فصل في ان الدعوة الدينية تزيد الدولة في اصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عدد

السبب فى ذلك كما قدمناه أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذى فى أهل العصبية وتفرد الوجهة الى الحق فاذا حصل لهم الاستبصار فى أمرهم لم يقف لهم شئ لان الوجهة واحدة والمطلوب متساو عندهم وهم مستميتون عليه وأهل الدولة التى هم طالبوها وان كانوا أضعافهم فأغراضهم متباينة بالباطل وتخاذلهم لتقية الموت حاصل فلا يقاومونهم وان كانوا أكثر منهم بل يغلبون عليهم ويعاجلهم الفناء بما فيهم من الترف والذل كما قدمناه وهذا كما وقع للعرب صدر الاسلام فى الفتوحات فكانت جيوش المسلمين بالقادسية واليرموك بضعا وثلاثين ألفا فى كل معسكر وجموع فارس مائة وعشرين ألفا بالقادسية وجموع هرقل على ما قاله الواقدى أربعمائة ألف فلم يقف للعرب أحد من الجانبين وهزموهم وغلبوهم على ما بأيديهم واعتبر ذلك أيضا فى دولة لمتونة ودولة الموحدين فقد كان بالمغرب من القبائل كثير ممن يقاومهم فى العدد والعصبية أو يشف عليهم الا أن الاجتماع الدينى ضاعف قوة عصبيتهم بالاستبصار والاستماتة كما قلناه فلم يقف لهم شئ واعتبر ذلك اذا حالت صبغة الدين وفسدت كيف ينتقض الامر ويصير الغلب على نسبة العصبية وحدها دون زيادة الدين فتغلب الدولة من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها أو الزائدة القوة عليها الذين غلبتهم بمضاعفة الدين لقوتها ولو كانوا أكثر عصبية منها وأشد بداوة واعتبر هذا فى الموحدين

مع زناتة لما كانت زناتة أبدى من المصامدة وأشد توحشا وكان للمصامدة الدعوة الدينية باتباع المهدي فلبسوا صبغتها وتضاعفت قوة عصبيتهم بها فغلبوا على زناتة أولا واستتبعوهم وان كانوا من حيث العصبية والبداوة أشد منهم فلما خلوا عن تلك الصبغة الدينية انتقضت عليهم زناتة من كل جانب وغلبوهم على الامر وانتزعوه منهم والله غالب على أمره

٦ (فصل في ان الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم

وهذا لما قدمناه من أن كل أمر تحمل عليه الكافة فلا بد له من العصبية وفي الحديث الصحيح كما مر ما بعث الله نبيا الا في منعة من قومه واذا كان هذا في الانبياء وهم أولى الناس بخرق العوائد فما ظنك بغيرهم أن لا تخرق له العادة في الغلب بغير عصبية وقد وقع هذا لابن قسي شيخ الصوفية وصاحب كتاب خلع النعلين في التصوف ثار بالاندلس داعيا الى الحق وسمي أصحابه بالمرابطين قبيل دعوة المهدي فاستتب له الامر قليلا لشغل لمتونة بما دهمهم من أمر الموحدين ولم تكن هناك عصائب ولا قبائل يدفعونه عن شأنه فلم يلبث حين استولى الموحدون على المغرب أن أذعن لهم ودخل في دعوتهم وتابعهم من معقله بحصن اركش وأمكنهم من ثغره وكان أول داعية لهم بالاندلس وكانت ثورته تسمى ثورة المرابطين ومن هذا الباب أحوال الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء فان كثيرا من المنتحلين للعبادة وسلوك طرق الدين يذهبون الى القيام على أهل الجور من الامراء داعين الى تغيير المنكر والنهي عنه والامر بالمعروف رجاء في الثواب عليه من الله فيكثر أتباعهم والمتشبثون بهم من الغوغاء والدهماء ويعرضون أنفسهم في ذلك للمهالك وأكثرهم يهلكون في تلك السبيل مأزورين غير مأجورين لان الله سبحانه لم يكتب ذلك عليهم وانما أمر به حيث تكون القدرة عليه قال صلى الله عليه وسلم من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وأحوال الملوك والدول راسخة قوية لا يزحزحها ويهدم بناءها الا المطالبة القوية التي من ورائها عصبية القبائل والعشائر كما قدمناه وهكذا كان حال الانبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم الى الله بالعشائر والعصائب وهم المؤيدون من الله بالكون كله لو شاء لكنه انما أجرى الامور على مستقر العادة والله حكيم عليم فاذا ذهب أحد من الناس هذا المذهب وكان فيه محقا قصر به الانفراد عن العصبية فطاح في هوة الهلاك وأما ان كان من المتلبسين بذلك في طلب الرياسة فأجدر أن تعوقه العوائق وتنقطع به المهالك لانه أمر الله لا يتم الا برضاه واعانته والاخلاص

له والنصيحة للمسلمين ولا يشك في ذلك مسلم ولا يرتاب فيه ذو بصيرة وأول ابتداء هذه النزعة في الملة ببغداد حين وقعت فتنة طاهر وقتل الامين وأبطأ المأمون بخراسان عن مقدم العراق ثم عهد لعلي بن موسى الرضا من آل الحسين فكشف بنو العباس عن وجه النكير عليه وتداعوا للقيام وخلع طاعة المأمون والاستبدال منه وبويع ابراهيم بن المهدي فوقع الهرج ببغداد وانطلقت أيدي الزعرة بها من الشطار والحربية على أهل العافية والصون وقطعوا السبيل وامتلأت أيديهم من نهاب الناس وباعوها علانية في الاسواق واستعدى أهلها الحكام فلم يعدوهم فتوافر أهل الدين والصلاح على منع الفساق وكف عاديتهم وقام ببغداد رجل يعرف بخالد الدريوس ودعا الناس الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فاجابه خلق وقاتل أهل الزعارة فغلبهم وأطلق يده فيهم بالضرب والتنكيل ثم قام من بعده رجل آخر من سواد أهل بغداد يعرف بسهل بن سلامة الانصاري ويكنى أبا حاتم وعلق مصحفا في عنقه ودعا الناس الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فاتبعه كافة الناس من بين شريف ووضيع من بني هاشم فمن دونهم ونزل قصر طاهر واتخذ الديوان وطاف ببغداد ومنع كل من أخاف المارة ومنع الخفارة لاولئك الشطار وقال له خالد الدريوس أنا لا أعيب على السلطان فقال له سهل لكني اقاتل كل من خالف الكتاب والسنة كائنا من كان وذلك سنة احدى ومائتين وجهز له ابراهيم بن المهدي العساكر فغلبه وأسره وانحل أمره سريعا وذهب ونجا بنفسه ثم اقتدى بهذا العمل بعد كثير من الموسوسين يأخذون أنفسهم باقامة الحق ولا يعرفون ما يحتاجون اليه في اقامته من العصبية ولا يشعرون بمغبة أمرهم ومآل أحوالهم والذي يحتاج اليه في أمر هؤلاء اما المداواة ان كانوا من أهل الجنون واما التنكيل بالقتل أو الضرب ان أحدثوا هرجا واما اذاعة السخرية منهم وعدهم من جملة الصفاعين وقد ينتسب بعضهم الى الفاطمي المنتظر اما بأنه هو أو بأنه داع له وليس مع ذلك على علم من أمر الفاطمي ولا ما هو وأكثر المنتحلين لمثل هذا تجدهم موسوسين أو مجانين أو ملبسين يطلبون بمثل هذه الدعوة رياسة امتلأت بها جوانحهم وعجزوا عن التوصل اليها بشيء من أسبابها العادية فيحسبون أن هذا من الاسباب البالغة بهم الى ما يؤملونه من ذلك ولا يحسبون ما ينالهم فيه من الهلكة فيسرع اليهم القتل بما يحدثونه من الفتنة وتسوء عاقبة مكرهم وقد كان لاول هذه المائة خرج بالسوس رجل من المتصوفة يدعى التويذري عمد الى مسجد ماسة بساحل البحر هنالك وزعم أنه الفاطمي المنتظر تلبيسا على العامة هنالك بما ملأ قلوبهم من الحدثان بانتظاره

هنالك وان من ذلك المسجد يكون أصل دعوته فتهافتت عليه طوائف من غاشية البربر تهافت الفراش ثم خشي رؤساؤهم اتساع نطاق الفتنة فدس اليه كبير المصامدة يومئذ عمر السكسيوي من قتله في فراشه وكذلك خرج في غمارة أيضا أول هذه المائة رجل يعرف بالعباس وادعى مثل هذه الدعوة واتبع نعيقه الارذلون من سفهاء تلك القبائل وغمارهم وزحف الى بادس من أمصارهم ودخلها عنوة ثم قتل لاربعين يوما من ظهور دعوته ومضى في الهالكين الاولين وأمثال ذلك كثير والغلط فيه من الغفلة عن اعتبار العصبية في مثلها وأما ان كان التلبيس فأحرى أن لا يتم له أمر وأن يبوء باثمه وذلك جزاء الظالمين والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب غيره ولا معبود سواه

٧ (فصل في ان كل دولة لها حصة من الممالك والاوطان لا تزيد عليها)

والسبب في ذلك أن عصابة الدولة وقومها القائمين بها الممهدين لها لا بد من توزيعهم حصصا على الممالك والثغور التي تصير اليهم ويستولون عليها لحمايتها من العدو وامضاء أحكام الدولة فيها من جباية وردع وغير ذلك فاذا توزعت العصائب كلهم على الثغور والممالك فلا بد من نفاد عددهم وقد بلغت الممالك حينئذ الى حد يكون ثغرا للدولة وتخما لوطنها ونطاقا لمركز ملكها فان تكلفت الدولة بعد ذلك زيادة على ما بيدها بقي دون حامية وكان موضعا لانتهاز الفرصة من العدو والمجاور ويعود وبال ذلك على الدولة بما يكون فيه من التجاسر وخرق سياج الهيبة وما كانت العصابة موفورة ولم ينفد عددها في توزيع الحصص على الثغور والنواحي بقي في الدولة قوة على تناول ما وراء الغاية حتى ينفسح نطاقها الى غايته والعلة الطبيعية في ذلك هي قوة العصبية من سائر القوى الطبيعية وكل قوة يصدر عنها فعل من الافعال فشأنها ذلك في فعلها والدولة في مركزها أشد مما يكون في الطرف والنطاق واذا انتهت الى النطاق الذي هو الغاية عجزت وأقصرت عما وراءه شأن الاشعة والانوار اذا انبعثت من المراكز والدوائر المنفسحة على سطح الماء من النقر عليه ثم اذا أدركها الهرم والضعف فانما تأخذ في التناقص من جهة الاطراف ولا يزال المركز محفوظا الى أن يتأذن الله بانقراض الامر جملة فحينئذ يكون انقراض المركز واذا غلب على الدولة من مركزها فلا ينفعها بقاء الاطراف والنطاق بل تضمحل لوقتها فان المركز كالقلب الذي تنبعث منه الروح فاذا غلب القلب وملك انهزم جميع الاطراف وانظر هذا في الدولة الفارسية كان مركزها المدائن فلما غلب المسلمون

على المدائن انقرض أمر فارس أجمع ولم ينفع يزدجرد ما بقي بيده من أطراف ممالكه وبالعكس من ذلك الدولة الرومية بالشام لما كان مركزها القسطنطينية وغلبهم المسلمون بالشام تحيزوا الى مركزهم بالقسطنطينية ولم يضرهم انتزاع الشأم من أيديهم فلم يزل ملكهم متصلا بها الى أن تأذن الله بانقراضه وانظر أيضا شأن العرب أول الاسلام لما كانت عصائبهم موفورة كيف غلبوا على ما جاورهم من الشام والعراق ومصر لاسرع وقت ثم تجاوزوا ذلك الى ما وراءه من السند والحبشة وافريقية والمغرب ثم الى الاندلس فلما افترقوا حصصا على الممالك والثغور ونزلوها حامية ونفد عددهم في تلك التوزيعات أقصروا عن الفتوحات بعد وانتهى أمر الاسلام ولم يتجاوز تلك الحدود ومنها تراجعت الدولة حتى تأذن الله بانقراضها وكذا كان حال الدول من بعد ذلك كل دولة على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة وعند نفاد عددهم بالتوزيع ينقطع لهم الفتح والاستيلاء سنة الله في خلقه

٨ فصل في ان عظم الدولة واتساع نطاقها وطول امدها على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة

والسبب في ذلك أن الملك انما يكون بالعصبية وأهل العصبية هم الحامية الذين ينزلون بممالك الدولة وأقطارها وينقسمون عليها فما كان من الدولة العامة قبيلها وأهل عصابتها أكثر كانت أقوى وأكثر ممالك وأوطانا وكان ملكها أوسع لذلك واعتبر ذلك بالدولة الاسلامية لما ألف الله كلمة العرب على الاسلام وكان عدد المسلمين في غزوة تبوك آخر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم مائة ألف وعشرة آلاف من مضر وقحطان ما بين فارس وراجل الى من أسلم منهم بعد ذلك الى الوفاة فلما توجهوا الطلب ما في أيدي الامم من الملك لم يكن دونه حمى ولا وزر فاستبيح حمى فارس والروم أهل الدولتين العظيمتين في العالم لعهدهم والترك بالمشرق والافرنجة والبربر بالمغرب والقوط بالاندلس وخطوا من الحجاز الى السوس الاقصى ومن اليمن الى الترك بأقصى الشمال واستولوا على الاقاليم السبعة ثم انظر بعد ذلك دولة صنهاجة والموحدين مع العبيديين قبلهم لما كان قبيل كتامة القائمين بدولة العبيديين أكثر من صنهاجة ومن المصامدة كانت دولتهم أعظم فملكوا افريقية والمغرب والشام ومصر والحجاز ثم انظر بعد ذلك دولة زناتة لما كان عددهم أقل من المصامدة قصر ملكهم عن ملك الموحدين لقصور عددهم عن عدد المصامدة منذ أول أمرهم ثم اعتبر بعد ذلك حال الدولتين لهذا العهد لزناتة بني مرين وبني عبد الواد لما كان عدد بني مرين لاول ملكهم أكثر من بني عبد الواد كانت دولتهم أقوى منها وأوسع نطاقا وكان لهم عليهم الغلب مرة بعد أخرى * يقال ان

عدد بني مرين لأول ملكهم كان ثلاثة آلاف وان بني عبد الواد كانوا ألفا الا أن الدولة بالرفه وكثرة التابع كثرت من أعدادهم وعلى هذه النسبة في اعداد المتغلبين لأول الملك يكون اتساع الدولة وقوتها وأما طول أمدها أيضا فعلى تلك النسبة لان عمر الحادث من قوة مزاجه ومزاج الدول انما هو بالعصبية فاذا كانت العصبية قوية كان المزاج تابعا لها وكان أمد العمر طويلا والعصبية انما هي بكثرة العدد ووفوره كما قلناه والسبب الصحيح في ذلك أن النقص انما يبدو في الدولة من الاطراف فاذا كانت ممالكها كثيرة كانت أطرافها بعيدة عن مركزها وكثيرة وكل نقص يقع فلا بد له من زمن فتكثر أزمان النقص لكثرة الممالك واختصاص كل واحد منها بنقص وزمان فيكون أمدها طويلا وانظر ذلك في دولة العرب الاسلامية كيف كان أمدها أطول الدول لا بنو العباس أهل المركز ولا بنو أمية المستبدون بالاندلس ولم ينتقض أمر جميعهم الا بعد الاربعمائة من الهجرة ودولة العبيديين كان أمدها قريبا من مائتين وثمانين سنة ودولة صنهاجة دونهم من لدن تقليد معز الدولة أمر افريقية لبلكين بن زيري في سنة ثمان وخمسين وثلثمائة الى حين استيلاء الموحدين على القلعة وبجاية سنة سبع وخمسين وخمسمائة ودولة الموحدين لهذا العهد تناهز مائتين وسبعين سنة وهكذا نسب الدول في أعمارها على نسبة القائمين بها سنة الله التي قد خلت في عباده

٩ (فصل في ان الاوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل ان تستحكم فيها)

والسبب في ذلك اختلاف الآراء والاهواء وان وراء كل رأي منها وهوى عصبية تمانع دونها فيكثر الانتقاض على الدولة والخروج عليها في كل وقت وان كانت ذات عصبية لان كل عصبية ممن تحت يدها تظن في نفسها منعة وقوة وانظر ما وقع من ذلك بافريقية والمغرب منذ أول الاسلام ولهذا العهد فان ساكن هذه الاوطان من البربر أهل قبائل وعصبيات فلم يغن فيهم الغلب الاول الذي كان لابن ابي سرح عليهم وعلى الافرنجة شيأ وعاودوا بعد ذلك الثورة والردة مرة بعد أخرى وعظم الاثخان من المسلمين فيهم ولما استقر الدين عندهم عادوا الى الثورة والخروج والاخذ بدين الخوارج مرات عديدة قال ابن أبي زيد ارتدت البرابرة بالمغرب اثنتي عشرة مرة ولم تستقر كلمة الاسلام فيهم الا لعهد ولاية موسى بن نصير فما بعده وهذا معنى ما ينقل عن عمران افريقية مفرقة لقلوب أهلها اشارة الى ما فيها من كثرة العصائب والقبائل الحاملة لهم على عدم الاذعان والانقياد ولم يكن العراق لذلك العهد بتلك الصفة ولا الشأم انما كانت حاميتها من فارس والروم والكافة دهماء أهل مدن وأمصار

فلما غلبهم المسلمون على الامر وانتزعوه من أيديهم لم يبق فيها ممانع ولا مشاق والبربر قبائلهم بالمغرب أكثر من أن تحصى وكلهم بادية وأهل عصائب وعشائر وكلما هلكت قبيلة عادت الاخرى مكانها والى دينها من الخلاف والردة فطال أمر العرب في تمهيد الدولة بوطن افريقية والمغرب وكذلك كان الامر بالشأم لعهد بني اسرائيل كان فيه من قبائل فلسطين وكنعان وبني عيصو وبني مدين وبني لوط والروم ويونان والعمالقة واكريكش والنبط من جانب الجزيرة والموصل ما لا يحصى كثرة وتنوعا في العصبية فصعب على بني اسرائيل تمهيد دولتهم ورسوخ أمرهم واضطرب عليهم الملك مرة بعد أخرى وسرى ذلك الخلاف اليهم فاختلفوا على سلطانهم وخرجوا عليه ولم يكن لهم ملك موطد سائر أيامهم الى أن غلبهم الفرس ثم يونان ثم الروم آخر أمرهم عند الجلاء والله غالب على أمره و بعكس هذا أيضا الاوطان الخالية من العصبيات يسهل تمهيد الدولة فيها ويكون سلطانها وازعا لقلة الهرج والانتقاض ولا تحتاج لدولة فيها الى كثير من العصبية كما هو الشأن في مصر والشأم لهذا العهد اذ هي خلو من القبائل والعصبيات كأن لم يكن الشأم معدنا لهم كما قلناه فملك مصر في غاية الدعة والرسوخ لقلة الخوارج وأهل العصائب انما هو سلطان ورعية ودولتها قائمة بملوك الترك وعصائبهم يغلبون على الامر واحدا بعد واحد وينتقل الامر فيهم من منبت الى منبت والخلافة مسماة للعباسي من أعقاب الخلفاء ببغداد وكذا شأن الاندلس لهذا العهد فان عصبية ابن الاحمر سلطانها لم تكن لاول دولتهم بقوية ولا كانت كرات انما يكون أهل بيت من بيوت العرب أهل الدولة الاموية بقوا من ذلك القلة وذلك أن أهل الاندلس لما انقرضت الدولة العربية منه وملكهم البربر من لمتونة والموحدين سئموا ملكتهم وثقلت وطأتهم عليهم فأشربت القلوب بغضاهم وأمكن الموحدون والسادة في آخر الدولة كثيرا من الحصون للطاغية في سبيل الاستظهار به على شأنهم من تملك الحضرة مراكش فاجتمع من كان بقي بها من أهل العصبية القديمة معادن من بيوت العرب تجافى بهم المنبت عن الحاضرة والامصار بعض الشيء ورسخوا في العصبية مثل ابن هود وابن الاحمر وابن مردنيش وأمثالهم فقام ابن هود بالامر ودعا بدعوة الخلافة العباسية بالمشرق وحمل الناس على الخروج على الموحدين فنبذوا اليهم العهد وأخرجوهم واستقل ابن هود بالامر بالاندلس ثم سما ابن الاحمر للامر وخالف ابن هود في دعوته فدعا هؤلاء لابن أبي حفص صاحب افريقية من الموحدين وقام بالامر وتناوله بعصابة قليلة من قرابته كانوا يسمون الرؤساء ولم يحتج لاكثر منهم لقلة العصائب بالاندلس وأنها سلطان ورعية ثم استظهر بعد ذلك على الطاغية بمن يجيز

اليه الجور من أعياص زناتة فصار وامعه عصبة على الثاغرة والرباط ثم سما صاحب المغرب من ملوك زناتة أمل فى الاستيلاء على الاندلس فصار أولئك الاعياص عصابة ابن الاحمر على الامتناع منه الى أن تأثل أمره ورسخ وألفته النفوس وعجز الناس عن مطالبته وورثه أعقابه لهذا العهد فلا تظن أنه بغير عصابة فليس كذلك وقد كان مبدؤه بعصابة الا أنها قليلة وعلى قدر الحاجة فان قطر الاندلس لقلة العصائب والقبائل فيه يغنى عن كثرة العصبية فى التغلب عليهم والله غنى عن العالمين

١٠ (فصل في ان طبيعة الملك والانفراد بالمجد)

وذلك أن الملك كما قدمناه انما هو بالعصبية والعصبية متألفة من عصبات كثيرة تكون واحدة منها أقوى من الاخرى كلها فتغلبها وتستولى عليها حتى تصيرها جميعا فى ضمنها وبذلك يكون الاجتماع والغلب على الناس والدول وسره أن العصبية العامة للقبيل هى مثل المزاج للمتكون والمزاج انما يكون عن العناصر وقد تبين فى موضعه ان العناصر اذا اجتمعت متكافئة فلا يقع منها مزاج أصلا بل لا بد أن تكون واحدة منها هى الغالبة على الكل حتى تجمعها وتؤلفها وتصيرها عصبية واحدة شاملة لجميع العصائب وهى موجودة فى ضمنها وتلك العصبية الكبرى انما تكون لقوم أهل بيت ورياسة فيهم ولا بد أن يكون واحد منهم رئيسا لهم غالبا عليهم فيتعين رئيسا للعصبيات كلها لغلب منبته لجميعها واذا تعين له ذلك من الطبيعة الحيوانية خلق الكبر والانفة فيأنف حينئذ من المساهمة والمشاركة فى استتباعهم والتحكم فيهم ويجئ خلق التأله الذى فى طباع البشر مع ما تقتضيه السياسة من انفراد الحاكم لفساد الكل باختلاف الحكام لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فتجدع حينئذ أنوف العصبيات وتفلج شكائمهم عن أن يسموا الى مشاركته فى التحكم وتقرع عصبيتهم عن ذلك وينفرد به ما استطاع حتى لا يترك لاحد منهم فى الامر لا ناقة ولا جملا فينفرد بذلك المجد بكليته ويدفعهم عن مساهمته وقد يتم ذلك للاول من ملوك الدولة وقد لا يتم الا للثانى والثالث على قدر ممانعة العصبيات وقوتها الا أنه أمر لا بد منه فى الدول سنة الله التى قد خلت فى عباده والله تعالى أعلم

١١ (فصل في ان من طبيعة الملك الترف)

وذلك أن الامة اذا تغلبت وملكت ما بأيدى أهل الملك قبلها كثر رياشها ونعمتها فتكثر عوائدهم ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته الى نوافله ورقته وزينته ويذهبون الى اتباع من قبلهم فى عوائدهم وأحوالهم وتصير لتلك النوافل عوائد

ضرورية في تحصيلها وينزعون مع ذلك الى رقة الاحوال في المطاعم والملابس والفرش والآنية ويتفاخرون في ذلك ويفاخرون فيه غيرهم من الامم في أكل الطيب ولبس الانيق وركوب الفاره ويناغي خلفهم في ذلك سلفهم الى آخر الدولة وعلى قدر ملكهم يكون حظهم من ذلك وترفهم فيه الى أن يبلغوا من ذلك الغاية التي للدولة أن تبلغها بحسب قوتها وعوائد من قبلها سنة الله في خلقه والله تعالى أعلم

١٣ – فصل في ان طبيعة الملك الدعة والسكون .

وذلك أن الامة لا يحصل لها الملك الا بالمطالبة والمطالبة غايتها الغلب والملك واذا حصلت الغاية انقضى السعي اليها (قال الشاعر)

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها * فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

فاذا حصل الملك أقصروا عن المتاعب التي كانوا يتكلفونها في طلبه وآثروا الراحة والسكون والدعة ورجعوا الى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمساكن والملابس فيبنون القصور ويجرون المياه ويغرسون الرياض ويستمتعون بأحوال الدنيا ويؤثرون الراحة على المتاعب ويتأنقون في أحوال الملابس والمطاعم والآنية والفرش ما استطاعوا ويألفون ذلك ويورثونه من بعدهم من أجيالهم ولا يزال ذلك يتزايد فيهم الى أن يتأذن الله بأمره وهو خير الحاكمين والله تعالى أعلم

١٢ – فصل في انه اذا استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة اقبلت الدولة على الهرم .

وبيانه من وجوه * الاول أنها تقتضي الانفراد بالمجد كما قلناه ومهما كان المجد مشتركا بين العصابة وكان سعيهم له واحدا كانت هممهم في التغلب على الغير والذب عن الحوزة اسوة في طموحها وقوة شكائمها ومرماهم الى العز جميع وهم يستطيبون الموت في بناء مجدهم ويؤثرون الهلكة على فساده واذا انفرد الواحد منهم بالمجد قرع عصبيتهم وكبح من أعنتهم واستأثر بالاموال دونهم فتكاسلوا عن الغزو وفشل ريحهم ورئموا المذلة والاستعباد ثم ربي الجيل الثاني منهم على ذلك يحسبون ما ينالهم من العطاء أجرا من السلطان لهم على الحماية والمعونة لا يجري في عقولهم سواه وقل أن يستأجر أحد نفسه على الموت فيصير ذلك وهنا في الدولة وخضدا من الشوكة وتقبل به على مناحي الضعف والهرم لفساد العصبية بذهاب البأس من أهلها * الوجه الثاني أن طبيعة الملك تقتضي الترف كما قدمناه فتكثر عوائدهم وتزيد نفقاتهم على اعطياتهم ولا يفي دخلهم بخرجهم فالفقير منهم يهلك والمترف يستغرق عطاءه بترفه ثم

يزداد ذلك في أجيالهم المتأخرة الى أن يقصر العطاء كله عن الترف وعوائده وتمسهم الحاجة وتطالبهم ملوكهم بحصر نفقاتهم في الغزو والحروب فلا يجدون وليجة عنها فيوقعون بهم العقوبات وينتزعون ما في أيدي الكثير منهم يستأثرون به عليهم أو يؤثرون به أبناءهم وصنائع دولتهم فيضعفونهم لذلك عن اقامة أحوالهم ويضعف صاحب الدولة بضعفهم وأيضا اذا كثر الترف في الدولة وصار عطاؤهم مقصرا عن حاجاتهم ونفقاتهم احتاج صاحب الدولة الذي هو السلطان الى الزيادة في أعطياتهم حتى يسد خللهم ويزيح عللهم والجباية مقدارها معلوم ولا تزيد ولا تنقص وان زادت بما يستحدث من المكوس فيصير مقدارها بعد الزيادة محدودا فاذا وزعت الجباية على الاعطيات وقد حدثت فيها الزيادة لكل واحد بما حدث من ترفهم وكثرة نفقاتهم نقص عدد الحامية حينئذ عما كان قبل زيادة الاعطيات ثم يعظم الترف وتكثر مقادير الاعطيات لذلك فينقص عدد الحامية وثالثا ورابعا الى أن يعود العسكر الى أقل الاعداد فتضعف الحماية لذلك وتسقط قوة الدولة ويتجاسر عليها من يجاورها من الدول أو من هو تحت يديها من القبائل والعصائب ويأذن الله فيها بالفناء الذي كتبه على خليقته وأيضا فالترف مفسد للخلق بما يحصل في النفس من ألوان الشر والسفسفة وعوائدها كما يأتي في فصل الحضارة فتذهب منهم خلال الخير التي كانت علامة على الملك ودليلا عليه ويتصفون بما يناقضها من خلال الشر فيكون علامة على الادبار والانقراض بما جعل الله من ذلك في خليقته وتأخذ الدولة مبادي العطب وتتضعضع أحوالها وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم الى أن يقضى عليها *

الوجه الثالث أن طبيعة الملك تقتضي الدعة كما ذكرناه واذا اتخذوا الدعة والراحة مألفا وخلقا صار لهم ذلك طبيعة وجبلة شأن العوائد كلها وايلافها فتربى أجيالهم الحادثة في غضارة العيش ومهاد الترف والدعة وينقلب خلق التوحش وينسون عوائد البداوة التي كان بها الملك من شدة البأس وتعود الافتراس وركوب البيداء وهداية القفر فلا يفرق بينهم وبين السوقة من الحضر الا في الثقافة والشارة فتضعف حمايتهم ويذهب بأسهم وتنخضد شوكتهم ويعود وبال ذلك على الدولة بما تلبس به من ثياب الهرم ثم لا يزالون يتلونون بعوائد الترف والحضارة والسكون والدعة ورقة الحاشية في جميع أحوالهم وينغمسون فيها وهم في ذلك يبعدون عن البداوة والخشونة وينسلخون عنها شيأ فشيأ وينسون خلق البسالة التي كانت بها الحماية والمدافعة حتى يعودوا عيالا على حامية أخرى ان كانت لهم واعتبر ذلك في الدول التي أخبارها في الصحف لديك تجد ما قلته لك من ذلك صحيحا من غير ريبة وربما يحدث في الدولة اذا

طرقها هذا الهرم بالترف والراحة أن يتخير صاحب الدولة أنصارا وشيعة من غير جلدتهم ممن تعوّد الخشونة فيتخذهم جندا يكون أصبر على الحرب وأقدر على معاناة الشدائد من الجوع والشظف ويكون ذلك دواء للدولة من الهرم الذى عساه أن يطرقها حتى يأذن الله فيها بأمره وهذا كما وقع فى دولة الترك بالمشرق فان غالب جندها الموالى من الترك فتتخير ملوكهم من أولئك المماليك المجلوبين اليهم فرسانا وجندا فيكونون أجرأ على الحرب وأصبر على الشظف من أبناء المماليك الذين كانوا قبلهم وربوا فى ماء النعيم والسلطان وظله وكذلك فى دولة الموحدين بافريقية فان صاحبها كثيرا ما يتخذ أجناده من زناتة والعرب ويستكثر منهم ويترك أهل الدولة المتعودين للترف فتستجد الدولة بذلك عمرا آخر سالما من الهرم والله وارث الارض ومن عليها

١٤ (فصل في ان الدولة لها اعمار طبيعية كما للاشخاص)

اعلم أن العمر الطبيعى للاشخاص على مازعم الاطباء والمنجمون مائة وعشرون سنة وهى سنو القمر الكبرى عند المنجمين ويختلف العمر فى كل جيل بحسب القرانات فيزيد عن هذا وينقص منه فتكون أعمار بعض أهل القرانات مائة تامة وبعضهم خمسين أو ثمانين أو سبعين على ما تقتضيه أدلة القرانات عند الناظرين فيها وأعمار هذه الملة ما بين الستين الى السبعين كما فى الحديث ولا يزيد على العمر الطبيعى الذى هو مائة وعشرون الا فى الصور النادرة وعلى الاوضاع الغريبة من الفلك كما وقع فى شأن نوح عليه السلام وقليل من قوم عاد وثمود وأما أعمار الدول أيضا وان كانت تختلف بحسب القرانات الا أن الدولة فى الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط فيكون أربعين الذى هو انتهاء النمو والنشو الى غايته قال تعالى حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ولهذا قلنا ان عمر الشخص الواحد هو عمر الجيل ويؤيده ما ذكرناه فى حكمة التيه الذى وقع فى بنى اسرائيل وأن المقصود بالاربعين فيه فناء الجيل الاحياء ونشأة جيل آخر لم يعهدوا الذل ولا عرفوه فدل على اعتبار الاربعين فى عمر الجيل الذى هو عمر الشخص الواحد وانما قلنا ان عمر الدولة لا يعدو فى الغالب ثلاثة أجيال لان الجيل الاول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك فى المجد فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم فحدهم مرهف وجانبهم مرهوب والناس لهم مغلوبون والجيل الثانى تحول حالهم بالملك والترفه من البداوة الى الحضارة ومن

الشظف الى الترف والخصب ومن الاشتراك فى المجد الى انفراد الواحد به وكسل الباقين عن السعى فيه ومن عز الاستطالة الى ذل الاستكانة فتنكسر سورة العصبية بعض الشىء وتؤنس منهم المهانة والخضوع ويبقى لهم الكثير من ذلك بما أدركوا الجيل الاول وباشروا أحوالهم وشاهدوا من اعتزازهم وسعيهم الى المجد ومراميهم فى المدافعة والحماية فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية وان ذهب منه ما ذهب ويكونون على رجاء من مراجعة الاحوال التى كانت للجيل الاول أو على ظن من وجودها فيهم وأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كان لم تكن ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر ويبلغ فيهم الترف غايته بما تبنكوه من النعيم وغضارة العيش فيصيرون عيالا على الدولة ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم وتسقط العصبية بالجملة وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة ويلبسون على الناس فى الشارة والزى وركوب الخيل وحسن الثقافة يموهون بها وهم فى الاكثر أجبن من النسوان على ظهورها فاذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعته فيحتاج صاحب الدولة حينئذ الى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة ويستكثر بالموالى ويصطنع من يغنى عن الدولة بعض الغناء حتى يتأذن الله بانقراضها فتذهب الدولة بما حملت فهذه كما تراه ثلاثة أجيال فيها يكون هرم الدولة وتخلفها ولهذا كان انقراض الحسب فى الجيل الرابع كما مر فى أن المجد والحسب انما هو فى أربعة آباء وقد أتيناك فيه ببرهان طبيعى كاف ظاهر مبنى على ما مهدناه قبل من المقدمات فتأمله فلن تعدو وجه الحق ان كنت من أهل الانصاف وهذه الاجيال الثلاثة عمرها مائة وعشرون سنة على ما مر ولا تعدو الدول فى الغالب هذا العمر بتقريب قبله أو بعده الا ان عرض لها عارض آخر من فقدان المطالب فيكون الهرم حاصلا مستوليا والطالب لم يحضرها ولو قد جاء الطالب لما وجد مدافعا فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فهذا العمر للدولة بمثابة عمر الشخص من التزيد الى سن الوقوف ثم الى سن الرجوع ولهذا يجرى على ألسنة الناس فى المشهور أن عمر الدولة مائة سنة وهذا معناه فاعتبره واتخذ منه قانونا يصحح لك عدد الآباء فى عمود النسب الذى تريده من قبل معرفة السنين الماضية اذا كنت قد استربت فى عددهم وكانت السنون الماضية منذ أولهم محصلة لديك فعد لكل مائة من السنين ثلاثة من الآباء فان نفدت على هذا القياس مع نفود عددهم فهو صحيح وان نقصت عنه بجيل فقد غلط عددهم بزيادة واحد فى عمود النسب وان زادت بمثله فقد سقط واحد وكذلك تأخذ عدد السنين من عددهم اذا كان محصلا لديك فتأمله تجده فى الغالب صحيحا

والله يقدر الليل والنهار

١٥ (فصل في انتقال الدولة من البداوة الى الحضارة)

اعلم أن هذه الاطوار طبيعية للدول فان الغلب الذى يكون به الملك انما هو بالعصبية وبما يتبعها من شدة البأس وتعوّد الافتراس ولا يكون ذلك غالبا الا مع البداوة فطور الدولة من أولها بداوة ثم اذا حصل الملك تبعه الرفه واتساع الاحوال والحضارة انما هى تفنن فى الترف واحكام الصنائع المستعملة فى وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمبانى والفرش والابنية وسائر عوائد المنزل وأحواله فلكل واحد منها صنائع فى استجادته والتأنق فيه تختص به ويتلو بعضها بعضا وتتكثر باختلاف ما تنزع اليه النفوس من الشهوات والملاذ والتنعم بأحوال الترف وما تتلون به من العوائد فصار طور الحضارة فى الملك يتبع طور البداوة ضرورة لضرورة تبعية الرفه للملك وأهل الدول أبدا يقلدون فى طور الحضارة وأحوالها للدولة السابقة قبلهم فأحوالهم يشاهدون ومنهم فى الغالب يأخذون ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح وملكوا فارس والروم واستخدموا بناتهم وأبناءهم ولم يكونوا لذلك العهد فى شئ من الحضارة فقد حكى أنه قدم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رقاعا وعثروا على الكافور فى خزائن كسرى فاستعملوه فى عجينهم ملحا وأمثال ذلك فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم واستعملوهم فى مهنهم وحاجات منازلهم واختاروا منهم المهرة فى أمثال ذلك والقومة عليه أفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن فيه مع ما حصل لهم من اتساع العيش والتفنن فى أحواله فبلغوا الغاية فى ذلك وتطوروا بطور الحضارة والترف فى الاحوال واستجادة المطاعم والمشارب والملابس والمبانى والاسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخرثى وكذلك أحوالهم فى أيام المباهاة والولائم وليالى الاعراس فأتوا من ذلك وراء الغاية وانظر ما نقله المسعودى والطبرى وغيرهما فى اعراس المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل وما بذل أبوها لحاشية المامون حين وافاه فى خطبتها الى داره بفم الصلح وركب اليها فى السفين وما أنفق فى املاكها وما نحلها المامون وأنفق فى عرسها تقف من ذلك على العجب فمنه أن الحسن بن سهل نثر يوم الاملاك فى الصنيع الذى حضره حاشية المأمون فنثر على الطبقة الاولى منهم بنادق المسك ملتوتة على الرقاع بالضياع والعقار مسوّغة لمن حصلت فى يده يقع لكل واحد منهم ما أداه اليه الاتفاق والبخت وفرق على الطبقة الثانية بدر الدنانير فى كل بدرة عشرة آلاف وفرق على الطبقة الثالثة بدر الدراهم

كذلك بعد أن أنفق فى مقامة المأمون بداره أضعاف ذلك ومنه أن المأمون أعطاها فى مهرها ليلة زفافها ألف حصاة من الياقوت وأوقد شموع العنبر فى كل واحدة مائة من وهو رطل وثلثان وبسط لها فرشا كان الحصير منها منسوجا بالذهب مكللا بالدر والياقوت وقال المأمون حين رآه قاتل الله أبانواس كأنه أبصر هذا حيث يقول فى صفة الخمر

كأن صغرى وكبرى من فواقعها * حصباء در على أرض من الذهب

وأعد بدار الطبخ من الحطب لليلة الوليمة نقل مائة وأربعين بغلا مدة عام كامل ثلاث مرات فى كل يوم وفنى الحطب لليلتين وأوقدوا الجريد يصبون عليه الزيت وأرسل الى النواتية باحضار السفن لاجازة الخواص من الناس بدجلة من بغداد الى قصور الملك بمدينة المأمون لحضور الوليمة فكانت الحراقات المعدة لذلك ثلاثين ألفا أجازوا الناس فيها أخريات نهارهم وكثير من هذا وأمثاله وكذلك عرس المأمون بن ذى النون بطليطلة نقله ابن بسام فى كتاب الذخيرة وابن حيان بعد أن كانوا كلهم فى الطور الاول من البداوة عاجزين عن ذلك جملة لفقدان أسبابه والقائمين على صنائعه فى غضاضتهم وسذاجتهم يذكر أن الحجاج أولم فى اختتان بعض ولده فاستحضر بعض الدهاقين يسأله عن ولائم الفرس وقال أخبرنى بأعظم صنيع شهدته فقال له نعم أيها الامير شهدت بعض مرازبة كسرى وقد صنع لاهل فارس صنيعا أحضر فيه صحاف الذهب على أخونة الفضة أربعا على كل واحد وتحمله أربع وصائف ويجلس عليه أربعة من الناس فاذا طعموا اتبعوا أربعتهم المائدة بصحافها ووصائفها فقال الحجاج يا غلام انحر الجزر وأطعم الناس وعلم أنه لا يستقل بهذه الابهة وكذلك كان * ومن هذا الباب أعطية بنى أمية وجوائزهم فانما كان أكثرها الابل أخذا بمذاهب العرب وبداوتهم ثم كانت الجوائز فى دولة بنى العباس والعبيديين من بعدهم ما علمت من أحمال المال وتخوت الثياب واعداد الخيل بمراكبها وهكذا كان شأن كتامة مع الاغالبة بافريقية وكذا بنى طفج بمصر وشأن لمتونة مع ملوك الطوائف بالاندلس والموحدين كذلك وشأن زناتة مع الموحدين وهلم جرا تنتقل الحضارة من الدول السالفة الى الدول الخالفة فانتقلت حضارة الفرس للعرب بنى أمية وبنى العباس وانتقلت حضارة بنى أمية بالاندلس الى ملوك المغرب من الموحدين وزناتة لهذا العهد وانتقلت حضارة بنى العباس الى الديلم ثم الى الترك ثم الى السلجوقية ثم الى الترك المماليك بمصر والتتر بالعراقين وعلى قدر عظم الدولة يكون شأنها فى الحضارة اذ أمور الحضارة من توابع الترف والترف من توابع الثروة والنعمة والثروة والنعمة

من توابع الملك ومقدار ما يستولى عليه أهل الدولة فعلى نسبة الملك يكون ذلك كله فاعتبره وتفهمه وتأمله تجده صحيحا في العمران والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

١٦ (فصل في ان الترف يزيد الدولة في اولها قوة الى قوتها)

والسبب في ذلك أن القبيل اذا حصل لهم الملك والترف كثر التناسل والولد والعمومية فكثرت العصابة واستكثروا أيضا من الموالى والصنائع وربيت أجيالهم في جو ذلك النعيم والرفه فازدادوا بهم عددا الى عددهم وقوة الى قوتهم بسبب كثرة العصائب حينئذ بكثرة العدد فاذا ذهب الجيل الاول والثاني وأخذت الدولة في الهرم لم تستقل أولئك الصنائع والموالى بأنفسهم في تأسيس الدولة وتمهيد ملكها لانهم ليس لهم من الامر شئ انما كانوا عيالا على أهلها ومعونة لها فاذا ذهب الاصل لم يستقل الفرع بالرسوخ فيذهب ويتلاشى ولا تبقى الدولة على حالها من القوة واعتبر هذا بما وقع في الدولة العربية في الاسلام كان عدد العرب كما قلناه لعهد النبوة والخلافة مائة وخمسين ألفا وما يقاربها من مضر وقحطان ولما بلغ الترف مبالغه في الدولة وتوفر نموهم بتوفر النعمة واستكثر الخلفاء من الموالى والصنائع بلغ ذلك العدد الى أضعافه يقال ان المعتصم نازل عمورية لما افتتحها في تسعمائة ألف ولا يبعد مثل هذا العدد أن يكون صحيحا اذا اعتبرت حاميتهم في الثغور الدانية والقاصية شرقا وغربا الى الجند الحاملين سرير الملك والموالى والمصطنعين وقال المسعودي أحصى بنو العباس بن عبد المطلب خاصة أيام المأمون للانفاق عليهم فكانوا ثلاثين ألفا بين ذكران واناث فانظر مبالغ هذا العدد لاقل من مائتى سنة واعلم أن سببه الرفه والنعيم الذى حصل للدولة وربى فيه أجيالهم والا فعدد العرب لاول الفتح لم يبلغ هذا ولا قريبا منه والله الخلاق العليم

١٧ (فصل في اطوار الدولة واختلاف احوالها وخلق اهلها باختلاف الاطوار)

(اعلم) أن الدولة تنتقل في أطوار مختلفة وحالات متجددة ويكتسب القائمون بها في كل طور خلقا من أحوال ذلك الطور لا يكون مثله في الطور الآخر لان الخلق تابع بالطبع لمزاج الحال الذى هو فيه وحالات الدولة وأطوارها لا تعدو في الغالب خمسة أطوار الطور الاول طور الظفر بالبغية وغلب المدافع والممانع والاستيلاء على الملك وانتزاعه من أيدى الدولة السالفة قبلها فيكون صاحب الدولة في هذا الطور اسوة قومه في اكتساب المجد وجباية المال والمدافعة عن الحوزة والحماية لا ينفرد دونهم

بشيء لان ذلك هو مقتضى العصبية التى وقع بها الغلب وهى لم تزل بعد بحالها الطور الثانى طور الاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة ويكون صاحب الدولة فى هذا الطور معنيا باصطناع الرجال واتخاذ الموالى والصنائع والاستكثار من ذلك لجدع أنوف أهل عصبيته وعشيرته المقاسمين له فى نسبه الضاربين فى الملك بمثل سهمه فهو يدافعهم عن الامر ويصدهم عن موارده ويردهم على أعقابهم أن يخلصوا اليه حتى يقر الامر فى نصابه ويفرد أهل بيته بما يبنى من مجده فيعانى من مدافعتهم ومغالبتهم مثل ما عاناه الاولون فى طلب الامر أو أشد لان الاولين دافعوا الاجانب فكان ظهراؤهم على مدافعتهم أهل العصبية بأجمعهم وهذا يدافع الاقارب لا يظاهره على مدافعتهم الا الاقل من الاباعد فيركب صعبا من الامر الطور الثالث طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك مما تنزع طباع البشر اليه من تحصيل المال وتخليد الآثار وبعد الصيت فيستفرغ وسعه فى الجباية وضبط الدخل والخرج واحصاء النفقات والقصد فيها وتشييد المبانى الحافلة والمصانع العظيمة والامصار المتسعة والهياكل المرتفعة واجازة الوفود من أشراف الامم ووجوه القبائل وبث المعروف فى أهله هذا مع التوسعة على صنائعه وحاشيته فى أحوالهم بالمال والجاه واعتراض جنوده وادرار أرزاقهم وانصافهم فى أعطياتهم لكل هلال حتى يظهر أثر ذلك عليهم فى ملابسهم وشكتهم وشاراتهم يوم الزينة فيباهى بهم الدول المسالمة ويرهب الدول المحاربة وهذا الطور آخر أطوار الاستبداد من أصحاب الدولة لانهم فى هذه الاطوار كلها مستقلون بآرائهم بانون لعزهم موضحون الطرق لمن بعدهم الطور الرابع طور القنوع والمسالمة ويكون صاحب الدولة فى هذا قانعا بما بنى أولوه سلما لانظاره من الملوك وأقتاله مقلدا للماضين من سلفه فيتبع آثارهم حذو النعل بالنعل ويقتفى طرقهم بأحسن مناهج الاقتداء ويرى أن فى الخروج عن تقليدهم فساد أمره وأنهم أبصر بما بنوا من مجده الطور الخامس طور الاسراف والتبذير ويكون صاحب الدولة فى هذا الطور متلفا لما جمع أولوه فى سبيل الشهوات والملاذ والكرم على بطانته وفى مجالسه واصطناع أخدان السوء وخضراء الدمن وتقليدهم عظيمات الامور التى لا يستقلون بحملها ولا يعرفون ما يأتون ويذرون منها مستفسدا لكبار الاولياء من قومه وصنائع سلفه حتى يضطغنوا عليه ويتخاذلوا عن نصرته مضيعا من جنده بما أنفق من أعطياتهم فى شهواته وحجب عنهم وجه مباشرته وتفقده فيكون مخربا لما كان سلفه يؤسسون وهادما لما كانوا يبنون وفى هذا الطور تحصل فى الدولة طبيعة الهرم ويستولى عليها المرض المزمن

الذى لا تكاد تخلص منه ولا يكون لها معه برء الى أن تنقرض كما نبينه فى الاحوال التى نسرد ها والله خير الوارثين

١٨ (فصل في ان آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في اصلها)

والسبب فى ذلك أن الآثار انما تحدث عن القوة التى بها كانت أولا وعلى قدرها يكون الاثر فمن ذلك مبانى الدولة وهياكلها العظيمة فانما تكون على نسبة قوة الدولة فى أصلها لانها لا تتم الا بكثرة الفعلة واجتماع الايدى على العمل والتعاون فيه فاذا كانت الدولة عظيمة فسيحة الجوانب كثيرة الممالك والرعايا كان الفعلة كثيرين جدا وحشروا من آفاق الدولة وأقطارها فتم العمل على أعظم هياكله ألا ترى الى مصانع قوم عاد وثمود وما قصه القرآن عنهما وانظر بالمشاهدة ايوان كسرى وما اقتدر فيه الفرس حتى انه عزم الرشيد على هدمه وتخريبه فتكاءد عنه وشرع فيه ثم أدركه العجز وقصة استشارته ليحيى بن خالد فى شأنه معروفة فانظر كيف تقتدر دولة على بناء لا تستطيع أخرى على هدمه مع بون ما بين الهدم والبناء فى السهولة تعرف من ذلك بون ما بين الدولتين وانظر الى بلاط الوليد بدمشق وجامع بنى أمية بقرطبة والقنطرة التى على واديها وكذلك بناء الحنايا لجلب الماء الى قرطاجنة فى القناة الراكبة عليها وآثار شرشال بالمغرب والاهرام بمصر وكثير من هذه الآثار الماثلة للعيان تعلم منها اختلاف الدول فى القوة والضعف واعلم أن تلك الافعال للاقدمين انما كانت بالهندام واجتماع الفعلة وكثرة الايدى عليها فبذلك شيدت تلك الهياكل والمصانع ولا تتوهم ما تتوهمه العامة ان ذلك لعظم أجسام الاقدمين عن أجسامنا فى أطرافها وأقطارها فليس بين البشر فى ذلك كبير بون كما تجد بين الهياكل والآثار ولقد ولع القصاص بذلك وتغالوا فيه وسطروا عن عاد وثمود والعمالقة فى ذلك أخبارا عريقة فى الكذب من أغربها ما يحكون عن عوج بن عناق رجل من العمالقة الذين قاتلهم بنو اسرائيل فى الشام زعموا أنه كان لطوله يتناول السمك من البحر ويشويه الى الشمس ويزيدون الى جهلهم بأحوال البشر الجهل بأحوال الكواكب لما اعتقدوا أن للشمس حرارة وأنها شديدة فيما قرب منها ولا يعلمون أن الحر هو الضوء وأن الضوء فيما قرب من الارض أكثر لانعكاس الاشعة من سطح الارض بمقابلة الاضواء فتتضاعف الحرارة هنا لاجل ذلك واذا تجاوزت مطارح الاشعة المنعكسة فلا حر هنالك بل يكون فيه البرد حيث مجارى السحاب وان الشمس فى نفسها لا حارة ولا باردة وانما هو جسم بسيط مضيء لا مزاج له وكذلك عوج بن عناق هو فيما ذكروه من العمالقة أو من الكنعانيين الذين كانوا فريسة بنى اسرائيل عند فتحهم الشام

وأطوال بني اسرائيل وجسمانهم لذلك العهد قريبة من هيا كلنا يشهد لذلك أبواب بيت المقدس فانها وان خربت وجددت لم تزل المحافظة على اشكالها ومقادير أبوابها وكيف يكون التفاوت بين عوج وبين أهل عصره بهذا المقدار وانما مثار غلطهم في هذا أنهم استعظموا آثار الامم ولم يفقهوا أحوال الدول في الاجتماع والتعاون وما يحصل بذلك وبالهندام من الآثار العظيمة فصرفوه الى قوة الاجسام وشدتها بعظم هياكلها وليس الامر كذلك وقد زعم المسعودي ونقله عن الفلاسفة مزعما لا مستند له الا التحكم وهو أن الطبيعة التي هي جبلة للاجسام لما برأ الله الخلق كانت في تمام الكرة ونهاية القوة والكمال وكانت الاعمار أطول والاجسام أقوى لكمال تلك الطبيعة فان طرو الموت انما هو بانحلال القوى الطبيعية فاذا كانت قوية كانت الاعمار أزيد فكان العالم في أولية نشأته تام الاعمار كامل الاجسام ثم لم يزل يتناقص لنقصان المادة الى أن بلغ الى هذه الحال التي هو عليها ثم لا يزال يتناقص الى وقت الانحلال وانقراض العالم وهذا رأي لا وجه له الا التحكم كما تراه وليس له علة طبيعية ولا سبب برهاني ونحن نشاهد مساكن الاولين وأبوابهم وطرقهم فيما أحدثوه من البنيان والهياكل والديار والمساكن كديار ثمود المنحوتة في الصلد من الصخر بيوتا صغارا وأبوابها ضيقة وقد أشار صلى الله عليه وسلم الى أنها ديارهم ونهى عن استعمال مياههم وطرح ما عجن به وأهرق وقال لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم الا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم وكذلك أرض عاد ومصر والشام وسائر بقاع الارض شرقا وغربا والحق ما قررناه ومن آثار الدول أيضا حالها في الاعراس والولائم كما ذكرناه في وليمة بوران وصنيع الحجاج وابن ذي النون وقد مر ذلك كله ومن آثارها أيضا عطايا الدول وأنها تكون على نسبتها ويظهر ذلك فيها ولو أشرفت على الهرم فان الهمم التي لاهل الدولة تكون على نسبة قوة ملكهم وغلبهم للناس والهمم لا تزال مصاحبة لهم الى انقراض الدولة واعتبر ذلك بجوائز ابن ذي يزن لوفد قريش كيف أعطاهم من أرطال الذهب والفضة والاعبد والوصائف عشرا عشرا ومن كرش العنبر واحدة وأضعف ذلك بعشرة أمثاله لعبد المطلب وانما ملكه يومئذ قرارة اليمن خاصة تحت استبداد فارس وانما حمله على ذلك همة نفسه بما كان لقومه التبابعة من الملك في الارض والغلب على الامم في العراقين والهند والمغرب وكان الصنهاجيون بافريقية أيضا اذا أجازوا الوفد من أمراء زناتة الوافدين عليهم فانما يعطونهم المال أحمالا والكساء تخوتا مملوءة والحملان جنائب عديدة وفي تاريخ ابن الرقيق من ذلك أخبار كثيرة وكذلك كان عطاء البرامكة وجوائزهم ونفقاتهم وكانوا اذا كسبوا معدما

فانما هو الولاية والنعمة آخر الدهر لا العطاء الذي يستنفده يوم أو بعض يوم وأخبارهم في ذلك كثيرة مسطورة وهي كلها على نسبة الدول جارية هذا جوهر الصقلي الكاتب قائد جيش العبيديين لما ارتحل الى فتح مصر استعد من القيروان بألف حمل من المال ولا تنتهي اليوم دولة الى مثل هذا وكذلك وجد بخط أحمد بن محمد بن عبد الحميد عمل بما يحمل الى بيت المال ببغداد أيام المأمون من جميع النواحي نقلته من جراب الدولة * (غلات السواد) * سبع وعشرون ألف ألف درهم مرتين وثمانمائة ألف درهم ومن الحلل النجرانية مائتا حلة ومن طين الختم مائتان وأربعون رطلا * (كنكر) * أحد عشر ألف ألف درهم مرتين وستمائة ألف درهم * (كور دجلة) * عشرون ألف ألف درهم وثمانية دراهم * (حلوان) * أربعة آلاف ألف درهم مرتين وثمانمائة ألف درهم * (الاهواز) * خمسة وعشرون ألف درهم مرة ومن السكر ثلاثون ألف رطل * (فارس) * سبعة وعشرون ألف ألف درهم ومن ماء الورد ثلاثون ألف قارورة ومن الزيت الاسود عشرون ألف رطل * (كرمان) * أربعة آلاف ألف درهم مرتين ومائتا ألف درهم ومن المتاع اليماني خمسمائة ثوب ومن التمر عشرون ألف رطل * (مكران) * أربعمائة ألف درهم مرة * (السند وما يليه) * أحد عشر ألف ألف درهم مرتين وخمسمائة ألف درهم ومن العود الهندي مائة وخمسون رطلا * (سجستان) * أربعة آلاف ألف درهم مرتين ومن الثياب المعينة ثلاثمائة ثوب ومن الفانيد عشرون رطلا * (خراسان) * ثمانية وعشرون ألف ألف درهم مرتين ومن نقر الفضة ألفا نقرة ومن البراذين أربعة آلاف ومن الرقيق ألف رأس ومن المتاع عشرون ألف ثوب ومن الاهليلج ثلاثون ألف رطل * (جرجان) * اثنا عشر ألف ألف درهم مرتين ومن الابريسم ألف شقة * (قومس) * ألف ألف مرتين وخمسمائة ألف من نقر الفضة * (طبرستان والرويان ونهاوند) * ستة آلاف ألف مرتين وثلاثمائة ألف ومن الفرش الطبري ستمائة قطعة ومن الاكسية مائتان ومن الثياب خمسمائة ثوب ومن المناديل ثلثمائة ومن الجامات ثلثمائة * (الري) * اثنا عشر ألف ألف درهم مرتين ومن العسل عشرون ألف رطل * (همدان) * أحد عشر ألف ألف درهم مرتين وثلثمائة ألف ومن رب الرمانين ألف رطل ومن العسل اثنا عشر ألف رطل (ما بين البصرة والكوفة) عشرة آلاف ألف درهم مرتين وسبعمائة ألف درهم * (ماسبذان والديناز) * اربعة آلاف ألف درهم مرتين * (شهرزور) * ستة آلاف ألف درهم مرتين وسبعمائة ألف درهم * (الموصل وما اليها) * أربعة وعشرون ألف ألف درهم مرتين ومن

العسل الابيض عشرون ألف ألف رطل * (إذربيجان) * أربعة آلاف ألف درهم مرتين * (الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات) * أربعة وثلاثون ألف ألف درهم مرتين ومن الرقيق ألف رأس ومن العسل اثنا عشر ألف زق ومن البزاة عشرة ومن الاكسية عشرون * (ارمينية) * ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين ومن القسط المحفور عشرون ومن الزقم خمسمائة وثلاثون رطلا ومن المسايح السورماهى عشرة آلاف رطل ومن الصونج عشرة آلاف رطل ومن البغال مائتان ومن المهرة ثلاثون * (قنسرين) * أربعمائة ألف دينار ومن الزيت ألف حمل * (دمشق) * أربعمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار * (الاردن) * سبعة وتسعون ألف دينار * (فلسطين) * ثلاثمائة ألف دينار وعشرة آلاف دينار ومن الزيت ثلثمائة ألف رطل * (مصر) * ألف ألف دينار وتسعمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار * (برقة) * ألف ألف درهم مرتين * (افريقية) * ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين ومن البسط مائة وعشرون * (اليمن) * ثلثمائة ألف دينار وسبعون ألف دينار سوى المتاع * (الحجاز) * ثلاثمائة ألف دينار انتهى * وأما الاندلس فالذى ذكره الثقات من مؤرخيها أن عبد الرحمن الناصر خلف فى بيوت أمواله خمسة آلاف ألف ألف دينار مكررة ثلاث مرات يكون جملتها بالقناطير خمسمائة ألف قنطار * ورأيت فى بعض تواريخ الرشيد أن المحمول الى بيت المال فى أيامه سبعة آلاف قنطار وخمسمائة قنطار فى كل سنة فاعتبر ذلك فى نسب الدول بعضها من بعض ولا تنكرن ما ليس بمعهود عندك ولا فى عصرك شئ من أمثاله فتضيق حوصلتك عند ملتقط الممكنات فكثير من الخواص اذا سمعوا أمثال هذه الاخبار عن الدول السالفة بادر بالانكار وليس ذلك من الصواب فان أحوال الوجود والعمران متفاوتة ومن أدرك منها رتبة سفلى أو وسطى فلا يحصر المدارك كلها فيها ونحن اذا اعتبرنا ما ينقل لنا عن دولة بنى العباس وبنى أمية والعبيديين وناسبنا الصحيح من ذلك والذى لا نشك فيه بالذى نشاهده من هذه الدول التى هى أقل بالنسبة اليها وجدنا بينها بونا وهو لما بينهما من التفاوت فى أصل قوتها وعمران ممالكها فالآثار كلها جارية على نسبة الاصل فى القوة كما قدمناه ولا يسعنا انكار ذلك عنها اذ كثير من هذه الاحوال فى غاية الشهرة والوضوح بل فيها ما يلحق بالمستفيض والمتواتر وفيها المعاين والمشاهد من آثار البناء وغيره فخذ من الاحوال المنقولة مراتب الدول فى قوتها أو ضعفها وضخامتها أو صغرها واعتبر ذلك بما نقصه عليك من هذه الحكاية المستظرفة وذلك أنه ورد بالمغرب لعهد السلطان أبى عنان من ملوك بنى مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف

بابن بطوطة كان رحل منذ عشرين سنة قبلها الى المشرق وتقلب فى بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دهلى حاضرة ملك الهند وهو السلطان محمد شاه واتصل بملكها لذلك العهد وهو فيروز جوه وكان له منه مكان واستعمله فى خطة القضاء بمذهب المالكية فى عمله ثم انقلب الى المغرب واتصل بالسلطان أبى عنان وكان يحدث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بممالك الارض وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند ويأتى من أحواله بما يستغربه السامعون مثل أن ملك الهند اذا خرج الى السفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة أشهر تدفع لهم من عطائه وأنه عند رجوعه من سفره يدخل فى يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة الى صحراء البلد ويطوفون به وينصب أمامه فى ذلك الحفل منجنيقات على الظهر ترمى بها شكائر الدراهم والدنانير على الناس الى أن يدخل ايوانه وأمثال هذه الحكايات فتناجى الناس بتكذيبه * ولقيت أيامئذ وزير السلطان فارس بن وردار البعيد الصيت ففاوضته فى هذا الشأن وأريته انكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض فى الناس من تكذيبه فقال لى الوزير فارس اياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما انك لم تره فتكون كابن الوزير الناشئ فى السجن وذلك أن وزيرا اعتقله سلطانه ومكث فى السجن سنين ربى فيها ابنه فى ذلك المحبس فلما أدرك وعقل سأل عن اللحم الذى كان يتغذى به فقال له أبوه هذا لحم الغنم فقال وما الغنم فيصفها له أبوه بشياتها ونعوتها فيقول يا أبت تراها مثل الفار فينكر عليه ويقول أين الغنم من الفار وكذا فى لحم الابل والبقر اذلم يعاين فى محبسه من الحيوانات الا الفار فيحسبها كلها أبناء جنس الفار وهذا كثيرا ما يعترى الناس فى الاخبار كما يعتريهم الوسواس فى الزيادة عند قصد الاغراب كما قدمناه أول الكتاب فليرجع الانسان الى أصوله وليكن مهيمنا على نفسه ومميزا بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته فما دخل فى نطاق الامكان قبله وما خرج عنه رفضه وليس مرادنا الامكان العقلى المطلق فان نطاقه أوسع شئ فلا يفرض حدا بين الواقعات وانما مرادنا الامكان بحسب المادة التى للشئ فانا اذا نظرنا أصل الشئ وجنسه وصنفه ومقدار عظمه وقوته أجرينا الحكم من نسبة ذلك على أحواله وحكمنا بالامتناع على ما خرج من نطاقه وقل رب زدنى علما وأنت أرحم الراحمين والله سبحانه وتعالى أعلم

١٩ (فصل في استظهار صاحب الدولة على قومه اهل عصبيته بالموالي والمصطنعين)

(اعلم) أن صاحب الدولة انما يتم أمره كما قلناه بقومه فهم عصابته وظهراؤه على شأنه

وبهم يقارع الخوارج على دولته ومنهم من يقلد أعمال مملكته ووزارة دولته وجباية أمواله لانهم أعوانه على الغلب وشركاؤه فى الامر ومساهموه فى سائر مهماته هذا مادام الطور الاول للدولة كما قلناه فاذا جاء الطور الثانى وظهر الاستبداد عنهم والانفراد بالمجد ودافعهم عنه بالراح صاروا فى حقيقة الامر من بعض أعدائه واحتاج فى مدافعتهم عن الامر وصدهم عن المشاركة الى أولياء آخرين من غير جلدتهم يستظهر بهم عليهم ويتولاهم دونهم فيكونون أقرب اليه من سائرهم وأخص به قربا واصطناعا وأولى ايثارا وجاها لما أنهم يستميتون دونه فى مدافعة قومه عن الامر الذى كان لهم والرتبة التى ألفوها فى مشاركتهم فيستخلصهم صاحب الدولة حينئذ ويخصهم بمزيد التكرمة والايثار ويقسم لهم مثل ما للكثير من قومه ويقلدهم جليل الاعمال والولايات من الوزارة والقيادة والجباية وما يختص به لنفسه وتكون خالصة له دون قومه من ألقاب المملكة لانهم حينئذ أولياؤه الاقربون ونصحاؤه المخلصون وذلك حينئذ مؤذن باهتضام الدولة وعلامة على المرض المزمن فيها لفساد العصبية التى كان بناء الغلب عليها ومرض قلوب أهل الدولة حينئذ من الامتهان وعداوة السلطان فيضطغنون عليه ويتربصون به الدوائر ويعود وبال ذلك على الدولة ولا يطمع فى برئها من هذا الداء لانه ما مضى يتأكد فى الاعقاب الى أن يذهب رسمها واعتبر ذلك فى دولة بنى أمية كيف كانوا انما يستظهرون فى حروبهم وولاية أعمالهم برجال العرب مثل عمرو بن سعد بن أبى وقاص وعبيد الله بن زياد بن أبى سفيان والحجاج ابن يوسف والمهلب بن أبى صفرة وخالد بن عبد الله القسرى وابن هبيرة وموسى بن نصير وبلال بن أبى بردة بن أبى موسى الاشعرى ونصر بن سيار وأمثالهم من رجالات العرب وكذا صدر من دولة بنى العباس كان الاستظهار فيها أيضا برجالات العرب فلما صارت الدولة للانفراد بالمجد وكبح العرب عن التطاول للولايات صارت الوزارة للعجم والصنائع من البرامكة وبنى سهل بن نوبخت وبنى طاهر ثم بنى بويه وموالى الترك مثل بغا ووصيف واتامش وباكباك وابن طولون وأبنائهم وغير هؤلاء من موالى العجم فتكون الدولة لغير من مهدها والعز لغير من اجتلبه سنة الله فى عباده والله تعالى أعلم

٢٠ (فصل فى احوال الموالى والمصطنعين فى الدول)

اعلم أن المصطنعين فى الدول يتفاوتون فى الالتحام بصاحب الدولة بتفاوت قديمهم وحديثهم فى الالتحام بصاحبها والسبب فى ذلك أن المقصود فى العصبية من المدافعة والمغالبة انما يتم بالنسب لاجل التناصر فى ذوى الارحام والقربى والتخاذل فى

الاجانب والبعداء كما قدمناه والولاية والمخالطة بالرق أو بالحلف تنزل منزلة ذلك لان أمر النسب وان كان طبيعيا فانما هو وهمى والمعنى الذى كان به الالتحام انما هو العشرة والمدافعة وطول الممارسة والصحبة بالمربى والرضاع وسائر أحوال الموت والحياة واذا حصل الالتحام بذلك جاءت النعرة والتناصر وهذا مشاهد بين الناس واعتبر مثله فى الاصطناع فانه يحدث بين المصطنع ومن اصطنعه نسبة خاصة من الوصلة تنزل هذه المنزلة وتؤكد اللحمة وان لم يكن نسب فثمرات النسب موجودة فاذا كانت هذه الولاية بين القبيل وبين أوليائهم قبل حصول الملك لهم كانت عروقها أوشج وعقائدها أصح ونسبها أصرح لوجهين أحدهما أنهم قبل الملك اسوة فى حالهم فلا يتميز النسب عن الولاية الاعند الاقل منهم فيتنزلون منهم منزلة ذوى قرابتهم وأهل أرحامهم واذا اصطنعوهم بعد الملك كانت مرتبة الملك مميزة للسيد عن المولى ولاهل القرابة عن أهل الولاية والاصطناع لما تقتضيه أحوال الرياسة والملك من تميز الرتب وتفاوتها فتتميز حالتهم ويتنزلون منزلة الاجانب ويكون الالتحام بينهم أضعف والتناصر لذلك أبعد وذلك أنقص من الاصطناع قبل الملك * الوجه الثانى أن الاصطناع قبل الملك يبعد عهده عن أهل الدولة بطول الزمان ويخفى شأن تلك اللحمة ويظن بها فى الاكثر النسب فيقوى حال العصبية وأما بعد الملك فيقرب العهد ويستوى فى معرفته الاكثر فتتبين اللحمة وتتميز عن النسب فتضعف العصبية بالنسبة الى الولاية التى كانت قبل الدولة واعتبر ذلك فى الدول والرياسات تجده فكل من كان اصطناعه قبل حصول الرياسة والملك لمصطنعه تجده أشد التحاما به وأقرب قرابة اليه ويتنزل منه منزلة أبنائه واخوانه وذوى رحمه ومن كان اصطناعه بعد حصول الملك والرياسة لمصطنعه لا يكون له من القرابة واللحمة ما للاولين وهذا مشاهد بالعيان حتى ان الدولة فى آخر عمرها ترجع الى استعمال الاجانب واصطناعهم ولا يبنى لهم مجد كما بناه المصطنعون قبل الدولة لقرب العهد حينئذ باوليتهم ومشارفة الدولة على الانقراض فيكونون منحطين فى مهاوى الضعة وانما يحمل صاحب الدولة على اصطناعهم والعدول اليهم عن أوليائهم الاقدمين وصنائعها الاولين ما يعتريهم فى أنفسهم من العزة على صاحب الدولة وقلة الخضوع له ونظره بما ينظره به قبيله وأهل نسبه لتأكد اللحمة منذ العصور المتطاولة بالمربى والاتصال بآبائه وسلف قومه والانتظام مع كبراء أهل بيته فيحصل لهم بذلك دالة عليه واعتزاز فينافرهم بسببها صاحب الدولة ويعدل عنهم الى استعمال سواهم ويكون عهد استخلاصهم واصطناعهم قريبا فلا يبلغون رتب المجد ويبقون على حالهم من الخارجية وهكذا شأن الدول فى أواخرها وأكثر ما يطلق اسم الصنائع

والاولياء على الاولين وأما هؤلاء المحدثون فخدم وأعوان والله ولى المؤمنين وهو على كل شىء وكيل

٢١ ﴿فصل فيما يعرض فى الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه﴾

اذا استقر الملك فى نصاب معين ومنبت واحد من القبيل القائمين بالدولة وانفردوا به ودفعوا سائر القبيل عنه وتداوله بنوهم واحدا بعد واحد بحسب الترشيح فربما حدث التغلب على المنصب من وزرائهم وحاشيتهم وسببه فى الاكثر ولاية صبى صغير أو مضعف من أهل المنبت يترشح للولاية بعهد أبيه أو بترشيح ذويه وخوله ويؤنس منه العجز عن القيام بالملك فيقوم به كافله من وزراء أبيه وحاشيته ومواليه أو قبيله ويورى بحفظ أمره عليه حتى يؤنس منه الاستبداد ويجعل ذلك ذريعة للملك فيحجب الصبى عن الناس ويعوده اللذات التى يدعوه اليها ترف أحواله ويسيمه فى مراعيها متى أمكنه وينسيه النظر فى الامور السلطانية حتى يستبد عليه وهو بما عوده يعتقد أن حظ السلطان من الملك انما هو جلوس السرير واعطاء الصفقة وخطاب التهويل والقعود مع النساء خلف الحجاب وان الحل والربط والامر والنهى ومباشرة الاحوال الملوكية وتفقدها من النظر فى الجيش والمال والثغور انما هو للوزير ويسلم له فى ذلك الى أن تستحكم له صبغة الرياسة والاستبداد ويتحول الملك اليه ويؤثر به عشيرته وأبناءه من بعده كما وقع لبنى بويه والترك وكافور الاخشيدى وغيرهم بالمشرق وللمنصور بن أبى عامر بالاندلس وقد يتفطن ذلك المحجور المغلب لشأنه فيحاول على الخروج من ربقة الحجر والاستبداد ويرجع الملك الى نصابه ويضرب على أيدى المتغلبين عليه اما بقتل أو برفع عن الرتبة فقط الا أن ذلك فى النادر الاقل لان الدولة اذا أخذت فى تغلب الوزراء والاولياء استمر لها ذلك وقل أن تخرج عنه لان ذلك انما يوجد فى الاكثر عن أحوال الترف ونشأة أبناء الملك منغمسين فى نعيمه قد نسوا عهد الرجولة وألفوا أخلاق الدايات والاظآر وربوا عليها فلا ينزعون الى رياسة ولا يعرفون استبدادا من تغلب انما همهم فى القنوع بالابهة والتنفن فى اللذات وأنواع الترف وهذا التغلب يكون للموالى والمصطنعين عند استبداد عشير الملك على قومهم وانفرادهم به دونهم وهو عارض للدولة ضرورى كما قدمناه وهذان مرضان لا برء للدولة منهما الا فى الاقل النادر والله يؤتى ملكه من يشاء وهو على كل شىء قدير

٢٢ ﴿فصل فى ان المتغلبين على السلطان لا يشاركونه فى اللقب الخاص بالملك﴾

وذلك أن الملك والسلطان حصل لاوليه مذ أول الدولة بعصبية قومه وعصبيته التى

استتبعتهم حتى استحكمت له ولقومه صبغة الملك والغلب وهي لم تزل باقية وبها انحفظ رسم الدولة و بقاؤها وهذا المتغلب وان كان صاحب عصبية من قبيل الملك أو الموالي والصنائع فعصبيته مندرجة في عصبة أهل الملك وتابعة لها وليس له صبغة في الملك وهو لا يحاول في استبداده انتزاع الملك ظاهرا وانما يحاول انتزاع ثمراته من الامر والنهي والحل والعقد والابرام والنقض يوهم فيها أهل الدولة أنه متصرف عن سلطانه منفذ في ذلك من وراء الحجاب لاحكامه فهو يتجافى عن سمات الملك وشاراته وألقابه جهده ويبعد نفسه عن التهمة بذلك وان حصل له الاستبداد لانه مستتر في استبداده ذلك بالحجاب الذي ضربه السلطان وأولوه على أنفسهم عن القبيل منذ أول الدولة ومغالط عنه بالنيابة ولو تعرض لشيء من ذلك لنفسه عليه أهل العصبية وقبيل الملك وحاولوا الاستئثار به دونه لانه لم تستحكم له في ذلك صبغة تحملهم على التسليم له والانقياد فيهلك لاول وهلة وقد وقع مثل هذا لعبد الرحمن بن الناصر بن المنصور بن أبي عامر حين سما الى مشاركة هشام وأهل بيته في لقب الخلافة ولم يقنع بما قنع به أبوه وأخوه من الاستبداد بالحل والعقد والمراسم المتتابعة فطلب من هشام خليفته أن يعهد له بالخلافة فنفس ذلك عليه بنو مروان وسائر قريش وبايعوا الابن عم الخليفة هشام محمد بن عبد الجبار بن الناصر وخرجوا عليهم وكان في ذلك خراب دولة العامريين وهلاك المؤيد خليفتهم واستبدل منه سواه من أعياص الدولة الى آخرها واختلت مراسم ملكهم والله خير الوارثين

٢٣ (فصل في حقيقة الملك واصنافه)

الملك منصب طبيعي للانسان لانا قد بينا أن البشر لا يمكن حياتهم ووجودهم الا باجتماعهم وتعاونهم على تحصيل قوتهم وضروراتهم واذا اجتمعوا دعت الضرورة الى المعاملة واقتضاء الحاجات ومد كل واحد منهم يده الى حاجته يأخذها من صاحبه لما في الطبيعة الحيوانية من الظلم والعدوان بعضهم على بعض ويمانعه الآخر عنها بمقتضى الغضب والانفة ومقتضى القوة البشرية في ذلك فيقع التنازع المفضي الى المقاتلة وهي تؤدي الى الهرج وسفك الدماء واذهاب النفوس المفضي ذلك الى انقطاع النوع وهو مما خصه الباري سبحانه بالمحافظة فاستحال بقاؤهم فوضى دون حاكم يزع بعضهم عن بعض واحتاجوا من أجل ذلك الى الوازع وهو الحاكم عليهم وهو بمقتضى الطبيعة البشرية الملك القاهر المتحكم ولا بد في ذلك من العصبية لما قدمناه من أن المطالبات كلها والمدافعات لا تتم الا بالعصبية وهذا الملك كما تراه منصب شريف تتوجه

نحوه المطالبات ويحتاج الى المدافعات ولا يتم شيء من ذلك الا بالعصبيات كما مر والعصبيات متفاوتة وكل عصبية فلها تحكم وتغلب على من يليها من قومها وعشيرها وليس الملك لكل عصبية وانما الملك على الحقيقة لمن يستعبد الرعية ويجبي الاموال ويبعث البعوث ويحمي الثغور ولا تكون فوق يده يد قاهرة وهذا معنى الملك وحقيقته في المشهور فمن قصرت به عصبيته عن بعضها مثل حماية الثغور أو جباية الاموال أو بعث البعوث فهو ملك ناقص لم تتم حقيقته كما وقع لكثير من ملوك البربر في دولة الاغالبة بالقيروان ولملوك العجم صدر الدولة العباسية ومن قصرت به عصبيته أيضا عن الاستعلاء على جميع العصبيات والضرب على سائر الايدي وكان فوقه حكم غيره فهو أيضا ملك ناقص لم تتم حقيقته وهؤلاء مثل امراء النواحي ورؤساء الجهات الذين تجمعهم دولة واحدة وكثيرا ما يوجد هذا في الدولة المتسعة النطاق أعني توجد ملوك على قومهم في النواحي القاصية يدينون بطاعة الدولة التي جمعتهم مثل صنهاجة مع العبيديين وزناتة مع الامويين تارة والعبيديين تارة أخرى ومثل ملوك العجم في دولة بني العباس ومثل أمراء البربر وملوكهم مع الفرنجة قبل الاسلام ومثل ملوك الطوائف من الفرس مع الاسكندر وقومه اليونانيين وكثير من هؤلاء فاعتبره تجده والله القاهر فوق عباده

٢٤ (فصل في ان ارهاف الحد مضر بالملك ومفسد له في الاكثر)

اعلم أن مصلحة الرعية في السلطان ليست في ذاته وجسمه من حسن شكله أو ملاحة وجهه أو عظم جثمانه أو اتساع علمه أو جودة خطه أو ثقوب ذهنه وانما مصلحتهم فيه من حيث اضافته اليهم فان الملك والسلطان من الامور الاضافية وهي نسبة بين منتسبين فحقيقة السلطان أنه المالك للرعية القائم في أمورهم عليهم فالسلطان من له رعية والرعية من لها سلطان والصفة التي له من حيث اضافته لهم هي التي تسمى الملكة وهي كونه يملكهم فاذا كانت هذه الملكة وتوابعها من الجودة بمكان حصل المقصود من السلطان على أتم الوجوه فانها ان كانت جميلة صالحة كان ذلك مصلحة لهم وان كانت سيئة متعسفة كان ذلك ضررا عليهم واهلاكا لهم ويعود حسن الملكة الى الرفق فان الملك اذا كان قاهرا باطشا بالعقوبات منقبا عن عورات الناس وتعديد ذنوبهم شملهم الخوف والذل ولاذوا منه بالكذب والمكر والخديعة فتخلقوا بها وفسدت بصائرهم وأخلاقهم وربما خذلوه في مواطن الحروب والمدافعات ففسدت الحماية بفساد النيات وربما أجمعوا على قتله لذلك فتفسد الدولة ويخرب السياج وان دام أمره عليهم وقهره

فسدت العصبية لما قلناه أولا وفسد السياج من أصله بالعجز عن الحماية وإذا كان رفيقا بهم متجاوزا عن سيئاتهم استناموا اليه ولاذوا به وأشربوا محبته واستماتوا دونه في محاربة أعدائه فاستقام الامر من كل جانب وأما توابع حسن الملكة فهي النعمة عليهم والمدافعة عنهم فالمدافعة بها تتم حقيقة الملك وأما النعمة عليهم والاحسان لهم فمن جملة الرفق بهم والنظر لهم في معاشهم وهي أصل كبير في التحبب الى الرعية واعلم أنه قلما تكون ملكة الرفق فيمن يكون يقظا شديد الذكاء من الناس وأكثر ما يوجد الرفق في الغفل والمتغفل وأقل ما يكون في اليقظ أنه يكلف الرعية فوق طاقتهم لنفوذ نظره فيما وراء مداركهم واطلاعه على عواقب الامور في مباديها بألمعيته فيهلكون لذلك قال صلى الله عليه وسلم سيروا على سير أضعفكم ومن هذا الباب اشترط الشارع في الحاكم قلة الافراط في الذكاء ومأخذه من قصة زياد بن أبي سفيان لما عزله عمر عن العراق وقال لم عزلتني يا أمير المؤمنين ألعجز أم لخيانة فقال عمر لم أعزلك لواحدة منهما ولكني كرهت أن أحمل فضل عقلك على الناس فأخذ من هذا أن الحاكم لا يكون مفرطا الذكاء والكيس مثل زياد بن أبي سفيان وعمرو بن العاصي لما يتبع ذلك من التعسف وسوء الملكة وحمل الوجود على ما ليس في طبعه كما يأتي في آخر هذا الكتاب والله خير المالكين وتقرر من هذا أن الكيس والذكاء عيب في صاحب السياسة لانه افراط في الفكر كما أن البلادة افراط في الجمود والطرفان مذمومان من كل صفة انسانية والمحمود هو التوسط كما في الكرم مع التبذير والبخل وكما في الشجاعة مع الهوج والجبن وغير ذلك من الصفات الانسانية ولهذا يوصف الشديد الكيس بصفات الشيطان فيقال شيطان ومتشيطن وأمثال ذلك والله يخلق ما يشاء وهو العليم القدير

٢٥ (فصل في معنى الخلافة والامامة)

لما كانت حقيقة الملك أنه الاجتماع الضروري للبشر ومقتضاه التغلب والقهر اللذان هما من آثار الغضب والحيوانية كانت أحكام صاحبه في الغالب جائرة عن الحق مجحفة بمن تحت يده من الخلق في أحوال دنياهم لحمله اياهم في الغالب على ما ليس في طوقهم من أغراضه وشهواته ويختلف ذلك باختلاف المقاصد من الخلف والسلف منهم فتعسر طاعته لذلك وتجيء العصبية المفضية الى الهرج والقتل فوجب أن يرجع في ذلك الى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الكافة وينقادون الى أحكامها كما كان ذلك للفرس وغيرهم من الامم واذا خلت الدولة من مثل هذه السياسة لم يستتب أمرها ولا يتم استيلاؤها سنة الله في الذين خلوا من قبل * فاذا كانت هذه القوانين

مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها كانت سياسة عقلية وإذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها كانت سياسة دينية نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط فإنها كلها عبث وباطل إذ غايتها الموت والفناء والله يقول أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا فالمقصود بهم إنما هو دينهم المفضي بهم إلى السعادة في آخرتهم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض فجاءت الشرائع بحملهم على ذلك في جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة حتى في الملك الذي هو طبيعي للاجتماع الإنساني فأجرته على منهاج الدين ليكون الكل محوطا بنظر الشارع فما كان منه بمقتضى القهر والتغلب وإهمال القوة الغضبية في مرعاها فجور وعدوان ومذموم عنده كما هو مقتضى الحكمة السياسية وما كان منه بمقتضى السياسة وأحكامها فمذموم أيضا لأنه نظر بغير نور الله ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور لأن الشارع أعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم من أمور آخرتهم وأعمال البشر كلها عائدة عليهم في معادهم من ملك أو غيره قال صلى الله عليه وسلم إنما هي أعمالكم ترد عليكم وأحكام السياسة إنما تطلع على مصالح الدنيا فقط يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الأحكام الشرعية في أحوال دنياهم وآخرتهم وكان هذا الحكم لأهل الشريعة وهم الأنبياء ومن قام فيه مقامهم وهم الخلفاء فقد تبين لك من ذلك معنى الخلافة وأن الملك الطبيعي هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة والسياسي هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به فافهم ذلك واعتبره فيما نورده عليك من بعد والله الحكيم العليم

٢٦ (فصل في اختلاف الأمة في حكم هذا المنصب وشروطه)

وإذ قد بينا حقيقة هذا المنصب وأنه نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا به تسمى خلافة وإمامة والقائم به خليفة وإماما فأما تسميته إماما فتشبيها بإمام الصلاة في اتباعه والاقتداء به ولهذا يقال الإمامة الكبرى وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي في أمته فيقال خليفة بإطلاق وخليفة رسول الله واختلف في تسميته خليفة الله فأجازه بعضهم اقتباسا من الخلافة العامة التي للآدميين في قوله تعالى إني

جاعل في الارض خليفة وقوله جعلكم خلائف الارض ومنع الجمهور منه لان معنى الآية ليس عليه وقد نهى أبو بكر عنه لما دعى به وقال لست خليفة الله ولكني خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولان الاستخلاف انما هو في حق الغائب وأما الحاضر فلا ثم ان نصب الامام واجب قد عرف وجوبه في الشرع باجماع الصحابة والتابعين لان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند وفاته بادروا الى بيعة أبي بكر رضي الله عنه وتسليم النظر اليه في امورهم وكذا في كل عصر من بعد ذلك ولم تترك الناس فوضى في عصر من الاعصار واستقر ذلك اجماعا دالا على وجوب نصب الامام وقد ذهب بعض الناس الى أن مدرك وجوبه العقل وأن الاجماع الذى وقع انما هو قضاء بحكم العقل فيه قالوا وانما وجب بالعقل لضرورة الاجتماع للبشر واستحالة حياتهم ووجودهم منفردين ومن ضرورة الاجتماع التنازع لازدحام الاغراض فما لم يكن الحاكم الوازع أفضى ذلك الى الهرج المؤذن بهلاك البشر وانقطاعهم مع أن حفظ النوع من مقاصد الشرع الضرورية وهذا المعنى بعينه هو الذى لحظه الحكماء في وجوب النبوات في البشر وقد نبهنا على فساده وان احدى مقدماته أن الوازع انما يكون بشرع من الله تسلم له الكافة تسليم ايمان واعتقاد وهو غير مسلم لان الوازع قد يكون بسطوة الملك وقهر أهل الشوكة ولو لم يكن شرع كما في أمم المجوس وغيرهم ممن ليس له كتاب أو لم تبلغه الدعوة أو نقول يكفي في رفع التنازع معرفة كل واحد بتحريم الظلم عليه بحكم العقل فادعاؤهم أن ارتفاع التنازع انما يكون بوجود الشرع هناك ونصب الامام هنا غير صحيح بل كما يكون بنصب الامام يكون بوجود الرؤساء أهل الشوكة أو بامتناع الناس عن التنازع والتظالم فلا ينهض دليلهم العقلي المبني على هذه المقدمة فدل على أن مدرك وجوبه انما هو بالشرع وهو الاجماع الذى قدمناه وقد شذ بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا النصب رأسا لا بالعقل ولا بالشرع منهم الاصم من المعتزلة وبعض الخوارج وغيرهم والواجب عند هؤلاء انما هو امضاء أحكام الشرع فاذا تواطأت الامة على العدل وتنفيذ أحكام الله تعالى لم يحتج الى امام ولا يجب نصبه وهؤلاء محجوجون بالاجماع والذى حملهم على هذا المذهب انما هو الفرار عن الملك ومذاهبه من الاستطالة والتغلب والاستمتاع بالدنيا لما رأوا الشريعة ممتلئة بذم ذلك والنعي على أهله ومرغبة في رفضه واعلم أن الشرع لم يذم الملك لذاته ولا حظر القيام به وانما ذم المفاسد الناشئة عنه من القهر والظلم والتمتع باللذات ولا شك أن في هذه مفاسد محظورة وهي من توابعه كما أثنى على العدل والنصفة واقامة مراسم الدين والذب عنه وأوجب بازائها الثواب وهي كلها من توابع الملك فاذا انما وقع الذم للملك على صفة

وحال دون حال اخرى ولم يذمه لذاته ولا طلب تركه كما ذم الشهوة والغضب من المكلفين وليس مراده تركهما بالكلية لدعاية الضرورة اليها وانما المراد تصريفهما على مقتضى الحق وقد كان لداود وسليمان صلوات الله وسلامه عليهما الملك الذى لم يكن لغيرهما وهما من أنبياء الله تعالى وأكرم الخلق عنده ثم نقول لهم ان هذا الفرار عن الملك بعدم وجوب هذا النصب لا يغنيكم شيأ لانكم موافقون على وجوب اقامة أحكام الشريعة وذلك لا يحصل الا بالعصبية والشوكة والعصبية مقتضية بطبعها للملك فيحصل الملك وان لم ينصب امام وهو عين مافررتم عنه واذا تقرر أن هذا النصب واجب باجماع فهو من فروض الكفاية وراجع الى اختيار أهل العقد والحل فيتعين عليهم نصبه ويجب على الخلق جميعا طاعته لقوله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم * وأما شروط هذا المنصب فهى أربعة العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والاعضاء مما يؤثر فى الرأى والعمل واختلف فى شرط خامس وهو النسب القرشى فأما اشتراط العلم فظاهر لانه انما يكون منفذا لاحكام الله تعالى اذا كان عالما بها ومالم يعلمها لا يصح تقديمه لها ولا يكفى من العلم الا أن يكون مجتهدا لان التقليد نقص والامامة تستدعى الكمال فى الاوصاف والاحوال وأما العدالة فلانه منصب دينى ينظر فى سائر المناصب التى هى شرط فيها فكان أولى باشتراطها فيه ولا خلاف فى انتفاء العدالة فيه بفسق الجوارح من ارتكاب المحظورات وأمثالها وفى انتفائها بالبدع الاعتقادية خلاف وأما الكفاية فهو أن يكون جريأ على اقامة الحدود واقتحام الحروب بصيرا بها كفيلا بحمل الناس عليها عارفا بالعصبية وأحوال الدهاء قويا على معاناة السياسة ليصح له بذلك ماجعل اليه من حماية الدين وجهاد العدو واقامة الاحكام وتدبير المصالح وأما سلامة الحواس والاعضاء من النقص والعطلة كالجنون والعمى والصمم والخرس ومايؤثر فقده من الاعضاء فى العمل كفقد اليدين والرجلين والانثيين فتشترط السلامة منها كلها لتأثير ذلك فى تمام عمله وقيامه بما جعل اليه وان كان انما يشين فى المنظر فقط كفقد احدى هذه الاعضاء فشرط السلامة منه شرط كمال ويلحق بفقدان الاعضاء المنع من التصرف وهو ضربان ضرب يلحق بهذه فى اشتراط السلامة منه شرط وجوب وهو القهر والعجز عن التصرف جملة بالاسر وشبهه وضرب لا يلحق بهذه وهو الحجر باستيلاء بعض أعوانه عليه من غير عصيان ولا مشاقة فينتقل النظر فى حال هذا المستولى فان جرى على حكم الدين والعدل وحميد السياسة جاز اقراره والا استنصر المسلمون بمن يقبض يده عن ذلك ويدفع علته حتى ينفذ فعل الخليفة

وأمّا النسب القرشي فللاجماع الصحابة يوم السقيفة على ذلك واحتجت قريش على الانصار لما هموا يومئذ ببيعة سعد بن عبادة وقالوا منا أمير ومنكم أمير بقوله صلى الله عليه وسلم الائمة من قريش وبأن النبيّ صلى الله عليه وسلم أوصانا بأن نحسن الى محسنكم ونتجاوز عن مسيئكم ولو كانت الامارة فيكم لم تكن الوصية بكم فحجوا الانصار ورجعوا عن قولهم منا أمير ومنكم أمير وعدلوا عما كانوا هموا به من بيعة سعد لذلك وثبت أيضا في الصحيح لا يزال هذا الامر في هذا الحيّ من قريش وأمثال هذه الادلة كثيرة الا أنه لما ضعف أمر قريش وتلاشت عصبيتهم بما نالهم من الترف والنعيم وبما أنفقتهم الدولة في سائر أقطار الارض عجزوا بذلك عن حمل الخلافة وتغلبت عليهم الاعاجم وصار الحلّ والعقد لهم فاشتبه ذلك على كثير من المحققين حتى ذهبوا الى نفي اشتراط القرشية وعوّلوا على ظواهر في ذلك مثل قوله صلى الله عليه وسلم اسمعوا وأطيعوا وان ولي عليكم عبد حبشي ذو زبيبة وهذا لا تقوم به حجة في ذلك فانه خرج مخرج التمثيل والفرض للمبالغة في ايجاب السمع والطاعة ومثل قول عمر لو كان سالم مولى حذيفة حيا لوليته أو لما داخلتني فيه الظنة وهو أيضا لا يفيد ذلك لما علمت أنّ مذهب الصحابي ليس بحجة وأيضا فولى القوم منهم وعصبية الولاء حاصلة لسالم في قريش وهي الفائدة في اشتراط النسب ولما استعظم عمر أمر الخلافة ورأى شروطها كأنها مفقودة في ظنه عدل الى سالم لتوفر شروط الخلافة عنده فيه حتى من النسب المفيد للعصبية كما نذكر ولم يبق الا صراحة النسب فرآه غير محتاج اليه اذ الفائدة في النسب انما هي العصبية وهي حاصلة من الولاء فكان ذلك حرصا من عمر رضي الله عنه على النظر للمسلمين وتقليد أمرهم لمن لا تلحقه فيه لائمة ولا عليه فيه عهدة ومن القائلين بنفي اشتراط القرشية القاضي أبو بكر الباقلاني لما أدرك عليه عصبية قريش من التلاشي والاضمحلال واستبداد ملوك العجم على الخلفاء فأسقط شرط القرشية وان كان موافقا لرأي الخوارج لما رأى عليه حال الخلفاء لعهده وبقي الجمهور على القول باشتراطها وصحة الامامة للقرشيّ ولو كان عاجزا عن القيام بامور المسلمين وردّ عليهم سقوط شرط الكفاية التي يقوى بها على أمره لانه اذا ذهبت الشوكة بذهاب العصبية فقد ذهبت الكفاية واذا وقع الاخلال بشرط الكفاية تطرق ذلك أيضا الى العلم والدين وسقط اعتبار شروط هذا المنصب وهو خلاف الاجماع * ولنتكلم الآن في حكمة اشتراط النسب ليتحقق به الصواب في هذه المذاهب فنقول انّ الاحكام الشرعية كلها لا بدّ لها من مقاصد وحكم تشتمل عليها وتشرع لاجلها ونحن اذا بحثنا عن الحكمة في اشتراط النسب القرشيّ ومقصد الشارع منه لم يقتصر فيه على

التبرك بوصلة النبي صلى الله عليه وسلم كما هو في المشهور وإن كانت تلك الوصلة موجودة والتبرك بها حاصلا لكن التبرك ليس من المقاصد الشرعية كما علمت فلا بد اذن من المصلحة في اشتراط النسب وهي المقصودة من مشروعيتها واذا سبرنا وقسمنا لم نجدها الا اعتبار العصبية التي تكون بها الحماية والمطالبة ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب فتسكن اليه الملة وأهلها وينتظم حبل الالفة فيها وذلك أن قريشا كانوا عصبة مضر وأصلهم وأهل الغلب منهم وكان لهم على سائر مضر العزة بالكثرة والعصبية والشرف فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك ويستكينون لغلبهم فلو جعل الامر في سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم وعدم انقيادهم ولا يقدر غيرهم من قبائل مضر أن يردهم عن الخلاف ولا يحملهم على الكرة فتفترق الجماعة وتختلف الكلمة والشارع محذر من ذلك حريص على اتفاقهم ورفع التنازع والشتات بينهم لتحصل اللحمة والعصبية وتحسن الحماية بخلاف ما اذا كان الامر في قريش لانهم قادرون على سوق الناس بعصا الغلب الى ما يراد منهم فلا يخشى من أحد خلاف عليهم ولا فرقة لانهم كفيلون حينئذ بدفعها ومنع الناس منها فاشترط نسبهم القرشي في هذا المنصب وهم أهل العصبية القوية ليكون أبلغ في انتظام الملة واتفاق الكلمة واذا انتظمت كلمتهم انتظمت بانتظامها كلمة مضر أجمع فأذعن لهم سائر العرب وانقادت الامم سواهم الى أحكام الملة ووطئت جنودهم قاصية البلاد كما وقع في أيام الفتوحات واستمر بعدها في الدولتين الى أن اضمحل أمر الخلافة وتلاشت عصبية العرب ويعلم ما كان لقريش من الكثرة والتغلب على بطون مضر من مارس أخبار العرب وسيرهم وتفطن لذلك في أحوالهم * وقد ذكر ذلك ابن اسحق في كتاب السير وغيره فاذا ثبت أن اشتراط القرشية انما هو لدفع التنازع بما كان لهم من العصبية والغلب وعلمنا أن الشارع لا يخص الاحكام بجيل ولا عصر ولا أمة علمنا أن ذلك انما هو من الكفاية فرددناه اليها وطردنا العلة المشتملة على المقصود من القرشية وهي وجود العصبية فاشترطنا في القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولي عصبية قوية غالبة على من معها لعصرها ليستتبعوا من سواهم وتجتمع الكلمة على حسن الحماية ولا يعلم ذلك في الاقطار والآفاق كما كان في القرشية اذ الدعوة الاسلامية التي كانت لهم كانت عامة وعصبية العرب كانت وافية بها فغلبوا سائر الامم وانما يخص لهذا العهد كل قطر بمن تكون له فيه العصبية الغالبة واذا نظرت سر الله في الخلافة لم تعد هذا لانه سبحانه انما جعل الخليفة نائبا عنه في القيام بامور عباده ليحملهم على مصالحهم ويردهم عن مضارهم وهو مخاطب بذلك ولا يخاطب بالامر الا من له قدرة عليه ألا ترى

ماذكره الامام ابن الخطيب في شأن النساء وانهن في كثير من الاحكام الشرعية جعلن تبعا للرجال ولم يدخلن في الخطاب بالوضع وانما دخلن عنده بالقياس وذلك لما لم يكن لهن من الامر شيء وكان الرجال قوامين عليهن اللهم الا في العبادات التي كل أحد فيها قائم على نفسه فخطابهن فيها بالوضع لا بالقياس ثم ان الوجود شاهد بذلك فانه لا يقوم بأمر أمة أو جيل الا من غلب عليهم وقل أن يكون الامر الشرعي مخالفا للامر الوجودي والله تعالى أعلم

٢٧ (فصل في مذاهب الشيعة في حكم الامامة)

(اعلم) أن الشيعة لغة هم الصحب والاتباع ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على أتباع علي وبنيه رضي الله عنهم ومذهبهم جميعا متفقين عليه أن الامامة ليست من المصالح العامة التي تفوض الى نظر الامة ويتعين القائم بها بتعيينهم بل هي ركن الدين وقاعدة الاسلام ولا يجوز لنبي اغفاله ولا تفويضه الى الامة بل يجب عليه تعيين الامام لهم ويكون معصوما من الكبائر والصغائر وأن عليا رضي الله عنه هو الذي عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها جهابذة السنة ولا نقلة الشريعة بل أكثرها موضوع أو مطعون في طريقه أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة وتنقسم هذه النصوص عندهم الى جلي وخفي فالجلي مثل قوله من كنت مولاه فعلي مولاه قالوا ولم تطرد هذه الولاية الا في علي ولهذا قال له عمر أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة ومنها قوله أقضاكم علي ولا معنى للامامة الا القضاء بأحكام الله وهو المراد بأولي الامر الواجبة طاعتهم بقوله أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم والمراد الحكم والقضاء ولهذا كان حكما في قضية الامامة يوم السقيفة دون غيره ومنها قوله من يبايعني على روحه وهو وصيي وولي هذا الامر من بعدي فلم يبايعه الا علي ومن الخفي عندهم بعث النبي صلى الله عليه وسلم عليا لقراءة سورة براءة في الموسم حين أنزلت فانه بعث بها أولا أبا بكر ثم أوحي اليه ليبلغه رجل منك أو من قومك فبعث عليا ليكون القارئ المبلغ قالوا وهذا يدل على تقديم علي وأيضا فلم يعرف أنه قدم أحدا على علي وأما أبو بكر وعمر فقدم عليهما في غزاتين أسامة بن زيد مرة وعمرو بن العاصي أخرى وهذه كلها أدلة شاهدة بتعين علي للخلافة دون غيره فمنها ما هو غير معروف ومنها ما هو بعيد عن تأويلهم ثم منهم من يرى أن هذه النصوص تدل على تعيين علي وتشخيصه وكذلك تنتقل منه الى من بعده وهؤلاء هم الامامية ويتبرؤن من الشيخين حيث لم

يقدموا عليا و يبايعوه بمقتضى هذه النصوص و يغمصون فى امامتهما ولا يلتفت الى نقل القدح فيهما من غلاتهم فهو مردود عندنا وعندهم ومنهم من يقول ان هذه الادلة انما اقتضت تعيين على بالوصف لا بالشخص والناس مقصرون حيث لم يضعوا الوصف موضعه وهؤلاء هم الزيدية ولا يتبرؤن من الشيخين ولا يغمصون فى امامتهما مع قولهم بأن عليا أفضل منهما لكنهم يجوزون امامة المفضول مع وجود الافضل ثم اختلفت نقول هؤلاء الشيعة فى مساق الخلافة بعد على فمنهم من ساقها فى ولد فاطمة بالنص عليهم واحدا بعد واحد على مايذكر بعد وهؤلاء يسمون الامامية نسبة الى مقالتهم باشتراط معرفة الامام وتعيينه فى الايمان وهى أصل عندهم ومنهم من ساقها فى ولد فاطمة لكن بالاختيار من الشيوخ ويشترط أن يكون الامام منهم عالما زاهدا جوادا شجاعا ويخرج داعيا الى امامته وهؤلاء هم الزيدية نسبة الى صاحب المذهب وهو زيد بن على بن الحسين السبط وقد كان يناظر أخاه محمدا الباقر على اشتراط الخروج فى الامام فيلزمه الباقر أن لا يكون أبوهما زين العابدين اماما لانه لم يخرج ولا تعرض للخروج وكان مع ذلك ينعى عليه مذاهب المعتزلة وأخذه اياها عن واصل بن عطاء ولما ناظر الامامية زيدا فى امامة الشيخين ورأوه يقول بامامتهما ولا يتبرأ منهما رفضوه ولم يجعلوه من الائمة وبذلك سموا رافضة ومنهم من ساقها بعد على وابنيه السبطين على اختلافهم فى ذلك الى أخيهما محمد بن الحنفية ثم الى ولده وهم الكيسانية نسبة الى كيسان مولاه وبين هذه الطوائف اختلافات كثيرة تركناها اختصارا ومنهم طوائف يسمون الغلاة تجاوزوا حد العقل والايمان فى القول بألوهية هؤلاء الائمة اما على انهم بشر اتصفوا بصفات الالوهية أو ان الاله حل فى ذاته البشرية وهو قول بالحلول يوافق مذهب النصارى فى عيسى صلوات الله عليه ولقد حرق على رضى الله عنه بالنار من ذهب فيه الى ذلك منهم وسخط محمد بن الحنفية المختار بن أبى عبيد لما بلغه مثل ذلك عنه فصرح بلعنته والبراءة منه وكذلك فعل جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه بمن بلغه مثل هذا عنه ومنهم من يقول ان كمال الامام لا يكون لغيره فاذا مات انتقلت روحه الى امام آخر ليكون فيه ذلك الكمال وهو قول بالتناسخ ومن هؤلاء الغلاة من يقف عند واحد من الائمة لا يتجاوزه الى غيره بحسب من يعين لذلك عندهم وهؤلاء هم الواقفية فبعضهم يقول هو حى لم يمت الا أنه غائب عن أعين الناس ويستشهدون لذلك بقصة الخضر قيل مثل ذلك فى على رضى الله عنه وانه فى السحاب والرعد صوته والبرق فى سوطه وقالوا مثله فى محمد بن الحنفية وانه فى جبل رضوى من أرض الحجاز وقال شاعرهم

ألا ان الائمة من قريش * ولاة الحق أربعة سواء
علىّ والثلاثة من بنيه * هم الاسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط ايمان وبرّ * وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى * يقود الجيش يقدمه اللواء
تغيب لا يرى فيهم زمانا * برضوى عنده عسل وماء

وقال مثله غلاة الامامية وخصوصا الاثنى عشرية منهم يزعمون أن الثانى عشر من أئمتهم وهو محمد بن الحسن العسكرى ويلقبونه المهدى دخل فى سرداب بدارهم بالحلة وتغيب حين اعتقل مع أمه وغاب هنالك وهو يخرج آخر الزمان فيملأ الارض عدلا يشيرون بذلك الى الحديث الواقع فى كتاب الترمذى فى المهدى وهم الى الآن ينتظرونه ويسمونه المنتظر لذلك ويقفون فى كل ليلة بعد صلاة المغرب بباب هذا السرداب وقد قدموا مركبا فيهتفون باسمه ويدعونه للخروج حتى تشتبك النجوم ثم ينفضون ويرجئون الامر الى الليلة الآتية وهم على ذلك لهذا العهد وبعض هؤلاء الواقفية يقول ان الامام الذى مات يرجع الى حياته الدنيا ويستشهدون لذلك بما وقع فى القرآن الكريم من قصة أهل الكهف والذى مرّ على قرية وقتيل بنى اسرائيل حين ضرب بعظام البقرة التى أمروا بذبحها ومثل ذلك من الخوارق التى وقعت على طريق المعجزة ولا يصح الاستشهاد بها فى غير مواضعها وكان من هؤلاء السيد الحميرى ومن شعره فى ذلك

اذا ما المرء شاب له قذال * وعلله المواشط بالخضاب
فقد ذهبت بشاشته وأودى * فقم يا صاح نبك على الشباب
الى يوم تئوب الناس فيه * الى دنياهمو قبل الحساب
فليس بعائد ما فات منه * الى أحد الى يوم الاياب
أدين بأن ذلك دين حق * وما أنا فى النشور بذى ارتياب
كذاك الله أخبر عن أناس * حيوا من بعد درس فى التراب

قد كفانا مؤنة هؤلاء الغلاة أئمة الشيعة فانهم لا يقولون بها ويبطلون احتجاجاتهم عليها وأما الكيسانية فساقوا الامامة من بعد محمد بن الحنفية الى ابنه أبى هاشم وهؤلاء هم الهاشمية ثم افترقوا فمنهم من ساقها بعده الى أخيه على ثم الى ابنه الحسن بن على وآخرون يزعمون أن أبا هاشم لما مات بأرض السراة منصرفا من الشأم أوصى الى محمد بن على بن عبد الله بن عباس وأوصى محمد الى ابنه ابراهيم المعروف بالامام وأوصى ابراهيم الى أخيه عبد الله ابن الحارثية الملقب بالسفاح وأوصى هو الى أخيه عبد الله

أبي جعفر الملقب بالمنصور وانتقلت في ولده بالنص والعهد واحدا بعد واحد الى آخرهم وهذا مذهب الهاشمية القائمين بدولة بني العباس وكان منهم أبو مسلم وسليمان ابن كثير وأبو سلمة الخلال وغيرهم من شيعة العباسية وربما يعضدون ذلك بأن حقهم في هذا الامر يصل اليهم من العباس لانه كان حيا وقت الوفاة وهو أولى بالوراثة بعصبية العمومة وأما الزيدية فساقوا الامامة على مذهبهم فيها وأنها باختيار أهل الحل والعقد لا بالنص فقالوا بامامة علي ثم ابنه الحسن ثم أخيه الحسين ثم ابنه علي زين العابدين ثم ابنه زيد بن علي وهو صاحب هذا المذهب وخرج بالكوفة داعيا الى الامامة فقتل وصلب بالكناسة وقال الزيدية بامامة ابنه يحيى من بعده فمضى الى خراسان وقتل بالجوزجان بعد أن أوصى الى محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن السبط ويقال له النفس الزكية فخرج بالحجاز وتلقب بالمهدي وجاءته عساكر المنصور فقتل وعهد الى أخيه ابراهيم فقام بالبصرة ومعه عيسى بن زيد بن علي فوجه اليهم المنصور عساكره فهزم وقتل ابراهيم وعيسى وكان جعفر الصادق أخبرهم بذلك كله وهي معدودة في كراماته وذهب آخرون منهم الى أن الامام بعد محمد بن عبد الله النفس الزكية هو محمد بن القاسم بن علي بن عمر وعمر هو أخو زيد بن علي فخرج محمد بن القاسم بالطالقان فقبض عليه وسيق الى المعتصم فحبسه ومات في حبسه وقال آخرون من الزيدية ان الامام بعد يحيى بن زيد هو أخوه عيسى الذي حضر مع ابراهيم بن عبد الله في قتاله مع المنصور ونقلوا الامامة في عقبه واليه انتسب دعي الزنج كما نذكره في أخبارهم وقال آخرون من الزيدية ان الامام بعد محمد بن عبد الله أخوه ادريس الذي فر الى المغرب ومات هنالك وقام بأمره ابنه ادريس واختط مدينة فاس وكان من بعده عقبه ملوكا بالمغرب الى أن انقرضوا كما نذكره في أخبارهم وبقي أمر الزيدية بعد ذلك غير منتظم وكان منهم الداعي الذي ملك طبرستان وهو الحسن بن زيد بن محمد بن اسمعيل بن الحسن بن زيد بن علي بن الحسين السبط وأخوه محمد بن زيد ثم قام بهذه الدعوة في الديلم الناصر الاطروش منهم وأسلموا على يده وهو الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمر وعمر أخو زيد بن علي فكانت لبنيه بطبرستان دولة وتوسل الديلم من نسبهم الى الملك والاستبداد على الخلفاء ببغداد كما نذكر في أخبارهم * وأما الامامية فساقوا الامامة من علي الرضا الى ابنه الحسن بالوصية ثم الى أخيه الحسين ثم الى ابنه علي زين العابدين ثم الى ابنه محمد الباقر ثم الى ابنه جعفر الصادق ومن هنا افترقوا فرقتين فرقة ساقوها الى ولده اسمعيل ويعرفونه بينهم بالامام وهم الاسماعيلية وفرقة ساقوها الى ابنه موسى الكاظم وهم الاثنا عشرية لوقوفهم عند الثاني عشر من الائمة وقولهم بغيبته الى آخر

الزمان كما مرّ فأما الاسماعيلية فقالوا بامامة اسمعيل الامام بالنص من أبيه جعفر وفائدة النص عليه عندهم وان كان قد مات قبل أبيه انما هو بقاء الامامة في عقبه كقصة هرون مع موسى صلوات الله عليهما قالوا ثم انتقلت الامامة من اسمعيل الى ابنه محمد المكتوم وهو أول الائمة المستورين لأن الامام عندهم قد لا يكون له شوكة فيستتر وتكون دعاته ظاهرين اقامة للحجة على الخلق واذا كانت له شوكة ظهر وأظهر دعوته قالوا وبعد محمد المكتوم ابنه جعفر الصادق وبعده ابنه محمد الحبيب وهو آخر المستورين وبعده ابنه عبد الله المهدي الذي أظهر دعوته أبو عبد الله الشيعي في كتامة وتتابع الناس على دعوته ثم أخرجه من معتقله بسجلماسة وملك القيروان والمغرب وملك بنوه من بعده مصر كما هو معروف في أخبارهم ويسمى هؤلاء الاسماعيلية نسبة الى القول بامامة اسمعيل ويسمون أيضا بالباطنية نسبة الى قولهم بالامام الباطن أي المستور ويسمون أيضا الملحدة لما في ضمن مقالتهم من الالحاد ولهم مقالات قديمة ومقالات جديدة دعا اليها الحسن بن محمد الصباح في آخر المائة الخامسة وملك حصونا بالشأم والعراق ولم تزل دعوته فيها الى أن توزعها الهلاك بين ملوك الترك بمصر وملوك التتر بالعراق فانقرضت ومقالة هذا الصباح في دعوته مذكورة في كتاب الملل والنحل للشهرستاني * وأما الاثنا عشرية فربما خصوا باسم الامامية عند المتأخرين منهم فقالوا بامامة موسى الكاظم ابن جعفر الصادق لوفاة أخيه الاكبر اسمعيل الامام في حياة أبيهما جعفر فنص على امامة موسى هذا ثم ابنه علي الرضا الذي عهد اليه المأمون ومات قبله فلم يتم له أمر ثم ابنه محمد التقي ثم ابنه علي الهادي ثم ابنه محمد الحسن العسكري ثم ابنه محمد المهدي المنتظر الذي قدمناه قبل وفي كل واحدة من هذه المقالات للشيعة اختلاف كثير الا أن هذه أشهر مذاهبهم ومن أراد استيعابها ومطالعتها فعليه بكتاب الملل والنحل لابن حزم والشهرستاني وغيرهما ففيها بيان ذلك والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم وهو العلي الكبير

٢٨ (فصل في انقلاب الخلافة الى الملك)

اعلم أن الملك غاية طبيعية للعصبية ليس وقوعه عنها باختيار انما هو بضرورة الوجود وترتيبه كما قلناه من قبل وأن الشرائع والديانات وكل أمر يحمل عليه الجمهور فلا بد فيه من العصبية اذ المطالبة لا تتم الا بها كما قدمناه فالعصبية ضرورية للملة وبوجودها يتم أمر الله منها وفي الصحيح ما بعث الله نبيا الا في منعة من قومه ثم وجدنا الشارع قد ذم العصبية وندب الى اطراحها وتركها فقال ان الله أذهب عنكم عبية الجاهلية

ونخرها بالآباء أنتم بنو آدم وآدم من تراب وقال تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم
ووجدناه أيضا قد ذم الملك وأهله ونعى على أهله أحوالهم من الاستمتاع بالخلاق
والاسراف فى غير القصد والتنكب عن صراط الله وانما حض على الالفة فى الدين
وحذر من الخلاف والفرقة * واعلم أن الدنيا كلها وأحوالها عند الشارع مطية
للآخرة ومن فقد المطية فقد الوصول وليس مراده فيما ينهى عنه أو يذمه من أفعال
البشر أو يندب الى تركه اهماله بالكلية أو اقتلاعه من أصله وتعطيل القوى التى ينشأ
عليها بالكلية انما قصده تصريفها فى أغراض الحق جهد الاستطاعة حتى تصير
المقاصد كلها حقا وتتحد الوجهة كما قال صلى الله عليه وسلم من كانت هجرته الى الله
ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها
فهجرته الى ما هاجر اليه فلم يذم الغضب وهو يقصد نزعه من الانسان فانه لو زالت
منه قوة الغضب لفقد منه الانتصار للحق وبطل الجهاد واعلاء كلمة الله وانما يذم الغضب
للشيطان وللاغراض الذميمة فاذا كان الغضب لذلك كان مذموما واذا كان
الغضب فى الله ولله كان ممدوحا وهو من شمائله صلى الله عليه وسلم وكذا ذم الشهوات
أيضا ليس المراد ابطالها بالكلية فان من بطلت شهوته كان نقصا فى حقه وانما المراد
تصريفها فيما أبيح له باشتماله على المصالح ليكون الانسان عبدا متصرفا طوع الاوامر
الالهية وكذا العصبية حيث ذمها الشارع وقال لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم فانما
مراده حيث تكون العصبية على الباطل وأحواله كما كانت فى الجاهلية وأن يكون
لاحد فخر بها أو حق على أحد لان ذلك مجان من أفعال العقلاء وغير نافع فى الآخرة
التى هى دار القرار فاما اذا كانت العصبية فى الحق واقامة أمر الله فأمر مطلوب ولو
بطل لبطلت الشرائع اذ لا يتم قوامها الا بالعصبية كما قلناه من قبل وكذا الملك لما
ذمه الشارع لم يذم منه الغلب بالحق وقهر الكافة على الدين ومراعاة المصالح وانما ذمه
لما فيه من التغلب بالباطل وتصريف الآدميين طوع الاغراض والشهوات كما قلناه
فلو كان الملك مخلصا فى غلبه للناس أنه لله ولحملهم على عبادة الله وجهاد عدوه لم يكن
ذلك مذموما وقد قال سليمان صلوات الله عليه رب هب لى ملكا لا ينبغى لاحد من بعدى
لما علم من نفسه أنه بمعزل عن الباطل فى النبوة والملك * ولما لقى معاوية عمر بن
الخطاب رضى الله عنهما عند قدومه الى الشأم فى أبهة الملك وزيه من العديد والعدة
استنكر ذلك وقال أكسروية يا معاوية فقال يا أمير المؤمنين انا فى ثغر تجاه العدو وبنا
الى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة فسكت ولم يخطئه لما احتج عليه بمقصد من
مقاصد الحق والدين فلو كان القصد رفض الملك من أصله لم يقنعه هذا الجواب فى تلك

الكسروية واتحالها بل كان يحترض على خروجه عنها بالجملة وانما أراد عمر بالكسروية ما كان عليه أهل فارس فى ملكهم من ارتكاب الباطل والظلم والبغى وسلوك سبله والغفلة عن الله واجابه معاوية بأن القصد بذلك ليس كسروية فارس وباطلهم وانما قصده بها وجه الله فسكت وهكذا كان شأن الصحابة فى رفض الملك وأحواله ونسيان عوائده حذرا من التباسها بالباطل فلما استحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم استخلف أبا بكر على الصلاة اذ هى أهم أمور الدين وارتضاه الناس للخلافة وهى حمل الكافة على أحكام الشريعة ولم يجر للملك ذكر لما أنه مظنة للباطل ونحلة يومئذ لاهل الكفر وأعداء الدين فقام بذلك أبو بكر ماشاء الله متبعا سنن صاحبه وقاتل أهل الردة حتى اجتمع العرب على الاسلام ثم عهد الى عمر فاقتفى أثره وقاتل الامم فغلبهم وأذن للعرب فى انتزاع ما بأيديهم من الدنيا والملك فغلبوهم عليه وانتزعوه منهم ثم صارت الى عثمان بن عفان ثم الى على رضى الله عنهما والكل متبرؤن من الملك منكبون عن طرقه وأكد ذلك لديهم ما كانوا عليه من غضاضة الاسلام وبداوة العرب فقد كانوا أبعد الامم عن أحوال الدنيا وترفها لا من حيث دينهم الذى يدعوهم الى الزهد فى النعيم ولا من حيث بداوتهم ومواطنهم وما كانوا عليه من خشونة العيش وشظفه الذى ألفوه فلم تكن أمة من الامم أسغب عيشا من مضر لما كانوا بالحجاز فى أرض غير ذات زرع ولا ضرع وكانوا ممنوعين من الارياف وحبوبها لبعدها واختصاصها بمن وليها من ربيعة واليمن فلم يكونوا يتطاولون الى خصبها ولقد كانوا كثيرا ما يأكلون العقارب والخنافس ويفخرون بأكل العلهز وهو وبر الابل يمهونه بالحجارة فى الدم ويطبخونه وقريبا من هذا كانت حال قريش فى مطاعمهم ومساكنهم حتى اذا اجتمعت عصبية العرب على الدين بما أكرمهم الله من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم زحفوا الى أمم فارس والروم وطلبوا ما كتب الله لهم من الارض بوعد الصدق فابتزوا ملكهم واستباحوا دنياهم فزخرت بحار الرفه لديهم حتى كان الفارس الواحد يقسم له فى بعض الغزوات ثلاثون ألفا من الذهب أو نحوها فاستولوا من ذلك على ما لا يأخذه الحصر وهم مع ذلك على خشونة عيشهم فكان عمر يرقع ثوبه بالجلد وكان على يقول يا صفراء ويا بيضاء غرى غيرى وكان أبو موسى يتجافى عن أكل الدجاج لانه لم يعهدها للعرب لقلتها يومئذ وكانت المناخل مفقودة عندهم بالجملة وانما كانوا يأكلون الحنطة بنخالها ومكاسبهم مع هذا أتم ما كانت لاحد من أهل العالم قال المسعودى فى أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال فكان له يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين

وغيرهما مائة ألف دينار وخلف ابلا وخيلا كثيرة وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار وخلف ألف فرس وألف امة وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ومن ناحية السراة أكثر من ذلك وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفا وخلف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الاموال والضياع بمائة ألف دينار وبنى الزبير داره بالبصرة وكذلك بنى بمصر والكوفة والاسكندرية وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبناها بالجص والآجر والساج وبنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرافات وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها مجصصة الظاهر والباطن وخلف يعلى بن منبه خمسين ألف دينار وعقارا وغير ذلك ما قيمته ثلثمائة ألف درهم اهـ كلام المسعودي فكانت مكاسب القوم كما تراه ولم يكن ذلك منعيا عليهم في دينهم اذ هي أموال حلال لانها غنائم وفيوء ولم يكن تصرفهم فيها باسراف انما كانوا على قصد في أحوالهم كما قلناه فلم يكن ذلك بقادح فيهم وان كان الاستكثار من الدنيا مذموما فانما يرجع الى ما أشرنا اليه من الاسراف والخروج به عن القصد واذا كان حالهم قصدا ونفقاتهم في سبل الحق ومذاهبه كان ذلك الاستكثار عونا لهم على طرق الحق واكتساب الدار الآخرة فلما تدرجت البداوة والغضاضة الى نهايتها وجاءت طبيعة الملك التي هي مقتضى العصبية كما قلناه وحصل التغلب والقهر كان حكم ذلك الملك عندهم حكم ذلك الرفه والاستكثار من الاموال فلم يصرفوا ذلك التغلب في باطل ولا خرجوا به عن مقاصد الديانة ومذاهب الحق * ولما وقعت الفتنة بين علي ومعاوية وهي مقتضى العصبية كان طريقهم فيها الحق والاجتهاد ولم يكونوا في محاربتهم لغرض دنيوي أو لايثار باطل أو لاستشعار حقد كما قد يتوهمه متوهم وينزع اليه ملحد وانما اختلف اجتهادهم في الحق وسفه كل واحد نظر صاحبه باجتهاده في الحق فاقتتلوا عليه وان كان المصيب عليا فلم يكن معاوية قائما فيها بقصد الباطل انما قصد الحق وأخطأ والكل كانوا في مقاصدهم على حق ثم اقتضت طبيعة الملك الانفراد بالمجد واستئثار الواحد به ولم يكن لمعاوية أن يدفع ذلك عن نفسه وقومه فهو أمر طبيعي ساقته العصبية بطبيعتها واستشعرته بنو أمية ومن لم يكن على طريقة معاوية في اقتفاء الحق من أتباعهم فاعصوصبوا عليه واستماتوا دونه ولو حملهم معاوية على غير تلك الطريقة وخالفهم في الانفراد بالامر لوقع في افتراق الكلمة التي كان جمعها وتأليفها أهم عليه من أمر ليس وراءه كبير مخالفة وقد كان عمر بن

عبد العزيز رضي الله عنه يقول اذا رأى القاسم بن محمد بن أبي بكر لو كان لي من الامر شئ لوليته الخلافة ولو أراد أن يعهد اليه لفعل ولكنه كان يخشى من بني أمية أهل الحل والعقد لما ذكرناه فلا يقدر أن يحوّل الامر عنهم لئلا تقع الفرقة وهذا كله انما حمل عليه منازع الملك التي هي مقتضى العصبية فالملك اذا حصل وفرضنا أن الواحد انفرد به وصرفه في مذاهب الحق ووجوهه لم يكن في ذلك نكير عليه ولقد انفرد سليمان وأبوه داود صلوات الله عليهما بملك بني اسرائيل لما اقتضته طبيعة الملك فيهم من الانفراد به وكانوا ما علمت من النبوّة والحق وكذلك عهد معاوية الى يزيد خوفا من افتراق الكلمة بما كانت بنو امية لم يرضوا تسليم الامر الى من سواهم فلو قد عهد الى غيره اختلفوا عليه مع أن ظنهم كان به صالحا ولا يرتاب أحد في ذلك ولا يظن بمعاوية غيره فلم يكن ليعهد اليه وهو يعتقد ما كان عليه من الفسق حاشا لله لمعاوية من ذلك وكذلك كان مروان بن الحكم وابنه وان كانوا ملوكا فلم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة والبغي انما كانوا متحرّين لمقاصد الحق جهدهم الا في ضرورة تحملهم على بعضها مثل خشية افتراق الكلمة الذي هو أهم لديهم من كل مقصد يشهد لذلك ما كانوا عليه من الاتباع والاقتداء وما علم السلف من أحوالهم فقد احتج مالك في الموطا بعمل عبد الملك وأما مروان فكان من الطبقة الاولى من التابعين وعدالتهم معروفة ثم تدرّج الامر في ولد عبد الملك وكانوا من الدين بالمكان الذي كانوا عليه وتوسطهم عمر بن عبد العزيز فنزع الى طريقة الخلفاء الاربعة والصحابة جهده ولم يهمل ثم جاء خلفهم واستعملوا طبيعة الملك في أغراضهم الدنيوية ومقاصدهم ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحرّي القصد فيها واعتماد الحق في مذاهبها فكان ذلك مما دعا الناس الى أن نعوا عليهم افعالهم وأدالوا بالدعوة العباسية منهم وولي رجالها الامر فكانوا من العدالة بمكان وصرفوا الملك في وجوه الحق ومذاهبه ما استطاعوا حتى جاء بنو الرشيد من بعده فكان منهم الصالح والطالح ثم افضى الامر الى بنيهم فأعطوا الملك والترف حقه وانغمسوا في الدنيا وباطلها ونبذوا الدين وراءهم ظهريا فتأذن الله بحربهم وانتزاع الامر من أيدي العرب جملة وأمكن سواهم منه والله لا يظلم مثقال ذرّة ومن تأمّل سير هؤلاء الخلفاء والملوك واختلافهم في تحرّي الحق من الباطل علم صحة ما قلناه وقد حكى المسعودي مثله في أحوال بني امية عن أبي جعفر المنصور وقد حضر عمومته وذكروا بني أمية فقال أما عبد الملك فكان جبارا لا يبالي بما صنع وأما سليمان فكان همه بطنه وفرجه وأما عمر فكان أعور بين عميان وكان رجل القوم هشام قال ولم يزل بنو أمية ضابطين لما مهد لهم من السلطان يحوطونه ويصونون ما وهب الله لهم منه مع تسنمهم

مه الى الامور ورفضهم دنياهم حتى افضى الامر الى ابنائهم المترفين فكانت همتهم قصد الشهوات وركوب اللذات من معاصي الله جهلا باستدراجه وأمنا المكره مع اطراحهم صيانة الخلافة واستخفافهم بحق الرياسة وضعفهم عن السياسة فسلبهم الله العز وألبسهم الذل ونفى عنهم النعمة ثم استحضر عبد الله بن مروان فقص عليه خبره مع ملك النوبة لما دخل أرضه فارا أيام السفاح قال أقمت مليا ثم أتاني ملكهم فقعد على الارض وقد بسطت له فرش ذات قيمة فقلت له ما منعك من القعود على ثيابنا فقال انى ملك وحق لكل ملك أن يتواضع لعظمة الله اذ رفعه الله ثم قال لي لم تشربون الخمر وهى محرمة عليكم فى كتابكم فقلت اجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا قال فلم تطؤن الزرع بدوابكم والفساد محرم عليكم قلت فعل ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم قال فلم تلبسون الديباج والذهب والحرير وهو محرم عليكم فى كتابكم قلت ذهب منا الملك وانتصرنا بقوم من العجم دخلوا فى ديننا فلبسوا ذلك على الكره منا فأطرق ينكت بيده فى الارض ويقول عبيدنا وأتباعنا وأعاجم دخلوا فى ديننا ثم رفع رأسه الى وقال ليس كما ذكرت بل أنتم قوم استحللتم ما حرم الله عليكم وأتيتم ما عنه نهيتم وظلمتم فيما ملكتم فسلبكم الله العز وألبسكم الذل بذنوبكم ولله نقمة لم تبلغ غايتها فيكم وأنا خائف أن يحل بكم العذاب وأنتم ببلدى فينالنى معكم وانما الضيافة ثلاث فتزودوا ما احتجت اليه وارتحل عن أرضى فتعجب المنصور وأطرق فقد تبين لك كيف انقلبت الخلافة الى الملك وأن الامر كان فى أوله خلافة ووازع كل أحد فيها من نفسه وهو الدين وكانوا يؤثرونه على أمور دنياهم وان أفضت الى هلاكهم وحدهم دون الكافة فهذا عثمان لما حصر فى الدار جاءه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر وابن جعفر وأمثالهم يريدون المدافعة عنه فأبى ومنع من سل السيوف بين المسلمين مخافة الفرقة وحفظا للالفة التى بها حفظ الكلمة ولو أدى الى هلاكه وهذا على أشار عليه المغيرة لاول ولايته باستبقاء الزبير ومعاوية وطلحة على أعمالهم حتى يجتمع الناس على بيعته وتتفق الكلمة وله بعد ذلك ما شاء من أمره وكان ذلك من سياسة الملك فأبى فرارا من الغش الذى ينافيه الاسلام وغدا عليه المغيرة من الغداة فقال لقد أشرت عليك بالامس بما أشرت ثم عدت الى نظرى فعلمت أنه ليس من الحق والنصيحة وأن الحق فيما رأيته أنت فقال على لا والله بل أعلم أنك نصحتنى بالامس وغششتنى اليوم ولكن منعنى مما أشرت به ذائد الحق وهكذا كانت أحوالهم فى اصلاح دينهم بفساد دنياهم ونحن

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا * فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

فقد رأيت كيف صار الامر الى الملك وبقيت معانى الخلافة من تحرى الدين

ومذاهبه والجري على منهاج الحق ولم يظهر التغير الا في الوازع الذي كان دينا ثم انقلب عصبية وسيفا وهكذا كان الامر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك والصدر الاول من خلفاء بني العباس الى الرشيد وبعض ولده ثم ذهبت معاني الخلافة ولم يبق الا اسمها وصار الامر ملكا بحتا وجرت طبيعة التغلب الى غايتها واستعملت في أغراضها من القهر والتقلب في الشهوات والملاذ وهكذا كان الامر لولد عبد الملك ولمن جاء بعد الرشيد من بني العباس واسم الخلافة باقيا فيهم لبقاء عصبية العرب والخلافة والملك في الطورين ملتبس بعضهما ببعض ثم ذهب رسم الخلافة وأثرها بذهاب عصبية العرب وفناء جيلهم وتلاشي أحوالهم وبقي الامر ملكا بحتا كما كان الشأن في ملوك العجم بالمشرق يدينون بطاعة الخليفة تبركا والملك بجميع ألقابه ومناحيه لهم وليس للخليفة منه شيء وكذلك فعل ملوك زناتة بالمغرب مثل صنهاجة مع العبيديين ومغراوة وبني يفرن أيضا مع خلفاء بني أمية بالاندلس والعبيديين بالقيروان فقد تبين أن الخلافة قد وجدت بدون الملك أولا ثم التبست معانيهما واختلطت ثم انفرد الملك حيث افترقت عصبيته من عصبية الخلافة والله مقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار

٢٩ (فصل في معنى البيعة)

اعلم أن البيعة هي العهد على الطاعة كأن المبايع يعاهد أميره على أنه يسلم له النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين لا ينازعه في شيء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه به من الامر على المنشط والمكره وكانوا اذا بايعوا الامير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيدا للعهد فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري فسمي بيعة مصدر باع وصارت البيعة مصافحة بالايدي هذا مدلولها في عرف اللغة ومعهود الشرع وهو المراد في الحديث في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وعند الشجرة وحيثما ورد هذا اللفظ ومنه بيعة الخلفاء ومنه أيمان البيعة كان الخلفاء يستحلفون على العهد ويستوعبون الايمان كلها لذلك فسمي هذا الاستيعاب أيمان البيعة وكان الاكراه فيها أكثر وأغلب ولهذا لما أفتى مالك رضي الله عنه بسقوط يمين الاكراه أنكرها الولاة عليه ورأوها قادحة في أيمان البيعة ووقع ما وقع من محنة الامام رضي الله عنه وأما البيعة المشهورة لهذا العهد فهي تحية الملوك الكسروية من تقبيل الارض أو اليد أو الرجل أو الذيل أطلق عليها اسم البيعة التي هي العهد على الطاعة مجازا لما كان هذا الخضوع في التحية والتزام الآداب من لوازم الطاعة وتوابعها وغلب فيه حتى

صارت حقيقة عرفية واستغنى بها عن مصافحة أيدي الناس التي هي الحقيقة في الاصل لما في المصافحة لكل أحد من التنزل والابتذال المنافيين للرياسة وصون المنصب الملوكي الافي الاقل ممن يقصد التواضع من الملوك فيأخذ به نفسه مع خواصه ومشاهير أهل الدين من رعيته فافهم معنى البيعة في العرف فانه أكيد على الانسان معرفته لما يلزمه من حق سلطانه وامامه ولا تكون أفعاله عبثا ومجانا واعتبر ذلك من أفعالك مع الملوك والله القوي العزيز

٣٠ (فصل في ولاية العهد)

اعلم انا قدمنا الكلام في الامامة ومشروعيتها لما فيها من المصلحة وأن حقيقتها النظر في مصالح الامة لدينهم ودنياهم فهو وليهم والامين عليهم ينظر لهم ذلك في حياته وتبع ذلك أن ينظر لهم بعد مماته ويقيم لهم من يتولى أمورهم كما كان هو يتولاها ويثقون بنظره لهم في ذلك كما وثقوا به فيما قبل وقد عرف ذلك من الشرع باجماع الامة على جوازه وانعقاده اذ وقع بعهد أبي بكر رضي الله عنه لعمر بمحضر من الصحابة وأجازوه وأوجبوا على أنفسهم به طاعة عمر رضي الله عنه وعنهم وكذلك عهد عمر في الشورى الى الستة بقية العشرة وجعل لهم أن يختاروا للمسلمين ففوض بعضهم الى بعض حتى أفضى ذلك الى عبد الرحمن بن عوف فاجتهد وناظر المسلمين فوجدهم متفقين على عثمان وعلى علي فآثر عثمان بالبيعة على ذلك لموافقته اياه على لزوم الاقتداء بالشيخين في كل ما يعن دون اجتهاده فانعقد أمر عثمان لذلك وأوجبوا طاعته والملأ من الصحابة حاضرون للاولى والثانية ولم ينكره أحد منهم فدل على أنهم متفقون على صحة هذا العهد عارفون بمشروعيته والاجماع حجة كما عرف ولا يتهم الامام في هذا الامر وان عهد الى ابيه أو ابنه لانه مأمون على النظر لهم في حياته فأولى أن لا يحتمل فيها تبعة بعد مماته خلافا لمن قال باتهامه في الولد والوالد أو لمن خصص التهمة بالولد دون الوالد فانه بعيد عن الظنة في ذلك كله لا سيما اذا كانت هناك داعية تدعو اليه من ايثار مصلحة أو توقع مفسدة فتنتفي الظنة عند ذلك رأسا كما وقع في عهد معاوية لابنه يزيد وان كان فعل معاوية مع وفاق الناس له حجة في الباب والذي دعا معاوية لايثار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه انما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بني امية اذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع وأهل الغلب منهم فآثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها وعدل عن الفاضل الى المفضول حرصا على الاتفاق واجتماع الاهواء الذي شأنه أهم

عند الشارع وان كان لا يظن بمعاوية غير هذا فعدالته وصحبته مانعة من سوى
ذلك وحضور أكابر الصحابة لذلك وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب فيه فليسوا
ممن يأخذهم في الحق هوادة وليس معاوية ممن تأخذه العزة في قبول الحق فانهم كلهم
أجل من ذلك وعدالتهم مانعة منه وفرار عبد الله بن عمر من ذلك انما هو محمول على
تورعه من الدخول في شيء من الامور مباحا كان أو محظورا كما هو معروف عنه ولم
يبق في المخالفة لهذا العهد الذي اتفق عليه الجمهور الا ابن الزبير وندور المخالف
معروف ثم انه وقع مثل ذلك من بعد معاوية من الخلفاء الذين كانوا يتحرون الحق
و يعملون به مثل عبد الملك وسليمان من بني أمية والسفاح والمنصور والمهدي والرشيد
من بني العباس وأمثالهم ممن عرفت عدالتهم وحسن رأيهم للمسلمين والنظر لهم ولا
يعاب عليهم ايثار أبنائهم واخوانهم وخروجهم عن سنن الخلفاء الاربعة في ذلك
فشأنهم غير شأن اولئك الخلفاء فانهم كانوا على حين لم تحدث طبيعة الملك وكان الوازع
دينيا فعند كل أحد وازع من نفسه فعهدوا الى من يرتضيه الدين فقط وآثروه على
غيره ووكلوا كل من يسمو الى ذلك الى وازعه وأما من بعدهم من لدن معاوية فكانت
العصبية قد أشرفت على غايتها من الملك والوازع الديني قد ضعف واحتيج الى الوازع
السلطاني والعصباني فلو عهد الى غير من ترتضيه العصبية لردت ذلك العهد وانتقض
أمره سريعا وصارت الجماعة الى الفرقة والاختلاف * سأل رجل عليا رضي الله عنه
ما بال المسلمين اختلفوا عليك ولم يختلفوا على أبي بكر وعمر فقال لان أبا بكر وعمر
كانا واليين على مثلي وأنا اليوم وال على مثلك يشير الى وازع الدين أفلا ترى الى المأمون
لما عهد الى علي بن موسى بن جعفر الصادق وسماه الرضا كيف أنكرت العباسية ذلك
ونقضوا بيعته وبايعوا لعمه ابراهيم بن المهدي وظهر من الهرج والخلاف وانقطاع
السبل وتعدد الثوار والخوارج ما كاد أن يصطلم الامر حتى بادر المأمون من
خراسان الى بغداد ورد أمرهم لمعاهده فلا بد من اعتبار ذلك في العهد فالعصور تختلف
باختلاف ما يحدث فيها من الامور والقبائل والعصبيات وتختلف باختلاف المصالح
ولكل واحد منها حكم يخصه لطفا من الله بعباده وأما أن يكون القصد بالعهد حفظ
التراث على الابناء فليس من المقاصد الدينية اذ هو أمر من الله يخص به من يشاء من
عباده ينبغي أن تحسن فيه النية ما أمكن خوفا من العبث بالمناصب الدينية والملك لله
يؤتيه من يشاء * وعرض هنا أمور تدعو الضرورة الى بيان الحق فيها * فالاول
منها ما حدث في يزيد من الفسق أيام خلافته فاياك أن تظن بمعاوية رضي الله عنه
أنه علم ذلك من يزيد فانه أعدل من ذلك وأفضل بل كان يعذله أيام حياته في سماع

الغناء وينهاه عنه وهو أقل من ذلك وكانت مذاهبهم فيه مختلفة ولما حدث في يزيد ما حدث من الفسق اختلف الصحابة حينئذ في شأنه فمنهم من رأى الخروج عليه ونقض بيعته من أجل ذلك كما فعل الحسين وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ومن اتبعهما في ذلك ومنهم من أباه لما فيه من اثارة الفتنة وكثرة القتل مع العجز عن الوفاء به لأن شوكة يزيد يومئذ هي عصابة بني أمية وجمهور أهل الحل والعقد من قريش وتستتبع عصبية مضر أجمع وهي أعظم من كل شوكة ولا تطاق مقاومتهم فأقصروا عن يزيد بسبب ذلك وأقاموا على الدعاء بهدايته والراحة منه وهذا كان شأن جمهور المسلمين والكل مجتهدون ولا ينكر على أحد من الفريقين فمقاصدهم في البر وتحري الحق معروفة وفقنا الله للاقتداء بهم * والأمر الثاني هو شأن العهد من النبي صلى الله عليه وسلم وما تدعيه الشيعة من وصيته لعلي رضي الله عنه وهو أمر لم يصح ولا نقله أحد من أئمة النقل والذي وقع في الصحيح من طلب الدواة والقرطاس ليكتب الوصية وأن عمر منع من ذلك فدليل واضح على أنه لم يقع وكذا قول عمر رضي الله عنه حين طعن وسئل في العهد فقال ان أعهد فقد عهد من هو خير مني يعني أبا بكر وان أترك فقد ترك من هو خير مني يعني النبي صلى الله عليه وسلم لم يعهد وكذلك قول علي للعباس رضي الله عنهما حين دعاه للدخول الى النبي صلى الله عليه وسلم يسألانه عن شأنهما في العهد فأبى علي من ذلك وقال انه ان منعنا منها فلا نطمع فيها آخر الدهر وهذا دليل على أن عليا علم أنه لم يوص ولا عهد الى أحد وشبهة الامامية في ذلك انما هي كون الامامة من أركان الدين كما يزعمون وليس كذلك وانما هي من المصالح العامة المفوضة الى نظر الخلق ولو كانت من أركان الدين لكان شأنها شأن الصلاة ولكان يستخلف فيها كما استخلف أبا بكر في الصلاة ولكان يشتهر كما اشتهر أمر الصلاة واحتجاج الصحابة على خلافة أبي بكر بقياسها على الصلاة في قولهم ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا أفلا نرضاه لدنيانا دليل على أن الوصية لم تقع ويدل ذلك أيضا على أن أمر الامامة والعهد بها لم يكن مهما كما هو اليوم وشأن العصبية المراعاة في الاجتماع والافتراق في مجاري العادة لم يكن يومئذ بذلك الاعتبار لأن أمر الدين والاسلام كان كله بخوارق العادة من تأليف القلوب عليه واستماتة الناس دونه وذلك من أجل الأحوال التي كانوا يشاهدونها في حضور الملائكة لنصرهم وتردد خبر السماء بينهم وتجدد خطاب الله في كل حادثة تتلى عليهم فلم يحتج الى مراعاة العصبية لما شمل الناس من صبغة الانقياد والاذعان وما يستفزهم من تتابع المعجزات الخارقة والأحوال الالهية الواقعة والملائكة المترددة التي وجموا منها ودهشوا من تتابعها فكان أمر الخلافة والملك والعهد والعصبية وسائر هذه

الانواع مندرجا فى ذلك القبيل كما وقع فلما انحسر ذلك المدد بذهاب تلك المعجزات ثم بفناء القرون الذين شاهدوها فاستحالت تلك الصبغة قليلا قليلا وذهبت الخوارق وصار الحكم للعادة كما كان فاعتبر أمر العصبية ومجارى العوائد فيما ينشأ عنهما من المصالح والمفاسد وأصبح الملك والخلافة والعهد بهما مهما من المهمات الاكيدة كما زعموا ولم يكن ذلك من قبل فانظر كيف كانت الخلافة لعهد النبى صلى الله عليه وسلم غير مهمة فلم يعهد فيها ثم تدرجت الاهمية زمان الخلافة بعض الشئ بما دعت الضرورة اليه فى الحماية والجهاد وشأن الردة والفتوحات فكانوا بالخيار فى الفعل والترك كما ذكرنا عن عمر رضى الله عنه ثم صارت اليوم من أهم الامور للألفة على الحماية والقيام بالمصالح فاعتبرت فيها العصبية التى هى سر الوازع عن الفرقة والتخاذل ومنشأ الاجتماع والتوافق الكفيل بمقاصد الشريعة وأحكامها * والامر الثالث شأن الحروب الواقعة فى الاسلام بين الصحابة والتابعين فاعلم أن اختلافهم انما يقع فى الامور الدينية وينشأ عن الاجتهاد فى الادلة الصحيحة والمدارك المعتبرة والمجتهدون اذا اختلفوا فان قلنا ان الحق فى المسائل الاجتهادية واحد من الطرفين ومن لم يصادفه فهو مخطئ فان جهته لا تتعين باجماع فيبقى الكل على احتمال الاصابة ولا يتعين المخطئ منها والتأثيم مدفوع عن الكل اجماعا وان قلنا ان الكل حق وان كل مجتهد مصيب فأحرى بنفى الخطا والتأثيم وغاية الخلاف الذى بين الصحابة والتابعين انه خلاف اجتهادى فى مسائل دينية ظنية وهذا حكمه والذى وقع من ذلك فى الاسلام انما هو واقعة على مع معاوية ومع الزبير وعائشة وطلحة وواقعة الحسين مع يزيد وواقعة ابن الزبير مع عبد الملك فأما واقعة على فان الناس كانوا عند مقتل عثمان مفترقين فى الامصار فلم يشهدوا بيعة على والذين شهدوا فمنهم من بايع ومنهم من توقف حتى يجتمع الناس ويتفقوا على امام كسعد وسعيد وابن عمر وأسامة بن زيد والمغيرة بن شعبة وعبد الله بن سلام وقدامة بن مظعون وأبى سعيد الخدرى وكعب بن عجرة وكعب بن مالك والنعمان بن بشير وحسان بن ثابت ومسلمة بن مخلد وفضالة بن عبيد وأمثالهم من أكابر الصحابة والذين كانوا فى الامصار عدلوا عن بيعته أيضا الى الطلب بدم عثمان وتركوا الامر فوضى حتى يكون شورى بين المسلمين لمن يولونه وظنوا بعلى هوادة فى السكوت عن نصر عثمان من قاتليه لا فى الممالأة عليه فحاش لله من ذلك ولقد كان معاوية اذا صرح بملامته انما يوجهها عليه فى سكوته فقط ثم اختلفوا بعد ذلك فرأى على أن بيعته قد انعقدت ولزمت من تأخر عنها باجتماع من اجتمع عليها بالمدينة دار النبى صلى الله عليه وسلم وموطن الصحابة وأرجأ الامر فى المطالبة بدم

عثمان الى اجتماع الناس واتفاق الكلمة فيتمكن حينئذ من ذلك ورأى الآخرون أنّ بيعته لم تنعقد لافتراق الصحابة أهل الحل والعقد بالآفاق ولم يحضر الا القليل ولا تكون البيعة الا باتفاق أهل الحل والعقد ولا تلزم بعقد من تولاها من غيرهم أو من القليل منهم وأنّ المسلمين حينئذ فوضى فيطالبون أولا بدم عثمان ثم يجتمعون على امام وذهب الى هذا معاوية وعمرو بن العاصي وأم المؤمنين عائشة والزبير وابنه عبد الله وطلحة وابنه محمد وسعد وسعيد والنعمان بن بشير ومعاوية بن خديج ومن كان على رأيهم من الصحابة الذين تخلفوا عن بيعة علي بالمدينة كما ذكرنا الا أنّ أهل العصر الثاني من بعدهم اتفقوا على انعقاد بيعة علي ولزومها للمسلمين أجمعين وتصويب رأيه فيما ذهب اليه وتعين الخطا من جهة معاوية ومن كان على رأيه وخصوصا طلحة والزبير لانتقاضهما على علي بعد البيعة له فيما نقل مع دفع التأثيم عن كل من الفريقين كالشأن في المجتهدين وصار ذلك اجماعا من أهل العصر الثاني على أحد قولي أهل العصر الاول كما هو معروف ولقد سئل علي رضي الله عنه عن قتلى الجمل وصفين فقال والذي نفسي بيده لا يموتن أحد من هؤلاء وقلبه نقي الا دخل الجنة يشير الى الفريقين نقله الطبري وغيره فلا يقعن عندك ريب في عدالة أحد منهم ولا قدح في شيء من ذلك فهم من علمت وأقوالهم وأفعالهم انما هي عن المستندات وعدالتهم مفروغ منها عند أهل السنة الا قولا للمعتزلة فيمن قاتل عليا لم يلتفت اليه أحد من أهل الحق ولا عرّج عليه وإذا نظرت بعين الانصاف عذرت الناس أجمعين في شأن الاختلاف في عثمان واختلاف الصحابة من بعد وعلمت أنها كانت فتنة ابتلى الله بها الامة بينما المسلمون قد أذهب الله عدوهم وملكهم أرضهم وديارهم ونزلوا الامصار على حدودهم بالبصرة والكوفة والشام ومصر وكان أكثر العرب الذين نزلوا هذه الامصار جفاة لم يستكثروا من صحبة النبي صلى الله عليه وسلم ولا هذبتهم سيرته وآدابه ولا ارتاضوا بخلقه مع ما كان فيهم في الجاهلية من الجفاء والعصبية والتفاخر والبعد عن سكينة الايمان واذا بهم عند استفحال الدولة قد أصبحوا في ملكة المهاجرين والانصار من قريش وكنانة وثقيف وهذيل وأهل الحجاز ويثرب السابقين الاولين الى الايمان فاستنكفوا من ذلك وغصوا به لما يرون لانفسهم من التقدم بأنسابهم وكثرتهم ومصادمة فارس والروم مثل قبائل بكر بن وائل وعبد القيس بن ربيعة وقبائل كندة والازد من اليمن وتميم وقيس من مضر فصاروا الى الغض من قريش والانفة عليهم والتمريض في طاعتهم والتعلل في ذلك بالتظلم منهم والاستعداء عليهم والطعن فيهم بالعجز عن السوية والعدل في القسم عن السوية وفشت المقالة بذلك وانتهت الى

المدينة وهم من علمت فأعظموه وأبلغوه عثمان فبعث الى الامصار من يكشف له الخبر
بعث ابن عمر ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد وأمثالهم فلم ينكروا على الامراء شيئا
ولا رأوا عليهم طعنا وأدّوا ذلك كما علموه فلم ينقطع الطعن من أهل الامصار وما زالت
الشناعات تنمو ورمي الوليد بن عقبة وهو على الكوفة بشرب الخمر وشهد عليه جماعة
منهم وحدّه عثمان وعزله ثم جاء الى المدينة من أهل الامصار يسألون عزل العمال وشكوا
الى عائشة وعلي والزبير وطلحة وعزل لهم عثمان بعض العمال فلم تنقطع بذلك ألسنتهم
بل وفد سعيد بن العاصي وهو على الكوفة فلما رجع اعترضوه بالطريق وردّوه معزولا ثم
انتقل الخلاف بين عثمان ومن معه من الصحابة بالمدينة ونقموا عليه امتناعه عن العزل
فأبى الا أن يكون على جرحة ثم نقلوا النكير الى غير ذلك من أفعاله وهو متمسك
بالاجتهاد وهم أيضا كذلك ثم تجمع قوم من الغوغاء وجاؤا الى المدينة يظهرون
طلب النصفة من عثمان وهم يضمرون خلاف ذلك من قتله وفيهم من البصرة والكوفة
ومصر وقام معهم في ذلك علي وعائشة والزبير وطلحة وغيرهم يحاولون تسكين
الامور ورجوع عثمان الى رأيهم وعزل لهم عامل مصر فانصرفوا قليلا ثم رجعوا وقد
لبسوا بكتاب مدلس يزعمون أنهم لقوه في يد حامله الى عامل مصر بأن يقتلهم
وحلف عثمان على ذلك فقالوا مكنا من مروان فانه كاتبك فحلف مروان فقال عثمان
ليس في الحكم أكثر من هذا فحاصروه بداره ثم بيتوه على حين غفلة من الناس
وقتلوه وانفتح باب الفتنة فلكل من هؤلاء عذر فيما وقع وكلهم كانوا مهتمين بأمر الدين
ولا يضيعون شيئا من تعلقاته ثم نظروا بعد هذا الواقع واجتهدوا والله مطلع على
أحوالهم وعالم بهم ونحن لا نظن بهم الا خيرا لما شهدت به أحوالهم ومقالات الصادق
فيهم * وأما الحسين فانه لما ظهر فسق يزيد عند الكافة من أهل عصره بعثت شيعة
أهل البيت بالكوفة للحسين أن يأتيهم فيقوموا بأمره فرأى الحسين أن الخروج على
يزيد متعين من أجل فسقه لا سيما من له القدرة على ذلك وظنها من نفسه بأهليته
وشوكته فأما الاهلية فكانت كما ظن وزيادة وأما الشوكة فغلط يرحمه الله فيها
لان عصبية مضر كانت في قريش وعصبية قريش في عبد مناف وعصبية عبد مناف انما
كانت في بني أمية تعرف ذلك لهم قريش وسائر الناس ولا ينكرونه وانما نسي ذلك أول
الاسلام لما شغل الناس من الذهول بالخوارق وأمر الوحي وتردد الملائكة لنصرة
المسلمين فأغفلوا أمور عوائدهم وذهبت عصبية الجاهلية ومنازعها ونسيت ولم يبق الا
العصبية الطبيعية في الحماية والدفاع ينتفع بها في اقامة الدين وجهاد المشركين والدين
فيها محكم والعادة معزولة حتى اذا انقطع أمر النبوة والخوارق المهولة تراجع الحكم

بعض الشيء للعوائد فعادت العصبية كما كانت ولكن كانت وأصبحت مضر أطوع لبني أمية من سواهم بما كان لهم من ذلك قبل (فقد) تبين لك غلط الحسين الا أنه في أمر دنيوي لا يضره الغلط فيه وأما الحكم الشرعي فلم يغلط فيه لانه منوط بظنه وكان ظنه القدرة على ذلك ولقد عذله ابن العباس وابن الزبير وابن عمر وابن الحنفية أخوه وغيره في مسيره الى الكوفة وعلموا غلطه في ذلك ولم يرجع عما هو بسبيله لما أراده الله وأما غير الحسين من الصحابة الذين كانوا بالحجاز ومع يزيد بالشأم والعراق ومن التابعين لهم فرأوا أن الخروج على يزيد وان كان فاسقا لا يجوز لما ينشأ عنه من الهرج والدماء فاقصروا عن ذلك ولم يتابعوا الحسين ولا أنكروا عليه ولا أثموه لانه مجتهد وهو اسوة المجتهدين ولا يذهب بك الغلط أن تقول بتأثيم هؤلاء بمخالفة الحسين وقعودهم عن نصره فانهم أكثر الصحابة وكانوا مع يزيد ولم يروا الخروج عليه وكان الحسين يستشهد بهم وهو يقاتل بكربلاء على فضله وحقه ويقول سلوا جابر بن عبد الله وأبا سعيد الخدري وأنس بن مالك وسهل بن سعد وزيد بن أرقم وأمثالهم ولم ينكر عليهم قعودهم عن نصره ولا تعرض لذلك لعلمه أنه عن اجتهاد منهم كما كان فعله عن اجتهاد منه وكذلك لا يذهب بك الغلط أن تقول بتصويب قتله لما كان عن اجتهاد وان كان هو على اجتهاد ويكون ذلك كما يحد الشافعي والمالكي الحنفي على شرب النبيذ واعلم أن الامر ليس كذلك وقتاله لم يكن عن اجتهاد هؤلاء وان كان خلافه عن اجتهادهم وانما انفرد بقتاله يزيد وأصحابه ولا تقولن ان يزيد وان كان فاسقا ولم يجز هؤلاء الخروج عليه فأفعاله عندهم صحيحة واعلم أنه انما ينفذ من أعمال الفاسق ما كان مشروعا وقتال البغاة عندهم من شرطه أن يكون مع الامام العادل وهو مفقود في مسئلتنا فلا يجوز قتال الحسين مع يزيد ولا ليزيد بل هي من فعلاته المؤكدة لفسقه والحسين فيها شهيد مثاب وهو على حق واجتهاد والصحابة الذين كانوا مع يزيد على حق أيضا واجتهاد وقد غلط القاضي أبو بكر بن العربي المالكي في هذا فقال في كتابه الذي سماه بالعواصم والقواصم ما معناه ان الحسين قتل بشرع جده وهو غلط حملته عليه الغفلة عن اشتراط الامام العادل ومن أعدل من الحسين في زمانه في امامته وعدالته في قتال أهل الآراء * وأما ابن الزبير فانه رأى في منامه ما رآه الحسين وظن كما ظن وغلطه في أمر الشوكة أعظم لان بني أسد لا يقاومون بني أمية في جاهلية ولا اسلام والقول بتعين الخطا في جهة مخالفة كما كان في جهة معاوية مع علي لا سبيل اليه لان الاجماع هنالك قضى لنا به ولم نجده ههنا * وأما يزيد فعين خطأه فسقه وعبد الملك صاحب ابن الزبير أعظم الناس عدالة وناهيك بعدالته احتجاج مالك

بفعله وعدول ابن عباس وابن عمر الى بيعته عن ابن الزبير وهم معه بالحجاز مع أن الكثير من الصحابة كانوا يرون أن بيعة ابن الزبير لم تنعقد لانه لم يحضرها أهل العقد والحل كبيعة مروان وابن الزبير على خلاف ذلك والكل مجتهدون محمولون على الحق فى الظاهر وان لم يتعين فى جهة منهما والقتل الذى نزل به بعد تقرير ما قررناه يجىء على قواعد الفقه وقوانينه مع أنه شهيد مثاب باعتبار قصده وتحريه الحق هذا هو الذى ينبغى أن تحمل عليه أفعال السلف من الصحابة والتابعين فهم خيار الامة واذا جعلناهم عرضة للقدح فمن الذى يختص بالعدالة والنبى صلى الله عليه وسلم يقول خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم مرتين أو ثلاثا ثم يفشو الكذب فجعل الخيرة وهى العدالة مختصة بالقرن الاول والذى يليه فاياك أن تعود نفسك أو لسانك التعرض لاحد منهم ولا يشوش قلبك بالريب فى شىء مما وقع منهم والتمس لهم مذاهب الحق وطرقه ما استطعت فهم أولى الناس بذلك وما اختلفوا الا عن بينة وما قاتلوا أو قتلوا الا فى سبيل جهاد أو اظهار حق واعتقد مع ذلك أن اختلافهم رحمة لمن بعدهم من الامة ليقتدى كل واحد بمن يختاره منهم ويجعله امامه وهاديه ودليله فافهم ذلك وتبين حكمة الله فى خلقه وأكوانه واعلم أنه على كل شىء قدير واليه الملجأ والمصير والله تعالى أعلم

٣٢ (فصل فى الخطط الدينية الخلافية)

لما تبين أن حقيقة الخلافة نيابة عن صاحب الشرع فى حفظ الدين وسياسة الدنيا فصاحب الشرع متصرف فى الامرين أما فى الدين فبمقتضى التكاليف الشرعية الذى هو مأمور بتبليغها وحمل الناس عليها وأما سياسة الدنيا فبمقتضى رعايته لمصالحهم فى العمران البشرى وقد قدمنا أن هذا العمران ضرورى للبشر وأن رعاية مصالحه كذلك لئلا يفسد ان أهملت وقدمنا أن الملك وسطوته كاف فى حصول هذه المصالح نعم انما تكون أكمل اذا كانت بالاحكام الشرعية لانه أعلم بهذه المصالح فقد صار الملك يندرج تحت الخلافة اذا كان اسلاميا ويكون من توابعها وقد ينفرد اذا كان فى غير الملة وله على كل حال مراتب خادمة ووظائف تابعة تتعين خططا وتتوزع على رجال الدولة وظائف فيقوم كل واحد بوظيفته حسبما يعينه الملك الذى تكون يده عالية عليهم فيتم بذلك أمره ويحسن قيامه بسلطانه وأما المنصب الخلافى وان كان الملك يندرج تحته بهذا الاعتبار الذى ذكرناه فتصرفه الدينى يختص بخطط ومراتب لا تعرف الا للخلفاء الاسلاميين فلنذكر الآن الخطط الدينية المختصة بالخلافة ونرجع

الى الخطط الملوكية السلطانية فاعلم ان الخطط الدينية الشرعية من الصلاة والفتيا والقضاء والجهاد والحسبة كلها مندرجة تحت الامامة الكبرى التي هي الخلافة فكأنها الامام الكبير والاصل الجامع وهذه كلها متفرعة عنها وداخلة فيها لعموم نظر الخلافة وتصرفها في سائر أحوال الملة الدينية والدنيوية وتنفيذ أحكام الشرع فيها على العموم * فاما امامة الصلاة فهي أرفع هذه الخطط كلها وأرفع من الملك بخصوصه المندرج معها تحت الخلافة ولقد يشهد لذلك استدلال الصحابة في شأن أبي بكر رضي الله عنه باستخلافه في الصلاة على استخلافه في السياسة في قولهم ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا أفلا نرضاه لدنيانا فلولا أن الصلاة أرفع من السياسة لما صح القياس واذا ثبت ذلك فاعلم أن المساجد في المدينة صنفان مساجد عظيمة كثيرة الغاشية معدة للصلوات المشهودة وأخرى دونها مختصة بقوم أو محلة وليست للصلوات العامة فأما المساجد العظيمة فأمرها راجع الى الخليفة أو من يفوض اليه من سلطان أو وزير أو قاض فينصب لها الامام في الصلوات الخمس والجمعة والعيدين والخسوفين والاستسقاء وتعين ذلك انما هو من طريق الاولى والاستحسان ولئلا يفتات الرعايا عليه في شئ من النظر في المصالح العامة وقد يقول بالوجوب في ذلك من يقول بوجوب اقامة الجمعة فيكون نصب الامام لها عنده واجبا * وأما المساجد المختصة بقوم أو محلة فأمرها راجع الى الجيران ولا تحتاج الى نظر خليفة ولا سلطان وأحكام هذه الولاية وشروطها والمولى فيها معروفة في كتب الفقه ومبسوطة في كتب الاحكام السلطانية للماوردي وغيره فلا نطول بذكرها ولقد كان الخلفاء الاولون لا يقلدونها لغيرهم من الناس . وانظر من طعن من الخلفاء في المسجد عند الاذان بالصلاة وترصدهم لذلك في أوقاتها يشهد لك ذلك بمباشرتهم لها وأنهم لم يكونوا يستخلفون فيها وكذا كان رجال الدولة الاموية من بعدهم استئثارا بها واستعظاما لرتبتها * يحكى عن عبد الملك أنه قال لحاجبه قد جعلت لك حجابة بابي الا عن ثلاثة صاحب الطعام فانه يفسد بالتأخير والآذن بالصلاة فانه داع الى الله والبريد فانه في تأخيره فساد القاصية فلما جاءت طبيعة الملك وعوارضه من الغلظة والترفع عن مساواة الناس في دينهم ودنياهم استنابوا في الصلاة فكانوا يستأثرون بها في الاحيان وفي الصلوات العامة كالعيدين والجمعة اشادة وتنويها فعل ذلك كثير من خلفاء بني العباس والعبيديين صدر دولتهم * وأما الفتيا فللخليفة تفحص أهل العلم والتدريس ورد الفتيا الى من هو أهل لها واعانته على ذلك ومنع من ليس أهلا لها وزجره لانها من مصالح المسلمين في أديانهم فتجب عليه مراعاتها لئلا يتعرض لذلك من ليس له بأهل فيضل الناس وللمدرس

الانتصاب لتعليم العلم وبثه والجلوس لذلك في المساجد فان كانت من المساجد العظام
التي للسلطان الولاية عليها والنظر في أئمتها كما مر فلا بد من استئذانه في ذلك وان كانت
من مساجد العامة فلا يتوقف ذلك على اذن على أنه ينبغي أن يكون لكل أحد من
المفتين والمدرسين زاجر من نفسه يمنعه عن التصدي لما ليس له بأهل فيضل به المستهدي
ويضل به المسترشد وفي الاثر أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على جراثيم جهنم فللسلطان
فيهم لذلك من النظر ما توجبه المصلحة من اجازة أورد * وأما القضاء فهو من الوظائف
الداخلة تحت الخلافة لأنه منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسما للتداعي
وقطعا للتنازع الا أنه بالاحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة فكان لذلك من
وظائف الخلافة ومندرجا في عمومها وكان الخلفاء في صدر الاسلام يباشرونه بأنفسهم
ولا يجعلون القضاء الى من سواهم وأول من دفعه الى غيره وفوضه فيه عمر رضي الله
عنه فولى أبا الدرداء معه بالمدينة وولى شريحا بالبصرة وولى أبا موسى الاشعري
بالكوفة وكتب له في ذلك الكتاب المشهور الذي تدور عليه أحكام القضاة وهي
مستوفاة فيه يقول أما بعد فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم اذا أدلى
اليك فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له وآس بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك
حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك البينة على من ادعى واليمين
على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا ولا يمنعك
قضاء قضيته أمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع الى الحق
فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل الفهم الفهم فيما تلجلج في
صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ثم اعرف الامثال والاشباه وقس الامور بنظائرها
واجعل لمن ادعى حقا غائبا أو بينة أمدا ينتهي اليه فان أحضر بينته أخذت له بحقه
والا استحللت القضية عليه فان ذلك أنفى للشك وأجلى للعماء المسلمون عدول بعضهم
على بعض الا مجلودا في حد أو مجربا عليه شهادة زور أو ظنينا في نسب أو ولاء فان الله
سبحانه عفا عن الايمان ودرأ بالبينات واياك والقلق والضجر والتأفف بالخصوم فان
استقرار الحق في مواطن الحق يعظم الله به الاجر ويحسن به الذكر والسلام انتهى
كتاب عمر وانما كانوا يقلدون القضاء لغيرهم وان كان مما يتعلق بهم لقيامهم بالسياسة
العامة وكثرة أشغالها من الجهاد والفتوحات وسد الثغور وحماية البيضة ولم يكن
ذلك مما يقوم به غيرهم لعظم العناية فاستحقوا القضاء في الواقعات بين الناس واستخلفوا
فيه من يقوم به تخفيفا على أنفسهم وكانوا مع ذلك انما يقلدونه أهل عصبيتهم بالنسب
او الولاء ولا يقلدونه لمن بعد عنهم في ذلك * وأما أحكام هذا المنصب وشروطه فمعروفة

في كتب الفقه وخصوصا كتب الاحكام السلطانية الا أن القاضي انما كان له في عصر الخلفاء الفصل بين الخصوم فقط ثم دفع اليهم بعد ذلك امور أخرى على التدريج بحسب اشتغال الخلفاء والملوك بالسياسة الكبرى واستقر منصب القضاء آخر الامر على أنه يجمع مع الفصل بين الخصوم استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر في أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفه وفي وصايا المسلمين وأوقافهم وتزويج الايامى عند فقد الاولياء على رأي من رآه والنظر في مصالح الطرقات والابنية وتصفح الشهود والامناء والنواب واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح ليحصل له الوثوق بهم وصارت هذه كلها من تعلقات وظيفته وتوابع ولايته وقد كان الخلفاء من قبل يجعلون للقاضي النظر في المظالم وهي وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء وتحتاج الى علو يد وعظيم رهبة تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المتعدي وكأنه يمضي ما عجز القضاة أو غيرهم عن امضائه ويكون نظره في البينات والتقرير واعتماد الامارات والقرائن وتأخير الحكم الى استجلاء الحق وحمل الخصمين على الصلح واستحلاف الشهود وذلك أوسع من نظر القاضي * وكان الخلفاء الاولون يباشرونها بأنفسهم الى أيام المهتدي من بني العباس وربما كانوا يجعلونها لقضاتهم كما فعل عمر رضي الله عنه مع قاضيه أبي ادريس الخولاني وكما فعله المأمون ليحيى بن أكثم والمعتصم لاحمد بن أبي دواد وربما كانوا يجعلون للقاضي قيادة الجهاد في عساكر الطوائف وكان يحيى بن أكثم يخرج أيام المأمون بالطائفة الى أرض الروم وكذا منذر بن سعيد قاضي عبد الرحمن الناصر من بني امية بالاندلس فكانت تولية هذه الوظائف انما تكون للخلفاء أو من يجعلون ذلك له من وزير مفوض أو سلطان متغلب وكان أيضا النظر في الجرائم واقامة الحدود في الدولة العباسية والاموية بالاندلس والعبيديين بمصر والمغرب راجعا الى صاحب الشرطة وهي وظيفة اخرى دينية كانت من الوظائف الشرعية في تلك الدول توسع النظر فيها عن أحكام القضاء قليلا فيجعل للتهمة في الحكم مجالا ويفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ويقيم الحدود الثابتة في محالها ويحكم في القود والقصاص ويقيم التعزير والتأديب في حق من لم ينته عن الجريمة ثم تنوسي شأن هاتين الوظيفتين في الدول التي تنوسي فيها أمر الخلافة فصار أمر المظالم راجعا الى السلطان كان له تفويض من الخليفة أو لم يكن وانقسمت وظيفة الشرطة قسمين منها وظيفة التهمة على الجرائم واقامة حدودها ومباشرة القطع والقصاص حيث يتعين ونصب لذلك في هذه الدول حاكم يحكم فيها بموجب السياسة دون مراجعة الاحكام الشرعية ويسمى تارة باسم الوالي وتارة

باسم الشرطة وبقى قسم التعازير واقامة الحدود فى الجرائم الثابتة شرعا فجمع ذلك للقاضى مع ماتقدم وصار ذلك من توابع وظيفته وولايته واستقر الامر لهذا العهد على ذلك وخرجت هذه الوظيفة عن أهل عصبية الدولة لان الامر لما كان خلافة دينية وهذه الخطة من مراسم الدين فكانوا لايولونها الا من أهل عصبيتهم من العرب ومواليهم بالحلف أو بالرق أو بالاصطناع ممن يوثق بكفايته أوغنائه فيما يدفع اليه *

ولما انقرض شأن الخلافة وطورها وصار الامر كله ملكا أو سلطانا صارت هذه الخطط الدينية بعيدة عنه بعض الشئ لانها ليست من ألقاب الملك ولا مراسمه ثم خرج الامر جملة من العرب وصار الملك لسواهم من أمم الترك والبربر فازدادت هذه الخطط الخلافية بعدا عنهم بمنحاها وعصبيتها وذلك أن العرب كانوا يرون أن الشريعة دينهم وأن النبى صلى الله عليه وسلم منهم وأحكامه وشرائعه نحلتهم بين الامم وطريقهم وغيرهم لايرون ذلك انما يولونها جانبا من التعظيم لما دانوا بالملة فقط فصاروا يقلدونها من غير عصابتهم ممن كان تأهل لها فى دول الخلفاء السالفة وكان أولئك المتأهلون لما أخذهم ترف الدول منذ مئين من السنين قد نسوا عهد البداوة وخشونتها والتبسوا بالحضارة فى عوائد ترفهم ودعتهم وقلة الممانعة عن أنفسهم وصارت هذه الخطط فى الدول الملوكية من بعد الخلفاء مختصة بهذا الصنف من المستضعفين فى أهل الامصار ونزل أهلها عن مراتب العز لفقد الاهلية بأنسابهم وماهم عليه من الحضارة فلحقهم من الاحتقار مالحق الحضر المنغمسين فى الترف والدعة البعداء عن عصبية الملك الذين هم عيال على الحامية وصار اعتبارهم فى الدولة من أجل قيامها بالملة وأخذها بأحكام الشريعة لما أنهم الحاملون للاحكام المقتدون بها ولم يكن ايثارهم فى الدولة حينئذ اكراما لذواتهم وانما هو لما يتلمح من التجمل بمكانهم فى مجالس الملك لتعظيم الرتب الشرعية ولم يكن لهم فيها من الحل والعقد شئ وان حضروه فحضور رسمى لاحقيقة وراءه اذ حقيقة الحل والعقد انما هى لاهل القدرة عليه فمن لاقدرة له عليه فلا حل له ولا عقد لديه اللهم الا اخذ الاحكام الشرعية عنهم وتلقى الفتاوى منهم فنعم والله الموفق وربما يظن بعض الناس أن الحق فيما وراء ذلك وأن فعل الملوك فيما فعلوه من اخراج الفقهاء والقضاة من الشورى مرجوح وقد قال صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الانبياء فاعلم أن ذلك ليس كما ظنه وحكم الملك والسلطان انما يجرى على ماتقتضيه طبيعة العمران والا كان بعيدا عن السياسة فطبيعة العمران فى هؤلاء لاتقضى لهم شيأ من ذلك لان الشورى والحل والعقد لاتكون الا لصاحب عصبية يقتدر بها على حل أوعقد أوفعل أوترك وأما من لاعصبية له ولا يملك من أمر نفسه شيأ

ولا من حمايتها وانما هو مال على غيره فأي مدخل له في الشورى أو أي معنى يدعو الى اعتباره فيها اللهم الا شوراه فيما يعلمه من الاحكام الشرعية فموجودة في الاستفتاء خاصة وأما شوراه في السياسة فهو بعيد عنها لفقدانه العصبية والقيام على معرفة أحوالها وأحكامها وانما اكرامهم من تبرعات الملوك والامراء الشاهدة لهم بجميل الاعتقاد في الدين وتعظيم من ينتسب اليه بأي جهة انتسب وأما قوله صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الانبياء فاعلم أن الفقهاء في الاغلب لهذا العهد وما احتف به انما حملوا الشريعة أقوالا في كيفية الاعمال في العبادات وكيفية القضاء في المعاملات ينصونها على من يحتاج الى العمل بها هذه غاية أكابرهم ولا يتصفون الا بالاقل منها وفي بعض الاحوال والسلف رضوان الله عليهم وأهل الدين والورع من المسلمين حملوا الشريعة اتصافا بها وتحققا بمذاهبها فمن حملها اتصافا وتحققا دون نقل فهو من الوارثين مثل أهل رسالة القشيري ومن اجتمع له الامران فهو العالم وهو الوارث على الحقيقة مثل فقهاء التابعين والسلف والائمة الاربعة ومن اقتفى طريقهم وجاء على اثرهم واذا انفرد واحد من الامة بأحد الامرين فالعابد أحق بالوراثة من الفقيه الذي ليس بعابد لان العابد ورث صفة والفقيه الذي ليس بعابد لم يرث شيأ انما هو صاحب أقوال ينصها علينا في كيفيات العمل وهؤلاء أكثر فقهاء عصرنا الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم

(العدالة) وهي وظيفة دينية تابعة للقضاء ومن مواد تصريفه وحقيقة هذه الوظيفة القيام عن اذن القاضي بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم تحملا عند الاشهاد وأداء عند التنازع وكتبا في السجلات تحفظ به حقوق الناس وأملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم وشرط هذه الوظيفة الاتصاف بالعدالة الشرعية والبراءة من الجرح ثم القيام بكتب السجلات والعقود من جهة عباراتها وانتظام فصولها ومن جهة احكام شروطها الشرعية وعقودها فيحتاج حينئذ الى ما يتعلق بذلك من الفقه ولاجل هذه الشروط وما يحتاج اليه من المران على ذلك والممارسة له اختص ذلك ببعض العدول وصار الصنف القائمون به كأنهم مختصون بالعدالة وليس كذلك وانما العدالة من شروط اختصاصهم بالوظيفة ويجب على القاضي تصفح أحوالهم والكشف عن سيرهم رعاية لشرط العدالة فيهم وأن لا يهمل ذلك لما يتعين عليه من حفظ حقوق الناس فالعهدة عليه في ذلك كله وهو ضامن دركه واذا تعين هؤلاء لهذه الوظيفة عمت الفائدة في تعيين من تخفى عدالته على القضاة بسبب اتساع الامصار واشتباه الاحوال واضطرار القضاة الى الفصل بين المتنازعين بالبينات الموثوقة فيعولون غالبا في الوثوق بها على هذا الصنف ولهم في سائر الامصار دكاكين ومصاطب يختصون بالجلوس

عليها فيه عاهدهم أصحاب العلامات للاشهاد وتقييده بالكتاب وصار مدلول هذه اللفظة مشتركا بين هذه الوظيفة التي تبين مدلولها وبين العدالة الشرعية التي هي اخت الجرح وقد يتواردان ويفترقان والله تعالى أعلم *(الحسبة والسكة)* أما الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين يعين لذلك من يراه اهلا له فيتعين فرضه عليه ويتخذ الاعوان على ذلك ويبحث عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الحمالين وأهل السفن من الاكثار في الحمل والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وازالة ما يتوقع من ضررها على السابلة والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الابلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداء بل له النظر والحكم فيما يصل الى علمه من ذلك ويرفع اليه وليس له امضاء الحكم في الدعاوى مطلقا بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعايش وغيرها وفي المكاييل والموازين وله أيضا حمل المماطلين على الانصاف وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا انفاذ حكم وكأنها أحكام ينزه القاضي عنها لعمومها وسهولة اغراضها فتدفع الى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء وقد كانت في كثير من الدول الاسلامية مثل العبيديين بمصر والمغرب والامويين بالاندلس داخلة في عموم ولاية القاضي يولي فيها باختياره ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة وصار نظره عاما في أمور السياسة اندرجت في وظائف الملك وافردت بالولاية

(وأما السكة) فهي النظر في النقود المتعامل بها بين الناس وحفظها مما يداخلها من الغش أو النقص ان كان يتعامل بها عددا أو ما يتعلق بذلك ويوصل اليه من جميع الاعتبارات ثم في وضع علامة السلطان على تلك النقود بالاستجادة والخلوص برسم تلك العلامة فيها من خاتم حديد اتخذ لذلك ونقش فيه نقوش خاصة به فيوضع على الدينار بعد أن يقدر ويضرب عليه بالمطرقة حتى ترسم فيه تلك النقوش وتكون علامة على جودته بحسب الغاية التي وقف عندها السبك والتخليص في متعارف أهل القطر ومذاهب الدولة الحاكمة فان السبك والتخليص في النقود لا يقف عند غاية وانما ترجع غايته الى الاجتهاد فاذا وقف أهل أفق أو قطر على غاية من التخليص وقفوا عندها وسموها اماما وعيارا يعتبرون به نقودهم وينتقدونها بمماثلته فان نقص عن ذلك كان زيفا والنظر في ذلك كله لصاحب هذه الوظيفة وهي دينية بهذا الاعتبار فتندرج تحت الخلافة وقد كانت تندرج في عموم ولاية القاضي ثم أفردت لهذا

العهد كما وقع في الحسبة هذا آخر الكلام في الوظائف الخلافية و بقيت منها وظائف ذهبت بذهاب ما ينظر فيه وأخرى صارت سلطانية فوظيفة الامارة والوزارة والحرب والخراج صارت سلطانية نتكلم عليها في أماكنها بعد وظيفة الجهاد ووظيفة الجهاد بطلت ببطلانه الا في قليل من الدول يمارسونه ويدرجون أحكامه غالبا في السلطانيات وكذا نقابة الانساب التي يتوصل بها الى الخلافة أو الحق في بيت المال قد بطلت لدثور الخلافة ورسومها وبالجملة قد اندرجت رسوم الخلافة ووظائفها في رسوم الملك والسياسة في سائر الدول لهذا العهد والله مصرّف الامور كيف يشاء

٣٣ فصل في اللقب بأمير المؤمنين وانه من سمات الخلافة وهو محدث منذ عهد الخلفاء

وذلك أنه لما بويع أبو بكر رضي الله عنه كان الصحابة رضي الله عنهم وسائر المسلمين يسمونه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يزل الامر على ذلك الى أن هلك فلما بويع لعمر بعهده اليه كانوا يدعونه خليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكأنهم استثقلوا هذا اللقب بكثرته وطول اضافته وانه يتزايد فيما بعد دائما الى أن ينتهي الى الهجنة ويذهب منه التميز بتعدد الاضافات وكثرتها فلا يعرف فكانوا يعدلون عن هذا اللقب الى ما سواه مما يناسبه ويدعى به مثله وكانوا يسمون قوّاد البعوث باسم الامير وهو فعيل من الامارة وقد كان الجاهلية يدعون النبيّ صلى الله عليه وسلم أمير مكة وأمير الحجاز وكان الصحابة أيضا يدعون سعد بن أبي وقاص أمير المؤمنين لامارته على جيش القادسية وهم معظم المسلمين يومئذ واتفق أن دعا بعض الصحابة عمر رضي الله عنه يا أمير المؤمنين فاستحسنه الناس واستصوبوه ودعوه به يقال ان أوّل من دعاه بذلك عبد الله بن جحش وقيل عمرو بن العاصي والمغيرة بن شعبة وقيل بريد جاء بالفتح من بعض البعوث ودخل المدينة وهو يسأل عن عمر يقول أين أمير المؤمنين وسمعها أصحابه فاستحسنوه وقالوا أصبت والله اسمه انه والله أمير المؤمنين حقا فدعوه بذلك وذهب لقبا له في الناس وتوارثه الخلفاء من بعده سمة لا يشاركهم فيها أحد سواهم سائر دولة بني أمية ثم ان الشيعة خصوا عليا باسم الامام نعتا له بالامامة التي هي أخت الخلافة وتعريضا بمذهبهم في أنه أحق بامامة الصلاة من أبي بكر لما هو مذهبهم وبدعتهم فخصوه بهذا اللقب ولمن يسوقون اليه منصب الخلافة من بعده فكانوا كلهم يسمون بالامام ما داموا يدعون لهم في الخفاء حتى اذا يستولون على الدولة يحوّلون اللقب فيمن بعده الى أمير المؤمنين كما فعله شيعة بني العباس فانهم ما زالوا يدعون أئمتهم بالامام الى ابراهيم الذي جهروا بالدعاء له وعقدوا الرايات للحرب على

أمره فلما هلك دعى أخوه السفاح بأمير المؤمنين وكذا الرافضة بافريقية فانهم مازالوا يدعون أئمتهم من ولد اسمعيل بالامام حتى انتهى الامر الى عبيد الله المهدى وكانوا أيضا يدعونه بالامام ولابنه أبى القاسم من بعده فلما استوسق لهم الامر دعوا من بعدهما بأمير المؤمنين وكذا الادارسة بالمغرب كانوا يلقبون ادريس بالامام وابنه ادريس الاصغر كذلك وهكذا شأنهم وتوارث الخلفاء هذا اللقب بأمير المؤمنين وجعلوه سمة لمن يملك الحجاز والشأم والعراق المواطن التى هى ديار العرب ومراكز الدولة وأهل الملة والفتح وازداد لذلك فى عنفوان الدولة وبذخها لقب آخر للخلفاء يتميز به بعضهم عن بعض لما فى أمير من الاشتراك بينهم فاستحدث ذلك بنو العباس حجابا لاسمائهم الاعلام عن امتهانها فى ألسنة السوقة وصونا لها عن الابتذال فتلقبوا بالسفاح والمنصور والمهدى والهادى والرشيد الى آخر الدولة واقتفى أثرهم فى ذلك العبيديون بافريقية ومصر وتجافى بنو أمية عن ذلك بالمشرق قبلهم من الغضاضة والسذاجة لان العروبية ومنازعها لم تفارقهم حينئذ ولم يتحول عنهم شعار البداوة الى شعار الحضارة وأما بالاندلس فتلقبوا كسلفهم مع ما علموه من أنفسهم من القصور عن ذلك بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة والبعد عن دار الخلافة التى هى مركز العصبية وأنهم انما منعوا بامارة القاصية أنفسهم من مهالك بنى العباس حتى اذا جاء عبد الرحمن الداخل الآخر منهم وهو الناصر بن محمد بن الامير عبد الله بن محمد ابن عبد الرحمن الاوسط لاول المائة الرابعة واشتهر ما نال الخلافة بالمشرق من الحجر واستبداد الموالى وعيثهم فى الخلفاء بالعزل والاستبدال والقتل والسمل ذهب عبد الرحمن هذا الى مثل مذاهب الخلفاء بالمشرق وافريقية وتسمى بأمير المؤمنين وتلقب بالناصر لدين الله واخذت من بعده عادة ومذهبا لقن عنه ولم يكن لآبائه وسلف قومه واستمر الحال على ذلك الى أن انقرضت عصبية العرب أجمع وذهب رسم الخلافة وتغلب الموالى من العجم على بنى العباس والصنائع على العبيديين بالقاهرة وصنهاجة على أمراء افريقية وزناتة على المغرب وملوك الطوائف بالاندلس على أمر بنى أمية واقتسموه وافترق أمر الاسلام فاختلفت مذاهب الملوك بالمغرب والمشرق فى الاختصاص بالالقاب بعد أن تسموا جميعا باسم السلطان * فأما ملوك المشرق من العجم فكان الخلفاء يخصونهم بألقاب تشريفية حتى يستشعر منها انقيادهم وطاعتهم وحسن ولايتهم مثل شرف الدولة وعضد الدولة وركن الدولة ومعز الدولة ونصير الدولة ونظام الملك وبهاء الدولة وذخيرة الملك وأمثال هذه وكان العبيديون أيضا يخصون بها أمراء صنهاجة فلما استبدوا على الخلافة قنعوا بهذه الالقاب

وتجافوا عن ألقاب الخلافة أدبا معها وعدولا عن سماتها المختصة بها شأن المتغلبين المستبدين كما قلناه قبل ونزع المتأخرون أعاجم المشرق حين قوي استبدادهم على الملك وعلا كعبهم في الدولة والسلطان وتلاشت عصبية الخلافة واضمحلت بالجملة الى انتحال الالقاب الخاصة بالملك مثل الناصر والمنصور زيادة على ألقاب يختصون بها قبل هذا الانتحال مشعرة بالخروج عن ربقة الولاء والاصطناع بما أضافوها الى الدين فقط فيقولون صلاح الدين أسد الدين نور الدين * وأما ملوك الطوائف بالاندلس فاقتسموا ألقاب الخلافة وتوزعوها القوة استبدادهم عليها بما كانوا من قبيلها وعصبيتها فتلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمظفر وأمثالها كما قال ابن أبي شرف ينعي عليهم

مما يزهدني في أرض اندلس * أسماء معتمد فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها * كالهر يحكي انتفاخا صورة الاسد

وأما صنهاجة فاقتصروا على الالقاب التي كان الخلفاء العبيديون يلقبون بها للتنويه مثل نصير الدولة ومعز الدولة واتصل لهم ذلك لما أدالوا من دعوة العبيديين بدعوة العباسيين ثم بعدت الشقة بينهم وبين الخلافة ونسوا عهدها فنسوا هذه الالقاب واقتصروا على اسم السلطان وكذا شأن ملوك مغراوة بالمغرب لم ينتحلوا شيئا من هذه الالقاب الا اسم السلطان جريا على مذاهب البداوة والغضاضة ولما محي رسم الخلافة وتعطل دستها وقام بالمغرب من قبائل البربر يوسف بن تاشفين ملك لمتونة فملك العدوتين وكان من أهل الخير والاقتداء نزعت به همته الى الدخول في طاعة الخليفة تكميلا لمراسم دينه فخاطب المستظهر العباسي وأوفد عليه ببيعته عبد الله ابن العربي وابنه القاضي أبا بكر من مشيخة اشبيلية يطلبان توليته اياه على المغرب وتقليده ذلك فانقلبوا اليه بعهد الخلافة له على المغرب واستشعار زيهم في لبوسه ورتبته وخاطبه فيه بأمير المؤمنين تشريفا له واختصاصا فاتخذها لقبا ويقال انه كان دعي له بأمير المؤمنين من قبل أدبا مع رتبة الخلافة لما كان عليه هو وقومه المرابطون من انتحال الدين واتباع السنة وجاء المهدي على أثرهم داعيا الى الحق آخذا بمذاهب الاشعرية ناعيا على أهل المغرب عدولهم عنها الى تقليد السلف في ترك التأويل لظواهر الشريعة وما يؤول اليه ذلك من التجسيم كما هو معروف من مذهب الاشعرية وسمى اتباعه الموحدين تعريضا بذلك التنكير وكان يرى رأي أهل البيت في الامام المعصوم وانه لا بد منه في كل زمان يحفظ بوجوده نظام هذا العالم فسمي بالامام أولا لما قلناه من مذهب الشيعة في ألقاب خلفائهم وأردف بالمعصوم اشارة الى مذهبه في عصمة الامام وتنزه عند اتباعه عن أمير المؤمنين أخذا بمذاهب المتقدمين

من الشيعة ولما فيهما من مشاركة الاغمار والولدان من أعقاب أهل الخلافة يومئذ بالمشرق ثم اتصل عبد المؤمن ولى عهده اللقب بأمير المؤمنين وجرى عليه من بعده خلفاء بنى عبد المؤمن وآل أبى حفص من بعدهم استئثارا به عمن سواهم لما دعا اليه شيخهم المهدى من ذلك وأنه صاحب الامر وأولياؤه من بعده كذلك دون كل أحد لانتفاء عصبية قريش وتلاشيها فكان ذلك دأبهم ولما انتقض الامر بالمغرب وانتزعه زناتة ذهب أولهم مذاهب البداوة والسذاجة واتباع لمتونة فى انتحال اللقب بامير المؤمنين أدبا مع رتبة الخلافة التى كانوا على طاعتها لبنى عبد المؤمن أولا ولبنى أبى حفص من بعدهم ثم نزع المتأخرون منهم الى اللقب بأمير المؤمنين وانتحلوه لهذا العهد استبلاغا فى منازع الملك وتتميما لمذاهبه وسماته والله غالب على أمره

٣٤ فصل في شرح اسم البابا البطرك في الملة النصرانية واسم الكوهن عند اليهود

(اعلم) أن الملة لابد لها من قائم عند غيبة النبى يحملهم على أحكامها وشرائعها ويكون كالخليفة فيهم للنبى فيما جاء به من التكاليف والنوع الانسانى أيضا بما تقدم من ضرورة السياسة فيهم للاجتماع البشرى لابد لهم من شخص يحملهم على مصالحهم ويزعهم عن مفاسدهم بالقهر وهو المسمى بالملك والملة الاسلامية لما كان الجهاد فيها مشروعا لعموم الدعوة وحمل الكافة على دين الاسلام طوعا أو كرها اتخذت فيها الخلافة والملك لتوجه الشوكة من القائمين بها اليهما معا وأما ما سوى الملة الاسلامية فلم تكن دعوتهم عامة ولا الجهاد عندهم مشروعا الا فى المدافعة فقط فصار القائم بأمر الدين فيها لا يعنيه شئ من سياسة الملك وانما وقع الملك لمن وقع منهم بالعرض ولأمر غير دينى وهو ما اقتضته لهم العصبية لما فيها من الطلب للملك بالطبع لما قدمناه لانهم غير مكلفين بالتغلب على الامم كما فى الملة الاسلامية وانما هم مطلوبون باقامة دينهم فى خاصتهم ولذلك بقى بنو اسرائيل من بعد موسى ويوشع صلوات الله عليهما نحو أربعمائة سنة لا يعتنون بشئ من أمر الملك انما همهم اقامة دينهم فقط وكان القائم به بينهم يسمى الكوهن كأنه خليفة موسى صلوات الله عليه يقيم لهم أمر الصلاة والقربان ويشترطون فيه أن يكون من ذرية هرون صلوات الله عليه لان موسى لم يعقب ثم اختاروا لاقامة السياسة التى هى للبشر بالطبع سبعين شيخا كانوا يتولون أحكامهم العامة والكوهن أعظم منهم رتبة فى الدين وأبعد عن شغب الاحكام واتصل ذلك فيهم الى أن استحكمت طبيعة العصبية وتمحضت الشوكة للملك فغلبوا الكنعانيين على الارض التى أورثهم الله بيت المقدس وما جاورها كما بين لهم على لسان موسى صلوات

الله عليه فحاربتهم أمم الفلسطين والكنعانيين والاردن وأردن وعمان ومأرب ورياستهم في ذلك راجعة الى شيوخهم وأقاموا على ذلك نحوا من أربعمائة سنة ولم تكن لهم صولة الملك وضجر بنو اسرائيل من مطالبة الامم فطلبوا على لسان شمويل من أنبيائهم أن يأذن الله لهم في تمليك رجل عليهم فطالوت وغلب الامم وقتل جالوت ملك الفلسطين ثم ملك بعده داود ثم سليمان صلوات الله عليهما واستفحل ملكه وامتد الى الحجاز ثم أطراف اليمن ثم الى أطراف بلاد الروم ثم افترق الاسباط من بعد سليمان صلوات الله عليه بمقتضى العصبية في الدول كما قدمناه الى دولتين كانت احداهما بالجزيرة والموصل للاسباط العشرة والاخرى بالقدس والشأم لبني يهوذا وبنيامين ثم غلبهم بختنصر ملك بابل على ما كان بأيديهم من الملك أولا الاسباط العشرة ثم ثانيا بني يهوذا وبيت المقدس بعد اتصال ملكهم نحو ألف سنة وخرب مسجدهم وأحرق توراتهم وأمات دينهم ونقلهم الى اصبهان وبلاد العراق الى أن ردهم بعض ملوك الكيانية من الفرس الى بيت المقدس من بعد سبعين سنة من خروجهم فبنوا المسجد وأقاموا أمر دينهم على الرسم الاول للكهنة فقط والملك للفرس ثم غلب الاسكندر وبنو يونان على الفرس وصار اليهود في ملكتهم ثم فشل أمر اليونانيين فاعتز اليهود عليهم بالعصبية الطبيعية ودفعوهم عن الاستيلاء عليهم وقام بملكهم الكهنة الذين كانوا فيهم من بني حشمناى وقاتلوا يونان حتى انقرض أمرهم وغلبهم الروم فصاروا تحت أمرهم ثم رجعوا الى بيت المقدس وفيها بنو هيردوس اصهار بني حشمناى وبقية دولتهم فحاصروهم مدة ثم افتتحوها عنوة وأفحشوا في القتل والهدم والتحريق وخربوا بيت المقدس وأجلوهم عنها الى رومة وما وراءها وهو الخراب الثاني للمسجد ويسميه اليهود بالجلوة الكبرى فلم يقم لهم بعدها ملك لفقدان العصبية منهم وبقوا بعد ذلك في ملكة الروم ومن بعدهم يقيم لهم أمر دينهم الرئيس عليهم المسمى بالكوهن * ثم جاء المسيح صلوات الله وسلامه عليه بما جاءهم به من الدين والنسخ لبعض أحكام التوراة وظهرت على يديه الخوارق العجيبة من ابراء الاكمه والابرص واحياء الموتى واجتمع عليه كثير من الناس وآمنوا به وأكثرهم الحواريون من أصحابه وكانوا اثني عشر وبعث منهم رسلا الى الآفاق داعين الى ملته وذلك أيام أوغسطس أول ملوك القياصرة وفي مدة هيردوس ملك اليهود الذي انتزع الملك من بني حشمناى اصهاره فحسده اليهود وكذبوه وكاتب هيردوس ملكهم ملك القياصرة أوغسطس يغريه به فأذن لهم في قتله ووقع ما تلاه القرآن من أمره وافترق الحواريون شيعا ودخل أكثرهم بلاد الروم داعين الى دين النصرانية وكان بطرس كبيرهم فنزل برومة دار

ملك القياصرة ثم كتبوا الانجيل الذي أنزل على عيسى صلوات الله عليه في نسخ أربع على اختلاف رواياتهم فكتب متى انجيله في بيت المقدس بالعبرانية ونقله يوحنا بن زبدي منهم الى اللسان اللطيني وكتب لوقا منهم انجيله باللطيني الى بعض أكابر الروم وكتب يوحنا بن زبدي منهم انجيله برومة وكتب بطرس انجيله باللطيني ونسبه الى مرقاس تلميذه واختلفت هذه النسخ الاربع من الانجيل مع أنها ليست كلها وحيا صرفا بل مشوبة بكلام عيسى عليه السلام و بكلام الحواريين وكلها مواعظ وقصص والاحكام فيها قليلة جدا واجتمع الحواريون الرسل لذلك العهد برومة ووضعوا قوانين الملة النصرانية وصيروها بيد اقليمنطس تلميذ بطرس وكتبوا فيها عدد الكتب التي يجب قبولها والعمل بها فمن شريعة اليهود القديمة التوراة وهي خمسة أسفار وكتاب يوشع وكتاب القضاة وكتاب راعوث وكتاب يهوذا وأسفار الملوك أربعة وسفر بنيامين وكتب المقابيين لابن كريون ثلاثة وكتاب عزرا الامام وكتاب اوشير وقصة هامان وكتاب أيوب الصديق ومزامير داود عليه السلام وكتب ابنه سليمان عليه السلام خمسة ونبوات الانبياء الكبار والصغار ستة عشر وكتاب يشوع بن شارح وزير سليمان ومن شريعة عيسى صلوات الله عليه المتلقاة من الحواريين نسخ الانجيل الاربعة وكتب القتاليقون سبع رسائل وثامنها الابريكسيس في قصص الرسل وكتاب بولس أربع عشرة رسالة وكتاب اقليمنطس وفيه الاحكام وكتاب أبوغالمسيس وفيه رؤيا يوحنا ابن زبدي واختلف شأن القياصرة في الاخذ بهذه الشريعة تارة وتعظيم أهلها ثم تركها أخرى والتسلط عليهم بالقتل والبغي الى أن جاء قسطنطين وأخذ بها واستمروا عليها وكان صاحب هذا الدين والمقيم لمراسمه يسمونه البطرك وهو رئيس الملة عندهم وخليفة المسيح فيهم يبعث نوابه وخلفاءه الى ما بعد عنه من أمم النصرانية ويسمونه الاسقف أي نائب البطرك ويسمون الامام الذي يقيم الصلوات ويفتيهم في الدين بالقسيس ويسمون المنقطع الذي حبس نفسه في الخلوة للعبادة بالراهب وأكثر خلواتهم في الصوامع وكان بطرس الرسول رأس الحواريين وكبير التلاميذ برومة يقيم بها دين النصرانية الى أن قتله نيرون خامس القياصرة فيمن قتل من البطارق والاساقفة ثم قام بخلافته في كرسي رومة اريوس وكان مرقاس الانجيلي بالاسكندرية ومصر والمغرب داعيا سبع سنين فقام بعده حنانيا وتسمى بالبطرك وهو أول البطاركة فيها وجعل معه اثني عشر قسا على أنه اذا مات البطرك يكون واحد من الاثني عشر مكانه ويختار من المؤمنين واحدا مكان ذلك الثاني عشر فكان أمر البطاركة الى القسوس ثم لما وقع الاختلاف بينهم في قواعد دينهم وعقائده واجتمعوا بنيقية أيام قسطنطين

لنصر ير الحق في الدين واتفق ثلثمائة وثمانية عشر من أساقفتهم على رأي واحد في الدين فكتبوه وسموه الامام وصيروه أصلا يرجعون اليه وكان فيما كتبوه أن البطرك القائم بالدين لا يرجع في تعيينه الى اجتهاد الاقسة كما قرره حنانيا تلميذ مرقاس وأبطلوا ذلك الرأي وانما يقدم عن ملا واختيار من أئمة المؤمنين ورؤسائهم فبقي الامر كذلك ثم اختلفوا بعد ذلك في تقرير قواعد الدين وكانت لهم مجتمعات في تقريره ولم يختلفوا في هذه القاعدة فبقي الامر فيها على ذلك واتصل فيهم نيابة الاساقفة عن البطاركة وكان الاساقفة يدعون البطرك بالاب أيضا تعظيما له فاشتبه الاسم في أعصار متطاولة يقال آخرها بطركية هرقل بالاسكندرية فأرادوا أن يميزوا البطرك عن الاسقف في التعظيم فدعوه البابا ومعناه أبو الآباء وظهر هذا الاسم أول ظهوره بمصر على ما زعم جرجيس ابن العميد في تاريخه ثم نقلوه الى صاحب الكرسي الاعظم عندهم وهو كرسي رومة لانه كرسي بطرس الرسول كما قدمناه فلم يزل سمة عليه الى الآن ثم اختلفت النصارى في دينهم بعد ذلك وفيما يعتقدونه في المسيح وصاروا طوائف وفرقا واستظهروا بملوك النصرانية كل على صاحبه فاختلف الحال في العصور في ظهور فرقة دون فرقة الى أن استقرت لهم ثلاث طوائف هي فرقهم ولا يلتفتون الى غيرها وهم الملكية واليعقوبية والنسطورية ولم نر أن نسخم أوراق الكتاب بذكر مذاهب كفرهم فهي على الجملة معروفة وكلها كفر كما صرح به القرآن الكريم ولم يبق بيننا وبينهم في ذلك جدال ولا استدلال انما هو الاسلام أو الجزية أو القتل ثم اختصت كل فرقة منهم ببطرك فبطرك رومة اليوم المسمى بالبابا على رأي الملكية ورومة للافرنجة وملكهم قائم بتلك الناحية وبطرك المعاهدين بمصر على رأي اليعقوبية وهو ساكن بين ظهرانيهم والحبشة يدينون بدينهم ولبطرك مصر فيهم أساقفة ينوبون عنه في اقامة دينهم هنالك واختص اسم البابا ببطرك رومة لهذا العهد ولا تسمي اليعاقبة بطركهم بهذا الاسم وضبط هذه اللفظة بباءين موحدتين من أسفل والنطق بها مفخمة والثانية مشددة ومن مذاهب البابا عند الافرنجة أنه يحضهم على الانقياد لملك واحد يرجعون اليه في اختلافهم واجتماعهم تحرجا من افتراق الكلمة ويتحرى به العصبية التي لا فوقها منهم لتكون يده عالية على جميعهم ويسمونه الانبرذور وحرفه الوسط بين الذال والظاء المعجمتين ومباشره يضع التاج على رأسه للتبرك فيسمى المتوج ولعله معنى لفظة الانبرذور وهذا ملخص ما أوردناه من شرح هذين الاسمين اللذين هما البابا والكوهن والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء

٣٤ (فصل في مراتب الملك والسلطان والقابها)

اعلم أن السلطان في نفسه ضعيف يحمل أمرا ثقيلا فلا بد له من الاستعانة بأبناء جنسه واذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه وسائر مهنه فما ظنك بسياسة نوعه ومن استرعاه الله من خلقه وعباده وهو محتاج الى حماية الكافة من عدوهم بالمدافعة عنهم والى كف عدوان بعضهم على بعض في أنفسهم بامضاء الاحكام الوازعة فيهم وكف العدوان عليهم في أموالهم باصلاح سابلتهم والى حملهم على مصالحهم وما تعمهم به البلوى في معاشهم ومعاملاتهم من تفقد المعايش والمكاييل والموازين حذرا من التطفيف والى النظر في السكة بحفظ النقود التي يتعاملون بها من الغش والى سياستهم بما يريده منهم من الانقياد له والرضا بمقاصده منهم وانفراده بالمجد دونهم فيتحمل من ذلك فوق الغاية من معاناة القلوب قال بعض الاشراف من الحكماء لمعاناة نقل الجبال من أماكنها أهون علي من معاناة قلوب الرجال ثم ان الاستعانة اذا كانت بأولي القربى من أهل النسب أو التربية أو الاصطناع القديم للدولة كانت أكمل لما يقع في ذلك من مجانسة خلقهم لخلقه فتتم المشاكلة في الاستعانة قال تعالى واجعل لي وزيرا من أهلي هرون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري وهو اما أن يستعين في ذلك بسيفه أو قلمه أو رأيه أو معارفه أو بحجابه عن الناس أن يزدحموا عليه فيشغلوه عن النظر في مهماتهم أو يدفع النظر في الملك كله ويعول على كفايته في ذلك واضطلاعه فلذلك قد توجد في رجل واحد وقد تفترق في أشخاص وقد يتفرع كل واحد منها الى فروع كثيرة كالقلم يتفرع الى قلم الرسائل والمخاطبات وقلم الصكوك والاقطاعات والى قلم المحاسبات وهو صاحب الجباية والعطاء وديوان الجيش وكالسيف يتفرع الى صاحب الحرب وصاحب الشرطة وصاحب البريد وولاية الثغور * ثم اعلم أن الوظائف السلطانية في هذه الملة الاسلامية مندرجة تحت الخلافة لاشتمال منصب الخلافة على الدين والدنيا كما قدمناه فالاحكام الشرعية متعلقة بجميعها وموجودة لكل واحدة منها في سائر وجوهها لعموم تعلق الحكم الشرعي بجميع أفعال العباد والفقيه ينظر في مرتبة الملك والسلطان وشروط تقليدها استبدادا على الخلافة وهو معنى السلطان أو تعويضا منها وهو معنى الوزارة عندهم كما يأتي وفي نظره في الاحكام والاموال وسائر السياسات مطلقا أو مقيدا أو في موجبات العزل ان عرضت وغير ذلك من معاني الملك والسلطان وكذا في سائر الوظائف التي تحت الملك والسلطان من وزارة أو جباية أو ولاية لا بد للفقيه من النظر في جميع ذلك كما قدمناه من انسحاب حكم الخلافة الشرعية في الملة الاسلامية على رتبة الملك والسلطان الا أن كلامنا في وظائف الملك والسلطان ورتبته انما هو بمقتضى طبيعة العمران ووجود البشر لا بما يخصها

من أحكام الشرع فليس من غرض كتابنا كما علمت فلا نحتاج الى تفصيل أحكامها الشرعية مع أنها مستوفاة في كتب الاحكام السلطانية مثل كتاب القاضي أبي الحسن الماوردي وغيره من أعلام الفقهاء فان أردت استيفاءها فعليك بمطالعتها هنالك وانما تكلمنا في الوظائف الخلافية وأفردناها لنميز بينها وبين الوظائف السلطانية فقط لا لتحقيق أحكامها الشرعية فليس من غرض كتابنا وانما نتكلم في ذلك بما تقتضيه طبيعة العمران في الوجود الانساني والله الموفق

* (الوزارة) * وهي أم الخطط السلطانية والرتب الملوكية لان اسمها يدل على مطلق الاعانة فان الوزارة مأخوذة اما من الموازرة وهي المعاونة أو من الوزر وهو الثقل كأنه يحمل مع مفاعله أوزاره وأثقاله وهو راجع الى المعاونة المطلقة وقد كنا قدمنا في أول الفصل أن أحوال السلطان وتصرفاته لا تعدو أربعة لانها اما أن تكون في أمور حماية الكافة وأسبابها من النظر في الجند والسلاح والحروب وسائر أمور الحماية والمطالبة وصاحب هذا هو الوزير المتعارف في الدول القديمة بالمشرق ولهذا العهد بالمغرب واما أن تكون في أمور مخاطباته لمن بعد عنه في المكان أو في الزمان وتنفيذه الاوامر فيمن هو محجوب عنه وصاحب هذا هو الكاتب واما أن تكون في أمور جباية المال وانفاقه وضبط ذلك من جميع وجوهه أن يكون بمضيعة وصاحب هذا هو صاحب المال والجباية وهو المسمى بالوزير لهذا العهد بالمشرق واما أن يكون في مدافعة الناس ذوي الحاجات عنه أن يزدحموا عليه فيشغلوه عن فهمه وهذا راجع لصاحب الباب الذي يحجبه فلا تعدو أحواله هذه الاربعة بوجه وكل خطة أو رتبة من رتب الملك والسلطان فاليها يرجع الا أن الارفع منها ما كانت الاعانة فيه عامة فيما تحت يد السلطان من ذلك الصنف اذ هو يقتضي مباشرة السلطان دائما ومشاركته في كل صنف من أحوال ملكه وأما ما كان خاصا ببعض الناس أو ببعض الجهات فيكون دون الرتبة الاخرى كقيادة ثغر أو ولاية جباية خاصة أو النظر في أمر خاص كحسبة الطعام أو النظر في السكة فان هذه كلها نظر في أحوال خاصة فيكون صاحبها تبعا لاهل النظر العام وتكون رتبته مرؤوسة لاولئك ومازال الامر في الدول قبل الاسلام هكذا حتى جاء الاسلام وصار الامر خلافة فذهبت تلك الخطط كلها بذهاب رسم الملك الى ما هو طبيعي من المعاونة بالرأي والمفاوضة فيه فلم يمكن زواله اذ هو أمر لا بد منه فكان صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه ويفاوضهم في مهماته العامة والخاصة ويخص مع ذلك أبا بكر بخصوصيات أخرى حتى كان العرب الذين عرفوا الدول وأحوالها في كسرى وقيصر والنجاشي يسمون أبا بكر وزيره ولم يكن لفظ الوزير يعرف بين

المسلمين لذهاب رتبة الملك بسذاجة الاسلام وكذا عمر مع أبي بكر وعلي وعثمان مع عمر وأما حال الجباية والانفاق والحسبان فلم يكن عندهم برتبة لان القوم كانوا عربا أميين لا يحسنون الكتاب والحساب فكانوا يستعملون في الحساب أهل الكتاب أو أفرادا من موالي العجم ممن يجيده وكان قليلا فيهم وأما أشرافهم فلم يكونوا يجيدونه لان الامية كانت صفتهم التي امتازوا بها وكذا حال المخاطبات وتنفيذ الامور لم تكن عندهم رتبة خاصة للامية التي كانت فيهم والامانة العامة في كتمان القول وتأديته ولم تخرج السياسة الى اختياره لان الخلافة انما هي دين ليست من السياسة الملكية في شيء وأيضا فلم تكن الكتابة صناعة فيستجاد للخليفة أحسنها لان الكل كانوا يعبرون عن مقاصدهم بأبلغ العبارات ولم يبق الا الخط فكان الخليفة يستنيب في كتابته متى عن له من يحسنه * وأما مدافعة ذوي الحاجات عن أبوابهم فكان محظورا بالشريعة فلم يفعلوه فلما انقلبت الخلافة الى الملك وجاءت رسوم السلطان وألقابه كان أول شيء بدئ به في الدولة شأن الباب وسده دون الجمهور بما كانوا يخشون على أنفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم كما وقع بعمر وعلي ومعاوية وعمرو بن العاصي وغيرهم مع ما في فتحه من ازدحام الناس عليهم وشغلهم بهم عن المهمات فاتخذوا من يقوم لهم بذلك وسموه الحاجب وقد جاء أن عبد الملك لما ولى حاجبه قال له قد وليتك حجابة بابي الا عن ثلاثة المؤذن للصلاة فانه داعي الله وصاحب البريد فأمر ما جاء به وصاحب الطعام لئلا يفسد ثم استفحل الملك بعد ذلك فظهر المشاور والمعين في أمور القبائل والعصائب واستئلافهم وأطلق عليه اسم الوزير وبقي أمر الحسبان في الموالي والذميين واتخذ للسجلات كاتب مخصوص حوطة على أسرار السلطان أن تشتهر فتفسد سياسته مع قومه ولم يكن بمثابة الوزير لانه انما احتيج له من حيث الخط والكتاب لا من حيث اللسان الذي هو الكلام اذ اللسان لذلك العهد على حاله لم يفسد فكانت الوزارة لذلك أرفع رتبهم يومئذ هذا في سائر دولة بني أمية فكان النظر للوزير عاما في أحوال التدبير والمفاوضات وسائر أمور الحمايات والمطالبات وما يتبعها من النظر في ديوان الجند وفرض العطاء بالاهلة وغير ذلك فلما جاءت دولة بني العباس واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت عظم شأن الوزير وصارت اليه النيابة في انفاذ الحل والعقد وتعينت مرتبته في الدولة وعنت لها الوجوه وخضعت لها الرقاب وجعل لها النظر في ديوان الحسبان لما تحتاج اليه خطته من قسم الاعطيات في الجند فاحتاج الى النظر في جمعه وتفريقه وأضيف اليه النظر فيه ثم جعل له النظر في القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذياع

والشياع ودفع اليه فصار اسم الوزير جامعا لخطتى السيف والقلم وسائر معانى الوزارة والمعاونة حتى لقد دعى جعفر بن يحيى بالسلطان أيام الرشيد اشارة الى عموم نظره وقيامه بالدولة ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها الا الحجابة التى هى القيام على الباب فلم تكن له لاستنكافه عن مثل ذلك ثم جاء فى الدولة العباسية شأن الاستبداد على السلطان وتعاورها استبداد الوزارة مرة والسلطان أخرى وصار الوزير اذا استبد محتاجا الى استنابة الخليفة اياه لذلك لتصح الاحكام الشرعية وتجىء على حالها كما تقدم فانقسمت الوزارة حينئذ الى وزارة تنفيذ وهى حال ما يكون السلطان قائما على نفسه والى وزارة تفويض وهى حال ما يكون الوزير مستبدا عليه ثم استمر الاستبداد وصار الامر لملوك العجم وتعطل رسم الخلافة ولم يكن لاولئك المتغلبين أن ينتحلوا ألقاب الخلافة واستنكفوا من مشاركة الوزراء فى اللقب لانهم خول لهم فتسموا بالامارة والسلطان وكان المستبد على الدولة يسمى أمير الامراء أو بالسلطان الى ما يحليه به الخليفة من ألقابه كما تراه فى ألقابهم وتركوا اسم الوزارة الى من يتولاها للخليفة فى خاصته ولم يزل هذا الشأن عندهم الى آخر دولتهم وفسد اللسان خلال ذلك كله وصارت صناعة ينتحلها بعض الناس فامتهنت وترفع الوزراء عنها لذلك ولانهم عجم وليست تلك البلاغة هى المقصودة من لسانهم فتخير لها من سائر الطبقات واختصت به وصارت خادمة للوزير واختص اسم الامير بصاحب الحروب والجند وما يرجع اليها ويده مع ذلك عالية على أهل الرتب وأمره نافذ فى الكل اما نيابة أو استبدادا واستمر الامر على هذا ثم جاءت دولة الترك آخرا بمصر فرأوا أن الوزارة قد ابتذلت بترفع أولئك عنها ودفعها لمن يقوم بها للخليفة المحجور ونظره مع ذلك متعقب بنظر الامير فصارت مرؤسة ناقصة فاستنكف أهل هذه الرتبة العالية فى الدولة عن اسم الوزارة وصار صاحب الاحكام والنظر فى الجند يسمى عندهم بالنائب لهذا العهد وبقى اسم الحاجب فى مدلوله واختص اسم الوزير عندهم بالنظر فى الجباية * وأما دولة بنى أمية بالاندلس فأنفوا اسم الوزير فى مدلوله أول الدولة ثم قسموا خطته أصنافا وأفردوا لكل صنف وزيرا فجعلوا لحسبان المال وزيرا وللترسيل وزيرا وللنظر فى حوائج المتظلمين وزيرا وللنظر فى أحوال أهل الثغور وزيرا وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم وينفذون أمر السلطان هنالك كل فيما جعل له وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان فى كل وقت فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب ولم يزل الشأن هذا الى آخر دولتهم فارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون لقبها

فأكثرهم يومئذ يسمى الحاجب كما نذكره ثم جاءت دولة الشيعة بافريقية والقيروان
وكان للقائمين بها رسوخ في البداوة فأغفلوا أمر هذه الخطط أولا وتنقيح أسمائها حتى
أدركت دولتهم الحضارة فصاروا الى تقليد الدولتين قبلهم في وضع أسمائها كما تراه في
أخبار دولتهم * ولما جاءت دولة الموحدين من بعد ذلك أغفلت الامر أولا للبداوة
ثم صارت الى انتحال الاسماء والالقاب وكان اسم الوزير في مدلوله ثم اتبعوا دولة
الامويين وقلدوها في مذاهب السلطان واختاروا اسم الوزير لمن يحجب السلطان
في مجلسه ويقف بالوفود والداخلين على السلطان عند الحدود في تحيتهم وخطابهم
والآداب التي تلزم في الكون بين يديه ورفعوا خطة الحجابة عنه ما شاؤا ولم يزل الشأن
ذلك الى هذا العهد وأما في دولة الترك بالمشرق فيسمون هذا الذي يقف بالناس على
حدود الآداب في اللقاء والتحية في مجالس السلطان والتقدم بالوفود بين يديه
الدويدار ويضيفون اليه استتباع كاتب السر وأصحاب البريد المتصرفين في حاجات
السلطان بالقاصية وبالحاضرة وحالهم على ذلك لهذا العهد والله مولي الامور لمن يشاء
* (الحجابة) قد قدمنا أن هذا اللقب كان مخصوصا في الدولة الاموية والعباسية بمن
يحجب السلطان عن العامة ويغلق بابه دونهم أو يفتحه لهم على قدره في مواقيته
وكانت هذه منزلة يومئذ عن الخطط مرؤسة لها اذ الوزير متصرف فيها بما يراه وهكذا
كانت سائر أيام بني العباس والى هذا العهد فهي بمصر مرؤسة لصاحب الخطة العليا
المسمى بالنائب * وأما في الدولة الاموية بالاندلس فكانت الحجابة لمن يحجب السلطان
عن الخاصة والعامة ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فمن دونهم فكانت في دولتهم
رفيعة غاية كما تراه في أخبارهم كابن حديد وغيره من حجابهم ثم لما جاء الاستبداد على
الدولة اختص المستبد باسم الحجابة لشرفها فكان المنصور بن أبي عامر وأبناؤه كذلك
ولما بدؤا في مظاهر الملك وأطواره جاء من بعدهم من ملوك الطوائف فلم يتركوا لقبها
وكانوا يعدونها شرفا لهم وكان أعظمهم ملكا بعد انتحال ألقاب الملك وأسمائه لابد له
من ذكر الحاجب وذي الوزارتين يعنون به السيف والقلم ويدلون بالحجابة على حجابة
السلطان عن العامة والخاصة وبذي الوزارتين على جمعه لخطتي السيف والقلم ثم لم يكن
في دول المغرب وافريقية ذكر لهذا الاسم للبداوة التي كانت فيهم وربما يوجد في دولة
العبيديين بمصر عند استعظامها وحضارتها الا أنه قليل * ولما جاءت دولة الموحدين
لم تستمكن فيها الحضارة الداعية الى انتحال الالقاب وتمييز الخطط وتعيينها بالاسماء
الا آخرا فلم يكن عندهم من الرتب الا الوزير فكانوا أولا يخصون بهذا الاسم الكاتب
المتصرف المشارك للسلطان في خاص أمره كابن عطية وعبد السلام الكومي وكان له

مع ذلك النظر في الحساب والاشغال المالية ثم صار بعد ذلك اسم الوزير لاهل نسب الدولة من الموحدين كابن جامع وغيره ولم يكن اسم الحاجب معروفا في دولتهم يومئذ (وأما بنو أبي حفص بافريقية) فكانت الرياسة في دولتهم أولا والتقديم لوزير الرأي والمشورة وكان يخص باسم شيخ الموحدين وكان له النظر في الولايات والعزل وقود العساكر والحروب واختص الحسبان والديوان برتبة أخرى ويسمى متوليها بصاحب الاشغال ينظر فيها النظر المطلق في الدخل والخرج ويحاسب ويستخلص الاموال ويعاقب على التفريط وكان من شرطه أن يكون من الموحدين واختص عندهم القلم أيضا بمن يجيد الترسيل ويؤتمن على الاسرار لان الكتابة لم تكن من منتحل القوم ولا الترسيل بلسانهم فلم يشترط فيه النسب واحتاج السلطان لاتساع ملكه وكثرة المرتزقين بداره الى قهرمان خاص بداره في أحواله يجريها على قدرها وترتيبها من رزق وعطاء وكسوة ونفقة في المطابخ والاصطبلات وغيرهما وحصر الذخيرة وتنفيذ ما يحتاج اليه في ذلك على أهل الجباية فخصوه باسم الحاجب وربما أضافوا اليه كتابة العلامة على السجلات اذا اتفق أنه يحسن صناعة الكتابة وربما جعلوه لغيره واستمر الامر على ذلك وحجب السلطان نفسه عن الناس فصار هذا الحاجب واسطة بين الناس وبين أهل الرتب كلهم ثم جمع له آخر الدولة السيف والحرب ثم الرأي والمشورة فصارت الخطة أرفع الرتب وأوعبها للخطط ثم جاء الاستبداد والحجر مدة من بعد السلطان الثاني عشر منهم ثم استبد بعد ذلك حفيده السلطان أبو العباس على نفسه وأذهب آثار الحجر والاستبداد باذهاب خطة الحجابة التي كانت سلما اليه وباشر أموره كلها بنفسه من غير استعانة بأحد والامر على ذلك لهذا العهد

(وأما دولة زناتة بالمغرب) وأعظمها دولة بني مرين فلا أثر لاسم الحاجب عندهم وأما رياسة الحرب والعساكر فهي للوزير ورتبة القلم في الحسبان والرسائل راجعة الى من يحسنها من أهلها وان اختصت ببعض البيوت المصطنعين في دولتهم وقد تجمع عندهم وقد تفرق وأما باب السلطان وحجبه عن العامة فهي رتبة عندهم يسمى صاحبها بالمزوار ومعناه المقدم على الجنادرة المتصرفين بباب السلطان في تنفيذ أوامره وتصريف عقوباته وانزال سطواته وحفظ المعتقلين في سجونه والعريف عليهم في ذلك فالباب له وأخذ الناس بالوقوف عند الحدود في دار العامة راجع اليه فكأنها وزارة صغرى

(وأما دولة بني عبد الواد) فلا أثر عندهم لشيء من هذه الالقاب ولا تمييز الخطط لبداوة دولتهم وقصورها وانما يخصون باسم الحاجب في بعض الاحوال منفذ

الخاص بالسلطان فى داره كما كان فى دولة بنى أبى حفص وقد يجمعون له الحسبان والسجل كما كان فيها حملهم على ذلك تقليدا للدولة بما كانوا فى تبعها وقائمين بدعوتها منذ أول أمرهم

(وأما أهل الاندلس لهذا العهد) فالمخصوص عندهم بالحسبان وتنفيذ حال السلطان وسائر الامور المالية يسمونه بالوكيل وأما الوزير فكالوزير الا أنه قد يجمع له الترسيل والسلطان عندهم يضع خطه على السجلات كلها فليس هناك خطة العلامة كما لغيرهم من الدول

(وأما دولة الترك بمصر) فاسم الحاجب عندهم موضوع لحاكم من أهل الشوكة وهم الترك ينفذ الاحكام بين الناس فى المدينة وهم متعددون وهذه الوظيفة عندهم تحت وظيفة النيابة التى لها الحكم فى أهل الدولة وفى العامة على الاطلاق وللنائب التولية والعزل فى بعض الوظائف على الاحيان ويقطع القليل من الارزاق ويبتها وتنفذ أوامره كما تنفذ المراسم السلطانية وكأن له النيابة المطلقة عن السلطان وللحجاب الحكم فقط فى طبقات العامة والجند عند الترافع اليهم واجبار من أبى الانقياد للحكم وطورهم تحت طور النيابة والوزير فى دولة الترك هو صاحب جباية الاموال فى الدولة على اختلاف أصنافها من خراج أو مكس أو جزية ثم فى تصريفها فى الانفاقات السلطانية أو الجرايات المقدرة وله مع ذلك التولية والعزل فى سائر العمال المباشرين لهذه الجباية والتنفيذ على اختلاف مراتبهم وتباين أصنافهم ومن عوائدهم أن يكون هذا الوزير من صنف القبط القائمين على ديوان الحسبان والجباية لاختصاصهم بذلك فى مصر منذ عصور قديمة وقد يوليها السلطان بعض الاحيان لاهل الشوكة من رجالات الترك أو أبنائهم على حسب الداعية لذلك والله مدبر الامور ومصرفها بحكمته لا اله الا هو رب الاولين والآخرين

(ديوان الاعمال والجبايات)

اعلم أن هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك وهى القيام على أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة فى الدخل والخرج واحصاء العساكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم فى اباناتها والرجوع فى ذلك الى القوانين التى يرتبها قومة تلك الاعمال وقهارمة الدولة وهى كلها مسطورة فى كتاب شاهد بتفاصيل ذلك فى الدخل والخرج مبنى على جزء كبير من الحساب لا يقوم به الا المهرة من أهل تلك الاعمال ويسمى ذلك الكتاب بالديوان وكذلك مكان جلوس العمال المباشرين لها * ويقال ان

أصل هذه التسمية أن كسرى نظر يوما الى كتاب ديوانه وهم يحسبون على أنفسهم كأنهم يحادثون فقال ديوانه أى مجانين بلغة الفرس فسمى موضعهم بذلك وحذفت الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفا فقيل ديوان ثم نقل هذا الاسم الى كتاب هذه الاعمال المتضمن للقوانين والحسبانات وقيل انه اسم للشياطين بالفارسية سمى الكتاب بذلك لسرعة نفوذهم فى فهم الامور ووقوفهم على الجلى منها والخفى وجمعهم لما شذ وتفرق ثم نقل الى مكان جلوسهم لتلك الاعمال وعلى هذا فيتناول اسم الديوان كتاب الرسائل ومكان جلوسهم بباب السلطان على ما يأتى بعد وقد تفرد هذه الوظيفة بناظر واحد ينظر فى سائر هذه الاعمال وقد يفرد كل صنف منها بناظر كما يفرد فى بعض الدول النظر فى العساكر واقطاعاتهم وحسبان أعطياتهم أو غير ذلك على حسب مصطلح الدولة وما قرره أولوها * واعلم أن هذه الوظيفة انما تحدث فى الدول عند تمكن الغلب والاستيلاء والنظر فى أعطاف الملك وفنون التمهيد وأول من وضع الديوان فى الدولة الاسلامية عمر رضى الله عنه يقال لسبب مال أتى به أبو هريرة رضى الله عنه من البحرين فاستكثروه وتعبوا فى قسمه فسموا الى احصاء الاموال وضبط العطاء والحقوق فأشار خالد بن الوليد بالديوان وقال رأيت ملوك الشأم يدوّنون فقبل منه عمر وقيل بل أشار عليه به الهرمزان لما رآه يبعث البعوث بغير ديوان فقيل له ومن يعلم بغيبة من يغيب منهم فان من تخلف أخل بمكانه وانما يضبط ذلك الكتاب فأثبت لهم ديوانا وسأل عمر عن اسم الديوان فعبر له ولما اجتمع ذلك أمر عقيل بن أبى طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من كتاب قريش فكتبوا ديوان العساكر الاسلامية على ترتيب الانساب مبتدأ من قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومابعدها الاقرب فالاقرب هكذا كان ابتداء ديوان الجيش وروى الزهرى عن سعيد بن المسيب ان ذلك كان فى المحرم سنة عشرين * وأما ديوان الخراج والجبايات فبقى بعد الاسلام على ما كان عليه من قبل ديوان العراق بالفارسية وديوان الشأم بالرومية وكتاب الدواوين من أهل العهد من الفريقين ولما جاء عبد الملك بن مروان واستحال الامر ملكا وانتقل القوم من غضاضة البداوة الى رونق الحضارة ومن سذاجة الامية الى حذق الكتابة وظهر فى العرب ومواليهم مهرة فى الكتاب والحسبان فأمر عبد الملك سليمان بن سعد والى الاردن لعهده أن ينقل ديوان الشأم الى العربية فأكمله لسنة من يوم ابتدائه ووقف عليه سرجون كاتب عبد الملك فقال لكتاب الروم اطلبوا العيش فى غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم * وأما ديوان العراق فأمر الحجاج كاتبه صالح ابن عبد الرحمن وكان يكتب بالعربية والفارسية ولقن ذلك عن زادان فروخ كاتب

الحجاج قبله ولما قتل زادان في حرب عبد الرحمن بن الاشعث استخلف الحجاج صالحا هذا مكانه وأمره أن ينقل الديوان من الفارسية الى العربية ففعل ورغم لذلك كتاب الفرس وكان عبد الحميد بن يحيى يقول لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب ثم جعلت هذه الوظيفة في دولة بني العباس مضافة الى من كان له النظر فيه كما كان شأن بني برمك وبني سهل بن نوبخت وغيرهم من وزراء الدولة * وأما ما يتعلق بهذه الوظيفة من الاحكام الشرعية مما يختص بالجيش أو بيت المال في الدخل والخرج وتمييز النواحي بالصلح والعنوة وفي تقليد هذه الوظيفة لمن يكون وشروط الناظر فيها والكاتب وقوانين الحسبانات فأمر راجع الى كتب الاحكام السلطانية وهي مسطورة هنالك وليست من غرض كتابنا وانما نتكلم فيها من حيث طبيعة الملك الذي نحن بصدد الكلام فيه وهذه الوظيفة جزء عظيم من الملك بل هي ثالثة أركانه لان الملك لا بد له من الجند والمال والمخاطبة لمن غاب عنه فاحتاج صاحب الملك الى الاعوان في أمر السيف وأمر القلم وأمر المال فينفرد صاحبها لذلك بجزء من رياسة الملك وكذلك كان الامر في دولة بني أمية بالاندلس والطوائف بعدهم * وأما في دولة الموحدين فكان صاحبها انما يكون من الموحدين يستقل بالنظر في استخراج الاموال وجمعها وضبطها وتعقب نظر الولاة والعمال فيها ثم تنفيذها على قدرها وفي مواقيتها وكان يعرف بصاحب الاشغال وكان ربما يليها في الجهات غير الموحدين ممن يحسنها * ولما استبد بنو أبي حفص بافريقية وكان شأن الجالية من الاندلس فقدم عليهم أهل البيوتات وفيهم من كان يستعمل ذلك في الاندلس مثل بني سعيد أصحاب القلعة جوار غرناطة المعروفين ببني أبي الحسن فاستكفوا بهم في ذلك وجعلوا لهم النظر في الاشغال كما كان لهم بالاندلس وداولوا فيها بينهم وبين الموحدين ثم استقل بها أهل الحسبان والكتاب وخرجت عن الموحدين ثم لما استغلظ أمر الحاجب ونفذ أمره في كل شأن من شؤن الدولة تعطل هذا الرسم وصار صاحبه مرؤسا للحاجب وأصبح من جملة الجباة وذهبت تلك الرياسة التي كانت له في الدولة * وأما دولة بني مرين لهذا العهد فحسبان العطاء والخراج مجموع لواحد وصاحب هذه الرتبة هو الذي يصحح الحسبانات كلها ويرجع الى ديوانه ونظره معقب بنظر السلطان أو الوزير وخطه معتبر في صحة الحسبان في الخراج والعطاء هذه أصول الرتب والخطط السلطانية وهي الرتب العالية التي هي عامة النظر ومباشرة للسلطان * وأما هذه الرتبة في دولة الترك فمتنوعة وصاحب ديوان العطاء يعرف بناظر الجيش وصاحب المال مخصوص باسم الوزير وهو الناظر في ديوان الجباية العامة للدولة وهو أعلى رتب الناظرين في الاموال لان النظر في الاموال عندهم يتنوع

الى رتب كثيرة لانفساح دولتهم وعظمة سلطانهم واتساع الاموال والجبايات عن أن يستقل بضبطها الواحد من الرجال ولو بلغ فى الكفاية مبالغه فتعين النظر العام منها هذا المخصوص باسم الوزير وهو مع ذلك رديف لمولى من موالى السلطان وأهل عصبيته وأرباب السيوف فى الدولة يرجع نظر الوزير الى نظره ويجتهد جهده فى متابعته ويسمى عندهم استاذ الدولة وهو أحد الامراء الأكابر فى الدولة من الجند وأرباب السيوف ويتبع هذه الخطة خطط عندهم أخرى كلها راجعة الى الاموال والحسبان مقصورة النظر على أمور خاصة مثل ناظر الخاص وهو المباشر لاموال السلطان الخاصة به من اقطاعه أو سهمانه من أموال الخراج و بلاد الجباية مما ليس من أموال المسلمين العامة وهو تحت يد الامير استاذ الدار وان كان الوزير من الجند فلا يكون لاستاذ الدار نظر عليه ونظر الخاص تحت يد الخازن لاموال السلطان من مماليكه المسمى خازن الدار لاختصاص وظيفتهما بمال السلطان الخاص * هذا بيان هذه الخطة بدولة الترك بالمشرق بعد ما قدمناه من أمرها بالمغرب والله مصرف الامور لا رب غيره

(ديوان الرسائل والكتابة)

هذه الوظيفة غير ضرورية فى الملك لاستغناء كثير من الدول عنها رأسا كما فى الدول العريقة فى البداوة التى لم يأخذها تهذيب الحضارة ولا استحكام الصنائع وانما أكد الحاجة اليها فى الدولة الاسلامية شأن اللسان العربى والبلاغة فى العبارة عن المقاصد فصار الكتاب يؤدى كنه الحاجة بأبلغ من العبارة اللسانية فى الاكثر وكان الكاتب للامير يكون من أهل نسبه ومن عظماء قبيله كما كان للخلفاء وأمراء الصحابة بالشأم والعراق لعظم أمانتهم وخلوص أسرارهم فلما فسد اللسان وصار صناعة اختص بمن يحسنه وكانت عند بنى العباس رفيعة وكان الكاتب يصدر السجلات مطلقة ويكتب فى آخرها اسمه ويختم عليها بخاتم السلطان وهو طابع منقوش فيه اسم السلطان أو شارته يغمس فى طين أحمر مذاب بالماء ويسمى طين الختم ويطبع به على طرفى السجل عند طيه والصاقه ثم صارت السجلات من بعدهم تصدر باسم السلطان ويضع الكاتب فيها علامته أولا أو آخرا على حسب الاختيار فى محلها وفى لفظها ثم قد تنزل هذه الخطة بارتفاع المكان عند السلطان لغير صاحبها من أهل المراتب فى الدولة أو استبداد وزير عليه فتصير علامة هذا الكاتب ملغاة الحكم بعلامة الرئيس عليه يستدل بها فيكتب صورة علامته المعهودة والحكم لعلامة ذلك الرئيس كما وقع آخر الدولة

الخصوصية لما ارتفع شأن الحجابة وصار أمرها الى التفويض ثم الاستبداد صار حكم العلامة التي للكاتب ملغى وصورتها ثابتة اتباعا لما سلف من أمرها فصار الحاجب يرسم للكاتب امضاء كتابه ذلك بخط يصنعه ويتخير له من صيغ الانفاذ ما شاء فيأتمر الكاتب له ويضع العلامة المعتادة وقد يختص السلطان بنفسه بوضع ذلك اذا كان مستبدا بأمره قائما على نفسه فيرسم الامر للكاتب ليضع علامته * ومن خطط الكتابة التوقيع وهو أن يجلس الكاتب بين يدى السلطان فى مجالس حكمه وفصله ويوقع على القصص المرفوعة اليه أحكامها والفصل فيها متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه فاما أن تصدر كذلك واما أن يحذو الكاتب على مثالها فى سجل يكون بيد صاحب القصة ويحتاج الموقع الى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه وقد كان جعفر بن يحيى يوقع فى القصص بين يدى الرشيد ويرمى بالقصة الى صاحبها فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء فى تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها حتى قيل انها كانت تباع كل قصة منها بدينار وهكذا كان شأن الدول * واعلم أن صاحب هذه الخطة لا بد أن يتخير من أرفع طبقات الناس وأهل المروأة والحشمة منهم وزيادة العلم وعارضة البلاغة فانه معرض للنظر فى أصول العلم لما يعرض فى مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك مع ما تدعو اليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل مع ما يضطر اليه فى الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها وقد تكون الرتبة فى بعض الدول مستندة الى أرباب السيوف لما يقتضيه طبع الدولة من البعد عن معاناة العلوم لاجل سذاجة العصبية فيختص السلطان أهل عصبيته بخطط دولته وسائر رتبه فيقلد المال والسيف والكتابة منهم فأما رتبة السيف فتستغنى عن معاناة العلم وأما المال والكتابة فيضطر الى ذلك للبلاغة فى هذه والحسبان فى الاخرى فيختارون لها من هذه الطبقة ما دعت اليه الضرورة ويقلدونه الا أنه لا تكون يد آخر من أهل العصبية غالبة على يده ويكون نظره متصرفا عن نظره كما هو فى دولة الترك لهذا العهد بالمشرق فان الكتابة عندهم وان كانت لصاحب الانشاء الا أنه تحت يد أمير من أهل عصبية السلطان يعرف بالدويدار وتعويل السلطان ووثوقه به واستنامته فى غالب أحواله اليه وتعويله على الآخر فى أحوال البلاغة وتطبيق المقاصد وكتمان الاسرار وغير ذلك من توابعها * وأما الشروط المعتبرة فى صاحب هذه الرتبة التى يلاحظها السلطان فى اختياره وانتقائه من أصناف الناس فهى كثيرة وأحسن من استوعبها عبد الحميد الكاتب فى رسالته الى الكتاب وهى أما بعد حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة وحاطكم ووفقكم وأرشدكم فان

الله عز وجل جعل الناس بعد الانبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين
ومن بعد الملوك المكرمين أصنافا وان كانوا فى الحقيقة سواء وصرفهم فى صنوف
الصناعات وضروب المحاولات الى أسباب معاشهم وأبواب أرزاقهم فجعلكم
معشر الكتاب فى أشرف الجهات أهل الادب والمروآت والعلم والرزانة بكم ينتظم
للخلافة محاسنها وتستقيم أمورها وبنصحائكم يصلح الله للخلق سلطانهم وتعمر بلدانهم
لا يستغنى الملك عنكم ولا يوجد كاف الا منكم فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التى
بها يسمعون وأبصارهم التى بها يبصرون وألسنتهم التى بها ينطقون وأيديهم التى بها
يبطشون فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ولا نزع عنكم ما أضفاه من
النعمة عليكم وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج الى اجتماع خلال الخير
المحمودة وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم أيها الكتاب اذا كنتم على ما يأتى
فى هذا الكتاب من صفتكم فان الكاتب يحتاج من نفسه ويحتاج منه صاحبه الذى
يثق به فى مهمات أموره أن يكون حليما فى موضع الحلم فهيما فى موضع الحكم مقداما
فى موضع الاقدام محجاما فى موضع الاحجام مؤثرا للعفاف والعدل والانصاف
كتوما للاسرار وفيا عند الشدائد عالما بما يأتى من النوازل يضع الامور مواضعها
والطوارق فى أماكنها قد نظر فى كل فن من فنون العلم فأحكمه وان لم يحكمه أخذ
منه بمقدار ما يكتفى به يعرف بغريزة عقله وحسن أدبه وفضل تجربته ما يرد عليه قبل
وروده وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره فيعد لكل أمر عدته وعتاده ويهيئ لكل وجه
هيئته وعادته فتنافسوا يا معشر الكتاب فى صنوف الآداب وتفقهوا فى الدين
وابدؤا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ثم العربية فانها ثقاف ألسنتكم ثم أجيدوا
الخط فانه حلية كتبكم وارووا الاشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب
والعجم وأحاديثها وسيرها فان ذلك معين لكم على ما تسمو اليه هممكم ولا تضيعوا
النظر فى الحساب فانه قوام كتاب الخراج وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودنيها
وسفساف الامور ومحاقرها فانها مذلة للرقاب مفسدة للكتاب ونزهوا صناعتكم عن
الدناءة وآربؤوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات واياكم والكبر
والسخف والعظمة فانها عداوة مجتلبة من غير احنة وتحابوا فى الله عز وجل فى
صناعتكم وتواصوا عليها بالذى هو أليق لاهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم
وان نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع اليه حاله ويثوب اليه
أمره وان أقعد أحدا منكم الكبر عن مكسبه ولقاء اخوانه فزوروه وعظموه
وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته وليكن الرجل منكم على من

اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته اليه أحوط منه على ولده وأخيه فان عرضت في الشغل محمدة فلا يصرفها الا الى صاحبه وان عرضت مذمة فليحملها هو من دونه وليحذر السقطة والزلة والملل عند تغير الحال فان العيب اليكم معشر الكتاب أسرع منه الى القراء وهو لكم أفسد منه لها فقد علمتم أن الرجل منكم اذا صحبه من يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره واحتماله وخيره ونصيحته وكتمان سره وتدبير أمره ما هو جزاء لحقه ويصدق ذلك تبعا له عند الحاجة اليه والاضطرار الى ما لديه فاستشعروا ذلك وفقكم الله من أنفسكم في حالة الرخاء والشدة والحرمان والمواساة والاحسان والسراء والضراء فنعمت الشيمة هذه من وسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة واذا ولي الرجل منكم أو صير اليه من أمر خلق الله وعياله أمر فليراقب الله عز وجل وليؤثر طاعته وليكن على الضعيف رفيقا وللمظلوم منصفا فان الخلق عيال الله وأحبهم اليه أرفقهم بعياله ثم ليكن بالعدل حاكما وللاشراف مكرما وللفيء موفرا وللبلاد عامرا وللرعية متألفا وعن أذاهم متخلفا وليكن في مجلسه متواضعا حليما وفي سجلات خراجه واستقضاء حقوقه رفيقا واذا صحب أحدكم رجلا فليختبر خلائقه فاذا عرف حسنها وقبيحها أعانه على ما يوافقه من الحسن واحتال على صرفه عما يهواه من القبيح بألطف حيلة وأجمل وسيلة وقد علمتم أن سائس البهيمة اذا كان بصيرا بسياستها التمس معرفة أخلاقها فان كانت رموحا لم يهجها اذا ركبها وان كانت شبوبا اتقاها من بين يديها وان خاف منها شرودا توقاها من ناحية رأسها وان كانت حرونا قمع برفق هواها في طرقها فان استمرت عطفها يسيرا فيسلس له قيادها وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجربهم وداخلهم والكاتب لفضل أدبه وشريف صنعته ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوله من الناس ويناظره ويفهم عنه أو يخاف سطوته أولى بالرفق لصاحبه ومداراته وتقويم أوده من سائس البهيمة التي لا تحير جوابا ولا تعرف صوابا ولا تفهم خطابا الا بقدر ما يصيرها اليه صاحبها الراكب عليها الا فارفقوا رحمكم الله في النظر واعملوا ما أمكنكم فيه من الروية والفكر تأمنوا باذن الله ممن صحبتموه النبوة والاستثقال والجفوة ويصير منكم الى الموافقة وتصيروا منه الى المواخاة والشفقة ان شاء الله ولا يجاوزن الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه وخدمه وغير ذلك من فنون أمره قدر حقه فانكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعتكم خدمة لا تحملون في خدمتكم على التقصير وحفظة لا تحتمل منكم أفعال التضييع والتبذير واستعينوا

على صفافكم بالقصد فى كل ما ذكرته لكم وقصصته عليكم واحذروا متالف السرف
وسوء عاقبة الترف فانهما يعقبان الفقر ويذلان الرقاب ويفضحان أهلهما ولاسيما
الكتاب وأرباب الآداب وللامور أشباه وبعضها دال على بعض فاستدلوا على
مؤتنف أعمالكم بما سبقت اليه تجربتكم ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها محجة
وأصدقها حجة وأحمدها عاقبة واعلموا أن للتدبير آفة متلفة وهو الوصف الشاغل
لصاحبه عن انفاذ علمه ورويته فليقصد الرجل منكم فى مجلسه قصد الكافى من منطقه
وليوجز فى ابتدائه وجوابه وليأخذ بمجامع حججه فان ذلك مصلحة لفعله ومدفعة
للشاغل عن اكثاره وليضرع الى الله فى صلة توفيقه وامداده بتسديده مخافة وقوعه
فى الغلط المضر ببدنه وعقله وآدابه فانه ان ظن منكم ظان أو قال قائل ان الذى برز من
جميل صنعته وقوة حركته انما هو بفضل حيلته وحسن تدبيره فقد تعرض بحسن ظنه
أو مقالته الى أن يكله الله عز وجل الى نفسه فيصير منها الى غير كاف وذلك على من تأمله
غير خاف ولا يقول أحد منكم انه أبصر بالامور وأحمل لعبء التدبير من مرافقه فى
صناعته ومصاحبه فى خدمته فان أعقل الرجلين عند ذوى الالباب من رمى بالعجب
وراء ظهره ورأى أن أصحابه أعقل منه وأجمل فى طريقته وعلى كل واحد من الفريقين
أن يعرف فضل نعم الله جل ثناؤه من غير اغترار برأيه ولا تزكية لنفسه ولا يكاثر على
أخيه أو نظيره وصاحبه وعشيره وحمد الله واجب على الجميع وذلك بالتواضع لعظمته
والتذلل لعزته والتحدث بنعمته (وأنا أقول) فى كتابى هذا ما سبق به المثل من تلزمه
النصيحة يلزمه العمل وهو جوهر هذا الكتاب وغرة كلامه بعد الذى فيه من ذكر
الله عز وجل فلذلك جعلته آخره وتممته به تولانا الله واياكم يا معشر الطلبة والكتبة بما
يتولى به من سبق علمه باسعاده وارشاده فان ذلك اليه وبيده والسلام عليكم ورحمة
الله وبركاته اه *(الشرطة)* ويسمى صاحبها لهذا العهد بافريقية الحاكم وفى
دولة أهل الاندلس صاحب المدينة وفى دولة الترك الوالى وهى وظيفة مرؤوسة لصاحب
السيف فى الدولة وحكمه نافذ فى صاحبها فى بعض الاحيان وكان أصل وضعها فى
الدولة العباسية لمن يقيم أحكام الجرائم فى حال استبدائها أولا ثم الحدود بعد استيفائها
فان التهم التى تعرض فى الجرائم لا نظر للشرع الا فى استيفاء حدودها وللسياسة النظر
فى استيفاء موجباتها باقرار يكرهه عليه الحاكم اذا احتفت به القرائن لما توجبه
المصلحة العامة فى ذلك فكان الذى يقوم بهذا الاستبداء وباستيفاء الحدود بعده اذا
تنزه عنه القاضى يسمى صاحب الشرطة وربما جعلوا اليه النظر فى الحدود والدماء
باطلاق وأفردوها من نظر القاضى ونزهوا هذه المرتبة وقلدوها كبار القواد وعظماء

الخاصة من مواليهم ولم تكن عامة التنفيذ فى طبقات الناس انما كان حكمهم على الدهماء وأهل الريب والضرب على أيدى الرعاع والفجرة ثم عظمت نباهتها فى دولة بنى أمية بالاندلس وتنوعت الى شرطة كبرى وشرطة صغرى وجعل حكم الكبرى على الخاصة والدهماء وجعل له الحكم على أهل المراتب السلطانية والضرب على أيديهم فى الظلامات وعلى أيدى أقاربهم ومن اليهم من أهل الجاه وجعل صاحب الصغرى مخصوصا بالعامة ونصب لصاحب الكبرى كرسى بباب دار السلطان ورجال يتبوؤن المقاعد بين يديه فلا يبرحون عنها الا فى تصريفه وكانت ولايتها للاكابر من رجالات الدولة حتى كانت ترشيحا للوزارة والحجابة * وأما فى دولة الموحدين بالمغرب فكان لها حظ من التنويه وان لم يجعلوها عامة وكان لا يليها الا رجالات الموحدين وكبراؤهم ولم يكن له التحكم على أهل المراتب السلطانية ثم فسد اليوم منصبها وخرجت عن رجال الموحدين وصارت ولايتها لمن قام بها من المصطنعين * وأما فى دولة بنى مرين لهذا العهد بالمشرق فولايتها فى بيوت من مواليهم وأهل اصطناعهم وفى دولة الترك بالمشرق فى رجالات الترك أو أعقاب أهل الدولة قبلهم من الكرد يتخيرونهم لها فى النظر بما يظهر منهم من الصلابة والمضاء فى الاحكام لقطع مواد الفساد وحسم أبواب الدعارة وتخريب مواطن الفسوق وتفريق مجامعه مع اقامة الحدود الشرعية والسياسية كما تقتضيه رعاية المصالح العامة فى المدينة والله مقلب الليل والنهار وهو العزيز الجبار والله تعالى أعلم

(قيادة الاساطيل) وهى من مراتب الدولة وخططها فى ملك المغرب وافريقية ومرؤسة لصاحب السيف وتحت حكمه فى كثير من الاحوال ويسمى صاحبها فى عرفهم الملند بتفخيم اللام منقولا من لغة الافرنجة فانه اسمها فى اصطلاح لغتهم وانما اختصت هذه المرتبة بملك افريقية والمغرب لانهما جميعا على ضفة البحر الرومى من جهة الجنوب وعلى عدوته الجنوبية بلاد البربر كلهم من سبتة الى الاسكندرية الى الشأم وعلى عدوته الشمالية بلاد الاندلس والافرنجة والصقالبة والروم الى بلاد الشأم أيضا ويسمى البحر الرومى والبحر الشامى نسبة الى أهل عدوته والساكنون بسيف هذا البحر وسواحله من عدوتيه يعانون من أحواله ما لا تعانيه امة من أمم البحار فقد كانت الروم والافرنجة والقوط بالعدوة الشمالية من هذا البحر الرومى وكانت أكثر حروبهم ومتاجرهم فى السفن فكانوا مهرة فى ركوبه والحرب فى أساطيله ولما أسف من أسف منهم الى ملك العدوة الجنوبية مثل الروم الى افريقية والقوط الى المغرب أجازوا فى الاساطيل وملكوها وتغلبوا على البربر بها وانتزعوا من أيديهم

أمرها وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة وسبيطلة وجلولاء ومرناق وشرشال وطنجة وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يحارب صاحب رومة ويبعث الاساطيل لحربه مشحونة بالعساكر والعدد فكانت هذه عادة لاهل هذا البحر الساكنين حفافيه معروفة في القديم والحديث ولما ملك المسلمون مصر كتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاصي رضي الله عنهما أن صف لي البحر فكتب اليه ان البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف دود على عود فأوعز حينئذ بمنع المسلمين من ركوبه ولم يركبه أحد من العرب الا من افتات على عمر في ركوبه ونال من عقابه كما فعل بعرفجة بن هرثمة الازدي سيد بجيلة لما اغزاه عمان فبلغه غزوه في البحر فأنكر عليه وعنفه أنه ركب البحر للغزو ولم يزل الشأن ذلك حتى اذا كان لعهد معاوية أذن للمسلمين في ركوبه والجهاد على أعواده والسبب في ذلك أن العرب كانوا لبداوتهم لم يكونوا أول الامر مهرة في ثقافته وركوبه والروم والافرنجة لممارستهم أحواله ومرباهم في التقلب على أعواده مرنوا عليه وأحكموا الدربة بثقافته فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم العجم خولا لهم وتحت أيديهم وتقرب كل ذي صنعة اليهم بمبلغ صناعته واستخدموا من النواتية في حاجاتهم البحرية أمما وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته استحدثوا بصراء بها فشرهوا الى الجهاد فيه وأنشؤا السفن فيه والشواني وشحنوا الاساطيل بالرجال والسلاح وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافته مثل الشأم وافريقية والمغرب والاندلس وأوعز الخليفة عبد الملك الى حسان بن النعمان عامل افريقية باتخاذ دار الصناعة بتونس لانشاء الآلات البحرية حرصا على مراسم الجهاد ومنها كان فتح صقلية أيام زيادة الله الاول ابن ابراهيم بن الاغلب على يد أسد بن الفرات شيخ الفتيا وفتح قوصرة أيضا في أيامه بعد أن كان معاوية بن حديج أغزى صقلية أيام معاوية ابن أبي سفيان فلم يفتح الله على يديه وفتحت على يد ابن الاغلب وقائده أسد بن الفرات وكانت من بعد ذلك أساطيل افريقية والاندلس في دولة العبيديين والامويين تتعاقب الى بلادهما في سبيل الفتنة فتجوس خلال السواحل بالافساد والتخريب وانتهى أسطول الاندلس أيام عبد الرحمن الناصر الى مائتي مركب أو نحوها وأسطول افريقية كذلك مثله أو قريبا منه وكان قائد الاساطيل بالاندلس ابن رماحس ومرفؤها للحط والاقلاع بجاية والمرية وكانت أساطيلها مجتمعة من سائر الممالك من كل بلد تتخذ فيه السفن أسطول يرجع نظره الى قائد من النواتية يدبر أمر حربه وسلاحه ومقاتلته ورئيس يدبر أمر جريته بالريح أو بالمجاذيف وأمر ارسائه في مرفئه فاذا

اجتمعت الاساطيل لغزو محتفل أو غرض سلطانى مهم عسكرت بمرفئها المعلوم وشحنها السلطان برجاله وانجاد عساكره ومواليه وجعلهم لنظر أمير واحد من أعلى طبقات أهل مملكته يرجعون كلهم اليه ثم يسرحهم لوجههم وينتظر ايابهم بالفتح والغنيمة وكان المسلمون لعهد الدولة الاسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه فلم يكن للامم النصرانية قبل بأساطيلهم بشئ من جوانبه وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة واقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والافرنج وكان أبو القاسم الشيعى وأبناؤه يغزون أساطيلهم من المهدية جزيرة جنوة فتنقلب بالظفر والغنيمة وافتتح مجاهد العامرى صاحب دانية من ملوك الطوائف جزيرة سردانية فى أساطيله سنة خمس وأربعمائة وارتجعها النصارى لوقتها والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة والعساكر الاسلامية تجيز البحر فى الاساطيل من صقلية الى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية فتوقع بملوك الافرنج وتثخن فى ممالكهم كما وقع فى أيام بنى الحسين ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة العبيديين وانحازت امم النصرانية بأساطيلهم الى الجانب الشمالى الشرقى منه من سواحل الافرنجة والصقالبة وجزائر الرومانية لا يعدونها وأساطيل المسلمين قد ضريت عليهم ضراء الاسد على فريسته وقد ملأت الاكثر من بسيط هذا البحر عدة وعددا واختلفت فى طرقه سلما وحربا فلم تسبح للنصرانية فيه ألواح حتى اذا أدرك الدولة العبيدية والاموية الفشل والوهن وطرقها الاعتلال مد النصارى أيديهم الى جزائر البحر الشرقية مثل صقلية واقريطش ومالطة فملكوها ثم ألحوا على سواحل الشأم فى تلك الفترة وملكوا طرابلس وعسقلان وصور وعكا واستولوا على جميع الثغور بسواحل الشأم وغلبوا على بيت المقدس وبنوا عليه كنيسة لاظهار دينهم وعبادتهم وغلبوا بنى خزرون على طرابلس ثم على قابس وصفاقس ووضعوا عليهم الجزية ثم ملكوا المهدية مقر ملوك العبيديين من يد أعقاب بلكين بن زيرى وكانت لهم فى المائة الخامسة الكرة بهذا البحر وضعف شأن الاساطيل فى دولة مصر والشأم الى أن انقطع ولم يعتنوا بشئ من أمره لهذا العهد بعد ان كان لهم به فى الدولة العبيدية عناية تجاوزت الحد كما هو معروف فى أخبارهم فبطل رسم هذه الوظيفة هنالك وبقيت بافريقية والمغرب فصارت مختصة بها وكان الجانب الغربى من هذا البحر لهذا العهد موفور الاساطيل ثابت القوة لم يتحيفه عدو ولا كانت لهم به

كثيرة فكان قائد الاسطول به لعهد المرابطين بنى ميمون رؤساء جزيرة قادس ومن أيديهم أخذها عبد المؤمن بتسليمهم وطاعتهم وانتهى عدد أساطيلهم الى المائة من بلاد العدوتين جميعا * ولما استفحلت دولة الموحدين فى المائة السادسة وملكوا العدوتين أقاموا خطة هذا الاسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد وكان قائد أساطيلهم أحمد الصقلى أصله من صدغيار الموطنين بجزيرة جربة من سدويكش أسره النصارى من سواحلها وربى عندهم واستخلصه صاحب صقلية واستكفاه ثم هلك وولى ابنه فأسخطه ببعض النزغات وخشى على نفسه ولحق بتونس ونزل على السيد بها من بنى عبد المؤمن وأجاز الى مراكش فتلقاه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بالمبرة والكرامة وأجزل الصلة وقلده أمر أساطيله فجلى فى جهاد أمم النصرانية وكانت له آثار وأخبار ومقامات مذكورة فى دولة الموحدين * وانتهت أساطيل المسلمين على عهده فى الكثرة والاستجادة الى ما لم تبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدناه ولما قام صلاح الدين يوسف بن أيوب ملك مصر والشأم لعهده باسترجاع ثغور الشأم من يد أمم النصرانية وتطهير بيت المقدس من رجس الكفر وبنائه تتابعت أساطيلهم الكفرية بالمدد لتلك الثغور من كل ناحية قريبة لبيت المقدس الذى كانوا قد استولوا عليه فأمدوهم بالعدد والاقوات ولم تقاومهم أساطيل الاسكندرية لاستمرار الغلب لهم فى ذلك الجانب الشرقى من البحر وتعدد أساطيلهم فيه وضعف المسلمين منذ زمان طويل عن ممانعتهم هنالك كما أشرنا اليه قبل فأوفد صلاح الدين على أبى يعقوب المنصور سلطان المغرب لعهده من الموحدين رسوله عبد الكريم بن منقذ من بيت بنى منقذ ملوك شيزر وكان ملكها من أيديهم وأبقى عليهم فى دولته فبعث عبد الكريم منهم هذا الى ملك المغرب طالبا مدد الاساطيل لتحول فى البحر بين أساطيل الكفرة وبين مرامهم من أمداد النصرانية بثغور الشأم وأصحبه كتابه اليه فى ذلك من انشاء الفاضل البيسانى يقول فى افتتاحه فتح الله لسيدنا أبواب المناجح والميامن حسبما نقله العماد الاصفهانى فى كتاب الفتح القدسى فنقم عليهم المنصور تجافيهم عن خطابه بأمير المؤمنين وأسرها فى نفسه وحملهم على مناهج البر والكرامة وردهم الى مرسلهم ولم يجبه الى حاجته من ذلك * وفى هذا دليل على اختصاص ملك المغرب بالاساطيل وما حصل للنصرانية فى الجانب الشرقى من هذا البحر من الاستطالة وعدم عناية الدول بمصر والشأم لذلك العهد وما بعده لشأن الاساطيل البحرية والاستعداد منها للدولة ولما هلك أبو يعقوب المنصور واعتلت دولة الموحدين واستولت امم الجلالقة على الاكثر من بلاد الاندلس وألجؤا المسلمين الى سيف البحر وملكوا الجزائر التى بالجانب

الغربي من البحر الرومي قويت ريحهم في بسيط هذا البحر واشتدت شوكتهم وكثرت فيه أساطيلهم وتراجعت قوة المسلمين فيه الى المساواة معهم كما وقع لعهد السلطان أبي الحسن ملك زناتة بالمغرب فان أساطيله كانت عند مرامه الجهاد مثل عدة النصرانية وعديدهم ثم تراجعت عن ذلك قوة المسلمين في الاساطيل لضعف الدولة ونسيان عوائد البحر بكثرة العوائد البدوية بالمغرب وانقطاع العوائد الاندلسية ورجع النصارى فيه الى دينهم المعروف من الدربة فيه والمران عليه والبصر بأحواله وغلب الامم في لجته وعلى أعواده. وصار المسلمون فيه كالاجانب الا قليلا من أهل البلاد الساحلية لهم المران عليه لو وجدوا كثرة من الانصار والاعوان أو قوة من الدولة تستجيش لهم أعوانا وتوضح لهم في هذا الغرض مسلكا وبقيت الرتبة لهذا العهد في الدولة الغربية محفوظة والرسم في معاناة الاساطيل بالانشاء والركوب معهود لما عساه تدعو اليه الحاجة من الاغراض السلطانية في البلاد البحرية والمسلمون يستهبون الريح على الكفر وأهله فمن المشتهر بين أهل المغرب عن كتب الحدثان أنه لا بد للمسلمين من الكرة على النصرانية وافتتاح ما وراء البحر من بلاد الافرنجة وان ذلك يكون في الاساطيل والله ولي المؤمنين وهو حسبنا ونعم الوكيل

٣٦ (فصل في التفاوت من مراتب السيف والقلم في الدول)

(اعلم) أن السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بهما على أمره الا أن الحاجة في أول الدولة الى السيف ما دام أهلها في تمهيد أمرهم أشد من الحاجة الى القلم لان القلم في تلك الحال خادم فقط منفذ للحكم السلطاني والسيف شريك في المعونة وكذلك في آخر الدولة حيث تضعف عصبيتها كما ذكرناه ويقل أهلها بما ينالهم من الهرم الذي قدمناه فتحتاج الدولة الى الاستظهار بأرباب السيوف وتقوى الحاجة اليهم في حماية الدولة والمدافعة عنها كما كان الشأن أول الامر في تمهيدها فيكون للسيف مزية على القلم في الحالتين ويكون أرباب السيف حينئذ أوسع جاها وأكثر نعمة وأسنى اقطاعا وأما في وسط الدولة فيستغني صاحبها بعض الشيء عن السيف لانه قد تمهد أمره ولم يبق همه الا في تحصيل ثمرات الملك من الجباية والضبط ومباهاة الدول وتنفيذ الاحكام والقلم هو المعين له في ذلك فتعظم الحاجة الى تصريفه وتكون السيوف مهملة في مضاجع أغمادها الا اذا نابت نائبة أو دعيت الى سد فرجة وما سوى ذلك فلا حاجة اليها فتكون أرباب الاقلام في هذه الحاجة أوسع جاها وأعلى رتبة وأعظم نعمة وثروة وأقرب من السلطان مجلسا وأكثر اليه ترددا وفي خلواته نجيا لانه حينئذ آلته التي بها يستظهر على تحصيل ثمرات ملكه والنظر في اعطافه وتثقيف أطرافه والمباهاة

باحواله ويكون الوزراء حينئذ وأهل السيوف مستغنى عنهم مبعدين عن باطن السلطان حذرين على أنفسهم من بوادره * وفى معنى ذلك ما كتب به أبو مسلم للمنصور حين أمره بالقدوم أما بعد فانه مما حفظناه من وصايا الفرس أخوف ما يكون الوزراء اذا سكنت الدهماء سنة الله فى عباده والله سبحانه وتعالى أعلم

٣٧ فصل فى شارات الملك والسلطان الخاصة به

(اعلم) أن للسلطان شارات وأحوالا تقتضيها الابهة والبذخ فيختص بها ويتميز بانتحالها عن الرعية والبطانة وسائر الرؤساء فى دولته فلنذكر ما هو مشتهر منها بمبلغ المعرفة وفوق كل ذى علم عليم *(الآلة)* فمن شارات الملك اتخاذ الآلة من نشر الالوية والرايات وقرع الطبول والنفخ فى الابواق والقرون وقد ذكر ارسطو فى الكتاب المنسوب اليه فى السياسة أن السر فى ذلك ارهاب العدو فى الحرب فان الاصوات الهائلة لها تأثير فى النفوس بالروعة ولعمرى انه أمر وجدانى فى مواطن الحرب يجده كل أحد من نفسه وهذا السبب الذى ذكره ارسطو ان كان ذكره فهو صحيح ببعض الاعتبارات * وأما الحق فى ذلك فهو أن النفس عند سماع النغم والاصوات يدركها الفرح والطرب بلا شك فيصيب مزاج الروح نشوة يستسهل بها الصعب ويستميت فى ذلك الوجه الذى هو فيه وهذا موجود حتى فى الحيوانات العجم بانفعال الابل بالحداء والخيل بالصفير والصريخ كما علمت ويزيد ذلك تأثيرا اذا كانت الاصوات متناسبة كما فى الغناء وأنت تعلم ما يحدث لسامعه من مثل هذا المعنى ولاجل ذلك تتخذ العجم فى مواطن حروبهم الآلات الموسيقية لا طبلا ولا بوقا فيحدق المغنون بالسلطان فى موكبه بآلاتهم ويغنون فيحركون نفوس الشجعان بضربهم الى الاستماتة ولقد رأينا فى حروب العرب من يتغنى أمام الموكب بالشعر ويطرب فتجيش همم الابطال بما فيها ويسارعون الى مجال الحرب وينبعث كل قرن الى قرنه وكذلك زناتة من أمم المغرب يتقدم الشاعر عندهم امام الصفوف ويتغنى فيحرك بغنائه الجبال الرواسى ويبعث على الاستماتة من لا يظن بها ويسمون ذلك الغناء تاصوكايت وأصله كله فرح يحدث فى النفس فتنبعث عنه الشجاعة كما تنبعث عن نشوة الخمر بما حدث عنها من الفرح والله أعلم *(وأما)* تكثير الرايات وتلوينها واطالتها فالقصد به التهويل لا أكثر وربما يحدث فى النفوس من التهويل زيادة فى الاقدام وأحوال النفوس وتلوناتها غريبة والله الخلاق العليم * ثم ان الملوك والدول يختلفون فى اتخاذ هذه الشارات فمنهم مكثر ومنهم مقلل بحسب اتساع الدولة وعظمها فأما الرايات فانها شعار الحروب من عهد

الخليفة ولم تزل الامم تعقدها فى مواطن الحروب والغزوات ولعهد النبى صلى الله عليه وسلم ومن بعده من الخلفاء * وأما قرع الطبول والنفخ فى الابواق فكان المسلمون لاول الملة متجافين عنه تنزها عن غلظة الملك ورفضا لاحواله واحتقارا لابهته التى ليست من الحق فى شئ حتى اذا انقلبت الخلافة ملكا وتبجحوا زهرة الدنيا ونعيمها ولابسهم الموالى من الفرس والروم أهل الدول السالفة وأروهم ما كان أولئك ينتحلونه من مذاهب البذخ والترف فكان مما استحسنوه اتخاذ الآلة فأخذوها وأذنوا للعمال فى اتخاذها تنويها بالملك وأهله فكثيرا ما كان العامل صاحب الثغر أو قائد الجيش يعقد له الخليفة من العباسيين أو العبيديين لواءه ويخرج الى بعثه أو عمله من دار الخليفة أو داره فى مواكب من أصحاب الرايات والآلات فلا يميز بين موكب العامل والخليفة الا بكثرة الالوية وقلتها أو بما اختص به الخليفة من الالوان لرايته كالسواد فى رايات بنى العباس فان راياتهم كانت سودا حزنا على شهدائهم من بنى هاشم ونعيا على بنى امية فى قتلهم ولذلك سموا المسودة * ولما افترق أمر الهاشميين وخرج الطالبيون على العباسيين فى كل جهة وعصر ذهبوا الى مخالفتهم فى ذلك فاتخذوا الرايات بيضا وسموا المبيضة لذلك سائر أيام العبيديين ومن خرج من الطالبيين فى ذلك العهد بالمشرق كالداعى بطبرستان وداعى صعدة أو من دعا الى بدعة الرافضة من غيرهم كالقرامطة * ولما نزع المأمون عن لبس السواد وشعاره فى دولته عدل الى لون الخضرة فجعل رايته خضراء وأما الاستكثار منها فلا ينتهى الى حد وقد كانت آلة العبيديين لما خرج العزيز الى فتح الشام خمسمائة من البنود وخمسمائة من الابواق وأما ملوك البربر بالمغرب من صنهاجة وغيرها فلم يختصوا بلون واحد بل وشوها بالذهب واتخذوها من الحرير الخالص ملونة واستمروا على الاذن فيها لعمالهم حتى اذا جاءت دولة الموحدين ومن بعدهم من زناتة قصروا الآلة من الطبول والبنود على السلطان وحظروها على من سواه من عماله وجعلوا لها موكبا خاصا يتبع أثر السلطان فى مسيره يسمى الساقة وهم فيه بين مكثر ومقلل باختلاف مذاهب الدول فى ذلك فنهم من يقتصر على سبع من العدد تبركا بالسبعة كما هو فى دولة الموحدين وبنى الاحمر بالاندلس ومنهم من يبلغ العشرة والعشرين كما هو عند زناتة وقد بلغت فى أيام السلطان أبى الحسن فيما أدركناه مائة من الطبول ومائة من البنود ملونة بالحرير منسوجة بالذهب ما بين كبير وصغير ويأذنون للولاة والعمال والقواد فى اتخاذ راية واحدة صغيرة من الكتان بيضاء وطبل صغير أيام الحرب لا يتجاوزون ذلك * وأما دولة الترك لهذا العهد بالمشرق فيتخذون أولا راية واحدة عظيمة وفى رأسها خصلة كبيرة

من الشعر يسمونها الشالش والجتر وهي شعار السلطان عندهم ثم تتعدد الرايات ويسمونها السناجق واحدها سنجق وهي الراية بلسانهم وأما الطبول فيبالغون في الاستكثار منها ويسمونها الكوسات ويبيحون لكل أمير أو قائد عسكر أن يتخذ من ذلك ما يشاء الا الجتر فانه خاص بالسلطان * وأما الجلالقة لهذا العهد من أمم الافرنجة بالاندلس فأكثر شأنهم اتخاذ الالوية القليلة ذاهبة في الجو صعدا ومعها قرع الاوتار من الطنابير ونفخ الغيطات يذهبون فيها مذهب الغناء وطريقه في مواطن حروبهم هكذا يبلغنا عنهم وعمن وراءهم من ملوك العجم ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين

(السرير) وأما السرير والمنبر والتخت والكرسي وهو أعواد منصوبة أو أرائك منضدة لجلوس السلطان عليها مرتفعا عن أهل مجلسه أن يساويهم في الصعيد ولم يزل ذلك من سنن الملوك قبل الاسلام وفي دول العجم وقد كانوا يجلسون على أسرة الذهب وكان لسليمان بن داود صلوات الله عليهما وسلامه كرسي وسرير من عاج مغشى بالذهب الا أنه لا تأخذ به الدول الا بعد الاستفحال والترف شأن الأبهة كلها كما قلناه وأما في أول الدولة عند البداوة فلا يتشوفون اليه * وأول من اتخذه في الاسلام معاوية واستأذن الناس فيه وقال لهم اني قد بدنت فأذنوا له فاتخذه واتبعه الملوك الاسلاميون فيه وصار من منازع الأبهة ولقد كان عمرو بن العاصي بمصر يجلس في قصره على الارض مع العرب ويأتيه المقوقس الى قصره ومعه سرير من الذهب محمول على الايدي لجلوسه شأن الملوك فيجلس عليه وهو أمامه ولا يغيرون عليه وفاء له بما اعتقد معهم من الذمة واطراحا الأبهة الملك ثم كان بعد ذلك لبني العباس والعبيديين وسائر ملوك الاسلام شرقا وغربا من الاسرة والمنابر والتخوت ما عفا عن الاكاسرة والقياصرة والله مقلب الليل والنهار

(السكة) وهي الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بهما بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدينار أو الدرهم فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة بعد أن يعتبر عيار النقد من ذلك الجنس في خلوصه بالسبك مرة بعد أخرى وبعد تقدير أشخاص الدراهم والدنانير بوزن معين صحيح يصطلح عليه فيكون التعامل بها عددا وان لم تقدر أشخاصها يكون التعامل بها وزنا ولفظ السكة كان اسما للطابع وهي الحديدة المتخذة لذلك ثم نقل الى أثرها وهي النقوش الماثلة على الدنانير والدراهم ثم نقل الى القيام على ذلك والنظر في استيفاء حاجاته وشروطه وهي الوظيفة فصار علما عليها في عرف الدول وهي وظيفة ضرورية للملك اذ بها يتميز الخالص

من المغشوش بين الناس فى النقود عند المعاملات ويتقون فى سلامتها الغش بختم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة وكان ملوك العجم يتخذونها وينقشون فيها تماثيل تكون مخصوصة بها مثل تمثال السلطان لعهدها أو تمثيل حصن أو حيوان أو مصنوع أو غير ذلك ولم يزل هذا الشأن عند العجم الى آخر أمرهم * ولما جاء الاسلام اغفل ذلك لسذاجة الدين وبداوة العرب وكانوا يتعاملون بالذهب والفضة وزنا وكانت دنانير الفرس ودراهمهم بين أيديهم يردونها فى معاملتهم الى الوزن ويتصارفون بها بينهم الى أن تفاحش الغش فى الدنانير والدراهم لغفلة الدولة عن ذلك وأمر عبد الملك الحجاج على مانقل سعيد بن المسيب وأبو الزناد بضرب الدراهم وتمييز المغشوش من الخالص وذلك سنة أربع وسبعين وقال المدايني سنة خمس وسبعين ثم أمر بصرفها فى سائر النواحى سنة ست وسبعين وكتب عليها الله أحد الله الصمد ثم ولى ابن هبيرة العراق أيام يزيد بن عبد الملك فجوّد السكة ثم بالغ خالد القسرى فى تجويدها ثم يوسف بن عمر بعده وقيل أوّل من ضرب الدنانير والدراهم مصعب بن الزبير بالعراق سنة سبعين بأمر أخيه عبد الله لما ولى الحجاز وكتب عليها فى أحد الوجهين بركة الله وفى الآخر اسم الله ثم غيرها الحجاج بعد ذلك بسنة وكتب عليها اسم الحجاج وقدّر وزنها على ما كانت استقرّت أيام عمر وذلك أنّ الدرهم كان وزنه أوّل الاسلام ستة دوانق والمثقال وزنه درهم وثلاثة اسباع درهم فتكون عشرة دراهم بسبعة مثاقيل وكان السبب فى ذلك أنّ أوزان الدرهم أيام الفرس كانت مختلفة وكان منها على وزن المثقال عشرون قيراطا ومنها اثنا عشر ومنها عشرة فلما احتيج الى تقديره فى الزكاة أخذ الوسط وذلك اثنا عشر قيراطا فكان المثقال درهما وثلاثة اسباع درهم وقيل كان منها البغلى بثمانية دوانق والطبرى أربعة دوانق والمغربى ثمانية دوانق واليمنى ستة دوانق فأمر عمر أن ينظر الاغلب فى التعامل فكان البغلى والطبرى وهما اثنا عشر دانقا وكان الدرهم ستة دوانق وان زدت ثلاثة أسباعه كان مثقالا واذا نقصت ثلاثة أعشار المثقال كان درهما فلما رأى عبد الملك اتخاذ السكة لصيانة النقدين الجاريين فى معاملة المسلمين من الغش عين مقدارها على هذا الذى استقر لعهد عمر رضى الله عنه واتخذ طابع الحديد واتخذ فيه كلمات لا صورا لان العرب كان الكلام والبلاغة أقرب مناحيهم وأظهرها مع أنّ الشرع ينهى عن الصور فلما فعل ذلك استمرّ بين الناس فى أيام الملة كلها وكان الدينار والدرهم على شكلين مدوّرين والكتابة عليهما فى دوائر متوازية يكتب فيها من أحد الوجهين أسماء الله تهليلا وتحميدا وصلاة على النبى وآله وفى الوجه الثانى التاريخ واسم الخليفة وهكذا أيام العباسيين والعبيديين

والاموبين وأمّا صنهاجة فلم يتخذوا سكة الا آخر الامر اتخذها منصور صاحب بجاية ذكر ذلك ابن حماد فى تاريخه ولما جاءت دولة الموحدين كان مما سنّ لهم المهدى اتخاذ سكة الدرهم مربع الشكل وأن يرسم فى دائرة الدينار شكل مربع فى وسطه ويملأ من أحد الجانبين تهليلا وتحميدا ومن الجانب الآخر كتبا فى السطور باسمه واسم الخلفاء من بعده ففعل ذلك الموحدون وكانت سكتهم على هذا الشكل لهذا العهد ولقد كان المهدى فيما ينقل ينعت قبل ظهوره بصاحب الدرهم المربع نعته بذلك المتكلمون بالحدثان من قبله المخبرون فى ملاحمهم عن دولته وأما أهل المشرق لهذا العهد فسكتهم غير مقدرة وانما يتعاملون بالدنانير والدراهم وزنا بالصنجات المقدرة بعدة منها ولا يطبعون عليها بالسكة نقوش الكلمات بالتهليل والصلاة واسم السلطان كما يفعله أهل المغرب ذلك تقدير العزيز العليم (ولنختم الكلام) فى السكة بذكر حقيقة الدرهم والدينار الشرعيين وبيان حقيقة مقدارهما

وذلك أنّ الدينار والدرهم مختلفا السكة فى المقدار والموازين بالآفاق والامصار وسائر الاعمال والشرع قد تعرض لذكرهما وعلق كثيرا من الاحكام بهما فى الزكاة والانكحة والحدود وغيرهما فلا بدّ لهما عنده من حقيقة ومقدار معين فى تقدير تجرى عليهما أحكامه دون غير الشرعىّ منهما فاعلم أنّ الاجماع منعقد منذ صدر الاسلام وعهد الصحابة والتابعين أنّ الدرهم الشرعىّ هو الذى تزن العشرة منه سبعة مثاقيل من الذهب والاوقية منه أربعين درهما وهو على هذا سبعة اعشار الدينار ووزن المثقال من الذهب ثنتان وسبعون حبة من الشعير فالدرهم الذى هو سبعة اعشاره خمسون حبة وخمسا حبة وهذه المقادير كلها ثابتة بالاجماع فانّ الدرهم الجاهلىّ كان بينهم على أنواع أجودها الطبرىّ وهو ثمانية دوانق والبغلىّ وهو أربعة دوانق فجعلوا الشرعىّ بينهما وهو ستة دوانق فكانوا يوجبون الزكاة فى مائة درهم بغلية ومائة طبرية خمسة دراهم وسطا وقد اختلف الناس هل كان ذلك من وضع عبد الملك أو اجماع الناس بعد عليه كما ذكرناه ذكر ذلك الخطابى فى كتاب معالم السنن والماوردى فى الاحكام السلطانية وأنكره المحققون من المتأخرين لما يلزم عليه أن يكون الدينار والدرهم الشرعيان مجهولين فى عهد الصحابة ومن بعدهم مع تعلق الحقوق الشرعية بهما فى الزكاة والانكحة والحدود وغيرها كما ذكرناه والحق أنهما كانا معلومى المقدار فى ذلك العصر لجريان الاحكام يومئذ بما يتعلق بهما من الحقوق وكان مقدارهما غير مشخص فى الخارج وانما كان متعارفا بينهم بالحكم الشرعىّ على المقدر فى مقدارهما وزنتهما حتى استفحل الاسلام وعظمت الدولة ودعت الحال الى

تشخيصهما فى المقدار والوزن كما هو عند الشرع ليستريحوا من كلفة التقدير وقارن ذلك أيام عبد الملك فشخص مقدارهما وعينهما فى الخارج كما هو فى الذهن ونقش عليهما السكة باسمه وتاريخه اثر الشهادتين الايمانيتين وطرح النقود الجاهلية رأسا حتى خلصت ونقش عليها سكة وتلاشى وجودها فهذا هو الحق الذى لا محيد عنه ومن بعد ذلك وقع اختيار أهل السكة فى الدول على مخالفة المقدار الشرعى فى الدينار والدرهم واختلفت فى كل الاقطار والآفاق ورجع الناس الى تصور مقاديرهما الشرعية ذهنا كما كان فى الصدر الاول وصار أهل كل أفق يستخرجون الحقوق الشرعية من سكتهم بمعرفة النسبة التى بينها وبين مقاديرها الشرعية وأما وزن الدينار باثنين وسبعين حبة من الشعير الوسط فهو الذى نقله المحققون وعليه الاجماع الا ابن حزم خالف ذلك وزعم أن وزنه أربعة وثمانون حبة نقل ذلك عنه القاضى عبد الحق ورده المحققون وعدوه وهما وغلطا وهو الصحيح والله يحق الحق بكلماته وكذلك تعلم أن الاوقية الشرعية ليست هى المتعارفة بين الناس لان المتعارفة مختلفة باختلاف الاقطار والشرعية متحدة ذهنا لا اختلاف فيها والله خلق كل شئ فقدره تقديرا

(الخاتم) وأما الخاتم فهو من الخطط السلطانية والوظائف الملوكية والختم على الرسائل والصكوك معروف للملوك قبل الاسلام وبعده وقد ثبت فى الصحيحين أن النبى صلى الله عليه وسلم أراد أن يكتب الى قيصر فقيل له ان العجم لا يقبلون كتابا الا أن يكون مختوما فاتخذ خاتما من فضة ونقش فيه *محمد رسول الله* قال البخارى جعل الثلاث كلمات فى ثلاثة أسطر وختم به وقال لا ينقش أحد مثله قال وتختم به أبو بكر وعمر وعثمان ثم سقط من يد عثمان فى بئر أريس وكانت قليلة الماء فلم يدرك قعرها بعد واغتم عثمان وتطير منه وصنع آخر على مثله وفى كيفية نقش الخاتم والختم به وجوه وذلك أن الخاتم يطلق على الآلة التى تجعل فى الاصبع ومنه تختم اذا لبسه ويطلق على النهاية والتمام ومنه ختمت الامر اذا بلغت آخره وختمت القرآن كذلك ومنه خاتم النبيين وخاتم الامر ويطلق على السداد الذى يسد به الاوانى والدنان ويقال فيه ختام ومنه قوله تعالى ختامه مسك وقد غلط من فسر هذا بالنهاية والتمام قال لان آخر ما يجدونه فى شرابهم ريح المسك وليس المعنى عليه وانما هو من الختام الذى هو السداد لان الخمر يجعل لها فى الدن سداد الطين أو القار يحفظها ويطيب عرفها وذوقها فبولغ فى وصف خمر الجنة بأن سدادها من المسك وهو أطيب عرفا وذوقا من القار والطين المعهودين فى الدنيا فاذا صح اطلاق الخاتم على هذه كلها صح

اطلاقه على أثرها الناشئ عنها وذلك أن الخاتم اذا نقشت به كلمات أو أشكال ثم غمس
في مداد من الطين أو مداد ووضع على صفح القرطاس بقي أكثر الكلمات في ذلك
الصفح وكذلك اذا طبع به على جسم لين كالشمع فانه يبقى نقش ذلك المكتوب مرتسما
فيه واذا كانت كلمات وارتسمت فقد يقرأ من الجهة اليسرى اذا كان النقش على
الاستقامة من اليمنى وقد يقرأ من الجهة اليمنى اذا كان النقش من الجهة اليسرى لان
الختم يقلب جهة الخط في الصفح عما كان في النقش من يمين أو يسار فيحتمل أن يكون
الختم بهذا الخاتم بغمسه في المداد أو الطين ووضعه على الصفح فتنتقش الكلمات فيه
و يكون هذا من معنى النهاية والتمام بمعنى صحة ذلك المكتوب ونفوذه كأن الكتاب
انما يتم العمل به بهذه العلامات وهو من دونها ملغى ليس بتمام وقد يكون هذا الختم
بالخط آخر الكتاب أو أوله بكلمات منتظمة من تحميد أو تسبيح أو باسم السلطان
أو الامير أو صاحب الكتاب من كان أو شيء من نعوته يكون ذلك الخط علامة على
صحة الكتاب ونفوذه و يسمى ذلك في المتعارف علامة و يسمى ختما تشبيها له بأثر الخاتم
الآصفي في النقش ومن هذا خاتم القاضي الذي يبعث به للخصوم أي علامته وخطه
الذي ينفذ بهما أحكامه ومنه خاتم السلطان أو الخليفة أي علامته قال الرشيد ليحيى
ابن خالد لما أراد أن يستوزر جعفرا و يستبدل به من الفضل أخيه فقال لابيهما يحيى
يا أبت اني أردت أن أحول الخاتم من يميني الى شمالي فكنى له بالخاتم عن الوزارة لما
كانت العلامة على الرسائل والصكوك من وظائف الوزارة لعهدهم و يشهد لصحة
هذا الاطلاق ما نقله الطبري أن معاوية أرسل الى الحسن عند مراودته اياه في الصلح
صحيفة بيضاء ختم على أسفلها وكتب اليه أن اشترط في هذه الصحيفة التي ختمت أسفلها
ما شئت فهو لك ومعنى الختم هنا علامة في آخر الصحيفة بخطه أو غيره ويحتمل أن يختم
به في جسم لين فتنتقش فيه حروفه و يجعل على موضع الحزم من الكتاب اذا حزم
وعلى المودوعات وهو من السداد كما مر وهو في الوجهين آثار الخاتم فيطلق عليه خاتم
وأول من أطلق الختم على الكتاب أي العلامة معاوية لأنه أمر لعمر بن الزبير عند
زياد بالكوفة بمائة ألف ففتح الكتاب وصير المائة مائتين ورفع زياد حسابه فأنكرها
معاوية وطلب بها عمر وحبسه حتى قضاها عنه أخوه عبد الله واتخذ معاوية عند ذلك
ديوان الخاتم ذكره الطبري وقال آخره وحزم الكتب ولم تكن تحزم أي جعل لها
السداد وديوان الختم عبارة عن الكتاب القائمين على انفاذ كتب السلطان والختم
عليها اما بالعلامة أو بالحزم وقد يطلق الديوان على مكان جلوس هؤلاء الكتاب كما
ذكرناه في ديوان الاعمال والحزم للكتب يكون اما بدس الورق كما في عرف كتاب

المغرب وامّا بلصق رأس الصحيفة على ما تنطوى عليه من الكتاب كما فى عرف أهل المشرق وقد يجعل على مكان الدسّ أو الالصاق علامة يؤمن معها من فتحه والاطلاع على ما فيه فأهل المغرب يجعلون على مكان الدسّ قطعة من الشمع ويختمون عليها بخاتم نقشت فيه علامة لذلك فيرتسم النقش فى الشمع وكان فى المشرق فى الدول القديمة يختم على مكان اللصق بخاتم منقوش أيضا قد غمس فى مداف من الطين معدّ لذلك صبغه أحمر فيرتسم ذلك النقش عليه وكان هذا الطين فى الدولة العباسية يعرف بطين الختم وكان يجلب من سيراف فيظهر أنه مخصوص بها فهذا الخاتم الذى هو العلامة المكتوبة أو النقش للسداد والحزم للكتب خاص بديوان الرسائل وكان ذلك للوزير فى الدولة العباسية ثم اختلف العرف وصار لمن اليه الترسيل وديوان الكتّاب فى الدولة ثم صاروا فى دول المغرب يعدّون من علامات الملك وشاراته الخاتم للاصبع فيستجيدون صوغه من الذهب ويرصعونه بالفصوص من الياقوت والفيروزج والزمرذ ويلبسه السلطان شارة فى عرفهم كما كانت البردة والقضيب فى الدولة العباسية والمظلة فى الدولة العبيدية والله مصرّف الامور بحكمه

* (الطراز) * من أبهة الملك والسلطان ومذاهب الدول أن ترسم أسماؤهم أو علامات تختص بهم فى طراز أثوابهم المعدّة للباسهم من الحرير أو الديباج أو الابريسم تعتبر كتابة خطها فى نسج الثوب الحاما وسدى بخيط الذهب أو ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب على ما يحكمه الصناع فى تقدير ذلك ووضعه فى صناعة نسجهم فتصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز قصد التنويه بلابسها من السلطان فمن دونه أو التنويه بمن يختصه السلطان بملبوسه اذا قصد تشريفه بذلك أو ولايته لوظيفة من وظائف دولته وكان ملوك العجم من قبل الاسلام يجعلون ذلك الطراز بصور الملوك وأشكالهم أو أشكال وصور معينة لذلك ثم اعتاض ملوك الاسلام عن ذلك بكتب أسمائهم مع كلمات أخرى تجرى مجرى الفال أو السجلات وكان ذلك فى الدولتين من أبهة الامور وأفخم الاحوال وكانت الدور المعدّة لنسج أثوابهم فى قصورهم تسمى دور الطراز لذلك وكان القائم على النظر فيها يسمى صاحب الطراز ينظر فى أمور الصباغ والآلة والحاكة فيها واجراء أرزاقهم وتسهيل آلاتهم ومشارفة أعمالهم وكانوا يقلدون ذلك لخواص دولتهم وثقات مواليهم وكذلك كان الحال فى دولة بنى أمية بالاندلس والطوائف من بعدهم وفى دولة العبيديين بمصر ومن كان على عهدهم من ملوك العجم بالمشرق ثم لما ضاق نطاق الدول عن الترف والتفنن فيه لضيق نطاقها فى الاستيلاء وتعدّدت الدول تعطلت هذه الوظيفة والولاية عليها من أكثر الدول بالجملة * ولما

جاءت دولة الموحدين بالمغرب بعد بنى أمية أول المائة السادسة ولم يأخذوا بذلك أول دولتهم لما كانوا عليه من منازع الديانة والسذاجة التى لقنوها عن امامهم محمد بن تومرت المهدى وكانوا يتورعون عن لباس الحرير والذهب فسقطت هذه الوظيفة من دولتهم واستدرك منها أعقابهم آخر الدولة طرفا لم يكن بتلك النباهة وأما لهذا العهد فأدركنا بالمغرب فى الدولة المرينية لعنفوانها وشموخها رسما جليلا لقنوه من دولة ابن الاحمر معاصرهم بالاندلس واتبع هو فى ذلك ملوك الطوائف فاتى منه بلمعة شاهدة بالاثر * وأما دولة الترك بمصر والشأم لهذا العهد ففيه من الطرز تحرير آخر على مقدار ملكهم وعمران بلادهم الا أن ذلك لا يصنع فى دورهم وقصورهم وليست من وظائف دولتهم وانما ينسج ما تطلبه الدولة من ذلك عند صناعه من الحرير ومن الذهب الخالص ويسمونه المزركش لفظة أعجمية ويرسم اسم السلطان أو الامير عليه ويعده الصناع لهم فيما يعدونه للدولة من طرف الصناعة اللائقة بها والله مقدر الليل والنهار والله خير الوارثين

(الفساطيط والسياج)

اعلم أن من شارات الملك وترفه اتخاذ الاخبية والفساطيط والفازات من ثياب الكتان والصوف والقطن بجدل الكتان والقطن فيباهى بها فى الاسفار وتنوع منها الالوان ما بين كبير وصغير على نسبة الدولة فى الثروة واليسار وانما يكون الامر فى أول الدولة فى بيوتهم التى جرت عادتهم باتخاذها قبل الملك وكان العرب لعهد الخلفاء الاولين من بنى امية انما يسكنون بيوتهم التى كانت لهم خياما من الوبر والصوف ولم تزل العرب لذلك العهد بادين الا الاقل منهم فكانت أسفارهم لغزواتهم وحروبهم بظعونهم وسائر حللهم واحيائهم من الاهل والولد كما هو شأن العرب لهذا العهد وكانت عساكرهم لذلك كثيرة الحلل بعيدة ما بين المنازل متفرقة الاحياء يغيب كل واحد منها عن نظر صاحبه من الاخرى كشأن العرب ولذلك ما كان عبد الملك يحتاج الى ساقة تحشد الناس على أثره أن يقيموا اذا ظعن ونقل أنه استعمل فى ذلك الحجاج حين أشار به روح ابن زنباع وقصتهما فى احراق فساطيط روح وخيامه لاول ولايته حين وجدهم مقيمين فى يوم رحيل عبد الملك قصة مشهورة ومن هذه الولاية تعرف رتبة الحجاج بين العرب فانه لا يتولى ارادتهم على الظعن الامن يأمن بوادر السفهاء من احيائهم بما له من العصبية الحائلة دون ذلك ولذلك اختصه عبد الملك بهذه الرتبة ثقة بغنائه فيها بعصبيته وصرامته فلما تفننت الدولة العربية فى مذاهب الحضارة والبذخ

ونزلوا المدن والامصار وانتقلوا من سكنى الخيام الى سكنى القصور ومن ظهر الخف الى ظهر الحافر اتخذوا للسكنى فى أسفارهم ثياب الكتان يستعملون منها بيوتا مختلفة الاشكال مقدرة الامثال من القوراء والمستطيلة والمربعة ويحتفلون فيها بأبلغ مذاهب الاحتفال والزينة ويدير الامير والقائد للعساكر على فساطيطه وفازاته من بينهم سياجا من الكتان يسمى فى المغرب بلسان البربر الذى هو لسان أهله أفراك بالكاف التى بين الكاف والقاف ويختص به السلطان بذلك القطر لا يكون لغيره * وأما فى المشرق فيتخذه كل أمير وان كان دون السلطان ثم جنحت الدعة بالنساء والولدان الى المقام بقصورهم ومنازلهم فخف لذلك ظهرهم وتقاربت الساح بين منازل العسكر واجتمع الجيش والسلطان فى معسكر واحد يحصره البصر فى بسيطة زهوا أنيقا لاختلاف ألوانه واستمر الحال على ذلك فى مذاهب الدول فى بذخها وترفها وكذا كانت دولة الموحدين وزناتة التى أظلتنا كان سفرهم أول أمرهم فى بيوت سكناهم قبل الملك من الخيام والقياطن حتى اذا أخذت الدولة فى مذاهب الترف وسكنى القصور عادوا الى سكنى الاخبية والفساطيط وبلغوا من ذلك فوق ما أرادوه وهو من الترف بمكان الا أن العساكر به تصير عرضة للبيات لاجتماعهم فى مكان واحد تشملهم فيه الصيحة ولخفتهم من الاهل والولد الذين تكون الاستماتة دونهم فيحتاج فى ذلك الى تحفظ آخر والله القوى العزيز

(المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة)

وهما من الامور الخلافية ومن شارات الملك الاسلامى ولم يعرف فى غير دول الاسلام * فأما البيت المقصورة من المسجد لصلاة السلطان فيتخذ سياجا على المحراب فيحوزه ومايليه فأول من اتخذها معاوية بن أبى سفيان حين طعنه الخارجى والقصة معروفة وقيل أول من اتخذها مروان بن الحكم حين طعنه اليمانى ثم اتخذها الخلفاء من بعدهما وصارت سنة فى تمييز السلطان عن الناس فى الصلاة وهى انما تحدث عند حصول الترف فى الدول والاستفحال شأن أحوال الابهة كلها ومازال الشأن ذلك فى الدول الاسلامية كلها وعند افتراق الدولة العباسية وتعدد الدول بالمشرق وكذا بالاندلس عند انقراض الدولة الاموية وتعدد ملوك الطوائف وأما المغرب فكان بنو الاغلب يتخذونها بالقيروان ثم الخلفاء العبيديون ثم ولاتهم على المغرب من صنهاجة بنو باديس بفاس وبنو حماد بالقلعة ثم ملك الموحدون سائر المغرب والاندلس ومحوا ذلك الرسم على طريقة البداوة التى كانت شعارهم ولما استفحلت الدولة وأخذت بحظها من

الترف وجاء أبو يعقوب المنصور ثالث ملوكهم فاتخذ هذه المقصورة وبقيت من بعده سنة لملوك المغرب والاندلس وهكذا كان الشأن في سائر الدول سنة الله في عباده *

(وأما الدعاء على المنابر) في الخطبة فكان الشأن أولا عند الخلفاء ولاية الصلاة بأنفسهم فكانوا يدعون لذلك بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والرضا عن أصحابه وأول من اتخذ المنبر عمرو بن العاصي لما بنى جامعه بمصر وأول من دعا للخليفة على المنبر ابن عباس دعا لعلي رضي الله عنهما في خطبته وهو بالبصرة عامل له عليها فقال اللهم انصر عليا على الحق واتصل العمل على ذلك فيما بعد وبعد أخذ عمرو بن العاصي المنبر بلغ عمر بن الخطاب ذلك فكتب اليه عمر بن الخطاب أما بعد فقد بلغني أنك اتخذت منبرا ترقى به على رقاب المسلمين أو ما يكفيك أن تكون قائما والمسلمون تحت عقبك فعزمت عليك الا ما كسرته فلما حدثت الأبهة وحدث في الخلفاء المانع من الخطبة والصلاة استنابوا فيهما فكان الخطيب يشيد بذكر الخليفة على المنبر تنويها باسمه ودعاء له بما جعل الله مصلحة العالم فيه ولان تلك الساعة مظنة للاجابة ولما ثبت عن السلف في قولهم من كانت له دعوة صالحة فليضعها في السلطان وكان الخليفة يفرد بذلك فلما جاء الحجر والاستبداد صار المتغلبون على الدول كثيرا ما يشاركون الخليفة في ذلك ويشاد باسمهم عقب اسمه وذهب ذلك بذهاب تلك الدول وصار الامر الى اختصاص السلطان بالدعاء له على المنبر دون من سواه وحظر أن يشاركه فيه أحد أو يسمو اليه وكثيرا ما يغفل المعاهدون من أهل الدول هذا الرسم عندما تكون الدولة في أسلوب الغضاضة ومناحي البداوة في التغافل والخشونة ويقنعون بالدعاء على الابهام والاجمال لمن ولي امور المسلمين ويسمون مثل هذه الخطبة اذا كانت على هذا المنحى عباسية يعنون بذلك أن الدعاء على الاجمال انما يتناول العباسي تقليدا في ذلك لما سلف من الامر ولا يحفلون بما وراء ذلك من تعيينه والتصريح باسمه * يحكى أن يغمراسن بن زيان ماهد دولة بني عبد الواد لما غلبه الامير أبو زكريا يحيى بن أبي حفص على تلمسان ثم بدا له في اعادة الامر اليه على شروط شرطها كان فيها ذكر اسمه على منابر عمله فقال يغمراسن تلك أعوادهم يذكرون عليها من شاؤا وكذلك يعقوب بن عبد الحق ماهد دولة بني مرين حضره رسول المستنصر الخليفة بتونس من بني أبي حفص وثالث ملوكهم يتخلف بعض أيامه عن شهود الجمعة فقيل له لم يحضر هذا الرسول كراهية لخلو الخطبة من ذكر سلطانه فأذن في الدعاء له وكان ذلك سببا لاخذهم بدعوته وهكذا شأن الدول في بدايتها وتمكنها في الغضاضة والبداوة فاذا انتبهت عيون سياستهم ونظروا في أعطاف ملكهم واستتموا شيات الحضارة ومعاني البذخ والأبهة

انتحلوا جميع هذه السمات وتفننوا فيها وتجاوزوا الى غايتها وأنفوا من المشاركة فيها وجزعوا من افتقادها وخلود دولتهم من آثارها والبستان والله على كل شئ رقيب

٣٨ (فصل في الحروب ومذاهب الامم في ترتيبها)

اعلم أن الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة منذ برأها الله وأصلها ارادة انتقام بعض البشر من بعض ويتعصب لكل منها أهل عصبيته فاذا تذامروا لذلك وتواقفت الطائفتان احداهما تطلب الانتقام والاخرى تدافع كانت الحرب وهو أمر طبيعي في البشر لا تخلو عنه امة ولا جيل وسبب هذا الانتقام في الاكثر اما غيرة ومنافسة واما عدوان واما غضب لله ولدينه واما غضب للملك وسعي في تمهيده فالاول أكثر ما يجري بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة والثاني وهو العدوان أكثر ما يكون من الامم الوحشية الساكنين بالقفر كالعرب والترك والتركمان والاكراد وأشباههم لانهم جعلوا أرزاقهم في رماحهم ومعاشهم فيما بأيدي غيرهم ومن دافعهم عن متاعه آذنوه بالحرب ولا بغية لهم فيما وراء ذلك من رتبة ولا ملك وانما همهم ونصب أعينهم غلب الناس على ما في أيديهم والثالث هو المسمى في الشريعة بالجهاد والرابع هو حروب الدول مع الخارجين عليها والمانعين لطاعتها فهذه أربعة أصناف من الحروب الصنفان الاولان منها حروب بغي وفتنة والصنفان الاخيران حروب جهاد وعدل وصفة الحروب الواقعة بين الخليقة منذ أول وجودهم على نوعين نوع بالزحف صفوفا ونوع بالكر والفر أما الذي بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم وأما الذي بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب وقتال الزحف أوثق وأشد من قتال الكر والفر وذلك لان قتال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى القداح أو صفوف الصلاة ويمشون بصفوفهم الى العدو قدما فلذلك تكون أثبت عند المصارع وأصدق في القتال وأرهب للعدو لانه كالحائط الممتد والقصر المشيد لا يطمع في ازالته وفي التنزيل ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص أي يشد بعضهم بعضا بالثبات وفي الحديث الكريم المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ومن هنا يظهر لك حكمة ايجاب الثبات وتحريم التولي في الزحف فان المقصود من الصف في القتال حفظ النظام كما قلناه فمن ولى العدو ظهره فقد أخل بالمصاف وباء باثم الهزيمة ان وقعت وصار كأنه جرها على المسلمين وأمكن منهم عدوهم فعظم الذنب لعموم المفسدة وتعديها الى الدين بخرق سياجه فعد من الكبائر ويظهر من هذه الادلة أن قتال الزحف أشد عند الشارع وأما

قتال الكر والفر فليس فيه من الشدة والامن من الهزيمة ما في قتال الزحف الا أنهم قد يتخذون وراءهم في القتال مصافا ثابتا يلجؤن اليه في الكر والفر ويقوم لهم مقام قتال الزحف كما نذكره بعد ثم ان الدول القديمة الكثيرة الجنود المتسعة الممالك كانوا يقسمون الجيوش والعساكر أقساما يسمونها كراديس ويسوون في كل كردوس صفوفه وسبب ذلك أنه لما كثرت جنودهم الكثرة البالغة وحشدوا من قاصية النواحي استدعى ذلك أن يجهل بعضهم بعضا اذا اختلطوا في مجال الحرب واعتوروا مع عدوهم الطعن والضرب فيخشى من تدافعهم فيما بينهم لاجل النكراء وجهل بعضهم ببعض فلذلك كانوا يقسمون العساكر جموعا ويضمون المتعارفين بعضهم لبعض ويرتبونها قريبا من الترتيب الطبيعي في الجهات الاربع ورئيس العساكر كلها من سلطان أو قائد في القلب ويسمون هذا الترتيب التعبية وهو مذكور في أخبار فارس والروم والدولتين صدر الاسلام فيجعلون بين يدي الملك عسكرا منفردا بصفوفه متميزا بقائده ورايته وشعاره ويسمونه المقدمة ثم عسكرا آخر من ناحية اليمين عن موقف الملك وعلى سمته يسمونه الميمنة ثم عسكرا آخر من ناحية الشمال كذلك يسمونه الميسرة ثم عسكرا آخر من وراء العسكر يسمونه الساقة ويقف الملك وأصحابه في الوسط بين هذه الاربع ويسمون موقفه القلب فاذا تم لهم هذا الترتيب المحكم اما في مدى واحد للبصر أو على مسافة بعيدة أكثرها اليوم واليومان بين كل عسكرين منها أو كيفما أعطاه حال العساكر في القلة والكثرة فحينئذ يكون الزحف من بعد هذه التعبية وانظر ذلك في أخبار الفتوحات وأخبار الدولتين بالمشرق وكيف كانت العساكر لعهد عبد الملك تتخلف عن رحيله لبعد المدى في التعبية فاحتيج لمن يسوقها من خلفه وعين لذلك الحجاج بن يوسف كما أشرنا اليه وكما هو معروف في أخباره وكان في الدولة الاموية بالاندلس أيضا كثير منه وهو مجهول فيما لدينا لانا انما أدركنا دولا قليلة العساكر لا تنتهي في مجال الحرب الى التناكر بل أكثر الجيوش من الطائفتين معا يجمعهم لدينا حلة أو مدينة ويعرف كل واحد منهم قرنه ويناديه في حومة الحرب باسمه ولقبه فاستغنى عن تلك التعبية

(فصل) ومن مذاهب أهل الكر والفر في الحروب ضرب المصاف وراء عسكرهم من الجمادات والحيوانات العجم فيتخذونها ملجأ للخيالة في كرهم وفرهم يطلبون به ثبات المقاتلة ليكون أدوم للحرب وأقرب الى الغلب وقد يفعله أهل الزحف أيضا ليزيدهم ثباتا وشدة فقد كان الفرس وهم أهل الزحف يتخذون الفيلة في الحروب يحملون عليها أبراجا من الخشب أمثال الصروح مشحونة بالمقاتلة والسلاح

والرايات ويصفونها وراءهم في حومة الحرب كأنهم حصون فتقوى بذلك نفوسهم ويزداد وثوقهم وانظر ما وقع من ذلك في القادسية وأن فارس في اليوم الثالث اشتدوا بها على المسلمين حتى اشتدت رجالات من العرب فخالطوهم وبعجوها بالسيوف على خراطيمها فنفرت ونكصت على أعقابها الى مرابطها بالمدائن فجفا معسكر فارس لذلك وانهزموا في اليوم الرابع * وأما الروم وملوك القوط بالاندلس وأكثر العجم فكانوا يتخذون لذلك الاسرة ينصبون للملك سريره في حومة الحرب ويحف به من خدمه وحاشيته وجنوده من هو زعيم بالاستماتة دونه وترفع الرايات في أركان السرير ويحدق به سياج آخر من الرماة والرجالة فيعظم هيكل السرير ويصير فئة للمقاتلة وملجأ للكر والفر وجعل ذلك الفرس أيام القادسية وكان رستم جالسا فيها على سرير نصبه لجلوسه حتى اختلفت صفوف فارس وخالطه العرب في سريره ذلك فتحول عنه الى الفرات وقتل * وأما أهل الكر والفر من العرب وأكثر الامم البدوية الرحالة فيصفون لذلك ابلهم والظهر الذي يحمل ظعائنهم فيكون فئة لهم ويسمونها المجبوذة وليس أمة من الامم الا وهي تفعل ذلك في حروبها وتراه أوثق في الجولة وآمن من الغرة والهزيمة وهو أمر مشاهد وقد أغفلته الدول لعهدنا بالجملة واعتاضوا عنه بالظهر الحامل للاثقال والفساطيط يجعلونها ساقة من خلفهم ولا تغني غناء الفيلة والابل فصارت العساكر بذلك عرضة للهزائم ومستشعرة للفرار في المواقف * وكان الحرب أول الاسلام كله زحفا وكان العرب انما يعرفون الكر والفر لكن حملهم على ذلك أول الاسلام أمران أحدهما أن عدوهم كانوا يقاتلون زحفا فيضطرون الى مقاتلتهم بمثل قتالهم الثاني أنهم كانوا مستميتين في جهادهم لما رغبوا فيه من الصبر ولما رسخ فيهم من الايمان والزحف الى الاستماتة أقرب * وأول من أبطل الصف في الحروب وصار الى التعبية كراديس مروان بن الحكم في قتال الضحاك الخارجي والجبيري بعده قال الطبري لما ذكر قتال الجبيري فولى الخوارج عليهم شيبان بن عبد العزيز اليشكري ويلقب أبا الدلفاء وقاتلهم مروان بعد ذلك بالكراديس وأبطل الصف من يومئذ انتهى فتنوسي قتال الزحف بابطال الصف ثم تنوسي الصف وراء المقاتلة بما داخل الدول من الترف وذلك أنها حينما كانت بدوية وسكناهم الخيام كانوا يستكثرون من الابل وسكنى النساء والولدان معهم في الاحياء فلما حصلوا على ترف الملك وألفوا سكنى القصور والحواضر وتركوا شأن البادية والقفر نسوا لذلك عهد الابل والظعائن وصعب عليهم اتخاذها فخلفوا النساء في الاسفار وحملهم الملك والترف على اتخاذ الفساطيط والاخبية فاقتصروا على الظهر الحامل للاثقال والابنية وكان

ذلك صفتهم في الحرب ولا يغني كل الغناء لانه لا يدعو الى الاستماتة كما يدعو اليها الاهل والمال فيخف الصبر من أجل ذلك وتسرفهم الهيعات وتخرم صفوفهم

(فصل) ولما ذكرناه من ضرب المصاف وراء العساكر وتأكده في قتال الكر والفر صار ملوك المغرب يتخذون طائفة من الافرنج في جندهم واختصوا بذلك لان قتال أهل وطنهم كله بالكر والفر والسلطان يتأكد في حقه ضرب المصاف ليكون ردأ للمقاتلة أمامه فلا بد وأن يكون أهل ذلك الصف من قوم متعودين للثبات في الزحف والا أجفلوا على طريقة أهل الكر والفر فانهزم السلطان والعساكر باجفالهم فاحتاج الملوك بالمغرب أن يتخذوا جندا من هذه الامة المتعودة الثبات في الزحف وهم الافرنج ويرتبون مصافهم المحدق بهم منها هذا على ما فيه من الاستعانة بأهل الكفر وانما استخفوا ذلك للضرورة التي أريناكها من تخوف الاجفال على مصاف السلطان والافرنج لا يعرفون غير الثبات في ذلك لان عادتهم في القتال الزحف فكانوا أقوم بذلك من غيرهم مع أن الملوك في المغرب انما يفعلون ذلك عند الحرب مع أمم العرب والبربر وقتالهم على الطاعة وأما في الجهاد فلا يستعينون بهم حذرا من ممالأتهم على المسلمين هذا هو الواقع بالمغرب لهذا العهد وقد أبدينا سببه والله بكل شيء عليم

(فصل) وبلغنا أن أمم الترك لهذا العهد قتالهم مناضلة بالسهام وأن تعبية الحرب عندهم بالمصاف وأنهم يقسمون بثلاثة صفوف يضربون صفا وراء صف ويترجلون عن خيولهم ويفرغون سهامهم بين أيديهم ثم يتناضلون جلوسا وكل صف ردء للذي أمامه أن يكبسهم العدو الى أن يتهيأ النصر لاحدى الطائفتين على الاخرى وهي تعبية محكمة غريبة

(فصل) وكان من مذاهب الاول في حروبهم حفر الخنادق على معسكرهم عند ما يتقاربون للزحف حذرا من معرة البيات والهجوم على العسكر بالليل لما في ظلمته ووحشته من مضاعفة الخوف فيلوذ الجيش بالفرار وتجد النفوس في الظلمة سترا من عاره فاذا تساووا في ذلك أرجف العسكر ووقعت الهزيمة فكانوا لذلك يحتفرون الخنادق على معسكرهم اذا نزلوا وضربوا أبنيتهم ويديرون الحفائر نطاقا عليهم من جميع جهاتهم حرصا أن يخالطهم العدو بالبيات فيتخاذلوا وكانت للدول في أمثال هذا قوة وعليه اقتدار باحتشاد الرجال وجمع الايدي عليه في كل منزل من منازلهم بما كانوا عليه من وفور العمران وضخامة الملك فلما خرب العمران وتبعه ضعف الدول وقلة الجنود وعدم الفعلة نسي هذا الشأن جملة كأنه لم يكن والله خير القادرين وانظر وصية علي رضي الله عنه وتحريضه لاصحابه يوم صفين تجد كثيرا من علم الحرب ولم يكن

أحد أبصر بها منه قال في كلام له فسوّوا صفوفكم كالبنيان المرصوص وقدموا الدارع وأخروا الحاسر وعضوا على الاضراس فانه أنبى للسيوف عن الهام والتووا على اطراف الرماح فانه أصون للاسنة وغضوا الابصار فانه أربط للجاش وأسكن للقلوب واخفتوا الاصوات فانه أطرد للفشل وأولى بالوقار وأقيموا راياتكم فلا تميلوها ولا تجعلوها الا بأيدي شجعانكم واستعينوا بالصدق والصبر فانه بقدر الصبر ينزل النصر وقال الاشتر يومئذ يحرض الازد عضوا على النواجذ من الاضراس واستقبلوا القوم بهامكم وشدوا شدة قوم موتورين يثأرون بآبائهم واخوانهم حنقا على عدوهم وقد وطنوا على الموت أنفسهم لئلا يسبقوا بوتر ولا يلحقهم في الدنيا عار وقد أشار الى كثير من ذلك أبو بكر الصيرفي شاعر لمتونة وأهل الاندلس في كلمة يمدح بها تاشفين بن علي بن يوسف ويصف ثباته في حرب شهدها ويذكره بأمور الحرب في وصايا وتحذيرات تنبهك على معرفة كثير من سياسة الحرب يقول فيها

يا أيها الملأ الذي يتقنع * من منكم الملك الهمام الاروع
ومن الذي غدر العدوّ به دجى * فانفض كلّ وهو لا يتزعزع
تمضي الفوارس والطعان يصدها * عنه ويدمرها الوفاء فترجع
والليل من وضح الترائك انه * صبح على هام الجيوش يلمع
أنى فزعتم يا بني صنهاجة * واليكمو في الروع كان المفزع
انسان عين لم يصبه منكم * حضن وقلب أسلمته الاضلع
وصددتمو عن تاشفين وانه * لعقابه لو شاء فيكم موضع
ما أنتمو الا أسود خفية * كلّ لكل كريهة مستطلع
يا تاشفين أقم لجيشك عذره * بالليل والغدر الذي لا يدفع

(ومنها في سياسة الحرب)

أهديك من أدب السياسة ما به * كانت ملوك الفرس قبلك تولع
لا أنني أدرى بها لكنها * ذكرى تحض المؤمنين وتنفع
والبس من الحلق المضاعفة التي * وصى بها صنع الصنائع تبع
والهندوانيّ الرقيق فانه * أمضى على حد الدلاص وأقطع
واركب من الخيل السوابق عدّة * حصنا حصينا ليس فيه مدفع
خندق عليك اذا ضربت محلة * سيان تتبع ظافرا أو تتبع
والواد لا تعبره وانزل عنده * بين العدو وبين جيشك يقطع
واجعل مناجزة الجيوش عشية * ووراءك الصدق الذي هو أمنع

واذا تضايقت الجيوش بمعرك * ضنك فأطراف الرماح توسع
واصدمه أول وهلة لا تكترث * شيأ فاظهار النكول يضعضع
واجعل من الطلاع أهل شهامة * للصدق فيهم شيمة لا تخدع
لا تسمع الكذاب جاءك مرجفا * لا رأى للكذاب فيما يصنع

قوله واصدمه أول وهلة لا تكترث البيت مخالف لما عليه الناس فى أمر الحرب فقد قال عمر لابى عبيد بن مسعود الثقفى لما ولاه حرب فارس والعراق فقال له اسمع وأطع من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم واشركهم فى الامر ولا تجيبن مسرعا حتى تتبين فانها الحرب ولا يصلح لها الا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة والكف وقال له فى أخرى انه لن يمنعنى أن أؤمر سليطا الا سرعته فى الحرب وفى التسرع فى الحرب الا عن بيان ضياع والله لولا ذلك لامرته لكن الحرب لا يصلحها الا الرجل المكيث هذا كلام عمر وهو شاهد بأن التثاقل فى الحرب أولى من الخفوف حتى يتبين حال تلك الحرب وذلك عكس ما قاله الصيرفى الا أن يريد أن الصدم بعد البيان فله وجه والله تعالى أعلم

(فصل) ولا وثوق فى الحرب بالظفر وان حصلت أسبابه من العدة والعديد وانما الظفر فيها والغلب من قبيل البخت والاتفاق وبيان ذلك أن أسباب الغلب فى الاكثر مجتمعة من أمور ظاهرة وهى الجيوش ووفورها وكمال الاسلحة واستجادتها وكثرة الشجعان وترتيب المصاف ومنه صدق القتال وما جرى مجرى ذلك ومن امور خفية وهى اما من خدع البشر وحيلهم فى الارجاف والتشانيع التى يقع بها التخذيل وفى التقدم الى الاماكن المرتفعة ليكون الحرب من أعلى فيتوهم المنخفض لذلك وفى الكمون فى الغياض ومطمئن الارض والتوارى بالكدى عن العدو حتى يتداولهم العسكر دفعة وقد تورطوا فيتلمون الى النجاة وأمثال ذلك واما أن تكون تلك الاسباب الخفية امورا سماوية لا قدرة للبشر على اكتسابها تلقى فى القلوب فيستولى الرهب عليهم لاجلها فتختل مراكزهم فتقع الهزيمة واكثر ما تقع الهزائم عن هذه الاسباب الخفية لكثرة ما يعتمل لكل واحد من الفريقين فيها حرصا على الغلب فلا بد من وقوع التأثير فى ذلك لاحدهما ضرورة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الحرب خدعة ومن أمثال العرب رب حيلة أنفع من قبيلة فقد تبين أن وقوع الغلب فى الحروب غالبا عن أسباب خفية غير ظاهرة ووقوع الاشياء عن الاسباب الخفية هو معنى البخت كما تقرر فى موضعه فاعتبره وتفهم من وقوع الغلب عن الامور السماوية كما شرحناه معنى قوله صلى الله عليه وسلم نصرت بالرعب مسيرة شهر وما وقع من غلبه للمشركين فى حياته بالعدد القليل وغلب المسلمين من بعده كذلك فى الفتوحات

فان الله سبحانه وتعالى تكفل لنبيه بالقاء الرعب فى قلوب الكافرين حتى يستولى على قلوبهم فينهزموا معجزة لرسوله صلى الله عليه وسلم فكان الرعب فى قلوبهم سببا للهزائم فى الفتوحات الاسلامية كلها الا أنه خفى عن العيون * وقد ذكر الطرطوشى ان من أسباب الغلب فى الحروب أن تفضل عدة الفرسان المشاهير من الشجعان فى أحد الجانبين على عدتهم فى الجانب الآخر مثل أن يكون أحد الجانبين فيه عشرة أو عشرون من الشجعان المشاهير وفى الجانب الآخر ثمانية أو ستة عشر فالجانب الزائد ولو بواحد يكون له الغلب وأعاد فى ذلك وأبدى وهو راجع الى الاسباب الظاهرة التى قدمنا وليس بصحيح وانما الصحيح المعتبر فى الغلب حال العصبية أن يكون فى أحد الجانبين عصبية واحدة جامعة لكلهم وفى الجانب الآخر عصائب متعددة لان العصائب اذا كانت متعددة يقع بينها من التخاذل ما يقع فى الوحدان المتفرقين الفاقدين للعصبية اذ تنزل كل عصابة منهم منزلة الواحد ويكون الجانب الذى عصابته متعددة لا يقاوم الجانب الذى عصبيته واحدة لاجل ذلك فتفهمه واعلم أنه أصح فى الاعتبار مما ذهب اليه الطرطوشى ولم يحمله على ذلك الا نسيان شأن العصبية فى حلة وبلدة وانهم انما يرون ذلك الدفاع والحماية والمطالبة الى الوحدان والجماعة الناشئة عنهم لا يعتبرون فى ذلك عصبية ولا نسبا وقد بينا ذلك أول الكتاب مع أن هذا وأمثاله على تقدير صحته انما هو من الاسباب الظاهرة مثل اتفاق الجيش فى العدة وصدق القتال وكثرة الاسلحة وما أشبهها فكيف يجعل ذلك كفيلا بالغلب ونحن قد قررنا لك الآن أن شيأ منها لا يعارض الاسباب الخفية من الحيل والخداع ولا الامور السماوية من الرعب والخذلان الالهى فافهمه وتفهم أحوال الكون والله مقدر الليل والنهار

(فصل) ويلحق بمعنى الغلب فى الحروب وأن أسبابه خفية وغير طبيعية حال الشهرة والصيت فقل أن تصادف موضعها فى أحد من طبقات الناس من الملوك والعلماء والصالحين والمنتحلين للفضائل على العموم وكثير ممن اشتهر بالشر وهو بخلافه وكثير ممن تجاوزت عنه الشهرة وهو أحق بها وأهلها وقد تصادف موضعها وتكون طبقا على صاحبها والسبب فى ذلك أن الشهرة والصيت انما هما بالاخبار والاخبار يدخلها الذهول عن المقاصد عند التناقل ويدخلها التعصب والتشيع ويدخلها الاوهام ويدخلها الجهل بمطابقة الحكايات للاحوال لخفائها بالتلبيس والتصنع أو لجهل الناقل ويدخلها التقرب لاصحاب التجلة والمراتب الدنيوية بالثناء والمدح وتحسين الاحوال واشاعة الذكر بذلك والنفوس مولعة بحب الثناء والناس متطاولون الى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة وليسوا فى الاكثر براغبين فى الفضائل ولا متنافسين فى

أهلها وأين مطابقة الحق مع هذه كلها فتحتمل الشهرة عن أسباب خفية من هذه وتكون غير مطابقة وكل ما حصل بسبب خفي فهو الذي يعبر عنه بالبخت كما تقرر والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٣٩ (فصل في الجباية وسبب قلتها وكثرتها)

اعلم أن الجباية أول الدولة تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة وآخر الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة والسبب في ذلك أن الدولة ان كانت على سنن الدين فليست الا المغارم الشرعية من الصدقات والخراج والجزية وهي قليلة الوزائع لان مقدار الزكاة من المال قليل كما علمت وكذا زكاة الحبوب والماشية وكذا الجزية والخراج وجميع المغارم الشرعية وهي حدود لا تتعدى وان كانت على سنن التغلب والعصبية فلا بد من البداوة في أولها كما تقدم والبداوة تقتضي المسامحة والمكارمة وخفض الجناح والتجافي عن أموال الناس والغفلة عن تحصيل ذلك الا في النادر فيقل لذلك مقدار الوظيفة الواحدة والوزيعة التي تجمع الاموال من مجموعها واذا قلت الوزائع والوظائف على الرعايا نشطوا للعمل ورغبوا فيه فيكثر الاعتمار ويتزايد محصول الاغتباط بقلة المغرم واذا كثر الاعتمار كثرت اعداد تلك الوظائف والوزائع فكثرت الجباية التي هي جملتها فاذا استمرت الدولة واتصلت وتعاقب ملوكها واحدا بعد واحد واتصفوا بالكيس وذهب سر البداوة والسذاجة وخلقها من الاغضاء والتجافي وجاء الملك العضوض والحضارة الداعية الى الكيس وتخلق أهل الدولة حينئذ بخلق التحذلق وتكثرت عوائدهم وحوائجهم بسبب ما انغمسوا فيه من النعيم والترف فيكثرون الوظائف والوزائع حينئذ على الرعايا والاكرة والفلاحين وسائر أهل المغارم ويزيدون في كل وظيفة ووزيعة مقدارا عظيما لتكثر لهم الجباية ويضعون المكوس على المبايعات وفي الابواب كما نذكر بعد ثم تتدرج الزيادات فيها بمقدار بعد مقدار لتدرج عوائد الدولة في الترف وكثرة الحاجات والانفاق بسببه حتى تثقل المغارم على الرعايا وتنهضم وتصير عادة مفروضة لان تلك الزيادة تدرجت قليلا قليلا ولم يشعر أحد بمن زادها على التعيين ولا من هو واضعها انما ثبت على الرعايا في الاعتمار لذهاب الامل من نفوسهم بقلة النفع اذا قابل بين نفعه ومغارمه وبين ثمرته وفائدته فتنقبض كثير من الايدي عن الاعتمار جملة فتنقص جملة الجباية حينئذ بنقصان تلك الوزائع منها وربما يزيدون في مقدار الوظائف اذا رأوا ذلك النقص في الجباية ويحسبونه جبرا لما نقص حتى تنتهي كل وظيفة ووزيعة الى غاية ليس وراءها نفع ولا فائدة لكثرة الانفاق حينئذ

في الاعتمار وكثرة المغارم وعدم وفاء الفائدة المرجوة به فلا تزال الجملة في نقص ومقدار الوزائع والوظائف في زيادة لما يعتقدونه من جبر الجملة بها الى أن ينتقص العمران بذهاب الآمال من الاعتمار ويعود وبال ذلك على الدولة لان فائدة الاعتمار عائدة اليها واذا فهمت ذلك علمت أن أقوى الاسباب في الاعتمار تقليل مقدار الوظائف على المعتمرين ما أمكن فبذلك تنبسط النفوس اليه لثقتها بادراك المنفعة فيه والله سبحانه وتعالى مالك الامور كلها وبيده ملكوت كل شئ

٤٠ (فصل في ضرب المكوس اواخر الدولة)

اعلم أن الدولة تكون في أولها بدوية كما قلنا فتكون لذلك قليلة الحاجات لعدم الترف وعوائده فيكون خرجها وانفاقها قليلا فيكون في الجباية حينئذ وفاء بأزيد منها بل يفضل منها كثير عن حاجتهم ثم لا تلبث أن تأخذ بدين الحضارة في الترف وعوائدها وتجري على نهج الدول السابقة قبلها فيكثر لذلك خراج أهل الدولة ويكثر خراج السلطان خصوصا كثرة بالغة بنفقته في خاصته وكثرة عطائه ولا تفي بذلك الجباية فتحتاج الدولة الى الزيادة في الجباية لما تحتاج اليه الحامية من العطاء والسلطان من النفقة فيزيد في مقدار الوظائف والوزائع أولا كما قلناه ثم يزيد الخراج والحاجات والتدريج في عوائد الترف وفي العطاء للحامية ويدرك الدولة الهرم وتضعف عصابتها عن جباية الاموال من الاعمال والقاصية فتقل الجباية وتكثر العوائد ويكثر بكثرتها أرزاق الجند وعطاؤهم فيستحدث صاحب الدولة أنواعا من الجباية يضربها على المبايعات ويفرض لها قدرا معلوما على الاثمان في الاسواق وعلى أعيان السلع في أموال المدينة وهو مع هذا مضطر لذلك بما دعاه اليه ترف الناس من كثرة العطاء مع زيادة الجيوش والحامية وربما يزيد ذلك في أواخر الدولة زيادة بالغة فتكسد الاسواق لفساد الآمال ويؤذن ذلك باختلال العمران ويعود على الدولة ولا يزال ذلك يتزايد الى أن تضمحل وقد كان وقع منه بأمصار المشرق في أخريات الدولة العباسية والعبيدية كثير وفرضت المغارم حتى على الحاج في الموسم وأسقط صلاح الدين أيوب تلك الرسوم جملة وأعاضها بآثار الخير وكذلك وقع بالاندلس لعهد الطوائف حتى محا رسمه يوسف بن تاشفين أمير المرابطين وكذلك وقع بأمصار الجريد بافريقية لهذا العهد حين استبد بها رؤساؤها والله تعالى أعلم

٤١ (فصل في التجارة من السلطان مضرة بالرعايا مفسدة للجباية)

اعلم أن الدولة اذا ضاقت جبايتها بما قدمناه من الترف وكثرة العوائد والنفقات وقصر

الحاصل من جبايتها على الوفاء بحاجاتها ونفقاتها واحتاجت الى مزيد المال والجباية فتارة توضع المكوس على بياعات الرعايا وأسواقهم كما قدمنا ذلك فى الفصل قبله وتارة بالزيادة فى ألقاب المكوس ان كان قد استحدث من قبل وتارة بمقاسمة العمال والجباة وامتكاك عظامهم لما يرون أنهم قد حصلوا على شئ طائل من أموال الجباية لا يظهره الحسبان وتارة باستحداث التجارة والفلاحة للسلطان على تسمية الجباية لما يرون التجار والفلاحين يحصلون على الفوائد والغلات مع يسارة أموالهم وان الارباح تكون على نسبة رؤس الاموال فيأخذون فى اكتساب الحيوان والنبات لاستغلاله فى شراء البضائع والتعرض بها لحوالة الاسواق ويحسبون ذلك من ادرار الجباية وتكثير الفوائد وهو غلط عظيم وادخال الضرر على الرعايا من وجوه متعددة فأولا مضايقة الفلاحين والتجار فى شراء الحيوان والبضائع وتيسير أسباب ذلك فان الرعايا متكافئون فى اليسار متقاربون ومزاحمة بعضهم بعضا تنتهى الى غاية موجودهم أو تقرب واذا رافقهم السلطان فى ذلك وماله أعظم كثيرا منهم فلا يكاد أحد منهم يحصل على غرضه فى شئ من حاجاته ويدخل على النفوس من ذلك غم ونكد ثم ان السلطان قد ينتزع الكثير من ذلك اذا تعرض له غصبا أو بأيسر ثمن أو لا يجد من يناقشه فى شرائه فيبخس ثمنه على بائعه ثم اذا حصل فوائد الفلاحة ومغلها كله من زرع أو حرير أو عسل أو سكر أو غير ذلك من أنواع الغلات وحصلت بضائع التجارة من سائر الانواع فلا ينتظرون به حوالة الاسواق ولا نفاق البياعات لما يدعوهم اليه تكاليف الدولة فيكلفون أهل تلك الاصناف من تاجر أو فلاح بشراء تلك البضائع ولا يرضون فى أثمانها الا القيم وأزيد فيستوعبون فى ذلك ناض أموالهم وتبقى تلك البضائع بأيديهم عروضا جامدة ويمكثون عطلا من الادارة التى فيها كسبهم ومعاشهم وربما تدعوهم الضرورة الى شئ من المال فيبيعون تلك السلع على كساد من الاسواق بأبخس ثمن وربما يتكرر ذلك على التاجر والفلاح منهم بما يذهب رأس ماله فيقعد عن سوقه ويتعدد ذلك ويتكرر ويدخل به على الرعايا من العنت والمضايقة وفساد الارباح ما يقبض آمالهم عن السعى فى ذلك جملة ويؤدى الى فساد الجباية فان معظم الجباية انما هى من الفلاحين والتجار لاسيما بعد وضع المكوس ونمو الجباية بها فاذا انقبض الفلاحون عن الفلاحة وقعد التجار عن التجارة ذهبت الجباية جملة أو دخلها النقص المتفاحش واذا قايس السلطان بين ما يحصل له من الجباية وبين هذه الارباح القليلة وجدها بالنسبة الى الجباية أقل من القليل ثم انه ولو كان مفيدا فيذهب له بحظ عظيم من الجباية فيما يعانيه من شراء أو بيع فانه من البعيد أن يوجد فيه من

المكس ولو كان غيره فى تلك الصفقات لكان تكسبها كلها حاصلا من جهة الجباية ثم فيه التعرض لاهل عمرانه واختلال الدولة بفسادهم ونقصه فان الرعايا اذا قعدوا عن تثمير أموالهم بالفلاحة والتجارة نقصت وتلاشت بالنفقات وكان فيها اتلاف أحوالهم فافهم ذلك وكان الفرس لا يملكون عليهم الامن أهل بيت المملكة ثم يختارونه من أهل الفضل والدين والادب والسخاء والشجاعة والكرم ثم يشترطون عليه مع ذلك العدل وأن لا يتخذ صنعة فيضر بجيرانه ولا يتاجر فيحب غلاء الاسعار فى البضائع وأن لا يستخدم العبيد فانهم لا يشيرون بخير ولا مصلحة * واعلم أن السلطان لا ينمى ماله ولا يدر موجوده الا الجباية وادرارها انما يكون بالعدل فى أهل الاموال والنظر لهم بذلك فبذلك تنبسط آمالهم وتنشرح صدورهم للاخذ فى تثمير الاموال وتنميتها فتعظم منها جباية السلطان وأما غير ذلك من تجارة أو فلح فانما هو مضرة عاجلة للرعايا وفساد للجباية ونقص للعمارة وقد ينتهى الحال بهؤلاء المنسلخين للتجارة والفلاحة من الامراء والمتغلبين فى البلدان انهم يتعرضون لشراء الغلات والسلع من أربابها الواردين على بلدهم ويفرضون لذلك من الثمن ما يشاؤن ويبيعونها فى وقتها لمن تحت أيديهم من الرعايا بما يفرضون من الثمن وهذه أشد من الاولى وأقرب الى فساد الرعية واختلال أحوالهم وربما يحمل السلطان على ذلك من يداخله من هذه الاصناف أعنى التجار والفلاحين لما هى صناعته التى نشأ عليها فيحمل السلطان على ذلك ويضرب معه بسهم لنفسه ليحصل على غرضه من جمع المال سريعا سيما مع ما يحصل له من التجارة بلا مغرم ولا مكس فانها أجدر بنمو الاموال وأسرع فى تثميره ولا يفهم ما يدخل على السلطان من الضرر بنقص جبايته فينبغى للسلطان أن يحذر من هؤلاء ويعرض عن سعايتهم المضرة بجبايته وسلطانه والله يلهمنا رشد أنفسنا وينفعنا بصالح الاعمال والله تعالى أعلم

٤٢ (فصل في ان ثروة السلطان وحاشيته انما تكون في وسط الدولة)

والسبب فى ذلك أن الجباية فى أول الدولة تتوزع على أهل القبيل والعصبية بمقدار غنائهم وعصبيتهم ولان الحاجة اليهم فى تمهيد الدولة كما قلناه من قبل فرئيسهم فى ذلك متجاف لهم عما يسمون اليه من الجباية معتاض عن ذلك بما هو يروم من الاستبداد عليهم فله عليهم عزة وله اليهم حاجة فلا يطير فى سهمانه من الجباية الا الاقل من حاجته فتجد حاشيته لذلك وأذياله من الوزراء والكتاب والموالى مملقين فى الغالب وجاههم متقلص لانه من جاه مخدومهم ونطاقه قد ضاق بمن يزاحمه فيه من أهل عصبيته فاذا

استفحلت طبيعة الملك وحصل لصاحب الدولة الاستبداد على قومه قبض أيديهم عن الجبايات الا ما يطير لهم بين الناس في سهمانهم وتقل حظوظهم اذ ذاك لقلة غنائهم في الدولة بما انكبح من أعنتهم وصار الموالي والصنائع مساهمين لهم في القيام بالدولة وتمهيد الامر فينفرد صاحب الدولة حينئذ بالجباية أو معظمها ويحتوي على الاموال ويدخرها للنفقات في مهمات الاحوال فتكثر ثروته وتمتلئ خزائنه ويتسع نطاق جاهه ويعتز على سائر قومه فيعظم حال حاشيته وذويه من وزير وكاتب وحاجب ومولى وشرطي ويتسع جاههم ويقتنون الاموال ويتأثلونها ثم اذا أخذت الدولة في الهرم بتلاشي العصبية وفناء القبيل المعاهدين للدولة احتاج صاحب الامر حينئذ الى الاعوان والانصار لكثرة الخوارج والمنازعين والثوار وتوهم الانتقاض فصار خراجه لظهرائه وأعوانه وهم أرباب السيوف وأهل العصبيات وأنفق خزائنه وحاصله في مهمات الدولة وقلت مع ذلك الجباية لما تقدم من كثرة العطاء والانفاق فيقل الخراج وتشتد حاجة الدولة الى المال فيتقلص ظل النعمة والترف عن الخواص والحجاب والكتاب بتقلص الجاه عنهم وضيق نطاقه على صاحب الدولة ثم تشتد حاجة صاحب الدولة الى المال وتنفق أبناء البطانة والحاشية ما تأثله آباؤهم من الاموال في غير سبيلها من اعانة صاحب الدولة ويقبلون على غير ما كان عليه آباؤهم وسلفهم من المناصحة ويرى صاحب الدولة أنه أحق بتلك الاموال التي اكتسبت في دولة سلفه وبجاههم فيصطلمها وينتزعها منهم لنفسه شيأ فشيأ وواحدا بعد واحد على نسبة رتبهم وتنكر الدولة لهم ويعود وبال ذلك على الدولة بفناء حاشيتها ورجالاتها وأهل الثروة والنعمة من بطانتها ويتقوض بذلك كثير من مباني المجد بعد أن يدعمه أهله ويرفعوه * وانظر ما وقع من ذلك لوزراء الدولة العباسية في بني قحطبة وبني برمك وبني سهل وبني طاهر وأمثالهم ثم في الدولة الاموية بالاندلس عند انحلالها أيام الطوائف في بني شهيد وبني أبي عبدة وبني حدير وبني برد وأمثالهم وكذا في الدولة التي أدركناها العهد ناسنة الله التي قد خلت في عباده

(فصل) ولما يتوقعه أهل الدولة من أمثال هذه المعاطب صار الكثير منهم ينزعون الى الفرار عن الرتب والتخلص من ربقة السلطان بما حصل في أيديهم من مال الدولة الى قطر آخر ويرون أنه أهنأ لهم وأسلم في انفاقه وحصول ثمرته وهو من الاغلاط الفاحشة والاوهام المفسدة لاحوالهم ودنياهم واعلم أن الخلاص من ذلك بعد الحصول فيه عسير ممتنع فان صاحب هذا الغرض اذا كان هو الملك نفسه فلا تمكنه الرعية من ذلك طرفة عين ولا أهل العصبية المزاحمون له بل في ظهور ذلك منه هدم

للنكبة وإتلاف لنفسه بمجاري العادة بذلك لأن ربقة الملك يعسر الخلاص منها سيما عند استفحال الدولة وضيق نطاقها وما يعرض فيها من البعد عن المجد والخلال والتخلق بالشر وأما إذا كان صاحب هذا الغرض من بطانة السلطان وحاشيته وأهل الرتب في دولته فقل أن يخلى بينه وبين ذلك أما أولاً فلما يراه الملوك أن ذويهم وحاشيتهم بل وسائر رعاياهم مماليك لهم مطلعون على ذات صدورهم فلا يسمحون بحل ربقته من الخدمة ضناً بأسرارهم وأحوالهم أن يطلع عليها أحد وغيرة من خدمته لسواهم ولقد كان بنو أمية بالأندلس يمنعون أهل دولتهم من السفر لفريضة الحج لما يتوهمونه من وقوعهم بأيدي بني العباس فلم يحج سائر أيامهم أحد من أهل دولتهم وما أبيح الحج لأهل الدول من الأندلس إلا بعد فراغ شأن الأموية ورجوعها إلى الطوائف وأما ثانياً فلأنهم وإن سمحوا بحل ربقته هو فلا يسمحون بالتجافي عن ذلك المال لما يرون أنه جزء من مالهم كما يرون أنه جزء من دولتهم إذ لم يكتسب إلا بها وفي ظل جاهها فتحوم نفوسهم على انتزاع ذلك المال والتقامه كما هو جزء من الدولة ينتفعون به ثم إذا توهمنا أنه خلص بذلك المال إلى قطر آخر وهو في النادر الأقل فتمتد إليه أعين الملوك بذلك القطر وينتزعونه بالإرهاب والتخويف تعريضاً أو بالقهر ظاهراً لما يرون أنه مال الجباية والدول وأنه مستحق للإنفاق في المصالح وإذا كانت أعينهم تمتد إلى أهل الثروة واليسار المتكسبين من وجوه المعاش فأحرى بها أن تمتد إلى أموال الجباية والدول التي تجد السبيل إليه بالشرع والعادة ولقد حاول السلطان أبو يحيى زكريا بن أحمد اللحياني تاسع أو عاشر ملوك الحفصيين بإفريقية الخروج عن عهدة الملك واللحاق بمصر فراراً من طلب صاحب الثغور الغربية لما استجمع لغزو تونس فاستعمل اللحياني الرحلة إلى ثغر طرابلس يوري بتمهيده وركب السفين من هنالك وخلص إلى الإسكندرية بعد أن حمل جميع ما وجده ببيت المال من الصامت والذخيرة وباع كل ما كان بخزائنهم من المتاع والعقار والجوهر حتى الكتب واحتمل ذلك كله إلى مصر ونزل على الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة سبع عشرة من المائة الثامنة فأكرم نزله ورفع مجلسه ولم يزل يستخلص ذخيرته شيئاً فشيئاً بالتعريض إلى أن حصل عليها ولم يبق معاش ابن اللحياني إلا في جرايته التي فرض له إلى أن هلك سنة ثمان وعشرين حسبما نذكره في أخباره فهذا وأمثاله من جملة الوسواس الذي يعتري أهل الدول لما يتوقعونه من ملوكهم من المعاطب وإنما يخلصون إن اتفق لهم الخلاص بأنفسهم وما يتوهمونه من الحاجة فغلط ووهم والذي حصل لهم من الشهرة بخدمة الدول كاف في وجدان المعاش لهم بالجرايات السلطانية أو بالجاه في انتحال طرق الكسب من

التجارة والفلاحة والدول أنساب لكن

النفس راغبة اذا رغبتها * واذا ترد الى قليل تقنع

والله سبحانه هو الرزاق وهو الموفق بمنه وفضله والله أعلم

٤٣ (فصل في ان نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية)

والسبب في ذلك أن الدولة والسلطان هي السوق الاعظم للعالم ومنه مادة العمران فاذا احتجن السلطان الاموال أو الجبايات أو فقدت فلم يصرفها في مصارفها قل حينئذ ما بأيدي الحاشية والحامية وانقطع أيضا ما كان يصل منهم لحاشيتهم وذويهم وقلت نفقاتهم جملة وهم معظم السواد ونفقاتهم أكثر مادة للاسواق ممن سواهم فيقع الكساد حينئذ في الاسواق وتضعف الارباح في المتاجر فيقل الخراج لذلك لان الخراج والجباية انما تكون من الاعتمار والمعاملات ونفاق الاسواق وطلب الناس للفوائد والارباح ووبال ذلك عائد على الدولة بالنقص لقلة أموال السلطان حينئذ بقلة الخراج فان الدولة كما قلناه هي السوق الاعظم أم الاسواق كلها وأصلها ومادتها في الدخل والخرج فان كسدت وقلت مصارفها فأجدر بما بعدها من الاسواق أن يلحقها مثل ذلك وأشد منه وأيضا فالمال انما هو متردد بين الرعية والسلطان منهم اليه ومنه اليهم فاذا حبسه السلطان عنده فقدته الرعية سنة الله في عباده

٤٤ (فصل في ان الظلم مؤذن بخراب العمران)

اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم واذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب فاذا كان الاعتداء كثيرا عاما في جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالآمال جملة بدخوله من جميع أبوابها وان كان الاعتداء يسيرا كان الانقباض عن الكسب على نسبته والعمران ووفوره ونفاق أسواقه انما هو بالاعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين فاذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران وانتقضت الاحوال وابذعر الناس في الآفاق من غير تلك الايالة في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها فخف ساكن القطر وخلت دياره وخربت أمصاره واختل باختلاله حال الدولة والسلطان لما أنها صورة للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورة وانظر في ذلك ما حكاه المسعودي في أخبار الفرس عن الموبذان صاحب الدين

عندهم أيام بهرام بن بهرام وما عرّض به للملك فى انكاره ما كان عليه من الظلم والغفلة عن عائدته على الدولة بضرب المثال فى ذلك على لسان البوم حين سمع الملك أصواتها وسأله عن فهم كلامها فقال له ان بوماذكرا يروم نكاح بوم أنثى وأنها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب فى أيام بهرام فقبل شرطها وقال لها ان دامت أيام الملك أقطعتك ألف قرية وهذا أسهل مرام فتنبه الملك من غفلته وخلا بالموبذان وسأله عن مراده فقال له أيها الملك ان الملك لا يتم عزه الا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه ولا قوام للشريعة الا بالملك ولا عز للملك الا بالرجال ولا قوام للرجال الا بالمال ولا سبيل الى المال الا بالعمارة ولا سبيل للعمارة الا بالعدل والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الرب وجعل له قيما وهو الملك وأنت أيها الملك عمدت الى الضياع فانتزعتها من أربابها وعمارها وهم أرباب الخراج ومن تؤخذ منهم الاموال وأقطعتها الحاشية والخدم وأهل البطالة فتركوا العمارة والنظر فى العواقب وما يصلح الضياع وسومحوا فى الخراج لقربهم من الملك ووقع الحيف على من بقى من أرباب الخراج وعمار الضياع فانجلوا عن ضياعهم وخلوا ديارهم وآووا الى ما تعذر من الضياع فسكنوها فقلت العمارة وخربت الضياع وقلت الاموال وهلكت الجنود والرعية وطمع فى ملك فارس من جاورهم من الملوك لعلمهم بانقطاع المواد التى لا تستقيم دعائم الملك الا بها فلما سمع الملك ذلك أقبل على النظر فى ملكه وانتزعت الضياع من ايدى الخاصة وردت على أربابها وحملوا على رسومهم السالفة وأخذوا فى العمارة وقوى من ضعف منهم فعمرت الارض وأخصبت البلاد وكثرت الاموال عند جباة الخراج وقويت الجنود وقطعت مواد الاعداء وشحنت الثغور وأقبل الملك على مباشرة أموره بنفسه فحسنت أيامه وانتظم ملكه فتفهم من هذه الحكاية أن الظلم مخرب للعمران وان عائدة الخراب فى العمران على الدولة بالفساد والانتقاض ولا تنظر فى ذلك الى أن الاعتداء قد يوجد بالامصار العظيمة من الدول التى بها ولم يقع فيها خراب واعلم أن ذلك انما جاء من قبل المناسبة بين الاعتداء وأحوال أهل المصر فلما كان المصر كبيرا وعمرانه كثيرا وأحواله متسعة بما لا ينحصر كان وقوع النقص فيه بالاعتداء والظلم يسيرا لان النقص انما يقع بالتدريج فاذا خفى بكثرة الاحوال واتساع الاعمال فى المصر لم يظهر أثره الا بعد حين وقد تذهب تلك الدولة المعتدية من أصلها قبل خراب المصر وتجىء الدولة الاخرى فترقعه بجدتها وتجبر النقص الذى كان خفيا فيه فلا يكاد يشعر به الا أن ذلك فى الاقل النادر والمراد من هذا أن حصول النقص فى العمران عن الظلم والعدوان أمر واقع لا بد منه لما قدمناه ووباله عائد على الدول

ولا تحسبن الظلم انما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور بل الظلم أعم من ذلك وكل من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه حقا لم يفرضه الشرع فقد ظلمه فجباة الاموال بغير حقها ظلمة والمعتدون عليها ظلمة والمنتهبون لها ظلمة والمانعون لحقوق الناس ظلمة وغصاب الاملاك على العموم ظلمة ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذي هو مادتها لاذهابه الآمال من أهله واعلم أن هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري وهي الحكمة العامة المراعاة للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال فلما كان الظلم كما رأيت مؤذنا بانقطاع النوع لما أدى اليه من تخريب العمران كانت حكمة الحظر فيه موجودة فكان تحريمه مهما وأدلته من القرآن والسنة كثيرا أكثر من أن يأخذها قانون الضبط والحصر ولو كان كل واحد قادرا عليه لوضع بازائه من العقوبات الزاجرة ما وضع بازاء غيره من المفسدات للنوع التي يقدر كل أحد على اقترافها من الزنا والقتل والسكر الا أن الظلم لا يقدر عليه الا من يقدر عليه لانه انما يقع من أهل القدرة والسلطان فبولغ في ذمه وتكرير الوعيد فيه عسى أن يكون الوازع فيه للقادر عليه في نفسه وما ربك بظلام للعبيد * ولا تقولن ان العقوبة قد وضعت بازاء الحرابة في الشرع وهي من ظلم القادر لان المحارب زمن حرابته قادر فان في الجواب عن ذلك طريقين احدهما أن تقول العقوبة على ما يقترفه من الجنايات في نفس أو مال على ما ذهب اليه كثير وذلك انما يكون بعد القدرة عليه والمطالبة بجنايته وأما نفس الحرابة فهي خلو من العقوبة * الطريق الثاني أن تقول المحارب لا يوصف بالقدرة لانا انما نعني بقدرة الظالم اليد المبسوطة التي لا تعارضها قدرة فهي المؤذنة بالخراب وأما قدرة المحارب فانما هي اخافة يجعلها ذريعة لاخذ الاموال والمدافعة عنها بيد الكل موجودة شرعا وسياسة فليست من القدر المؤذن بالخراب والله قادر على ما يشاء

(فصل) ومن أشد الظلامات وأعظمها في افساد العمران تكليف الاعمال وتسخير الرعايا بغير حق وذلك أن الاعمال من قبيل المتمولات كما سنبين في باب الرزق لان الرزق والكسب انما هو قيم أعمال أهل العمران فاذا مساعيهم وأعمالهم كلها متمولات ومكاسب لهم بل لا مكاسب لهم سواها فان الرعية المعتملين في العمارة انما معاشهم ومكاسبهم من اعتمالهم ذلك فاذا كلفوا العمل في غير شأنهم واتخذوا سخريا في

معاشهم ببطل كسبهم واغتصبوا قيمة عملهم ذلك وهو متمولهم فدخل عليهم الضرر وذهب لهم حظ كبير من معاشهم بل هو معاشهم بالجملة وان تكرر ذلك عليهم أفسد آمالهم في العمارة وقعدوا عن السعي فيها جملة فأدى ذلك الى انتقاض العمران وتخريبه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

(فصل) وأعظم من ذلك في الظلم وافساد العمران والدولة التسلط على أموال الناس بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصب والاكراه في الشراء والبيع وربما تفرض عليهم تلك الأثمان على النواحي والتأجيل فيتعللون في تلك الخسارة التي تلحقهم بما تحدثهم المطامع من جبر ذلك بحوالة الأسواق في تلك البضائع التي فرضت عليهم بالغلاء الى بيعها بأبخس الأثمان وتعود خسارة ما بين الصفقتين على رؤس أموالهم وقد يعم ذلك أصناف التجار المقيمين بالمدينة والواردين من الآفاق في البضائع وسائر السوقة وأهل الدكاكين في المآكل والفواكه وأهل الصنائع فيما يتخذ من الآلات والمواعين فتشمل الخسارة سائر الأصناف والطبقات وتتوالى على الساعات وتجحف برؤس الأموال ولا يجدون عنها وليجة الا القعود عن الأسواق لذهاب رؤس الأموال في جبرها بالأرباح ويتثاقل الواردون من الآفاق لشراء البضائع وبيعها من أجل ذلك فتكسد الأسواق ويبطل معاش الرعايا لأن عامته من البيع والشراء واذا كانت الأسواق عطلا منها بطل معاشهم وتنقص جباية السلطان أو تفسد لأن معظمها من أوسط الدولة وما بعدها انما هو من المكوس على البياعات كما قدمناه ويؤل ذلك الى تلاشي الدولة وفساد عمران المدينة ويتطرق هذا الخلل على التدريج ولا يشعر به هذا ما كان بأمثال هذه الذرائع والأسباب الى أخذ الأموال وأما أخذها مجانا والعدوان على الناس في أموالهم وحرمهم ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم فهو يفضي الى الخلل والفساد دفعة وتنتقض الدولة سريعا بما ينشأ عنه من الهرج المفضي الى الانتقاض ومن أجل هذه المفاسد حظر الشرع ذلك كله وشرع المكايسة في البيع والشراء وحظر أكل أموال الناس بالباطل سدا لأبواب المفاسد المفضية الى انتقاض العمران بالهرج أو بطلان المعاش واعلم أن الداعي لذلك كله انما هو حاجة الدولة والسلطان الى الاكثار من المال بما يعرض لهم من الترف في الأحوال فتكثر نفقاتهم ويعظم الخرج ولا يفي به الدخل على القوانين المعتادة يستحدثون ألقابا ووجوها يوسعون بها الجباية ليفي لهم الدخل بالخرج ثم لا يزال الترف يزيد والخرج بسببه يكثر والحاجة الى أموال الناس تشتد ونطاق الدولة بذلك يزيد الى أن تنمحي دائرتها ويذهب برسمها ويغلبها

طالبها والله أعلم

٤٥ (فصل في ان الحجاب كيف يقع في الدولة وانه يعظم عند الهرم)

اعلم أن الدولة في أول أمرها تكون بعيدة عن منازع الملك كما قدمناه لأنه لا بد لها من العصبية التي بها يتم أمرها ويحصل استيلاؤها والبداوة هي شعار العصبية والدولة ان كان قيامها بالدين فانه بعيد عن منازع الملك وان كان قيامها بعز الغلب فقط فالبداوة التي بها يحصل الغلب بعيدة أيضا عن منازع الملك ومذاهبه فاذا كانت الدولة في أول أمرها بدوية كان صاحبها على حال الغضاضة والبداوة والقرب من الناس وسهولة الاذن فاذا رسخ عزه وصار الى الانفراد بالمجد واحتاج الى الانفراد بنفسه عن الناس للحديث مع أوليائه في خواص شؤونه لما يكثر حينئذ من بحاشيته فيطلب الانفراد من العامة ما استطاع ويتخذ الاذن ببابه على من لا يأمنه من أوليائه وأهل دولته ويتخذ حاجبا له عن الناس يقيمه ببابه لهذه الوظيفة ثم اذا استفحل الملك وجاءت مذاهبه ومنازعه استحالت خلق صاحب الدولة الى خلق الملك وهي خلق غريبة مخصوصة يحتاج مباشرها الى مداراتها ومعاملتها بما يجب لها وربما جهل تلك الخلق منهم بعض من يباشرهم فوقع فيما لا يرضيهم فسخطوه وصاروا الى حالة الانتقام منه فانفرد بمعرفة هذه الآداب الخواص من أوليائهم وحجبوا غير أولئك الخاصة عن لقائهم في كل وقت حفظا على أنفسهم من معاينة ما يسخطهم وعلى الناس من التعرض لعقابهم فصار لهم حجاب آخر أخص من الحجاب الاول يفضي اليهم منه خواصهم من الاولياء ويحجب دونه من سواهم من العامة والحجاب الثاني يفضي الى مجالس الاولياء ويحجب دونه من سواهم من العامة والحجاب الاول يكون في أول الدولة كما ذكرنا كما حدث لايام معاوية وعبد الملك وخلفاء بني أمية وكان القائم على ذلك الحجاب يسمى عندهم الحاجب جريا على مذهب الاشتقاق الصحيح ثم لما جاءت دولة بني العباس وجدت الدولة من الترف والعز ما هو معروف وكملت خلق الملك على ما يجب فيها فدعا ذلك الى الحجاب الثاني وصار اسم الحاجب أخص به وصار بباب الخلفاء داران للعباسية دار الخاصة ودار العامة كما هو مسطور في أخبارهم ثم حدث في الدول حجاب ثالث أخص من الاولين وهو عند محاولة الحجر على صاحب الدولة وذلك أن أهل الدولة وخواص الملك اذا نصبوا الابناء من الاعقاب وحاولوا الاستبداد عليهم فأول ما يبدأ به ذلك المستبد أن يحجب عنه بطانة أبيه وخواص أوليائه يوهمه أن في مباشرتهم اياه خرق حجاب الهيبة وفساد قانون الادب ليقطع بذلك لقاء الغير ويعوده

ملابسة أخلاقه هو حتى لا يتبدل به سواه الى أن يستحكم الاستيلاء عليه فيكون هذا الحجاب من دواعيه وهذا الحجاب لا يقع فى الغالب الا أواخر الدولة كما قدمناه فى الحجر ويكون دليلا على هرم الدولة ونفاد قوتها وهو مما يخشاه أهل الدول على أنفسهم لان القائمين بالدولة يحاولون على ذلك بطباعهم عند هرم الدولة وذهاب الاستبداد من أعقاب ملوكهم لما ركب فى النفوس من محبة الاستبداد بالملك وخصوصا مع الترشيح لذلك وحصول دواعيه ومباديه

٤٦ (فصل في ان انقسام الدولة الواحدة بدولتين)

اعلم أن أول ما يقع من آثار الهرم فى الدولة انقسامها وذلك أن الملك عندما يستفحل ويبلغ أحوال الترف والنعيم الى غايتها ويستبد صاحب الدولة بالمجد وينفرد به يأنف حينئذ عن المشاركة ويصير الى قطع أسبابها ما استطاع باهلاك من استراب به من ذوى قرابته المرشحين لمنصبه فربما ارتاب المساهمون له فى ذلك بأنفسهم ونزعوا الى القاصية اليهم من يلحق بهم مثل حالهم من الاغترار والاسترابة ويكون نطاق الدولة قد أخذ فى التضايق ورجع عن القاصية فيستبد ذلك النازع من القرابة فيها ولا يزال أمره يعظم بتراجع نطاق الدولة حتى يقاسم الدولة أو يكاد وانظر ذلك فى الدولة الاسلامية العربية حين كان أمرها حريزا مجتمعا ونطاقها ممتدا فى الاتساع وعصبية بنى عبد مناف واحدة غالبة على سائر مضر فلم ينبض عرق من الخلاف سائر أيامه الا ما كان من بدعة الخوارج المستميتين فى شأن بدعتهم لم يكن ذلك لنزعة ملك ولا رياسة ولم يتم أمرهم لمزاحمتهم العصبية القوية ثم لما خرج الامر من بنى أمية واستقل بنو العباس بالامر وكانت الدولة العربية قد بلغت الغاية من الغلب والترف وآذنت بالتقلص عن القاصية نزع عبد الرحمن الداخل الى الاندلس قاصية دولة الاسلام فاستحدث بها ملكا واقتطعها عن دولتهم وصير الدولة دولتين ثم نزع ادريس الى المغرب وخرج به وقام بأمره وأمر ابنه من بعده البرابرة من أوربة ومغيلة وزناتة واستولى على ناحية المغربين ثم ازدادت الدولة تقلصا فاضطرب الاغالبة فى الامتناع عليهم ثم خرج الشيعة وقام بأمرهم كتامة وصنهاجة واستولوا على افريقية والمغرب ثم مصر والشأم والحجاز وغلبوا على الادارسة وقسموا الدولة دولتين أخريين وصارت الدولة العربية ثلاث دول دولة بنى العباس بمركز العرب وأصلهم ومادتهم الاسلام ودولة بنى أمية المجددين بالاندلس ملكهم القديم وخلافتهم بالمشرق ودولة العبيديين بافريقية ومصر والشأم والحجاز ولم تزل هذه الدولة الى أن كان انقراضها متقاربا أو جميعا

وكذلك انقسمت دولة بني العباس بدول أخرى وكان بالقاصية بنو ساسان فيما وراء النهر وخراسان والعلوية في الديلم وطبرستان وآل ذلك الى استيلاء الديلم على العراقين وعلى بغداد والخلفاء ثم جاء السلجوقية فملكوا جميع ذلك ثم انقسمت دولتهم أيضا بعد الاستفحال كما هو معروف في أخبارهم وكذلك اعتبره في دولة صنهاجة بالمغرب وافريقية لما بلغت الى غايتها أيام باديس بن المنصور وخرج عليه عمه حماد واقتطع ممالك العرب لنفسه ما بين جبل أوراس الى تلمسان وملوية واختط القلعة بجبل كتامة حيال المسيلة ونزلها واستولى على مركزهم أشير بجبل تيطري واستحدث ملكا آخر قسيما لملك آل باديس وبقي آل باديس بالقيروان وما اليها ولم يزل ذلك الى أن انقرض أمرهما جميعا وكذلك دولة الموحدين لما تقلص ظلها ثار بافريقية بنو أبي حفص فاستقلوا بها واستحدثوا ملكا لاعقابهم بنواحيها ثم لما استفحل أمرهم واستولى على الغاية خرج على الممالك الغربية من أعقابهم الامير أبو زكريا يحيى ابن السلطان أبي اسحق ابراهيم رابع خلفائهم واستحدث ملكا ببجاية وقسنطينة وما اليها أورثه بنيه وقسموا به الدولة قسمين ثم استولى على كرسي الحضرة بتونس ثم انقسم الملك ما بين أعقابهم ثم عاد الاستيلاء فيهم وقد ينتهي الانقسام الى أكثر من دولتين وثلاثة وفي غير أعياص الملك من قومه كما وقع في ملوك الطوائف بالاندلس وملوك العجم بالمشرق وفي ملك صنهاجة بافريقية فقد كان لآخر دولتهم في كل حصن من حصون افريقية ثائر مستقل بأمره كما تقدم ذكره وكذا حال الجريد والزاب من افريقية قبيل هذا العهد كما نذكره وهكذا شأن كل دولة لا بد وأن يعرض فيها عوارض الهرم بالترف والدعة وتقلص ظل الغلب فيقتسم أعياصها أو من يغلب من رجال دولتها الامر وتتعدد فيها الدولة والله وارث الارض ومن عليها

---

٤٧ (فصل في ان الهرم اذا نزل بالدولة لا يرتفع)

قد قدمنا ذكر العوارض المؤذنة بالهرم وأسبابه واحدا بعد واحد وبينا أنها تحدث للدولة بالطبع وأنها كلها أمور طبيعية لها واذا كان الهرم طبيعيا في الدولة كان حدوثه بمثابة حدوث الامور الطبيعية كما يحدث الهرم في المزاج الحيواني والهرم من الامراض المزمنة التي لا يمكن دواؤها ولا ارتفاعها لما أنه طبيعي والامور الطبيعية لا تتبدل وقد يتنبه كثير من أهل الدول ممن له يقظة في السياسة فيرى ما نزل بدولتهم من عوارض الهرم ويظن أنه ممكن الارتفاع فيأخذ نفسه بتلافي الدولة واصلاح مزاجها عن ذلك الهرم ويحسبه أنه لحقها بتقصير من قبله من أهل الدولة وغفلتهم

وليس كذلك فانها أمور طبيعية للدولة والعوائد هي المانعة له من تلافيها والعوائد منزلة طبيعية أخرى فان من أدرك مثلا أباه وأكثر أهل بيته يلبسون الحرير والديباج ويتحلون بالذهب في السلاح والمراكب ويحتجبون عن الناس في المجالس والصلوات فلا يمكنه مخالفة سلفه في ذلك الى الخشونة في اللباس والزي والاختلاط بالناس اذ العوائد حينئذ تمنعه وتقبح عليه مرتكبه ولو فعله لرمي بالجنون والوسواس في الخروج عن العوائد دفعة وخشي عليه عائدة ذلك وعاقبته في سلطانه وانظر شأن الانبياء في انكار العوائد ومخالفتها لولا التأييد الالهي والنصر السماوي وربما تكون العصبية قد ذهبت فتكون الابهة تعوض عن موقعها من النفوس فاذا أزيلت تلك الابهة مع ضعف العصبية تجاسرت الرعايا على الدولة بذهاب أوهام الابهة فتتبدد رعع الدولة بتلك الابهة ما أمكنها حتى ينقضي الامر وربما يحدث عند آخر الدولة قوة توهم أن الهرم قد ارتفع عنها ويومض ذبالها ايماضة الخمود كما يقع في الذبال المشتعل فانه عند مقاربة انطفائه يومض ايماضة توهم أنها اشتعال وهي انطفاء فاعتبر ذلك ولا تغفل سر الله تعالي وحكمته في اطراد وجوده علي ما قدر فيه ولكل أجل كتاب

٤٨ (فصل في ان كيفية طروق الخلل للدولة)

اعلم أن مبنى الملك على أساسين لابد منهما فالاول الشوكة والعصبية وهو المعبر عنه بالجند والثاني المال الذي هو قوام أولئك الجند واقامة ما يحتاج اليه الملك من الاحوال والخلل اذا طرق الدولة طرقها في هذين الاساسين فلنذكر أولا طروق الخلل في الشوكة والعصبية ثم نرجع الى طروقه في المال والجباية واعلم أن تمهيد الدولة وتأسيسها كما قلناه انما يكون بالعصبية وأنه لا بد من عصبية كبرى جامعة للعصائب مستتبعة لها وهي عصبية صاحب الدولة الخاصة من عشيرة وقبيلة فاذا جاءت الدولة طبيعة الملك من الترف وجدع أنوف أهل العصبية كان أول ما يجدع أنوف عشيرته وذوي قرباه المقاسمين له في اسم الملك فيستبد في جدع أنوفهم بما بلغ من سوادهم ويأخذهم الترف أيضا أكثر من سوادهم لمكانهم من الملك والعز والتغلب فيحيط بهم هادمان وهما الترف والقهر ثم يصير القهر آخرا الى القتل لما يحصل من مرض قلوبهم عند رسوخ الملك لصاحب الامر فيقلب غيرته منهم الى الخوف على ملكه فيأخذهم بالقتل والاهانة وسلب النعمة والترف الذي تعودوا الكثير منه فيهلكون ويقلون وتفسد عصبية صاحب الدولة منهم وهي العصبية الكبرى التي كانت تجمع بها العصائب وتستتبعها فتنحل عروتها وتضعف شكيمتها وتستبدل عنها بالبطانة من موالي النعمة وصنائع الاحسان

وتضعف منهم عصبيته لانها ليست مثل تلك الشدة الشكيمة لفقدان الرحم والقرابة منها وقد كنا قدمنا أن شأن العصبية وقوتها انما هي بالقرابة والرحم لما جعل الله في ذلك فينفرد صاحب الدولة عن العشير والانصار الطبيعية ويحس بذلك أهل العصائب الاخرى فيتجاسرون عليه وعلى بطانته تجاسرا طبيعيا فيهلكهم صاحب الدولة ويتبعهم بالقتل واحدا بعد واحد ويقلد الآخر من أهل الدولة في ذلك الاول مع ما يكون قد نزل بهم من مهلكة الترف الذي قدمنا فيستولي عليهم الهلاك بالترف والقتل حتى يخرجوا عن صبغة تلك العصبية وينسوا بعزتها وشورتها ويصيروا أوجز على الحماية ويقلون لذلك فتقل الحامية التي تنزل بالاطراف والثغور فيتجاسر الرعايا على بعض الدعوة في الاطراف ويبادر الخوارج على الدولة من الاعياص وغيرهم الى تلك الاطراف لما يرجون حينئذ من حصول غرضهم بمبايعة أهل القاصية لهم وأمنهم من وصول الحامية اليهم ولا يزال ذلك يتدرج ونطاق الدولة يتضايق حتى تصير الخوارج في أقرب الاماكن الى مركز الدولة وربما انقسمت الدولة عند ذلك بدولتين أو ثلاثة على قدر قوتها في الاصل كما قلناه ويقوم بأمرها غير أهل عصبيتها لكن اذعانا لاهل عصبيتها ولغلبهم المعهود واعتبر هذا في دولة العرب في الاسلام انتهت أولا الى الاندلس والهند والصين وكان أمر بني أمية نافذا في جميع العرب بعصبية بني عبد مناف حتى لقد أمر سليمان بن عبد الملك من دمشق بقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير بقرطبة فقتل ولم يرد أمره ثم تلاشت عصبية بني أمية بما أصابهم من الترف فانقرضوا وجاء بنو العباس فغضوا من أعنة بني هاشم وقتلوا الطالبيين وشردوهم فانحلت عصبية عبد مناف وتلاشت وتجاسر العرب عليهم فاستبد عليهم أهل القاصية مثل بني الاغلب بافريقية وأهل الاندلس وغيرهم وانقسمت الدولة ثم خرج بنو ادريس بالمغرب وقام البربر بأمرهم اذعانا للعصبية التي لهم وأمنا أن تصلهم مقاتلة أو حامية للدولة فاذا خرج الدعاة آخرا فيتغلبون على الاطراف والقاصية وتحصل لهم هنالك دعوة وملك تنقسم به الدولة وربما يزيد ذلك متى زادت الدولة تقلصا الى أن ينتهي الى المركز وتضعف البطانة بعد ذلك بما أخذ منها الترف فتهلك وتضمحل وتضعف الدولة المنقسمة كلها وربما طال أمدها بعد ذلك فتستغني عن العصبية بما حصل لها من الصبغة في نفوس أهل ايالتها وهي صبغة الانقياد والتسليم منذ السنين الطويلة التي لا يعقل أحد من الاجيال مبدأها ولا أوليتها فلا يعقلون الا التسليم لصاحب الدولة فيستغني بذلك عن قوة العصائب ويكفي صاحبها بما حصل لها في تمهيد أمرها الاجراء على الحامية من جندي ومرتزق ويعضد ذلك ما وقع في النفوس عامة من التسليم فلا يكاد أحد أن

يتصور عصيانا أو خروجا الا والجمهور منكرون عليه مخالفون له فلا يقدر على التصدى لذلك ولو جهد جهده وربما كانت الدولة فى هذا الحال أسلم من الخوارج والمنازعة لاستحكام صبغة التسليم والانقياد لهم فلا تكاد النفوس تحدث سرها بمخالفة ولا يختلج فى ضميرها انحراف عن الطاعة فيكون أسلم من الهرج والانتقاض الذى يحدث من العصائب والعشائر ثم لا يزال أمر الدولة كذلك وهى تتلاشى فى ذاتها شأن الحرارة الغريزية فى البدن العادم للغذاء الى أن تنتهى الى وقتها المقدور ولكل أجل كتاب ولكل دولة أمد والله يقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار *
وأما الخلل الذى يتطرق من جهة المال فاعلم أن الدولة فى أولها تكون بدوية كما مر فيكون خلق الرفق بالرعايا والقصد فى النفقات والتعفف عن الاموال فتتجافى عن الامعان فى الجباية والتحذلق والكيس فى جمع الاموال وحسبان العمال ولا داعية حينئذ الى الاسراف فى النفقة فلا تحتاج الدولة الى كثرة المال ثم يحصل الاستيلاء ويعظم ويستفحل الملك فيدعو الى الترف ويكثر الانفاق بسببه فتعظم نفقات السلطان وأهل الدولة على العموم بل يتعدى ذلك الى أهل المصر ويدعو ذلك الى الزيادة فى أعطيات الجند وأرزاق أهل الدولة ثم يعظم الترف فيكثر الاسراف فى النفقات وينتشر ذلك فى الرعية لان الناس على دين ملوكها وعوائدها ويحتاج السلطان الى ضرب المكوس على أثمان البياعات فى الاسواق لادرار الجباية لما يراه من ترف المدينة الشاهد عليهم بالرفه ولما يحتاج هو اليه من نفقات سلطانه وأرزاق جنده ثم تزيد عوائد الترف فلا تفى بها المكوس وتكون الدولة قد استفحلت فى الاستطالة والقهر لمن تحت يدها من الرعايا فتمتد أيديهم الى جمع المال من أموال الرعايا من مكس أو تجارة أو نقد فى بعض الاحوال بشبهة أو بغير شبهة ويكون الجند فى ذلك الطور قد تجاسر على الدولة بما لحقها من الفشل والهرم فى العصبية فتتوقع ذلك منهم وتداوى بسكينة العطايا وكثرة الانفاق فيهم ولا تجد عن ذلك وليجة وتكون جباة الاموال فى الدولة قد عظمت ثروتهم فى هذا الطور بكثرة الجباية وكونها بأيديهم وبما اتسع لذلك من جاههم فيتوجه اليهم باحتجان الاموال من الجباية وتفشو السعاية فيهم بعضهم من بعض للمنافسة والحقد فتعمهم النكبات والمصادرات واحدا واحدا الى أن تذهب ثروتهم وتتلاشى أحوالهم ويفقد ما كان للدولة من الابهة والجمال بهم واذا اصطلمت نعمتهم تجاوزتهم الدولة الى أهل الثروة من الرعايا سواهم ويكون الوهن فى هذا الطور قد لحق الشوكة وضعفت عن الاستطالة والقهر فتنصرف سياسة صاحب الدولة حينئذ الى مداراة الامور ببذل المال ويراه أرفع من السيف لقلة غنائه فتعظم حاجته

الى الاموال زيادة على النفقات وأرزاق الجند ولا يغني فيما يريد ويعظم الهرم بالدولة ويتجاسر عليها أهل النواحي والدولة تنحل عراها في كل طور من هذه الى أن تفضي الى الهلاك وتتعوض من الاستيلاء الكلل فان قصدها طالب انتزعها من أيدي القائمين بها والا بقيت وهي تتلاشى الى أن تضمحل كالذبال في السراج اذا فني زيته وطفئ والله مالك الامور ومدبر الاكوان لا اله الا هو

٤٩ (فصل في ان حدوث الدولة وتجددها كيف يقع)

اعلم أن نشأة الدول وبدايتها اذا أخذت الدولة المستقرة في الهرم والانتقاص يكون على نوعين اما بأن يستبد ولاة الاعمال في الدولة بالقاصية عندما يتقلص ظلها عنهم فيكون لكل واحد منهم دولة يستجدها لقومه وملك يستقر في نصابه يرثه عنه أبناؤه أو مواليه ويستفحل لهم الملك بالتدريج وربما يزدحمون على ذلك الملك ويتقارعون عليه ويتنازعون في الاستئثار به ويغلب منهم من يكون له فضل قوة على صاحبه وينتزع ما في يده كما وقع في دولة بني العباس حين أخذت دولتهم في الهرم وتقلص ظلها عن القاصية واستبد بنو سامان بما وراء النهر وبنو حمدان بالموصل والشام وبنو طولون بمصر وكما وقع بالدولة الاموية بالاندلس وافترق ملكها في الطوائف الذين كانوا ولاتها في الاعمال وانقسمت دولا وملوكا أورثوها من بعدهم من قرابتهم أو مواليهم وهذا النوع لا يكون بينهم وبين الدولة المستقرة حرب لانهم مستقرون في رياستهم ولا يطمعون في الاستيلاء على الدولة المستقرة بحرب وانما الدولة أدركها الهرم وتقلص ظلها عن القاصية وعجزت عن الوصول اليها والنوع الثاني بأن يخرج على الدولة خارج ممن يجاورها من الامم والقبائل اما بدعوة يحمل الناس عليها كما أشرنا اليه أو يكون صاحب شوكة وعصبية كبيرا في قومه قد استفحل أمره فيسمو بهم الى الملك وقد حدثوا به أنفسهم بما حصل لهم من الاعتزاز على الدولة المستقرة وما نزل بها من الهرم فيتعين له ولقومه الاستيلاء عليها ويمارسونها بالمطالبة الى أن يظفروا بها ويرثون أمرها كما يتبين والله سبحانه وتعالى أعلم

٥٠ فصل في ان الدولة المستجدة انما تستولي على الدولة المستقرة بالمطاولة لا بالمناجزة

قد ذكرنا أن الدول الحادثة المتجددة نوعان نوع من ولاية الاطراف اذا تقلص ظل الدولة عنهم وانحسر تيارها وهؤلاء لا يقع منهم مطالبة للدولة في الاكثر كما قدمناه لان قصاراهم القنوع بما في أيديهم وهو نهاية قوتهم والنوع الثاني نوع الدعاة والخوارج على الدولة وهؤلاء لابد لهم من المطالبة لان قوتهم وافية بها فان ذلك انما

يكون فى نصاب يكون له من العصبية والاعتزاز ماهو كفاء ذلك ووافٍ به فيقع بينهم وبين الدولة المستقرة حروب سجال تتكرر وتتصل الى أن يقع لهم الاستيلاء والظفر بالمطلوب ولا يحصل لهم فى الغالب ظفر بالمناجزة والسبب فى ذلك أن الظفر فى الحروب انما يقع كما قدمناه بأمور نفسانية وهمية وان كان العدد والسلاح وصدق القتال كفيلا به لكنه قاصر مع تلك الامور الوهمية كما مر ولذلك كان الخداع من أنفع ما يستعمل فى الحرب وأكثر ما يقع الظفر به وفى الحديث الحرب خدعة والدولة المستقرة قد صيرت العوائد المألوفة طاعتها ضرورية واجبة كما تقدم فى غير موضع فتكثر بذلك العوائق لصاحب الدولة المستجدة ويكثر من هم أتباعه وأهل شوكته وان كان الاقربون من بطانته على بصيرة فى طاعته وموازرته الا أن الآخرين أكثر وقد داخلهم الفشل بتلك العقائد فى التسليم للدولة المستقرة فيحصل بعض الفتور منهم ولا يكاد صاحب الدولة المستجدة يقاوم صاحب الدولة المستقرة فيرجع الى الصبر والمطاولة حتى يتضح هرم الدولة المستقرة فتضمحل عقائد التسليم لها من قومه وتنبعث منهم الهمم لصدق المطالبة معه فيقع الظفر والاستيلاء وأيضا فالدولة المستقرة كثيرة الرزق بما استحكم لهم من الملك وتوسع من النعيم واللذات واختصوا به دون غيرهم من أموال الجباية فيكثر عندهم ارتباط الخيول واستجادة الاسلحة وتعظم فيهم الابهة الملكية ويفيض العطاء بينهم من ملوكهم اختيارا واضطرارا فيرهبون بذلك كله عدوهم وأهل الدولة المستجدة بمعزل عن ذلك لما هم فيه من البداوة وأحوال الفقر والخصاصة فيسبق الى قلوبهم أوهام الرعب بما يبلغهم من أحوال الدولة المستقرة ويحرمون عن قتالهم من أجل ذلك فيصير أمرهم الى المطاولة حتى تأخذ المستقرة مأخذها من الهرم ويستحكم الخلل فيها فى العصبية والجباية فينتهز حينئذ صاحب الدولة المستجدة فرصته فى الاستيلاء عليها بعد حين منذ المطالبة سنة الله فى عباده وأيضا فأهل الدولة المستجدة كلهم مباينون للدولة المستقرة بأنسابهم وعوائدهم وفى سائر مناحيهم ثم هم مفاخرون لهم ومنابذون بما وقع من هذه المطالبة وبطمعهم فى الاستيلاء عليه فتتمكن المباعدة بين أهل الدولتين سرا وجهرا ولا يصل الى أهل الدولة المستجدة خبر عن أهل الدولة المستقرة يصيبون منه غرة باطنا وظاهرا لانقطاع المداخلة بين الدولتين فيقيمون على المطالبة وهم فى احجام وينكلون عن المناجزة حتى يأذن الله بزوال الدولة المستقرة وفناء عمرها ووفور الخلل فى جميع جهاتها واتضح لاهل الدولة المستجدة مع الايام ما كان يخفى منهم من هرمها وتلاشيها وقد عظمت قوتهم بما اقتطعوه من أعمالها ونقصوه من أطرافها فتنبعث هممهم يدا

واتخذت المناجزة ويذهب ما كان بث فى عزائمهم من التوهمات وتنتهى المطاولة الى حدها ويقع الاستيلاء آخرا بالمعاجلة واعتبر ذلك فى دولة بنى العباس حين ظهورها حين قام الشيعة بخراسان بعد انعقاد الدعوة واجتماعهم على المطالبة عشر سنين أو تزيد وحينئذ تم لهم الظفر واستولوا على الدولة الاموية وكذا العلوية بطبرستان عند ظهور دعوتهم فى الديلم كيف كانت مطاولتهم حتى استولوا على تلك الناحية ثم لما انقضى أمر العلوية وسما الديلم الى ملك فارس والعراقين فمكثوا سنين كثيرة يطاولون حتى اقتطعوا اصبهان ثم استولوا على الخليفة ببغداد وكذا العبيديون أقام داعيتهم بالمغرب أبو عبد الله الشيعى ببنى كتامة من قبائل البربر عشر سنين ويزيد تطاول بنى الاغلب بافريقية حتى ظفر بهم واستولوا على المغرب كله وسموا الى تملك مصر فمكثوا ثلاثين سنة أو نحوها فى طلبها يجهزون اليها العساكر والاساطيل فى كل وقت ويجىء المدد لمدافعتهم برا وبحرا من بغداد والشام وملكوا الاسكندرية والفيوم والصعيد وتخطت دعوتهم من هنالك الى الحجاز وأقيمت بالحرمين ثم نازل قائدهم جوهر الكاتب بعساكره مدينة مصر واستولى عليها واقتلع دولة بنى طغج من أصولها واختط القاهرة فجاء الخليفة بعد المعز لدين الله فنزلها لستين سنة أو نحوها منذ استيلائهم على الاسكندرية وكذا السلجوقية ملوك الترك لما استولوا على بنى سامان وأجازوا من وراء النهر مكثوا نحوا من ثلاثين سنة يطاولون بنى سبكتكين بخراسان حتى استولوا على دولته ثم زحفوا الى بغداد فاستولوا عليها وعلى الخليفة بها بعد أيام من الدهر وكذا التتر من بعدهم خرجوا من المفازة أعوام سبع عشرة وستمائة فلم يتم لهم الاستيلاء الا بعد أربعين سنة وكذا أهل المغرب خرج به المرابطون من لمتونة على ملوكه من مغراوة فطاولوهم سنين ثم استولوا عليه ثم خرج الموحدون بدعوتهم على لمتونة فمكثوا نحوا من ثلاثين سنة يحاربونهم حتى استولوا على كرسيهم بمراكش وكذا بنو مرين من زناتة خرجوا على الموحدين فمكثوا يطاولونهم نحوا من ثلاثين سنة واستولوا على فاس واقتطعوها وأعمالها من ملكهم ثم أقاموا فى محاربتهم ثلاثين اخرى حتى استولوا على كرسيهم بمراكش حسبما نذكر ذلك كله فى تواريخ هذه الدول فهكذا حال الدول المستجدة مع المستقرة فى المطالبة والمطاولة سنة الله فى عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا ولا يعارض ذلك بما وقع فى الفتوحات الاسلامية وكيف كان استيلاؤهم على فارس والروم لثلاث أو أربع من وفاة النبى صلى الله عليه وسلم واعلم أن ذلك انما كان معجزة من معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم سرها استماتة المسلمين فى جهاد عدوهم استبعادا بالايمان وما أوقع الله فى قلوب عدوهم من الرعب والتخاذل فكان ذلك كله خارقا

للعادة المقررة في مطاولة الدول المستجدة للمستقرة وإذا كان ذلك خارقاً فهو من معجزات نبينا صلوات الله عليه المتعارف ظهورها في الملة الاسلامية والمعجزات لا يقاس عليها الامور العادية ولا يعترض بها والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٥١ (فصل في وفود العمران آخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات)

اعلم أنه قد تقرر لك فيما سلف أن الدولة في أول أمرها لا بد لها من الرفق في ملكتها والاعتدال في ايالتها اما من الدين ان كانت الدعوة دينية أو من المكارمة والمحاسنة التي تقتضيها البداوة الطبيعية للدول واذا كانت الملكة رفيقة محسنة انبسطت آمال الرعايا وانتشطوا للعمران وأسبابه فتوفر ويكثر التناسل واذا كان ذلك كله بالتدريج فانما يظهر أثره بعد جيل أو جيلين في الاقل وفي انقضاء الجيلين تشرف الدولة على نهاية عمرها الطبيعي فيكون حينئذ العمران في غاية الوفور والنماء ولا تقولن انه قد مر لك أن أواخر الدولة يكون فيها الاجحاف بالرعايا وسوء الملكة فذلك صحيح ولا يعارض ما قلناه لان الاجحاف وان حدث حينئذ وقلت الجبايات فانما يظهر أثره في تناقص العمران بعد حين من أجل التدريج في الامور الطبيعية ثم ان المجاعات والموتان تكثر عند ذلك في أواخر الدول والسبب فيه أما المجاعات فلقبض الناس أيديهم عن الفلح في الاكثر بسبب ما يقع في آخر الدولة من العدوان في الاموال والجبايات أو الفتن الواقعة في انتقاص الرعايا وكثرة الخوارج لهرم الدولة فيقل احتكار الزرع غالباً وليس صلاح الزرع وثمرته بمستمر الوجود ولا على وتيرة واحدة فطبيعة العالم في كثرة الامطار وقلتها مختلفة والمطر يقوى ويضعف ويقل ويكثر والزرع والثمار والضرع على نسبته الا أن الناس واثقون في أقواتهم بالاحتكار فاذا فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات فغلا الزرع وعجز عنه أولو الخصاصة فهلكوا وكان بعض السنوات والاحتكار مفقود فشمل الناس الجوع وأما كثرة الموتان فلها أسباب من كثرة المجاعات كما ذكرناه أو كثرة الفتن لاختلال الدولة فيكثر الهرج والقتل أو وقوع الوباء وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة واذا فسد الهواء وهو غذاء الروح الحيواني وملابسه دائماً فيسري الفساد الى مزاجه فان كان الفساد قوياً وقع المرض في الرئة وهذه هي الطواعين وأمراضها مخصوصة بالرئة وان كان الفساد دون القوي والكثير فيكثر العفن ويتضاعف فتكثر الحميات في الامزجة وتمرض الابدان وتهلك وسبب كثرة العفن والرطوبات الفاسدة في هذا كله كثرة العمران ووفوره آخر الدولة

لما كان في أوائلها من حسن الملكة ورفقها وقلة المغرم وهو ظاهر ولهذا تبين في موضعه من الحكمة أن تخلل الخلاء والقفر بين العمران ضروري ليكون تموج الهواء يذهب بما يحصل في الهواء من الفساد والعفن بمخالطة الحيوانات ويأتي بالهواء الصحيح ولهذا أيضا فان الموتان يكون في المدن الموفورة العمران أكثر من غيرها بكثير كمصر بالمشرق وفاس بالمغرب والله يقدر ما يشاء

٥٢ (فصل في ان العمران البشري لا بد له من سياسة ينتظم بها امره)

اعلم أنه قد تقدم لنا في غير موضع أن الاجتماع للبشر ضروري وهو معنى العمران الذي نتكلم فيه وأنه لا بد لهم في الاجتماع من وازع حاكم يرجعون اليه وحكمه فيهم تارة يكون مستندا الى شرع منزل من عند الله يوجب انقيادهم اليه ايمانهم بالثواب والعقاب عليه الذي جاء به مبلغه وتارة الى سياسة عقلية يوجب انقيادهم اليها ما يتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بعد معرفته بمصالحهم فالاولى يحصل نفعها في الدنيا والآخرة لعلم الشارع بالمصالح في العاقبة ولمراعاته نجاة العباد في الآخرة والثانية انما يحصل نفعها في الدنيا فقط وما تسمعه من السياسة المدنية فليس من هذا الباب وانما معناه عند الحكماء ما يجب أن يكون عليه كل واحد من أهل ذلك المجتمع في نفسه وخلقه حتى يستغنوا عن الحكام رأسا ويسمون المجتمع الذي يحصل فيه ما يسمى من ذلك بالمدينة الفاضلة والقوانين المراعاة في ذلك بالسياسة المدنية وليس مرادهم السياسة التي يحمل عليها أهل الاجتماع بالمصالح العامة فان هذه غير تلك وهذه المدينة الفاضلة عندهم نادرة أو بعيدة الوقوع وانما يتكلمون عليها على جهة الفرض والتقدير ثم ان السياسة العقلية التي قدمناها تكون على وجهين أحدهما يراعى فيها المصالح على العموم ومصالح السلطان في استقامة ملكه على الخصوص وهذه كانت سياسة الفرس وهي على جهة الحكمة وقد أغنانا الله تعالى عنها في الملة ولعهد الخلافة لان الاحكام الشرعية مغنية عنها في المصالح العامة والخاصة والآفات وأحكام الملك مندرجة فيها * الوجه الثاني أن يراعى فيها مصلحة السلطان وكيف يستقيم له الملك مع القهر والاستطالة وتكون المصالح العامة في هذه تبعا وهذه السياسة التي يحمل عليها أهل الاجتماع التي لسائر الملوك في العالم من مسلم وكافر الا أن ملوك المسلمين يجرون منها على ما تقتضيه الشريعة الاسلامية بحسب جهدهم فقوانينها اذا مجتمعة من أحكام شرعية وآداب خلقية وقوانين في الاجتماع طبيعية وأشياء من مراعاة الشوكة والعصبية ضرورية والاقتداء فيها بالشرع أولا ثم الحكماء في آدابهم

والملوك في سيرهم ومن أحسن ما كتب في ذلك وأودع كتاب طاهر بن الحسين لابنه عبد الله بن طاهر لما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما فكتب اليه أبوه طاهر كتابه المشهور عهد اليه فيه ووصاه بجميع ما يحتاج اليه في دولته وسلطانه من الآداب الدينية والخلقية والسياسة الشرعية والملوكية وحثه على مكارم الاخلاق ومحاسن الشيم بما لا يستغني عنه ملك ولا سوقة * ونص الكتاب (بسم الله الرحمن الرحيم) أما بعد فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له وخشيته ومراقبته عز وجل ومزايلة سخطه واحفظ رعيتك في الليل والنهار والزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك وما أنت صائر اليه وموقوف عليه ومسؤل عنه والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله عز وجل وينجيك يوم القيامة من عقابه وأليم عذابه فان الله سبحانه قد أحسن اليك وأوجب الرأفة عليك بمن استرعاك أمرهم من عباده وألزمك العدل فيهم والقيام بحقه وحدوده عليهم والذب عنهم والدفع عن حريمهم ومنصبهم والحقن لدمائهم والامن لسربهم وادخال الراحة عليهم ومؤاخذك بما فرض عليك وموقفك عليه وسائلك عنه ومثيبك عليه بما قدمت وأخرت ففرغ لذلك فهمك وعقلك وبصرك ولا يشغلك عنه شاغل وانه رأس أمرك وملاك شأنك وأول ما يوقفك الله عليه وليكن أول ما تلزم به نفسك وتنسب اليه فعالك المواظبة على ما فرض الله عز وجل عليك من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قبلك وتوابعها على سننها من اسباغ الوضوء لها وافتتاح ذكر الله عز وجل فيها ورتل في قراءتك وتمكن في ركوعك وسجودك وتشهدك ولتصرف فيه رأيك ونيتك واحضض عليه جماعة من معك وتحت يدك وادأب عليها فانها كما قال الله عز وجل تنهى عن الفحشاء والمنكر ثم أتبع ذلك بالاخذ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمثابرة على خلائقه واقتفاء أثر السلف الصالح من بعده واذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله عز وجل وتقواه وبلزوم ما أنزل الله عز وجل في كتابه من أمره ونهيه وحلاله وحرامه وائتمام ما جاءت به الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قم فيه بالحق لله عز وجل ولا تميلن عن العدل فيما أحببت أو كرهت لقريب من الناس أو لبعيد وآثر الفقه وأهله والدين وحملته وكتاب الله عز وجل والعاملين به فان أفضل ما يتزين به المرء الفقه في الدين والطلب له والحث عليه والمعرفة بما يتقرب به الى الله عز وجل فانه الدليل على الخير كله والقائد اليه والآمر به والناهي عن المعاصي والموبقات كلها ومع توفيق الله عز وجل يزداد المرء معرفة واجلالا له ودركا للدرجات العلى في المعاد مع ما في ظهوره للناس من التوقير لامرك والهيبة لسلطانك والانسة بك والثقة بعدلك وعليك بالاقتصاد في الامور كلها

فليس شئ أبين نفعا ولا أخص أمنا ولا أجمع فضلا منه والقصد داعية الى الرشد والرشد دليل على التوفيق والتوفيق قائد الى السعادة وقوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد وكذا فى دنياك كلها ولا تقصر فى طلب الآخرة والاجر والاعمال الصالحة والسنن المعروفة ومعالم الرشد والاعانة والاستكثار من البر والسعى له اذا كان يطلب به وجه الله تعالى ومرضاته ومرافقة أولياء الله فى دار كرامته أما تعلم أن القصد فى شأن الدنيا يورث العز ويمحص من الذنوب وأنك لن تحوط نفسك من قائل ولا تنصلح أمورك بأفضل منه فأته واهتد به تتم أمورك وتزد مقدرتك ويصلح عامتك وخاصتك وأحسن ظنك بالله عز وجل تستقم لك رعيتك والتمس الوسيلة اليه فى الامور كلها تستدم به النعمة عليك ولا تتهمن أحدا من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشف أمره فان ايقاع التهم بالبراء والظنون السيئة بهم آثم اثم فاجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك واطرد عنك سوء الظن بهم وارفضه فيهم يعنك ذلك على اصطناعهم ورياضتهم ولا تتخذن عدو الله الشيطان فى أمرك معمدا فانه انما يكتفى بالقليل من وهنك ويدخل عليك من الغم بسوء الظن بهم ما ينقص لذاذة عيشك واعلم أنك تجد بحسن الظن قوة وراحة وتكتفى به ما أحببت كفايته من أمورك وتدعو به الناس الى محبتك والاستقامة فى الامور كلها ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك والرأفة برعيتك أن تستعمل المسئلة والبحث عن أمورك والمباشرة لامور الاولياء وحياطة الرعية والنظر فى حوائجهم وحمل مؤناتهم أيسر عندك مما سوى ذلك فانه أقوم للدين وأحيى للسنة واخلص نيتك فى جميع هذا وتفرد بتقويم نفسك تفرد من يعلم أنه مسؤل عما صنع ومجزى بما أحسن ومؤاخذ بما أساء فان الله عز وجل جعل الدنيا حرزا وعزا ورفع من اتبعه وعززه واسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريقه الاهدى وأقم حدود الله تعالى فى أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ولا تعطل ذلك ولا تتهاون به ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة فان فى تفريطك فى ذلك ما يفسد عليك حسن ظنك واعتزم على أمرك فى ذلك بالسنن المعروفة وجانب البدع والشبهات يسلم لك دينك وتتم لك مروأتك واذا عاهدت عهدا فأوف به واذا وعدت الخير فأنجزه واقبل الحسنة وادفع بها واغمض عن عيب كل ذى عيب من رعيتك واشدد لسانك عن قول الكذب والزور وابغض أهل النميمة فان أول فساد أمورك فى عاجلها وآجلها تقريب الكذوب والجراءة على الكذب لان الكذب رأس المآثم والزور والنميمة خاتمتها لان النميمة لا يسلم صاحبها وقائلها لا يسلم له صاحب ولا يستقيم له أمر واحبب أهل الصلاح والصدق وأعن الاشراف بالحق وأعن الضعفاء وصل الرحم وابتغ بذلك وجه الله تعالى

واعزاز أمره والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة واجتنب سوء الأهواء والجور واصرف
عنهما رأيك وأظهر براءتك من ذلك لرعيتك وأنعم بالعدل سياستهم وقم بالحق فيهم
وبالمعرفة التي تنتهي بك الى سبيل الهدى واملك نفسك عند الغضب وآثر الحلم والوقار
واياك والحدة والطيش والغرور فيما أنت بسبيله واياك أن تقول أنا مسلط أفعل ما أشاء
فان ذلك سريع الى نقص الرأي وقلة اليقين لله عز وجل وأخلص لله وحده النية فيه
واليقين واعلم أن الملك لله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ولن تجد تغير
النعمة وحلول النقمة الى أحد أسرع منه الى جهلة النعمة من أصحاب السلطان
والمبسوط لهم في الدولة اذا كفروا نعم الله واحسانه واستطالوا بما أعطاهم الله عز
وجل من فضله ودع عنك شره نفسك ولتكن ذخائرك وكنوزك التي تدخر وتكنز البر
والتقوى واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم والتفقد لأمورهم والحفظ لدمائهم
والاغاثة لملهوفهم واعلم أن الأموال اذا اكتنزت وادخرت في الخزائن لا تنمو واذا
كانت في صلاح الرعية واعطاء حقوقهم وكف الأذية عنهم نمت وزكت وصلحت به
العامة وترتبت به الولاية وطاب به الزمان واعتقد فيه العز والمنفعة فليكن كنز خزائنك
تفريق الأموال في عمارة الاسلام وأهله ووفر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك
حقوقهم وأوف من ذلك حصصهم وتعهد ما يصلح أمورهم ومعاشهم فانك اذا فعلت
قرت النعمة لك واستوجبت المزيد من الله تعالى وكنت بذلك على جباية أموال رعيتك
وخراجك أقدر وكان الجمع لما شملهم من عدلك واحسانك أسلس لطاعتك وطب نفسا
بكل ما أردت واجهد نفسك فيما حددت لك في هذا الباب وليعظم حقك فيه وانما يبقى
من المال ما أنفق في سبيل الله وفي سبيل حقه واعرف للشاكرين حقهم وأثبهم عليه
واياك أن تنسيك الدنيا وغرورها هول الآخرة فتتهاون بما يحق عليك فان التهاون
يورث التفريط والتفريط يورث البوار وليكن عملك لله عز وجل وفيه وارج الثواب
فان الله سبحانه قد أسبغ عليك فضله واعتصم بالشكر وعليه فاعتمد يزدك الله خيرا
واحسانا فان الله عز وجل يكتب بقدر شكر الشاكرين واحسان المحسنين ولا تحقرن
ذنبا ولا تمالئن حاسدا ولا ترحمن فاجرا ولا تصلن كفورا ولا تداهنن عدوا ولا تصدقن
نماما ولا تأمنن عدوا ولا توالين فاسقا ولا تتبعن غاويا ولا تحمدن مرائيا ولا تحقرن
انسانا ولا تردن سائلا فقيرا ولا تحسنن باطلا ولا تلاحظن مضحكا ولا تخلفن وعدا ولا
تذهبن فخرا ولا تظهرن غضبا ولا تباينن رجاء ولا تمشين مرحا ولا تزكين سفيها ولا
تفرطن في طلب الآخرة ولا ترفع للنمام عينا ولا تغمض عن ظالم رهبة منه أو محاباة
ولا تطلبن ثواب الآخرة في الدنيا وأكثر مشاورة الفقهاء واستعمل نفسك بالحلم

وخذ عن أهل التجارب وذوى العقل والرأى والحكمة ولا تدخلن فى مشورتك أهل
الرفه والبخل ولا تسمعن لهم قولا فان ضررهم أكثر من نفعهم وليس شئ أسرع فسادا
لما استقبلت فيه أمر رعيتك من الشح واعلم أنك اذا كنت حريصا كنت كثير
الاخذ قليل العطية واذا كنت كذلك لم يستقم أمرك الا قليلا فان رعيتك انما تعتقد
على محبتك بالكف عن أموالهم وترك الجور عليهم ووال من صفا لك من أوليائك
بالافضال اليهم وحسن العطية لهم واجتنب الشح واعلم أنه أول ما عصى به الانسان ربه
وأن العاصى بمنزلة الخزى وهو قول الله عز وجل "ومن يوق شح نفسه فأولئك هم
المفلحون" فسهل طريق الجود بالحق واجعل للمسلمين كلهم فى بيتك حظا ونصيبا وأيقن
أن الجود أفضل أعمال العباد فأعده لنفسك خلقا وارض به عملا ومذهبا وتفقد الجند
فى دواوينهم ومكاتبهم وأدر عليهم أرزاقهم ووسع عليهم فى معاشهم يذهب الله عز
وجل بذلك فاقتهم فيقوى لك أمرهم وتزيد قلوبهم فى طاعتك وأمرك خلوصا وانشراحا
وحسب ذى السلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمة فى عدله
وعطيته وانصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسعته فذلك مكروه أحد البابين باستشعار
فضله الباب الآخر ولزوم العمل به تلق ان شاء الله تعالى به نجاحا وصلاحا وفلاحا
واعلم أن القضاء من الله تعالى بالمكان الذى ليس له به شئ من الامور لانه ميزان الله الذى
يعدل عليه أحوال الناس فى الارض وباقامة العدل فى القضاء والعمل تصلح أحوال
الرعية وتأمن السبل وينتصف المظلوم وتأخذ الناس حقوقهم وتحسن المعيشة
ويؤدى حق الطاعة ويرزق من الله العافية والسلامة ويقيم الدين ويجرى السنن
والشرائع فى مجاريها واشتد فى أمر الله عز وجل وتورع عن النطق وامض لاقامة
الحدود وأقلل العجلة وابعد عن الضجر والقلق واقنع بالقسم وانتفع بتجربتك وانتبه
فى صمتك واسدد فى منطقك وانصف الخصم وقف عند الشبهة وابلغ فى الحجة ولا
يأخذك فى أحد من رعيتك محاباة ولا مجاملة ولا لومة لائم وتثبت وتأن وراقب وانظر
وتفكر وتدبر واعتبر وتواضع لربك وارفق بجميع الرعية وسلط الحق على نفسك ولا
تسرعن الى سفك الدماء فان الدماء من الله عز وجل بمكان عظيم انتهاكا لها بغير حقها
وانظر هذا الخراج الذى استقامت عليه الرعية وجعله الله للاسلام عزا ورفعة ولاهله
توسعة ومنعة ولعدوه كبتا وغيظا ولاهل الكفر من معاديهم ذلا وصغارا فوزعه
بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم ولا تدفعن شيأ منه عن شريف لشرفه
ولا عن غنى لغناه ولا عن كاتب لك ولا لاحد من خاصتك ولا حاشيتك ولا تأخذن منه
فوق الاحتمال له ولا تكلف أمرا فيه شطط واحمل الناس كلهم على أمر الحق فان ذلك

أجمع لالفتهم والزم ارضاء العامة واعلم أنك جعلت بولايتك خازنا وحافظا وراعيا وانما سمي أهل عملك رعيتك لانك راعيهم وقيمهم تأخذ منهم ما اعطوك من عفوهم ونفذه في قوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أودهم واستعمل عليهم اولى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعلم والعدل بالسياسة والعفاف ووسع عليهم في الرزق فان ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت واسند اليك فلا يشغلك عنه شاغل ولا يصرفك عنه صارف فانك متى آثرته وقمت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك وحسن الاحدوثة في عملك واستجررت به المحبة من رعيتك وأعنت على الصلاح فدرت الخيرات ببلدك وفشت العمارة بناحيتك وظهر الخصب في كورك وكثر خراجك وتوفرت أموالك وقويت بذلك على ارتباط جندك وارضاء العامة بافاضة العطاء فيهم من نفسك وكنت محمود السياسة مرضي العدل في ذلك عند عدوك وكنت في امورك كلها ذا عدل وآلة وقوة وعدة فتنافس فيها ولا تقدم عليها شيئا تحمد عاقبة أمرك ان شاء الله تعالى واجعل في كل كورة من عملك أمينا يخبرك خبر عمالك ويكتب اليك بسيرهم وأعمالهم حتى كأنك مع كل عامل في عمله معاينا لاموره كلها واذا أردت أن تأمرهم بأمر فانظر في عواقب ما أردت من ذلك فان رأيت السلامة فيه والعافية ورجوت فيه حسن الدفاع والصنع فأمضه والا فتوقف عنه وراجع أهل البصر والعلم به ثم خذ فيه عدته فانه ربما نظر الرجل في أمره وقد أتاه على ما يهوى فأغواه ذلك وأعجبه فان لم ينظر في عواقبه أهلكه ونقض عليه أمره فاستعمل الحزم في كل ما أردت وباشره بعد عون الله عز وجل بالقوة وأكثر من استخارة ربك في جميع أمورك وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره وأكثر مباشرته بنفسك فان لغد أمورا وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذي أخرت واعلم أن اليوم اذا مضى ذهب بما فيه فاذا أخرت عمله اجتمع عليك عمل يومين فيشغلك ذلك حتى ترضى منه واذا أمضيت لكل يوم عمله أرحت بدنك ونفسك وجمعت أمر سلطانك وانظر احرار الناس وذوى الفضل منهم ممن بلوت صفاء طويتهم وشهدت مودتهم لك ومظاهرتهم بالنصح والمحافظة على أمرك فاستخلصهم وأحسن اليهم وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة واحتمل مؤنتهم وأصلح حالهم حتى لا يجدوا لخلتهم مسافرا وأفرد نفسك بالنظر في أمور الفقراء والمساكين ومن لا يقدر على رفع مظلمته اليك والمحتقر الذي لا علم له بطلب حقه فسل عنه أخفى مسئلة وكل بأمثاله أهل الصلاح في رعيتك ومرهم برفع حوائجهم وخلالهم لتنظر فيما يصلح الله به أمرهم وتعاهد ذوى البأساء ويتاماهم وأراملهم واجعل لهم أرزاقا من بيت المال اقتداء بأمير المؤمنين أعزه الله تعالى في العطف عليهم والصلة لهم ليصلح الله بذلك

عيشهم ويرزقك به بركة وزيادة وأجر للامراء من بيت المال وقدم حملة القرآن منهم والحافظين لاكثره في الجرائد على غيرهم وانصب لمرضى المسلمين دوراً تأويهم وقواماً يرفقون بهم واطباء يعالجون أسقامهم وأسعفهم بشهواتهم ما لم يؤد ذلك الى سرف في بيت المال واعلم أن الناس اذا اعطوا حقوقهم وفضل أمانيهم لم تبرمهم وربما تبرم المتصفح لامور الناس لكثرة ما يرد عليه ويشغل ذكره وفكره منها ما يناله به مؤنة ومشقة وليس من يرغب في العدل ويعرف محاسن اموره في العاجل وفضل ثواب الآجل كالذي يستقبل ما يقربه الى الله تعالى ويلتمس به رحمته وأكثر الاذن للناس عليك وأرهم وجهك وسكن حراسك واخفض لهم جناحك وأظهر لهم بشرك ولن لهم في المسئلة والنطق واعطف عليهم بجودك وفضلك واذا أعطيت فأعط بسماحة وطيب نفس والتماس للصنيعة والاجر من غير تكدير ولا امتنان فان العطية على ذلك تجارة مربحة ان شاء الله تعالى واعتبر بما ترى من امور الدنيا ومن مضى من قبلك من أهل السلطان والرياسة في القرون الخالية والامم البائدة ثم اعتصم في أحوالك كلها بالله سبحانه وتعالى والوقوف عند محبته والعمل بشريعته وسنته وباقامة دينه وكتابه واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ودعا الى سخط الله عزوجل واعرف ما تجمع عمالك من الاموال وما ينفقون منها ولا تجمع حراماً ولا تنفق اسرافاً وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم وليكن هواك اتباع السنن واقامتها وايثار مكارم الاخلاق ومعاليها وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك من اذا رأى عيباً لم تمنعه هيبتك من انهاء ذلك اليك في ستر واعلامك بما فيه من النقص فان أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك لك وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابك فوقت لكل رجل منهم في كل يوم وقتاً يدخل فيه بكتبه ومؤامرته وما عنده من حوائج عمالك وامور الدولة ورعيتك ثم فرغ لما يورد عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك وكرر النظر فيه والتدبير له فما كان موافقاً للحق والحزم فأمضه واستخر الله عزوجل فيه وما كان مخالفاً لذلك فاصرفه الى المسئلة عنه والتثبت ولا تمنن على رعيتك ولا غيرهم بمعروف تؤتيه اليهم ولا تقبل من أحد الا الوفاء والاستقامة والعون في أمور المسلمين ولا تضعن المعروف الا على ذلك وتفهم كتابي اليك وأمعن النظر فيه والعمل به واستعن بالله على جميع امورك واستخره فان الله عزوجل مع الصلاح وأهله وليكن أعظم سيرتك وأفضل رغبتك ما كان لله عز وجل رضا ولدينه نظاماً ولاهله عزاً وتمكيناً وللملة والذمة عدلاً وصلاحاً وأنا أسأل الله عزوجل أن يحسن عونك وتوفيقك ورشدك وكلاءتك والسلام * وحدث الاخباريون أن هذا الكتاب لما ظهر وشاع أمره أعجب به الناس واتصل بالمأمون فلما

قرئ عليه قال ما أبقى أبو الطيب يعني طاهراً شيئاً من أمور الدنيا والدين والتدبير والرأي والسياسة وصلاح الملك والرعية وحفظ السلطان وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة الا وقد أحكمه وأوصى به ثم أمر المأمون فكتب بها الى جميع العمال في النواحي ليقتدوا به ويعملوا بما فيه هذا أحسن ما وقفت عليه في هذه السياسة والله أعلم

٥٣ (فصل في امر الفاطمي وما يذهب اليه الناس في شأنه وكشف الغطاء عن ذلك)

(اعلم) أن المشهور بين الكافة من أهل الاسلام على ممر الاعصار أنه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين ويظهر العدل ويتبعه المسلمون ويستولي على الممالك الاسلامية ويسمى بالمهدي ويكون خروج الدجال وما بعده من أشراط الساعة الثابتة في الصحيح على اثره وأن عيسى ينزل من بعده فيقتل الدجال أو ينزل معه فيساعده على قتله ويأتم بالمهدي في صلاته ويحتجون في الباب بأحاديث خرجها الائمة وتكلم فيها المنكرون لذلك وربما عارضوها ببعض الاخبار وللمتصوفة المتأخرين في أمر هذا الفاطمي طريقة اخرى ونوع من الاستدلال وربما يعتمدون في ذلك على الكشف الذي هو أصل طرائقهم * ونحن الآن نذكر هنا الاحاديث الواردة في هذا الشان وما للمنكرين فيها من المطاعن وما لهم في انكارهم من المستند ثم نتبعه بذكر كلام المتصوفة ورأيهم ليتبين لك الصحيح من ذلك ان شاء الله تعالى فنقول ان جماعة من الائمة خرجوا أحاديث المهدي منهم الترمذي وأبو داود والبزار وابن ماجه والحاكم والطبراني وأبو يعلى الموصلي وأسندوها الى جماعة من الصحابة مثل علي وابن عباس وابن عمر وطلحة وابن مسعود وأبي هريرة وأنس وأبي سعيد الخدري وام حبيبة وأم سلمة وثوبان وقرة بن اياس وعلي الهلالي وعبد الله بن الحرث بن جزء بأسانيد ربما يعرض لها المنكرون كما نذكره الا أن المعروف عند أهل الحديث أن الجرح مقدم على التعديل فاذا وجدنا طعنا في بعض رجال الاسانيد بغفلة أو بسوء حفظ أو ضعف أو سوء رأي تطرق ذلك الى صحة الحديث وأوهن منها ولا تقولن مثل ذلك ربما يتطرق الى رجال الصحيحين فان الاجماع قد اتصل في الامة على تلقيهما بالقبول والعمل بما فيهما وفي الاجماع أعظم حماية وأحسن دفع وليس غير الصحيحين بمثابتهما في ذلك فقد نجد مجالا للكلام في أسانيدها بما نقل عن أئمة الحديث في ذلك * ولقد توغل أبو بكر بن أبي خيثمة على ما نقل السهيلي عنه في جمعه للاحاديث الواردة في المهدي فقال ومن أغربها اسنادا ما ذكره أبو بكر الاسكاف في فوائد الاخبار مسندا الى مالك بن أنس

عن محمد بن المنكدر عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كذب بالمهدى فقد كفر ومن كذب بالدجال فقد كذب وقال فى طلوع الشمس من مغربها مثل ذلك فحلما احسب وحسبك هذا غلوا والله أعلم بصحة طريقه الى مالك بن أنس على أن أبا بكر الاسكاف عندهم متهم وضاع * وأما الترمذى فخرج هو وأبو داود بسنديهما الى ابن عباس من طريق عاصم بن أبى النجود أحد القراء السبعة الى زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم لو لم يبق من الدنيا الا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلا منى أو من أهل بيتى يواطئ اسمه اسمى واسم أبيه اسم أبى هذا لفظ أبى داود وسكت عليه وقال فى رسالته المشهورة ان ما سكت عليه فى كتابه فهو صالح ولفظ الترمذى لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتى يواطئ اسمه اسمى وفى لفظ آخر حتى يلى رجل من أهل بيتى وكلاهما حديث حسن صحيح ورواه أيضا من طريق موقوفا على أبى هريرة وقال الحاكم رواه الثورى وشعبة وزائدة وغيرهم من أئمة المسلمين عن عاصم قال وطرق عاصم عن زر عن عبد الله كلها صحيحة على ما أصلته من الاحتجاج بأخبار عاصم اذ هو امام من أئمة المسلمين انتهى الا أن عاصما قال فيه أحمد بن حنبل كان رجلا صالحا قارئا للقرآن خيرا ثقة والاعمش أحفظ منه وكان شعبة يختار الاعمش عليه فى تثبيت الحديث وقال العجلى كان يختلف عليه فى زر وأبى وائل يشير بذلك الى ضعف روايته عنهما وقال محمد بن سعد كان ثقة الا أنه كثير الخطا فى حديثه وقال يعقوب بن سفيان فى حديثه اضطراب وقال عبد الرحمن بن أبى حاتم قلت لابى ان أبا زرعة يقول عاصم ثقة فقال ليس محله هذا وقد تكلم فيه ابن علية فقال كل من اسمه عاصم سيء الحفظ وقال أبو حاتم محله عندى محل الصدق صالح الحديث ولم يكن بذلك الحافظ واختلف فيه قول النسائى وقال ابن خراش فى حديثه نكرة وقال أبو جعفر العقيلى لم يكن فيه الاسوء الحفظ وقال الدارقطنى فى حفظه شئ وقال يحيى القطان ما وجدت رجلا اسمه عاصم الا وجدته ردىء الحفظ وقال أيضا سمعت شعبة يقول حدثنا عاصم بن أبى النجود وفى الناس ما فيها وقال الذهبى ثبت فى القراءة وهو فى الحديث دون الثبت صدوق يهم وهو حسن الحديث وان احتج أحد بان الشيخين أخرجا له فنقول أخرجا له مقرونا بغيره لا أصلا والله أعلم وخرج أبو داود فى الباب عن على رضى الله عنه من رواية قطن بن خليفة عن القاسم ابن أبى مرة عن أبى الطفيل عن على عن النبى صلى الله عليه وسلم قال لو لم يبق من الدهر الا يوم لبعث الله رجلا من أهل بيتى يملؤها عدلا كما ملئت جورا وقطن بن خليفة وان وثقه أحمد ويحيى بن القطان وابن معين والنسائى وغيرهم الا أن العجلى قال حسن

الله بث وفيه تشيع قليل وقال ابن معين مرة ثقة شيعي وقال أحمد بن عبد الله بن يونس كان عمرو على قطن وهو مطروح لا نكتب عنه وقال مرة كنت آمر به وأدعه مثل الكلب وقال الدارقطني لا يحتج به وقال أبو بكر بن عياش ماتركت الرواية عنه الا لسوء مذهبه وقال الجرجاني زائغ غير ثقة انتهى وخرج أبو داود أيضا بسنده الى علي رضي الله عنه عن مروان بن المغيرة عن عمر بن أبي قيس عن شعيب بن أبي خالد عن أبي اسحق النسفي قال قال علي ونظر الى ابنه الحسن ان ابني هذا سيد كما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيخرج من صلبه رجل يسمى باسم نبيكم يشبهه في الخلق ولا يشبهه في الخلق يملأ الارض عدلا وقال هرون حدثنا عمر بن أبي قيس عن مطرف بن طريف عن أبي الحسن عن هلال بن عمر سمعت عليا يقول قال النبي صلى الله عليه وسلم يخرج رجل من وراء النهر يقال له الحرث على مقدمته رجل يقال له منصور يوطئ أو يمكن لآل محمد كما مكنت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم وجب على كل مؤمن نصره أو قال اجابته سكت أبو داود عليه وقال في موضع آخر في هرون هو من ولد الشيعة وقال السليماني فيه نظر وقال أبو داود في عمر بن أبي قيس لا بأس به في حديثه خطأ وقال الذهبي صدوق له أوهام وأما أبو اسحق الشيعي وان خرج عنه في الصحيحين فقد ثبت أنه اختلط آخر عمره وروايته عن علي منقطعة وكذلك رواية أبي داود عن هرون بن المغيرة * وأما السند الثاني فأبو الحسن فيه وهلال بن عمر مجهولان ولم يعرف أبو الحسن الا من رواية مطرف بن طريف عنه انتهى وخرج أبو داود أيضا عن ام سلمة وكذا ابن ماجه والحاكم في المستدرك من طريق علي بن نفيل عن سعيد بن المسيب عن ام سلمة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول المهدي من ولد فاطمة ولفظ الحاكم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر المهدي فقال نعم هو حق وهو من بني فاطمة ولم يتكلم عليه بتصحيح ولا غيره وقد ضعفه أبو جعفر العقيلي وقال لا يتابع علي بن نفيل عليه ولا يعرف الا به وخرج أبو داود أيضا عن أم سلمة من رواية صالح بن الخليل عن صاحب له عن أم سلمة قال يكون اختلاف عند موت خليفة فيخرج رجل من أهل المدينة هاربا الى مكة فيأتيه ناس من أهل مكة فيخرجونه وهو كاره فيبايعونه بين الركن والمقام فيبعث اليه بعث من الشأم فيخسف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة فاذا رأى الناس ذلك أتاه ابدال أهل الشام وعصائب أهل العراق فيبايعونه ثم ينشأ رجل من قريش أخواله كلب فيبعث اليهم بعثا فيظهرون عليهم وذلك بعث كلب والخيبة لمن لم يشهد غنيمة كلب فيقسم المال ويعمل في الناس بسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم ويلقي الاسلام بجرانه على الارض فيلبث سبع سنين وقال بعضهم تسع سنين ثم رواه أبو

داود من رواية ابن الخليل عن عبد الله بن الحرث عن ام سلمة فتبين بذلك المبهم في الاسناد الاول ورجاله رجال الصحيحين لا مطعن فيهم ولا مغمز وقد يقال انه من رواية قتادة عن أبي الخليل وقتادة مدلس وقد عنعنه والمدلس لا يقبل من حديثه الا ما صرح فيه بالسماع مع أن الحديث ليس فيه تصريح بذكر المهدى نعم ذكره أبو داود في أبوابه وخرج أبو داود أيضا وتابعه الحاكم عن أبي سعيد الخدرى من طريق عمران القطان عن قتادة عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المهدى منى أجلى الجبهة أقنى الانف يملأ الارض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا يملك سبع سنين هذا لفظ أبي داود وسكت عليه ولفظ الحاكم المهدى منا أهل البيت أشم الانف أقنى أجلى يملأ الارض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما يعيش هكذا وبسط يساره واصبعين من يمينه السبابة والابهام وعقد ثلاثة قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه اهـ وعمران القطان مختلف في الاحتجاج به انما أخرج له البخارى استشهادا لا أصلا وكان يحيى القطان لا يحدث عنه وقال يحيى بن معين ليس بالقوى وقال مرة ليس بشئ وقال أحمد بن حنبل أرجو أن يكون صالح الحديث وقال يزيد بن زريع كان حروريا وكان يرى السيف على أهل القبلة وقال النسائى ضعيف وقال ابو عبيد الآجرى سألت أبا داود عنه فقال من اصحاب الحسن وما سمعت الا خيرا وسمعته مرة أخرى ذكره فقال ضعيف افتى في أيام ابراهيم بن عبد الله ابن حسن بفتوى شديدة فيها سفك الدماء وخرج الترمذى وابن ماجه والحاكم عن ابى سعيد الخدرى من طريق زيد العمى عن ابى صديق الناجى عن ابى سعيد الخدرى قال خشينا أن يكون بعض شئ حدث فسألنا نبى الله صلى الله عليه وسلم فقال ان فى امتى المهدى يخرج يعيش خمسا أو سبعا أو تسعا زيد الشاك قال قلنا وماذا قال سنين قال فيجئ اليه الرجل فيقول يا مهدى أعطنى قال فيحثى له فى ثوبه ما استطاع أن يحمله لفظ الترمذى وقال هذا حديث حسن وقد روى من غير وجه عن أبي سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم ولفظ ابن ماجه والحاكم يكون فى امتى المهدى ان قصر فسبع والا فتسع فتنعم امتى فيه نعمة لم يسمعوا بمثلها قط تؤتى الارض أكلها ولا يدخر منه شئ والمال يومئذ كدوس فيقوم الرجل فيقول يا مهدى اعطنى فيقول خذ انتهى وزيد العمى وان قال فيه الدارقطنى وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين انه صالح وزاد أحمد انه فوق يزيد الرقاشى وفضل بن عيسى الا أنه قال فيه أبو حاتم ضعيف يكتب حديثه ولا يحتج به وقال يحيى بن معين فى رواية اخرى لا شئ وقال مرة يكتب حديثه وهو ضعيف وقال الجرجانى متماسك وقال أبو زرعة ليس بقوى واهى الحديث ضعيف

وقال أبو حاتم ليس بذاك وقد حدث عنه شعبة وقال النسائى ضعيف وقال ابن عدى عامة ما يرويه ومن يروى عنهم ضعفاء على أن شعبة قد روى عنه ولعل شعبة لم يروعن أضعف منه وقد يقال ان حديث الترمذى وقع تفسيرا لما رواه مسلم فى صحيحه من حديث جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون فى آخر أمتى خليفة يحثى المال حثيا لا يعده عدا ومن حديث أبى سعيد قال من خلفائكم خليفة يحثو المال حثيا ومن طريق أخرى عنهما قال يكون فى آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده انتهى وأحاديث مسلم لم يقع فيها ذكر المهدى ولا دليل يقوم على أنه المراد منها ورواه الحاكم أيضا من طريق عوف الاعرابى عن أبى الصديق الناجى عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تملأ الارض جورا وظلما وعدوانا ثم يخرج من أهل بيتى رجل يملؤها قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وعدوانا وقال فيه الحاكم هذا صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ورواه الحاكم أيضا من طريق سليمان بن عبيد عن أبى الصديق الناجى عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يخرج فى آخر أمتى المهدى يسقيه الله الغيث وتخرج الارض نباتها ويعطى المال صحاحا وتكثر الماشية وتعظم الامة يعيش سبعا أو ثمانيا يعنى حججا وقال فيه حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه مع أن سليمان بن عبيد لم يخرج له أحد من الستة لكن ذكره ابن حبان فى الثقات ولم يرد أن أحدا تكلم فيه ثم رواه الحاكم أيضا من طريق أسد بن موسى عن حماد بن سلمة عن مطر الوراق وأبى هرون العبدى عن أبى الصديق الناجى عن أبى سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تملأ الارض جورا وظلما فيخرج رجل من عترتى فيملك سبعا أو تسعا فيملأ الارض عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما وقال الحاكم فيه هذا حديث صحيح على شرط مسلم وانما جعله على شرط مسلم لانه أخرج عن حماد بن سلمة وعن شيخه مطر الوراق وأما شيخه الآخر وهو أبو هرون العبدى فلم يخرج له وهو ضعيف جدا متهم بالكذب ولا حاجة الى بسط أقوال الائمة فى تضعيفه * وأما الراوى له عن حماد بن سلمة وهو أسد بن موسى ويلقب أسد السنة وان قال البخارى مشهور الحديث واستشهد به فى صحيحه واحتج به أبو داود والنسائى الا أنه قال مرة أخرى ثقة لو لم يصنف كان خيرا له وقال فيه محمد بن حزم منكر الحديث ورواه الطبرانى فى معجمه الاوسط من رواية أبى الواصل عبد الحميد بن واصل عن أبى الصديق الناجى عن الحسن بن يزيد السعدى أحد بنى بهدلة عن أبى سعيد الخدرى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يخرج رجل من امتى يقول بسنتى ينزل الله عزوجل له القطر من السماء وتخرج الارض بركتها وتملأ الارض منه

قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما يعمل على هذه الامة سبع سنين وينزل بيت المقدس وقال الطبراني فيه ورواه جماعة عن أبي الصديق ولم يدخل أحد منهم بينه وبين أبي سعيد أحدا الا أبا الواصل فانه رواه عن الحسن بن يزيد عن أبي سعيد انتهى وهذا الحسن بن يزيد ذكره ابن أبي حاتم ولم يعرفه بأكثر مما في هذا الاسناد من روايته عن أبي سعيد ورواية أبي الصديق عنه وقال الذهبي في الميزان انه مجهول لكن ذكره ابن حبان في الثقات وأما أبو الواصل الذي رواه عن أبي الصديق فلم يخرج له أحد من الستة وذكره ابن حبان في الثقات في الطبقة الثانية وقال فيه يروى عن أنس وروى عنه شعبة وعتاب بن بشر وخرج ابن ماجه في كتاب السنن عن عبد الله بن مسعود من طريق يزيد بن أبي زياد عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله قال بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ أقبل فتية من بني هاشم فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذرفت عيناه وتغير لونه قال فقلت ما نزال نرى في وجهك شيأ نكرهه فقال انا أهل البيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا وان أهل بيتي سيلقون بعدي بلاء وتشريدا وتطريدا حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود فيسألون الخير فلا يعطونه فيقاتلون وينصرون فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتى يدفعوها الى رجل من أهل بيتي فيملؤها قسطا كما ملؤها جورا فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبوا على الثلج انتهى * وهذا الحديث يعرف عند المحدثين بحديث الرايات ويزيد بن أبي زياد راويه قال فيه شعبة كان رفاعا يعني يرفع الاحاديث التي لا تعرف مرفوعة وقال محمد بن الفضيل كان من كبار أئمة الشيعة وقال أحمد بن حنبل لم يكن بالحافظ وقال مرة حديثه ليس بذلك وقال يحيى بن معين ضعيف وقال العجلي جائز الحديث وكان بآخره يلقن وقال أبو زرعة لين يكتب حديثه ولا يحتج به وقال أبو حاتم ليس بالقوي وقال الجرجاني سمعتهم يضعفون حديثه وقال أبو داود لا أعلم أحدا ترك حديثه وغيره أحب الي منه وقال ابن عدي هو من شيعة أهل الكوفة ومع ضعفه يكتب حديثه وروى له مسلم لكن مقرونا بغيره وبالجملة فالاكثرون على ضعفه وقد صرح الائمة بتضعيف هذا الحديث الذي رواه عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله وهو حديث الرايات وقال وكيع بن الجراح فيه ليس بشيء وكذلك قال أحمد بن حنبل وقال أبو قدامة سمعت أبا أسامة يقول في حديث يزيد عن ابراهيم في الرايات لو حلف عندي خمسين يمينا قسامة ما صدقته أهذا مذهب ابراهيم أهذا مذهب علقمة أهذا مذهب عبد الله وأورد العقيلي هذا الحديث في الضعفاء وقال الذهبي ليس بصحيح وخرج ابن ماجه عن علي رضي الله عنه من رواية ياسين العجلي عن ابراهيم بن محمد ابن الحنفية عن

أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المهدي منا أهل البيت يصلح الله به في ليلة وياسين العجلي وان قال فيه ابن معين ليس به بأس فقد قال البخاري فيه نظر وهذه اللفظة من اصطلاحه قوية في التضعيف جدا وأورده ابن عدي في الكامل والذهبي في الميزان هذا الحديث على وجه الاستنكار له وقال هو معروف به وخرج الطبراني في معجمه الاوسط عن علي رضي الله عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم أمنا المهدي أم من غيرنا يارسول الله فقال بل منا بنا يختم الله كما بنا فتح وبنا يستنقذون من الشرك وبنا يؤلف الله بين قلوبهم بعد عداوة بينة كما بنا ألف بين قلوبهم بعد عداوة الشرك قال علي أمؤمنون أم كافرون قال مفتون وكافر انتهى وفيه عبد الله بن لهيعة وهو ضعيف معروف الحال وفيه عمر بن جابر الحضرمي وهو أضعف منه قال أحمد بن حنبل روى عن جابر مناكير وبلغني أنه كان يكذب وقال النسائي ليس بثقة وقال كان ابن لهيعة شيخا أحمق ضعيف العقل وكان يقول علي في السحاب وكان يجلس معنا فيبصر سحابة فيقول هذا علي قد مر في السحاب وخرج الطبراني عن علي رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يكون في آخر الزمان فتنة يحصل الناس فيها كما يحصل الذهب في المعدن فلا تسبوا أهل الشأم ولكن سبوا أشرارهم فان فيهم الابدال يوشك أن يرسل على أهل الشأم صيب من السماء فيفرق جماعتهم حتى لو قاتلتهم الثعالب غلبتهم فعند ذلك يخرج خارج من أهل بيتي في ثلاث رايات المكثر يقول بهم خمسة عشر ألفا والمقلل يقول بهم اثنا عشر ألفا وامارتهم امت امت يلقون سبع رايات تحت كل راية منها رجل يطلب الملك فيقتلهم الله جميعا ويرد الله الى المسلمين ألفتهم ونعمتهم وقاصيتهم ورأيهم اهـ وفيه عبد الله بن لهيعة وهو ضعيف معروف الحال ورواه الحاكم في المستدرك وقال صحيح الاسناد ولم يخرجاه في روايته ثم يظهر الهاشمي فيرد الله الناس الى ألفتهم الخ وليس في طريقه ابن لهيعة وهو اسناد صحيح كما ذكر وخرج الحاكم في المستدرك عن علي رضي الله عنه من رواية أبي الطفيل عن محمد بن الحنفية قال كنا عند علي رضي الله عنه فسأله رجل عن المهدي فقال علي هيهات ثم عقد بيده سبعا فقال ذلك يخرج في آخر الزمان اذا قال الرجل الله الله قتل ويجمع الله له قوما قزع كقزع السحاب يؤلف الله بين قلوبهم فلا يستوحشون الى أحد ولا يفرحون بأحد دخل فيهم عدتهم على عدة أهل بدر لم يسبقهم الاولون ولا يدركهم الآخرون وعلى عدد أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر قال أبو الطفيل قال ابن الحنفية أتريده قلت نعم قال فانه يخرج من بين هذين الاخشبين قلت لا جرم والله ولا أدعها حتى أموت ومات بها يعني مكة قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط الشيخين انتهى وانما

هو على شرط مسلم فقط فان فيه عمارا الذهبي ويونس بن أبي اسحق ولم يخرج لهما البخاري وفيه عمرو بن محمد العبقري ولم يخرج له البخاري احتجاجا بل استشهادا مع ما ينضم الى ذلك من تشيع عمار الذهبي وهو وان وثقه أحمد وابن معين وأبو حاتم النسائي وغيرهم فقد قال علي بن المدني عن سفيان ان بشر بن مروان قطع عرقوبيه قلت في أي شئ قال في التشيع وخرج ابن ماجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه في رواية سعد بن عبد الحميد بن جعفر عن علي بن زياد اليمامي عن عكرمة بن عمار عن اسحق بن عبد الله عن أنس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول نحن ولد عبد المطلب سادات أهل الجنة أنا وحمزة وعلي وجعفر والحسن والحسين والمهدي انتهى وعكرمة بن عمار وان أخرج له مسلم فانما أخرج له متابعة وقد ضعفه بعض ووثقه آخرون وقال أبو حاتم الرازي هو مدلس فلا يقبل الا أن يصرح بالسماع وعلي ابن زياد قال الذهبي في الميزان لا ندري من هو ثم قال الصواب فيه عبد الله بن زياد وسعد ابن عبد الحميد وان وثقه يعقوب بن أبي شيبة وقال فيه يحيى بن معين ليس به بأس فقد تكلم فيه الثوري قالوا لانه رآه يفتي في مسائل ويخطئ فيها وقال ابن حبان كان ممن فحش خطاؤه فلا يحتج به وقال أحمد بن حنبل سعد بن عبد الحميد يدعي أنه سمع عرض كتب مالك والناس ينكرون عليه ذلك وهو ههنا ببغداد لم يحج فكيف سمعها وجعله الذهبي ممن لم يقدح فيه كلام من تكلم فيه وخرج الحاكم في مستدركه من رواية مجاهد عن ابن عباس موقوفا عليه قال مجاهد قال لي ابن عباس لو لم أسمع أنك مثل أهل البيت ما حدثتك بهذا الحديث قال فقال مجاهد فانه في ستر لا أذكره لمن يكره قال فقال ابن عباس منا أهل البيت أربعة منا السفاح ومنا المنذر ومنا المنصور ومنا المهدي قال فقال مجاهد بين لي هؤلاء الاربعة فقال ابن عباس أما السفاح فربما قتل أنصاره وعفا عن عدوه وأما المنذر أراه قال فانه يعطي المال الكثير ولا يتعاظم في نفسه ويمسك القليل من حقه وأما المنصور فانه يعطي النصر على عدوه الشطر مما كان يعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرهب منه عدوه على مسيرة شهرين والمنصور يرهب منه عدوه على مسيرة شهر وأما المهدي الذي يملأ الارض عدلا كما ملئت جورا وتأمن البهائم السباع وتلقي الارض أفلاذ كبدها قال قلت وما أفلاذ كبدها قال أمثال الاسطوانة من الذهب والفضة اهـ وقال الحاكم هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه وهو من رواية اسمعيل بن ابراهيم بن مهاجر عن أبيه واسمعيل ضعيف وابراهيم أبوه وان خرج له مسلم فالاكثرون على تضعيفه اهـ وخرج ابن ماجه عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتتل عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خليفة ثم لا يصير الى

واحد منهم حتى تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلوهم قتلا لم يقتله قوم ثم ذكر شيأ لا أحفظ قال فاذا رأيتموه فبايعوه ولو حبوا على الثلج فانه خليفة الله المهدى اهـ ورجاله رجال الصحيحين الا أن فيه أبا قلابة الجرمى وذكر الذهبى وغيره أنه مدلس وفيه سفيان الثورى وهو مشهور بالتدليس وكل واحد منهما عنعن ولم يصرح بالسماع فلا يقبل وفيه عبد الرزاق بن همام وكان مشهورا بالتشيع وعمى فى آخر وقته فخلط قال ابن عدى حدث بأحاديث فى الفضائل لم يوافقه عليها أحد ونسبوه الى التشيع انتهى * وخرج ابن ماجه عن عبد الله بن الحرث بن جزء الزبيدى من طريق ابن لهيعة عن أبى زرعة عن عمر بن جابر الحضرمى عن عبد الله بن الحرث بن جزء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج ناس من المشرق فيوطؤن للمهدى يعنى سلطانه قال الطبرانى تفرد به ابن لهيعة وقد تقدم لنا فى حديث على الذى خرجه الطبرانى فى معجمه الاوسط أن ابن لهيعة ضعيف وأن شيخه عمر بن جابر أضعف منه وخرج البزار فى مسنده والطبرانى فى معجمه الاوسط واللفظ للطبرانى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يكون فى أمتى المهدى ان قصر فسبع والا فثمان والا فتسع تنعم فيه أمتى نعمة لم ينعموا بمثلها ترسل السماء عليهم مدرارا ولا تدخر الارض شيأ من النبات والمال كدوس يقوم الرجل يقول يا مهدى أعطنى فيقول خذ قال الطبرانى والبزار تفرد به محمد بن مروان العجلى زاد البزار ولا نعلم أنه تابعه عليه أحد وهو وان وثقه أبو داود وابن حبان أيضا بما ذكره فى الثقات وقال فيه يحيى بن معين صالح وقال مرة ليس به بأس فقد اختلفوا فيه وقال أبو زرعة ليس عندى بذلك وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل رأيت محمد بن مروان العجلى حدث بأحاديث وأنا شاهد لم نكتبها تركتها على عمد وكتب بعض أصحابنا عنه كانه ضعفه وخرجه أبو يعلى الموصلى فى مسنده عن أبى هريرة وقال حدثنى خليلى أبو القاسم صلى الله عليه وسلم قال لا تقوم الساعة حتى يخرج عليهم رجل من أهل بيتى فيضربهم حتى يرجعوا الى الحق قال قلت وكم يملك قال خمسا واثنين قال قلت وما خمس واثنين قال لا أدرى اهـ وهذا السند وان كان فيه بشير بن نهيك وقال فيه أبو حاتم لا يحتج به فقد احتج به الشيخان ووثقه الناس ولم يلتفتوا الى قول أبى حاتم لا يحتج به الا أن فيه رجاء بن أبى رجاء اليشكرى وهو مختلف فيه قال أبو زرعة ثقة وقال يحيى بن معين ضعيف وقال أبو داود ضعيف وقال مرة صالح وعلق له البخارى فى صحيحه حديثا واحدا وخرج أبو بكر البزار فى مسنده والطبرانى فى معجمه الكبير والاوسط عن قرة بن اياس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتملأن الارض جورا وظلما فاذا ملئت جورا وظلما بعث الله رجلا من أمتى اسمه اسمى

واسم أبيه اسم أبي يملؤها عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما فلا تمنع السماء من قطرها شيأ ولا الارض شيأ من نباتها يلبث فيكم سبعا أو ثمانيا أو تسعا يعني سنين اه وفيه دواد بن المحبر بن مجرم عن أبيه وهما ضعيفان جدا وخرج الطبراني في معجمه الاوسط عن ابن عمر قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من المهاجرين والانصار وعلي ابن أبي طالب عن يساره والعباس عن يمينه اذ تلاحى العباس ورجل من الانصار فأغلظ الانصاري للعباس فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بيد العباس وبيد علي وقال سيخرج من صلب هذا حتى يملأ الارض جورا وظلما وسيخرج من صلب هذا حتى يملأ الارض قسطا وعدلا فاذا رأيتم ذلك فعليكم بالفتى التميمي فانه يقبل من قبل المشرق وهو صاحب راية المهدي اه وفيه عبد الله بن عمر العمري وعبد الله بن لهيعة وهما ضعيفان اه وخرج الطبراني في معجمه الاوسط عن طلحة بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ستكون فتنة لا يسكن منها جانب الا تشاجر جانب حتى ينادي مناد من السماء ان أميركم فلان اه وفيه المثنى بن الصباح وهو ضعيف جدا وليس في الحديث تصريح بذكر المهدي وانما ذكروه في أبوابه وترجمته استئناسا (فهذه) جملة الاحاديث التي خرجها الائمة في شأن المهدي وخروجه آخر الزمان وهي كما رأيت لم يخلص منها من النقد الا القليل والاقل منه وربما تمسك المنكرون لشأنه بما رواه محمد ابن خالد الجندي عن أبان بن صالح بن أبي عياش عن حسن البصري عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا مهدي الا عيسى ابن مريم وقال يحيى بن معين في محمد بن خالد الجندي انه ثقة وقال البيهقي تفرد به محمد بن خالد وقال الحاكم فيه انه رجل مجهول واختلف عليه في اسناده فمرة يروى كما تقدم وينسب ذلك لمحمد بن ادريس الشافعي ومرة يروى عن محمد بن خالد عن ابان عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا قال البيهقي فرجع الى رواية محمد بن خالد وهو مجهول عن ابان بن أبي عياش وهو متروك عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو منقطع وبالجملة فالحديث ضعيف مضطرب وقد قيل في أن لا مهدي الا عيسى أي لا يتكلم في المهد الا عيسى يحاولون بهذا التأويل رد الاحتجاج به أو الجمع بينه وبين الاحاديث وهو مدفوع بحديث جريج ومثله من الخوارق * وأما المتصوفة فلم يكن المتقدمون منهم يخوضون في شيء من هذا وانما كان كلامهم في المجاهدة بالاعمال وما يحصل عنها من نتائج المواجد والاحوال وكان كلام الامامية والرافضة من الشيعة في تفضيل علي رضي الله تعالى عنه والقول بامامته وادعاء الوصية له بذلك من النبي صلى الله عليه وسلم والتبري من الشيخين كما ذكرناه في مذاهبهم ثم حدث فيهم بعد ذلك القول بالامام المعصوم وكثرت

التأليف في مذاهبهم وجاء الاسماعيلية منهم يدعون ألوهية الامام بنوع من الحلول وآخرون يدعون رجعة من مات من الائمة بنوع التناسخ وآخرون منتظرون مجيء من يقطع بموته منهم وآخرون منتظرون عود الامر في أهل البيت مستدلين على ذلك بما قدمناه من الاحاديث في المهدي وغيرها ثم حدث أيضا عند المتأخرين من الصوفية الكلام في الكشف وفيما وراء الحس وظهر من كثير منهم القول على الاطلاق بالحلول والوحدة فشاركوا فيها الامامية والرافضة لقولهم بألوهية الائمة وحلول الاله فيهم وظهر منهم أيضا القول بالقطب والابدال وكأنه يحاكي مذهب الرافضة في الامام والنقباء وأشربوا أقوال الشيعة وتوغلوا في الديانة بمذاهبهم حتى لقد جعلوا مستند طريقهم في لبس الخرقة أن عليا رضي الله عنه ألبسها الحسن البصري وأخذ عليه العهد بالتزام الطريقة واتصل ذلك عنهم بالجنيد من شيوخهم ولا يعلم هذا عن علي من وجه صحيح ولم تكن هذه الطريقة خاصة بعلي كرم الله وجهه بل الصحابة كلهم أسوة في طرق الهدى وفي تخصيص هذا بعلي دونهم رائحة من التشيع قوية يفهم منها ومن غيرها مما تقدم دخولهم في التشيع وانخراطهم في سلكه وظهر منهم أيضا القول بالقطب وامتلأت كتب الاسماعيلية من الرافضة وكتب المتأخرين من المتصوفة بمثل ذلك في الفاطمي المنتظر وكان بعضهم يمليه على بعض ويلقنه بعضهم من بعض وكأنه مبني على أصول واهية من الفريقين وربما يستدل بعضهم بكلام المنجمين في القرانات وهو من نوع الكلام في الملاحم ويأتي الكلام عليها في الباب الذي يلي هذا وأكثر من تكلم من هؤلاء المتصوفة المتأخرين في شأن الفاطمي ابن العربي الحاتمي في كتاب عنقاء مغرب وابن قسي في كتاب خلع النعلين وعبد الحق بن سبعين وابن أبي واطيل تلميذه في شرحه لكتاب خلع النعلين وأكثر كلماتهم في شأنه ألغاز وأمثال وربما يصرحون في الاقل أو يصرح مفسرو كلامهم وحاصل مذهبهم فيه على ما ذكر ابن أبي واطيل أن النبوة بها ظهر الحق والهدى بعد الضلال والعمى وانها تعقبها الخلافة ثم يعقب الخلافة الملك ثم يعود تجبرا وتكبرا وباطلا قالوا ولما كان في المعهود من سنة الله رجوع الامور الى ما كانت وجب أن يحيا أمر النبوة والحق بالولاية ثم بخلافتها ثم يعقبها الدجل مكان الملك والتسلط ثم يعود الكفر بحاله يشيرون بهذا لما وقع من شأن النبوة والخلافة بعدها والملك بعد الخلافة هذه ثلاث مراتب وكذلك الولاية التي هي لهذا الفاطمي والدجل بعدها كناية عن خروج الدجال على أثره والكفر من بعد ذلك فهي ثلاث مراتب على نسبة الثلاث مراتب الاولى ثم يعود الكفر كما كان قبل النبوة قالوا ولما كان أمر الخلافة لقريش حكما شرعيا بالاجماع الذي لا يوهنه انكار

من لم يزاول علمه وجب أن تكون الامامة فيمن هو أخص من قريش بالنبيّ صلى الله
عليه وسلم امّا ظاهرا كبني عبد المطلب وامّا باطنا ممن كان من حقيقة الآل والآل
من اذا حضر لم يغب من هو آله وابن العربيّ الحاتمي سماه في كتابه عنقاء مغرب من تأليفه
خاتم الاولياء وكنى عنه بلبنة الفضة اشارة الى حديث البخاري في باب خاتم النبيين قال
صلى الله عليه وسلم مثلي فيمن قبلي من الانبياء كمثل رجل ابتنى بيتا وأكمله حتى اذا لم يبق
منه الاموضع لبنة فأنا تلك اللبنة فيفسرون خاتم النبيين باللبنة حتى أكملت البنيان
ومعناه النبيّ الذي حصلت له النبوّة الكاملة ويمثلون الولاية في تفاوت مراتبها بالنبوّة
ويجعلون صاحب الكمال فيها خاتم الاولياء أي حائز الرتبة التي هي خاتمة الولاية كما كان
خاتم الانبياء حائز المرتبة التي هي خاتمة النبوّة فكنى الشارع عن تلك المرتبة
الخاتمة بلبنة البيت في الحديث المذكور وهما على نسبة واحدة فيها فهي لبنة واحدة
في التمثيل ففي النبوّة لبنة ذهب وفي الولاية لبنة فضة للتفاوت بين الرتبتين كما بين الذهب
والفضة فيجعلون لبنة الذهب كناية عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ولبنة الفضة كناية عن
هذا الوليّ الفاطمي المنتظر وذلك خاتم الانبياء وهذا خاتم الاولياء وقال ابن العربيّ فيما
نقل ابن أبي واطيل عنه وهذا الامام المنتظر هو من أهل البيت من ولد فاطمة وظهوره
يكون من بعد مضي خ ف ج من الهجرة ورسم حروفا ثلاثة يريد عددها بحساب الجمل
وهو الخاء المعجمة بواحدة من فوق ستمائة والفاء أخت القاف بثمانين والجيم المعجمة
بواحدة من أسفل ثلاثة وذلك ستمائة وثلاث وثمانون سنة وهي في آخر القرن السابع ولما
انصرم هذا العصر ولم يظهر حمل ذلك بعض المقلدين لهم على أنّ المراد بتلك المدّة مولده
وعبر بظهوره عن مولده وأنّ خروجه يكون بعد العشر والسبعمائة فانه الامام الناجم
من ناحية المغرب قال واذا كان مولده كما زعم ابن العربي سنة ثلاث وثمانين وستمائة
فيكون عمره عند خروجه ستا وعشرين سنة قال وزعموا أنّ خروج الدجال يكون سنة
ثلاث وأربعين وسبعمائة من اليوم المحمدي وابتداء اليوم المحمدي عندهم من يوم
وفاة النبيّ صلى الله عليه وسلم الى تمام ألف سنة قال ابن أبي واطيل في شرحه كتاب خلع
النعلين الولي المنتظر القائم بأمر الله المشار اليه بمحمد المهدي وخاتم الاولياء وليس
هو بنبيّ وانما هو وليّ ابتعثه روحه وحبيبه قال صلى الله عليه وسلم العالم في قومه
كالنبيّ في أمته وقال علماء أمتي كأنبياء بني اسرائيل ولم تزل البشرى تتابع به من أوّل
اليوم المحمدي الى قبيل الخمسمائة نصف اليوم وتأكدت وتضاعفت بتباشير المشايخ
بتقريب وقته وازدلاف زمانه منذ انقضت الى هلم جرّا قال وذكر الكندي أنّ هذا
الولي هو الذي يصلي بالناس صلاة الظهر ويجدد الاسلام ويظهر العدل ويفتح جزيرة

الاندلس و يصل الى رومية فيفتحها و يسير الى المشرق فيفتحه و يفتح القسطنطينية ويصيرله ملك الارض فيتقوى المسلمون و يعلوا الاسلام و يظهر دين الحنيفية فانّ من صلاة الظهر الى صلاة العصر وقت صلاة قال عليه الصلاة والسلام ما بين هذين وقت وقال الكندى أيضا الحروف العربية غير المعجمة يعنى المفتتح بها سور القرآن جملة عددها سبعمائة وثلاثة وأربعون وسبعة دجالية ثم ينزل عيسى فى وقت صلاة العصر فيصلح الدنيا وتمشى الشاة مع الذئب ثم يبقى ملك العجم بعد اسلامهم مع عيسى مائة وستين عاما عدد حروف المعجم وهى ق ى ن دولة العدل منها أربعون عاما قال ابن أبى واطيل وما ورد من قوله لا مهدى الا عيسى فمعناه لا مهدى تساوى هدايته ولايته وقيل لا يتكلم فى المهد الا عيسى وهذا مدفوع بحديث جريج وغيره وقد جاء فى الصحيح انه قال لا يزال هذا الامر قائما حتى تقوم الساعة أو يكون عليهم اثنا عشر خليفة يعنى قرشيا وقد أعطى الوجود أنّ منهم من كان فى أوّل الاسلام ومنهم من سيكون فى آخره وقال الخلافة بعدى ثلاثون أو احدى وثلاثون أو ستة وثلاثون وانقضاؤها فى خلافة الحسن وأوّل أمر معاوية فيكون أوّل أمر معاوية خلافة أخذا بأوائل الاسماء فهو سادس الخلفاء وأمّا سابع الخلفاء فعمر بن عبد العزيز والباقون خمسة من أهل البيت من ذرية على يؤيده قوله انك لذو قرنيها يريد الامة أى انك الخليفة فى أوّلها وذريتك فى آخرها وربما استدل بهذا الحديث القائلون بالرجعة فالاوّل هو المشار اليه عندهم بطلوع الشمس من مغربها وقد قال صلى الله عليه وسلم اذا هلك كسرى فلا كسرى بعده واذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذى نفسى بيده لتنفقنّ كنوزهما فى سبيل الله وقد أنفق عمر بن الخطاب كنوز كسرى فى سبيل الله والذى يهلك قيصر وينفق كنوزه فى سبيل الله هو هذا المنتظر حين يفتح القسطنطينية فنعم الامير أميرها ونعم الجيش ذلك الجيش كذا قال صلى الله عليه وسلم ومدّة حكمه بضع والبضع من ثلاث الى تسع وقيل الى عشر وجاء ذكر أربعين وفى بعض الروايات سبعين وأما الاربعون فانها مدّته ومدّة الخلفاء الاربعة الباقين من أهله القائمين بأمره من بعده على جميعهم السلام قال وذكر أصحاب النجوم والقرانات أنّ مدّة بقاء أمره وأهل بيته من بعده مائة وتسعة وخمسون عاما فيكون الامر على هذا جاريا على الخلافة والعدل أربعين أو سبعين ثم تختلف الاحوال وتكون ملكا انتهى كلام ابن أبى واطيل وقال فى موضع آخر نزول عيسى يكون فى وقت صلاة العصر من اليوم المحمدى حين تمضى ثلاثة أرباعه قال وذكر الكندى يعقوب بن اسحق فى كتاب الجفر الذى ذكر فيه القرانات أنه اذا وصل القران الى الثور على رأس ضح

بحرفين الضاد المعجمة والحاء المهملة يريد ثمانية وتسعين وستمائة من الهجرة ينزل المسيح فيحكم فى الارض ماشاء الله تعالى قال وقد ورد فى الحديث أن عيسى ينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق ينزل بين مهرودتين يعنى حلتين مزعفرتين صفراوين ممصرتين واضعا كفيه على أجنحة الملكين لهلة كأنما خرج من ديماس اذا طأطأ رأسه قطر واذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ كثير خيلان الوجه وفى حديث آخر مربوع الخلق والى البياض والحمرة وفى آخر انه يتزوج فى الغرب والغرب دلو البادية يريد أنه يتزوج منها وتلد زوجته وذكر وفاته بعد أربعين عاما وجاء ان عيسى يموت بالمدينة ويدفن الى جانب عمر بن الخطاب وجاء أن أبا بكر وعمر يحشران بين نبيين قال ابن أبى واطيل والشيعة تقول انه هو المسيح مسيح المسايح من آل محمد قلت وعليه حمل بعض المتصوفة حديث لا مهدى الا عيسى أى لا يكون مهدى الا المهدى الذى نسبته الى الشريعة المحمدية نسبة عيسى الى الشريعة الموسوية فى الاتباع وعدم النسخ الى كلام من أمثال هذا يعينون فيه الوقت والرجل والمكان بأدلة واهية وتحكمات مختلفة فينقضى الزمان ولا أثر لشئ من ذلك فيرجعون الى تجديد رأى آخر منتحل كما تراه من مفهومات لغوية وأشياء تخييلية وأحكام نجومية فى هذا انقضت أعمار الاول منهم والآخر * وأما المتصوفة الذين عاصرناهم فأكثرهم يشيرون الى ظهور رجل مجدد لاحكام الملة ومراسم الحق ويتحينون ظهوره لما قرب من عصرنا فبعضهم يقول من ولد فاطمة وبعضهم يطلق القول فيه سمعناه من جماعة أكبرهم أبو يعقوب البادسى كبير الاولياء بالمغرب كان فى أول هذه المائة الثامنة وأخبرنى عنه حافده صاحبنا أبو يحيى زكريا عن أبيه أبى محمد عبد الله عن أبيه الولى أبى يعقوب المذكور هذا آخر ما اطلعنا عليه أو بلغنا من كلام هؤلاء المتصوفة وما أورده أهل الحديث من أخبار المهدى قد استوفينا جميعه بمبلغ طاقتنا والحق الذى ينبغى أن يتقرر لديك أنه لا تتم دعوة من الدين والملك الا بوجود شوكة عصبية تظهره وتدافع عنه من يدفعه حتى يتم أمر الله فيه وقد قررنا ذلك من قبل بالبراهين القطعية التى أريناك هنالك وعصبية الفاطميين بل وقريش أجمع قد تلاشت من جميع الآفاق ووجد أمم آخرون قد استعلت عصبيتهم على عصبية قريش الا مابقى بالحجاز فى مكة وينبع بالمدينة من الطالبيين من بنى حسن وبنى حسين وبنى جعفر منتشرون فى تلك البلاد وغالبون عليها وهم عصائب بدوية متفرقون فى مواطنهم وامارتهم وآرائهم يبلغون آلافا من الكثرة فان صح ظهور هذا المهدى فلا وجه لظهور دعوته الا بأن يكون منهم ويؤلف الله بين قلوبهم فى اتباعه حتى تتم له شوكة وعصبية وافية باظهار كلمته وحمل الناس عليها وأما على غير هذ

الوجه مثل أن يدعو فاطمي منهم الى مثل هذا الامر في أفق من الآفاق من غير عصبية
ولا شوكة الا مجرد نسبة في أهل البيت فلا يتم ذلك ولا يمكن لما أسلفناه من البراهين
الصحيحة وأما ما تدعيه العامة والاغمار من الدهماء ممن لا يرجع في ذلك الى عقل
يهديه ولا علم يفيده فيجيبون ذلك على غير نسبة وفي غير مكان تقليدا لما اشتهر من ظهور
فاطمي ولا يعلمون حقيقة الامر كما بيناه وأكثر ما يجيبون في ذلك القاصية من الممالك
وأطراف العمران مثل الزاب بافريقية والسوس من المغرب ونجد الكثير من ضعفاء
البصائر يقصدون رباطا بماسة لما كان ذلك الرباط بالمغرب من الملثمين من كدالة
واعتقادهم أنه منهم أو قائمون بدعوته زعما لا مستند لهم الا غرابة تلك الامم وبعدهم على
يقين المعرفة بأحوالها من كثرة أو قلة أو ضعف أو قوة ولبعد القاصية عن منال الدولة
وخروجها عن نطاقها فتقوى عندهم الاوهام في ظهوره هنالك بخروجه عن ربقة الدولة
ومنال الاحكام والقهر ولا محصول لديهم في ذلك الا هذا وقد يقصد ذلك الموضع كثير
من ضعفاء العقول للتلبيس بدعوة يمنيه تمامها وسواسا وحمقا وقتل كثير منهم أخبرني
شيخنا محمد بن ابراهيم الابلي قال خرج برباط ماسة لاول المائة الثامنة وعصر السلطان
يوسف بن يعقوب رجل من منتحلي التصوف يعرف بالتويزري نسبة الى توزر مصغرا
وادعى أنه الفاطمي المنتظر واتبعه الكثير من أهل السوس من ضالة وكزولة وعظم
أمره وخافه رؤساء المصامدة على أمرهم فدس عليه السكسوي من قتله بياتا وانحل
أمره وكذلك ظهر في غمارة في آخر المائة السابعة وعشر التسعين منها رجل يعرف
بالعباس وادعى أنه الفاطمي واتبعه الدهماء من غمارة ودخل مدينة فاس عنوة وحرق
أسواقها وارتحل الى بلد المزمة فقتل بها غيلة ولم يتم أمره وكثير من هذا النمط وأخبرني
شيخنا المذكور بغريبة في مثل هذا وهو أنه صحب في حجه في رباط العباد وهو مدفن
الشيخ أبي مدين في جبل تلمسان المطل عليها رجلا من أهل البيت من سكان كربلاء كان
متبوعا معظما كثير التلميذ والخادم قال وكان الرجال من موطنه يتلقونه بالنفقات
في أكثر البلدان قال وتأكدت الصحبة بيننا في ذلك الطريق فانكشف لي أمرهم
وأنهم انما جاؤا من موطنهم بكربلاء لطلب هذا الامر وانتحال دعوة الفاطمي بالمغرب
فلما عاين دولة بني مرين ويوسف بن يعقوب يومئذ منازل تلمسان قال لاصحابه ارجعوا
فقد أزرى بنا الغلط وليس هذا الوقت وقتنا ويدل هذا القول من هذا الرجل على أنه
مستبصر في أن الامر لا يتم الا بالعصبية المكافئة لاهل الوقت فلما علم أنه غريب في ذلك
الوطن ولا شوكة له وأن عصبية بني مرين لذلك العهد لا يقاومها أحد من أهل المغرب
استكان ورجع الى الحق وأقصر عن مطامعه وبقي عليه أن يستيقن أن عصبية

الفواطم وقريش أجمع قد ذهبت لاسيما في المغرب الا أن التعصب اشأنه لم يترك لهذا القول والله يعلم وأنتم لا تعلمون وقد كانت بالمغرب لهذه العصور القريبة نزعة من الدعاء الى الحق والقيام بالسنة لا ينتحلون فيها دعوة فاطمى ولا غيره وانما ينزع منهم فى بعض الاحيان الواحد فالواحد الى اقامة السنة وتغيير المنكر ويعتنى بذلك ويكثر تابعه وأكثر ما يعنون باصلاح السابلة لما أن أكثر فساد الاعراب فيها لما قدمناه من طبيعة معاشهم فيأخذون فى تغيير المنكر بما استطاعوا الا أن الصبغة الدينية فيهم لم تستحكم لما أن توبة العرب ورجوعهم الى الدين انما يقصدون بها الاقصار عن الغارة والنهب لا يعقلون فى توبتهم واقبالهم الى مناحى الديانة غير ذلك لانها المعصية التى كانوا عليها قبل المقربة ومنها توبتهم فتجد ذلك المنتحل للدعوة والقائم بزعمه بالسنة غير متعمقين فى فروع الاقتداء والاتباع انما دينهم الاعراض عن النهب والبغى وافساد السابلة ثم الاقبال على طلب الدنيا والمعاش بأقصى جهدهم وشتان بين هذا الاجر من اصلاح الخلق ومن طلب الدنيا فاتفاقهما ممتنع لا تستحكم له صبغة فى الدين ولا يكمل له نزوع عن الباطل على الجملة ولا يكثرون ويختلف حال صاحب الدعوة معهم فى استحكام دينه وولايته فى نفسه دون تابعه فاذا هلك انحل أمرهم وتلاشت عصبيته وقد وقع ذلك بافريقية لرجل من كعب من سليم يسمى قاسم بن مرة بن أحمد فى المائة السابعة ثم من بعده لرجل آخر من بادية رياح من بطن منهم يعرفون بمسلم وكان يسمى سعادة وكان أشد دينا من الاول وأقوم طريقة فى نفسه ومع ذلك فلم يستتب أمر تابعه كما ذكرناه حسبما يأتى ذكر ذلك فى موضعه عند ذكر قبائل سليم ورياح وبعد ذلك ظهر ناس بهذه الدعوة يتشبهون بمثل ذلك ويلبسون فيها وينتحلون اسم السنة وليسوا عليها الا الاقل فلا يتم لهم ولا لمن بعدهم شئ من أمرهم انتهى

٥٤ فصل فى ابتداء الدول والامم وفيه الكلام على الملاحم والكشف عن مسمى الجفر

اعلم أن من خواص النفوس البشرية التشوف الى عواقب أمورهم وعلم ما يحدث لهم من حياة وموت وخير وشر سيما الحوادث العامة كمعرفة ما بقى من الدنيا ومعرفة مدد الدول أو تفاوتها والتطلع الى هذا طبيعة البشر مجبولون عليها ولذلك نجد الكثير من الناس يتشوقون الى الوقوف على ذلك فى المنام والاخبار من الكهان لمن قصدهم بمثل ذلك من الملوك والسوقة معروفة ولقد نجد فى المدن صنفا من الناس ينتحلون المعاش من ذلك لعلمهم بحرص الناس عليه فينتصبون لهم فى الطرقات والدكاكين يتعرضون لمن يسألهم عنه فتغدو وعليهم وتروح نسوان المدينة وصبيانها وكثير من ضعفاء العقول

يستكشفون عواقب أمرهم في الكسب والجاه والمعاش والمعاشرة والعداوة وأمثال ذلك ما بين خط في الرمل ويسمونه المنجم وطرق بالحصى والحبوب ويسمونه الحاسب ونظر في المرايا والمياه ويسمونه ضارب المندل وهو من المنكرات الفاشية في الامصار لما تقرر في الشريعة من ذم ذلك وأن البشر محجوبون عن الغيب الا من أطلعه الله عليه من عنده في نوم أو ولاية وأكثر ما يعتني بذلك ويتطلع اليه الامراء والملوك في آماد دولتهم ولذلك انصرفت العناية من أهل العلم اليه وكل أمة من الامم يوجد لهم كلام من كاهن أو منجم أو ولي في مثل ذلك من ملك يرتقبونه أو دولة يحدثون أنفسهم بها وما يحدث لهم من الحرب والملاحم ومدة بقاء الدولة وعدد الملوك فيها والتعرض لاسمائهم ويسمى مثل ذلك الحدثان وكان في العرب الكهان والعرافون يرجعون اليهم في ذلك وقد أخبروا عما سيكون للعرب من الملك والدولة كما وقع لشق وسطيح في تأويل رؤيا ربيعة بن نصر من ملوك اليمن أخبرهم بملك الحبشة بلادهم ثم رجوعها اليهم ثم ظهور الملك والدولة للعرب من بعد ذلك وكذا تأويل سطيح لرؤيا الموبذان حين بعث اليه كسرى بها مع عبد المسيح وأخبرهم بظهور دولة العرب وكذا كان في جيل البربر كهان من أشهرهم موسى ابن صالح من بني يفرن ويقال من غمرة وله كلمات حدثانية على طريقة الشعر برطانتهم وفيها حدثان كثير ومعظمه فيما يكون لزناتة من الملك والدولة بالمغرب وهي متداولة بين أهل الجيل وهم يزعمون تارة أنه ولي وتارة أنه كاهن وقد يزعم بعض مزاعمهم أنه كان نبيا لان تاريخه عندهم قبل الهجرة بكثير والله أعلم وقد يستند الجيل الى خبر الانبياء ان كان لعهدهم كما وقع لبني اسرائيل فان أنبياءهم المتعاقبين فيهم كانوا يخبرونهم بمثله عندما يعنونهم في السؤال عنه * وأما في الدولة الاسلامية فوقع منه كثير فيما يرجع الى بقاء الدنيا ومدتها على العموم وفيما يرجع الى الدولة وأعمارها على الخصوص وكان المعتمد في ذلك في صدر الاسلام آثار منقولة عن الصحابة وخصوصا مسلمة بني اسرائيل مثل كعب الاحبار ووهب بن منبه وأمثالهما وربما اقتبسوا بعض ذلك من ظواهر مأثورة وتأويلات محتملة ووقع لجعفر وأمثاله من أهل البيت كثير من ذلك مستندهم فيه والله أعلم الكشف بما كانوا عليه من الولاية واذا كان مثله لا ينكر من غيرهم من الاولياء في ذويهم وأعقابهم وقد قال صلى الله عليه وسلم ان فيكم محدثين فهم أولى الناس بهذه الرتب الشريفة والكرامات الموهوبة وأما بعد صدر الملة وحين علق الناس على العلوم والاصطلاحات وترجمت كتب الحكماء الى اللسان العربي فأكثر معتمدهم في ذلك كلام المنجمين في الملك والدول وسائر الامور العامة من القرانات وفي المواليد والمسائل وسائر الامور الخاصة من الطوالع لها

وهي شكل الفلك عند حدوثه فلنذكر الآن ما وقع لأهل الأثر في ذلك ثم نرجع لكلام المنجمين * أما أهل الأثر فلهم في مدة الملل وبقاء الدنيا على ما وقع في كتاب السهيلي فإنه نقل عن الطبري ما يقتضي أن مدة بقاء الدنيا منذ الملة خمسمائة سنة ونقض ذلك بظهور كذبه ومستند الطبري في ذلك أنه نقل عن ابن عباس أن الدنيا جمعة من جمع الآخرة ولم يذكر لذلك دليلا وسره والله أعلم تقدير الدنيا بأيام خلق السموات والأرض وهي سبعة ثم اليوم بألف سنة لقوله وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون قال وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أجلكم في أجل من كان قبلكم من صلاة العصر إلى غروب الشمس وقال بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى وقدر ما بين صلاة العصر وغروب الشمس حين صيرورة ظل كل شيء مثليه يكون على التقريب نصف سبع وكذلك وصل الوسطى على السبابة فتكون هذه المدة نصف سبع الجمعة كلها وهو خمسمائة سنة ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم لن يعجز الله أن يؤخر هذه الأمة نصف يوم فدل ذلك على أن مدة الدنيا قبل الملة خمسة آلاف وخمسمائة سنة وعن وهب بن منبه أنها خمسة آلاف وستمائة سنة أعني الماضي وعن كعب أن مدة الدنيا كلها ستة آلاف سنة قال السهيلي وليس في الحديثين ما يشهد لشيء مما ذكره مع وقوع الوجود بخلافه فأما قوله لن يعجز الله أن يؤخر هذه الأمة نصف يوم فلا يقتضي نفي الزيادة على النصف وأما قوله بعثت أنا والساعة كهاتين فإنما فيه الإشارة إلى القرب وأنه ليس بينه وبين الساعة نبي غيره ولا شرع غير شرعه ثم رجع السهيلي إلى تعيين أمد الملة من مدرك آخر لو ساعده التحقيق وهو أنه جمع الحروف المقطعة في أوائل السور بعد حذف المكرر قال وهي أربعة عشر حرفا يجمعها قولك (ألم يسطع نص حق كره) فأخذ عددها بحساب الجمل فكان سبعمائة وثلاثة (١) أضافه إلى المنقضي من الألف الآخرة قبل بعثته فهذه هي مدة الملة قال ولا يبعد ذلك أن يكون من مقتضيات هذه الحروف وفوائدها قلت وكونه لا يبعد لا يقتضي ظهوره ولا التعويل عليه والذي حمل السهيلي على ذلك إنما هو ما وقع في كتاب السير لابن إسحق في حديث ابني أخطب من أحبار اليهود وهما أبو ياسر وأخوه حيي حين سمعا من الأحرف المقطعة الم وتأولاها على بيان المدة بهذا الحساب فبلغت إحدى وسبعين فاستقلا المدة وجاء حيي إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله هل مع هذا غيره فقال المص ثم استزاد الر ثم استزاد المر فكانت إحدى وسبعين ومائتين فاستطال المدة وقال قد لبس علينا أمرك يا محمد حتى لا ندري أقليلا أعطيت أم كثيرا ثم ذهبوا عنه وقال لهم أبو ياسر ما يدريكم لعله أعطي عددها كلها تسعمائة وأربع سنين قال ابن إسحق فنزل

قوله تعالى منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات اهـ ولا يقوم من القصة دليل على تقدير الملة بهذا العدد لأن دلالة هذه الحروف على تلك الأعداد ليست طبيعية ولا عقلية وإنما هي بالتواضع والاصطلاح الذي يسمونه حساب الجمل نعم انه قديم مشهور وقدم الاصطلاح لا يصير حجة وليس أبو ياسر وأخوه حيي ممن يؤخذ رأيه في ذلك دليلا ولا من علماء اليهود لأنهم كانوا بادية بالحجاز غفلا عن الصنائع والعلوم حتى عن علم شريعتهم وفقه كتابهم وملتهم وإنما يتلقفون مثل هذا الحساب كما تتلقفه العوام في كل ملة فلا ينهض للسهيلي دليل على ما ادعاه من ذلك ووقع في الملة في حدثان دولتها على الخصوص مستند من الأثر إجمالي في حديث خرجه أبو داود عن حذيفة بن اليمان من طريق شيخه محمد بن يحيى الذهلي عن سعيد بن أبي مريم عن عبد الله بن فروخ عن أسامة بن زيد الليثي عن أبي قبيصة بن ذؤيب عن أبيه قال قال حذيفة بن اليمان والله ما أدري أنسي أصحابي أم تناسوه والله ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلثمائة فصاعدا الا قد سماه لنا باسمه واسم أبيه وقبيلته وسكت عليه أبو داود وقد تقدم أنه قال في رسالته ما سكت عليه في كتابه فهو صالح وهذا الحديث إذا كان صحيحا فهو مجمل ويفتقر في بيان إجماله وتعيين مبهمه إلى آثار أخرى يجود أسانيدها وقد وقع إسناد هذا الحديث في غير كتاب السنن على غير هذا الوجه فوقع في الصحيحين من حديث حذيفة أيضا قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا خطيبا فما ترك شيأ يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدث عنه حفظه من حفظه ونسيه من نسيه قد علمه أصحابه هؤلاء اهـ ولفظ البخاري ما ترك شيأ إلى قيام الساعة إلا ذكره وفي كتاب الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما صلاة العصر بنهار ثم قام خطيبا فلم يدع شيأ يكون إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به حفظه من حفظه ونسيه من نسيه اهـ وهذه الأحاديث كلها محمولة على ما ثبت في الصحيحين من أحاديث الفتن والأشراط لا غير لأنه المعهود من الشارع صلوات الله وسلامه عليه في أمثال هذه العمومات وهذه الزيادة التي تفرد بها أبو داود في هذا الطريق شاذة منكرة مع أن الأئمة اختلفوا في رجاله فقال ابن أبي مريم في ابن فروخ أحاديثه مناكير وقال البخاري يعرف منه وينكر وقال ابن عدي أحاديثه غير محفوظة وأسامة بن زيد وإن خرج له في الصحيحين ووثقه ابن معين فإنما خرج له البخاري استشهادا وضعفه يحيى بن سعيد وأحمد بن حنبل وقال ابن حاتم يكتب حديثه ولا يحتج به وأبو قبيصة بن ذؤيب مجهول فتضعف هذه الزيادة التي وقعت لأبي داود في هذا الحديث من هذه الجهات مع شذوذها كما مر * وقد يستندون في حدثان

الدول على الخصوص الى كتاب الجفر ويزعمون أن فيه علم ذلك كله من طريق الآثار
والنجوم لا يزيدون على ذلك ولا يعرفون أصل ذلك ولا مستنده واعلم أن كتاب الجفر
كان أصله أن هرون بن سعيد العجلي وهو رأس الزيدية كان له كتاب يرويه عن جعفر
الصادق وفيه علم ما سيقع لاهل البيت على العموم ولبعض الاشخاص منهم على
الخصوص وقع ذلك لجعفر ونظائره من رجالاتهم على طريق الكرامة والكشف الذى
يقع لمثلهم من الاولياء وكان مكتوبا عند جعفر فى جلد ثور صغير فرواه عنه هرون العجلى
وكتبه وسماه الجفر باسم الجلد الذى كتب منه لان الجفر فى اللغة هو الصغير وصار هذا
الاسم علما على هذا الكتاب عندهم وكان فيه تفسير القرآن وما فى باطنه من غرائب
المعانى مروية عن جعفر الصادق وهذا الكتاب لم تتصل روايته ولا عرف عينه وانما
يظهر منه شواذ من الكلمات لا يصحبها دليل ولو صح السند الى جعفر الصادق لكان فيه
نعم المستند من نفسه أو من رجال قومه فهم أهل الكرامات وقد صح عنه أنه كان يحذر
بعض قرابته بوقائع تكون لهم فتصح كما يقول وقد حذر يحيى ابن عمه زيد من مصرعه
وعصاه فخرج وقتل بالجوزجان كما هو معروف واذا كانت الكرامة تقع لغيرهم فما ظنك
بهم علما ودينا وآثارا من النبوة وعناية من الله بالاصل الكريم تشهد لفروعه الطيبة
وقد ينقل بين أهل البيت كثير من هذا الكلام غير منسوب الى أحد وفى أخبار
دولة العبيديين كثير منه وانظر ما حكاه ابن الرقيق فى لقاء أبى عبد الله الشيعى لعبيد
الله المهدى مع ابنه محمد الحبيب وما حدثاه به وكيف بعثاه الى ابن حوشب داعيتهم
باليمن فأمره بالخروج الى المغرب وبث الدعوة فيه على علم لقنه أن دعوته تتم هنالك
وان عبيد الله لما بنى المهدية بعد استفحال دولتهم بافريقية قال بنيتها ليعتصم بها
الفواطم ساعة من نهار وأراهم موقف صاحب الحمار أبى يزيد بالمهدية وكان يسأل عن
منتهى موقفه حتى جاءه الخبر ببلوغه الى المكان الذى عينه جده عبيد الله فأيقن بالظفر
وبرز من البلد فهزمه واتبعه الى ناحية الزاب فظفر به وقتله ومثل هذه الاخبار عندهم
كثيرة وأما المنجمون فيستندون فى حدثان الدول الى الاحكام النجومية أما فى الامور
العامة مثل الملك والدول فمن القرانات وخصوصا بين العلويين وذلك أن العلويين
زحل والمشترى يقترنان فى كل عشرين سنة مرة ثم يعود القران الى برج آخر فى تلك
المثلثة من التثليث الايمن ثم بعده الى آخر كذلك الى أن يتكرر فى المثلثة الواحدة اثنتى
عشرة مرة تستوى بروجه الثلاثة فى ستين سنة ثم يعود فيستوى بها فى ستين سنة ثم
يعود ثالثة ثم رابعة فيستوى فى المثلثة بثنتى عشرة مرة وأربع عودات فى مائتين
وأربعين سنة ويكون انتقاله فى كل برج على التثليث الايمن وينتقل من المثلثة الى

المثلثة التي تليها أعني البرج الذي يلي البرج الاخير من القران الذي قبله في المثلثة وهذا القران الذي هو قران العلويين ينقسم الى كبير وصغير ووسط فالكبير هو اجتماع العلويين في درجة واحدة من الفلك الى أن يعودا اليها بعد تسعمائة وستين سنة مرة واحدة والوسط هو اقتران العلويين في كل مثلثة اثنتي عشرة مرة وبعد مائتين وأربعين سنة ينتقل الى مثلثة أخرى والصغير هو اقتران العلويين في درجة برج وبعد عشرين سنة يقترنان في برج آخر على تثليثه الايمن في مثل درجه أو دقائقه مثال ذلك وقع القران أول دقيقة من الحمل وبعد عشرين يكون في أول دقيقة من القوس وبعد عشرين يكون في أول دقيقة من الاسد وهذه كلها نارية وهذا كله قران صغير ثم يعود الى أول الحمل بعد ستين سنة ويسمى دور القران وعود القران وبعد مائتين وأربعين ينتقل من النارية الى الترابية لانها بعدها وهذا قران وسط ثم ينتقل الى الهوائية ثم المائية ثم يرجع الى أول الحمل في تسعمائة وستين سنة وهو الكبير والقران الكبير يدل على عظام الامور مثل تغيير الملك والدولة وانتقال الملك من قوم الى قوم والوسط على ظهور المتغلبين والطالبين للملك والصغير على ظهور الخوارج والدعاة وخراب المدن أو عمرانها ويقع أثناء هذه القرانات قران النحسين في برج السرطان في كل ثلاثين سنة مرة ويسمى الرابع وبرج السرطان هو طالع العالم وفيه وبال زحل وهبوط المريخ فتعظم دلالة هذا القران في الفتن والحروب وسفك الدماء وظهور الخوارج وحركة العساكر وعصيان الجند والوباء والقحط ويدوم ذلك أو ينتهي على قدر السعادة والنحوسة في وقت قرانهما على قدر تيسير الدليل فيه قال جراس بن أحمد الحاسب في الكتاب الذي ألفه لنظام الملك ورجوع المريخ الى العقرب له أثر عظيم في الملة الاسلامية لانه كان دليلها فالمولد النبوي كان عند قران العلويين ببرج العقرب فلما رجع هناك حدث التشويش على الخلفاء وكثر المرض في أهل العلم والدين ونقصت أحوالهم وربما انهدم بعض بيوت العبادة وقد يقال انه كان عند قتل علي رضي الله عنه ومروان من بني أمية والمتوكل من بني العباس فاذا روعيت هذه الاحكام مع أحكام القرانات كانت في غاية الاحكام * وذكر شاذان البلخي أن الملة تنتهي الى ثلثمائة وعشرين وقد ظهر كذب هذا القول وقال أبو معشر يظهر بعد المائة والخمسين منها اختلاف كثير ولم يصح ذلك وقال جراس رأيت في كتب القدماء أن المنجمين أخبروا كسرى عن ملك العرب وظهور النبوة فيهم وأن دليلهم الزهرة وكانت في شرفها فيبقى الملك فيهم أربعين سنة وقال أبو معشر في كتاب القرانات القديمة اذا انتهت الى السابعة والعشرين من الحوت فيها شرف الزهرة ووقع القران

مع ذلك ببرج العقرب وهو دليل العرب ظهرت حينئذ دولة العرب وكان منهم نبي
ويكون قوة ملكه ومدته على ما بقي من درجات شرف الزهرة وهي احدى عشرة درجة
بتقريب من برج الحوت ومدة ذلك ستمائة وعشرين سنين وكان ظهور أبي مسلم عند انتقال
الزهرة ووقوع القسمة أول الحمل وصاحب الحد المشتري وقال يعقوب بن اسحق
الكندي ان مدة الملة تنتهي الى ستمائة وثلاث وتسعين سنة قال لان الزهرة كانت عند
قران الملة في ثمان وعشرين درجة وثلاثين دقيقة من الحوت فالباقي احدى عشرة
درجة وثمان عشرة دقيقة ودقائقها ستون فيكون ستمائة وثلاثا وتسعين سنة قال وهذه
مدة الملة باتفاق الحكماء ويعضده الحروف الواقعة في أول السور بحذف المكرر
واعتباره بحساب الجمل قلت وهذا هو الذي ذكره السهيلي والغالب أن الاول هو
مستند السهيلي فيما نقلناه عنه قال جراس سأل هرمز افريد الحكيم عن مدة أردشير
وولده وملوك الساسانية فقال دليل ملكه المشتري وكان في شرفه فيعطى أطول السنين
وأجودها أربعمائة وسبعا وعشرين سنة ثم تزيد الزهرة وتكون في شرفها وهي دليل
العرب فيملكون لان طالع القران الميزان وصاحبه الزهرة وكانت عند القران في شرفها
فدل أنهم يملكون ألف سنة وستين سنة وسأل كسرى أنوشروان وزيره بزرجمهر الحكيم
عن خروج الملك من فارس الى العرب فأخبره أن القائم منهم يولد لخمس وأربعين من
دولته ويملك المشرق والمغرب والمشتري يفوض الى الزهرة وينتقل القران من الهوائية
الى العقرب وهو مائي وهو دليل العرب فهذه الادلة تقضي للملة بمدة دور الزهرة وهي
ألف وستون سنة وسأل كسرى ابرويز أليوس الحكيم عن ذلك فقال مثل قول بزرجمهر
وقال نوفيل الرومي المنجم في أيام بني أمية ان ملة الاسلام تبقى مدة القران الكبير
تسعمائة وستين سنة فاذا عاد القران الى برج العقرب كما كان في ابتداء الملة وتغير وضع
الكواكب عن هيئتها في قران الملة فحينئذ اما أن يفتر العمل به أو يتجدد من الاحكام
ما يوجب خلاف الظن قال جراس واتفقوا على أن خراب العالم يكون باستيلاء الماء
والنار حتى تهلك سائر المكونات وذلك عندما يقطع قلب الاسد أربعا وعشرين درجة
التي هي حد المريخ وذلك بعد مضي تسعمائة وستين سنة وذكر جراس أن ملك زابلستان
بعث الى المأمون بحكيمه ذوبان أتحفه به في هدية وأنه تصرف للمأمون في الاختيارات
بحروب أخيه وبعقد اللواء لطاهر وأن المأمون أعظم حكمته فسأله عن مدة ملكهم
فأخبره بانقطاع الملك من عقبه واتصاله في ولد أخيه وأن العجم يتغلبون على الخلافة
من الديلم في دولة سنة خمسين ويكون ما يريده الله ثم يسوء حالهم ثم تظهر الترك من
شمال المشرق فيملكونه الى الشام والفرات وسيحون وسيملكون بلاد الروم ويكون

ما يريد الله فقال له المأمون من أين لك هذا فقال من كتب الحكماء ومن أحكام صصه بن
داهر الهندي الذي وضع الشطرنج قلت والترك الذين أشار الى ظهورهم بعد الديلم هم
السلجوقية وقد انقضت دولتهم أول القرن السابع قال جراس وانتقال القران الى
المثلثة المائية من برج الحوت يكون سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ليزدجرد وبعدها
الى برج العقرب حيث كان قران الملة سنة ثلاث وخمسين قال والذي في الحوت هو
أول الانتقال والذي في العقرب يستخرج منه دلائل الملة قال وتحويل السنة
الاولى من القران الاول في المثلثات المائية في ثاني رجب سنة ثمان وستين وثمانمائة
ولم يستوف الكلام على ذلك * وأما مستند المنجمين في دولة على الخصوص فمن القران
الاوسط وهيئة الفلك عند وقوعه لان له دلالة عندهم على حدوث الدولة وجهاتها من
العمران والقائمين بها من الامم وعدد ملوكهم وأسمائهم وأعمارهم ونحلهم وأديانهم
وعوائدهم وحروبهم كما ذكر أبو معشر في كتابه في القرانات وقد توجد هذه الدلالة من
القران الاصغر اذا كان الاوسط دالا عليه فمن هذا يوجد الكلام في الدول * وقد كان
يعقوب بن اسحق الكندي منجم الرشيد والمأمون وضع في القرانات الكائنة في الملة
كتابا سماه الشيعة بالجفر باسم كتابهم المنسوب الى جعفر الصادق وذكر فيه فيما يقال
حدثان دولة بني العباس وأنها نهايته وأشار الى انقراضها والحادثة على بغداد أنها تقع
في انتصاف المائة السابعة وأن بانقراضها يكون انقراض الملة ولم نقف على شئ من خبر
هذا الكتاب ولا رأينا من وقف عليه ولعله غرق في كتبهم التي طرحها هلاكو ملك التتر
في دجلة عند استيلائهم على بغداد وقتل المستعصم آخر الخلفاء وقد وقع بالمغرب جزء
منسوب الى هذا الكتاب يسمونه الجفر الصغير والظاهر أنه وضع لبني عبد المؤمن لذكر
الاولين من ملوك الموحدين فيه على التفصيل ومطابقة من تقدم عن ذلك من حدثانه
وكذب ما بعده وكان في دولة بني العباس من بعد الكندي منجمون وكتب في الحدثان
وانظر ما نقله الطبري في أخبار المهدي عن أبي بديل من أصحاب صنائع الدولة قال بعث
الى الربيع والحسن في غزاتهما مع الرشيد أيام أبيه فجئتهما جوف الليل فاذا عندهما
كتاب من كتب الدولة يعني الحدثان واذا مدة المهدي فيه عشر سنين فقلت هذا الكتاب
لا يخفى على المهدي وقد مضى من دولته ما مضى فاذا وقف عليه كنتم قد نعيتم اليه نفسه
قالا فما الحيلة فاستدعيت عنبسة الوراق مولى آل بديل وقلت له انسخ هذه الورقة
واكتب مكان عشر أربعين ففعل فوالله لولا أني رأيت العشرة في تلك الورقة
والاربعين في هذه ما كنت أشك أنها هي ثم كتب الناس من بعد ذلك في حدثان الدول
منظوما ومنثورا ورجزا ما شاء الله أن يكتبوه وبأيدي الناس متفرقة كثير منها وتسمى

الملاحم وبعضها في حدثان الملة على العموم وبعضها في دولة على الخصوص وكلها منسوبة الى مشاهير من أهل الخليقة وليس منها أصل يعتمد على روايته عن واضعه المنسوب اليه فمن هذه الملاحم بالمغرب قصيدة ابن مرانة من بحر الطويل على روي الراء وهي متداولة بين الناس وتحسب العامة أنها من الحدثان العام فيطلقون الكثير منها على الحاضر والمستقبل والذي سمعناه من شيوخنا أنها مخصوصة بدولة لمتونة لان الرجل كان قبيل دولتهم وذكر فيها استيلاءهم على سبتة من يد موالي بني حمود وملكهم لعدوة الاندلس ومن الملاحم بيد أهل المغرب أيضا قصيدة تسمى التبعية أولها

طربت وماذا الذي مني طرب * وقد يطرب الطائر المغتصب
وما ذاك مني للهو أراه * ولكن لتذكار بعض السبب

قريبا من خمسمائة بيت أو ألف فيما يقال ذكر فيها كثيرا من دولة الموحدين وأشار فيها الى الفاطمي وغيره والظاهر أنها مصنوعة ومن الملاحم بالمغرب أيضا ملعبة من الشعر الزجلي منسوبة لبعض اليهود ذكر فيها أحكام القرانات لعصره العلويين والنحسين وغيرهما وذكر ميتته قتيلا بفاس وكان كذلك فيما زعموه وأوله

في صبغ ذا الازرق لشرفه خيارا * فافهموا يا قوم هذي الاشارا
نجم زحل أخبر بذي العلاما * وبدل الاشكال وهي سلاما
شاشية زرقا بدل العماما * وشاش أزرق بدل الغرارا

يقول في آخره

قد تم ذا التجنيس لانسان يهودي * يصلب ببلدة فاس في يوم عيد
حتى يجيه الناس من البوادي * وقتله يا قوم على الافراد

وأبياته نحو الخمسمائة وهي في القرانات التي دلت على دولة الموحدين ومن ملاحم المغرب أيضا قصيدة من عروض المتقارب على روي الباء في حدثان دولة بني أبي حفص بتونس من الموحدين منسوبة لابن الابار وقال لي قاضي قسنطينة الخطيب الكبير أبو علي بن باديس وكان بصيرا بما يقوله وله قدم في التنجيم فقال لي ان هذا ابن الابار ليس هو الحافظ الاندلسي الكاتب مقتول المستنصر وانما هو رجل خياط من أهل تونس تواطأت شهرته مع شهرة الحافظ وكان والدي رحمه الله تعالى ينشد هذه الابيات من هذه الملحمة وبقي بعضها في حفظي مطلعها

عذيري من زمن قلب * يغر ببارقه الاشنب

ومنها

وبعث من جيشه قائدا * ويبقى هنالك على مرقب
فتأتي الى الشيخ أخباره * فيقبل كالجمل الاجرب
ويظهر من عدله سيرة * وتلك سياسة مستجلب

ومنها في ذكر أحوال تونس على العموم

فاما رأيت الرسوم انمحت * ولم يرع حق لذي منصب
فخذني الترحل عن تونس * وودع معالمها واذهب
فسوف تكون بها فتنة * تضيف البرىء الى المذنب

ووقفت بالمغرب على ملحمة أخرى في دولة بني أبي حفص هؤلاء بتونس فيها بعد السلطان أبي يحيى الشهير عاشر ملوكهم ذكر محمد أخيه من بعده يقول فيها

وبعد أبي عبد الاله شقيقه * ويعرف بالوثاب في نسخة الاصل

الا أن هذا الرجل لم يملكها بعد أخيه وكان يمني بذلك نفسه الى أن هلك ومن الملاحم في المغرب أيضا الملعبة المنسوبة الى الهوثي على لغة العامة في عروض البلد التي أولها

دعني بدمعي الهتان * فترت الامطار ولم تفتر
وامتلت كلها الوديان * وأبى تملي وتنغدر
البلاد كلها تروى * فاولى ماميل ماتدري
مابين الصيف والشتوي * والعام والربيع تجري
قال حين صحت الدعوى * دعني نبكي ومن عذر
انادي من ذي الازمان * ذا القرن اشتد وتمرى

وهي طويلة ومحفوظة بين عامة المغرب الاقصى والغالب عليها الوضع لانه لم يصح منها قول الاعلى تأويل تحرفه العامة أو العارف فيه من ينتحلها من الخاصة ووقفت بالمشرق على ملحمة منسوبة لابن العربي الحاتمي في كلام طويل شبه الغاز لا يعلم تأويله الا الله لتخلله أوفاق عددية ورموز ملغوزة وأشكال حيوانات تامة ورؤس مقطعة وتماثيل من حيوانات غريبة وفي آخرها قصيدة على روي اللام والغالب أنها كلها غير صحيحة لانها لم تنشأ عن أصل علمي من نجامة ولا غيرها وسمعت أيضا أن هنالك ملاحم أخرى منسوبة لابن سينا وابن عقب وليس في شيء منها دليل على الصحة لان ذلك انما يؤخذ من القرانات ووقفت بالمشرق أيضا على ملحمة من حدثان دولة الترك منسوبة الى رجل من الصوفية يسمى الباجربقي وكلها ألغاز بالحروف أولها

ان شئت تكشف سر الجفر يا سائلي * من علم جفر وصي والد الحسن
فافهم وكن واعيا حرفا وجملته * والوصف فافهم كفعل الحاذق الفطن

أمّا الذى قبل عصرى لست أذكره * لكننى أذكر الآتى من الزمن
بشهر بيبرس يبقى بجاء بعد خمستها * وجاء ميم بطيش نام فى الكفن
شين له أثر من تحت سترته * له القضاء قضى أى ذلك المنن
فمصر والشأم مع أرض العراق له * وأذربيجان فى ملك الى اليمن

ومنها

وآل بوران لما نال طاهرهم * الفاتك الباتك المعنىّ بالسمن
نخلع سين ضعيف السن سين أتى * لالو فاق ونون ذى قرن
قرم شجاع له عقل ومشورة * يبقى بجاء واين بعد ذو سمن

ومنها

من بعد باء من الاعوام قبلته * يلى المشورة ميم الملك ذو اللسن

ومنها

هذا هو الاعرج الكلبى فاعن به * فى عصره فتن ناهيك من فتن
يأتى من الشرق فى جيش يقدمهم * عار عن القاف قاف جد بالفتن
بقتل دال ومثل الشأم أجمعها * أبدت بشجو على الاهلين والوطن
اذا أتى زلزلت ياويح مصر من الزلزال مازال حاء غيره قطن
طاء وظاء وعين كلهم حبسوا * هلكا و ينفق أموالا بلا ثمن
يسير القاف قافا عند جمعهم * هون به ان ذلك الحصن فى سكن
و ينصبون أخاه وهو صالحهم * لاسلم الالف سين لذلك بنى
تمت ولايتهم بالجاه لا أحد * من السنين بدانى الملك فى الزمن

يقال انه أشار الى الملك الظاهر وقدوم أبيه عليه بمصر

يأتى اليه أبوه بعد هجرته * وطول غيبته والشظف والزرن

وأبياتها كثيرة والغالب أنها موضوعة ومثل صنعتها كان فى القديم كثيرا ومعروف الانتحال (حكى) المؤرخون لاخبار بغداد أنه كان بها أيام مقتدر ورّاق ذكى يعرف بالدانيالى يبل الاوراق ويكتب فيها بخط عتيق يرمز فيه بحروف من أسماء أهل الدولة ويشير بها الى مايعرف ميلهم اليه من أحوال الرفعة والجاه كأنها ملاحم ويحصل على ماير يده منهم من الدنيا وأنه وضع فى بعض دفاتره ميم مكررة ثلاث مرات وجاء به الى مفلح مولى المقتدر فقال له هذا كناية عنك وهو مفلح مولى المقتدر وذكر عنه ما يرضاه و يناله من الدولة ونصب لذلك علامات يموه بها عليه فبذل له ما أغناه به ثم وضعه للوزير ابن القاسم بن وهب على مفلح هذا وكان معزولا فجاءه بأوراق مثلها وذكر اسم الوزير

بمثل هذه الحروف و بعلامات ذكرها وأنه يلى الوزارة للثانى عشر من الخلفاء وتستقيم الامور على يديه و يقهر الاعداء وتعمر الدنيا فى أيامه وأوقف مفلحا هذا على الاوراق وذكر فيها كوائن أخرى وملاحم من هذا النوع مما وقع ومما لم يقع ونسب جميعه الى دانيال فأعجب به مفلح ووقف عليه المقتدر واهتدى من تلك الامور والعلامات الى ابن وهب وكان ذلك سببا لوزارته بمثل هذه الحيلة العريقة فى الكذب والجهل بمثل هذه الالغاز والظاهر ان هذه الملحمة التى ينسبونها الى الباجريقى من هذا النوع * ولقد سألت أكمل الدين ابن شيخ الحنفية من العجم بالديار المصرية عن هذه الملحمة وعن هذا الرجل الذى تنسب اليه من الصوفية وهو الباجريقى وكان عارفا بطرائقهم فقال كان من القلندرية المبتدعة فى حلق اللحية وكان يتحدث عما يكون بطريق الكشف و يومى الى رجال معينين عنده ويلغز عليهم بحروف يعينها فى ضمنها لمن يراه منهم وربما يظهر نظم ذلك فى أبيات قليلة كان يتعاهدها فتنوقلت عنه وولع الناس بها وجعلوها ملحمة مرموزة وزاد فيها الخراصون من ذلك الجنس فى كل عصر وشغل العامة بفك رموزها وهو أمر ممتنع اذ الرمز انما يهدى الى كشفه قانون يعرف قبله ويوضع له وأما مثل هذه الحروف فدلالتها على المراد منها مخصوصة بهذا النظم لا يتجاوزه فرأيت من كلام هذا الرجل الفاضل شفاء لما كان فى النفس من أمر هذه الملحمة وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

(الفصل الرابع من الكتاب الاول)

فى البلدان

والامصار وسائر العمران وما يعرض فى ذلك من الاحوال وفيه سوابق ولواحق

(فصل) فى أن الدول أقدم من المدن والامصار وأنها انما توجد ثانية عن الملك * وبيانه أن البناء واختطاط المنازل انما هو من منازع الحضارة التى يدعو اليها الترف والدعة كما قدمناه وذلك متأخر عن البداوة ومنازعها وأيضا فالمدن والامصار ذات هياكل وأجرام عظيمة وبناء كبير وهى موضوعة للعموم لا للخصوص فتحتاج الى اجتماع الايدى وكثرة التعاون وليست من الامور الضرورية للناس التى تعم بها البلوى حتى يكون نزوعهم اليها اضطرارا بل لابد من اكراههم على ذلك وسوقهم اليه مضطهدين بعصا الملك أو مرغبين فى الثواب والاجر الذى لا يفى بكثرته الا الملك والدولة فلا بد فى تمصير الامصار واختطاط المدن من الدولة والملك ثم اذا بنيت المدينة وكمل تشييدها بحسب نظر من شيدها وبما اقتضته الاحوال السماوية والارضية فيها فعمر الدولة حينئذ عمر لها فان كان عمر الدولة قصيرا وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة

وتراجع عمرانها وخربت وان كان أمد الدولة طويلا ومدتها منفسحة فلا تزال المصانع فيها تشاد والمنازل الرحيبة تكثر وتتعدد ونطاق الاسواق يتباعد وينفسح الى أن تتسع الخطة وتبعد المسافة وينفسح ذرع المساحة كما وقع ببغداد وأمثالها * ذكر الخطيب فى تاريخه أن الحمامات بلغ عددها ببغداد لعهد المأمون خمسة وستين ألف حمام وكانت مشتملة على مدن وأمصار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الاربعين ولم تكن مدينة وحدها يجمعها سور واحد لافراط العمران وكذا حال القيروان وقرطبة والمهدية فى الملة الاسلامية وحال مصر القاهرة بعدها فيما يبلغنا لهذا العهد وأما بعد انقراض الدولة المشيدة للمدينة فاما أن يكون لضواحى تلك المدينة وما قاربها من الجبال والبسائط بادية يمدها العمران دائما فيكون ذلك حافظا لوجودها ويستمر عمرها بعد الدولة كما تراه بفاس وبجاية من المغرب وبعراق العجم من المشرق الموجود لها العمران من الجبال لان أهل البداوة اذا انتهت أحوالهم الى غاياتها من الرفه والكسب تدعو الى الدعة والسكون الذى فى طبيعة البشر فينزلون المدن والامصار ويتأهلون وأما اذا لم يكن لتلك المدينة المؤسسة مادة تفيدها العمران بترادف الساكن من بدوها فيكون انقراض الدولة خرقا لسياجها فيزول حفظها ويتناقص عمرانها شيأ فشيأ الى أن يبذعر ساكنها وتخرب كما وقع بمصر وبغداد والكوفة بالمشرق والقيروان والمهدية وقلعة بنى حماد بالمغرب وأمثالها فتفهمه وربما ينزل المدينة بعد انقراض مختطيها الاولين ملك آخر ودولة ثانية يتخذها قرارا وكرسيا يستغنى بها عن اختطاط مدينة ينزلها فتحفظ تلك الدولة سياجها وتتزايد مبانيها ومصانعها بتزايد أحوال الدولة الثانية وترفها وتستجد بعمرانها عمرا آخر كما وقع بفاس والقاهرة لهذا العهد والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٢ (فصل في ان الملك يدعو الى نزول الامصار)

وذلك أن القبائل والعصائب اذا حصل لهم الملك اضطروا للاستيلاء على الامصار لامرين أحدهما مايدعوا اليه الملك من الدعة والراحة وحط الاثقال واستكمال ما كان ناقصا من امور العمران فى البدو والثانى دفع مايتوقع على الملك من أمر المنازعين والمشاغبين لان المصر الذى يكون فى نواحيهم ربما يكون ملجأ لمن يروم منازعتهم والخروج عليهم وانتزاع ذلك الملك الذى سموا اليه من أيديهم فيعتصم بذلك المصر ويغالبهم ومغالبة المصر على نهاية من الصعوبة والمشقة والمصر يقوم مقام العساكر المتعددة لما فيه من الامتناع ونكاية الحرب من وراء الجدران من غير حاجة

الى كثير عدد ولا عظيم شوكة لان الشوكة والعصابة انما احتيج اليها في الحرب للثبات لما يقع من بعد كرة القوم بعضهم على بعض عند الجولة وثبات هؤلاء بالجدران فلا يضطرون الى كبير عصابة ولا عدد فيكون حال هذا الحصن ومن يعتصم به من المنازعين مما يفت في عضد الامة التي تروم الاستيلاء ويخضد شوكة استيلائها فاذا كانت بين أجنابهم أمصارا انتظموها في استيلائهم للامن من مثل هذا الانخرام وان لم يكن هنالك مصر استحدثوه ضرورة لتكميل عمرانهم أولا وحط أثقالهم وليكون شجا في حلق من يروم العزة والامتناع عليهم من طوائفهم وعصائبهم فتعين أن الملك يدعو الى نزول الامصار والاستيلاء عليها والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لارب سواه

٣ (فصل في ان المدن العظيمة والهياكل المرتفعة انما يشيدها الملك الكثير)

قد قدمنا ذلك في آثار الدولة من المباني وغيرها وأنها تكون على نسبتها وذلك أن تشييد المدن انما يحصل باجتماع الفعلة وكثرتهم وتعاونهم فاذا كانت الدولة عظيمة متسعة الممالك حشر الفعلة من أقطارها وجمعت أيديهم على عملها وربما استعين في ذلك في أكثر الامر بالهندام الذي يضاعف القوى والقدر في حمل أثقال البناء لعجز القوة البشرية وضعفها عن ذلك كالمخال وغيره وربما يتوهم كثير من الناس اذا نظر الى آثار الاقدمين ومصانعهم العظيمة مثل ايوان كسرى وأهرام مصر وحنايا المعلقة وشرشال بالمغرب انما كانت بقدرهم متفرقين أو مجتمعين فيتخيل لهم اجساما تناسب ذلك أعظم من هذه بكثير في طولها وقدرها لتناسب بينها وبين القدر التي صدرت تلك المباني عنها ويغفل عن شأن الهندام والمخال وما اقتضته في ذلك الصناعة الهندسية وكثير من المتغلبين في البلاد يعاين في شأن البناء واستعمال الحيل في نقل الاجرام عند أهل الدولة المعتنين بذلك من العجم ما يشهد له بما قلناه عيانا وأكثر آثار الاقدمين لهذا العهد تسميها العامة عادية نسبة الى قوم عاد لتوهمهم أن مباني عاد ومصانعهم انما عظمت لعظم أجسامهم وتضاعف قدرهم وليس كذلك فقد نجد آثارا كثيرة من آثار الذين تعرف مقادير أجسامهم من الامم وهي في مثل ذلك العظم أو أعظم كايوان كسرى ومباني العبيديين من الشيعة بافريقية والصنهاجيين وأثرهم باد الى اليوم في صومعة قلعة بني حماد وكذلك بناء الاغالبة في جامع القيروان وبناء الموحدين في رباط الفتح ورباط السلطان ابي سعيد لعهد أربعين سنة في المنصورة بازاء تلمسان وكذلك الحنايا التي جلب اليها أهل قرطاجنة الماء في القناة الراكبة عليها ماثلة أيضا لهذا

العهد وغير ذلك من المباني والهياكل التي نقلت الينا أخبارا أهلها قريبا وبعيدا ويقينا أنهم لم يكونوا بإفراط في مقادير أجسامهم وإنما هذا رأي ولع به القصاص عن قوم عاد وثمود والعمالقة ونجد بيوت ثمود في الحجر منحوتة الى هذا العهد وقد ثبت في الحديث الصحيح أنها بيوتهم يمر بها الركب الحجازي أكثر السنين ويشاهدونها لا تزيد في جوها ومساحتها وسمكها على المتعاهد وإنهم ليبالغون فيما يعتقدون من ذلك حتى إنهم ليزعمون أن عوج بن عناق من جيل العمالقة كان يتناول السمك من البحر طريا فيشويه في الشمس يزعمون بذلك أن الشمس حارة فيما قرب منها ولا يعلمون أن الحر فيما لدينا هو الضوء لانعكاس الشعاع بمقابلة سطح الارض والهواء وأما الشمس في نفسها فغير حارة ولا باردة وإنما هي كوكب مضيء لا مزاج له وقد تقدم شيء من هذا في الفصل الثاني حيث ذكرنا أن آثار الدولة على نسبة قوتها في أصلها والله يخلق ما يشاء ويحكم ما يريد

٤ (فصل في ان الهياكل العظيمة جدا لا تستقل ببنائها الدولة الواحدة)

والسبب في ذلك ما ذكرناه من حاجة البناء الى التعاون ومضاعفة القدر البشرية وقد تكون المباني في عظمها أكثر من القدر مفردة أو مضاعفة بالهندام كما قلناه فيحتاج الى معاودة قدر أخرى مثلها في أزمنة متعاقبة الى أن تتم فيبتدئ الاول منهم بالبناء ويعقبه الثاني والثالث وكل واحد منهم قد استكمل شأنه في حشر الفعلة وجمع الايدي حتى يتم القصد من ذلك ويكمل ويكون ماثلا للعيان يظنه من يراه من الآخرين أنه بناء دولة واحدة وانظر في ذلك ما نقله المؤرخون في بناء سد مأرب وأن الذي بناه سبأ بن يشجب وساق اليه سبعين واديا وعاقه الموت عن إتمامه فأتمه ملوك حمير من بعده ومثل هذا ما نقل في بناء قرطاجنة وقناتها الراكبة على الحنايا العادية وأكثر المباني العظيمة في الغالب هذا شأنها ويشهد لذلك أن المباني العظيمة لعهدنا نجد الملك الواحد يشرع في اختطاطها وتأسيسها فاذا لم يتبع أثره من بعده من الملوك في إتمامها بقيت بحالها ولم يكمل القصد فيها ويشهد لذلك أيضا أنا نجد آثارا كثيرة من المباني العظيمة تعجز الدول عن هدمها وتخريبها مع أن الهدم أيسر من البناء بكثير لان الهدم رجوع الى الاصل الذي هو العدم والبناء على خلاف الاصل فاذا وجدنا بناء تضعف قوتنا البشرية عن هدمه مع سهولة الهدم علمنا أن القدرة التي أسسته مفرطة القوة وأنها ليست أثر دولة واحدة وهذا مثل ما وقع للعرب في إيوان كسرى لما اعتزم الرشيد على هدمه وبعث الى يحيى بن خالد وهو في محبسه يستشيره في ذلك فقال يا أمير المؤمنين لا تفعل واتركه ماثلا يستدل به على عظم ملك آبائك الذين سلبوا الملك لاهل ذلك الهيكل

فاتهمه في النصيحة وقال أخذته النعرة للعجم والله لأصرعنه وشرع في هدمه وجمع الأيدي عليه واتخذ له الفؤوس وحماه بالنار وصب عليه الخل حتى إذا أدركه العجز بعد ذلك كله وخاف الفضيحة بعث الى يحيى يستشيره ثانيا في التجافي عن الهدم فقال يا أمير المؤمنين لا تفعل واستمر على ذلك لئلا يقال عجز أمير المؤمنين وملك العرب عن هدم مصنع من مصانع العجم فعرفها الرشيد وأقصر عن هدمه وكذلك اتفق للمأمون في هدم الأهرام التي بمصر وجمع الفعلة لهدمها فلم يحل بطائل وشرعوا في نقبه فانتهوا الى جو بين الحائط الظاهر وما بعده من الحيطان وهنالك كان منتهى هدمهم وهو الى اليوم فيما يقال منفذ ظاهر ويزعم الزاعمون أنه وجد ركازا بين تلك الحيطان والله أعلم وكذلك حنايا المعلقة الى هذا العهد تحتاج أهل مدينة تونس الى انتخاب الحجارة لبنائهم وتستجيد الصناع حجارة تلك الحنايا فيحاولون على هدمها الأيام العديدة ولا يسقط الصغير من جدرانها الا بعد عصب الريق وتجتمع له المحافل المشهورة شهدت منها في أيام صباي كثيرا والله خلقكم وما تعملون

٥ (فصل فيما يجب مراعاته في اوضاع المدن وما يحدث اذا غفل عن تلك المراعاة)

(اعلم) أن المدن قرار يتخذه الامم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه فتؤثر الدعة والسكون وتتوجه الى اتخاذ المنازل للقرار ولما كان ذلك للقرار والمأوى وجب أن يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها فأما الحماية من المضار فيراعى لها ان يدار على منازلها جميعا سياج الأسوار وأن يكون وضع ذلك في متمنع من الامكنة اما على هضبة متوعرة من الجبل واما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل اليها الا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها ومما يراعى في ذلك للحماية من الآفات السماوية طيب الهواء للسلامة من الامراض فان الهواء اذا كان راكدا خبيثا أو مجاورا للمياه الفاسدة أو مناقع متعفنة أو مروج خبيثة أسرع اليها العفن من مجاورتها فأسرع المرض للحيوان الكائن فيه لا محالة وهذا مشاهد والمدن التي لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الامراض في الغالب وقد اشتهر بذلك في قطر المغرب بلد قابس من بلاد الجريد بافريقية فلا يكاد ساكنها أو طارقها يخلص من حمى العفن بوجه ولقد يقال ان ذلك حادث فيها ولم تكن كذلك من قبل ونقل البكري في سبب حدوثه أنه وقع فيها حفر ظهر فيه اناء من نحاس مختوم بالرصاص فلما فض ختامه صعد منه دخان الى الجو وانقطع وكان ذلك مبدأ أمراض الحميات فيه وأراد بذلك أن الاناء كان مشتملا

على بعض أعمال الطلسمات لوبائه وأنه ذهب سره بذهابه فرجع اليها العفن والوباء
وهذه الحكاية من مذاهب العامة ومباحثهم الركيكة والبكري لم يكن من نباهة العلم
واستنارة البصيرة بحيث يدفع مثل هذا أو يتبين خرفه فنقله كما سمعه والذي يكشف لك
الحق في ذلك أن هذه الاهوية العفنة أكثر ما يهيئها لتعفين الاجسام وأمراض
الحميات ركودها فاذا تخللتها الريح وتفشت وذهبت بها يمينا وشمالا خف شأن العفن
والمرض البادي منها للحيوانات والبلد اذا كان كثير الساكن وكثرت حركات أهله
فيتموج الهواء ضرورة وتحدث الريح المتخللة للهواء الراكد ويكون ذلك معينا له على
الحركة والتموج واذا خف الساكن لم يجد الهواء معينا على حركته وتموجه وبقي
ساكنا راكدا وعظم عفنه وكثر ضرره وبلد قابس هذه كانت عندما كانت افريقية
مستبحرة العمران كثيرة الساكن تموج بأهلها موجا فكان ذلك معينا على تموج
الهواء واضطرابه وتخفيف الاذى منه فلم يكن فيها كثير عفن ولا مرض وعندما خف
ساكنها ركد هواؤها المتعفن بفساد مياهها فكثر العفن والمرض فهذا وجهه لا غير
وقد رأينا عكس ذلك في بلاد وضعت ولم يراع فيها طيب الهواء وكانت أولا قليلة
الساكن فكانت أمراضها كثيرة فلما كثر ساكنها انتقل حالها عن ذلك وهذا مثل
دار الملك بفاس لهذا العهد المسمى بالبلد الجديد وكثير من ذلك في العالم فتفهمه تجد
ما قلته لك وأما جلب المنافع والمرافق للبلد فيراعى فيه امور منها الماء بأن يكون البلد
على نهر أو بازائها عيون عذبة ثرة فان وجود الماء قريبا من البلد يسهل على الساكن
حاجة الماء وهي ضرورية فيكون لهم في وجوده مرفقة عظيمة عامة ومما يراعى من
المرافق في المدن طيب المراعي لسائمتهم اذ صاحب كل قرار لا بد له من دواجن الحيوان
للنتاج والضرع والركوب ولا بد لها من المرعى فاذا كان قريبا طيبا كان ذلك أرفق
بحالهم لما يعانون من المشقة في بعده ومما يراعى أيضا المزارع فان الزروع هي الاقوات
فاذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك أسهل في اتخاذه وأقرب في تحصيله
ومن ذلك الشجر للحطب والبناء فان الحطب مما تعم البلوى في اتخاذه لوقود النيران
للاصطلاء والطبخ والخشب أيضا ضروري لسقفهم وكثير مما يستعمل فيه الخشب
من ضرورياتهم وقد يراعى أيضا قربها من البحر لتسهيل الحاجات القاصية من البلاد
النائية الا أن ذلك ليس بمثابة الاول وهذه كلها متفاوتة تتفاوت الحاجات وما تدعو
اليه ضرورة الساكن وقد يكون الواضع غافلا عن حسن الاختيار الطبيعي أو انما
يراعي ما هو أهم على نفسه وقومه ولا يذكر حاجة غيرهم كما فعله العرب لاول الاسلام في
المدن التي اختطوها بالعراق وافريقية فانهم لم يراعوا فيها الا الاهم عندهم من مراعي

الأبل وما يصلح لها من الشجر والماء الملح ولم يراعوا الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا مراعى السائمة من ذوات الظلف ولا غير ذلك كالقيروان والكوفة والبصرة وأمثالها ولهذا كانت أقرب الى الخراب لما لم تراع فيها الامور الطبيعية

(فصل) ومما يراعى في البلاد الساحلية التي على البحر أن تكون في جبل أو تكون بين امة من الامم موفورة العدد تكون صريخا للمدينة متى طرقها طارق من العدو والسبب في ذلك أن المدينة اذا كانت حاضرة البحر ولم يكن بساحتها عمران للقبائل أهل العصبيات ولا موضعها متوعر من الجبل كانت في غرة للبيات وسهل طروقها في الاساطيل البحرية على عدوها وتحيفه لها لما يأمن من وجود الصريخ لها وان الحضر المتعودين للدعة قد صاروا عيالا وخرجوا عن حكم المقاتلة وهذه كالاسكندرية من المشرق وطرابلس من المغرب وبونة وسلا ومتى كانت القبائل والعصائب موطنين بقربها بحيث يبلغهم الصريخ والنعير وكانت متوعرة المسالك على من يرومها باختطاطها في هضاب الجبال وعلى أسنمتها كان لها بذلك منعة من العدو ويئسوا من طروقها لما يكابدونه من وعرها وما يتوقعونه من اجابة صريخها كما في سبتة وبجاية وبلد القل على صغرها فافهم ذلك واعتبره في اختصاص الاسكندرية باسم الثغر من لدن الدولة العباسية مع أن الدعوة من ورائها ببرقة وافريقية وانما اعتبر في ذلك المخافة المتوقعة فيها من البحر لسهولة وضعها ولذلك والله أعلم كان طروق العدو للاسكندرية وطرابلس في الملة مرات متعددة والله تعالى أعلم

(فصل في المساجد والبيوت العظيمة في العالم)

(اعلم) أن الله سبحانه وتعالى فضل من الارض بقاعا اختصها بتشريفه وجعلها مواطن لعبادته يضاعف فيها الثواب وينمو بها الاجور وأخبرنا بذلك على ألسن رسله وأنبيائه لطفا بعباده وتسهيلا لطرق السعادة لهم * وكانت المساجد الثلاثة هي أفضل بقاع الارض حسبما ثبت في الصحيحين وهي مكة والمدينة وبيت المقدس أما البيت الحرام الذي بمكة فهو بيت ابراهيم صلوات الله وسلامه عليه أمره الله ببنائه وأن يؤذن في الناس بالحج اليه فبناه هو وابنه اسمعيل كما نصه القرآن وقام بما أمره الله فيه وسكن اسمعيل به مع هاجر ومن نزل معهم من جرهم الى أن قبضهما الله ودفنا بالحجر منه * وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما السلام أمرهما الله ببناء مسجده ونصب هياكله ودفن كثير من الانبياء من ولد اسحق عليه السلام حواليه * والمدينة مهاجر نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه أمره الله تعالى بالهجرة اليها واقامة دين

الاسلام بها فبنى مسجده الحرام بها وكان ملحده الشريف فى تربتها فهذه المساجد الثلاثة قرة عين المسلمين ومهوى أفئدتهم وعظمة دينهم وفى الآثار من فضلها ومضاعفة الثواب فى مجاورتها والصلاة فيها كثير معروف فلنشر الى شئ من الخبر عن أولية هذه المساجد الثلاثة وكيف تدرجت أحوالها الى أن كمل ظهورها فى العالم *

(فأما مكة) * فأوليتها فيما يقال ان آدم صلوات الله عليه بناها قبالة البيت المعمور ثم هدمها الطوفان بعد ذلك وليس فيه خبر صحيح يعول عليه وانما اقتبسوه من محل الآية فى قوله واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ثم بعث الله ابراهيم وكان من شأنه وشأن زوجته سارة وغيرتها من هاجر ما هو معروف وأوحى الله اليه أن يترك ابنه اسمعيل وأمه هاجر بالفلاة فوضعهما فى مكان البيت وسار عنهما وكيف جعل الله لهما من اللطف فى نبع ماء زمزم ومرور الرفقة من جرهم بهما حتى احتملوهما وسكنوا اليهما ونزلوا معهما حوالى زمزم كما عرف فى موضعه فاتخذ اسمعيل بموضع الكعبة بيتا يأوى اليه وأدار عليه سياجا من الردم وجعله زربا لغنمه وجاء ابراهيم صلوات الله عليه مرارا لزيارته من الشام أمر فى آخرها ببناء الكعبة مكان ذلك الزرب فبناه واستعان فيه بابنه اسمعيل ودعا الناس الى حجه وبقى اسمعيل ساكنا به ولما قبضت أمه هاجر وقام بنوه من بعده بأمر البيت مع أخوالهم من جرهم ثم العماليق من بعدهم واستمر الحال على ذلك والناس يهرعون اليها من كل أفق من جميع أهل الخليقة لا من بنى اسمعيل ولا من غيرهم ممن دنا ونأى فقد نقل أن التبابعة كانت تحج البيت وتعظمه وأن تبعا كساها الملاء والوصائل وأمر بتطهيرها وجعل لها مفتاحا ونقل أيضا أن الفرس كانت تحجه وتقرب اليه وأن غزالى الذهب اللذين وجدهما عبد المطلب حين احتفر زمزم كانا من قرابينهم ولم يزل لجرهم الولاية عليه من بعد ولد اسمعيل من قبل خؤلتهم حتى اذا خرجت خزاعة وأقاموا بها بعدهم ما شاء الله ثم كثر ولد اسمعيل وانتشروا وتشعبوا الى كنانة ثم كنانة الى قريش وغيرهم وساءت ولاية خزاعة فغلبتهم قريش على أمره وأخرجوهم من البيت وملكوا عليهم يومئذ قصى بن كلاب فبنى البيت وسقفه بخشب الدوم وجريد النخل وقال الاعشى

خلفت بثوبى راهب الدور والتى * بناها قصى والمضاض بن جرهم

ثم أصاب البيت سيل ويقال حريق وتهدم وأعادوا بناءه وجمعوا النفقة لذلك من أموالهم وانكسرت سفينة بساحل جدة فاشتروا خشبها للسقف وكانت جدرانه فوق القامة فجعلوها ثمانية عشر ذراعا وكان الباب لاصقا بالارض فجعلوه فوق القامة لئلا تدخله السيول وقصرت بهم النفقة عن اتمامه فقصروا عن قواعده وتركوا منه ستة

أذرع وشبرا أداروها بجدار قصير يطاف من ورائه وهو الحجر وبقي البيت على هذا البناء الى أن تحصن ابن الزبير بمكة حين دعا لنفسه وزحفت اليه جيوش يزيد بن معاوية مع الحصين بن نمير السكوني ورمى البيت سنة أربع وستين فأصابه حريق يقال من النفط الذي رموا به على ابن الزبير فأعاد بناءه أحسن ما كان بعد أن اختلفت عليه الصحابة في بنائه واحتج عليهم بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها لولا قومك حديثو عهد بكفر لرددت البيت على قواعد ابراهيم ولجعلت له بابين شرقيا وغربيا فهدمه وكشف عن أساس ابراهيم عليه السلام وجمع الوجوه والأكابر حتى عاينوه وأشار عليه ابن عباس بالتحري في حفظ القبلة على الناس فأدار على الاساس الخشب ونصب من فوقها الاستار حفظا للقبلة وبعث الى صنعاء في الفضة والكلس فحملها وسأل عن مقطع الحجارة الاول فجمع منها ما احتاج اليه ثم شرع في البناء على اساس ابراهيم عليه السلام ورفع جدرانها سبعا وعشرين ذراعا وجعل لها بابين لاصقين بالارض كما روى في حديثه وجعل فرشها وازرها بالرخام وصاغ لها المفاتيح وصفائح الابواب من الذهب * ثم جاء الحجاج لحصاره أيام عبد الملك ورمى على المسجد بالمنجنيقات الى أن تصدعت حيطانها ثم لما ظفر بابن الزبير شاور عبد الملك فيما بناه وزاده في البيت فأمره بهدمه ورد البيت على قواعد قريش كما هي اليوم ويقال انه ندم على ذلك حين علم صحة رواية ابن الزبير لحديث عائشة وقال وددت اني كنت حملت أبا خبيب في أمر البيت وبنائه ما تحمل فهدم الحجاج منها ستة أذرع وشبرا مكان الحجر وبناها على أساس قريش وسد الباب الغربي وما تحت عتبة بابها اليوم من الباب الشرقي وترك سائرها لم يغير منه شيأ فكل البناء الذي فيه اليوم بناء ابن الزبير وبناء الحجاج في الحائط صلة ظاهرة للعيان لحمة ظاهرة بين البناءين والبناء متميز عن البناء بمقدار اصبع شبه الصدع وقد لحم * ويعرض ههنا اشكال قوي لمنافاته لما يقوله الفقهاء في أمر الطواف ويحذر الطائف أن يميل على الشاذروان الدائر على أساس الجدر من أسفلها فيقع طوافه داخل البيت بناء على ان الجدر انما قامت على بعض الاساس وترك بعضه وهو مكان الشاذروان وكذا قالوا في تقبيل الحجر الاسود لا بد من رجوع الطائف من التقبيل حتى يستوي قائما لئلا يقع بعض طوافه داخل البيت واذا كان الجدران كلها من بناء ابن الزبير وهو انما بنى على أساس ابراهيم فكيف يقع هذا الذي قالوه ولا مخلص من هذا الا بأحد أمرين اما أن يكون الحجاج هدم جميعه وأعاده وقد نقل ذلك جماعة الا أن العيان في شواهد البناء بالتحام ما بين البناءين وتمييز أحد الشقين من أعلاه عن الآخر في الصناعة يرد ذلك واما أن يكون

ابن الزبير لم يرد البيت على أساس ابراهيم من جميع جهاته وانما فعل ذلك في الحجر فقط ليدخله فهي الآن مع كونها من بناء ابن الزبير ليست على قواعد ابراهيم وهذا بعيد ولا محيص من هذين والله تعالى أعلم ثم ان ساحة البيت وهو المسجد كان فضاء للطائفين ولم يكن عليه جدر أيام النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر من بعده ثم كثر الناس فاشترى عمر رضي الله عنه دورا هدمها وزادها في المسجد وأدار عليها جدارا دون القامة وفعل مثل ذلك عثمان ثم ابن الزبير ثم الوليد بن عبد الملك وبناه بعمد الرخام ثم زاد فيه المنصور وابنه المهدي من بعده ووقفت الزيادة واستقرت على ذلك لعهدنا * وتشريف الله لهذا البيت وعنايته به أكثر من أن يحاط به وكفى من ذلك أن جعله مهبط الوحي والملائكة ومكانا للعبادة وفرض شعائر الحج ومناسكه وأوجب لحرمه من سائر نواحيه من حقوق التعظيم والحق مالم يوجبه لغيره فمنع كل من خالف دين الاسلام من دخول ذلك الحرم وأوجب على داخله أن يتجرد من المخيط الا ازارا يستره وحمى العائذ به والراتع في مسارحه من مواقع الآفات فلا يرام فيه خائف ولا يصاد له وحش ولا يحتطب له شجر وحد الحرم الذي يختص بهذه الحرمة من طريق المدينة ثلاثة أميال الى التنعيم ومن طريق العراق سبعة أميال الى الثنية من جبل المنقطع ومن طريق الطائف سبعة أميال الى بطن نمرة ومن طريق جدة سبعة أميال الى منقطع العشائر * هذا شأن مكة وخبرها وتسمى أم القرى وتسمى الكعبة لعلوها من اسم الكعب ويقال لها أيضا بكة قال الاصمعي لان الناس يبك بعضهم بعضا اليها أي يدفع وقال مجاهد باء بكة أبدلوها ميما كما قالوا لازب ولازم لقرب المخرجين وقال النخعي بالباء البيت وبالميم البلد وقال الزهري بالباء المسجد كله وبالميم للحرم وقد كانت الامم منذ عهد الجاهلية تعظمه والملوك تبعث اليه بالاموال والذخائر ككسرى وغيره وقصة الاسياف وغزالي الذهب اللذين وجدهما عبد المطلب حين احتفر زمزم معروفة وقد وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين افتتح مكة في الجب الذي كان فيها سبعين ألف أوقية من الذهب مما كان الملوك يهدون للبيت فيها ألف ألف دينار مكررة مرتين بمائتي قنطار وزنا وقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه يارسول الله لو استعنت بهذا المال على حربك فلم يفعل ثم ذكر لابي بكر فلم يحركه هكذا قال الازرقي وفي البخاري بسنده الى أبي وائل قال جلست الى شيبة بن عثمان وقال جلس الي عمر بن الخطاب فقال هممت أن لا أدع فيها صفراء ولا بيضاء الا قسمتها بين المسلمين قلت ما أنت بفاعل قال ولم قلت لم يفعله صاحباك فقال هما اللذان يقتدى بهما وخرجه أبو داود وابن ماجه وأقام ذلك المال الى أن كانت فتنة الافطس وهو الحسن بن

الحسين بن علي بن علي زين العابدين سنة تسع وتسعين ومائة حين غلب على مكة عمد الى الكعبة فأخذ ما في خزائنها وقال ما تصنع الكعبة بهذا المال موضوعا فيها لا ينتفع به نحن أحق به نستعين به على حربنا وأخرجه وتصرف فيه وبطلت الذخيرة من الكعبة من يومئذ * (وأما بيت المقدس) وهو المسجد الاقصى فكان أول أمره أيام الصابئة موضع الزهرة وكانوا يقربون اليه الزيت فيما يقربونه يصبونه على الصخرة التى هنالك ثم دثر ذلك الهيكل واتخذها بنو اسرائيل حين ملكوها قبلة لصلاتهم * وذلك أن موسى صلوات الله عليه لما خرج ببنى اسرائيل من مصر لتمليكهم بيت المقدس كما وعد الله أباهم اسرائيل وأباه اسحق من قبله وأقاموا بأرض التيه أمره الله باتخاذ قبة من خشب السنط عين بالوحى مقدارها وصفتها وهياكلها وتماثيلها وأن يكون فيها التابوت ومائدة بصحافها ومنارة بقناديلها وأن يصنع مذبحا للقربان وصف ذلك كله في التوراة أكمل وصف فصنع القبة ووضع فيها تابوت العهد وهو التابوت الذى فيه الالواح المصنوعة عوضا عن الالواح المنزلة بالكلمات العشر لما تكسرت ووضع المذبح عندها وعهد الله الى موسى بأن يكون هرون صاحب القربان ونصبوا تلك القبة بين خيامهم في التيه يصلون اليها ويتقربون في المذبح أمامها ويتعرضون للوحى عندها ولما ملكوا الشأم وبقيت تلك القبة قبلتهم ووضعوها على الصخرة بيت المقدس وأراد داود عليه السلام بناء مسجده على الصخرة مكانها فلم يتم له ذلك وعهد به الى ابنه سليمان فبناه لاربع سنين من ملكه ولخمسمائة سنة من وفاة موسى عليه السلام واتخذ عمده من الصفر وجعل به صرح الزجاج وغشى أبوابه وحيطانه بالذهب وصاغ هياكله وتماثيله وأوعيته ومنارته ومفتاحه من الذهب وجعل في ظهره قبرا ليضع فيه تابوت العهد وهو التابوت الذى فيه الالواح وجاء به من صهيون بلد أبيه داود تحمله الاسباط والكهونية حتى وضعه في القبر ووضعت القبة والاوعية والمذبح كل واحد حيث أعد له من المسجد وأقام كذلك ماشاء الله ثم خربه بختنصر بعد ثمانمائة سنة من بنائه وأحرق التوراة والعصا وصاغ الهياكل ونثر الاحجار ثم لما أعادهم ملوك الفرس بناه عزير نبى بنى اسرائيل لعهده باعانة بهمن ملك الفرس الذى كانت الولادة لبنى اسرائيل عليه من سبى بختنصر وحد لهم في بنائه حدودا دون بناء سليمان بن داود عليهما السلام فلم يتجاوزوها ثم تداولتهم ملوك يونان والفرس والروم واستفحل الملك لبنى اسرائيل في هذه المدة ثم لبنى حشمنای من كهنتهم ثم لصهرهم هيردوس ولبنيه من بعده وبنى هيردوس بيت المقدس على بناء سليمان عليه السلام وتأنق فيه حتى أكمله في ست سنين فلما جاء طيطش من ملوك الروم وغلبهم وملك أمرهم

خرب بيت المقدس ومسجدها وأمر أن يزرع مكانه ثم أخذ الروم بدين المسيح عليه السلام ودانوا بتعظيمه ثم اختلف حال ملوك الروم فى الاخذ بدين النصارى تارة وتركه أخرى الى أن جاء قسطنطين وتنصرت أمه هيلانه وارتحلت الى المقدس فى طلب الخشبة التى صلب عليها المسيح بزعمهم فأخبرها القساسة بأنه رمى بخشبته على الارض وألقى عليها القمامات والقاذورات فاستخرجت الخشبة وبنت مكان تلك القمامات كنيسة القمامة كأنها على قبره بزعمهم وخربت ماوجدت من عمارة البيت وأمرت بطرح الزبل والقمامات على الصخرة حتى غطاها وخفى مكانها جزاء بزعمها لما فعلوه بقبر المسيح ثم بنوا بازاء القمامة بيت لحم وهو البيت الذى ولد فيه عيسى عليه السلام وبقى الامر كذلك الى أن جاء الاسلام وحضر عمر لفتح بيت المقدس وسأل عن الصخرة فأرى مكانها وقد علاها الزبل والتراب فكشف عنها وبنى عليها مسجدا على طريق البداوة وعظم من شأنه ما أذن الله من تعظيمه وماسبق من أم الكتاب فى فضله حسبما ثبت ثم احتفل الوليد بن عبد الملك فى تشييد مسجده على سنن مساجد الاسلام بما شاء الله من الاحتفال كما فعل فى المسجد الحرام وفى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة وفى مسجد دمشق وكانت العرب تسميه بلاط الوليد وألزم ملك الروم أن يبعث الفعلة والمال لبناء هذه المساجد وأن ينمقوها بالفسيفساء فأطاع لذلك وتم بناؤها على مااقترحه ثم لما ضعف أمر الخلافة أعوام الخمسمائة من الهجرة فى آخرها وكانت فى ملكة العبيديين خلفاء القاهرة من الشيعة واختل أمرهم زحف الفرنجة الى بيت المقدس فملكوه وملكوا معه عامة ثغور الشأم وبنوا على الصخرة المقدسة منه كنيسة كانوا يعظمونها ويفتخرون ببنائها حتى اذا استقل صلاح الدين بن أيوب الكردى بملك مصر والشأم ومحا أثر العبيديين وبدعهم زحف الى الشأم وجاهد من كان به من الفرنجة حتى غلبهم على بيت المقدس وعلى ما كانوا ملكوه من ثغور الشأم وذلك لنحو ثمانين وخمسمائة من الهجرة وهدم تلك الكنيسة وأظهر الصخرة وبنى المسجد على النحو الذى هو عليه اليوم لهذا العهد ولا يعرض لك الاشكال المعروف فى الحديث الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن أول بيت وضع فقال مكة قيل ثم أى قال بيت المقدس قيل فكم بينهما قال أربعون سنة فان المدة بين بناء مكة وبين بناء بيت المقدس بمقدار ما بين ابراهيم وسليمان لان سليمان بانيه وهو ينيف على الالف بكثير * واعلم أن المراد بالوضع فى الحديث ليس البناء وانما المراد أول بيت عين للعبادة ولا يبعد أن يكون بيت المقدس عين للعبادة قبل بناء سليمان بمثل هذه المدة وقد نقل أن الصابئة بنوا على الصخرة هيكل الزهرة فلعل ذلك أنها كانت مكانا للعبادة كما كانت الجاهلية

تضع الاصنام والتماثيل حوالى الكعبة وفى جوفها والصابئة الذين بنوا هيكل الزهرة كانوا على عهد ابراهيم عليه السلام فلا تبعد مدة الاربعين سنة بين وضع مكة للعبادة ووضع بيت المقدس وان لم يكن هنالك بناء كما هو المعروف وأن أول من بنى بيت المقدس سليمان عليه السلام فتفهمه ففيه حل هذا الاشكال * (وأما المدينة) * وهى المسماة بيثرب فهى من بناء يثرب بن مهلائل من العمالقة وملكها بنو اسرائيل من أيديهم فيما ملكوه من أرض الحجاز ثم جاورهم بنو قيلة من غسان وغلبوهم عليها وعلى حصونها * ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالهجرة اليها لما سبق من عناية الله بها فهاجر اليها ومعه أبو بكر وتبعه أصحابه ونزل بها وبنى مسجده وبيوته فى الموضع الذى كان الله قد أعده لذلك وشرفه فى سابق أزله وآواه أبناء قيلة ونصروه فلذلك سموا الأنصار وتمت كلمة الاسلام من المدينة حتى علت على الكلمات وغلب على قومه وفتح مكة وملكها وظن الانصار أنه يتحول عنهم الى بلده فأهمهم ذلك فخاطبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرهم أنه غير متحول حتى اذا قبض صلى الله عليه وسلم كان ملحده الشريف بها وجاء فى فضلها من الاحاديث الصحيحة ما لا خفاء به ووقع الخلاف بين العلماء فى تفضيلها على مكة وبه قال مالك رحمه الله لما ثبت عنده فى ذلك من النص الصريح عن رافع بن خديج أن النبى صلى الله عليه وسلم قال المدينة خير من مكة نقل ذلك عبد الوهاب فى المعونة الى أحاديث أخرى تدل بظاهرها على ذلك وخالف أبو حنيفة والشافعى * وأصبحت على كل حال ثانية المسجد الحرام وجنح اليها الامم بأفئدتهم من كل أوب فانظر كيف تدرجت الفضيلة فى هذه المساجد المعظمة لما سبق من عناية الله لها وتفهم سر الله فى الكون وتدريجه على ترتيب محكم فى أمور الدين والدنيا * وأما غير هذه المساجد الثلاثة فلا نعلمه فى الارض الا ما يقال من شأن مسجد آدم عليه السلام بسرنديب من جزائر الهند لكنه لم يثبت فيه شئ يعول عليه وقد كانت للامم فى القديم مساجد يعظمونها على جهة الديانة بزعمهم منها بيوت النار للفرس وهياكل يونان وبيوت العرب بالحجاز التى أمر النبى صلى الله عليه وسلم بهدمها فى غزواته وقد ذكر المسعودى منها بيوتا لسنا من ذكرها فى شئ اذ هى غير مشروعة ولا هى على طريق دينى ولا يلتفت اليها ولا الى الخبر عنها ويكفى فى ذلك ما وقع فى التواريخ فمن أراد معرفة الاخبار فعليه بها والله يهدى من يشاء سبحانه

٧ (فصل فى أن المدن والامصار بافريقية والمغرب قليلة)

والسبب فى ذلك أن هذه الاقطار كانت للبربر منذ آلاف من السنين قبل الاسلام وكان

عمرانها كله بدويا ولم تستمر فيهم الحضارة حتى تستكمل أحوالها والدول التى ملكتهم من الافرنجة والعرب لم يطل أمدملكهم فيهم حتى ترسخ الحضارة منها فلم تزل عوائد البداوة وشؤنها فكانوا اليها أقرب فلم تكثر مبانيهم وأيضا فالصنائع بعيدة عن البربر لانهم أعرق فى البدو والصنائع من توابع الحضارة وانما تتم المبانى بها فلا بد من الحذق فى تعلمها فلما لم يكن للبربر انتحال لها لم يكن لهم تشوف الى المبانى فضلا عن المدن وأيضا فهم أهل عصبيات وأنساب لا يخلو عن ذلك جمع منهم والانساب والعصبية أجنح الى البدو وانما يدعو الى المدن الدعة والسكون ويصير ساكنها عيالا على حاميتها فتجد أهل البدو لذلك يستنكفون عن سكنى المدينة أو الاقامة بها ولا يدعو الى ذلك الا الترف والغنى وقليل ما هو فى الناس فلذلك كان عمران افريقية والمغرب كله أو أكثره بدويا أهل خيام وظواعن وقياطن وكنن فى الجبال وكان عمران بلاد العجم كله أو أكثره قرى وأمصارا ورساتيق من بلاد الاندلس والشأم ومصر وعراق العجم وأمثالها لان العجم فى الغالب ليسوا بأهل أنساب يحافظون عليها ويتناغون فى صراحتها والتحامها الا فى الاقل وأكثر ما يكون سكنى البدو لاهل الانساب لان لحمة النسب أقرب وأشد فتكون عصبيته كذلك وتنزع بصاحبها الى سكنى البدو والتجافى عن المصر الذى يذهب بالبسالة ويصيره عيالا على غيره فافهمه وقس عليه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٨ فصل في ان المباني والمصانع في الملة الاسلامية قليلة بالنسبة الى قدرتها والى من كان قبلها من الدول

والسبب فى ذلك ما ذكرناه مثله فى البربر بعينه اذ العرب أيضا أعرق فى البدو وأبعد عن الصنائع وأيضا فكانوا أجانب من الممالك التى استولوا عليها قبل الاسلام ولما تملكوها لم ينفسح الامد حتى تستوفى رسوم الحضارة مع انهم استغنوا بما وجدوا من مبانى غيرهم وأيضا فكان الدين أول الامر مانعا من المغالاة فى البنيان والاسراف فيه فى غير القصد كما عهد لهم عمر حين استأذنوه فى بناء الكوفة بالحجارة وقد وقع الحريق فى القصب الذى كانوا بنوا به من قبل فقال افعلوا ولا يزيدن أحد على ثلاثة أبيات ولا تطاولوا فى البنيان والزموا السنة تلزمكم الدولة وعهد الى الوفد وتقدم الى الناس أن لا يرفعوا بنيانا فوق القدر قالوا وما القدر قال ما لا يقربكم من السرف ولا يخرجكم عن القصد فلما بعد العهد بالدين والتحرج فى أمثال هذه المقاصد وغلبت طبيعة الملك والترف واستخدم العرب أمة الفرس وأخذوا عنهم الصنائع والمبانى ودعتهم اليها

حوال الدعة والترف فحينئذ شيدوا المباني والمصانع وكان عهد ذلك قريبا بانقراض الدولة ولم ينفسح الامد لكثرة البناء واختطاط المدن والامصار الا قليلا وليس كذلك غيرهم من الامم فالفرس طالت مدتهم آلافا من السنين وكذلك القبط والنبط والروم وكذلك العرب الاولى من عاد وثمود والعمالقة والتبابعة طالت آمادهم ورسخت الصنائع فيهم فكانت مبانيهم وهياكلهم أكثر عددا وأبقى على الايام أثرا واستبصر في هذا تجده كما قلت لك والله وارث الارض ومن عليها

٩ (فصل في ان المباني التي كانت تختطها العرب يسرع اليها الخراب الا في الاقل)

والسبب في ذلك شأن البداوة والبعد عن الصنائع كما قدمناه فلا تكون المباني وثيقة في تشييدها وله والله أعلم وجه آخر وهو أمس به وذلك قلة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن كما قلناه في المكان وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعى فانه بالتفاوت في هذه تتفاوت جودة المصر ورداءته من حيث العمران الطبيعي والعرب بمعزل عن هذا وانما يراعون مراعى ابلهم خاصة لا يبالون بالماء طاب أو خبث ولا قل أو كثر ولا يسألون عن زكاء المزارع والمنابت والاهوية لانتقالهم في الارض ونقلهم الحبوب من البلد البعيد وأما الرياح فالقفر مختلف للمهاب كلها والظعن كفيل لهم بطيبها لان الرياح انما تخبث مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات وانظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا في اختطاطها الا مراعى ابلهم وما يقرب من القفر ومسالك الظعن فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي للمدن ولم تكن لها مادة تمد عمرانها من بعدهم كما قدمنا أنه يحتاج اليه في حفظ العمران فقد كانت مواطنها غير طبيعية للقرار ولم تكن في وسط الامم فيعمرها الناس فلاول وهلة من انحلال أمرهم وذهاب عصبيتهم التي كانت سياجا لها أتى عليها الخراب والانحلال كأن لم تكن والله يحكم لا معقب لحكمه

١٠ ١٠ (فصل في مبادىء الخراب في الامصار)

اعلم أن الامصار اذا اختطت أولا تكون قليلة المساكن وقليلة آلات البناء من الحجر والجير وغيرهما مما يعالى على الحيطان عند التأنق كالزليج والرخام والربج والزجاج والفسيفساء والصدف فيكون بناؤها يومئذ بدويا وآلاتها فاسدة فاذا عظم عمران المدينة وكثر ساكنها كثرت الآلات بكثرة الاعمال حينئذ وكثرة الصناع الى أن تبلغ غايتها من ذلك كما سبق شأنها فاذا تراجع عمرانها وخف ساكنها قلت الصنائع لاجل ذلك ففقدت الاجادة في البناء والاحكام والمعالاة عليه بالتنميق ثم تقل الاعمال لعدم

الساكن فيقل جلب الآلات من الحجر والرخام وغيرهما فتفقد ويصير بناؤهم وتشييدهم من الآلات التي في مبانيهم فينقلونها من مصنع الى مصنع لاجل خلاء أكثر المصانع والقصور والمنازل بقلة العمران وقصوره عما كان أولا ثم لاتزال تنقل من قصر الى قصر ومن دار الى دار الى أن يفقد الكثير منها جملة فيعودون الى البداوة في البناء واتخاذ الطوب عوضا عن الحجارة والقصور عن التنميق بالكلية فيعود بناء المدينة مثل بناء القرى والمداشر ويظهر عليها سيما البداوة ثم تمر في التناقص الى غايتها من الخراب ان قدر لها به سنة الله في خلقه

١١ فصل في ان تفاضل الامصار والمدن في كثرة الرفه لاهلها ونفاق الاسواق انما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة

والسبب في ذلك أنه قد عرف وثبت أن الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل حاجاته في معاشه وأنهم متعاونون جميعا في عمرانهم على ذلك والحاجة التي تحصل بتعاون طائفة منهم تشتد ضرورة الاكثر من عددهم أضعافا فالقوت من الحنطة مثلا لا يستقل الواحد بتحصيل حصته منه واذا انتدب لتحصيله الستة أو العشرة من حداد ونجار للآلات وقائم على البقر واثارة الارض وحصاد السنبل وسائر مؤن الفلح وتوزعوا على تلك الاعمال أو اجتمعوا وحصل بعملهم ذلك مقدار من القوت فانه حينئذ قوت لاضعافهم مرات فالاعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضروراتهم فأهل مدينة أو مصر اذا وزعت أعمالهم كلها على مقدار ضروراتهم وحاجاتهم اكتفى فيها بالاقل من تلك الاعمال وبقيت الاعمال كلها زائدة على الضرورات فتصرف في حالات الترف وعوائده وما يحتاج اليه غيرهم من أهل الامصار ويستجلبونه منهم بأعواضه وقيمه فيكون لهم بذلك حظ من الغنى وقد تبين لك في الفصل الخامس في باب الكسب والرزق أن المكاسب انما هي قيم الاعمال فاذا كثرت الاعمال كثرت قيمها بينهم فكثرت مكاسبهم ضرورة ودعتهم أحوال الرفه والغنى الى الترف وحاجاته من التأنق في المساكن والملابس واستجادة الآنية والماعون واتخاذ الخدم والمراكب وهذه كلها أعمال تستدعى بقيمها ويختار المهرة في صناعتها والقيام عليها فتنفق أسواق الاعمال والصنائع ويكثر دخل المصر وخرجه ويحصل اليسار لمنتحلى ذلك من قبل أعمالهم ومتى زاد العمران زادت الاعمال ثانية ثم زاد الترف تابعا للكسب وزادت عوائده وحاجاته واستنبطت الصنائع لتحصيلها فزادت قيمها وتضاعف الكسب في المدينة لذلك ثانية ونفقت سوق الاعمال بها أكثر من الاول وكذا في الزيادة الثانية

والثالثة لان الاعمال الزائدة كلها تختص بالترف والغنى بخلاف الاعمال الاصلية
التى تختص بالمعاش فالمصر اذا فضل بعمران واحد فضله بزيادة كسب ورفه وبعوائد
من الترف لا توجد فى الآخر فما كان عمرانه من الامصار أكثر وأوفر كان حال أهله
فى الترف أبلغ من حال المصر الذى دونه على وتيرة واحدة فى الاصناف القاضى مع
القاضى والتاجر مع التاجر والصانع مع الصانع والسوقى مع السوقى والامير
مع الامير والشرطى مع الشرطى * واعتبر ذلك فى المغرب مثلا بحال فاس مع
غيرها من أمصاره الاخرى مثل بجاية وتلمسان وسبتة تجد بينهما بونا كثيرا على الجملة ثم
على الخصوصيات فحال القاضى بفاس أوسع من حال القاضى بتلمسان وهكذا كل
صنف مع صنف أهله وكذا أيضا حال تلمسان مع وهران أو الجزائر وحال وهران
والجزائر مع مادونهما الى أن تنتهى الى المداشر الذين اعتمالهم فى ضروريات معاشهم
فقط ويقصرون عنها وما ذلك الا لتفاوت الاعمال فيها فكأنها كلها أسواق للاعمال
والخرج فى كل سوق على نسبته فالقاضى بفاس دخله كفاء خرجه وكذا القاضى بتلمسان
وحيث الدخل والخرج أكثر تكون الاحوال أعظم وهم بفاس أكثر لنفاق سوق
الاعمال بما يدعو اليه الترف فالاحوال أضخم ثم كذا حال وهران وقسنطينة والجزائر
وبسكرة حتى تنتهى كما قلناه الى الامصار التى لا توفى أعمالها بضروراتها ولا تعد
فى الامصار اذ هى من قبيل القرى والمداشر فلذلك تجد أهل هذه الامصار الصغيرة
ضعفاء الاحوال متقاربين فى الفقر والخصاصة لما أن أعمالهم لا تفى بضروراتهم ولا
يفضل ما يتأثلونه كسبا فلا تنمو مكاسبهم وهم لذلك مساكين محاويج الا فى الاقل
النادر واعتبر ذلك حتى فى أحوال الفقراء والسؤال فان السائل بفاس أحسن حالا
من السائل بتلمسان أو وهران ولقد شاهدت بفاس السؤال يسألون أيام الاضاحى
أثمان ضحاياهم ورأيتهم يسألون كثيرا من أحوال الترف واقتراح المآكل مثل سؤال
اللحم والسمن وعلاج الطبخ والملابس والماعون كالغربال والآنية ولو سأل سائل
مثل هذا بتلمسان أو وهران لاستنكر وعنف وزجر ويبلغنا لهذا العهد عن أحوال
القاهرة ومصر من الترف والغنى فى عوائدهم ما يقضى منه العجب حتى ان كثيرا من
الفقراء بالمغرب ينزعون من النقلة الى مصر لذلك ولما يبلغهم من أن شأن الرفه بمصر
أعظم من غيرها ويعتقد العامة من الناس أن ذلك لزيادة ايثار فى أهل تلك الآفاق
على غيرهم أو أموال مختزنة لديهم وأنهم أكثر صدقة وايثارا من جميع أهل
الامصار وليس كذلك وانما هو لما تعرفه من أن عمران مصر والقاهرة أكثر من عمران
هذه الامصار التى لديك فعظمت لذلك أحوالهم * وأما حال الدخل والخرج

فتكافئ فى جميع الامصار ومتى عظم الدخل عظم الخرج وبالعكس ومتى عظم الدخل والخرج اتسعت أحوال الساكن ووسع المصر كل شئ يبلغك من مثل هذا فلا تنكره واعتبره بكثرة العمران وما يكون عنه من كثرة المكاسبة التى يسهل بسببها البذل والايثار على مبتغيه ومثله بشأن الحيوانات العجم مع بيوت المدينة الواحدة وكيف يختلف أحوالها فى هجرانها أو غشيانها فان بيوت أهل النعم والثروة والموائد الخصبة منها تكثر بساحتها وأفنيتها بنثر الحبوب وسواقط الفتات فيزدحم عليها غواشى النمل والخشاش ويحلق فوقها عصائب الطيور حتى تروح بطانا وتمتلئ شبعا وريا وبيوت أهل الخصاصة والفقراء الكاسدة أرزاقهم لا يسرى بساحتها دبيب ولا يحلق بجوّها طائر ولا تأوى الى زوايا بيوتهم فارة ولا هرة كما قال الشاعر

تسقط الطير حيث تلتقط الحبّ وتغشى منازل الكرماء

فتأمل سرّ الله تعالى فى ذلك واعتبر غاشية الاناسى بغاشية العجم من الحيوانات وفتات الموائد بفضلات الرزق والترف وسهولتها على من يبذلها لاستغنائهم عنها فى الاكثر لوجود أمثالها لديهم واعلم أن اتساع الاحوال وكثرة النعم فى العمران تابع لكثرته والله سبحانه وتعالى أعلم وهو غنىّ عن العالمين

١٢ (فصل في اسعار المدنّ)

اعلم أن الاسواق كلها تشتمل على حاجات الناس فمنها الضرورىّ وهى الاقوات من الحنطة وما فى معناها كالباقلا والبصل والثوم وأشباهه ومنها الحاجىّ والكمالىّ مثل الادم والفواكه والملابس والماعون والمراكب وسائر المصانع والمبانى فاذا استبحر المصر وكثر ساكنه رخصت أسعار الضرورىّ من القوت وما فى معناه وغلت أسعار الكمالىّ من الادم والفواكه وما يتبعها واذا قلّ ساكن المصر وضعف عمرانه كان الامر بالعكس * والسبب فى ذلك أن الحبوب من ضرورات القوت فتتوفر الدواعى على اتخاذها اذ كل احد لا يهمل قوت نفسه ولا قوت منزله لشهره أو سنته فيعمّ اتخاذها أهل المصر أجمع أو الاكثر منهم فى ذلك المصر أو فيما اقرب منه لا بدّ من ذلك وكل متخذ لقوته فتفضل عنه وعن أهل بيته فضلة كبيرة تسدّ خلة كثيرين من أهل ذلك المصر فتفضل الاقوات عن أهل المصر من غير شك فترخص أسعارها فى الغالب الا ما يصيبها فى بعض السنين من الآفات السماوية ولولا احتكار الناس لها لما يتوقع من تلك الآفات لبذلت دون ثمن ولا عوض لكثرتها بكثرة العمران * وأما سائر المرافق من الادم والفواكه وما اليها فانها لا تعم بها البلوى ولا يستغرق اتخاذها

أعمال أهل المصر أجمعين ولا الكثير منهم ثم ان المصر اذا كان مستبحرا موفور العمران كثير حاجات الترف توفرت حينئذ الدواعي على طلب تلك المرافق والاستكثار منها كل بحسب حاله فيقصر الموجود منها على الحاجات قصورا بالغا ويكثر المستامون لها وهي قليلة في نفسها فتزدحم أهل الاغراض ويبذل أهل الرفه والترف أثمانها باسراف في الغلاء لحاجتهم اليها أكثر من غيرهم فيقع فيها الغلاء كما تراه * وأما الصنائع والاعمال أيضا في الامصار الموفورة العمران فسبب الغلاء فيها أمور ثلاثة الاول كثرة الحاجة لمكان الترف في المصر بكثرة عمرانه والثاني اعتزاز أهل الاعمال لخدمتهم وامتهان أنفسهم لسهولة المعاش في المدينة بكثرة أقواتها والثالث كثرة المترفين وكثرة حاجاتهم الى امتهان غيرهم والى استعمال الصناع في مهنهم فيبذلون في ذلك لاهل الاعمال أكثر من قيمة أعمالهم مزاحمة ومنافسة في الاستئثار بها فيعتز العمال والصناع وأهل الحرف وتغلو أعمالهم وتكثر نفقات أهل المصر في ذلك * وأما الامصار الصغيرة والقليلة الساكن فأقواتهم قليلة لقلة العمل فيها وما يتوقعونه لصغر مصرهم من عدم القوت فيتمسكون بما يحصل منه في أيديهم ويحتكرونه فيعز وجوده لديهم ويغلو ثمنه على مستامه وأما مرافقهم فلا تدعو اليها أيضا حاجة بقلة الساكن وضعف الاحوال فلا تنفق لديهم سوقه فيختص بالرخص في سعره وقد يدخل أيضا في قيمة الاقوات قيمة ما يعرض عليها من المكوس والمغارم للسلطان في الاسواق وأبواب الحضر والجباة في منافع يعرضونها من البيوعات لما يسهم وبذلك كانت الاسعار في الامصار أغلى من الاسعار في البادية اذ المكوس والمغارم والفرائض قليلة لديهم أو معدومة وكثرتها في الامصار لاسيما في آخر الدولة وقد تدخل أيضا في قيمة الاقوات قيمة علاجها في الفلح ويحافظ على ذلك في أسعارها كما وقع بالاندلس لهذا العهد وذلك أنهم لما ألجأهم النصارى الى سيف البحر وبلاده المتوعرة الخبيثة الزراعة النكدة النبات وملكوا عليهم الارض الزاكية والبلد الطيب فاحتاجوا الى علاج المزارع والفدن لاصلاح نباتها وفلحها وكان ذلك العلاج بأعمال ذات قيم ومواد من الزبل وغيره لها مؤنة وصارت في فلحهم نفقات لها خطر فاعتبروها في سعرهم واختص قطر الاندلس بالغلاء منذ اضطرهم النصارى الى هذا المعمور بالاسلام مع سواحلها لاجل ذلك ويحسب الناس اذا سمعوا بغلاء الاسعار في قطرهم أنها لقلة الاقوات والحبوب في أرضهم وليس كذلك فهم أكثر أهل المعمور فلحا فيما علمناه وأقومهم عليه وقل أن يخلو منهم سلطان أو سوقة عن فدان أو مزرعة أو فلح الا القليل من أهل الصناعات والمهن أو الطراء على الوطن من الغزاة المجاهدين ولهذا يختصهم السلطان

فى عطائهم بالعولة وهى أقواتهم وعلوفاتهم من الزرع وانما السبب فى غلاء سعر الحبوب عندهم ماذكرناه * ولما كانت بلاد البربر بالعكس من ذلك فى زكاء منابتهم وطيب أرضهم ارتفعت عنهم المؤن جملة فى الفلح مع كثرته وعمومه فصار ذلك سببا لرخص الاقوات ببلدهم والله مقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار لا رب سواه.

١٣ (فصل في قصور اهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران)

والسبب فى ذلك أن المصر الكثير العمران يكثر ترفه كما قدمناه وتكثر حاجات ساكنه من أجل الترف وتعتاد تلك الحاجات لما يدعو اليها فتنقلب ضرورات وتصير فيه الاعمال كلها مع ذلك عزيزة والمرافق غالية بازدحام الاغراض عليها من أجل الترف وبالمغارم السلطانية التى توضع على الاسواق والبياعات وتعتبر فى قيم المبيعات ويعظم فيها الغلاء فى المرافق والاقوات والاعمال فتكثر لذلك نفقات ساكنه كثرة بالغة على نسبة عمرانه ويعظم خرجه فيحتاج حينئذ الى المال الكثير للنفقة على نفسه وعياله فى ضرورات عيشهم وسائر مؤنهم والبدوى لم يكن دخله كثيرا اذ كان ساكنا بمكان كاسد الاسواق فى الاعمال التى هى سبب الكسب فلم يتأثل كسبا ولا مالا فيتعذر عليه من أجل ذلك سكنى المصر الكبير لغلاء مرافقه وعزة حاجاته وهو فى بدوه يسد خلته بأقل الاعمال لانه قليل عوائد الترف فى معاشه وسائر مؤنه فلا يضطر الى المال وكل من يتشوف الى المصر وسكناه من أهل البادية فسريعا ما يظهر عجزه ويفتضح فى استيطانه الا من يقدم منهم تأثل المال ويحصل له منه فوق الحاجة ويجرى الى الغاية الطبيعية لاهل العمران من الدعة والترف فحينئذ ينتقل الى المصر وينتظم حاله مع أحوال أهله فى عوائدهم وترفهم وهكذا شأن بداية عمران الامصار والله بكل شئ محيط

١٤ (فصل في ان الاقطار في اختلاف احوالها بالرفه والفقر مثل الامصار)

(اعلم) أن ما توفر عمرانه من الاقطار وتعددت الامم فى جهاته وكثر ساكنه اتسعت أحوال أهله وكثرت أموالهم وأمصارهم وعظمت دولهم وممالكهم * والسبب فى ذلك كله ما ذكرناه من كثرة الاعمال وماسيأتى ذكره من أنها سبب للثروة بما يفضل عنها بعد الوفاء بالضروريات فى حاجات الساكن من الفضلة البالغة على مقدار العمران وكثرته فيعود على الناس كسبا يتأثلونه حسبما نذكر ذلك فى فصل المعاش وبيان الرزق والكسب فيتزيد الرفه لذلك وتتسع الاحوال ويجئ الترف والغنى وتكثر الجباية للدولة بنفاق الاسواق فيكثر مالها ويشمخ سلطانها وتتفنن فى اتخاذ المعاقل والحصون

واختطاط المدن وتشييد الامصار * واعتبر ذلك بأقطار المشرق مثل مصر والشأم وعراق العجم والهند والصين وناحية الشمال كلها وأقطارها وراء البحر الرومي لما كثر عمرانها كيف كثر المال فيهم وعظمت دولتهم وتعددت مدنهم وحواضرهم وعظمت متاجرهم وأحوالهم فالذي نشاهده لهذا العهد من أحوال تجار الامم النصرانية الواردين على المسلمين بالمغرب في رفههم واتساع أحوالهم أكثر من أن يحيط به الوصف وكذا تجار أهل المشرق وما يبلغنا عن أحوالهم وأبلغ منها أحوال أهل المشرق الاقصى من عراق العجم والهند والصين فانه يبلغنا عنهم في باب الغنى والرفه غرائب تسير الركبان بحديثها وربما تتلقى بالانكار في غالب الامر ويحسب من يسمعها من العامة أن ذلك لزيادة في أموالهم أو لأن المعادن الذهبية والفضية أكثر بأرضهم أو لأن ذهب الاقدمين من الامم استأثروا به دون غيرهم وليس كذلك فمعدن الذهب الذي نعرفه في هذه الاقطار انما هو من بلاد السودان وهي الى المغرب أقرب وجميع ما في أرضهم من البضاعة فانما يجلبونه الى غير بلادهم للتجارة فلو كان المال عتيدا موفورا لديهم لما جلبوا بضائعهم الى سواهم يبتغون بها الاموال ولاستغنوا عن أموال الناس بالجملة * ولقد ذهب المنجمون لما رأوا مثل ذلك واستغربوا ما في المشرق من كثرة الاحوال واتساعها ووفور أموالها فقالوا بأن عطايا الكواكب والسهام في مواليد أهل المشرق أكثر منها حصصا في مواليد أهل المغرب وذلك صحيح من جهة المطابقة بين الاحكام النجومية والاحوال الارضية كما قلناه وهم انما أعطوا في ذلك السبب النجومي وبقي عليهم أن يعطوا السبب الارضي وهو ما ذكرناه من كثرة العمران واختصاصه بأرض المشرق وأقطاره وكثرة العمران تفيد كثرة الكسب بكثرة الاعمال التي هي سببه فلذلك اختص المشرق بالرفه من بين الآفاق لا أن ذلك لمجرد الاثر النجومي فقد فهمت مما أشرنا لك أولا أنه لا يستقل بذلك وأن المطابقة بين حكمه وعمران الارض وطبيعتها أمر لا بد منه * واعتبر حال هذا الرفه من العمران في قطر افريقية وبرقة لما خف سكنها وتناقص عمرانها كيف تلاشت أحوال أهلها وانتهوا الى الفقر والخصاصة وضعفت جباياتها فقلت أموال دولها بعد أن كانت دول الشيعة وصنهاجة بها على ما بلغك من الرفه وكثرة الجبايات واتساع الاحوال في نفقاتهم وأعطياتهم حتى لقد كانت الاموال ترفع من القيروان الى صاحب مصر لحاجاته ومهماته وكانت أموال الدولة بحيث حمل جوهر الكاتب في سفره الى فتح مصر ألف حمل من المال يستعد بها لارزاق الجنود واعطياتهم ونفقات الغزاة وقطر المغرب وان كان في القديم دون افريقية فلم يكن بالقليل في ذلك وكانت

أحواله في دول الموحدين متسعة وجباياته موفورة وهو لهذا العهد قد أقصر عن ذلك لقصور العمران فيه وتناقصه فقد ذهب من عمران البربر فيه أكثره ونقص عن معهوده نقصا ظاهرا محسوسا وكاد أن يلحق في أحواله بمثل أحوال افريقية بعد أن كان عمرانه متصلا من البحر الرومي الى بلاد السودان في طول ما بين السوس الاقصى و برقة وهي اليوم كلها أو أكثرها قفار وخلاء وصحاري الا ما هو منها بسيف البحر أو ما يقاربه من التلول والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

١٥ (فصل في تأثل العقار والضياع في الامصار وحال فوائدها و مستغلاتها)

(اعلم) أن تأثل العقار والضياع الكثيرة لاهل الامصار والمدن لا يكون دفعة واحدة ولا في عصر واحد اذ ليس يكون لاحد منهم من الثروة ما يملك به الاملاك التي تخرج قيمها عن الحد ولو بلغت أحوالهم في الرفه ما عسى أن تبلغ وانما يكون ملكهم وتأثلهم لها تدريجا اما بالوراثة من آبائه وذوي رحمه حتى تتأدى أملاك الكثيرين منهم الى الواحد وأكثر لذلك أو أن يكون بحوالة الاسواق فان العقار في آخر الدولة وأول الاخرى عند فناء الحامية وخرق السياج وتداعي المصر الى الخراب تقل الغبطة به لقلة المنفعة فيها بتلاشي الاحوال فترخص قيمها وتملك بالاثمان اليسيرة وتتخطى بالميراث الى ملك آخر وقد استجد المصر شبابه باستفحال الدولة الثانية وانتظمت له أحوال رائقة حسنة تحصل معها الغبطة في العقار والضياع لكثرة منافعها حينئذ فتعظم قيمها و يكون لها خطر لم يكن في الاول وهذا معنى الحوالة فيها و يصبح مالكها من أغنى أهل المصر وليس ذلك بسعيه واكتسابه اذ قدرته تعجز عن مثل ذلك * وأما فوائد العقار والضياع فهي غير كافية لمالكها في حاجات معاشه اذ هي لا تفي بعوائد الترف وأسبابه وانما هي في الغالب لسد الخلة وضرورة المعاش والذي سمعناه من مشيخة البلدان أن القصد باقتناء الملك من العقار والضياع انما هو الخشية على من يترك خلفه من الذرية الضعفاء ليكون مرباهم به ورزقهم فيه ونشؤهم بفائدته ما داموا عاجزين عن الاكتساب فاذا اقتدروا على تحصيل المكاسب سعوا فيها بأنفسهم وربما يكون من الولد من يعجز عن التكسب لضعف في بدنه أو آفة في عقله المعاشي فيكون ذلك العقار قواما لحاله هذا قصد المترفين في اقتنائه وأما التمول منه واجراء أحوال المترفين فلا وقد يحصل ذلك منه للقليل أو النادر بحوالة الاسواق وحصول الكثرة البالغة منه والعالي في جنسه وقيمته في المصر الا أن ذلك اذا حصل ربما امتدت اليه أعين الامراء والولاة واغتصبوه في الغالب أو أرادوه على بيعه منهم ونالت أصحابه منه مضار

ومعاطب والله غالب على أمره وهو رب العرش العظيم

١٦ (فصل في حاجات المتمولين من اهل الامصار الى الجاه والمدافعة)

وذلك أن الحضري اذا عظم تموّله وكثر للعقار والضياع تأثله وأصبح أغنى أهل المصر ورمقته العيون بذلك وانفسحت أحواله في الترف والعوائد زاحم عليها الامراء والملوك وغصوا به ولما في طباع البشر من العدوان تمتد أعينهم الى تملك ما بيده وينافسونه فيه ويتحيلون على ذلك بكل ممكن حتى يحصلونه في ربقة حكم سلطاني وسبب من المؤاخذة ظاهر ينتزع به ماله وأكثر الاحكام السلطانية جائرة في الغالب اذ العدل المحض انما هو في الخلافة الشرعية وهي قليلة اللبث قال صلى الله عليه وسلم الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تعود ملكا عضوضا فلا بدّ حينئذ لصاحب المال والثروة الشهيرة في العمران من حامية تذود عنه وجاه ينسحب عليه من ذي قرابة للملك أو خالصة له أو عصبية يتحاماها السلطان فيستظل بظلها ويرتع في أمنها من طوارق التعدّي وان لم يكن له ذلك أصبح نهبا بوجوه التحيلات وأسباب الحكام والله يحكم لا معقب لحكمه

فصل في أن الحضارة في الامصار من قبل الدولة وانها ترسخ باتصال الدولة ورسوخها

والسبب في ذلك أن الحضارة هي أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه وتفاوت الامم في القلة والكثرة تفاوتا غير منحصر وتقع فيها عند كثرة التفنن في أنواعها وأصنافها فتكون بمنزلة الصنائع ويحتاج كل صنف منها الى القومة عليه والمهرة فيه وبقدر ما يتزيد من أصنافها تتزيد أهل صناعتها ويتلون ذلك الجيل بها ومتى اتصلت الايام وتعاقبت تلك الصناعات حذق أولئك الصناع في صناعتهم ومهروا في معرفتها والاعصار بطولها وانفساح أمدها وتكرير أمثالها تزيدها استحكاما ورسوخا وأكثر ما يقع ذلك في الامصار لاستبحار العمران وكثرة الرفه في أهلها وذلك كله انما يجيء من قبل الدولة لان الدولة تجمع أموال الرعية وتنفقها في بطانتها ورجالها وتتسع أحوالهم بالجاه أكثر من اتساعها بالمال فيكون دخل تلك الاموال من الرعايا وخرجها في أهل الدولة ثم فيمن تعلق بهم من أهل المصر وهم الاكثر فتعظم لذلك ثروتهم ويكثر غناهم وتتزيد عوائد الترف ومذاهبه وتستحكم لديهم الصنائع في سائر فنونه وهذه هي الحضارة ولهذا تجد الامصار التي في القاصية ولو كانت موفورة العمران تغلب عليها أحوال البداوة وتبعد عن الحضارة في جميع مذاهبها بخلاف المدن المتوسطة في الاقطار التي هي مركز الدولة

ومقرّها وما ذاك الا لمجاورة السلطان لهم وفيض أمواله فيهم كالماء يخضرّ ما قرب
منه فما قرب من الارض الى أن ينتهي الى الجفوف على البعد وقد قدّمنا أن السلطان
والدولة سوق للعالم فالبضائع كلها موجودة في السوق وما قرب منه واذا بعدت عن
السوق افتقدت البضائع جملة ثم انه اذا اتصلت تلك الدولة وتعاقب ملوكها في ذلك
المصر واحدا بعد واحد استحكمت الحضارة فيهم وزادت رسوخا واعتبر ذلك في اليهود
لما طال ملكهم بالشام نحوا من ألف وأربعمائة سنة رسخت حضارتهم وحذقوا في
أحوال المعاش وعوائده والتفنن في صناعاته من المطاعم والملابس وسائر أحوال
المنزل حتى انها لتؤخذ عنهم في الغالب الى اليوم ورسخت الحضارة أيضا وعوائدها
في الشأم منهم ومن دولة الروم بعدهم ستمائة سنة فكانوا في غاية الحضارة *
وكذلك أيضا القبط دام ملكهم في الخليقة ثلاثة آلاف من السنين فرسخت عوائد
الحضارة في بلدهم مصر وأعقبهم بها ملك اليونان والروم ثم ملك الاسلام الناسخ للكل
فلم تزل عوائد الحضارة بها متصلة وكذلك أيضا رسخت عوائد الحضارة باليمن لاتصال
دولة العرب بها منذ عهد العمالقة والتبابعة آلافا من السنين وأعقبهم ملك مضر
وكذلك الحضارة بالعراق لاتصال دولة النبط والفرس بها من لدن الكلدانيين والكيانية
والكسروية والعرب بعدهم آلافا من السنين فلم يكن على وجه الارض لهذا العهد
أحضر من أهل الشأم والعراق ومصر وكذا أيضا رسخت عوائد الحضارة
واستحكمت بالاندلس لاتصال الدولة العظيمة فيها للقوط ثم ما أعقبها من ملك بني أمية
آلافا من السنين وكلتا الدولتين عظيمة فاتصلت فيها عوائد الحضارة واستحكمت *
وأما افريقية والمغرب فلم يكن بها قبل الاسلام ملك ضخم انما قطع الافرنجة الى افريقية
البحر وملكوا الساحل وكانت طاعة البربر أهل الضاحية لهم طاعة غير مستحكمة
فكانوا على قلعة وأوفاز وأهل المغرب لم تجاورهم دولة وانما كانوا يبعثون بطاعتهم
الى القوط من وراء البحر ولما جاء الله بالاسلام وملك العرب افريقية والمغرب لم يلبث
فيهم ملك العرب الا قليلا أول الاسلام وكانوا لذلك العهد في طور البداوة ومن استقرّ
منهم بافريقية والمغرب لم يجد بهما من الحضارة ما يقلد فيه من سلفه اذ كانوا برابر
منغمسين في البداوة ثم انتقض برابرة المغرب الاقصى لأقرب العهود على يد ميسرة
المطفري أيام هشام بن عبد الملك ولم يراجعوا أمر العرب بعد واستقلوا بأمر أنفسهم
وان بايعوا لادريس فلا تعدّ دولته فيهم عربية لأن البرابر هم الذين تولوها ولم يكن من
العرب فيها كثير عدد وبقيت افريقية للاغالبة ومن اليهم من العرب فكان لهم
من الحضارة بعض الشيء بما حصل لهم من ترف الملك ونعيمه وكثرة عمران القيروان

وورث ذلك عنهم كتامة ثم صنهاجة من بعدهم وذلك كله قليل لم يبلغ أربعمائة سنة وانصرمت دولتهم واستحالت صبغة الحضارة بما كانت غير مستحكمة وتغلب بدو العرب الهلاليين عليها وخربوها وبقي أثر خفي من حضارة العمران فيها والى هذا العهد يؤنس فيمن سلف له بالقلعة أو القيروان أو المهدية سلف فتجد له من الحضارة في شؤن منزله وعوائد أحواله آثارا ملتبسة بغيرها يميزها الحضري البصير بها وكذا في أكثر أمصار افريقية وليس ذلك في المغرب وأمصاره لرسوخ الدولة بافريقية أكثر أمدا منذ عهد الاغالبة والشيعة وصنهاجة وأما المغرب فانتقل اليه منذ دولة الموحدين من الاندلس حظ كبير من الحضارة واستحكمت به عوائدها بما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد الاندلس وانتقل الكثير من أهلها اليهم طوعا وكرها وكانت من اتساع النطاق ما علمت فكان فيها حظ صالح من الحضارة واستحكامها ومعظمها من أهل الاندلس ثم انتقل أهل شرق الاندلس عند جالية النصارى الى افريقية فأبقوا فيها وبأمصارها من الحضارة آثارا ومعظمها بتونس امتزجت بحضارة مصر وما ينقله المسافرون من عوائدها فكان بذلك للمغرب وافريقية حظ صالح من الحضارة عفى عليه الخلاء ورجع على أعقابه وعاد البربر بالمغرب الى أديانهم من البداوة والخشونة وعلى كل حال فآثار الحضارة بافريقية أكثر منها بالمغرب وأمصاره لما تداول فيها من الدول السالفة أكثر من المغرب ولقرب عوائدهم من عوائد أهل مصر بكثرة المترددين بينهم * فتفطن لهذا السر فانه خفي عن الناس واعلم أنها أمور متناسبة وهي حال الدولة في القوة والضعف وكثرة الامة أو الجيل وعظم المدينة أو المصر وكثرة النعمة واليسار وذلك أن الدولة والملك صورة الخليقة والعمران وكلها مادة لها من الرعايا والامصار وسائر الاحوال وأموال الجباية عائدة عليهم ويسارهم في الغالب من أسواقهم ومتاجرهم واذا أفاض السلطان عطاءه وأمواله في أهلها انبثت فيهم ورجعت اليه ثم اليهم منه فهي ذاهبة عنهم في الجباية والخراج عائدة عليهم في العطاء فعلى نسبة حال الدولة يكون يسار الرعايا وعلى نسبة يسار الرعايا وكثرتهم يكون مال الدولة وأصله كله العمران وكثرته فاعتبره وتأمله في الدول تجده والله يحكم لا معقب لحكمه .

١٨ (فصل في ان الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وانها مؤذنة بفساده

قد بينا لك فيما سلف أن الملك والدولة غاية للعصبية وأن الحضارة غاية للبداوة وأن العمران كله من بداوة وحضارة وملك وسوقة له عمر محسوس كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمرا محسوسا وتبين في المعقول والمنقول أن الاربعين

للانسان غاية في تزايد قواه ونموها وأنه اذا بلغ سن الاربعين وقفت الطبيعة عن أثر النشو والنمو برهة ثم تأخذ بعد ذلك في الانحطاط فاعلم أن الحضارة في العمران أيضا كذلك لانه غاية لامزيد وراءها وذلك أن الترف والنعمة اذا حصلا لاهل العمران دعاهم بطبعه الى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها والحضارة كما علمت هي التفنن في الترف واستجادة أحواله والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفرش أو الآنية ولسائر أحوال المنزل وللتأنق في كل واحد من هذه صنائع كثيرة لا يحتاج اليها عند البداوة وعدم التأنق فيها واذا بلغ التأنق في هذه الاحوال المنزلية الغاية تبعه طاعة الشهوات فتتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة لا يستقيم حالها معها في دينها ولا دنياها أما دينها فلاستحكام صبغة العوائد التي يعسر نزعها وأما دنياها فلكثرة الحاجات والمؤنات التي تطالب بها العوائد ويعجز الكسب عن الوفاء بها * وبيانه أن المصر بالتفنن في الحضارة تعظم نفقات أهله والحضارة تتفاوت بتفاوت العمران فمتى كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل وقد كنا قدمنا أن المصر الكثير العمران يختص بالغلاء في أسواقه وأسعار حاجته ثم تزيدها المكوس غلاء لان الحضارة انما تكون عند انتهاء الدولة في استفحالها وهو زمن وضع المكوس في الدول لكثرة خرجها حينئذ كما تقدم والمكوس تعود على البياعات بالغلاء لان السوقة والتجار كلهم يحتسبون على سلعهم وبضائعهم جميع ما ينفقونه حتى في مؤنة أنفسهم فيكون المكس لذلك داخلا في قيم المبيعات وأثمانها فتعظم نفقات أهل الحضارة وتخرج عن القصد الى الاسراف ولا يجدون وليجة عن ذلك لما ملكهم من أثر العوائد وطاعتها وتذهب مكاسبهم كلها في النفقات ويتتابعون في الاملاق والخصاصة ويغلب عليهم الفقر ويقل المستامون للمبايع فتكسد الاسواق ويفسد حال المدينة وداعية ذلك كله افراط الحضارة والترف وهذه مفسدات في المدينة على العموم في الاسواق والعمران وأما فسادأهلها في ذاتهم واحدا واحدا على الخصوص فمن الكد والتعب في حاجات العوائد والتلون بألوان الشر في تحصيلها وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها بحصول لون آخر من ألوانها فلذلك يكثر منهم الفسق والشر والسفسفة والتحيل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه وتنصرف النفس الى الفكر في ذلك والغوص عليه واستجماع الحيلة له فتجدهم أجرياء على الكذب والمقامرة والغش والخلابة والسرقة والفجور في الايمان والربا في البياعات ثم تجدهم أبصر بطرق الفسق ومذاهبه والمجاهرة به وبدواعيه واطراح الحشمة في الخوض فيه حتى بين الاقارب

وذوى المحارم الذين تقتضى البداوة الحياء منهم فى الاقذاع بذلك وتجدهم أيضا أبصر بالمكر والخديعة يدفعون بذلك ماعساه ينالهم من القهر وما يتوقعونه من العقاب على تلك القبائح حتى يصير ذلك عادة وخلقا لاكثرهم الا من عصمه الله ويموج بحر المدينة بالسفلة من أهل الاخلاق الذميمة ويجاريهم فيها كثير من ناشئة الدولة وولدانهم ممن أهمل عن التأديب وغلب عليه خلق الجوار وان كانوا أهل أنساب وبيوتات وذلك أن الناس بشر متماثلون وانما تفاضلوا وتميزوا بالخلق واكتساب الفضائل واجتناب الرذائل فمن استحكمت فيه صبغة الرذائل بأى وجه كان وفسد خلق الخير فيه لم ينفعه زكاء نسبه ولا طيب منبته ولهذا تجد كثيرا من أعقاب البيوت وذوى الاحساب والاصالة وأهل الدول منطرحين فى الغمار منتحلين للحرف الدنية فى معاشهم بما فسد من أخلاقهم وما تلونوا به من صبغة الشر والسفسفة واذا كثر ذلك فى المدينة أو الامة تأذن الله بخرابها وانقراضها وهو معنى قوله تعالى واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا * ووجهه حينئذ أن مكاسبهم حينئذ لا تفى بحاجاتهم لكثرة العوائد ومطالبة النفس بها فلا تستقيم أحوالهم واذا فسدت أحوال الاشخاص واحدا واحدا اختل نظام المدينة وخربت وهذا معنى ما يقوله بعض أهل الخواص ان المدينة اذا كثر فيها غرس النارنج تأذنت بالخراب حتى ان كثيرا من العامة يتحامى غرس النارنج بالدور وليس المراد ذلك ولا أنه خاصية فى النارنج وانما معناه أن البساتين واجراء المياه هو من توابع الحضارة ثم ان النارنج والليم والسرو وأمثال ذلك مما لا طعم فيه ولا منفعة هو من غاية الحضارة اذ لا يقصد بها فى البساتين الا أشكالها فقط ولا تغرس الا بعد التفنن فى مذاهب الترف وهذا هو الطور الذى يخشى معه هلاك المصر وخرابه كما قلناه ولقد قيل مثل ذلك فى الدفلى وهو من هذا الباب اذ الدفلى لا يقصد بها الا تلون البساتين بنورها ما بين أحمر وأبيض وهو من مذاهب الترف * ومن مفاسد الحضارة الانهماك فى الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف فيقع التفنن فى شهوات البطن من المآكل والملاذ ويتبع ذلك التفنن فى شهوات الفرج بأنواع المناكح من الزنا واللواط فيفضى ذلك الى فساد النوع اما بواسطة اختلاط الانساب كما فى الزنا فيجهل كل واحد ابنه اذ هو لغير رشدة لان المياه مختلطة فى الارحام فتفقد الشفقة الطبيعية على البنين والقيام عليهم فيهلكون ويؤدى ذلك الى انقطاع النوع أو يكون فساد النوع كاللواط اذ هو يؤدى الى أن لا يوجد النوع والزنا يؤدى الى عدم ما يوجد منه ولذلك كان مذهب مالك رحمه الله فى اللواط أظهر من مذهب غيره ودل على أنه أبصر بمقاصد الشريعة

واعتبارها للمصالح فافهم ذلك واعتبر به ان غاية العمران هي الحضارة والترف وأنه اذا بلغ غايته انقلب الى الفساد وأخذ في الهرم كالاعمار الطبيعية للحيوانات بل نقول ان الاخلاق الحاصلة من الحضارة والترف هي عين الفساد لان الانسان انما هو انسان باقتداره على جلب منافعه ودفع مضاره واستقامة خلقه للسعي في ذلك والحضري لا يقدر على مباشرته حاجاته اما عجزا لما حصل له من الدعة أو ترفعا لما حصل له من المربى في النعيم والترف وكلا الامرين ذميم وكذا لا يقدر على دفع المضار واستقامة خلقه للسعي في ذلك والحضري بما قد فقد من خلق الانسان بالترف والنعيم في قهر التأديب فهو بذلك عيال على الحامية التي تدافع عنه ثم هو فاسد أيضا غالبا بما فسدت منه العوائد وطاعتها وما تلونت به النفس من مكانتها كما قررناه الا في الاقل النادر واذا فسد الانسان في قدرته على أخلاقه ودينه فقد فسدت انسانيته وصار مسخا على الحقيقة. وبهذا الاعتبار كان الذين يتقربون على الحضارة وخلقها موجودين في كل دولة فقد تبين أن الحضارة هي سن الوقوف لعمر العالم في العمران والدولة والله سبحانه وتعالى كل يوم هو في شان لا يشغله شان عن شان

(فصل في ان الامصار التي تكون كراسي للملك تخرب بخراب الدولة وانتقاضها)

قد استقرينا في العمران أن الدولة اذا اختلت وانتقضت فان المصر الذي يكون كرسيا لسلطانها ينتقض عمرانه وربما ينتهي في انتقاضه الى الخراب ولا يكاد ذلك يتخلف والسبب فيه أمور * (الاول) * أن الدولة لابد في أولها من البداوة المقتضية للتجافي عن أموال الناس والبعد عن التحذلق ويدعو ذلك الى تخفيف الجباية والمغارم التي منها مادة الدولة فتقل النفقات ويقصر الترف فاذا صار المصر الذي كان كرسيا للملك في ملكة هذه الدولة المتجددة ونقصت أحوال الترف فيها نقص الترف فيمن تحت أيديها من أهل المصر لان الرعايا تبع للدولة فيرجعون الى خلق الدولة اما طوعا لما في طباع البشر من تقليد متبوعهم أو كرها لما يدعو اليه خلق الدولة من الانقباض عن الترف في جميع الاحوال وقلة الفوائد التي هي مادة العوائد فتقصر لذلك حضارة المصر ويذهب منه كثير من عوائد الترف وهو معنى ما نقول في خراب المصر * (الامر الثاني) * أن الدولة انما يحصل لها الملك والاستيلاء بالغلب وانما يكون بعد العداوة والحروب والعداوة تقتضي منافاة بين أهل الدولتين وتكثر احداهما على الاخرى في العوائد والاحوال وغلب أحد المتنافيين يذهب بالمنافي الآخر فتكون أحوال الدولة السابقة منكرة عند أهل الدولة الجديدة ومستبشعة وقبيحة وخصوصا أحوال

الترف فتنفذ في عرفهم بكبر الدولة اياها حتى تنشأ لهم بالتدريج عوائد أخرى من الترف فتكون عنها حضارة مستأنفة وفيما بين ذلك قصور الحضارة الاولى ونقصها وهو معنى اختلال العمران في المصر * (الامر الثالث) * أن كل أمة لابد لهم من وطن هو منشؤهم ومنه أولية ملكهم واذا ملكوا ملكا آخر صار تبعا للاول وأمصاره تابعة لامصار الاول واتسع نطاق الملك عليهم ولابد من توسط الكرسي تخوم الممالك التي للدولة لانه شبه المركز للنطاق فيبعد مكانه عن مكان الكرسي الاول وتهوى أفئدة الناس اليه من أجل الدولة والسلطان فينتقل اليه العمران ويخف من مصر الكرسي الاول والحضارة انما هي توفر العمران كما قدمناه فتنتقص حضارته وتمدنه وهو معنى اختلاله وهذا كما وقع للسلجوقية في عدولهم بكرسيهم عن بغداد الى اصبهان وللعرب قبلهم في العدول عن المدائن الى الكوفة والبصرة ولبني العباس في العدول عن دمشق الى بغداد ولبني مرين بالمغرب في العدول عن مراكش الى فاس وبالجملة فاتخاذ الدولة الكرسي في مصر يخل بعمران الكرسي الاول * (الامر الرابع) * أن الدولة الثانية لابد فيها من تبع أهل الدولة السابقة وأشياعها بتحويلهم الى قطر آخر يؤمن فيه غائلتهم على الدولة وأكثر أهل المصر الكرسي أشياع الدولة اما من الحامية الذين نزلوا به أول الدولة أو أعيان المصر لان لهم في الغالب مخالطة للدولة على طبقاتهم وتنوع أصنافهم بل أكثرهم ناشئ في الدولة فهم شيعة لها وان لم يكونوا بالشوكة والعصبية فهم بالميل والمحبة والعقيدة وطبيعة الدولة المتجددة محو آثار الدولة السابقة فينقلهم من مصر الكرسي الى وطنها المتمكن في ملكتها فبعضهم على نوع التغريب والحبس وبعضهم على نوع الكرامة والتلطف بحيث لا يؤدي الى النفرة حتى لا يبقى في مصر الكرسي الا الباعة والهمل من أهل الفلح والعيارة وسواد العامة وينزل مكانهم حاميتها وأشياعها من يشتد به المصر واذا ذهب من مصر أعيانهم على طبقاتهم نقص ساكنه وهو معنى اختلال عمرانه ثم لابد من أن يستجد عمران آخر في ظل الدولة الجديدة وتحصل فيه حضارة أخرى على قدر الدولة وانما ذلك بمثابة من له بيت على أوصاف مخصوصة فاظهر من قدرته على تغيير تلك الاوصاف واعادة بنائها على ما يختاره ويقترحه فيخرب ذلك البيت ثم يعيد بناءه ثانيا وقد وقع من ذلك كثير في الامصار التي هي كراسي للملك وشاهدناه وعلمناه والله يقدر الليل والنهار * والسبب الطبيعي الاول في ذلك على الجملة أن الدولة والملك للعمران بمثابة الصورة للمادة وهو الشكل الحافظ بنوعه لوجودها وقد تقرر في علوم الحكمة أنه لا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر فالدولة دون العمران لا تتصور والعمران دون الدولة والملك متعذر لما في طباع البشر من

العدوان الداعي الى الوازع فتتعين السياسة لذلك اما الشرعية أو الملكية وهو معنى الدولة واذا كانا لا ينفكان فاختلال أحدهما مؤثر في اختلال الآخر كما ان عدمه مؤثر في عدمه والخلل العظيم انما يكون من خلل الدولة الكلية مثل دولة الروم أو الفرس أو العرب على العموم أو بني أمية أو بني العباس كذلك وأما الدولة الشخصية مثل دولة أنوشروان أو هرقل أو عبد الملك بن مروان أو الرشيد فأشخاصها متعاقبة على العمران حافظة لوجوده وبقائه وقريبة الشبه بعضها من بعض فلا تؤثر كثير اختلال لان الدولة بالحقيقة الفاعلة في مادة العمران انما هي العصبية والشوكة وهي مستمرة على أشخاص الدولة فاذا ذهبت تلك العصبية ودفعتها عصبية أخرى مؤثرة في العمران ذهبت أهل الشوكة بأجمعهم وعظم الخلل كما قررناه أولا والله سبحانه وتعالى أعلم

٢٠ (فصل في اختصاص بعض الامصار ببعض الصنائع دون بعض)

وذلك أنه من البين أن أعمال أهل المصر يستدعى بعضها بعضا لما في طبيعة العمران من التعاون ومايستدعى من الاعمال يختص ببعض أهل المصر فيقومون عليه ويستبصرون في صناعته ويختصون بوظيفته ويجعلون معاشهم فيه ورزقهم منه لعموم البلوى به في المصر والحاجة اليه ومالا يستدعى في المصر يكون غفلا اذلا فائدة لمنتحله في الاحتراف به ومايستدعى من ذلك لضرورة المعاش فيوجد في كل مصر كالخياط والحداد والنجار وأمثالها ومايستدعى لعوائد الترف وأحواله فانما يوجد في المدن المستبحرة في العمارة الآخذة في عوائد الترف والحضارة مثل الزجاج والصائغ والدهان والطباخ والصفار والفراش والذباح وأمثال هذه وهي متفاوتة وبقدر ماتزيد عوائد الحضارة وتستدعى أحوال الترف تحدث صنائع لذلك النوع فتوجد بذلك المصر دون غيره ومن هذا الباب الحمامات لانها انما توجد في الامصار المستحضرة المستبحرة العمران لما يدعو اليه الترف والغنى من التنعم ولذلك لا تكون في المدن المتوسطة وان نزع بعض الملوك والرؤساء اليها فيختطها ويجرى أحوالها الا أنها اذا لم تكن لها داعية من كافة الناس فسرعان ماتهجر وتخرب وتفر عنها القومة لقلة فائدتهم ومعاشهم منها والله يقبض ويبسط

٢١ (فصل في وجود العصبية في الامصار وتغلب بعضهم على بعض)

من البين أن الالتحام والاتصال موجود في طباع البشر وان لم يكونوا أهل نسب واحد الا أنه كما قدمناه أضعف مما يكون بالنسب وأنه تحصل به العصبية بعضا مما تحصل بالنسب وأهل الامصار كثير منهم ملتحمون بالصهر يجذب بعضهم بعضا الى أن يكونوا

لحما لحما وقرابة بقرابة وتجد بينهم من العداوة والصداقة ما يكون بين القبائل والعشائر
مثله فيفترقون شيعا وعصائب فاذا نزل الهرم بالدولة وتقلص ظل الدولة عن القاصية
احتاج أهل أمصارها الى القيام على أمرهم والنظر في حماية بلدهم ورجعوا الى
الشورى وتميز العلية عن السفلة والنفوس بطباعها متطاولة الى الغلب والرياسة
فتطمح المشيخة لخلاء الجو من السلطان والدولة القاهرة الى الاستبداد وينازع كل
صاحبه ويستوصلون بالاتباع من الموالي والشيع والاحلاف ويبذلون ما في أيديهم
للاوغاد والاوشاب فيعصوصب كل لصاحبه ويتعين الغلب لبعضهم فيعطف على اكفائه
ليقص من أعنتهم ويتتبعهم بالقتل أو التغريب حتى يخضد منهم الشوكات النافذة
ويقلم الاظفار الخادشة ويستبد بمصره أجمع ويرى أنه قد استحدث ملكا يورثه عقبه
فيحدث في ذلك الملك الاصغر ما يحدث في الملك الاعظم من عوارض الجدة والهرم وربما
يسمو بعض هؤلاء الى منازع الملوك الاعاظم أصحاب القبائل والعشائر والعصبيات
والزحوف والحروب والاقطار والممالك فينتحلون بها من الجلوس على السرير
واتخاذ الآلة واعداد المواكب للسير في أقطار البلد والتختم والتحية والخطاب
بالتهويل ما يسخر منه من يشاهد أحوالهم لما انتحلوه من شارات الملك التي ليسوا لها
بأهل انما دفعهم الى ذلك تقلص الدولة والتحام بعض القرابات حتى صارت عصبية وقد
يتنزه بعضهم عن ذلك ويجري على مذهب السذاجة فرارا من التعريض بنفسه
للسخرية والعبث وقد وقع هذا بافريقية لهذا العهد في آخر الدولة الحفصية لاهل بلاد
الجريد من طرابلس وقابس وتوزر ونفطة وقفصة وبسكرة والزاب وما الى ذلك سموا
الى مثلها عند تقلص ظل الدولة عنهم منذ عقود من السنين فاستغلبوا على أمصارهم
واستبدوا بأمرها على الدولة في الاحكام والجباية وأعطوا طاعة معروفة وصفقة ممرضة
وأقطعوها جانبا من الملاينة والملاطفة والانقياد وهم بمعزل عنه وأورثوا ذلك
أعقابهم لهذا العهد وحدث في خلفهم من الغلظة والتجبر ما يحدث لاعقاب الملوك
وخلفهم ونظموا أنفسهم في عداد السلاطين على قرب عهدهم بالسوقة حتى محا ذلك
مولانا أمير المؤمنين أبو العباس وانتزع ما كان بأيديهم من ذلك كما نذكره في أخبار
الدولة وقد كان مثل ذلك وقع في آخر الدولة الصنهاجية واستقل بأمصار الجريد
أهلها واستبدوا على الدولة حتى انتزع ذلك منهم شيخ الموحدين وملكهم عبد المؤمن بن
علي ونقلهم كلهم من امارتهم بها الى المغرب ومحا من تلك البلاد آثارهم كما نذكر في
أخباره وكذا وقع بسبتة لآخر دولة بني عبد المؤمن وهذا التغلب يكون غالبا في أهل
السروات والبيوتات المرشحين للمشيخة والرياسة في المصر وقد يحدث التغلب لبعض

السفلة من الغوغاء والدهماء وإذا حصلت له العصبية والالتحام بالأوغاد لأسباب يجرّها له المقدار فيتغلب على المشيخة والعلية إذا كانوا فاقدين للعصابة والله سبحانه وتعالى غالب على أمره.

٢٢ (فصل في كتاب اهل الامصار)

(اعلم) أن لغات أهل الامصار إنما تكون بلسان الامة أو الجيل الغالبين عليها أو المختطين لها ولذلك كانت لغات الامصار الاسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربية وإن كان اللسان العربي المضري قد فسدت ملكته وتغير إعرابه والسبب في ذلك ما وقع للدولة الاسلامية من الغلب على الامم والدين والملة صورة للوجود وللملك وكلها مواد له والصور متقدمة على المادة والدين إنما يستفاد من الشريعة وهي بلسان العرب لما أن النبي صلى الله عليه وسلم عربي فوجب هجر ما سوى اللسان العربي من الألسن في جميع ممالكها واعتبر ذلك في نهي عمر رضي الله عنه عن بطانة الاعاجم وقال إنها خب أي مكر وخديعة فلما هجر الدين اللغات الاعجمية وكان لسان القائمين بالدولة الاسلامية عربيا هجرت كلها في جميع ممالكها لان الناس تبع للسلطان وعلى دينه فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الاسلام وطاعة العرب وهجر الامم لغاتهم وألسنتهم في جميع الامصار والممالك وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم ومدنهم وصارت الالسنة العجمية دخيلة فيها وغريبة ثم فسد اللسان العربي بمخالطتها في بعض أحكامه وتغير أواخره وإن كان بقي في الدلالات على أصله وسمي لسانا حضريا في جميع أمصار الاسلام وأيضا فأكثر أهل الامصار في الملة لهذا العهد من أعقاب العرب المالكين لها الهالكين في ترفها بما كثروا العجم الذين كانوا بها وورثوا أرضهم وديارهم واللغات متوارثة فبقيت لغة الاعقاب على حيال لغة الآباء وإن فسدت أحكامها بمخالطة الاعجام شيئا فشيئا وسميت لغتهم حضرية منسوبة الى أهل الحواضر والامصار بخلاف لغة البدو من العرب فإنها كانت أعرق في العروبية ولما تملك العجم من الديلم والسلجوقية بعدهم بالمشرق وزناتة والبربر بالمغرب وصار لهم الملك والاستيلاء على جميع الممالك الاسلامية فسد اللسان العربي لذلك وكاد يذهب لولا ما حفظه من عناية المسلمين بالكتاب والسنة اللذين بهما حفظ الدين وصار ذلك مرجحا لبقاء اللغة العربية المضرية من الشعر والكلام الا قليلا بالامصار فلما ملك التتر والمغل بالمشرق ولم يكونوا على دين الاسلام ذهب ذلك المرجح وفسدت اللغة العربية على الاطلاق ولم يبق لها رسم في الممالك

الاسلامية بالعراق وخراسان وبلاد فارس وأرض الهند والسند وماوراء النهر وبلاد الشمال وبلاد الروم وذهبت أساليب اللغة العربية من الشعر والكلام الاقليلا يقع تعلمه صناعيا بالقوانين المتدارسة من كلام العرب وحفظ كلامهم لمن يسره الله تعالى لذلك وربما بقيت اللغة العربية المضربة بمصر والشأم والاندلس والمغرب لبقاء الدين طلبا لها فانحفظت ببعض الشيء وأما في ممالك العراق وماوراءه فلم يبق له أثر ولا عين حتى ان كتب العلوم صارت تكتب باللسان العجمي وكذا تدريسه في المجالس والله أعلم بالصواب

(الفصل الخامس من الكتاب الاول)

في المعاش ووجوهه من المكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الاحوال

(فصل) في حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وأن الكسب هو قيمة الاعمال البشرية

* اعلم أن الانسان مفتقر بالطبع الى مايقوته ويمونه في حالاته وأطواره من لدن نشوه الى أشده الى كبره والله الغنى وأنتم الفقراء والله سبحانه خلق جميع ما في العالم للانسان وامتن به عليه في غيرما آية من كتابه فقال وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعا منه وسخر لكم البحر وسخر لكم الفلك وسخر لكم الانعام وكثير من شواهده ويد الانسان مبسوطة على العالم وما فيه بما جعل الله له من الاستخلاف وأيدي البشر منتشرة فهي مشتركة في ذلك وما حصل عليه يد هذا امتنع عن الآخر الا بعوض فالانسان متى اقتدر على نفسه وتجاوز طور الضعف سعى في اقتناء المكاسب لينفق ما آتاه الله منها في تحصيل حاجاته وضروراته بدفع الاعواض عنها قال الله تعالى فابتغوا عند الله الرزق وقد يحصل له ذلك بغير سعي كالمطر المصلح للزراعة وأمثاله الا أنها انما تكون معينة ولابد من سعيه معها كما يأتي فتكون له تلك المكاسب معاشا ان كانت بمقدار الضرورة والحاجة ورياشا ومتمولا ان زادت على ذلك ثم ان ذلك الحاصل أو المقتنى ان عادت منفعته على العبد وحصلت له ثمرته من انفاقه في مصالحه وحاجاته سمي ذلك رزقا قال صلى الله عليه وسلم انما لك من مالك ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت وان لم ينتفع به في شيء من مصالحه ولا حاجاته فلا يسمى بالنسبة الى المالك رزقا والمتملك منه حينئذ بسعي العبد وقدرته يسمى كسبا وهذا مثل التراث فانه يسمى بالنسبة الى الهالك كسبا ولا يسمى رزقا اذلم يحصل به منتفع وبالنسبة الى الوارثين متى انتفعوا به يسمى رزقا هذا حقيقة مسمى الرزق عند أهل السنة وقد اشترط المعتزلة في تسميته رزقا أن يكون بحيث يصح تملكه وما لا يتملك عندهم لا يسمى رزقا وأخرجوا

الغصوبات والحرام كله عن أن يسمى شيء منها رزقا والله تعالى يرزق الغاصب والظالم والمؤمن والكافر ويختص برحمته وهدايته من يشاء ولهم في ذلك حجج ليس هذا موضع بسطها * ثم اعلم أن الكسب انما يكون بالسعي في الاقتناء والقصد الى التحصيل فلا بد في الرزق من سعي وعمل ولو في تناوله وابتغائه من وجوهه قال تعالى فابتغوا عند الله الرزق والسعي اليه انما يكون باقدار الله تعالى والهامه فالكل من عند الله فلا بد من الاعمال الانسانية في كل مكسوب ومتمول لانه ان كان عملا بنفسه مثل الصنائع فظاهر وان كان مقتنى من الحيوان والنبات والمعدن فلا بد فيه من العمل الانساني كما تراه والا لم يحصل ولم يقع به انتفاع ثم ان الله تعالى خلق الحجرين المعدنيين من الذهب والفضة قيمة لكل متمول وهما الذخيرة والقنية لاهل العالم في الغالب وان اقتني سواهما في بعض الاحيان فانما هو لقصد تحصيلهما بما يقع في غيرهما من حوالة الاسواق التي هما عنها بمعزل فهما أصل المكاسب والقنية والذخيرة * واذا تقرر هذا كله فاعلم ان ما يفيده الانسان ويقتنيه من المتمولات ان كان من الصنائع فالمفاد المقتنى منه قيمة عمله وهو القصد بالقنية اذ ليس هناك الا العمل وليس بمقصود بنفسه للقنية وقد يكون مع الصنائع في بعضها غيرها مثل النجارة والحياكة معهما الخشب والغزل الا أن العمل فيهما أكثر فقيمته أكثر وان كان من غير الصنائع فلا بد في قيمة ذلك المفاد والقنية من دخول قيمة العمل الذي حصلت به اذ لولا العمل لم تحصل قنيتها وقد تكون ملاحظة العمل ظاهرة في الكثير منها فتجعل له حصة من القيمة عظمت أو صغرت وقد تخفى ملاحظة العمل كما في أسعار الاقوات بين الناس فان اعتبار الاعمال والنفقات فيها ملاحظ في أسعار الحبوب كما قدمناه لكنه خفي في الاقطار التي علاج الفلح فيها ومؤنته يسيرة فلا يشعر به الا القليل من أهل الفلح فقد تبين ان المفادات والمكتسبات كلها أو أكثرها انما هي قيم الاعمال الانسانية وتبين مسمى الرزق وانه المنتفع به فقد بان معنى الكسب والرزق وشرح مسماهما * واعلم أنه اذا فقدت الاعمال أو قلت بانتقاص العمران تأذن الله برفع الكسب ألا ترى الى الامصار القليلة الساكن كيف يقل الرزق والكسب فيها أو يفقد لقلة الاعمال الانسانية وكذلك الامصار التي يكون عمرانها أكثر يكون أهلها أوسع أحوالا وأشد رفاهية كما قدمناه قبل ومن هذا الباب تقول العامة في البلاد اذا تناقص عمرانها انها قد ذهب رزقها حتى ان الانهار والعيون ينقطع جريها في القفر لما أن فور العيون انما يكون بالانباط والامتراء الذي هو بالعمل الانساني كالحال في ضروع الانعام فما لم يكن انباط ولا امتراء نضبت وغارت بالجملة كما يجف الضرع اذا ترك امتراؤه انظره

فى البلاد التى تعهد فيها العيون لايام عمرانها ثم يأتى عليها الخراب كيف تغور مياهها جملة كأنها لم تكن والله يقدر الليل والنهار

٢ (فصل في وجوه المعاش واصنافه ومذاهبه)

(اعلم) أن المعاش هو عبارة عن ابتغاء الرزق والسعي فى تحصيله وهو مفعل من العيش كأنه لما كان العيش الذى هو الحياة لا يحصل الا بهذه جعلت موضعا له على طريق المبالغة ثم ان تحصيل الرزق وكسبه اما أن يكون بأخذه من يد الغير وانتزاعه بالاقتدار عليه على قانون متعارف ويسمى مغرما وجباية واما أن يكون من الحيوان الوحشى باقتناصه وأخذه برميه من البر أو البحر ويسمى اصطيادا واما أن يكون من الحيوان الداجن باستخراج فضوله المنصرفة بين الناس فى منافعهم كاللبن من الانعام والحرير من دوده والعسل من نحله أو يكون من النبات فى الزرع والشجر بالقيام عليه واعداده لاستخراج ثمرته ويسمى هذا كله فلحا واما أن يكون الكسب من الاعمال الانسانية اما فى مواد معينة وتسمى الصنائع من كتابة وتجارة وخياطة وحياكة وفروسية وأمثال ذلك أو فى مواد غير معينة وهى جميع الامتهانات والتصرفات واما أن يكون الكسب من البضائع واعدادها للاعواض اما بالتقلب بها فى البلاد واحتكارها وارتقاب حوالة الاسواق فيها ويسمى هذا تجارة فهذه وجوه المعاش وأصنافه وهى معنى ماذكره المحققون من أهل الادب والحكمة كالحريرى وغيره فانهم قالوا المعاش امارة وتجارة وفلاحة وصناعة فأما الامارة فليست بمذهب طبيعى للمعاش فلا حاجة بنا الى ذكرها وقد تقدم شئ من أحوال الجبايات السلطانية وأهلها فى الفصل الثانى وأما الفلاحة والصناعة والتجارة فهى وجوه طبيعية للمعاش أما الفلاحة فهى متقدمة عليها كلها بالذات اذ هى بسيطة وطبيعية فطرية لا تحتاج الى نظر ولا علم ولهذا تنسب فى الخليقة الى آدم أبى البشر وأنه معلمها والقائم عليها اشارة الى أنها أقدم وجوه المعاش وأنسبها الى الطبيعة وأما الصنائع فهى ثانيتها ومتأخرة عنها لانها مركبة وعلمية تصرف فيها الافكار والانظار ولهذا لا توجد غالبا الا فى أهل الحضر الذى هو متأخر عن البدو وثان عنه ومن هذا المعنى نسبت الى ادريس الاب الثانى للخليقة فانه مستنبطها لمن بعده من البشر بالوحى من الله تعالى وأما التجارة وان كانت طبيعية فى الكسب فالاكثر من طرقها ومذاهبها انما هى تحيلات فى الحصول على ما بين القيمتين فى الشراء والبيع لتحصل فائدة الكسب من تلك الفضلة ولذلك أباح الشرع فيه المكاسبة لما أنه من باب المقامرة الا أنه ليس

أخذ المال الغير مجانا فلهذا اختص بالمشروعية

٣ (فصل في ان الخدمة ليست من المعاش الطبيعي)

اعلم أن السلطان لا بد له من اتخاذ الخدمة فى سائر أبواب الامارة والملك الذى هو بسبيله من الجندى والشرطى والكاتب ويستكفى فى كل باب بمن يعلم غناءه فيه ويتكفل بأرزاقهم من بيت ماله وهذا كله مندرج فى الامارة ومعاشها اذ كلهم ينسحب عليهم حكم الامارة والملك الاعظم هو ينبوع جداولهم وأما ما دون ذلك من الخدمة فسببها ان أكثر المترفين يترفع عن مباشرة حاجاته أو يكون عاجزا عنها لما ربى عليه من خلق التنعم والترف فيتخذ من يتولى ذلك له ويقطعه عليه أجرا من ماله وهذه الحالة غير محمودة بحسب الرجولية الطبيعية للانسان اذ الثقة بكل أحد عجز ولانها تزيد فى الوظائف والخرج وتدل على العجز والخنث اللذين ينبغى فى مذاهب الرجولية التنزه عنهما الا أن العوائد تقلب طباع الانسان الى مألوفها فهو ابن عوائده لا ابن نسبه ومع ذلك فالخديم الذى يستكفى به ويوثق بغنائه كالمفقود اذ الخديم القائم بذلك لا يعدو أربع حالات اما مضطلع بأمره وموثوق فيما يحصل بيده واما بالعكس فيهما وهو أن يكون غير مضطلع بأمره ولا موثوق فيما يحصل بيده واما بالعكس فى احداهما فقط مثل أن يكون مضطلعا غير موثوق أو موثوقا غير مضطلع فاما الاول وهو المضطلع الموثوق فلا يمكن أحد استعماله بوجه اذ هو باضطلاعه وثقته غنى عن أهل الرتب الدنية ومحتقر لمنال الاجر من الخدمة لاقتداره على أكثر من ذلك فلا يستعمله الا الامراء أهل الجاه العريض لعموم الحاجة الى الجاه وأما الصنف الثانى وهو من ليس بمضطلع ولا موثوق فلا ينبغى لعاقل استعماله لانه يجحف بمخدومه فى الامرين معا فيضيع عليه لعدم الاصطناع تارة ويذهب ماله بالخيانة أخرى فهو على كل حال كل على مولاه فهذان الصنفان لا يطمع أحد فى استعمالهما ولم يبق الا استعمال الصنفين الآخرين موثوق غير مضطلع ومضطلع غير موثوق وللناس فى الترجيح بينهما مذهبان ولكل من الترجيحين وجه الا أن المضطلع ولو كان غير موثوق أرجح لانه يؤمن من تضييعه ويحاول على التحرز من خيانته جهد الاستطاعة وأما المضيع ولو كان مأمونا فضرره بالتضييع أكثر من نفعه فاعلم ذلك واتخذه قانونا فى الاستكفاء بالخدمة والله سبحانه وتعالى قادر على ما يشاء

٤ (فصل في ان ابتغاء الاموال من الدفائن والكنوز ليس بمعاش طبيعي)

اعلم أن كثيرا من ضعفاء العقول فى الامصار يحرصون على استخراج الاموال من تحت

الارض ويبتغون الكسب من ذلك ويعتقدون أن أموال الامم السالفة مختزنة كلها تحت الارض مختوم عليها كلها بطلاسم سحرية لا يفض ختامها ذلك الا من عثر على علمه واستحضر ما يحله من البخور والدعاء والقربان فأهل الامصار بافريقية يرون أن الافرنجة الذين كانوا قبل الاسلام بها دفنوا أموالهم كذلك وأودعوها في الصحف بالكتاب الى أن يجدوا السبيل الى استخراجها وأهل الامصار بالمشرق يرون مثل ذلك في أمم القبط والروم والفرس ويتناقلون في ذلك أحاديث تشبه حديث خرافة من انتهاء بعض الطالبين لذلك الى حفر موضع المال ممن لم يعرف طلسمه ولا خبره فيجدونه خاليا أو معمورا بالديدان أو يشاهد الاموال والجواهر موضوعة والحرس دونها منتضين سيوفهم أو تميد به الارض حتى يظنه خسفا أو مثل ذلك من الهدر ونجد كثيرا من طلبة البربر بالمغرب العاجزين عن المعاش الطبيعي وأسبابه يتقربون الى أهل الدنيا بالاوراق المتخرمة الحواشي اما بخطوط عجمية أو بما ترجم بزعمهم منها من خطوط أهل الدفائن باعطاء الامارات عليها في أماكنها يبتغون بذلك الرزق منهم بما يبعثونهم على الحفر والطلب ويموهون عليهم بأنهم انما حملهم على الاستعانة بهم طلب الجاه في مثل هذا من منال الحكام والعقوبات وربما تكون عند بعضهم نادرة أو غريبة من الاعمال السحرية يموه بها على تصديق ما بقي من دعواه وهو بمعزل عن السحر وطرقه فتولع كثير من ضعفاء العقول بجمع الايدي على الاحتفار والتستر فيه بظلمات الدجى مخافة الرقباء وعيون أهل الدول فاذا لم يعثروا على شيء ردوا ذلك الى الجهل بالطلسم الذي ختم به على ذلك المال يخادعون به أنفسهم عن اخفاق مطامعهم والذي يحمل على ذلك في الغالب زيادة على ضعف العقل انما هو العجز عن طلب المعاش بالوجوه الطبيعية للكسب من التجارة والفلح والصناعة فيطلبونه بالوجوه المنحرفة وعلى غير المجرى الطبيعي من هذا وأمثاله عجزا عن السعي في المكاسب وركونا الى تناول الرزق من غير تعب ولا نصب في تحصيله واكتسابه ولا يعلمون أنهم يوقعون أنفسهم بابتغاء ذلك من غير وجهه في نصب ومتاعب وجهد شديد أشد من الاول ويعرضون أنفسهم مع ذلك لمنال العقوبات وربما يحمل على ذلك في الاكثر زيادة الترف وعوائده وخروجها عن حد النهاية حتى يقصر عنها وجوه الكسب ومذاهبه ولا تفي بمطالبها فاذا عجز عن الكسب بالمجرى الطبيعي لم يجد وليجة في نفسه الا التمني لوجود المال العظيم دفعة من غير كلفة ليفي له ذلك بالعوائد التي حصل في أسرها فيحرص على ابتغاء ذلك ويسعى فيه جهده ولهذا فأكثر من تراهم يحرصون على ذلك هم المترفون من أهل الدولة ومن سكان الامصار الكثيرة الترف المتسعة الاحوال مثل مصر وما في معناها فنجد الكثير منهم

مغرمين بابتغاء ذلك وتحصيله ومساءلة الركبان عن شواذه كما يحرصون على الكيمياء هكذا بلغني عن أهل مصر في مفاوضة من يلقونه من طلبة المغاربة لعلهم يعثرون منه على دفين أو كنز ويزيدون على ذلك البحث عن تغوير المياه لما يرون أن غالب هذه الاموال الدفينة كلها في مجاري النيل وأنه أعظم ما يستر دفينا أو مختزنا في تلك الآفاق ويموه عليهم أصحاب تلك الدفاتر المفتعلة في الاعتذار عن الوصول اليها بجرية النيل تسترا بذلك من الكذب حتى يحصل على معاشه فيحرص سامع ذلك منهم على نضوب الماء بالاعمال السحرية لتحصيل مبتغاه من هذه كلفا بشأن السحر متوارثا في ذلك القطر عن أوليه فعلومهم السحرية وآثارها باقية بأرضهم في البراري وغيرها وقصة سحرة فرعون شاهدة باختصاصهم بذلك وقد تناقل أهل المغرب قصيدة ينسبونها الى حكماء المشرق تعطي فيها كيفية العمل بالتغوير بصناعة سحرية حسبما تراه فيها وهي هذه

يا طالبا للسر في التغوير * اسمع كلام الصدق من خبير
دع عنك ماقد صنفوا في كتبهم * من قول بهتان ولفظ غرور
واسمع لصدق مقالتي ونصيحتي * ان كنت ممن لا يرى بالزور
فاذا أردت تغور البئر التي * حارت لها الاوهام في التدبير
صور كصورتك التي أوقفتها * والرأس رأس الشبل في التقوير
ويداه ماسكتان للحبل الذي * في الدلو ينشل من قرار البير
وبصدره هاء كما عاينتها * عدد الطلاق احذر من التكرير
ويطأ على الطاآت غير ملامس * مشي اللبيب الكيس النحرير
ويكون حول الكل خط دائر * تربيعه أولى من التكوير
واذبح عليه الطير والطخه به * واقصده عقب الذبح بالتبخير
بالسندروس وباللبان وميعة * والقسط والبسه بثوب حرير
من أحمر أو أصفر لا أزرق * لا أخضر فيه ولا تكدير
ويشده خيطان صوف أبيض * أو أحمر من خالص التحمير
والطالع الاسد الذي قد بينوا * ويكون بدء الشهر غير منير
والبدر متصل بسعد عطارد * في يوم سبت ساعة التدبير

يعني أن تكون الطاآت بين قدميه كأنه يمشي عليها وعندي أن هذه القصيدة من تمويهات المتخرفين فلهم في ذلك أحوال غريبة واصطلاحات عجيبة وتنتهي التخرفة والكذب بهم الى أن يسكنوا المنازل المشهورة والدور المعروفة لمثل هذه ويحتفرون الحفر ويضعون المطابق فيها والشواهد التي يكتبونها في صحائف كذبهم ثم يقصدون

ضعفاء العقول بأمثال هذه الصحائف ويعثرون على اكتراء ذلك المنزل وسكناه ويوهمون أن به دفينا من المال لا يعبر عن كثرته ويطالبون بالمال لاشتراء العقاقير والبخورات لحل الطلاسم ويعدونه بظهور الشواهد التي قد أعدوها هنالك بأنفسهم ومن فعلهم فينبعث لما يراه من ذلك وهو قد خدع ولبس عليه من حيث لا يشعر وبينهم في ذلك اصطلاح في كلامهم يلبسون به عليهم ليخفى عند محاورتهم فيما يتلونه من حفر وبخور وذبح حيوان وأمثال ذلك وأما الكلام في ذلك على الحقيقة فلا أصل له في علم ولا خبر * واعلم أن الكنوز وإن كانت توجد لكنها في حكم النادر على وجه الاتفاق لا على وجه القصد إليها وليس ذلك بأمر تعم به البلوى حتى يدخر الناس أموالهم تحت الأرض ويختمون عليها بالطلاسم لا في القديم ولا في الحديث والركاز الذي ورد في الحديث وفرضه الفقهاء وهو دفين الجاهلية إنما يوجد بالعثور والاتفاق لا بالقصد والطلب وأيضا فمن اختزن ماله وختم عليه بالأعمال السحرية فقد بالغ في إخفائه فكيف ينصب عليه الأدلة والأمارات لمن يبتغيه ويكتب ذلك في الصحائف حتى يطلع على ذخيرته أهل الأعصار والآفاق هذا يناقض قصد الإخفاء وأيضا فأفعال العقلاء لا بد وأن تكون لغرض مقصود في الانتفاع ومن اختزن المال فإنه يختزنه لولده أو قريبه أو من يؤثره وأما أن يقصد إخفاءه بالكلية عن كل أحد وإنما هو للبلاء والهلاك أو لمن لا يعرفه بالكلية ممن سيأتي من الأمم فهذا ليس من مقاصد العقلاء بوجه * وأما قولهم أين أموال الأمم من قبلنا وما علم فيها من الكثرة والوفور فاعلم أن الأموال من الذهب والفضة والجواهر والأمتعة إنما هي معادن ومكاسب مثل الحديد والنحاس والرصاص وسائر العقارات والمعادن والعمران يظهرها بالأعمال الإنسانية ويزيد فيها أو ينقصها وما يوجد منها بأيدي الناس فهو متناقل متوارث وربما انتقل من قطر إلى قطر ومن دولة إلى أخرى بحسب أغراضه والعمران الذي يستدعي له فإن نقص المال في المغرب وإفريقية فلم ينقص ببلاد الصقالبة والافرنج وإن نقص في مصر والشام فلم ينقص في الهند والصين وإنما هي الآلات والمكاسب والعمران يوفرها أو ينقصها مع أن المعادن يدركها البلاء كما يدرك سائر الموجودات ويسرع إلى اللؤلؤ والجوهر أعظم مما يسرع إلى غيره وكذا الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والقصدير ينالها من البلاء والفناء ما يذهب بأعيانها لأقرب وقت وأما ما وقع في مصر من أمر المطالب والكنوز فسببه أن مصر في ملكة القبط منذ آلاف أو يزيد من السنين وكان موتاهم يدفنون بموجودهم من الذهب والفضة والجوهر واللآلئ على مذهب من تقدم من أهل الدول فلما انقضت دولة القبط وملك الفرس بلادهم نقروا على ذلك

في قبورهم وكثيـر في قبورهم ما لا يوصف كالاهرام من قبور الملوك وغيرها وكذا فعل اليونانيون من بعدهم وصارت قبورهم مظنة لذلك لهذا العهد ويعثر على الدفين فيها في كثير من الاوقات أما ما يدفنونه من أموالهم أو ما يكرمون به موتاهم في الدفن من أوعية وتوابيت من الذهب والفضة معدة لذلك فصارت قبور القبط منذ آلاف من السنين مظنة لوجود ذلك فيها فلذلك عني أهل مصر بالبحث عن المطالب لوجود ذلك فيها واستخراجها حتى انهم حين ضربت المكوس على الاصناف آخر الدولة ضربت على أهل المطالب وصدرت ضريبة على من يشتغل بذلك من الحمقى والمهوسين فوجد بذلك المتعاطون من أهل الاطماع الذريعة الى الكشف عنه والذرع باستخراجه وما حصلوا الا على الخيبة في جميع مساعيهم نعوذ بالله من الخسران فيحتاج من وقع له شيء من هذا الوسواس وابتلي به أن يتعوذ بالله من العجز والكسل في طلب معاشه كما تعوذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك وينصرف عن طرق الشيطان ووسواسه ولا يشغل نفسه بالمحالات والمكاذب من الحكايات والله يرزق من يشاء بغير حساب

٥ (فصل في ان الجاه مفيد للمال)

وذلك انا نجد صاحب المال والحظوة في جميع أصناف المعاش أكثر يسارا وثروة من فاقد الجاه والسبب في ذلك أن صاحب الجاه مخدوم بالاعمال يتقرب بها اليه في سبيل التزلف والحاجة الى جاهه فالناس معينون له بأعمالهم في جميع حاجاته من ضروري أو حاجي أو كمالي فتحصل قيم تلك الاعمال كلها من كسبه وجميع ما شأنه أن تبذل فيه الاعواض من العمل يستعمل فيها الناس من غير عوض فتتوفر قيم تلك الاعمال عليه فهو بين قيم للاعمال يكتسبها وقيم أخرى تدعوه الضرورة الى اخراجها فتتوفر عليه والاعمال لصاحب الجاه كثيرة فتفيد الغنى لاقرب وقت ويزداد مع الايام يسارا وثروة ولهذا المعنى كانت الامارة أحد أسباب المعاش كما قدمناه وفاقد الجاه بالكلية ولو كان صاحب مال فلا يكون يساره الا بمقدار ماله وعلى نسبة سعيه وهؤلاء هم أكثر التجار ولهذا تجد أهل الجاه منهم يكونون أيسر بكثير ومما يشهد لذلك انا نجد كثيرا من الفقهاء وأهل الدين والعبادة اذا اشتهر حسن الظن بهم واعتقد الجمهور معاملة الله في ارفادهم فأخلص الناس في اعانتهم على أحوال دنياهم والاعتمال في مصالحهم أسرعت اليهم الثروة وأصبحوا مياسير من غير مال مقتنى الا ما يحصل لهم من قيم الاعمال التي وقعت المعونة بها من الناس لهم ورأينا من ذلك

اعدادا في الامصار والمدن وفي البدو يسعى لهم الناس في الفلح والتجر وكل قاعد بمنزله لا يبرح من مكانه فينمو ماله و يعظم كسبه و يتأثل الغنى من غير سعي و يعجب من لا يفطن لهذا السر في حال ثروته وأسباب غناه و يساره والله سبحانه وتعالى يرزق من يشاء بغير حساب

٦ فصل في ان السعادة والكسب انما يحصل غالباً لاهل الخضوع والتملق وان هذا الخلق من اسباب السعادة

قد سلف لنا فيما سبق أن الكسب الذي يستفيده البشر انما هو قيم أعمالهم ولو قدر أحد عطل عن العمل جملة لكان فاقد الكسب بالكلية وعلى قدر عمله وشرفه بين الاعمال وحاجة الناس اليه يكون قدر قيمته وعلى نسبة ذلك نمو كسبه أو نقصانه وقد بينا آنفا أن الجاه يفيد المال لما يحصل لصاحبه من تقرب الناس اليه بأعمالهم وأموالهم في دفع المضار وجلب المنافع وكان ما يتقربون به من عمل أو مال عوضا عما يحصلون عليه بسبب الجاه من الاغراض في صالح أو طالح وتصير تلك الاعمال في كسبه وقيمها أموال وثروة له فيستفيد الغنى واليسار لاقرب وقت ثم ان الجاه متوزع في الناس ومترتب فيهم طبقة بعد طبقة ينتهي في العلو الى الملوك الذين ليس فوقهم يد عالية وفي السفل الى من لا يملك ضرا ولا نفعا بين أبناء جنسه و بين ذلك طبقات متعددة حكمة الله في خلقه بما ينتظم معاشهم وتتيسر مصالحهم و يتم بقاؤهم لان النوع الانساني لا يتم وجوده الا بالتعاون وأنه وان ندر فقد ذلك في صورة مفروضة لا يصح بقاؤه ثم ان هذا التعاون لا يحصل الا بالاكراه عليه لجهلهم في الاكثر بمصالح النوع ولما جعل لهم من الاختيار وان أفعالهم انما تصدر بالفكر والروية لا بالطبع وقد يمتنع من المعاونة فيتعين حمله عليها فلا بد من حامل يكره أبناء النوع على مصالحهم لتتم الحكمة الالهية في بقاء هذا النوع وهذا معنى قوله تعالى ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون فقد تبين أن الجاه هو القدرة الحاملة للبشر على التصرف فيمن تحت أيديهم من أبناء جنسهم بالاذن والمنع والتسلط بالقهر والغلبة ليحملهم على دفع مضارهم وجلب منافعهم في العدل بأحكام الشرائع والسياسة وعلى أغراضه فيما سوى ذلك ولكن الاول مقصود في العناية الربانية بالذات والثاني داخل فيها بالعرض كسائر الشرور الداخلة في القضاء الالهي لانه قد لا يتم وجود الخير الكثير الا بوجود شر يسير من أجل المواد فلا يفوت الخير بذلك بل يقع على ما ينطوي عليه من الشر اليسير وهذا معنى وقوع الظلم في الخليقة فتفهم ثم ان كل طبقة من طباق

آهل العمران من مدينة أو اقليم لها قدرة على من دونها من الطباق وكل واحد من
الطبقة السفلى يستمد بذى الجاه من أهل الطبقة التى فوقه ويزداد كسبه تصرفا فيمن
تحت يده على قدر ما يستفيد منه والجاه على ذلك داخل على الناس فى جميع أبواب
المعاش ويتسع ويضيق بحسب الطبقة والطور الذى فيه صاحبه فان كان الجاه
متسعا كان الكسب الناشئ عنه كذلك وان كان ضيقا قليلا فمثله وفاقد الجاه وان كان
له مال فلا يكون يساره الا بمقدار عمله أو ماله ونسبة سعيه ذاهبا وآيبا فى تنميته كأكثر
التجار وأهل الفلاحة فى الغالب وأهل الصنائع كذلك اذا فقدوا الجاه واقتصروا
على فوائد صنائعهم فانهم يصيرون الى الفقر والخصاصة فى الأكثر ولا تسرع اليهم
ثروة وانما يرمقون العيش ترميقا ويدافعون ضرورة الفقر مدافعة واذا تقرر ذلك
وأن الجاه متفرع وأن السعادة والخير مقترنان بحصوله علمت أن بذله وافادته من
أعظم النعم وأجلها وأن باذله من أجل المنعمين وانما يبذله لمن تحت يديه فيكون بذله
بيد عالية وعزة فيحتاج طالبه ومبتغيه الى خضوع وتملق كما يسأل أهل العز والملوك
والا فيتعذر حصوله فلذلك قلنا ان الخضوع والتملق من أسباب حصول هذا الجاه
المحصل للسعادة والكسب وان أكثر أهل الثروة والسعادة بهذا التملق ولهذا نجد
الكثير ممن يتخلق بالترفع والشمم لا يحصل لهم غرض الجاه فيقتصرون فى التكسب على
أعمالهم ويصيرون الى الفقر والخصاصة * واعلم أن هذا الكبر والترفع من الاخلاق
المذمومة انما يحصل من توهم الكمال وأن الناس يحتاجون الى بضاعته من علم
أو صناعة كالعالم المتبحر فى علمه أو الكاتب المجيد فى كتابته أو الشاعر البليغ فى شعره
وكل محسن فى صناعته يتوهم أن الناس محتاجون لما بيده فيحدث له ترفع عليهم بذلك
وكذا يتوهم أهل الانساب ممن كان فى آبائه ملك أو عالم مشهور أو كامل فى طور يعبرون
بما رأوه أو سمعوه من حال آبائهم فى المدينة ويتوهمون أنهم استحقوا مثل ذلك بقرابتهم
اليهم ووراثتهم عنهم فهم مستمسكون فى الحاضر بالامر المعدوم وكذلك أهل الحيلة
والبصر والتجارب بالامور قد يتوهم بعضهم كمالا فى نفسه بذلك واحتياجا اليه وتجد
هؤلاء الاصناف كلهم مترفعين لا يخضعون لصاحب الجاه ولا يتملقون لمن هو أعلى
منهم ويستصغرون من سواهم لاعتقادهم الفضل على الناس فيستنكف أحدهم عن
الخضوع ولو كان للملك ويعده مذلة وهوانا وسفها ويحاسب الناس فى معاملتهم
اياه بمقدار ما يتوهم فى نفسه ويحقد على من قصر له فى شئ مما يتوهمه من ذلك
وربما يدخل على نفسه الهموم والاحزان من تقصيرهم فيه ويستمر فى عناء عظيم من
ايجاب الحق لنفسه أو اباية الناس له من ذلك ويحصل له المقت من الناس لما فى طباع

البشر من التأله وقل أن يسلم أحد منهم لاحد في الكمال والترفع عليه الا أن يكون ذلك بنوع من القهر والغلبة والاستطالة وهذا كله في ضمن الجاه فاذا فقد صاحب هذا الخلق الجاه وهو مفقود له كما تبين لك مقته الناس بهذا الترفع ولم يحصل له حظ من احسانهم وفقد الجاه لذلك من أهل الطبقة التي هي أعلى منه لاجل المقت وما يحصل له بذلك من القعود عن تعاهدهم وغشيان منازلهم ففسد معاشه وبقي في خصاصة وفقر أو فوق ذلك بقليل وأما الثروة فلا تحصل له أصلا ومن هذا اشتهر بين الناس أن الكامل في المعرفة محروم من الحظ وأنه قد حوسب بما رزق من المعرفة واقتطع له ذلك من الحظ وهذا معناه ومن خلق لشئ يسر له والله المقدر لا رب سواه ولقد يقع في الدول اضراب في المراتب من أهل هذا الخلق ويرتفع فيها كثير من السفلة وينزل كثير من العلية بسبب ذلك وذلك أن الدول اذا بلغت نهايتها من التغلب والاستيلاء انفرد منها منبت الملك بملكهم وسلطانهم ويئس من سواهم من ذلك وانما صاروا في مراتب دون مرتبة الملك وتحت يد السلطان وكأنهم خول له فاذا استمرت الدولة وشمخ الملك تساوى حينئذ في المنزلة عند السلطان كل من انتمى الى خدمته وتقرب اليه بنصيحة واصطنعه السلطان لغنائه في كثير من مهماته فتجد كثيرا من السوقة يسعى في التقرب من السلطان بجده ونصحه ويتزلف اليه بوجوه خدمته ويستعين على ذلك بعظيم من الخضوع والتملق له ولحاشيته وأهل نسبه حتى يرسخ قدمه معهم وينظمه السلطان في جملته فيحصل له بذلك حظ عظيم من السعادة وينتظم في عدد أهل الدولة وناشئة الدولة حينئذ من أبناء قومها الذين ذللوا أضغانهم ومهدوا أكنافهم مغترون بما كان لآبائهم في ذلك من الآثار لم تسمح به نفوسهم على السلطان ويعتدون بآثاره ويجرون في مضمار الدولة بسببه فيمقتهم السلطان لذلك ويباعدهم ويميل الى هؤلاء المصطنعين الذين لا يعتدون بقديم ولا يذهبون الى دالة ولا ترفع انما دأبهم الخضوع له والتملق والاعتمال في غرضه متى ذهب اليه فيتسع جاههم وتعلو منازلهم وتنصرف اليهم الوجوه والخواطر بما يحصل لهم من قبل السلطان والمكانة عنده ويبقى ناشئة الدولة فيما هم فيه من الترفع والاعتداد بالقديم لا يزيدهم ذلك الا بعدا من السلطان ومقتا وايثارا لهؤلاء المصطنعين عليهم الى أن تنقرض الدولة وهذا أمر طبيعي في الدولة ومنه جاء شأن المصطنعين في الغالب والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب سواه

٧ فصل في ان القائمين بامور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والامامة

والسبب لذلك أن الكسب كما قدمناه قيمة الاعمال وأنها متفاوتة بحسب الحاجة اليها فاذا كانت الاعمال ضرورية في العمران عامة البلوى به كانت قيمتها أعظم وكانت الحاجة اليها أشد وأهل هذه البضائع الدينية لا تضطر اليهم عامة الخلق وانما يحتاج الى ما عندهم الخواص ممن أقبل على دينه وان احتيج الى الفتيا والقضاء في الخصومات فليس على وجه الاضطرار والعموم فيقع الاستغناء عن هؤلاء في الأكثر وانما يهتم باقامة مراسمهم صاحب الدولة بما اله من النظر في المصالح فيقسم لهم حظا من الرزق على نسبة الحاجة اليهم على النحو الذي قررناه لا يساويهم بأهل الشوكة ولا بأهل الصنائع من حيث الدين والمراسم الشرعية لكنه يقسم بحسب عموم الحاجة وضرورة أهل العمران فلا يصح في قسمهم الا القليل وهم أيضا الشرف بضائعهم أعزة على الخلق وعند نفوسهم فلا يخضعون لاهل الجاه حتى ينالوا منه حظا يستدرون به الرزق بل ولا تفرغ أوقاتهم لذلك لما هم فيه من الشغل بهذه البضائع الشريفة المشتملة على اعمال الفكر والبدن بل ولا يسعهم ابتذال أنفسهم لاهل الدنيا لشرف بضائعهم فهم بمعزل عن ذلك فلذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب ولقد باحثت بعض الفضلاء فنكر ذلك علي فوقع بيدي أوراق مخرقة من حسابات الدواوين بدار المأمون تشتمل على كثير من الدخل والخرج وكان فيما طالعت فيه أرزاق القضاة والائمة والمؤذنين فوقفته عليه وعلم منه صحة ما قلته ورجع اليه وقضينا العجب من أسرار الله في خلقه وحكمته في عوالمه والله الخالق القادر لا رب سواه

٨ (فصل في ان الفلاحة من معاش المستضعفين واهل العافية من البدو)

وذلك لانه أصيل في الطبيعة وبسيط في منحاه ولذلك لا تجده ينتحله أحد من أهل الحضر في الغالب ولا من المترفين ويختص منتحله بالمذلة قال صلى الله عليه وسلم وقد رأى السكة ببعض دور الانصار ما دخلت هذه دار قوم الا دخله الذل وحمله البخاري على الاستكثار منه وترجم عليه باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع أو تجاوز الحد الذي أمر به والسبب فيه والله أعلم ما يتبعها من المغرم المفضي الى التحكم واليد العالية فيكون الغارم ذليلا بائسا بما تتناوله أيدي القهر والاستطالة قال صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تعود الزكاة مغرما اشارة الى الملك العضوض القاهر للناس الذي معه التسلط والجور ونسيان حقوق الله تعالى في المتمولات واعتبار الحقوق كلها مغرما للملوك والدول والله قادر على ما يشاء والله سبحانه

وتعالى أعلم وبه التوفيق

٩ . (فصل في ان معنى التجارة ومذاهبها واصنافها)

اعلم أن التجارة محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء أيا ما كانت السلعة من رقيق أو زرع أو حيوان أو قماش وذلك القدر النامي يسمى ربحا فالمحاولة لذلك الربح اما أن يختزن السلعة ويتحين بها حوالة الاسواق من الرخص الى الغلاء فيعظم ربحه واما بأن ينقله الى بلد آخر تنفق فيه تلك السلعة أكثر من بلده الذى اشتراها فيه فيعظم ربحه ولذلك قال بعض الشيوخ من التجار لطالب الكشف عن حقيقة التجارة أنا أعلمها لك فى كلمتين اشتراء الرخيص وبيع الغالى فقد حصلت التجارة اشارة له بذلك الى المعنى الذى قررناه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب سواه

١٠ (فصل في اي اصناف الناس يحترف بالتجارة وايهم ينبغي له اجتناب حرفها

قد قدمنا أن معنى التجارة تنمية المال بشراء البضائع ومحاولة بيعها بأغلى من ثمن الشراء اما بانتظار حوالة الاسواق أو نقلها الى بلد هي فيه أنفق وأغلى أو بيعها بالغلاء على الآجال وهذا الربح بالنسبة الى أصل المال يسير الا أن المال اذا كان كثيرا عظم الربح لان القليل فى الكثير كثير ثم لا بد فى محاولة هذه التنمية من حصول هذا المال بأيدى الباعة فى شراء البضائع وبيعها ومعاملتهم فى تقاضى أثمانها وأهل النصفة قليل فلا بد من الغش والتطفيف المجحف بالبضائع ومن المطل فى الاثمان المجحف بالربح كتعطيل المحاولة فى تلك المدة وبها نماؤه ومن الجحود والانكار المسحت لرأس المال ان لم يتقيد بالكتاب والشهادة وغناء الحكام فى ذلك قليل لان الحكم انما هو على الظاهر فيعانى التاجر من ذلك أحوالا صعبة ولا يكاد يحصل على ذلك التافه من الربح الا بعظم العناء والمشقة أو لا يحصل أو يتلاشى رأس ماله فان كان جريئا على الخصومة بصيرا بالحسبان شديد المماحكة مقداما على الحكام كان ذلك أقرب له الى النصفة بجراءته منهم ومماحكته والا فلا بد له من جاه يدرع به يوقع له الهيبة عند الباعة ويحمل الحكام على انصافه من معامليه فيحصل له بذلك النصفة فى ماله طوعا فى الاول وكرها فى الثانى وأما من كان فاقدا للجراءة والاقدام من نفسه فاقد الجاه من الحكام فينبغى له أن يجتنب الاحتراف بالتجارة لانه يعرض ماله للضياع والذهاب ويصير مأكلة للباعة ولا يكاد ينتصف منهم لان الغالب فى الناس وخصوصا الرعاع والباعة شرهون الى ما فى أيدى الناس سواهم متوثبون عليه ولولا وازع الاحكام لاصبحت أموال الناس نهبا

١١ (فصل في ان خلق التجار نازلة عن خلق الاشراف والملوك)

وذلك أن التجار في غالب أحوالهم انما يعانون البيع والشراء ولا بد فيه من المكايسة ضرورة فان اقتصر عليها اقتصرت به على خلقها وهي أعني خلق المكايسة بعيدة عن المروأة التي تتخلق بها الملوك والاشراف وأما ان استرذل خلقه بما يتبع ذلك في أهل الطبقة السفلى منهم من المماحكة والغش والخلابة وتعاهد الايمان الكاذبة على الاثمان ردا وقبولا فأجدر بذلك الخلق أن يكون في غاية المذلة لما هو معروف ولذلك تجد أهل الرياسة يتحامون الاحتراف بهذه الحرفة لاجل ما يكسب من هذا الخلق وقد يوجد منهم من يسلم من هذا الخلق ويتحاماه لشرف نفسه وكرم جلاله الأأنه في النادر بين الوجود والله يهدى من يشاء بفضله وكرمه وهو رب الاولين والآخرين

١٢ (فصل في نقل التاجر للسلع)

التاجر البصير بالتجارة لا ينقل من السلع الا ما تعم الحاجة اليه من الغني والفقير والسلطان والسوقة اذ في ذلك نفاق سلعته وأما اذا اختص نقله بما يحتاج اليه البعض فقط فقد يتعذر نفاق سلعته حينئذ باعواز الشراء من ذلك البعض لعارض من العوارض فتكسد سوقه وتفسد أرباحه وكذلك اذا نقل السلعة المحتاج اليها فانما ينقل الوسط من صنفها فان العالي من كل صنف من السلع انما يختص به أهل الثروة وحاشية الدولة وهم الاقل وانما يكون الناس اسوة في الحاجة الى الوسط من كل صنف فليتحر ذلك جهده ففيه نفاق سلعته أو كسادها وكذلك نقل السلع من البلد البعيد المسافة أو في شدة الخطر في الطرقات يكون أكثر فائدة للتجار وأعظم أرباحا وأكفل بحوالة الاسواق لان السلعة المنقولة حينئذ تكون قليلة معوزة لبعد مكانها أو شدة الغرر في طريقها فيقل حاملوها ويعز وجودها واذا قلت وعزت غلت أثمانها وأما اذا كان البلد قريب المسافة والطريق سابل بالامن فانه حينئذ يكثر ناقلوها فتكثر وترخص أثمانها ولهذا تجد التجار الذين يولعون بالدخول الى بلاد السودان أرفه الناس وأكثرهم أموالا لبعد طريقهم ومشقته واعتراض المفازة الصعبة المخطرة بالخوف والعطش لا يوجد فيها الماء الا في أماكن معلومة يهتدى اليها أدلاء الركبان فلا يرتكب خطر هذا الطريق وبعده الا الاقل من الناس فتجد سلع بلاد السودان قليلة لدينا فتختص بالغلاء وكذلك سلعنا لديهم فتعظم بضائع التجار من

تناقلها و يسرع اليهم الغنى والثروة من أجل ذلك وكذلك المسافرون من بلادنا الى المشرق لبعد الشقة أيضا وأما المترددون فى أفق واحد ما بين أمصاره وبلدانه ففائدتهم قليلة وأرباحهم تافهة لكثرة السلع وكثرة ناقليها والله هو الرزاق ذو القوة المتين

١٣ (فصل في الاحتكار)

ومما اشتهر عند ذوي البصر والتجربة فى الامصار أن احتكار الزرع لتحين أوقات الغلاء مشؤم وأنه يعود على فائدته بالتلف والخسران وسببه والله أعلم أن الناس لحاجتهم الى الاقوات مضطرون الى ما يبذلون فيها من المال اضطرارا فتبقى النفوس متعلقة به وفى تعلق النفوس بمالها سر كبير فى وباله على من يأخذه مجانا ولعله الذي اعتبره الشارع فى أخذ أموال الناس بالباطل وهذا وان لم يكن مجانا فالنفوس متعلقة به لاعطائه ضرورة من غير سعة فى العذر فهو كالمكره وما عدا الاقوات والمأكولات من المبيعات لا اضطرار للناس اليها وانما يبعثهم عليها التفنن فى الشهوات فلا يبذلون أموالهم فيها الا باختيار وحرص ولا يبقى لهم تعلق بما أعطوه فلهذا يكون من عرف بالاحتكار تجتمع القوى النفسانية على متابعته لما يأخذه من أموالهم فيفسد ربحه والله تعالى أعلم * وسمعت فيما يناسب هذا حكاية ظريفة عن بعض مشيخة المغرب أخبرني شيخنا أبو عبد الله الابلي قال حضرت عند القاضي بفاس لعهد السلطان أبي سعيد وهو الفقيه أبو الحسن المليلي وقد عرض عليه أن يختار بعض الالقاب المخزنية لجرايته قال فأطرق مليا ثم قال لهم من مكس الخمر فاستضحك الحاضرون من أصحابه وعجبوا وسألوه عن حكمة ذلك فقال اذا كانت الجبايات كلها حراما فأختار منها ما لا تتابعه نفس معطيه والخمر قل أن يبذل فيها أحد ماله الا وهو طرب مسرور بوجدانه غير أسف عليه ولا متعلقة به نفسه وهذه ملاحظة غريبة والله سبحانه وتعالى يعلم ما تكن الصدور

١٤ (فصل في ان رخص الاسعار مضر بالمحترفين بالرخص)

وذلك أن الكسب والمعاش كما قدمناه انما هو بالصنائع أو التجارة والتجارة هي شراء البضائع والسلع وادخارها يتحين بها حوالة الاسواق بالزيادة فى أثمانها ويسمى ربحا ويحصل منه الكسب والمعاش للمحترفين بالتجارة دائما فاذا استديم الرخص فى سلعة أو عرض من مأكول أو ملبوس أو متمول على الجملة ولم يحصل للتاجر حوالة الاسواق فسد الربح والنماء بطول تلك المدة وكسدت سوق ذلك الصنف فقعد التجار عن السعي

فيها وفسدت رؤس أموالهم واعتبر ذلك أولا بالزرع فانه اذا استديم رخصه يفسد به حال المحترفين بسائر أطواره من الفلح والزراعة لقلة الربح فيه وندارته أو فقده فيفقدون النماء فى أموالهم أو يجدونه على قلة ويعودون بالانفاق على رؤس أموالهم وتفسد أحوالهم ويصيرون الى الفقر والخصاصة ويتبع ذلك فساد حال المحترفين أيضا بالطحن والخبز وسائر ما يتعلق بالزراعة من الحرث الى صيرورته مأكولا وكذا يفسد حال الجند اذا كانت أرزاقهم من السلطان على أهل الفلح زرعا فانها تقل جبايتهم من ذلك ويعجزون عن اقامة الجندية التى هم بسببها ومطالبون بها ومنقطعون لها فتفسد أحوالهم وكذا اذا استديم الرخص فى السكر والعسل فسد جميع ما يتعلق به وقعد المحترفون عن التجارة فيه وكذا الملبوسات اذا استديم فيها الرخص فاذا الرخص المفرط يجحف بمعاش المحترفين بذلك الصنف الرخيص وكذا الغلاء المفرط أيضا وانما معاش الناس وكسبهم فى التوسط من ذلك وسرعة حوالة الاسواق وعلم ذلك يرجع الى العوائد المتقررة بين أهل العمران وانما يحمد الرخص فى الزرع من بين المبيعات لعموم الحاجة اليه واضطرار الناس الى الاقوات من بين الغنى والفقير والعالة من الخلق هم الاكثر فى العمران فيعم الرفق بذلك ويرجح جانب القوت على جانب التجارة فى هذا الصنف الخاص والله الرزاق ذو القوة المتين والله سبحانه وتعالى رب العرش العظيم

١٥ (فصل في ان خلق التجارة نازلة عن خلق الرؤساء وبعيدة عن المروأة)

قد قدمنا فى الفصل قبله أن التاجر مدفوع الى معاناة البيع والشراء وجلب الفوائد والارباح ولا بد فى ذلك من المكايسة والمماحكة والتحذلق وممارسة الخصومات واللجاج وهى عوارض هذه الحرفة وهذه الاوصاف نقص من الذكاء والمروأة وتجرح فيها لان الافعال لابد من عود آثارها على النفس فأفعال الخير تعود بآثار الخير والذكاء وأفعال الشر والسفسفة تعود بضد ذلك فتتمكن وترسخ ان سبقت وتكررت وتنقص خلال الخير ان تأخرت عنها بما ينطبع من آثارها المذمومة فى النفس شأن الملكات الناشئة عن الافعال وتتفاوت هذه الآثار بتفاوت أصناف التجار فى أطوارهم فمن كان منهم سافل الطور محالفا لاشرار الباعة أهل الغش والخلابة والفجور فى الاثمان اقرارا وانكارا كانت رداءة تلك الخلق عنده أشد وغلبت عليه السفسفة وبعد عن المروأة واكتسابها بالجملة والا فلا بد له من تأثير المكايسة والمماحكة فى مروأته وفقدان ذلك منهم فى الجملة ووجود الصنف الثانى منهم الذى

قدمناه في الفصل قبله أنهم يذرعون بالجاه ويعوض لهم من مباشرة ذلك فهم نادر وأقل من النادر وذلك أن يكون المال قد يوجد عنده دفعة بنوع غريب أو ورثه عن أحد من أهل بيته فحصلت له ثروة تعينه على الاتصال بأهل الدولة وتكسبه ظهورا وشهرة بين أهل عصره فيرتفع عن مباشرة ذلك بنفسه ويدفعه الى من يقوم له به من وكلائه وحشمه ويسهل له الحكام النصفة في حقوقهم بما يؤنسونه من بره واتحافه فيبعدونه عن تلك الخلق بالبعد عن معاناة الافعال المقتضية لها كما مر فتكون مروآتهم أرسخ وأبعد عن تلك المحاجاة الا ما يسرى من آثار تلك الافعال من وراء الحجاب فانهم يضطرون الى مشارفة أحوال أولئك الوكلاء ووفاقهم أو خلافهم فيما يأتون أو يذرون من ذلك الا أنه قليل ولا يكاد يظهر أثره والله خلقكم وما تعملون

١٦ (فصل في ان الصنائع لا بد لها من المعلم)

(اعلم) أن الصناعة هي ملكة في أمر عملي فكري وبكونه عمليا هو جسماني محسوس والاحوال الجسمانية المحسوسة فنقلها بالمباشرة أوعب لها وأكمل لان المباشرة في الاحوال الجسمانية المحسوسة أتم فائدة والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته وعلى نسبة الاصل تكون الملكة ونقل المعاينة أوعب وأتم من نقل الخبر والعلم فالملكة الحاصلة عنه أكمل وأرسخ من الملكة الحاصلة عن الخبر وعلى قدر جودة التعليم وملكة المتعلم يكون حذق المتعلم في الصناعة وحصول ملكته ثم ان الصنائع منها البسيط ومنها المركب والبسيط هو الذي يختص بالضروريات والمركب هو الذي يكون للكماليات والمتقدم منها في التعليم هو البسيط لبساطته أولا ولانه مختص بالضروري الذي تتوفر الدواعي على نقله فيكون سابقا في التعليم ويكون تعليمه لذلك ناقصا ولا يزال الفكر يخرج أصنافها ومركباتها من القوة الى الفعل بالاستنباط شيأ فشيأ على التدريج حتى تكمل ولا يحصل ذلك دفعة وانما يحصل في أزمان وأجيال اذ خروج الاشياء من القوة الى الفعل لا يكون دفعة لا سيما في الامور الصناعية فلا بد له اذن من زمان ولهذا تجد الصنائع في الامصار الصغيرة ناقصة ولا يوجد منها الا البسيط فاذا تزايدت حضارتها ودعت أمور الترف فيها الى استعمال الصنائع خرجت من القوة الى الفعل وتنقسم الصنائع أيضا الى ما يختص بأمر المعاش ضروريا كان أو غير ضروري والى ما يختص بالافكار التي هي خاصية الانسان من العلوم والصنائع والسياسة ومن الاول الحياكة والجزارة والنجارة والحدادة وأمثالها ومن الثاني الوراقة وهي

معاناة الكتب بالانتساخ والتجليد والغناء والشعر وتعليم العلم وأمثال ذلك ومن الثالث الجندية وأمثالها والله أعلم

١٧ (فصل في ان الصنائع انما تكمل بكمال العمران الحضري و كثرته)

والسبب في ذلك أن الناس مالم يستوف العمران الحضري وتتمدن المدينة انما همهم في الضروري من المعاش وهو تحصيل الاقوات من الحنطة وغيرها فاذا تمدنت المدينة وتزايدت فيها الاعمال ووفت بالضروري وزادت عليه صرف الزائد حينئذ الى الكمالات من المعاش ثم ان الصنائع والعلوم انما هي للانسان من حيث فكره الذي يتميز به عن الحيوانات والقوت له من حيث الحيوانية والغذائية فهو مقدم لضروريته على العلوم والصنائع وهي متأخرة عن الضروري وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنق فيها حينئذ واستجادة ما يطلب منها بحيث تتوفر دواعي الترف والثروة وأما العمران البدوي أو القليل فلا يحتاج من الصنائع الا البسيط خاصة المستعمل في الضروريات من نجار أو حداد أو خياط أو حائك أو جزار واذا وجدت هذه بعد فلا توجد فيه كاملة ولا مستجادة وانما يوجد منها بمقدار الضرورة اذ هي كلها وسائل الى غيرها وليست مقصودة لذاتها واذا زخر بحر العمران وطلبت فيه الكمالات كان من جملتها التأنق في الصنائع واستجادتها فكملت بجميع متمماتها وتزايدت صنائع أخرى معها مما تدعو اليه عوائد الترف وأحواله من جزار ودباغ وخراز وصائغ وأمثال ذلك وقد تنتهي هذه الاصناف اذا استبحر العمران الى ان يوجد منها كثير من الكمالات والتأنق فيها في الغاية وتكون من وجوه المعاش في المصر لمنتحلها بل تكون فائدتها من أعظم فوائد الاعمال لما يدعو اليه الترف في المدينة مثل الدهان والصفار والحمامي والطباخ والسفاج والهراس ومعلم الغناء والرقص وقرع الطبول على التوقيع ومثل الوراقين الذين يعانون صناعة انتساخ الكتب وتجليدها وتصحيحها فان هذه الصناعة انما يدعو اليها الترف في المدينة من الاشتغال بالامور الفكرية وأمثال ذلك وقد تخرج عن الحد اذا كان العمران خارجا عن الحد كما بلغنا عن أهل مصر أن فيهم من يعلم الطيور العجم والحمر الانسية وتخيل أشياء من العجائب بايهام قلب الاعيان وتعليم الحداء والرقص والمشي على الخيوط في الهواء ورفع الاثقال من الحيوان والحجارة وغير ذلك من الصنائع التي لا توجد عندنا بالمغرب لان عمران أمصاره لم يبلغ عمران مصر والقاهرة أدام الله عمرانها بالمسلمين

١٨ (فصل في ان رسوخ الصنائع في الامصار انما هو برسوخ الحضارة وطول امدها)

والسبب فى ذلك ظاهر وهو أن هذه كلها عوائد للعمران وألوان والعوائد انما ترسخ بكثرة التكرار وطول الامد فتستحكم صبغة ذلك وترسخ فى الاجيال واذا استحكمت الصبغة عسر نزعها ولهذا نجد فى الامصار التى كانت استبحرت فى الحضارة لما تراجع عمرانها وتناقص بقيت فيها آثار من هذه الصنائع ليست فى غيرها من الامصار المستحدثة العمران ولو بلغت مبالغها فى الوفور والكثرة وما ذاك الا لان أحوال تلك القديمة العمران مستحكمة راسخة بطول الاحقاب وتداول الاحوال وتكررها وهذه لم تبلغ الغاية بعد وهذا كالحال فى الاندلس لهذا العهد فانا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة فى جميع ما تدعو اليه عوائد أمصارها كالمبانى والطبخ وأصناف الغناء واللهو من الآلات والاوتار والرقص وتنضيد الفرش فى القصور وحسن الترتيب والاوضاع فى البناء وصوغ الآنية من المعادن والخزف وجميع المواعين واقامة الولائم والاعراس وسائر الصنائع التى يدعو اليها الترف وعوائده فنجدهم أقوم عليها وأبصر بها ونجد صنائعها مستحكمة لديهم فهم على حصة موفورة من ذلك وحظ متميز بين جميع الامصار وان كان عمرانها قد تناقص والكثير منه لا يساوى عمران غيرها من بلاد العدوة وما ذاك الا لما قدمناه من رسوخ الحضارة فيهم برسوخ الدولة الاموية وما قبلها من دولة القوط وما بعدها من دولة الطوائف الى هلم جرا فبلغت الحضارة فيها مبلغا لم تبلغه فى قطر الا ما ينقل عن العراق والشأم ومصر أيضا لطول آماد الدول فيها فاستحكمت فيها الصنائع وكملت جميع أصنافها على الاستجادة والتنميق وبقيت صبغتها ثابتة فى ذلك العمران لا تفارقه الى أن ينتقض بالكلية حال الصبغ اذا رسخ فى الثوب وكذا أيضا حال تونس فيما حصل فيها بالحضارة من الدول الصنهاجية والموحدين من بعدهم وما استكمل لها فى ذلك من الصنائع فى سائر الاحوال وان كان ذلك دون الاندلس الا أنه متضاعف برسوم منها تنقل اليها من مصر لقرب المسافة بينهما وتردد المسافرين من قطرها الى قطر مصر فى كل سنة وربما سكن أهلها هناك عصورا فينقلون من عوائد ترفهم ومحكم صنائعهم ما يقع لديهم موقع الاستحسان فصارت أحوالها فى ذلك متشابهة من أحوال مصر لما ذكرناه ومن أحوال الاندلس لما ان أكثر ساكنها من شرق الاندلس حين الجلاء لعهد المائة السابعة ورسخ فيها من ذلك أحوال وان كان عمرانها ليس بمناسب لذلك لهذا العهد الا أن الصبغة استحكمت فقليلا ما تحول الا بزوال محلها وكذا نجد بالقيروان ومراكش وقلعة بن حماد أثرا باقيا من ذلك وان كانت هذه كلها اليوم خرابا أو فى حكم الخراب ولا يتفطن لها الا البصير من الناس فيجد من هذه الصنائع آثارا

تدله على ما كان بها كأثر الخط المنمق في الكتاب والله الخلاق العليم

١٩ (فصل في ان الصنائع انما تستجاد وتكثر اذا كثر طالبها)

والسبب في ذلك ظاهر وهو أن الانسان لا يسمح بعمله أن يقع مجانا لانه كسبه ومنه معاشه اذ لا فائدة له في جميع عمره في شيء مما سواه فلا يصرفه الا فيما له قيمة في مصره ليعود عليه بالنفع وان كانت الصناعة مطلوبة وتوجه اليها النفاق كانت حينئذ الصناعة بمثابة السلعة التي تنفق سوقها وتجلب للبيع فتجتهد الناس في المدينة لتعلم تلك الصناعة ليكون منها معاشهم واذا لم تكن الصناعة مطلوبة لم تنفق سوقها ولا يوجه قصد الى تعلمها فاختصت بالترك وفقدت للاهمال ولهذا يقال عن علي رضي الله عنه قيمة كل امرئ ما يحسن بمعنى أن صناعته هي قيمته أي قيمة عمله الذي هو معاشه وأيضا فهنا سر آخر وهو أن الصنائع واجادتها انما تطلبها الدولة فهي التي تنفق سوقها وتوجه الطلبات اليها وما لم تطلبه الدولة وانما يطلبها غيرها من أهل المصر فليس على نسبتها لان الدولة هي السوق الاعظم وفيها نفاق كل شيء والقليل والكثير فيها على نسبة واحدة فما نفق منها كان أكثريا ضرورة والسوقة وان طلبوا الصناعة فليس طلبهم بعام ولا سوقهم بنافقة والله سبحانه وتعالى قادر على ما يشاء

٢٠ (فصل في ان الامصار اذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع)

وذلك لما بينا أن الصنائع انما تستجاد اذا احتيج اليها وكثر طالبها واذا ضعفت أحوال المصر وأخذ في الهرم بانتقاص عمرانه وقلة ساكنه تناقص فيه الترف ورجعوا الى الاقتصار على الضروري من أحوالهم فتقل الصنائع التي كانت من توابع الترف لان صاحبها حينئذ لا يصح له بها معاشه فيفر الى غيرها أو يموت ولا يكون خلف منه فيذهب رسم تلك الصنائع جملة كما يذهب النقاشون والصواغ والكتاب والنساخ وأمثالهم من الصنائع لحاجات الترف ولا تزال الصناعات في التناقص ما زال المصر في التناقص الى أن تضمحل والله الخلاق العليم سبحانه وتعالى

٢١ (فصل في ان العرب ابعد الناس عن الصنائع)

والسبب في ذلك أنهم أعرق في البدو وأبعد عن العمران الحضري وما يدعو اليه من الصنائع وغيرها والعجم من أهل المشرق وأمم النصرانية عدوة البحر الرومي أقوم الناس عليها لانهم أعرق في العمران الحضري وأبعد عن البدو وعمرانه حتى ان الابل التي أعانت العرب على التوحش في القفر والاعراق في البدو مفقودة لديهم بالجملة ومفقودة مراعيها والرمال المهيئة لنتاجها ولهذا نجد أوطان العرب وما ملكوه في الاسلام قليل

الصنائع بالجملة حتى تجلب اليه من قطر آخر وانظر بلاد العجم من الصين والهند وأرض الترك وأمم النصرانية كيف استكثرت فيهم الصنائع واستجلبها الامم من عندهم وعجم المغرب من البربر مثل العرب في ذلك لرسوخهم في البداوة منذ أحقاب من السنين ويشهد لك بذلك قلة الامصار بقطرهم كما قدمناه فالصنائع بالمغرب لذلك قليلة وغير مستحكمة الا ما كان من صناعة الصوف من نسجه والجلد في خرزه ودبغه فانهم لما استحضروا بلغوا فيها المبالغ لعموم البلوى بها وكون هذين أغلب السلع في قطرهم لما هم عليه من حال البداوة وأما المشرق فقد رسخت الصنائع فيه منذ ملك الامم الاقدمين من الفرس والنبط والقبط وبني اسرائيل ويونان والروم أحقابا متطاولة فرسخت فيهم أحوال الحضارة ومن جملتها الصنائع كما قدمناه فلم يمح رسمها وأما اليمن والبحرين وعمان والجزيرة وان ملكه العرب الا أنهم تداولوا ملكه آلافا من السنين في أمم كثيرين منهم واختطوا أمصاره ومدنه وبلغوا الغاية من الحضارة والترف مثل عاد وثمود والعمالقة وحمير من بعدهم والتبابعة والاذواء فطال أمد الملك والحضارة واستحكمت صبغتها وتوفرت الصنائع ورسخت فلم تبل ببلى الدولة كما قدمناه فبقيت مستجدة حتى الآن واختصت بذلك الوطن كصناعة الوشي والعصب وما يستجاد من حوك الثياب والحرير فيها والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

٢٢ فصل في من حصلت له ملكة في صناعة فقل ان يجيد بعدها ملكة في اخرى

ومثال ذلك الخياط اذا أجاد ملكة الخياطة وأحكمها ورسخت في نفسه فلا يجيد من بعدها ملكة النجارة أو البناء الا أن تكون الاولى لم تستحكم بعد ولم ترسخ صبغتها والسبب في ذلك أن الملكات صفات للنفس وألوان فلا تزدحم دفعة ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن استعدادا لحصولها فاذا تلونت النفس بالملكة الاخرى وخرجت عن الفطرة ضعف فيها الاستعداد باللون الحاصل من هذه الملكة فكان قبولها للملكة الاخرى أضعف وهذا بين يشهد له الوجود فقل أن تجد صاحب صناعة يحكمها ثم يحكم من بعدها أخرى ويكون فيهما معا على رتبة واحدة من الاجادة حتى ان أهل العلم الذين ملكتهم فكرية فهم بهذه المثابة ومن حصل منهم على ملكة علم من العلوم وأجادها في الغاية فقل أن يجيد ملكة علم آخر على نسبته بل يكون مقصرا فيه ان طلبه الا في الاقل النادر من الاحوال ومبنى سببه على ما ذكرناه من الاستعداد وتلونه بلون الملكة الحاصلة في النفس والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب سواه

٢٣ (فصل في الاشارة الى امهات الصنائع)

اعلم أنّ الصنائع فى النوع الانسانى كثيرة لكثرة الاعمال المتداولة فى العمران فهى بحيث تشذ عن الحصر ولا يأخذها العدّ الا أنّ منها ما هو ضرورى فى العمران أو شريف بالموضوع فنخصها بالذكر ونترك ماسواها فأمّا الضرورى فالفلاحة والبناء والخياطة والنجارة والحياكة وأمّا الشريفة بالموضوع فكالتوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب فأمّا التوليد فانها ضرورية فى العمران وعامّة البلوى اذ بها تحصل حياة المولود ويتم غالبا وموضوعها مع ذلك المولودون وأمّهاتهم وأمّا الطب فهو حفظ الصحة للانسان ودفع المرض عنه ويتفرّع عن علم الطبيعة وموضوعه مع ذلك بدن الانسان وأمّا الكتابة وما يتبعها من الوراقة فهى حافظة على الانسان حاجته ومقيدة لها عن النسيان ومبلغة ضمائر النفس الى البعيد الغائب ومخلدة نتائج الافكار والعلوم فى الصحف ورافعة رتب الوجود للمعانى وأمّا الغناء فهو نسب الاصوات ومظهر جمالها للاسماع وكل هذه الصنائع الثلاثة داع الى مخالطة الملوك الاعاظم فى خلواتهم ومجالس أنسهم فلها بذلك شرف ليس لغيرها وماسوى ذلك من الصنائع فتابعة وممتهنة فى الغالب وقد يختلف ذلك باختلاف الاغراض والدواعى والله أعلم بالصواب

٢٤ (فصل في صناعة الفلاحة)

هذه الصناعة ثمرتها اتخاذ الاقوات والحبوب بالقيام على اثارة الارض لها وازدراعها وعلاج نباتها وتعهده بالسقى والتنمية الى بلوغ غايته ثم حصاد سنبله واستخراج حبه من غلافه واحكام الاعمال لذلك وتحصيل أسبابه ودواعيه وهى أقدم الصنائع لما أنها محصلة للقوت المكمل لحياة الانسان غالبا اذ يمكن وجوده من دون جميع الاشياء الامن دون القوت ولهذا اختصت هذه الصناعة بالبدو اذ قدّمنا أنه أقدم من الحضر وسابق عليه فكانت هذه الصناعة لذلك بدوية لا يقوم عليها الحضر ولا يعرفونها لانّ أحوالهم كلها ثانية على البداوة فصنائعهم ثانية عن صنائعها وتابعة لها والله سبحانه وتعالى مقيم العباد فيما أراد

٢٥ (فصل في صناعة البناء)

هذه الصناعة أوّل صنائع العمران الحضرى وأقدمها وهى معرفة العمل فى اتخاذ البيوت والمنازل للكن والمأوى للابدان فى المدن وذلك أنّ الانسان لما جبل عليه من الفكر فى عواقب أحواله لابدّ أن يفكر فيما يدفع عنه الاذى من الحر والبرد كاتخاذ

البيوت المكتنفة بالسقف والحيطان من سائر جهاتها والبشر مختلف في هذه الجبلة الفكرية فمنهم المعتدلون فيها يتخذون ذلك باعتدال أهالي الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس وأما أهل البدو فيبعدون عن اتخاذ ذلك لقصور أفكارهم من ادراك الصنائع البشرية فيبادرون للغيران والكهوف المعدة من غير علاج ثم المعتدلون المتخذون للمأوى قد يتكاثرون في البسيط الواحد بحيث يتناكرون ولا يتعارفون فيخشون طروق بعضهم بعضا فيحتاجون الى حفظ مجتمعهم بادارة ماء أو أسوار تحوطهم ويصير جميعا مدينة واحدة ومصرا واحدا ويحوطهم الحكام من داخل يدفع بعضهم عن بعض وقد يحتاجون الى الانتصاف ويتخذون المعاقل والحصون لهم ولمن تحت أيديهم مثل الملوك ومن في معناهم من الامراء وكبار القبائل في المدن لكل مدينة على ما يتعارفون ويصطلحون عليه ويناسب مزاج هوائهم واختلاف أحوالهم في الغنى والفقر وكذا حال أهل المدينة الواحدة فمنهم من يتخذ القصور والمصانع العظيمة الساحة المشتملة على عدة الدور والبيوت والغرف الكبيرة لكثرة ولده وحشمه وعياله وتابعه ويؤسس جدرانها بالحجارة ويلحم بينها بالكلس ويعالي عليها بالاصبغة والجص ويبالغ في ذلك بالتنجيد والتنميق اظهارا للبسطة بالعناية في شأن المأوى ويهيئ مع ذلك الاسراب والمطامير للاختزان لاقواته والاصطبلات لربط مقرباته اذا كان من أهل الجنود وكثرة التابع والحاشية كالامراء ومن في معناهم ومنهم من يبني الدويرة والبيوت لنفسه وسكنه وولده لا يبتغي ما وراء ذلك لقصور حاله عنه واقتصاره على الكن الطبيعي للبشر وبين ذلك مراتب غير منحصرة وقد يحتاج لهذه الصناعة أيضا عند تأسيس الملوك وأهل الدول المدن العظيمة والهياكل المرتفعة ويبالغون في اتقان الاوضاع وعلو الاجرام مع الاحكام لتبلغ الصناعة مبالغها وهذه الصناعة هي التي تحصل الدواعي لذلك وأكثر ما تكون هذه الصناعة في الاقاليم المعتدلة من الرابع وما حواليه اذ الاقاليم المنحرفة لا بناء فيها وانما يتخذون البيوت حظائر من القصب والطين وانما يوجد في الاقاليم المعتدلة وأهل هذه الصناعة القائمون عليها متفاوتون فمنهم البصير الماهر ومنهم القاصر ثم هي تتنوع أنواعا كثيرة فمنها البناء بالحجارة المنجدة يقام بها الجدران ملصقا بعضها الى بعض بالطين والكلس الذي يعقد معها ويلتحم كأنها جسم واحد ومنها البناء بالتراب خاصة يتخذ لها لوحان من الخشب مقدران طولا وعرضا باختلاف العادات في التقدير وأوسطه أربعة أذرع في ذراعين فينصبان على أساس وقد بوعد ما بينهما بما يراه صاحب البناء في عرض الاساس ويوصل بينهما بأذرع من الخشب يربط عليها بالحبال والجدر ويسد الجهتان الباقيتان من ذلك الخلاء بينهما

باللوحين آخرين صغيرين ثم يوضع فيه التراب مخلطا بالكلس ويركز بالمراكز المعدة حتى ينعم ركزه ويختلط أجزاؤه ثم يزاد التراب ثانيا وثالثا الى أن يتملئ ذلك الخلاء بين اللوحين وقد تداخلت أجزاء الكلس والتراب وصارت جسما واحدا ثم يعاد نصب اللوحين على الصورة ويركز كذلك الى أن يتم وينتظم الالواح كلها سطرا من فوق سطر الى أن ينتظم الحائط كله ملتحما كأنه قطعة واحدة ويسمى الطابية وصانعه الطواب ومن صنائع البناء أيضا أن تجلل الحيطان بالكلس بعد أن يحل بالماء ويخمر أسبوعا أو أسبوعين على قدر ما يعتدل مزاجه عن افراط النارية المفسدة للالحام فاذا تم له ما يرضاه من ذلك علاه من فوق الحائط وذلك الى أن يلتحم ومن صنائع البناء عمل السقف بأن يمد الخشب المحكمة النجارة أو الساذجة على حائطي البيت ومن فوقها الالواح كذلك موصولة بالدساتر ويصب عليها التراب والكلس ويبسط بالمراكز حتى تتداخل أجزاؤها وتلتحم ويعالى عليها الكلس كما يعالى على الحائط ومن صناعة البناء ما يرجع الى التنميق والتزيين كما يصنع من فوق الحيطان الاشكال المجسمة من الجص يخمر بالماء ثم يرجع جسدا وفيه بقية البلل فيشكل على التناسب تخريما بمثاقب الحديد الى أن يبقى له رونق ورواء وربما عولي على الحيطان أيضا بقطع الرخام والآجر والخزف أو بالصدف أو السبج يفصل أجزاء متجانسة أو مختلفة وتوضع في الكلس على نسب وأوضاع مقدرة عندهم يبدو به الحائط للعيان كأنه قطع الرياض المنمنمة الى غير ذلك من بناء الجباب والصهاريج لسفح الماء بعد أن تعد في البيوت قصاع الرخام القوراء المحكمة الخرط بالفوهات في وسطها لنبع الماء الجاري الى الصهريج يجلب اليه من خارج في القنوات المفضية الى البيوت وأمثال ذلك من أنواع البناء وتختلف الصناع في جميع ذلك باختلاف الحذق والبصر ويعظم عمران المدينة ويتسع فيكثرون وربما يرجع الحكام الى نظر هؤلاء فيما هم أبصر به من أحوال البناء وذلك أن الناس في المدن لكثرة الازدحام والعمران يتشاحون حتى في الفضاء والهواء للاعلى والاسفل ومن الانتفاع بظاهر البناء مما يتوقع معه حصول الضرر في الحيطان فيمنع جاره من ذلك الا ما كان له فيه حق ويختلفون أيضا في استحقاق الطرق والمنافذ للمياه الجارية والفضلات المسربة في القنوات وربما يدعي بعضهم حق بعض في حائطه أو علوه أو قناته لتضايق الجوار أو يدعي بعضهم على جاره اختلال حائطه خشية سقوطه ويحتاج الى الحكم عليه بهدمه ودفع ضرره عن جاره عند من يراه أو يحتاج الى قسمة دار أو عرصة بين شريكين بحيث لا يقع معها فساد في الدار ولا اهمال لمنفعتها وأمثال ذلك ويخفى جميع ذلك الا على أهل البصر العارفين بالبناء وأحواله المستدلين عليها بالمعاقد

والقمط ومراكز الخشب وميل الحيطان واعتدالها وقسم المساكن على نسبة أوضاعها ومنافعها وتسريب المياه في القنوات مجلوبة ومرفوعة بحيث لا تضر بما مرت عليه من البيوت والحيطان وغير ذلك فلهم بهذا كله البصر والخبرة التي ليست لغيرهم وهم مع ذلك يختلفون بالجودة والقصور في الاجيال باعتبار الدول وقوتها فانا قدمنا أن الصنائع وكمالها انما هو بكمال الحضارة وكثرتها بكثرة الطالب لها فلذلك عندما تكون الدولة بدوية في أول أمرها تفتقر في أمر البناء الى غير قطرها كما وقع للوليد بن عبد الملك حين أجمع على بناء مسجد المدينة والقدس ومسجده بالشأم فبعث الى ملك الروم بالقسطنطينية في الفعلة المهرة في البناء فبعث اليه منهم من حصل له غرضه من تلك المساجد وقد يعرف صاحب هذه الصناعة أشياء من الهندسة مثل تسوية الحيطان بالوزن واجراء المياه بأخذ الارتفاع وأمثال ذلك فيحتاج الى البصر بشيء من مسائله وكذلك في جر الاثقال بالهندام فان الاجرام العظيمة اذا شيدت بالحجارة الكبيرة يعجز قدر الفعلة عن رفعها الى مكانها من الحائط فيتحيل لذلك بمضاعفة قوة الحبل بادخاله في المعالق من أثقاب مقدرة على نسب هندسية تصير الثقيل عند معاناة الرفع خفيفا فيتم المراد من ذلك بغير كلفة وهذا انما يتم بأصول هندسية معروفة متداولة بين البشر وبمثلها كان بناء الهياكل الماثلة لهذا العهد التي يحسب الناس أنها من بناء الجاهلية وان أبدانهم كانت على نسبتها في العظم الجسماني وليس كذلك وانما تم لهم ذلك بالحيل الهندسية كما ذكرناه فتفهم ذلك والله يخلق ما يشاء سبحانه

٢٦ (فصل في صناعة التجارة)

هذه الصناعة من ضروريات العمران ومادتها الخشب وذلك أن الله سبحانه وتعالى جعل للآدمي في كل مكون من المكونات منافع تكمل بها ضروراته أو حاجاته وكان منها الشجر فان له فيه من المنافع ما لا ينحصر مما هو معروف لكل أحد ومن منافعها اتخاذها خشبا اذا يبست وأول منافعه أن يكون وقودا للنيران في معاشهم وعصيا للاتكاء والذود وغيرهما من ضروراتهم ودعائم لما يخشى ميله من أثقالهم ثم بعد ذلك منافع أخرى لأهل البدو والحضر فأما أهل البدو فيتخذون منها العمد والأوتاد لخيامهم والحدوج لظعائنهم والرماح والقسي والسهام لسلاحهم وأما أهل الحضر فالسقف لبيوتهم والاغلاق لأبوابهم والكراسي لجلوسهم وكل واحدة من هذه فالخشبة مادة لها ولا تصير الى الصورة الخاصة بها الا بالصناعة والصناعة المتكفلة بذلك المحصلة لكل واحد من صورها هي التجارة على اختلاف رتبها فيحتاج صاحبها الى تفصيل الخشب

أولا امّا بخشب أصغر منه أو ألواح ثم تركب تلك الفصائل بحسب الصور المطلوبة وهو في كل ذلك يحاول بصنعته اعداد تلك الفصائل بالانتظام الى أن تصير أعضاء لذلك الشكل المخصوص والقائم على هذه الصناعة هو النجار وهو ضروري في العمران ثم اذا عظمت الحضارة وجاء الترف وتأنق الناس فيما يتخذونه من كل صنف من سقف أو باب أو كرسي أو ماعون حدث التأنق في صناعة ذلك واستجادته بغرائب من الصناعة كمالية ليست من الضروري في شيء مثل التخطيط في الابواب والكراسي ومثل تهيئة القطع من الخشب بصناعة الخرط يحكم بريها وتشكيلها ثم تؤلف على نسب مقدّرة وتلحم بالدسائر فتبدو لرأى العين ملتحمة وقد أخذ منها اختلاف الاشكال على تناسب يصنع هذا في كل شيء يتخذ من الخشب فيجيء آنق ما يكون وكذلك في جميع ما يحتاج اليه من الآلات المتخذة من الخشب من أي نوع كان وكذلك قد يحتاج الى هذه الصناعة في انشاء المراكب البحرية ذات الالواح والدسر وهي أجرام هندسية صنعت على قالب الحوت واعتبار سبحه في الماء بقوادمه وكلكله ليكون ذلك الشكل أعون لها في مصادمة الماء وجعل لها عوض الحركة الحيوانية التي للسمك تحريك الرياح وربما أعينت بحركة المقاذيف كما في الاساطيل وهذه الصناعة من أصلها محتاجة الى أصل كبير من الهندسة في جميع أصنافها لان اخراج الصور من القوة الى الفعل على وجه الاحكام محتاج الى معرفة التناسب في المقادير اما عموما أو خصوصا وتناسب المقادير لا بد فيه من الرجوع الى المهندس ولهذا كان أئمة الهندسة اليونانيون كلهم أئمة في هذه الصناعة فكان أوقليدس صاحب كتاب الاصول في الهندسة نجارا وبها كان يعرف وكذلك أبلونيوس صاحب كتاب المخروطات وميلاوش وغيرهم وفيما يقال ان معلم هذه الصناعة في الخليقة هو نوح عليه السلام وبها أنشأ سفينة النجاة التي كانت بها معجزته عند الطوفان وهذا الخبر وان كان ممكنا أعني كونه نجارا الا أن كونه أول من علمها أو تعلمها لا يقوم دليل من النقل عليه لبعد الآماد وانما معناه والله أعلم الاشارة الى قدم النجارة لانه لم يصح حكاية عنها قبل خبر نوح عليه السلام فجعل كأنه أول من تعلمها فتفهم أسرار الصنائع في الخليقة والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٢٧ (فصل في صناعة الحياكة والخياطة)

هاتان الصناعتان ضروريتان في العمران لما يحتاج اليه البشر من الرفه فالاولى لنسج الغزل من الصوف والكتان والقطن سدا في الطول والحاما في العرض لذلك

النسج بالالتحام الشديد فيتم منها قطع مقدّرة فمنها الاكسية من الصوف للاشتمال ومنها الثياب من القطن والكتان للباس والصناعة الثانية لتقدير المنسوجات على اختلاف الاشكال والعوائد تفصل أولا بالمقراض قطعا مناسبة للاعضاء البدنية ثم تلحم تلك القطع بالخياطة المحكمة وصلا أو تنبيتا أو تفسحا على حسب نوع الصناعة وهذه الثانية مختصة بالعمران الحضري لما أن أهل البدو يستغنون عنها وانما يشتملون الاثواب اشتمالا وانما تفصيل الثياب وتقديرها والحامها بالخياطة للباس من مذاهب الحضارة وفنونها وتفهم [illegible] في سر تحريم المخيط في الحج لما أن مشروعية الحج مشتملة على نبذ العلائق الدنيوية [illegible] والرجوع الى الله تعالى كما خلقنا أول مرة حتى لا يعلق العبد قلبه بشيء من عوائد ترفه لا طيبا ولا نساء ولا مخيطا ولا خفا ولا تعرض لصيد ولا لشيء من عوائده التي تلونت بها نفسه وخلقه مع أنه يفقدها بالموت ضرورة وانما يجيء كأنه وارد الى المحشر ضارعا بقلبه مخلصا لربه وكان جزاؤه ان تم له اخلاصه في ذلك أن يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه سبحانك ما أرفقك بعبادك وأرحمك بهم في طلب هدايتهم اليك * وهاتان الصنعتان قديمتان في الخليقة لما أن الدفء ضروري للبشر في العمران المعتدل وأما المنحرف الى الحر فلا يحتاج أهله الى دفء ولهذا يبلغنا عن أهل الاقليم الاول من السودان أنهم عراة في الغالب ولقدم هذه الصنائع ينسبها العامة الى ادريس عليه السلام وهو أقدم الانبياء وربما ينسبونها الى هرمس وقد يقال ان هرمس هو ادريس والله سبحانه وتعالى هو الخلاق العليم

٢٨ (فصل في صناعة التوليد)

وهي صناعة يعرف بها العمل في استخراج المولود الآدمي من بطن أمه من الرفق في اخراجه من رحمها وتهيئة أسباب ذلك ثم ما يصلحه بعد الخروج على ما نذكر وهي مختصة بالنساء في غالب الامر لما أنهن الظاهرات بعضهن على عورات بعض وتسمى القائمة على ذلك منهن القابلة استعير فيها معنى الاعطاء والقبول كأن النفساء تعطيها الجنين وكأنها تقبله وذلك أن الجنين اذا استكمل خلقه في الرحم وأطواره وبلغ الى غايته والمدة التي قدر الله لمكثه وهي تسعة أشهر في الغالب فيطلب الخروج بما جعل الله في المولود من النزوع لذلك ويضيق عليه المنفذ فيعسر وربما مزق بعض جوانب الفرج بالضغط وربما انقطع بعض ما كان في الاغشية من الالتصاق والالتحام بالرحم وهذه كلها آلام يشتد لها الوجع وهو معنى الطلق فتكون القابلة معينة في ذلك بعض الشيء بغمز الظهر والوركين وما يحاذي الرحم من الاسافل تساوق بذلك فعل الدافعة

فى اخراج الجنين وتسهيل مايصعب منه بما يمكنها وعلى ماتهتدى الى معرفة عسره ثم اذا خرج الجنين بقيت بينه وبين الرحم الوصلة حيث كان يتغذى منها متصلة من سرته بمعاه وتلك الوصلة عضو فضلى لتغذية المولود خاصة فتقطعها القابلة من حيث لا تتعدى مكان الفضلة ولا تضر بمعاه ولا برحم أمه ثم تدمل مكان الجراحة منه بالكى أو بما تراه من وجوه الاندمال ثم ان الجنين عند خروجه فى ذلك المنفذ الضيق وهو رطب العظام سهل الانعطاف والانثناء فربما تتغير أشكال أعضائه وأوضاعها لقرب التكوين ورطوبة المواد فتتناوله القابلة بالغمز والاصلاح حتى يرجع كل عضو الى شكله الطبيعى ووضعه المقدر له ويرتد خلقه سويا ثم بعد ذلك تراجع النفساء وتحاذيها بالغمز والملاينة لخروج أغشية الجنين لانها ربما تتأخر عن خروجه قليلا ويخشى عند ذلك أن تراجع الماسكة حالها الطبيعية قبل استكمال خروج الاغشية وهى فضلات فتعفن ويسرى عفنها الى الرحم فيقع الهلاك فتحاذر القابلة هذا وتحاول فى اعانة الدفع الى أن تخرج تلك الاغشية ان كانت قد تأخرت ثم ترجع الى المولود فتمرخ أعضاءه بالادهان والذرورات القابضة لتشده وتجفف رطوبات الرحم وتحنكه لرفع لهاته وتسعطه لاستفراغ بطون دماغه وتغرغره باللعوق لدفع السدد من معاه وتجويفها عن الالتصاق ثم تداوى النفساء بعد ذلك من الوهن الذى أصابها بالطلق وما لحق رحمها من ألم الانفصال اذ المولود ان لم يكن عضوا طبيعيا فحالة التكوين فى الرحم صيرته بالالتحام كالعضو المتصل فلذلك كان فى انفصاله ألم يقرب من ألم القطع وتداوى مع ذلك ما يلحق الفرج من ألم من جراحة التمزيق عند الضغط فى الخروج وهذه كلها أدواء نجد هؤلاء القوابل أبصر بدوائها وكذلك ما يعرض للمولود مدة الرضاع من أدواء فى بدنه الى حين الفصال نجدهن أبصر بها من الطبيب الماهر وما ذاك الا لان بدن الانسان فى تلك الحالة انما هو بدن انسانى بالقوة فقط فاذا جاوز الفصال صار بدنا انسانيا بالفعل فكانت حاجته حينئذ الى الطبيب أشد فهذه الصناعة كما تراه ضرورية فى العمران للنوع الانسانى لا يتم كون أشخاصه فى الغالب دونها وقد يعرض لبعض أشخاص النوع الاستغناء عن هذه الصناعة اما بخلق الله ذلك لهم معجزة وخرقا للعادة كما فى حق الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم أو بالهام وهداية يلهم لها المولود ويفطر عليها فيتم وجودهم من دون هذه الصناعة فأما شان المعجزة من ذلك فقد وقع كثيرا ومنه ما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم ولد مسرورا مختونا واضعا يديه على الارض شاخصا ببصره الى السماء وكذلك شان عيسى فى المهد وغير ذلك وأما شأن الالهام فلا ينكر واذا كانت الحيوانات العجم تختص بغرائب من الالهامات

كالنحل وغيرها فما لمنك بالانسان المفضل عليها وخصوصا بمن اختص بكرامة الله * ثم الإلهام العام للمولودين في الاقبال على الثدي أوضح شاهد على وجود الالهام العام لهم فشأن العناية الالهية أعظم من أن يحاط به ومن هنا يفهم بطلان رأي الفارابي وحكماء الاندلس فيما احتجوا به لعدم انقراض الانواع واستحالة انقطاع المكونات وخصوصا في النوع الانساني وقالوا لو انقطعت أشخاصه لاستحال وجودها بعد ذلك لتوقفه على هذه الصناعة التي لا يتم كون الانسان الا بها اذ لو قدرنا مولودا دون هذه الصناعة وكفالتها الى حين الفصال لم يتم بقاؤه أصلا ووجود الصنائع دون الفكر ممتنع لانها ثمرته وتابعة له وتكلف ابن سينا في الرد على هذا الرأي لمخالفته اياه وذهابه الى امكان انقطاع الانواع وخراب عالم التكوين ثم عوده ثانيا لاقتضاءات فلكية وأوضاع غريبة تندر في الاحقاب بزعمه فتقتضي تخمير طينة مناسبة لمزاجه بحرارة مناسبة فيتم كونه انسانا ثم يقيض له حيوان يخلق فيه الهام لتربيته والحنو عليه الى أن يتم وجوده وفصاله وأطنب في بيان ذلك في الرسالة التي سماها رسالة حي بن يقظان وهذا الاستدلال غير صحيح وان كانوا افقه على انقطاع الانواع لكن من غير ما استدل به فان دليله مبني على اسناد الافعال الى العلة الموجبة ودليل القول بالفاعل المختار يرد عليه ولا واسطة على القول بالفاعل المختار بين الافعال والقدرة القديمة ولا حاجة الى هذا التكلف * ثم لو سلمناه جدلا فغاية ما ينبني عليه اطراد وجود هذا الشخص بخلق الالهام لتربيته في الحيوان الاعجم وما الضرورة الداعية لذلك واذا كان الالهام يخلق في الحيوان الاعجم فما المانع من خلقه للمولود نفسه كما قررناه أولا وخلق الالهام في شخص لمصالح نفسه أقرب من خلقه فيه لمصالح غيره فكلا المذهبين شاهدان على أنفسهما بالبطلان في مناحيهما لما قررناه لك والله تعالى أعلم

٢٩ (فصل في صناعة الطب وانها محتاج اليها في الحواضر والامصار دون البادية)

هذه الصناعة ضرورية في المدن والامصار لما عرف من فائدتها فان ثمرتها حفظ الصحة للاصحاء ودفع المرض عن المرضى بالمداواة حتى يحصل لهم البرء من أمراضهم واعلم أن أصل الامراض كلها انما هو من الاغذية كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الجامع للطب وهو قوله المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء وأصل كل داء البردة فأما قوله المعدة بيت الداء فهو ظاهر وأما قوله الحمية رأس الدواء فالحمية الجوع وهو الاحتماء من الطعام والمعنى أن الجوع هو الدواء العظيم الذي هو أصل الادوية وأما قوله أصل كل داء البردة فمعنى البردة ادخال الطعام على الطعام في المعدة قبل أن يتم

هضم الاول وشرح هذا ان الله سبحانه خلق الانسان وحفظ حياته بالغذاء يستعمله بالاكل وينفذ فيه القوى الهاضمة والغاذية الى أن يصير دما ملائما لاجزاء البدن من اللحم والعظم ثم تأخذه النامية فينقلب لحما وعظما ومعنى الهضم طبخ الغذاء بالحرارة الغريزية طورا بعد طور حتى يصير جزءا بالفعل من البدن وتفسيره أن الغذاء اذا حصل فى الفم ولاكته الاشداق أثرت فيه حرارة الفم طبخا يسيرا وقلبت مزاجه بعض الشئ كما تراه فى اللقمة اذا تناولتها طعاما ثم أجدتها مضغا فترى مزاجها غير مزاج الطعام ثم يحصل فى المعدة فتطبخه حرارة المعدة الى أن يصير كيموسا وهو صفو ذلك المطبوخ وترسله الى الكبد وترسل ما رسب منه فى المعاء فلا ينفذ الى المخرجين ثم تطبخ حرارة الكبد ذلك الكيموس الى أن يصير دما عبيطا وتطفو عليه رغوة من الطبخ هى الصفراء وترسب منه أجزاء يابسة هى السوداء ويقصر الحار الغريزى بعض الشئ عن طبخ الغليظ منه فهو البلغم ثم ترسلها الكبد كلها فى العروق والجداول ويأخذها طبخ الحار الغريزى هنالك فيكون عن الدم الخالص بخار حار رطب يمد الروح الحيوانى وتأخذ النامية مأخذها فى الدم فيكون لحما ثم غليظه عظاما ثم يرسل البدن ما يفضل عن حاجاته من ذلك فضلات مختلفة من العرق واللعاب والمخاط والدمع هذه صورة الغذاء وخروجه من القوة الى الفعل لحما ثم ان أصل الامراض ومعظمها هى الحميات وسببها أن الحار الغريزى قد يضعف عن تمام النضج فى طبخه فى كل طور من هذه فيبقى ذلك الغذاء دون نضج وسببه غالبا كثرة الغذاء فى المعدة حتى يكون أغلب على الحار الغريزى أو ادخال الطعام الى المعدة قبل أن تستوفى طبخ الاول فيستقل به الحار الغريزى ويترك الاول بحاله أو يتوزع عليهما فيقصر عن تمام الطبخ والنضج وترسله المعدة كذلك الى الكبد فلا تقوى حرارة الكبد أيضا على انضاجه وربما بقى فى الكبد من الغذاء الاول فضلة غير ناضجة وترسل الكبد جميع ذلك الى العروق غير ناضج كما هو فاذا أخذ البدن حاجته الملائمة أرسله مع الفضلات الاخرى من العرق والدمع واللعاب ان اقتدر على ذلك وربما يعجز عن الكثير منه فيبقى فى العروق والكبد والمعدة وتتزايد مع الايام وكل ذى رطوبة من الممتزجات اذا لم يأخذه الطبخ والنضج يعفن فيتعفن ذلك الغذاء غير الناضج وهو المسمى بالخلط وكل متعفن ففيه حرارة غريبة وذلك هى المسماة فى بدن الانسان بالحمى واختبر ذلك بالطعام اذا ترك حتى يتعفن وفى الزبل اذا تعفن أيضا كيف تنبعث فيه الحرارة وتأخذ مأخذها فهذا معنى الحميات فى الابدان وهى رأس الامراض وأصلها كما وقع فى الحديث وهذه الحميات علاجها بقطع الغذاء عن المريض أسابيع معلومة ثم يتناوله الاغذية الملائمة حتى يتم برؤه وذلك فى حال الصحة علاج

فى التحفظ من هذا المرض وأصله كما وقع فى الحديث وقد يكون ذلك العفن فى عضو مخصوص فيتولد عنه مرض فى ذلك العضو ويحدث جراحات فى البدن اما فى الاعضاء الرئيسة أو فى غيرها وقد يمرض العضو ويحدث عنه مرض القوى الموجودة له هذه كلها جماع الامراض وأصلها فى الغالب من الاغذية وهذا كله مرفوع الى الطبيب ووقوع هذه الامراض فى أهل الحضر والامصار أكثر لخصب عيشهم وكثرة مآكلهم وقلة اقتصارهم على نوع واحد من الاغذية وعدم توقيتهم لتناولها وكثيرا ما يخلطون بالاغذية من التوابل والبقول والفواكه رطبا ويابسا فى سبيل العلاج بالطبخ ولا يقتصرون فى ذلك على نوع أو أنواع فربما عددنا فى اليوم الواحد من ألوان الطبخ أربعين نوعا من النبات والحيوان فيصير للغذاء مزاج غريب وربما يكون غريبا عن ملاءمة البدن وأجزائه ثم ان الاهوية فى الامصار تفسد بمخالطة الابخرة العفنة من كثرة الفضلات والاهوية منشطة للارواح ومقوية بنشاطها الاثر الحار الغريزى فى الهضم ثم الرياضة مفقودة لاهل الامصار اذ هم فى الغالب وادعون ساكنون لا تأخذ منهم الرياضة شيأ ولا تؤثر فيهم أثرا فكان وقوع الامراض كثيرا فى المدن والامصار وعلى قدر وقوعه كانت حاجتهم الى هذه الصناعة وأما أهل البدو فأكولهم قليل فى الغالب والجوع أغلب عليهم لقلة الحبوب حتى صار لهم ذلك عادة وربما يظن أنها جبلة لاستمرارها ثم الادم قليلة لديهم أو مفقودة بالجملة وعلاج الطبخ بالتوابل والفواكه انما يدعو اليه ترف الحضارة الذين هم بمعزل عنه فيتناولون أغذيتهم بسيطة بعيدة عما يخالطها ويقرب مزاجها من ملاءمة البدن وأما أهويتهم فقليلة العفن لقلة الرطوبات والعفونات ان كانوا آهلين أو لاختلاف الاهوية ان كانوا ظواعن ثم ان الرياضة موجودة فيهم لكثرة الحركة فى ركض الخيل أو الصيد أو طلب الحاجات لمهنة أنفسهم فى حاجاتهم فيحسن بذلك كله الهضم ويجود ويفقد ادخال الطعام على الطعام فتكون أمزجتهم أصلح وأبعد من الامراض فتقل حاجتهم الى الطب ولهذا لا يوجد الطبيب فى البادية بوجه وما ذاك الا للاستغناء عنه اذ لو احتيج اليه لوجد لانه يكون له بذلك فى البدو معاش يدعوه الى سكناه سنة الله التى قد خلت فى عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا

٣٠ (فصل فى ان الخط والكتابة من عداد الصنائع الانسانية)

وهو رسوم وأشكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة الدالة على ما فى النفس فهو ثانى رتبة من الدلالة اللغوية وهو صناعة شريفة اذ الكتابة من خواص الانسان التى

يميز بها عن الحيوان وأيضا فهى تطلع على ما فى الضمائر وتتأدى بها الاغراض الى البلد البعيد فتقضى الحاجات وقد دفعت مؤنة المباشرة لها ويطلع بها على العلوم والمعارف وصحف الاولين وما كتبوه من علومهم وأخبارهم فهى شريفة بهذه الوجوه والمنافع وخروجها فى الانسان من القوة الى الفعل انما يكون بالتعليم وعلى قدر الاجتماع والعمران والتناغى فى الكمالات والطلب لذلك تكون جودة الخط فى المدينة اذ هو من جملة الصنائع وقد قدمنا أن هذا شأنها وأنها تابعة للعمران ولهذا نجد أكثر البدو أميين لا يكتبون ولا يقرؤن ومن قرأ منهم أو كتب فيكون خطه قاصرا وقراءته غير نافذة ونجد تعليم الخط فى الامصار الخارج عمرانها عن الحد أبلغ وأحسن وأسهل طريقا لاستحكام الصنعة فيها كما يحكى لنا عن مصر لهذا العهد وأن بها معلمين منتصبين لتعليم الخط يلقون على المتعلم قوانين وأحكاما فى وضع كل حرف ويزيدون الى ذلك المباشرة بتعليم وضعه فتعتضد لديه رتبة العلم والحس فى التعليم وتأتى ملكته على أتم الوجوه وانما أتى هذا من كمال الصنائع ووفورها بكثرة العمران وانفساح الاعمال وقد كان الخط العربى بالغا مبالغه من الاحكام والاتقان والجودة فى دولة التبابعة لما بلغت من الحضارة والترف وهو المسمى بالخط الحميرى وانتقل منها الى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر نسباء التبابعة فى العصبية والمجددين لملك العرب بأرض العراق ولم يكن الخط عندهم من الاجادة كما كان عند التبابعة لقصور ما بين الدولتين وكانت الحضارة وتوابعها من الصنائع وغيرها قاصرة عن ذلك ومن الحيرة لقنه أهل الطائف وقريش فيما ذكر يقال ان الذى تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية ويقال حرب ابن أمية وأخذها من أسلم بن سدرة وهو قول ممكن وأقرب ممن ذهب الى أنهم تعلموها من اياد أهل العراق لقول شاعرهم

قوم لهم ساحة العراق اذا * ساروا جميعا والخط والقلم

وهو قول بعيد لان ايادا وان نزلوا ساحة العراق فلم يزالوا على شأنهم من البداوة والخط من الصنائع الحضرية وانما معنى قول الشاعر انهم أقرب الى الخط والقلم من غيرهم من العرب لقربهم من ساحة الامصار وضواحيها فالقول بأن أهل الحجاز انما لقنوها من الحيرة ولقنها أهل الحيرة من التبابعة وحمير هو الاليق من الاقوال وكان لحمير كتابة تسمى المسند حروفها منفصلة وكانوا يمنعون من تعلمها الا باذنهم ومن حمير تعلمت مضر الكتابة العربية الا أنهم لم يكونوا مجيدين لها شأن الصنائع اذا وقعت بالبدو فلا تكون محكمة المذاهب ولا مائلة الى الاتقان والتنميق لبون ما بين البدو والصناعة واستغناء البدو عنها فى الاكثر وكانت كتابة العرب بدوية مثل أو قريبا من كتابتهم لهذا العهد

أو يقول ان كتابتهم لهذا العهد أحسن صناعة لان هؤلاء أقرب الى الحضارة ومخالطة الامصار والدول وأما مضر فكانوا أعرق فى البدو وأبعد عن الحضر من أهل اليمن وأهل العراق وأهل الشأم ومصر فكان الخط العربى لاول الاسلام غير بالغ الى الغاية من الاحكام والاتقان والاجادة ولا الى التوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع وانظر ما وقع لاجل ذلك فى رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم وكانت غير مستحكمة فى الاجادة فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركا بما رسمه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخير الخلق من بعده المتلقون لوحيه من كتاب الله وكلامه كما يقتفى لهذا العهد خط ولى أو عالم تبركا ويتبع رسمه خطأ أو صوابا وأين نسبة ذلك من الصحابة فيما كتبوه فاتبع ذلك واثبت رسما ونبه العلماء بالرسم على مواضعه ولا تلتفتن فى ذلك الى ما يزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط وأن ما يتخيل من مخالفة خطوطهم لاصول الرسم ليس كما يتخيل بل لكلها وجه ويقولون فى مثل زيادة الالف فى لاأذبحنه انه تنبيه على أن الذبح لم يقع وفى زيادة الياء فى بأييد انه تنبيه على كمال القدرة الربانية وأمثال ذلك مما لا أصل له الا التحكم المحض وما حملهم على ذلك الا اعتقادهم أن فى ذلك تنزيها للصحابة عن توهم النقص فى قلة اجادة الخط وحسبوا أن الخط كمال فنزهوهم عن نقصه ونسبوا اليهم الكمال باجادته وطلبوا تعليل ما خالف الاجادة من رسمه وذلك ليس بصحيح * واعلم أن الخط ليس بكمال فى حقهم اذ الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية كما رأيته فيما مر والكمال فى الصنائع اضافى وليس بكمال مطلق اذ لا يعود نقصه على الذات فى الدين ولا فى الخلال وانما يعود على أسباب المعاش وبحسب العمران والتعاون عليه لاجل دلالته على ما فى النفوس * وقد كان صلى الله عليه وسلم أميا وكان ذلك كمالا فى حقه وبالنسبة الى مقامه لشرفه وتنزهه عن الصنائع العملية التى هى أسباب المعاش والعمران كلها وليست الامية كمالا فى حقنا نحن اذ هو منقطع الى ربه ونحن متعاونون على الحياة الدنيا شأن الصنائع كلها حتى العلوم الاصطلاحية فان الكمال فى حقه هو تنزهه عنها جملة بخلافنا ثم لما جاء الملك للعرب وفتحوا الامصار وملكوا الممالك ونزلوا البصرة والكوفة واحتاجت الدولة الى الكتابة استعملوا الخط وطلبوا صناعته وتعلمه وتداولوه فترقت الاجادة فيه واستحكم وبلغ فى الكوفة والبصرة رتبة من الاتقان الا أنها كانت دون الغاية والخط الكوفى معروف الرسم لهذا العهد ثم انتشر العرب فى الاقطار والممالك وافتتحوا افريقية والاندلس واختط بنو العباس بغداد وترقت الخطوط فيها الى الغاية لما

استبحرت في العمران وكانت دار الاسلام ومركز الدولة العربية وكان الخط البغدادي معروف الرسم وتبعه الافريقي المعروف رسمه القديم لهذا العهد ويقرب من أوضاع الخط المشرقي وتحيز ملك الاندلس بالامويين فتميزوا بأحوالهم من الحضارة والصنائع والخطوط فتميز صنف خطهم الاندلسي كما هو معروف الرسم لهذا العهد وطما بحر العمران والحضارة في الدول الاسلامية في كل قطر وعظم الملك ونفقت أسواق العلوم وانتسخت الكتب واجيد كتبها وتجليدها وملئت بها القصور والخزائن الملوكية بما لا كفاء له وتنافس أهل الاقطار في ذلك وتناغوا فيه ثم لما انحل نظام الدولة الاسلامية وتناقصت تناقص ذلك أجمع ودرست معالم بغداد بدروس الخلافة فانتقل شأنها من الخط والكتابة بل والعلم الى مصر والقاهرة فلم تزل أسواقه بها نافقة لهذا العهد وله بها معلمون يرسمون لتعليم الحروف بقوانين في وضعها وأشكالها متعارفة بينهم فلا يلبث المتعلم أو يحكم أشكال تلك الحروف على تلك الاوضاع وقد لقنها حسنا وحذق فيها دربة وكتابا وأخذها قوانين علمية فتجيء أحسن ما يكون وأما أهل الاندلس فافترقوا في الاقطار عند تلاشي ملك العرب بها ومن خلفهم من البربر وتغلبت عليهم أمم النصرانية فانتشروا في عدوة المغرب وافريقية من لدن الدولة اللمتونية الى هذا العهد وشاركوا أهل العمران بما لديهم من الصنائع وتعلقوا بأذيال الدولة فغلب خطهم على الخط الافريقي وعفى عليه ونسي خط القيروان والمهدية بنسيان عوائدهما وصنائعهما وصارت خطوط أهل افريقية كلها على الرسم الاندلسي بتونس وما اليها لتوفر أهل الاندلس بها عند الجالية من شرق الاندلس وبقي منه رسم ببلاد الجريد الذين لم يخالطوا كتاب الاندلس ولا تمرسوا بجوارهم انما كانوا يغدون على دار الملك بتونس فصار خط أهل افريقية من أحسن خطوط أهل الاندلس حتى اذا تقلص ظل الدولة الموحدية بعض الشيء وتراجع أمر الحضارة والترف بتراجع العمران نقص حينئذ حال الخط وفسدت رسومه وجهل فيه وجه التعليم بفساد الحضارة وتناقص العمران وبقيت فيه آثار الخط الاندلسي تشهد بما كان لهم من ذلك لما قدمناه من أن الصنائع اذا رسخت بالحضارة فيعسر محوها وحصل في دولة بني مرين من بعد ذلك بالمغرب الاقصى لون من الخط الاندلسي لقرب جوارهم وسقوط من خرج منهم الى فاس قريبا واستعمالهم اياهم سائر الدولة ونسي عهد الخط فيما بعد عن سدة الملك وداره كأنه لم يعرف فصارت الخطوط بافريقية والمغربين مائلة الى الرداءة بعيدة عن الجودة وصارت الكتب اذا انتسخت فلا فائدة تحصل لمتصفحها منها الا العناء والمشقة لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتصحيف وتغيير الاشكال الخطية عن الجودة حتى لا تكاد

تقرأ الا بعسر ووقع فيه ما وقع في سائر الصنائع بنقص الحضارة وفساد الدول والله أعلم

٣١ (فصل في صناعة الورّاقة)

كانت العناية قديما بالدواوين العلمية والسجلات في نسخها وتجليدها وتصحيحها بالرواية والضبط وكان سبب ذلك ما وقع من ضخامة الدولة وتوابع الحضارة وقد ذهب ذلك لهذا العهد بذهاب الدولة وتناقص العمران بعد ان كان منه في الملة الاسلامية بحر زاخر بالعراق والاندلس اذ هو كله من توابع العمران واتساع نطاق الدولة ونفاق اسواق ذلك لديهما فكثرت التآليف العلمية والدواوين وحرص الناس على تناقلها في الآفاق والاعصار فانتسخت وجلدت وجاءت صناعة الورّاقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الامور الكتبية والدواوين واختصت بالامصار العظيمة العمران وكانت السجلات أوّلا لانتساخ العلوم وكتب الرسائل السلطانية والاقطاعات والصكوك في الرقوق المهيأة بالصناعة من الجلد لكثرة الرفه وقلة التآليف صدر الملة كما نذكره وقلة الرسائل السلطانية والصكوك مع ذلك فاقتصروا على الكتاب في الرق تشريفا للمكتوبات وميلا بها الى الصحة والاتقان ثم طما بحر التآليف والتدوين وكثر ترسيل السلطان وصكوكه وضاق الرق عن ذلك فأشار الفضل بن يحيى بصناعة الكاغد وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه واتخذه الناس من بعده صحفا لمكتوباتهم السلطانية والعلمية وبلغت الاجادة في صناعته ما شاءت ثم وقفت عناية أهل العلوم وهمم أهل الدول على ضبط الدواوين العلمية وتصحيحها بالرواية المسندة الى مؤلفيها وواضعيها لانه الشأن الاهمّ من التصحيح والضبط فبذلك تسند الاقوال الى قائلها والفتيا الى الحاكم بها المجتهد في طريق استنباطها وما لم يكن تصحيح المتون باسنادها الى مدوّنها فلا يصح اسناد قول لهم ولا فتيا وهكذا كان شأن أهل العلم وحملته في العصور والاجيال والآفاق حتى لقد قصرت فائدة الصناعة الحديثية في الرواية على هذه فقط اذ ثمرتها الكبرى من معرفة صحيح الاحاديث وحسنها ومسندها ومرسلها ومقطوعها وموقوفها من موضوعها قد ذهبت وتمخضت زبدة في ذلك الامّهات المتلقاة بالقبول عند الامة وصار القصد الى ذلك لغوا من العمل ولم تبق ثمرة الرواية والاشتغال بها الا في تصحيح تلك الامّهات الحديثية وسواها من كتب الفقه للفتيا وغير ذلك من الدواوين والتآليف العلمية واتصال سندها بمؤلفيها ليصح النقل عنهم والاسناد اليهم وكانت هذه الرسوم بالمشرق

والاندلس معبدة الطرق واضحة المسالك ولهذا نجد الدواوين المنتسخة لذلك العهد في أقطارهم على غاية من الاتقان والاحكام والصحة ومنها لهذا العهد بأيدي الناس في العالم أصول عتيقة تشهد ببلوغ الغاية لهم في ذلك وأهل الآفاق يتناقلونها الى الآن ويشدون عليها يد الضنانة ولقد ذهبت هذه الرسوم لهذا العهد جملة بالمغرب وأهله لانقطاع صناعة الخط والضبط والرواية منه بانتقاص عمرانه وبداوة أهله وصارت الامهات والدواوين تنسخ بالخطوط البدوية تنسخها طلبة البربر صحائف مستعجمة برداءة الخط وكثرة الفساد والتصحيف فتستغلق على متصفحها ولا يحصل منها فائدة الا في الاقل النادر وأيضا فقد دخل الخلل من ذلك في الفتيا فان غالب الاقوال المعزوة غير مروية عن أئمة المذهب وانما تتلقى من تلك الدواوين على ما هي عليه وتبع ذلك أيضا ما يتصدى اليه بعض أئمتهم من التأليف لقلة بصرهم بصناعته وعدم الصنائع الوافية بمقاصده ولم يبق من هذا الرسم بالاندلس الا آثارة خفية بالاتمحاء وهي على الاضمحلال فقد كاد العلم ينقطع بالكلية من الغرب والله غالب على أمره ويبلغنا لهذا العهد أن صناعة الرواية قائمة بالمشرق وتصحيح الدواوين لمن يرومه بذلك سهل على مبتغيه لنفاق أسواق العلوم والصنائع كما نذكره بعد الا أن الخط الذي بقي من الاجادة في الانتساخ هنالك انما هو للعجم وفي خطوطهم وأما النسخ بمصر فقد فسد كما فسد بالمغرب وأشد والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٣٢ (فصل في صناعة الغناء)

هذه الصناعة هي تلحين الاشعار الموزونة بتقطيع الاصوات على نسب منتظمة معروفة يوقع على كل صوت منها توقيعا عند قطعه فيكون نغمة ثم تؤلف تلك النغم بعضها الى بعض على نسب متعارفة فيلذ سماعها لاجل ذلك التناسب وما يحدث عنه من الكيفية في تلك الاصوات وذلك أنه تبين في علم الموسيقى أن الاصوات تتناسب فيكون صوت نصف صوت وربع آخر وخمس آخر وجزأ من أحد عشر من آخر واختلاف هذه النسب عند تأديتها الى السمع يخرجها من البساطة الى التركيب وليس كل تركيب منها ملذوذا عند السماع بل تراكيب خاصة هي التي حصرها أهل علم الموسيقى وتكلموا عليها كما هو مذكور في موضعه وقد يساوق ذلك التلحين في النغمات الغنائية بتقطيع أصوات أخرى من الجمادات اما بالقرع أو بالنفخ في الآلات تتخذ لذلك فترى لها لذة عند السماع فمنها لهذا العهد أصناف منها ما يسمونه الشبابة وهي قصبة جوفاء بأبخاش في جوانبها معدودة ينفخ فيها فتصوت ويخرج الصوت من جوفها على سدادة من تلك

الانجاش ويقطع الصوت بوضع الاصابع من اليدين جميعا على تلك الانجاش وضعا
متعارفا حتى تحدث النسب بين الاصوات فيه وتتصل كذلك متناسبة فيلتذ السمع
بادراكها للتناسب الذى ذكرناه ومن جنس هذه الآلة المزمار الذى يسمى الزلامى
وهو شكل القصبة منحوتة الجانبين من الخشب جوفا من غير تدوير لاجل ائتلافها
من قطعتين منفردتين كذلك بانجاش معدودة ينفخ فيها بقصبة صغيرة توصل فينفذ
النفخ بواسطتها اليها وتصوت بنغمة حادة يجرى فيها من تقطيع الاصوات من تلك
الانجاش بالاصابع مثل ما يجرى فى الشبابة ومن أحسن آلات الزمر لهذا العهد
البوق وهو بوق من نحاس أجوف فى مقدار الذراع يتسع الى أن يكون انفراج مخرجه
فى مقدار دون الكف فى شكل برى القلم وينفخ فيه بقصبة صغيرة تؤدى الريح من الفم
اليه فيخرج الصوت ثخينا دويا وفيه انجاش ايضا معدودة وتقطع نغمة منها كذلك
بالاصابع على التناسب فيكون ملذوذا ومنها آلات الاوتار وهى جوفاء كلها اما على
شكل قطعة من الكرة مثل البربط والرباب أو على شكل مربع كالقانون توضع الاوتار
على بسائطها مشدودة فى رأسها الى دسائر جائلة ليتأتى شد الاوتار ورخوها عند
الحاجة اليه بادارتها ثم تقرع الاوتار اما بعود آخر أو بوتر مشدود بين طرفى قوس يمر
عليها بعد أن يطلى بالشمع والكندر ويقطع الصوت فيه بتخفيف اليد فى امراره أو نقله
من وتر الى وتر واليد اليسرى مع ذلك فى جميع آلات الاوتار توقع بأصابعها على أطراف
الاوتار فيما يقرع أو يحك بالوتر فتحدث الاصوات متناسبة ملذوذة وقد يكون القرع
فى الطسوت بالقضبان أو فى الاعواد بعضها ببعض على توقيع متناسب يحدث عنه
التذاذ بالمسموع ولنبين لك السبب فى اللذة الناشئة عن الغناء وذلك أن اللذة كما تقرر
فى موضعه هى ادراك الملائم والمحسوس انما تدرك منه كيفية فاذا كانت مناسبة
للمدرك وملائمة كانت ملذوذة واذا كانت منافية له منافرة كانت مؤلمة فالملائم من
الطعوم ما ناسبت كيفيته حاسة الذوق فى مزاجها وكذا الملائم من الملموسات وفى الروائح
ما ناسب مزاج الروح القلبى البخارى لانه المدرك واليه تؤديه الحاسة ولهذا
كانت الرياحين والازهار العطريات أحسن رائحة وأشد ملاءمة للروح لغلبة الحرارة
فيها التى هى مزاج الروح القلبى وأما المرئيات والمسموعات فالملائم فيها تناسب
الاوضاع فى أشكالها وكيفياتها فهو أنسب عند النفس وأشد ملاءمة لها فاذا كان المرئى
متناسبا فى أشكاله وتخاطيطه التى له بحسب مادته بحيث لا يخرج عما تقتضيه مادته
الخاصة من كمال المناسبة والوضع وذلك هو معنى الجمال والحسن فى كل مدرك كان
ذلك حينئذ مناسبا للنفس المدركة فتلتذ بادراك ملائمها ولهذا تجد العاشقين المستهترين

فى المحبة يعبرون عن غاية محبتهم وعشقهم بامتزاج أرواحهم بروح المحبوب وفى هذا سر تفهمه ان كنت من أهله وهو اتحاد المبدا وان كل ما سواك اذا نظرته وتأملته رأيت بينك وبينه اتحادا فى البداية يشهد لك به اتحادكما فى الكون ومعناه من وجه آخر أن الوجود يشرك بين الموجودات كما تقوله الحكماء فتود أن تمتزج بما شاهدت فيه الكمال لتتحد به بل تروم النفس حينئذ الخروج عن الوهم الى الحقيقة التى هى اتحاد المبدا والكون ولما كان أنسب الاشياء الى الانسان وأقربها الى أن يدرك الكمال فى تناسب موضوعها هو شكله الانسانى فكان ادراكه للجمال والحسن فى تخاطيطه وأصواته من المدارك التى هى أقرب الى فطرته فيلهج كل انسان بالحسن من المرئى أو المسموع بمقتضى الفطرة والحسن فى المسموع أن تكون الاصوات متناسبة لا متنافرة وذلك أن الاصوات لها كيفيات من الهمس والجهر والرخاوة والشدة والقلقلة والضغط وغير ذلك والتناسب فيها هو الذى يوجب لها الحسن فأولا أن لا يخرج من الصوت الى مده دفعة بل بتدريج ثم يرجع كذلك وهكذا الى المثل بل لا بد من توسط المغاير بين الصوتين وتأمل هذا من افتتاح أهل اللسان التراكيب من الحروف المتنافرة أو المتقاربة المخارج فانه من بابه وثانيا تناسبها فى الاجزاء كما مر أول الباب فيخرج من الصوت الى نصفه أو ثلثه أو جزء من كذا منه على حسب ما يكون التنقل مناسبا على ما حصره أهل الصناعة فاذا كانت الاصوات على تناسب فى الكيفيات كما ذكره أهل تلك الصناعة كانت ملائمة ملذوذة ومن هذا التناسب ما يكون بسيطا ويكون الكثير من الناس مطبوعا عليه لا يحتاجون فيه الى تعليم ولا صناعة كما نجد المطبوعين على الموازين الشعرية وتوقيع الرقص وأمثال ذلك وتسمى العامة هذه القابلية بالمضمار وكثير من القراء بهذه المثابة يقرؤن القرآن فيجيدون فى تلاحين أصواتهم كأنها المزامير فيطربون بحسن مساقهم وتناسب نغماتهم ومن هذا التناسب ما يحدث بالتركيب وليس كل الناس يستوى فى معرفته ولا كل الطباع توافق صاحبها فى العمل به اذا علم وهذا هو التلحين الذى يتكفل به علم الموسيقى كما نشرحه بعد عند ذكر العلوم وقد أنكر مالك رحمه الله تعالى القراءة بالتلحين وأجازها الشافعى رضى الله تعالى عنه وليس المراد تلحين الموسيقى الصناعى فانه لا ينبغى أن يختلف فى حظره اذ صناعة الغناء مباينة للقرآن بكل وجه لان القراءة والاداء تحتاج الى مقدار من الصوت لتعين أداء الحروف لا من حيث اتباع الحركات فى موضعها ومقدار المد عند من يطلقه أو يقصره وأمثال ذلك والتلحين أيضا يتعين له مقدار من الصوت لا يتم الا به من أجل التناسب الذى قلناه فى حقيقة التلحين واعتبار أحدهما قد يخل بالآخر

اذا تعارضا وتقديم الرواية متعين من تغيير الرواية المنقولة في القرآن فلا يمكن اجتماع التلحين والاداء المعتبر في القرآن بوجه وانما مرادهم التلحين البسيط الذي يهتدى اليه صاحب المضمار بطبعه كما قدمناه فيردد أصواته ترديدا على نسب يدركها العالم بالغناء وغيره ولا ينبغي ذلك بوجه كما قاله مالك هذا هو محل الخلاف والظاهر تنزيه القرآن عن هذا كله كما ذهب اليه الامام رحمه الله تعالى لان القرآن محل خشوع بذكر الموت ومابعده وليس مقام التلذذ بادراك الحسن من الاصوات وهكذا كانت قراءة الصحابة رضي الله عنهم كما في أخبارهم وأما قوله صلى الله عليه وسلم لقد أوتي مزمارا من مزامير آل داود فليس المراد به الترديد والتلحين انما معناه حسن الصوت وأداء القراءة والابانة في مخارج الحروف والنطق بها وإذ قد ذكرنا معنى الغناء فاعلم أنه يحدث في العمران اذا توفر وتجاوز حد الضروري الى الحاجي ثم الى الكمالي وتفننوا فتحدث هذه الصناعة لانه لا يستدعيها الا من فرغ من جميع حاجاته الضرورية والمهمة من المعاش والمنزل وغيره فلا يطلبها الا الفارغون عن سائر أحوالهم تفننا في مذاهب الملذوذات وكان في سلطان العجم قبل الملة منها بحر زاخر في أمصارهم ومدنهم وكان ملوكهم يتخذون ذلك ويولعون به حتى لقد كان لملوك الفرس اهتمام بأهل هذه الصناعة ولهم مكان في دولتهم وكانوا يحضرون مشاهدهم ومجامعهم ويغنون فيها وهذا شأن العجم لهذا العهد في كل أفق من آفاقهم ومملكة من ممالكهم وأما العرب فكان لهم أولا فن الشعر يؤلفون فيه الكلام أجزاء متساوية على تناسب بينها في عدة حروفها المتحركة والساكنة ويفصلون الكلام في تلك الاجزاء تفصيلا يكون كل جزء منها مستقلا بالافادة لا ينعطف على الآخر ويسمونه البيت فتلائم الطبع بالتجزئة أولا ثم بتناسب الاجزاء في المقاطع والمبادي ثم بتأدية المعنى المقصود وتطبيق الكلام عليها فلهجوا به فامتاز من بين كلامهم بحظ من الشرف ليس لغيره لاجل اختصاصه بهذا التناسب وجعلوه ديوانا لاخبارهم وحكمهم وشرفهم ومحكا لقرائحهم في اصابة المعاني واجادة الاساليب واستمروا على ذلك وهذا التناسب الذي من أجل الاجزاء والمتحرك والساكن من الحروف قطرة من بحر من تناسب الاصوات كما هو معروف في كتب الموسيقى الا أنهم لم يشعروا بما سواه لانهم حينئذ لم ينتحلوا علما ولا عرفوا صناعة وكانت البداوة أغلب نحلهم ثم تغنى الحداة منهم في حداء ابلهم والفتيان في فضاء خلواتهم فرجعوا الاصوات وترنموا وكانوا يسمون الترنم اذا كان بالشعر غناء واذا كان بالتهليل أو نوع القراءة تغبيرا بالغين المعجمة والباء الموحدة وعللها أبو اسحق الزجاج بأنها تذكر بالغابر وهو الباقي أي بأحوال الآخرة وربما ناسبوا في غنائهم بين

النغمات مناسبة بسيطة كما ذكره ابن رشيق آخر كتاب العمدة وغيره وكانوا يسمونه السناد وكان أكثر ما يكون منهم في الخفيف الذي يرقص عليه ويمشي بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحلوم وكانوا يسمون هذا الهزج وهذا البسيط كله من التلاحين هو من أوائلها ولا يبعد أن تتفطن له الطباع من غير تعليم شأن البسائط كلها من الصنائع ولم يزل هذا شأن العرب في بداوتهم وجاهليتهم فلما جاء الاسلام واستولوا على ممالك الدنيا وحازوا سلطان العجم وغلبوهم عليه وكانوا من البداوة والغضاضة على الحال التي عرفت لهم مع غضارة الدين وشدته في ترك أحوال الفراغ وما ليس بنافع في دين ولا معاش فهجروا ذلك شيأ ما ولم يكن الملذوذ عندهم الا ترجيع القراءة والترنم بالشعر الذي هو ديدنهم ومذهبهم فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الامم صاروا الى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ وافترق المغنون من الفرس والروم فوقعوا الى الحجاز وصاروا موالي للعرب وغنوا جميعا بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير وسمع العرب تلحينهم للاصوات فلحنوا عليها أشعارهم وظهر بالمدينة نشيط الفارسي وطويس وسائب خاثر مولى عبيد الله بن جعفر فسمعوا شعر العرب ولحنوه وأجادوا فيه وطار لهم ذكر ثم أخذ عنهم معبد وطبقته وابن سريج وأنظاره وما زالت صناعة الغناء تتدرج الى أن كملت أيام بني العباس عند ابراهيم بن المهدي وابراهيم الموصلي وابنه اسحق وابنه حماد وكان من ذلك في دولتهم ببغداد ما تبعه الحديث بعده به وبمجالسه لهذا العهد وأمعنوا في اللهو واللعب واتخذت آلات الرقص في الملبس والقضبان والاشعار التي يترنم بها عليه وجعل صنفا وحده واتخذت آلات أخرى للرقص تسمى بالكرج وهي تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة بأطراف أقبية يلبسها النسوان ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكرون ويفرون ويثاقفون وأمثال ذلك من اللعب المعد للولائم والاعراس وأيام الاعياد ومجالس الفراغ واللهو وكثر ذلك ببغداد وأمصار العراق وانتشر منها الى غيرها وكان للموصليين غلام اسمه زرياب أخذ عنهم الغناء فأجاد فصرفوه الى المغرب غيرة منه فلحق بالحكم ابن هشام بن عبد الرحمن الداخل أمير الاندلس فبالغ في تكرمته وركب للقائه وأسنى له الجوائز والاقطاعات والجرايات وأحله من دولته ونُدمائه بمكان فأورث بالاندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه الى أزمان الطوائف وطما منها باشبيلية بحر زاخر وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها الى بلاد العدوة بافريقية والمغرب وانقسم على أمصارها وبها الآن منها صبابة على تراجع عمرانها وتناقص دولها وهذه الصناعة آخر ما يحصل في العمران من الصنائع لانها كمالية في غير وظيفة من الوظائف الا وظيفة الفراغ

والفرح وهي ايضا أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه والله أعلم

٣٣ (فصل في ان الصنائع تكسب صاحبها عقلاً وخصوصاً الكتابة والحساب)

قد ذكرنا في الكتاب أن النفس الناطقة للانسان انما توجد فيه بالقوة وأن خروجها من القوة الى الفعل انما هو بتجدد العلوم والادراكات عن المحسوسات أولا ثم ما يكتسب بعدها بالقوة النظرية الى أن يصير ادراكا بالفعل وعقلا محضا فتكون ذاتا روحانية ويستكمل حينئذ وجودها فوجب لذلك أن يكون كل نوع من العلم والنظر يفيدها عقلا فريدا والصنائع أبدا يحصل عنها وعن ملكتها قانون علمي مستفاد من تلك الملكة فلهذا كانت الحنكة في التجربة تفيد عقلا والملكات الصناعية تفيد عقلا والحضارة الكاملة تفيد عقلا لانها مجتمعة من صنائع في شأن تدبير المنزل ومعاشرة أبناء الجنس وتحصيل الآداب في مخالطتهم ثم القيام بأمور الدين واعتبار آدابها وشرائطها وهذه كلها قوانين تنتظم علوما فيحصل منها زيادة عقل والكتابة من بين الصنائع أكثر افادة لذلك لانها تشتمل على العلوم والانظار بخلاف الصنائع وبيانه أن في الكتابة انتقالا من الحروف الخطية الى الكلمات اللفظية في الخيال ومن الكلمات اللفظية في الخيال الى المعاني التي في النفس ذلك دائما فيحصل لها ملكة الانتقال من الادلة الى المدلولات وهو معنى النظر العقلي الذي يكسب العلوم المجهولة فتكسب بذلك ملكة من التعقل تكون زيادة عقل ويحصل به قوة فطنة وكيس في الامور لما تعودوه من ذلك الانتقال ولذلك قال كسرى في كتابه لما رآهم بتلك الفطنة والكيس فقال ديوانه أي شياطين وجنون قالوا وذلك أصل اشتقاق الديوان لاهل الكتابة ويلحق بذلك الحساب فان في صناعة الحساب نوع تصرف في العدد بالضم والتفريق يحتاج فيه الى استدلال كثير فيبقى متعودا للاستدلال والنظر وهو معنى العقل والله أعلم

(الفصل السادس من الكتاب الاول)

في العلوم واصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه مقدمة ولواحق

١ (فصل في ان العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري)

وذلك أن الانسان قد شاركته جميع الحيوانات في حيوانيته من الحس والحركة والغذاء والكن وغير ذلك وانما تميز عنها بالفكر الذي يهتدي به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بابناء جنسه والاجتماع المهيئ لذلك التعاون وقبول ما جاءت به الانبياء

عن الله تعالى والعمل به واتباع صلاح أخراه فهو مفكر فى ذلك كله دائما لا يفتر عن الفكر فيه طرفة عين بل اختلاج الفكر أسرع من لمح البصر وعن هذا الفكر تنشأ العلوم وما قدمناه من الصنائع ثم لاجل هذا الفكر وما جبل عليه الانسان بل الحيوان من تحصيل ما تستدعيه الطباع فيكون الفكر راغبا فى تحصيل ما ليس عنده من الادراكات فيرجع الى من سبقه بعلم أو زاد عليه بمعرفة أو ادراك أو أخذه ممن تقدمه من الانبياء الذين يبلغونه لمن تلقاه فيلقن ذلك عنهم ويحرص على أخذه وعلمه ثم ان فكره ونظره يتوجه الى واحد واحد من الحقائق وينظر ما يعرض له لذاته واحدا بعد آخر ويتمرن على ذلك حتى يصير الحاق العوارض بتلك الحقيقة ملكة له فيكون حينئذ علمه بما يعرض لتلك الحقيقة علما مخصوصا وتتشوف نفوس أهل الجيل الناشئ الى تحصيل ذلك فيفزعون الى أهل معرفته ويجيء التعليم من هذا فقد تبين بذلك أن العلم والتعليم طبيعي فى البشر

٢ (فصل فى ان التعليم للعلم من جملة الصنائع)

وذلك أن الحذق فى العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه انما هو بحصول ملكة فى الاحاطة بمباديه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق فى ذلك الفن المتناول حاصلا وهذه الملكة هى فى غير الفهم والوعى لانا نجد فهم المسئلة الواحدة من الفن الواحد ووعيها مشتركا بين من شدا فى ذلك الفن وبين من هو مبتدئ فيه وبين العامى الذى لم يحصل علما وبين العالم النحرير والملكة انما هى للعالم أو الشادى فى الفنون دون من سواهما فدل على أن هذه الملكة غير الفهم والوعى والملكات كلها جسمانية سواء كانت فى البدن أو فى الدماغ من الفكر وغيره كالحساب والجسمانيات كلها محسوسة فتفتقر الى التعليم ولهذا كان السند فى التعليم فى كل علم أو صناعة الى مشاهير المعلمين فيها معتبرا عند كل أهل أفق وجيل ويدل أيضا على أن تعليم العلم صناعة اختلاف الاصطلاحات فيه فلكل امام من الائمة المشاهير اصطلاح فى التعليم يختص به شأن الصنائع كلها فدل على أن ذلك الاصطلاح ليس من العلم والا لكان واحدا عند جميعهم ألا ترى الى علم الكلام كيف تخالف فى تعليمه اصطلاح المتقدمين والمتأخرين وكذا أصول الفقه وكذا العربية وكذا كل علم يتوجه الى مطالعته تجد الاصطلاحات فى تعليمه متخالفة فدل على أنها صناعات فى التعليم والعلم واحد فى نفسه واذا تقرر ذلك فاعلم أن سند تعليم العلم لهذا العهد قد كاد أن ينقطع عن أهل المغرب باختلال عمرانه وتناقص الدول فيه وما يحدث عن ذلك

من نقص الصنائع وفقدانها كما مر وذلك أن القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب
والاندلس واستبحر عمرانهما وكان فيهما للعلوم والصنائع أسواق نافقة وبحور زاخرة
ورسخ فيهما التعليم لامتداد عصورهما وما كان فيهما من الحضارة فلما خربتا انقطع
التعليم من المغرب الا قليلا كان في دولة الموحدين بمراكش مستفادا منها ولم ترسخ
الحضارة بمراكش لبداوة الدولة الموحدية في أولها وقرب عهد انقراضها بمبدئها فلم
تتصل أحوال الحضارة فيها الا في الاقل وبعد انقراض الدولة بمراكش ارتحل
الى المشرق من افريقية القاضي أبو القاسم بن زيتون لعهد أواسط المائة السابعة
فأدرك تلميذ الامام ابن الخطيب فأخذ عنهم ولقن تعليمهم وحذق في العقليات
والنقليات ورجع الى تونس بعلم كثير وتعليم حسن وجاء على أثره من المشرق أبو عبد
الله بن شعيب الدكالي كان ارتحل اليه من المغرب فأخذ عن مشيخة مصر ورجع الى
تونس واستقر بها وكان تعليمه مفيدا فأخذ عنهما أهل تونس واتصل سند تعليمهما في
تلاميذهما جيلا بعد جيل حتى انتهى الى القاضي محمد بن عبد السلام شارح ابن
الحاجب وتلميذه وانتقل من تونس الى تلمسان في ابن الامام وتلميذه فانه قرأ مع ابن عبد
السلام على مشيخة واحدة وفي مجالس بأعيانها وتلميذ ابن عبد السلام بتونس وابن
الامام بتلمسان لهذا العهد الا أنهم من القلة بحيث يخشى انقطاع سندهم ثم ارتحل
من زواوة في آخر المائة السابعة أبو علي ناصر الدين المشدالي وأدرك تلميذ أبي عمرو بن
الحاجب وأخذ عنهم ولقن تعليمهم وقرأ مع شهاب الدين القرافي في مجالس واحدة
وحذق في العقليات والنقليات ورجع الى المغرب بعلم كثير وتعليم مفيد ونزل ببجاية
واتصل سند تعليمه في طلبتها وربما انتقل الى تلمسان عمران المشدالي من تلميذه وأوطنها
وبث طريقته فيها وتلميذه لهذا العهد ببجاية وتلمسان قليل أو أقل من القليل وبقيت
فاس وسائر أقطار المغرب خلوا من حسن التعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة
والقيروان ولم يتصل سند التعليم فيهم فعسر عليهم حصول الملكة والحذق في العلوم
وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية فهو الذي
يقرب شأنها ويحصل مرامها فتجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في
ملازمة المجالس العلمية سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون وعنايتهم بالحفظ أكثر من
الحاجة فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم ثم بعد تحصيل من
يرى منهم أنه قد حصل تجد ملكته قاصرة في علمه ان فاوض أو ناظر أو علم وما أتاهم
القصور الا من قبل التعليم وانقطاع سنده والا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم لشدة
عنايتهم به وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية وليس كذلك ومما يشهد بذلك في المغرب

ان المدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم ست عشرة سنة وهي بتونس خمس سنين وهذه المدة بالمدارس على المتعارف هي أقل ما يتأتى فيها لطالب العلم حصول مبتغاه من الملكة العلمية أو اليأس من تحصيلها فطال أمدها في المغرب لهذه المدة لأجل عسرها من قلة الجودة في التعليم خاصة لا مما سوى ذلك وأما أهل الاندلس فذهب رسم التعليم من بينهم وذهبت عنايتهم بالعلوم لتناقص عمران المسلمين بها منذ مئين من السنين ولم يبق من رسم العلم فيهم الا فن العربية والادب اقتصروا عليه وانحفظ سند تعليمه بينهم فانحفظ بحفظه وأما الفقه بينهم فرسم خلو وأثر بعد عين وأما العقليات فلا أثر ولا عين وما ذاك الا لانقطاع سند التعليم فيها بتناقص العمران وتغلب العدو على عامتها الا قليلا بسيف البحر شغلهم بمعايشهم أكثر من شغلهم بما بعدها والله غالب على أمره * وأما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه بل أسواقه نافقة وبحوره زاخرة لاتصال العمران الموفور واتصال السند فيه وان كانت الامصار العظيمة التي كانت معادن العلم قد خربت مثل بغداد والبصرة والكوفة الا أن الله تعالى قد أدال منها بأمصار أعظم من تلك وانتقل العلم منها الى عراق العجم بخراسان وماوراء النهر من المشرق ثم الى القاهرة وما اليها من المغرب فلم تزل موفورة وعمرانها متصلا وسند التعليم بها قائما فأهل المشرق على الجملة أرسخ في صناعة تعليم العلم بل وفي سائر الصنائع حتى انه ليظن كثير من رحالة أهل المغرب الى المشرق في طلب العلم ان عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب وانهم أشد نباهة وأعظم كيسا بفطرتهم الاولى وان نفوسهم الناطقة أكمل بفطرتها من نفوس أهل المغرب ويعتقدون التفاوت بيننا وبينهم في حقيقة الانسانية ويتشيعون لذلك ويولعون به لما يرون من كيسهم في العلوم والصنائع وليس كذلك وليس بين قطر المشرق والمغرب تفاوت بهذا المقدار الذي هو تفاوت في الحقيقة الواحدة اللهم الا الاقاليم المنحرفة مثل الاول والسابع فان الامزجة فيها منحرفة والنفوس على نسبتها كما مر وانما الذي فضل به أهل المشرق أهل المغرب هو ما يحصل في النفس من آثار الحضارة من العقل المزيد كما تقدم في الصنائع ونزيده الآن تحقيقا وذلك أن الحضر لهم آداب في أحوالهم في المعاش والمسكن والبناء وأمور الدين والدنيا وكذا سائر أعمالهم وعاداتهم ومعاملاتهم وجميع تصرفاتهم فلهم في ذلك كله آداب يوقف عندها في جميع ما يتناولونه ويتلبسون به من أخذ وترك حتى كأنها حدود لا تتعدى وهي مع ذلك صنائع يتلقاها الآخر عن الاول منهم ولا شك أن كل صناعة مرتبة يرجع منها الى النفس أثر يكسبها عقلا جديدا تستعد به لقبول صناعة أخرى ويتهيأ بها العقل لسرعة الادراك

للمعارف * ولقد بلغنا فى تعليم الصنائع عن أهل مصر غايات لا تدرك مثل أنهم يعلمون الحمر الانسية والحيوانات العجم من الماشى والطائر مفردات من الكلام والافعال يستغرب ندورها ويعجز أهل المغرب عن فهمها وحسن الملكات فى التعليم والصنائع وسائر الاحوال العادية يزيد الانسان ذكاء فى عقله واضاءة فى فكره بكثرة الملكات الحاصلة للنفس اذ قدمنا أن النفس انما تنشأ بالادراكات وما يرجع اليها من الملكات فيزدادون بذلك كيسا لما يرجع الى النفس من الآثار العلمية فيظنه العامى تفاوتا فى الحقيقة الانسانية وليس كذلك ألا ترى الى أهل الحضر مع أهل البدو كيف تجد الحضرى متحليا بالذكاء ممتلئا من الكيس حتى ان البدوى ليظنه أنه قد فاته فى حقيقة انسانيته وعقله وليس كذلك وما ذاك الا لاجادته فى ملكات الصنائع والآداب فى العوائد والاحوال الحضرية ما لا يعرفه البدوى فلما امتلأ الحضرى من الصنائع وملكاتها وحسن تعليمها ظن كل من قصر عن تلك الملكات انها لكمال فى عقله وأن نفوس أهل البدو قاصرة بفطرتها وجبلتها عن فطرته وليس كذلك فانا نجد من أهل البدو من هو فى أعلى رتبة من الفهم والكمال فى عقله وفطرته انما الذى ظهر على أهل الحضر من ذلك هو رونق الصنائع والتعليم فان لها آثارا ترجع الى النفس كما قدمناه وكذا أهل المشرق لما كانوا فى التعليم والصنائع أرسخ رتبة وأعلى قدما وكان أهل المغرب أقرب الى البداوة لما قدمناه فى الفصل قبل هذا ظن المغفلون فى بادى الرأى انه لكمال فى حقيقة الانسانية اختصوا به عن أهل المغرب وليس ذلك بصحيح فتفهمه والله يزيد فى الخلق ما يشاء وهو اله السموات والارض

٣ (فصل في ان العلوم انما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة)

والسبب فى ذلك أن تعليم العلم كما قدمناه من جملة الصنائع وقد كنا قدمنا أن الصنائع انما تكثر فى الامصار وعلى نسبة عمرانها فى الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع فى الجودة والكثرة لانه أمر زائد على المعاش فمتى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم انصرفت الى ما وراء المعاش من التصرف فى خاصية الانسان وهى العلوم والصنائع ومن تشوف بفطرته الى العلم ممن نشأ فى القرى والامصار غير المتمدنة فلا يجد فيها التعليم الذى هو صناعى لفقدان الصنائع فى أهل البدو كما قدمناه ولا بد له من الرحلة فى طلبه الى الامصار المستبحرة شأن الصنائع كلها واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لما كثر عمرانها صدر الاسلام واستوت فيها الحضارة كيف زخرت فيها بحار العلم وتفننوا فى

اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم واستنباط المسائل والفنون حتى أربوا على المتقدمين وفاتوا المتأخرين ولما تناقص عمرانها وابذعر سكانها انطوى ذلك البساط بما عليه جملة وفقد العلم بها والتعليم وانتقل الى غيرها من امصار الاسلام ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم انما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف من السنين فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت ومن جملتها تعليم العلم وأكد ذلك فيها وحفظه ما وقع لهذه العصور بها منذ مائتين من السنين في دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب وهلم جرا وذلك أن أمراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يخلفونه من ذريتهم لما له عليهم من الرق او الولاء ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط ووقفوا عليها الاوقاف المغلة يجعلون فيها شركا لولدهم ينظر عليها أو نصيب منها مع ما فيهم غالبا من الجنوح الى الخير والتماس الاجور في المقاصد والافعال فكثرت الاوقاف لذلك وعظمت الغلات والفوائد وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جراياتهم منها وارتحل اليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب ونفقت بها أسواق العلوم وزخرت بحارها والله يخلق ما يشاء

٤ (فصل في اصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد)

(اعلم) أن العلوم التي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الامصار تحصيلا وتعليما هي على صنفين صنف طبيعي للانسان يهتدي اليه بفكره وصنف نقلي يأخذه عمن وضعه والاول هي العلوم الحكمية الفلسفية وهي التي يمكن أن يقف عليها الانسان بطبيعة فكره ويهتدي بمداركه البشرية الى موضوعاتها ومسائلها وانحاء براهينها ووجوه تعليمها حتى يقفه نظره وبحثه على الصواب من الخطا فيها من حيث هو انسان ذو فكر والثاني هي العلوم النقلية الوضعية وهي كلها مستندة الى الخبر عن الواضع الشرعي ولا مجال فيها للعقل الا في الحاق الفروع من مسائلها بالاصول لان الجزئيات الحادثة المتعاقبة لا تندرج تحت النقل الكلي بمجرد وضعه فتحتاج الى الالحاق بوجه قياسي الا أن هذا القياس يتفرع عن الخبر بثبوت الحكم في الاصل وهو نقلي فرجع هذا القياس الى النقل لتفرعه عنه وأصل هذه العلوم النقلية كلها هي الشرعيات من الكتاب والسنة التي هي مشروعة لنا من الله ورسوله وما يتعلق بذلك من العلوم التي تهيؤها للافادة ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربي الذي هو لسان الملة وبه نزل القرآن وأصناف هذه العلوم النقلية كثيرة لان المكلف يجب عليه أن يعرف

أحكام الله تعالى المفروضة عليه وعلى أبناء جنسه وهي مأخوذة من الكتاب والسنة بالنص أو بالاجماع أو بالالحاق فلا بدّ من النظر في الكتاب ببيان ألفاظه أولا وهذا هو علم التفسير ثم باسناد نقله وروايته الى النبي صلى الله عليه وسلم الذي جاء به من عند الله واختلاف روايات القرّاء في قراءته وهذا هو علم القراآت ثم باسناد السنة الى صاحبها والكلام في الرواة الناقلين لها ومعرفة أحوالهم وعدالتهم ليقع الوثوق بأخبارهم بعلم ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك وهذه هي علوم الحديث ثم لا بدّ في استنباط هذه الاحكام من أصولها من وجه قانوني يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط وهذا هو أصول الفقه وبعد هذا تحصل الثمرة بمعرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين وهذا هو الفقه ثم ان التكاليف منها بدني ومنها قلبي وهو المختص بالايمان وما يجب أن يعتقد مما لا يعتقد وهذه هي العقائد الايمانية في الذات والصفات وأمور الحشر والنعيم والعذاب والقدر والحجاج عن هذه بالادلة العقلية هو علم الكلام ثم النظر في القرآن والحديث لا بدّ أن تتقدمه العلوم اللسانية لانه متوقف عليها وهي أصناف فنها علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الادب حسبما نتكلم عليها كلها وهذه العلوم النقلية كلها مختصة بالملة الاسلامية وأهلها وان كانت كل ملة على الجملة لا بدّ فيها من مثل ذلك فهي مشاركة لها في الجنس البعيد من حيث انها علوم الشريعة المنزلة من عند الله تعالى على صاحب الشريعة المبلغ لها وأما على الخصوص فمباينة لجميع الملل لانها ناسخة لها وكل ما قبلها من علوم الملل فمهجورة والنظر فيها محظور فقد نهى الشرع عن النظر في الكتب المنزلة غير القرآن قال صلى الله عليه وسلم لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ورأى النبي صلى الله عليه وسلم في يد عمر رضي الله عنه ورقة من التوراة فغضب حتى تبين الغضب في وجهه ثم قال ألم آتكم بها بيضاء نقية والله لو كان موسى حيا ما وسعه الا اتباعي ثم انّ هذه العلوم الشرعية النقلية قد نفقت أسواقها في هذه الملة بما لا مزيد عليه وانتهت فيها مدارك الناظرين الى الغاية التي لا فوقها وهذبت الاصطلاحات ورتبت الفنون فجاءت من وراء الغاية في الحسن والتنميق وكان لكل فنّ رجال يرجع اليهم فيه وأوضاع يستفاد منها التعليم واختص المشرق من ذلك والمغرب بما هو مشهور منها حسبما نذكره الآن عند تعديد هذه الفنون وقد كسدت لهذا العهد أسواق العلم بالمغرب لتناقص العمران فيه وانقطاع سند العلم والتعليم كما قدّمناه في الفصل قبله وما أدري ما فعل الله بالمشرق والظنّ به نفاق العلم فيه واتصال التعليم في العلوم وفي سائر الصنائع الضرورية والكمالية لكثرة عمرانه والحضارة

ووجود الاعانة لطالب العلم بالجراية من الاوقاف التي اتسعت بها أرزاقهم والله سبحانه وتعالى هو الفعال لما يريد وبيده التوفيق والاعانة

٥ (علوم القرآن من التفسير والقرا آت)

القرآن هو كلام الله المنزل على نبيه المكتوب بين دفتي المصحف وهو متواتر بين الامة الا أن الصحابة رووه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على طرق مختلفة في بعض ألفاظه وكيفيات الحروف في أدائها وتنوقل ذلك واشتهر الى أن استقرت منها سبع طرق معينة تواتر نقلها أيضا بأدائها واختصت بالانتساب الى من اشتهر بروايتها من الجم الغفير فصارت هذه القرا آت السبع أصولا للقراءة وربما زيد بعد ذلك قرا آت أخر لحقت بالسبع الا انها عند أئمة القراءة لا تقوى قوتها في النقل وهذه القرا آت السبع معروفة في كتبها وقد خالف بعض الناس في تواتر طرقها لانها عندهم كيفيات للاداء وهو غير منضبط وليس ذلك عندهم بقادح في تواتر القرآن وأباه الاكثر وقالوا بتواترها وقال آخرون بتواتر غير الاداء منها كالمد والتسهيل لعدم الوقوف على كيفيته بالسمع وهو الصحيح ولم يزل القراء يتداولون هذه القرا آت وروايتها الى أن كتبت العلوم ودونت فكتبت فيما كتب من العلوم وصارت صناعة مخصوصة وعلما منفردا وتناقله الناس بالمشرق والاندلس في جيل بعد جيل الى أن ملك بشرق الاندلس مجاهد من موالي العامريين وكان معتنيا بهذا الفن من بين فنون القرآن لما أخذه به مولاه المنصور بن أبي عامر واجتهد في تعليمه وعرضه على من كان من أئمة القراء بحضرته فكان سهمه في ذلك وافرا واختص مجاهد بعد ذلك بامارة دانية والجزائر الشرقية فنفقت بها سوق القراءة لما كان هو من أئمتها وبما كان له من العناية بسائر العلوم عموما وبالقرا آت خصوصا فظهر لعهده أبو عمرو الداني وبلغ الغاية فيها ووقفت عليه معرفتها وانتهت الى روايته أسانيدها وتعددت تآليفه فيها وعول الناس عليها وعدلوا عن غيرها واعتمدوا من بينها كتاب التيسير له ثم ظهر بعد ذلك فيما يليه من العصور والاجيال أبو القاسم ابن فيره من أهل شاطبة فعمد الى تهذيب مادونه أبو عمرو وتلخيصه فنظم ذلك كله في قصيدة لغز فيها أسماء القراء بحروف أ ب ج د ترتيبا أحكمه ليتيسر عليه ما قصده من الاختصار وليكون أسهل للحفظ لاجل نظمها فاستوعب فيها الفن استيعابا حسنا وعني الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين وجرى العمل على ذلك في امصار المغرب والاندلس وربما أضيف الى فن القرا آت فن الرسم أيضا وهي أوضاع حروف القرآن في المصحف ورسومه الخطية لان فيه حروفا كثيرة وقع رسمها على غير المعروف من قياس الخط كزيادة الياء

في بأييد وزيادة الالف في لااذبحنه ولا اوضعوا والواو في جزاؤا الظالمين وحذف الالفات في مواضع دون أخرى ومارسم فيه من التاآت ممدودا والاصل فيه مربوط على شكل الهاء وغير ذلك وقد مر تعليل هذا الرسم المصحفي عند الكلام في الخط فلما جاءت هذه المخالفة لاوضاع الخط وقانونه احتيج الى حصرها فكتب الناس فيها أيضا عند كتبهم في العلوم وانتهت بالمغرب الى أبي عمرو الداني المذكور فكتب فيها كتبا من أشهرها كتاب المقنع وأخذ به الناس وعولوا عليه ونظمه أبو القاسم الشاطبي في قصيدته المشهورة على روي الراء وولع الناس بحفظها ثم كثر الخلاف في الرسم في كلمات وحروف أخرى ذكرها أبو داود سليمان بن نجاح من موالي مجاهد في كتبه وهو من تلاميذ أبي عمرو الداني والمشتهر بحمل علومه ورواية كتبه ثم نقل بعده خلاف آخر فنظم الخراز من المتأخرين بالمغرب أرجوزة أخرى زاد فيها على المقنع خلافا كثيرا وعزاه لناقليه واشتهرت بالمغرب واقتصر الناس على حفظها وهجروا بها كتب أبي داود وأبي عمرو والشاطبي في الرسم *(وأما التفسير)* فاعلم أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه وكان ينزل جملا جملا وآيات آيات لبيان التوحيد والفروض الدينية بحسب الوقائع ومنها ما هو في العقائد الايمانية ومنها ما هو في أحكام الجوارح ومنها ما يتقدم ومنها ما يتأخر ويكون ناسخا له وكان النبي صلى الله عليه وسلم يبين المجمل ويميز الناسخ من المنسوخ ويعرفه أصحابه فعرفوه وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى الحال منها منقولا عنه كما علم من قوله تعالى اذا جاء نصر الله والفتح أنها نعي النبي صلى الله عليه وسلم وأمثال ذلك ونقل ذلك عن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وتداول ذلك التابعون من بعدهم ونقل ذلك عنهم ولم يزل ذلك متناقلا بين الصدر الاول والسلف حتى صارت المعارف علوما ودونت الكتب فكتب الكثير من ذلك ونقلت الآثار الواردة فيه عن الصحابة والتابعين وانتهى ذلك الى الطبري والواقدي والثعالبي وأمثال ذلك من المفسرين فكتبوا فيه ما شاء الله أن يكتبوه من الآثار ثم صارت علوم اللسان صناعية من الكلام في موضوعات اللغة وأحكام الاعراب والبلاغة في التراكيب فوضعت الدواوين في ذلك بعد أن كانت ملكات للعرب لا يرجع فيها الى نقل ولا كتاب فتنوسي ذلك وصارت تتلقى من كتب أهل اللسان فاحتيج الى ذلك في تفسير القرآن لانه بلسان العرب وعلى منهاج بلاغتهم وصار التفسير على صنفين تفسير نقلي مستند الى الآثار المنقولة عن السلف وهي معرفة الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول ومقاصد الآي وكل ذلك لا يعرف الا بالنقل عن الصحابة

والتابعين وقد جمع المتقدمون في ذلك وأوعوا الا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على
الغث والسمين والمقبول والمردود والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم
وانما غلبت عليهم البداوة والامية واذا تشوقوا الى معرفة شئ مما تتشوق اليه النفوس
البشرية في أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود فانما يسألون عنه أهل
الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من
النصارى وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك الا
ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية فلما
أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالاحكام الشرعية التي يحتاطون لها مثل
أخبار بدء الخليقة وما يرجع الى الحدثان والملاحم وأمثال ذلك وهؤلاء مثل كعب
الاحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وأمثالهم فامتلأت التفاسير من المنقولات
عندهم في أمثال هذه الاغراض أخبار موقوفة عليهم وليست مما يرجع الى
الاحكام فيتحرى في الصحة التي يجب بها العمل وتساهل المفسرون في مثل ذلك
وملؤا كتب التفسير بهذه المنقولات وأصلها كما قلنا عن أهل التوراة الذين
يسكنون البادية ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك الا أنهم بعد صيتهم
وعظمت أقدارهم لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة فتلقيت بالقبول من
يومئذ فلما رجع الناس الى التحقيق والتمحيص وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين
بالمغرب فلخص تلك التفاسير كلها وتحرى ما هو أقرب الى الصحة منها ووضع ذلك في كتاب
متداول بين أهل المغرب والاندلس حسن المنحى وتبعه القرطبي في تلك الطريقة على
منهاج واحد في كتاب آخر مشهور بالمشرق * والصنف الآخر من التفسير وهو
ما يرجع الى اللسان من معرفة اللغة والاعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسب
المقاصد والاساليب وهذا الصنف من التفسير قل أن ينفرد عن الاول اذ الاول هو
المقصود بالذات وانما جاء هذا بعد أن صار اللسان وعلومه صناعة نعم قد يكون في بعض
التفاسير غالبا ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشاف
للزمخشري من أهل خوارزم العراق الا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد فيأتي
بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة حيث تعرض له في آي القرآن من طرق البلاغة فصار
بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه وتحذير للجمهور من مكامنه مع اقرارهم
برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة واذا كان الناظر فيه واقفا مع ذلك على
المذاهب السنية محسنا للحجاج عنها فلا جرم أنه مأمون من غوائله فلتغتنم مطالعته
لغرابة فنونه في اللسان ولقد وصل الينا في هذه العصور تأليف لبعض العراقيين

وهو شرف الدين الطيبي من أهل توريز من عراق العجم شرح فيه كتاب الزمخشري هذا وتتبع ألفاظه وتعرض لمذاهبه في الاعتزال بأدلة تزيفها ويبين أن البلاغة انما تقع في الآية على مايراه أهل السنة لا على مايراه المعتزلة فأحسن في ذلك ماشاء مع امتاعه في سائر فنون البلاغة وفوق كل ذي علم عليم

٦ (علوم الحديث)

وأما علوم الحديث فهي كثيرة ومتنوعة لان منها ما ينظر في ناسخه ومنسوخه وذلك بما ثبت في شريعتنا من جواز النسخ ووقوعه لطفا من الله بعباده وتخفيفا عنهم باعتبار مصالحهم التي تكفل لهم بها قال تعالى ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها فاذا تعارض الخبران بالنفي والاثبات وتعذر الجمع بينهما ببعض التأويل وعلم تقدم أحدهما تعين أن المتأخر ناسخ ومعرفة الناسخ والمنسوخ من أهم علوم الحديث وأصعبها قال الزهري أعيا الفقهاء وأعجزهم أن يعرفوا ناسخ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من منسوخه وكان للشافعي رضي الله عنه فيه قدم راسخة ومن علوم الاحاديث النظر في الاسانيد ومعرفة ما يجب العمل به من الاحاديث بوقوعه على السند الكامل الشروط لان العمل انما وجب بما يغلب على الظن صدقه من أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجتهد في الطريق التي تحصل ذلك الظن وهو بمعرفة رواة الحديث بالعدالة والضبط وانما يثبت ذلك بالنقل عن اعلام الدين بتعديلهم وبراءتهم من الجرح والغفلة ويكون لنا ذلك دليلا على القبول أو الترك وكذلك مراتب هؤلاء النقلة من الصحابة والتابعين وتفاوتهم في ذلك وتميزهم فيه واحدا واحدا وكذلك الاسانيد تتفاوت باتصالها وانقطاعها بأن يكون الراوي لم يلق الراوي الذي نقل عنه وبسلامتها من العلل الموهنة لها وتنتهي بالتفاوت الى طرفين فحكم بقبول الاعلى ورد الاسفل ويختلف في المتوسط بحسب المنقول عن أئمة الشأن ولهم في ذلك ألفاظ اصطلحوا على وضعها لهذه المراتب المرتبة مثل الصحيح والحسن والضعيف والمرسل والمنقطع والمعضل والشاذ والغريب وغير ذلك من ألقابه المتداولة بينهم وبوبوا على كل واحد منها ونقلوا ما فيه من الخلاف لائمة الشأن أو الوفاق ثم النظر في كيفية أخذ الرواة بعضهم عن بعض بقراءة أو كتابة أو مناولة أو اجازة وتفاوت رتبها وما للعلماء في ذلك من الخلاف بالقبول والرد ثم اتبعوا ذلك بكلام في ألفاظ تقع في متون الحديث من غريب أو مشكل أو تصحيف أو مفترق منها أو مختلف وما يناسب ذلك هذا معظم ما ينظر فيه أهل الحديث وغالبه وكانت أحوال نقلة الحديث في عصور

السلف من الصحابة والتابعين معروفة عند أهل بلده فمنهم بالحجاز ومنهم بالبصرة والكوفة من العراق ومنهم بالشام ومصر والجميع معروفون مشهورون في أعصارهم وكانت طريقة أهل الحجاز في أعصارهم في الاسانيد أعلى ممن سواهم وأمتن في الصحة لاستبدادهم في شروط النقل من العدالة والضبط وتجافيهم عن قبول المجهول الحال في ذلك وسند الطريقة الحجازية بعد السلف الامام مالك عالم المدينة رضي الله تعالى عنه ثم أصحابه مثل الامام محمد بن ادريس الشافعي والامام أحمد بن حنبل وأمثالهم وكان علم الشريعة في مبدا هذا الامر نقلا صرفا شمر لها السلف وتحروا الصحيح حتى أكملوها وكتب مالك رحمه الله كتاب الموطا أودعه أصول الاحكام من الصحيح المتفق عليه ورتبه على أبواب الفقه ثم عني الحفاظ بمعرفة طرق الاحاديث وأسانيدها المختلفة وربما يقع اسناد الحديث من طرق متعددة عن رواة مختلفين وقد يقع الحديث أيضا في أبواب متعددة باختلاف المعاني التي اشتمل عليها وجاء محمد بن اسمعيل البخاري امام المحدثين في عصره فخرج أحاديث السنة على أبوابها في مسنده الصحيح بجميع الطرق التي للحجازيين والعراقيين والشاميين واعتمد منها ما أجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه وكرر الاحاديث يسوقها في كل باب بمعنى ذلك الباب الذي تضمنه الحديث فتكررت لذلك أحاديثه حتى يقال انه اشتمل على تسعة آلاف حديث ومائتين منها ثلاثة آلاف متكررة وفرق الطرق والاسانيد عليها مختلفة في كل باب ثم جاء الامام مسلم بن الحجاج القشيري رحمه الله تعالى فألف مسنده الصحيح حذا فيه حذو البخاري في نقل المجمع عليه وحذف المتكرر منها وجمع الطرق والاسانيد وبوبه على أبواب الفقه وتراجمه ومع ذلك فلم يستوعبا الصحيح كله وقد استدرك الناس عليهما في ذلك ثم كتب أبو داود السجستاني وأبو عيسى الترمذي وأبو عبد الرحمن النسائي في السنن بأوسع من الصحيح وقصدوا ما توفرت فيه شروط العمل اما من الرتبة العالية في الاسانيد وهو الصحيح كما هو معروف واما من الذي دونه من الحسن وغيره ليكون ذلك اماما للسنة والعمل وهذه هي المسانيد المشهورة في الملة وهي أمهات كتب الحديث في السنة فانها وان تعددت ترجع الى هذه في الاغلب ومعرفة هذه الشروط والاصطلاحات كلها هي علم الحديث وربما يفرد عنها الناسخ والمنسوخ فيجعل فنا برأسه وكذا الغريب وللناس فيه تآليف مشهورة ثم المؤتلف والمختلف وقد ألف الناس في علوم الحديث وأكثروا ومن فحول علمائه وأئمتهم أبو عبد الله الحاكم وتآليفه فيه مشهورة وهو الذي هذبه وأظهر محاسنه وأشهر كتاب للمتأخرين فيه كتاب أبي عمرو بن الصلاح كان لعهد أوائل المائة السابعة وتلاه محيي

الدين النووي بمثل ذلك والفن شريف في مغزاه لانه معرفة ما يحفظ به السنن المنقولة عن صاحب الشريعة وقد انقطع لهذا العهد تخريج شيء من الاحاديث واستدراكها على المتقدمين اذ العادة تشهد بأن هؤلاء الائمة على تعددهم وتلاحق عصورهم وكفايتهم واجتهادهم لم يكونوا ليغفلوا شيأ من السنة أو يتركوه حتى يعثر عليه المتأخر هذا بعيد عنهم وانما تنصرف العناية لهذا العهد الى تصحيح الامهات المكتوبة وضبطها بالرواية عن مصنفيها والنظر في أسانيدها الى مؤلفها وعرض ذلك على ما تقرر في علم الحديث من الشروط والاحكام لتتصل الاسانيد محكمة الى منتهاها ولم يزيدوا في ذلك على العناية بأكثر من هذه الامهات الخمسة الا في القليل * فأما البخاري وهو أعلاها رتبة فاستصعب الناس شرحه واستغلقوا منحاه من أجل ما يحتاج اليه من معرفة الطرق المتعددة ورجالها من أهل الحجاز والشام والعراق ومعرفة أحوالهم واختلاف الناس فيهم ولذلك يحتاج الى امعان النظر في التفقه في تراجمه لانه يترجم الترجمة ويورد فيها الحديث بسند أو طريق ثم يترجم أخرى ويورد فيها ذلك الحديث بعينه لما تضمنه من المعنى الذي ترجم به الباب وكذلك في ترجمة وترجمة الى أن يتكرر الحديث في أبواب كثيرة بحسب معانيه واختلافها ومن شرحه ولم يستوف هذا فيه فلم يوف حق الشرح كابن بطال وابن المهلب وابن التين ونحوهم ولقد سمعت كثيرا من شيوخنا رحمهم الله يقولون شرح كتاب البخاري دين على الامة يعنون أن أحدا من علماء الامة لم يوف ما يجب له من الشرح بهذا الاعتبار * وأما صحيح مسلم فكثرت عناية علماء المغرب به وأكبوا عليه وأجمعوا على تفضيله على كتاب البخاري من غير الصحيح مما لم يكن على شرطه وأكثر ما وقع له في التراجم وأملى الامام المازري من فقهاء المالكية عليه شرحا وسماه المعلم بفوائد مسلم اشتمل على عيون من علم الحديث وفنون من الفقه ثم أكمله القاضي عياض من بعده وتممه وسماه اكمال المعلم وتلاهما محيي الدين النووي بشرح استوفى ما في الكتابين وزاد عليهما فجاء شرحا وافيا * وأما كتب السنن الاخرى وفيها معظم مأخذ الفقهاء فأكثر شرحها في كتب الفقه الا ما يختص بعلم الحديث فكتب الناس عليها واستوفوا من ذلك ما يحتاج اليه من علم الحديث وموضوعاتها والاسانيد التي اشتملت على الاحاديث المعمول بها من السنة * واعلم أن الاحاديث قد تميزت مراتبها لهذا العهد بين صحيح وحسن وضعيف ومعلول وغيرها تنزلها أئمة الحديث وجهابذته وعرفوها ولم يبق طريق في تصحيح ما يصح من قبل ولقد كان الائمة في الحديث يعرفون الاحاديث بطرقها وأسانيدها بحيث لو روي حديث بغير سنده وطريقه يفطنون الى أنه قد قلب عن وضعه

ولقد وقع مثل ذلك للامام محمد بن اسماعيل البخاري حين ورد على بغداد وقصد المحدثون امتحانه فسألوه عن أحاديث قلبوا أسانيدها فقال لا أعرف هذه ولكن حدثني فلان ثم أتى بجميع تلك الاحاديث على الوضع الصحيح ورد كل متن الى سنده وأقروا له بالامامة * واعلم أيضا أن الائمة المجتهدين تفاوتوا في الاكثار من هذه الصناعة والاقلال فأبو حنيفة رضي الله تعالى عنه يقال بلغت روايته الى سبعة عشر حديثا أو نحوها ومالك رحمه الله انما صح عنده ما في كتاب الموطا وغايتها ثلثمائة حديث أو نحوها وأحمد بن حنبل رحمه الله تعالى في مسنده خمسون ألف حديث ولكل ما أداه اليه اجتهاده في ذلك وقد تقول بعض المبغضين المتعسفين الى أن منهم من كان قليل البضاعة في الحديث فلهذا قلت روايته ولا سبيل الى هذا المعتقد في كبار الائمة لان الشريعة انما تؤخذ من الكتاب والسنة ومن كان قليل البضاعة من الحديث فيتعين عليه طلبه وروايته والجد والتشمير في ذلك ليأخذ الدين عن أصول صحيحة ويتلقى الاحكام عن صاحبها المبلغ لها وانما قلل منهم من قلل الرواية لاجل المطاعن التي تعترضه فيها والعلل التي تعرض في طرقها سيما والجرح مقدم عند الاكثر فيؤديه الاجتهاد الى ترك الاخذ بما يعرض مثل ذلك فيه من الاحاديث وطرق الاسانيد ويكثر ذلك فتقل روايته لضعف في الطرق هذا مع أن أهل الحجاز أكثر رواية للحديث من أهل العراق لان المدينة دار الهجرة ومأوى الصحابة ومن انتقل منهم الى العراق كان شغلهم بالجهاد أكثر والامام أبو حنيفة انما قلت روايته لما شدد في شروط الرواية والتحمل وضعف رواية الحديث اليقيني اذا عارضها الفعل النفسي وقلت من أجلها روايته فقل حديثه لا أنه ترك رواية الحديث متعمدا فحاشاه من ذلك ويدل على أنه من كبار المجتهدين في علم الحديث اعتماد مذهبه بينهم والتعويل عليه واعتباره ردا وقبولا وأما غيره من المحدثين وهم الجمهور فتوسعوا في الشروط وكثر حديثهم والكل عن اجتهاد وقد توسع أصحابه من بعده في الشروط وكثرت روايتهم وروى الطحاوي فأكثر وكتب مسنده وهو جليل القدر الا أنه لا يعدل الصحيحين لان الشروط التي اعتمدها البخاري ومسلم في كتابيهما مجمع عليها بين الائمة كما قالوه وشروط الطحاوي غير متفق عليها كالرواية عن المستور الحال وغيره فلهذا قدم الصحيحان بل وكتب السنن المعروفة عليه لتأخر شرطه عن شروطهم ومن أجل هذا قيل في الصحيحين بالاجماع على قبولهما من جهة الاجماع على صحة ما فيهما من الشروط المتفق عليها فلا تأخذك ريبة في ذلك فالقوم أحق الناس بالظن الجميل بهم والتماس المخارج الصحيحة لهم والله سبحانه وتعالى أعلم بما في حقائق الامور

الفقه معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهة والاباحة وهي متلقاة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفتها من الادلة فاذا استخرجت الاحكام من تلك الادلة قيل لها فقه وكان السلف يستخرجونها من تلك الادلة على اختلاف فيها بينهم ولا بد من وقوعه ضرورة أن الادلة غالبها من النصوص وهي بلغة العرب وفي اقتضاآت ألفاظها الكثير من معانيها اختلاف بينهم معروف وأيضا فالسنة مختلفة الطرق في الثبوت وتتعارض في الاكثر أحكامها فتحتاج الى الترجيح وهو مختلف أيضا فالادلة من غير النصوص مختلف فيها وأيضا فالوقائع المتجددة لا توفى بها النصوص وما كان منها غير ظاهر في النصوص فيحمل على منصوص لمشابهة بينهما وهذه كلها اشارات للخلاف ضرورية الوقوع ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والائمة من بعدهم ثم ان الصحابة كلهم لم يكونوا أهل فتيا ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم وانما كان ذلك مختصا بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه ومتشابهه ومحكمه وسائر دلالته بما تلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم أو ممن سمعه منهم من عليتهم وكانوا يسمون لذلك القراء أي الذين يقرؤن الكتاب لان العرب كانوا امة امية فاختص من كان منهم قارئا للكتاب بهذا الاسم لغرابته يومئذ وبقي الامر كذلك صدر الملة ثم عظمت أمصار الاسلام وذهبت الامية من العرب بممارسة الكتاب وتمكن الاستنباط وكمل الفقه وأصبح صناعة وعلما فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء وانقسم الفقه فيهم الى طريقتين طريقة أهل الرأي والقياس وهم أهل العراق وطريقة أهل الحديث وهم أهل الحجاز وكان الحديث قليلا في أهل العراق لما قدمناه فاستكثروا من القياس ومهروا فيه فلذلك قيل أهل الرأي ومقدم جماعتهم الذي استقر المذهب فيه وفي أصحابه أبو حنيفة وامام أهل الحجاز مالك بن أنس والشافعي من بعده ثم أنكر القياس طائفة من العلماء وأبطلوا العمل به وهم الظاهرية وجعلوا المدارك كلها منحصرة في النصوص والاجماع وردوا القياس الجلي والعلة المنصوصة الى النص لان النص على العلة نص على الحكم في جميع محالها وكان امام هذا المذهب داود بن علي وابنه وأصحابهما وكانت هذه المذاهب الثلاثة هي مذاهب الجمهور المشتهرة بين الامة وشذ أهل البيت بمذاهب ابتدعوها وفقه انفردوا به وبنوه على مذهبهم في تناول بعض الصحابة بالقدح وعلى قولهم بعصمة الائمة ورفع الخلاف عن أقوالهم وهي كلها أصول واهية وشذ بمثل ذلك الخوارج ولم يحتفل الجمهور بمذاهبهم بل

ووسعوها جانب الانكار والقدح فلا نعرف شيأ من مذاهبهم ولا نروى كتبهم ولا أثر لشيء منها الا في مواطنهم فكتب الشيعة في بلادهم وحيث كانت دولتهم قائمة في المغرب والمشرق واليمن والخوارج كذلك ولكل منهم كتب وتآليف وآراء في الفقه غريبة ثم درس مذهب أهل الظاهر اليوم بدروس أئمته وانكار الجمهور على منتحله ولم يبق الا في الكتب المجلدة وربما يعكف كثير من الطالبين ممن تكلف بانتحال مذهبهم على تلك الكتب يروم اخذ فقههم منها ومذهبهم فلا يحلو بطائل ويصير الى مخالفة الجمهور وانكارهم عليه وربما عد بهذه النحلة من أهل البدع بنقله العلم من الكتب من غير مفتاح المعلمين وقد فعل ذلك ابن حزم بالاندلس على علو رتبته في حفظ الحديث وصار الى مذهب أهل الظاهر ومهر فيه باجتهاد زعمه في أقوالهم وخالف امامهم داود وتعرض للكثير من أئمة المسلمين فنقم الناس ذلك عليه وأوسعوا مذهبه استهجانا وانكارا وتلقوا كتبه بالاغفال والترك حتى انها ليحظر بيعها بالاسواق وربما تمزق في بعض الاحيان ولم يبق الا مذهب أهل الرأي من العراق وأهل الحديث من الحجاز * فأما أهل العراق فامامهم الذي استقرت عنده مذاهبهم أبو حنيفة النعمان بن ثابت ومقامه في الفقه لا يلحق شهد له بذلك أهل جلدته وخصوصا مالك والشافعي * وأما أهل الحجاز فكان امامهم مالك بن أنس الاصبحي امام دار الهجرة رحمه الله تعالى واختص بزيادة مدرك آخر للاحكام غير المدارك المعتبرة عند غيره وهو عمل أهل المدينة لانه رأى أنهم فيما ينفقون عليه من فعل أو ترك متابعون لمن قبلهم ضرورة لدينهم واقتدائهم وهكذا الى الجيل المباشرين لفعل النبي صلى الله عليه وسلم الآخذين ذلك عنه وصار ذلك عنده من أصول الادلة الشرعية وظن كثير أن ذلك من مسائل الاجماع فأنكره لان دليل الاجماع لا يخص أهل المدينة من سواهم بل هو شامل للامة * واعلم أن الاجماع انما هو الاتفاق على الامر الديني عن اجتهاد ومالك رحمه الله تعالى لم يعتبر عمل أهل المدينة من هذا المعنى وانما اعتبره من حيث اتباع الجيل بالمشاهدة للجيل الى أن ينتهي الى الشارع صلوات الله وسلامه عليه وضرورة اقتدائهم بعين ذلك يعم الملة ذكرت في باب الاجماع والابواب بها من حيث ما فيها من الاتفاق الجامع بينها وبين الاجماع الا أن اتفاق أهل الاجماع عن نظر واجتهاد في الادلة واتفاق هؤلاء في فعل أو ترك مستندين الى مشاهدة من قبلهم ولو ذكرت المسئلة في باب فعل النبي صلى الله عليه وسلم وتقريره أو مع الادلة المختلف فيها مثل مذهب الصحابي وشرع من قبلنا والاستصحاب لكان أليق ثم كان من بعد مالك بن أنس محمد بن ادريس المطلبي الشافعي رحمهما الله تعالى رحل الى العراق من

بعد مالك ولقى أصحاب الامام أبى حنيفة وأخذ عنهم ومزج طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق واختص بمذهب وخالف مالكا رحمه الله تعالى فى كثير من مذهبه وجاء من بعدهما أحمد بن حنبل رحمه الله وكان من علية المحدثين وقرأ أصحابه على أصحاب الامام أبى حنيفة مع وفور بضاعتهم من الحديث فاختصوا بمذهب آخر ووقف التقليد فى الامصار عند هؤلاء الاربعة ودرس المقلدون لمن سواهم وسد الناس باب الخلاف وطرقه لما كثر تشعب الاصطلاحات فى العلوم ولما عاق عن الوصول الى رتبة الاجتهاد ولما خشى من اسناد ذلك الى غير أهله ومن لا يوثق برأيه ولا بدينه فصرحوا بالعجز والاعواز وردوا الناس الى تقليد هؤلاء كل من اختص به من المقلدين وحظروا أن يتداول تقليدهم لما فيه من التلاعب ولم يبق الا نقل مذاهبهم وعمل كل مقلد بمذهب من قلده منهم بعد تصحيح الاصول واتصال سندها بالرواية لا محصول اليوم للفقه غير هذا ومدعى الاجتهاد لهذا العهد مردود على عقبه مهجور تقليده وقد صار أهل الاسلام اليوم على تقليد هؤلاء الائمة الاربعة فأما أحمد بن حنبل فمقلده قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد وأصالته فى معاضدة الرواية وللاخبار بعضها ببعض وأكثرهم بالشأم والعراق من بغداد ونواحيها وهم أكثر الناس حفظا للسنة ورواية الحديث وأما أبو حنيفة فمقلده اليوم أهل العراق ومسلمة الهند والصين وماوراء النهر وبلاد العجم كلها لما كان مذهبه أخص بالعراق ودار السلام وكان تلميذه صحابة الخلفاء من بنى العباس فكثرت تآليفهم ومناظراتهم مع الشافعية وحسنت مباحثهم فى الخلافيات وجاؤا منها بعلم مستطرف وأنظار غريبة وهى بين أيدى الناس وبالمغرب منها شئ قليل نقله اليه القاضى ابن العربى وأبو الوليد الباجى فى رحلتهما وأما الشافعى فمقلدوه بمصر أكثر مما سواها وقد كان انتشر مذهبه بالعراق وخراسان وماوراء النهر وقاسموا الحنفية فى الفتوى والتدريس فى جميع الامصار وعظمت مجالس المناظرات بينهم وشحنت كتب الخلافيات بأنواع استدلالاتهم ثم درس ذلك كله بدروس المشرق وأقطاره وكان الامام محمد بن ادريس الشافعى لما نزل على بنى عبد الحكم بمصر أخذ عنه جماعة من بنى عبد الحكم وأشهب وابن القاسم وابن المواز وغيرهم ثم الحرث بن مسكين وبنوه ثم انقرض فقه أهل السنة من مصر بظهور دولة الرافضة وتداول بها فقه أهل البيت وتلاشى من سواهم الى أن ذهبت دولة العبيديين من الرافضة على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب ورجع اليهم فقه الشافعى وأصحابه من أهل العراق والشأم فعاد الى أحسن ما كان ونفق سوقه واشتهر منهم محيى الدين النووى من الحلبة التى ربيت فى ظل الدولة الايوبية بالشأم وعز الدين بن

عبد السلام أيضا ثم ابن الرفعة بمصر وتقي الدين بن دقيق العيد ثم تقي الدين السبكي بعدهما الى أن انتهى ذلك الى شيخ الاسلام بمصر لهذا العهد وهو سراج الدين البلقيني فهو اليوم أكبر الشافعية بمصر كبير العلماء بل أكبر العلماء من أهل العصر * وأما مالك رحمه الله تعالى فاختص بمذهبه أهل المغرب والاندلس وان كان يوجد في غيرهم الا أنهم لم يقلدوا غيره الا في القليل لما ان رحلتهم كانت غالبا الى الحجاز وهو منتهى سفرهم والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج الى العراق ولم يكن العراق في طريقهم فاقتصروا على الاخذ عن علماء المدينة وشيخهم يومئذ وامامهم مالك وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده فرجع اليه أهل المغرب والاندلس وقلدوه دون غيره ممن لم تصل اليهم طريقته وأيضا فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب والاندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لاهل العراق فكانوا الى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضا عندهم ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب ولما صار مذهب كل امام علما مخصوصا عند أهل مذهبه ولم يكن لهم سبيل الى الاجتهاد والقياس فاحتاجوا الى تنظير المسائل في الالحاق وتفريقها عند الاشتباه بعد الاستناد الى الاصول المقررة من مذهب امامهم وصار ذلك كله يحتاج الى ملكة راسخة يقتدر بها على ذلك النوع من التنظير أو التفرقة واتباع مذهب امامهم فيهما ما استطاعوا وهذه الملكة هي علم الفقه لهذا العهد وأهل المغرب جميعا مقلدون لمالك رحمه الله وقد كان تلامذته افترقوا بمصر والعراق فكان بالعراق منهم القاضي اسمعيل وطبقته مثل ابن خويزمنداد وابن اللبان والقاضي أبو بكر الابهري والقاضي أبو الحسين بن القصار والقاضي عبد الوهاب ومن بعدهم وكان بمصر ابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم والحرث بن مسكين وطبقتهم ورحل من الاندلس عبد الملك بن حبيب فأخذ عن ابن القاسم وطبقته وبث مذهب مالك في الاندلس ودون فيه كتاب الواضحة ثم دون العتبي من تلامذته كتاب العتبية ورحل من افريقية أسد بن الفرات فكتب عن أصحاب أبي حنيفة أولا ثم انتقل الى مذهب مالك وكتب على ابن القاسم في سائر أبواب الفقه وجاء الى القيروان بكتابه وسمي الاسدية نسبة الى أسد بن الفرات فقرأ بها سحنون على أسد ثم ارتحل الى المشرق ولقي ابن القاسم وأخذ عنه وعارضه بمسائل الاسدية فرجع عن كثير منها وكتب سحنون مسائلها ودونها وأثبت ما رجع عنه وكتب لاسد أن يأخذ بكتاب سحنون فأنف من ذلك فترك الناس كتابه واتبعوا مدونة سحنون على ما كان فيها من اختلاط المسائل في الابواب فكانت تسمى المدونة والمختلطة وعكف أهل القيروان على هذه المدونة وأهل

الاندلس على الواضحة والعتبية ثم اختصر ابن أبي زيد المدونة والمختلطة في كتابه المسمى بالمختصر ولخصه أيضا أبو سعيد البرادعي من فقهاء القيروان في كتابه المسمى بالتهذيب واعتمده المشيخة من أهل افريقية وأخذوا به وتركوا ما سواه وكذلك اعتمد أهل الاندلس كتاب العتبية وهجروا الواضحة وما سواها ولم تزل علماء المذهب يتعاهدون هذه الامهات بالشرح والايضاح والجمع فكتب أهل افريقية على المدونة ما شاء الله أن يكتبوا مثل ابن يونس واللخمي وابن محرز التونسي وابن بشير وأمثالهم وكتب أهل الاندلس على العتبية ما شاء الله أن يكتبوا مثل ابن رشد وأمثاله وجمع ابن أبي زيد جميع ما في الامهات من المسائل والخلاف والاقوال في كتاب النوادر فاشتمل على جميع أقوال المذهب وفرع الامهات كلها في هذا الكتاب ونقل ابن يونس معظمه في كتابه على المدونة وزخرت بحار المذهب المالكي في الافقين الى انقراض دولة قرطبة والقيروان ثم تمسك بهما أهل المغرب بعد ذلك الى أن جاء كتاب أبي عمرو بن الحاجب لخص فيه طرق أهل المذهب في كل باب وتعديد أقوالهم في كل مسئلة فجاء كالبرنامج للمذهب وكانت الطريقة المالكية بقيت في مصر من لدن الحرث بن مسكين وابن المبشر وابن اللهيث وابن رشيق وابن شاس وكانت بالاسكندرية في بني عوف وبني سند وابن عطاء الله ولم أدر عمن أخذها أبو عمرو بن الحاجب لكنه جاء بعد انقراض دولة العبيديين وذهاب فقه أهل البيت وظهور فقهاء السنة من الشافعية والمالكية ولما جاء كتابه الى المغرب آخر المائة السابعة عكف عليه الكثير من طلبة المغرب وخصوصا أهل بجاية لما كان كبير مشيختهم أبو علي ناصر الدين الزواوي هو الذي جلبه الى المغرب فانه كان قرأ على أصحابه بمصر ونسخ مختصره ذلك فجاء به وانتشر بقطر بجاية في تلميذه ومنهم انتقل الى سائر الامصار المغربية وطلبة الفقه بالمغرب لهذا العهد يتداولون قراءته ويتدارسونه لما يؤثر عن الشيخ ناصر الدين من الترغيب فيه وقد شرحه جماعة من شيوخهم كابن عبد السلام وابن رشد وابن هرون وكلهم من مشيخة أهل تونس وسابق حلبتهم في الاجادة في ذلك ابن عبد السلام وهم مع ذلك يتعاهدون كتاب التهذيب في دروسهم والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

٨ (علم الفرائض)

وهو معرفة فروض الوراثة وتصحيح سهام الفريضة مما تصح باعتبار فروضها الاصول أو مناسختها وذلك اذا هلك أحد الورثة وانكسرت سهامه على فروض ورثته فانه حينئذ يحتاج الى حساب يصحح الفريضة الاولى حتى يصل أهل الفروض جميعا

فى الفريضتين الى فروضهما من غير تجزئة وقد تكون هذه المناسخات أكثر من واحد واثنين وتتعدد لذلك بعدد أكثر وبقدر ما تتعدد تحتاج الى الحسبان وكذلك اذا كانت فريضة ذات وجهين مثل أن يقر بعض الورثة بوارث وينكره الآخر فتصحح على الوجهين حينئذ وينظر مبلغ السهام ثم تقسم التركة على نسب سهام الورثة من أصل الفريضة وكل ذلك يحتاج الى الحسبان وكان غالبا فيه وجعلوه فنا مفردا وللناس فيه تآليف كثيرة أشهرها عند المالكية من متأخرى الاندلس كتاب ابن ثابت ومختصر القاضى أبى القاسم الحوفى ثم الجعدى ومن متأخرى افريقية ابن النمر الطرابلسى وأمثالهم وأما الشافعية والحنفية والحنابلة فلهم فيه تآليف كثيرة وأعمال عظيمة صعبة شاهدة لهم باتساع الباع فى الفقه والحساب وخصوصا أبا المعالى رضى الله تعالى عنه وأمثاله من أهل المذاهب وهو فن شريف لجمعه بين المعقول والمنقول والوصول به الى الحقوق فى الوراثات بوجوه صحيحة يقينية عندما تجهل الحظوظ وتشكل على القاسمين وللعلماء من أهل الامصار بها اعتناء ومن المصنفين من يحتاج فيها الى الغلو فى الحساب وفرض المسائل التى تحتاج الى استخراج المجهولات من فنون الحساب كالجبر والمقابلة والتصرف فى الجذور وأمثال ذلك فيملؤا بها تآليفهم وهو وان لم يكن متداولا بين الناس ولا يفيد فيما يتداولونه من وراثتهم لغرابته وقلة وقوعه فهو يفيد المران وتحصيل الملكة فى المتداول على أكمل الوجوه وقد يحتج الاكثر من أهل هذا الفن على فضله بالحديث المنقول عن أبى هريرة رضى الله عنه ان الفرائض ثلث العلم وانها أول ما ينسى وفى رواية نصف العلم خرجه أبو نعيم الحافظ واحتج به أهل الفرائض بناء على ان المراد بالفرائض فروض الوراثة والذى يظهر أن هذا المحمل بعيد وان المراد بالفرائض انما هى الفرائض التكليفية فى العبادات والعادات والمواريث وغيرها وبهذا المعنى يصح فيها النصفية والثلثية وأما فروض الوراثة فهى أقل من ذلك كله بالنسبة الى علم الشريعة كلها ويعين هذا المراد أن حمل لفظ الفرائض على هذا الفن المخصوص أو تخصيصه بفروض الوراثة انما هو اصطلاح ناشئ للفقهاء عند حدوث الفنون والاصطلاحات ولم يكن صدر الاسلام يطلق على هذا الا على عمومه مشتقا من الفرض الذى هو لغة التقدير أو القطع وما كان المراد به فى اطلاقه الا جميع الفروض كما قلناه وهى حقيقته الشرعية فلا ينبغى أن يحمل الا على ما كان يحمل فى عصرهم فهو أليق بمرادهم منه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٩ (أصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافات)

(اعلم) أن أصول الفقه من أعظم العلوم الشرعية وأجلها قدرا وأكثرها فائدة وهو النظر في الادلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الاحكام والتكاليف وأصول الادلة الشرعية هي الكتاب الذي هو القرآن ثم السنة المبينة له فعلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم كانت الاحكام تتلقى منه بما يوحى اليه من القرآن ويبينه بقوله وفعله بخطاب شفاهي لا يحتاج الى نقل ولا الى نظر وقياس ومن بعده صلوات الله وسلامه عليه تعذر الخطاب الشفاهي وانحفظ القرآن بالتواتر وأما السنة فأجمع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم على وجوب العمل بما يصل الينا منها قولا أو فعلا بالنقل الصحيح الذي يغلب على الظن صدقه وتعينت دلالة الشرع في الكتاب والسنة بهذا الاعتبار ثم ينزل الاجماع منزلتهما لاجماع الصحابة على النكير على مخالفيهم ولا يكون ذلك الا عن مستند لان مثلهم لا يتفقون من غير دليل ثابت مع شهادة الادلة بعصمة الجماعة فصار الاجماع دليلا ثابتا في الشرعيات ثم نظرنا في طرق استدلال الصحابة والسلف بالكتاب والسنة فاذا هم يقيسون الاشباه بالاشباه منهما و يناظرون الامثال بالامثال باجماع منهم وتسليم بعضهم لبعض في ذلك فان كثيرا من الواقعات بعده صلوات الله وسلامه عليه لم تندرج في النصوص الثابتة فقاسوها بما ثبت وألحقوها بما نص عليه بشروط في ذلك الالحاق تصحح تلك المساواة بين الشبيهين أو المثلين حتى يغلب على الظن ان حكم الله تعالى فيهما واحد وصار ذلك دليلا شرعيا باجماعهم عليه وهو القياس وهو رابع الادلة واتفق جمهور العلماء على أن هذه هي أصول الادلة وان خالف بعضهم في الاجماع والقياس الا أنه شذوذ وألحق بعضهم بهذه الاربعة أدلة أخرى لا حاجة بنا الى ذكرها لضعف مداركها وشذوذ القول فيها فكان أول مباحث هذا الفن النظر في كون هذه أدلة فأما الكتاب فدليله المعجزة القاطعة في متنه والتواتر في نقله فلم يبق فيه مجال للاحتمال وأما السنة وما نقل الينا منها فالاجماع على وجوب العمل بما يصح منها كما قلناه معتضدا بما كان عليه العمل في حياته صلوات الله وسلامه عليه من انفاذ الكتب والرسل الى النواحي بالاحكام والشرائع آمرا وناهيا وأما الاجماع فلاتفاقهم رضوان الله تعالى عليهم على انكار مخالفتهم مع العصمة الثابتة للامة وأما القياس فباجماع الصحابة رضي الله عنهم عليه كما قدمناه هذه أصول الادلة ثم ان المنقول من السنة محتاج الى تصحيح الخبر بالنظر في طرق النقل وعدالة الناقلين لتتميز الحالة المحصلة للظن بصدقه الذي هو مناط وجوب العمل وهذه أيضا من قواعد الفن ويلحق بذلك عند التعارض بين الخبرين وطلب المتقدم منهما معرفة الناسخ والمنسوخ وهي من فصوله أيضا وأبوابه ثم بعد ذلك يتعين النظر في دلالة الالفاظ وذلك أن استفادة المعاني

على الاطلاق من تراكيب الكلام على الاطلاق يتوقف على معرفة الدلالات الوضعية مفردة ومركبة والقوانين اللسانية في ذلك هي علوم النحو والتصريف والبيان وحين كان الكلام ملكة لاهله لم تكن هذه علوما ولا قوانين ولم يكن الفقه حينئذ يحتاج اليها لانها جبلة وملكة فلما فسدت الملكة في لسان العرب قيدها الجهابذة المتجردون لذلك بنقل صحيح ومقاييس مستنبطة صحيحة وصارت علوما يحتاج اليها الفقيه في معرفة أحكام الله تعالى ثم ان هنالك استفادات أخرى خاصة من تراكيب الكلام وهي استفادة الاحكام الشرعية بين المعاني من أدلتها الخاصة من تراكيب الكلام وهو الفقه ولا يكفي فيه معرفة الدلالات الوضعية على الاطلاق بل لابد من معرفة أمور أخرى تتوقف عليها تلك الدلالات الخاصة وبها تستفاد الاحكام بحسب ما أصل أهل الشرع وجهابذة العلم من ذلك وجعلوه قوانين لهذه الاستفادة مثل أن اللغة لا تثبت قياسا والمشترك لا يراد به معنياه معا والواو لا تقتضي الترتيب والعام اذا أخرجت أفراد الخاص منه هل يبقى حجة فيما عداها والامر للوجوب أو الندب وللفور أو التراخي والنهي يقتضي الفساد أو الصحة والمطلق هل يحمل على المقيد والنص على العلة كاف في التعدد أم لا وأمثال هذه فكانت كلها من قواعد هذا الفن ولكونها من مباحث الدلالة كانت لغوية ثم ان النظر في القياس من أعظم قواعد هذا الفن لان فيه تحقيق الاصل والفرع فيما يقاس ويماثل من الاحكام وينقح الوصف الذي يغلب على الظن ان الحكم علق به في الاصل من تبين أوصاف ذلك المحل أو وجود ذلك الوصف في الفرع من غير معارض يمنع من ترتيب الحكم عليه في مسائل أخرى من توابع ذلك كلها قواعد لهذا الفن

(واعلم) أن هذا الفن من الفنون المستحدثة في الملة وكان السلف في غنية عنه بما ان استفادة المعاني من الالفاظ لا يحتاج فيها الى أزيد مما عندهم من الملكة اللسانية وأما القوانين التي يحتاج اليها في استفادة الاحكام خصوصا فمنهم أخذ معظمها وأما الاسانيد فلم يكونوا يحتاجون الى النظر فيها لقرب العصر وممارسة النقلة وخبرتهم بهم فلما انقرض السلف وذهب الصدر الاول وانقلبت العلوم كلها صناعة كما قررناه من قبل احتاج الفقهاء والمجتهدون الى تحصيل هذه القوانين والقواعد لاستفادة الاحكام من الادلة فكتبوها فنا قائما برأسه سموه أصول الفقه وكان أول من كتب فيه الشافعي رضي الله تعالى عنه أملى فيه رسالته المشهورة تكلم فيها في الاوامر والنواهي والبيان والخبر والنسخ وحكم العلة

المنصوصة من القياس ثم كتب فقهاء الحنفية فيه وحققوا تلك القواعد وأوسعوا القول فيها وكتب المتكلمون أيضا كذلك الا أنّ كتابة الفقهاء فيها أمس بالفقه وأليق بالفروع لكثرة الامثلة منها والشواهد وبناء المسائل فيها على النكت الفقهية والمتكلمون يجرّدون صور تلك المسائل عن الفقه ويميلون الى الاستدلال العقلي ما أمكن لانه غالب فنونهم ومقتضى طريقتهم فكان لفقهاء الحنفية فيها اليد الطولى من الغوص على النكت الفقهية والتقاط هذه القوانين من مسائل الفقه ما أمكن وجاء أبو زيد الدبوسي من أئمتهم فكتب في القياس بأوسع من جميعهم وتمم الابحاث والشروط التي يحتاج اليها فيه وكملت صناعة أصول الفقه بكماله وتهذبت مسائله وتمهدت قواعده وعني الناس بطريقة المتكلمين فيه وكان من أحسن ما كتب فيه المتكلمون كتاب البرهان لامام الحرمين والمستصفى للغزالي وهما من الاشعرية وكتاب العهد لعبد الجبار وشرحه المعتمد لابي الحسين البصري وهما من المعتزلة وكانت الاربعة قواعد هذا الفن وأركانه ثم لخص هذه الكتب الاربعة فحلان من المتكلمين المتأخرين وهما الامام فخر الدين بن الخطيب في كتاب المحصول وسيف الدين الآمدي في كتاب الاحكام واختلفت طرائقهما في الفن بين التحقيق والحجاج فابن الخطيب أميل الى الاستكثار من الادلة والاحتجاج والآمدي مولع بتحقيق المذاهب وتفريع المسائل وأمّا كتاب المحصول فاختصره تلميذه الامام سراج الدين الارموي في كتاب التحصيل وتاج الدين الارموي في كتاب الحاصل واقتطف شهاب الدين القرافي منهما مقدّمات وقواعد في كتاب صغير سماه التنقيحات وكذلك فعل البيضاوي في كتاب المنهاج وعني المبتدؤن بهذين الكتابين وشرحهما كثير من الناس * وأمّا كتاب الاحكام للآمدي وهو أكثر تحقيقا في المسائل فلخصه أبو عمرو بن الحاجب في كتابه المعروف بالمختصر الكبير ثم اختصره في كتاب آخر تداوله طلبة العلم وعني أهل المشرق والمغرب به وبمطالعته وشرحه وحصلت زبدة طريقة المتكلمين في هذا الفن في هذه المختصرات * وأمّا طريقة الحنفية فكتبوا فيها كثيرا وكان من أحسن كتابة فيها للمتقدمين تأليف أبي زيد الدبوسي وأحسن كتابة المتأخرين فيها تأليف سيف الاسلام البزدوي من أئمتهم وهو مستوعب وجاء ابن الساعاتي من فقهاء الحنفية فجمع بين كتاب الاحكام وكتاب البزدوي في الطريقتين وسمى كتابه بالبدائع فجاء من أحسن الاوضاع وأبدعها وأئمة العلماء لهذا العهد يتداولونه قراءة وبحثا وولع كثير من علماء العجم بشرحه والحال على ذلك لهذا العهد هذه حقيقة هذا الفن وتعيين موضوعاته وتعديد التآليف المشهورة لهذا العهد فيه والله ينفعنا بالعلم ويجعلنا من أهله بمنه

وكرمه انه على كل شئ قدير *(وأما الخلافيات)* فاعلم أن هذا الفقه المستنبط من الادلة الشرعية كثر فيه الخلاف بين المجتهدين باختلاف مداركهم وأنظارهم خلافا لابد من وقوعه لما قدمناه واتسع ذلك فى الملة اتساعا عظيما وكان للمقلدين أن يقلدوا من شاؤا منهم ثم لما انتهى ذلك الى الائمة الاربعة من علماء الامصار وكانوا بمكان من حسن الظن بهم اقتصر الناس على تقليدهم ومنعوا من تقليد سواهم لذهاب الاجتهاد لصعوبته وتشعب العلوم التى هى مواده باتصال الزمان وافتقاد من يقوم على سوى هذه المذاهب الاربعة فأقيمت هذه المذاهب الاربعة أصول الملة وأجرى الخلاف بين المتمسكين بها والآخذين بأحكامها مجرى الخلاف فى النصوص الشرعية والاصول الفقهية وجرت بينهم المناظرات فى تصحيح كل منهم مذهب امامه تجرى على أصول صحيحة وطرائق قويمة يحتج بها كل على مذهبه الذى قلده وتمسك به واجريت فى مسائل الشريعة كلها وفى كل باب من أبواب الفقه فتارة يكون الخلاف بين الشافعى ومالك وأبوحنيفة يوافق أحدهما وتارة بين مالك وأبى حنيفة والشافعى يوافق أحدهما وتارة بين الشافعى وأبى حنيفة ومالك يوافق أحدهما وكان فى هذه المناظرات بيان مأخذ هؤلاء الائمة ومثارات اختلافهم ومواقع اجتهادهم كان هذا الصنف من العلم يسمى بالخلافيات ولابد لصاحبه من معرفة القواعد التى يتوصل بها الى استنباط الاحكام كما يحتاج اليها المجتهد الا أن المجتهد يحتاج اليها للاستنباط وصاحب الخلافيات يحتاج اليها لحفظ تلك المسائل المستنبطة من أن يهدمها المخالف بادلته وهو لعمرى علم جليل الفائدة فى معرفة مأخذ الائمة وأدلتهم ومران المطالعين له على الاستدلال فيما يرومون الاستدلال عليه وتآليف الحنفية والشافعية فيه أكثر من تآليف المالكية لان القياس عند الحنفية أصل للكثير من فروع مذهبهم كما عرفت فهم لذلك أهل النظر والبحث وأما المالكية فالاثر أكثر معتمدهم وليسوا بأهل نظر وأيضا فأكثرهم أهل المغرب وهم بادية غفل من الصنائع الا فى الاقل وللغزالى رحمه الله تعالى فيه كتاب المأخذ ولابى زيد الدبوسى كتاب التعليقة ولابن القصار من شيوخ المالكية عيون الادلة وقد جمع ابن الساعاتى فى مختصره فى أصول الفقه جميع ما ينبنى عليها من الفقه الخلافى مدرجا فى كل مسئلة ما ينبنى عليها من الخلافيات *(وأما الجدل)* وهو معرفة آداب المناظرة التى تجرى بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم فانه لما كان باب المناظرة فى الرد والقبول متسعا وكل واحد من المناظرين فى الاستدلال والجواب يرسل عنانه فى الاحتجاج ومنه ما يكون صوابا ومنه ما يكون خطأ فاحتاج الائمة الى أن يضعوا آدابا وأحكاما يقف المتناظران عند حدودها فى الرد والقبول وكيف

يكون حال المستدل والمجيب وحيث يسوغ له أن يكون مستدلا وكيف يكون مخصوصا منقطعا ومحل اعتراضه أو معارضته وأين يجب عليه السكوت ولخصمه الكلام والاستدلال ولذلك قيل فيه انه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها الى حفظ رأي وهدمه كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره وهي طريقتان طريقة البزدوي وهي خاصة بالادلة الشرعية من النص والاجماع والاستدلال وطريقة العميدي وهي عامة في كل دليل يستدل به من أي علم كان وأكثره استدلال وهو من المناحي الحسنة والمغالطات فيه في نفس الامر كثيرة واذا اعتبرنا النظر المنطقي كان في الغالب أشبه بالقياس المغالطي والسوفسطائي الا أن صور الادلة والاقيسة فيه محفوظة مراعاة تتحرى فيها طرق الاستدلال كما ينبغي وهذا العميدي هو أول من كتب فيها ونسبت الطريقة اليه وضع الكتاب المسمى بالارشاد مختصرا وتبعه من بعده من المتأخرين كالنسفي وغيره جاؤا على أثره وسلكوا مسلكه وكثرت في الطريقة التآليف وهي لهذا العهد مهجورة لنقص العلم والتعليم في الامصار الاسلامية وهي مع ذلك كمالية وليست ضرورية والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

١٠ (علم الكلام)

هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الايمانية بالادلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة وسر هذه العقائد الايمانية هو التوحيد فلنقدم هنا لطيفة في برهان عقلي يكشف لنا عن التوحيد على أقرب الطرق والمآخذ ثم نرجع الى تحقيق علمه وفيما ينظر ويشير الى حدوثه في الملة وما دعا الى وضعه فنقول ان الحوادث في عالم الكائنات سواء كانت من الذوات أو من الافعال البشرية أو الحيوانية فلا بد لها من أسباب متقدمة عليها بها تقع في مستقر العادة وعنها يتم كونه وكل واحد من هذه الاسباب حادث أيضا فلا بد له من أسباب أخر ولا تزال تلك الاسباب مرتقية حتى تنتهي الى مسبب الاسباب وموجدها وخالقها سبحانه لا اله الا هو وتلك الاسباب في ارتقائها تتفسح وتتضاعف طولا وعرضا ويحار العقل في ادراكها وتعديدها فاذا لا يحصرها الا العلم المحيط سيما الافعال البشرية والحيوانية فان من جملة أسبابها في الشاهد القصود والارادات اذ لا يتم كون الفعل الا بارادته والقصد اليه والقصود والارادات أمور نفسانية ناشئة في الغالب عن تصورات سابقة يتلو بعضها بعضا وتلك التصورات هي أسباب قصد الفعل وقد تكون أسباب تلك

التصورات تصورات أخرى وكل ما يقع في النفس من التصورات مجهول سببه اذ لا يطلع أحد على مبادي الامور النفسانية ولا على ترتيبها انما هي أشياء يلقيها الله في الفكر يتبع بعضها بعضا والانسان عاجز عن معرفة مباديها وغاياتها وانما يحيط علما في الغالب بالاسباب التي هي طبيعة ظاهرة ويقع في مداركها على نظام وترتيب لان الطبيعة محصورة للنفس وتحت طورها وأما التصورات فنطاقها أوسع من النفس لانها للعقل الذي هو فوق طور النفس فلا تدرك الكثير منها فضلا عن الاحاطة وتأمل من ذلك حكمة الشارع في نهيه عن النظر الى الاسباب والوقوف معها فانه واد يهيم فيه الفكر ولا يحلو منه بطائل ولا يظفر بحقيقة قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون وربما انقطع في وقوفه عن الارتقاء الى ما فوقه فزلت قدمه وأصبح من الضالين الهالكين نعوذ بالله من الحرمان والخسران المبين ولا تحسبن أن هذا الوقوف أو الرجوع عنه في قدرتك واختيارك بل هو لون يحصل للنفس وصبغة تستحكم من الخوض في الاسباب على نسبة لا نعلمها اذ لو علمناها لتحرزنا منها فلنتحرز من ذلك بقطع النظر عنها جملة وأيضا فوجه تأثير هذه الاسباب في الكثير من مسبباتها مجهول لانها انما يوقف عليها بالعادة لاقتران الشاهد بالاستناد الى الظاهر وحقيقة التأثير وكيفيته مجهولة وما أوتيتم من العلم الا قليلا فلذلك أمرنا بقطع النظر عنها والغائها جملة والتوجه الى مسبب الاسباب كلها وفاعلها وموجدها لترسخ صفة التوحيد في النفس على ما علمنا الشارع الذي هو أعرف بمصالح ديننا وطرق سعادتنا لاطلاعه على ما وراء الحس قال صلى الله عليه وسلم من مات يشهد أن لا اله الا الله دخل الجنة فان وقف عند تلك الاسباب فقد انقطع وحقت عليه كلمة الكفر وان سبح في بحر النظر والبحث عنها وعن أسبابها وتأثيراتها واحدا بعد واحد فأنا الضامن له أن لا يعود الا بالخيبة فلذلك نهانا الشارع عن النظر في الاسباب وأمرنا بالتوحيد المطلق قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ولا تثقن بما يزعم لك الفكر من أنه مقتدر على الاحاطة بالكائنات وأسبابها والوقوف على تفصيل الوجود كله وسفه رأيه في ذلك واعلم أن الوجود عند كل مدرك في بادئ رأيه منحصر في مداركه لا يعدوها والامر في نفسه بخلاف ذلك والحق من ورائه ألا ترى الاصم كيف ينحصر الوجود عنده في المحسوسات الاربع والمعقولات ويسقط من الوجود عنده صنف المسموعات وكذلك الاعمى أيضا يسقط عنده صنف المرئيات ولولا ما يردهم الى ذلك تقليد الآباء والمشيخة من أهل عصرهم والكافة لما أقروا به لكنهم يتبعون الكافة في اثبات هذه الاصناف لا بمقتضى فطرتهم وطبيعة ادراكهم ولو سئل الحيوان الاعجم ونطق لوجدناه منكرا

للمعقولات وساقطة لديه بالكلية فاذا علمت هذا فلعل هناك ضربا من الادراك غير مدركاتنا لان ادراكاتنا مخلوقة محدثة وخلق الله أكبر من خلق الناس والحصر مجهول والوجود أوسع نطاقا من ذلك والله من ورائهم محيط فاتهم ادراكك ومدركاتك فى الحصر واتبع ما أمرك الشارع به من اعتقادك وعملك فهو أحرص على سعادتك واعلم بما ينفعك لانه من طور فوق ادراكك ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك وليس ذلك بقادح فى العقل ومداركه بل العقل ميزان صحيح فأحكامه يقينية لا كذب فيها غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الالهية وكل ما وراء طوره فان ذلك طمع فى محال ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذى يوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال وهذا لا يدرك على أن الميزان فى أحكامه غير صادق لكن العقل قد يقف عنده ولا يتعدى طوره حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته فانه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه وتفطن فى هذا الغلط من يقدم العقل على السمع فى أمثال هذه القضايا وقصور فهمه واضمحلال رأيه فقد تبين لك الحق من ذلك واذا تبين ذلك فلعل الاسباب اذا تجاوزت فى الارتقاء نطاق ادراكنا ووجودنا خرجت عن أن تكون مدركة فيضل العقل فى بيداء الاوهام ويحار وينقطع فاذا التوحيد هو العجز عن ادراك الاسباب وكيفيات تأثيرها وتفويض ذلك الى خالقها المحيط بها اذ لا فاعل غيره وكلها ترتقى اليه وترجع الى قدرته وعلمنا به انما هو من حيث صدورنا عنه وهذا هو معنى ما نقل عن بعض الصديقين العجز عن الادراك ادراك ثم ان المعتبر فى هذا التوحيد ليس هو الايمان فقط الذى هو تصديق حكمى فان ذلك من حديث النفس وانما الكمال فيه حصول صفة منه تتكيف بها النفس كما ان المطلوب من الاعمال والعبادات أيضا حصول ملكة الطاعة والانقياد وتفريغ القلب عن شواغل ما سوى المعبود حتى ينقلب المريد السالك ربانيا والفرق بين الحال والعلم فى العقائد فرق ما بين القول والاتصاف وشرحه ان كثيرا من الناس يعلم أن رحمة اليتيم والمسكين قربة الى الله تعالى مندوب اليها ويقول بذلك ويعترف به ويذكر مأخذه من الشريعة وهو لو رأى يتيما أو مسكينا من أبناء المستضعفين لفر عنه واستنكف أن يباشره فضلا عن التمسح عليه للرحمة وما بعد ذلك من مقامات العطف والحنو والصدقة فهذا انما حصل له من رحمة اليتيم مقام العلم ولم يحصل له مقام الحال والاتصاف ومن الناس من يحصل له مع مقام العلم والاعتراف بأن رحمة المسكين قربة الى الله تعالى مقام آخر أعلى من الاول وهو الاتصاف بالرحمة وحصول ملكتها فمتى رأى يتيما أو مسكينا بادر اليه ومسح عليه والتمس الثواب فى الشفقة عليه لا يكاد

يصبر عن ذلك ولو دفع عنه ثم يتصدق عليه بما حضره من ذات يده وكذا علمك بالتوحيد مع اتصافك به والعلم الحاصل عن الاتصاف ضرورة هو أوثق مبنى من العلم الحاصل قبل الاتصاف وليس الاتصاف بحاصل عن مجرد العلم حتى يقع العمل ويتكرر مرارا غير منحصرة فترسخ الملكة ويحصل الاتصاف والتحقيق ويجيء العلم الثاني النافع في الآخرة فان العلم الاول المجرد عن الاتصاف قليل الجدوى والنفع وهذا علم أكثر النظار والمطلوب انما هو العلم الحالي الناشئ عن العادة *

واعلم أن الكمال عند الشارع في كل ما كلف به انما هو في هذا فما طلب اعتقاده فالكمال فيه في العلم الثاني الحاصل عن الاتصاف وما طلب عمله من العبادات فالكمال فيها في حصول الاتصاف والتحقق بها ثم ان الاقبال على العبادات والمواظبة عليها هو المحصل لهذه الثمرة الشريفة قال صلى الله عليه وسلم في رأس العبادات جعلت قرة عيني في الصلاة فان الصلاة صارت له صفة وحالا يجد فيها منتهى لذته وقرة عينه وأين هذا من صلاة الناس ومن لهم بها فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون اللهم وفقنا واهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقد تبين لك من جميع ما قررناه أن المطلوب في التكاليف كلها حصول ملكة راسخة في النفس يحصل عنها علم اضطراري للنفس هو التوحيد وهو العقيدة الايمانية وهو الذي تحصل به السعادة وأن ذلك سواء في التكاليف القلبية والبدنية ويتفهم منه أن الايمان الذي هو أصل التكاليف وينبوعها هو بهذه المثابة ذو مراتب أولها التصديق القلبي الموافق للسان وأعلاها حصول كيفية من ذلك الاعتقاد القلبي وما يتبعه من العمل مستولية على القلب فيستتبع الجوارح وتندرج في طاعتها جميع التصرفات حتى تنخرط الافعال كلها في طاعة ذلك التصديق الايماني وهذا أرفع مراتب الايمان وهو الايمان الكامل الذي لا يقارف المؤمن معه صغيرة ولا كبيرة اذ حصول الملكة ورسوخها مانع من الانحراف عن مناهجه طرفة عين قال صلى الله عليه وسلم لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن وفي حديث هرقل لما سأل أبا سفيان بن حرب عن النبي صلى الله عليه وسلم وأحواله فقال في أصحابه هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه قال لا قال وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب ومعناه أن ملكة الايمان اذا استقرت عسر على النفس مخالفتها شأن الملكات اذا استقرت فانها تحصل بمثابة الجبلة والفطرة وهذه هي المرتبة العالية من الايمان وهي في المرتبة الثانية من العصمة لان العصمة واجبة للانبياء وجوبا سابقا وهذه حاصلة للمؤمنين حصولا تابعا لاعمالهم وتصديقهم وبهذه الملكة ورسوخها يقع التفاوت في الايمان كالذي يتلى عليك من

أقاويل السلف وفي تراجم البخاري رضي الله عنه في باب الايمان كثير منه مثل أن الايمان قول وعمل ويزيد وينقص وان الصلاة والصيام من الايمان وان تطوع رمضان من الايمان والحياء من الايمان والمراد بهذا كله الايمان الكامل الذي أشرنا اليه والى ملكته وهو فعلي وأمّا التصديق الذي هو أول مراتبه فلا تفاوت فيه فمن اعتبر أوائل الاسماء وحمله على التصديق منع من التفاوت كما قال أئمة المتكلمين ومن اعتبر أواخر الاسماء وحمله على هذه الملكة التي هي الايمان الكامل ظهر له التفاوت وليس ذلك بقادح في اتحاد حقيقته الاولى التي هي التصديق اذ التصديق موجود في جميع رتبه لانه أقل ما يطلق عليه اسم الايمان وهو المخلص من عهدة الكفر والفيصل بين الكافر والمسلم فلا يجزي أقل منه وهو في نفسه حقيقة واحدة لا تتفاوت وانما التفاوت في الحال الحاصلة عن الاعمال كما قلناه فافهم * واعلم أن الشارع وصف لنا هذا الايمان الذي في المرتبة الاولى الذي هو تصديق وعين أمورا مخصوصة كلفنا التصديق بها بقلوبنا واعتقادها في أنفسنا مع الاقرار بألسنتنا وهي العقائد التي تقررت في الدين قال صلى الله عليه وسلم حين سئل عن الايمان فقال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره وهذه هي العقائد الايمانية المقررة في علم الكلام * ولنشر اليها مجملة لتتبين لك حقيقة هذا الفن وكيفية حدوثه فنقول اعلم ان الشارع لما أمرنا بالايمان بهذا الخالق الذي ردّ الافعال كلها اليه وأفرده به كما قدمناه وعرفنا أن في هذا الايمان نجاتنا عند الموت اذا حضرنا لم يعرّفنا بكنه حقيقة هذا الخالق المعبود اذ ذاك متعذر على ادراكنا ومن فوق طورنا فكلفنا أولا اعتقاد تنزيهه في ذاته عن مشابهة المخلوقين والالما صح أنه خالق لهم لعدم الفارق على هذا التقدير ثم تنزيهه عن صفات النقص والالشابه المخلوقين ثم توحيده بالاتحاد والالم يتم الخلق للتمانع ثم اعتقاد أنه عالم قادر فبذلك تتم الافعال شاهد قضيته لكمال الاتحاد والخلق ومريد والالم يخصص شيء من المخلوقات ومقدر لكل كائن والا فالارادة حادثة وأنه يعيدنا بعد الموت تكميلا لعنايته بالايجاد ولو كان لامر فان كان عبثا فهو للبقاء السرمدي بعد الموت ثم اعتقاد بعثة الرسل للنجاة من شقاء هذا المعاد لاختلاف أحواله بالشقاء والسعادة وعدم معرفتنا بذلك وتمام لطفه بنا في الايتاء بذلك وبيان الطريقين وأن الجنة للنعيم وجهنم للعذاب هذه أمهات العقائد الايمانية معللة بأدلتها العقلية وأدلتها من الكتاب والسنة كثيرة وعن تلك الادلة أخذها السلف وأرشد اليها العلماء وحققها الائمة الا أنه عرض بعد ذلك خلاف في تفاصيل هذه العقائد أكثر مثارها من الآي المتشابهة فدعا ذلك الى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل زيادة الى

النقل فحدث بذلك علم الكلام ولنبين لك تفصيل هذا المجمل وذلك أن القرآن ورد فيه وصف المعبود بالتنزيه المطلق الظاهر الدلالة من غير تأويل في آي كثيرة وهي سلوب كلها وصريحة في بابها فوجب الايمان بها ووقع في كلام الشارع صلوات الله عليه وكلام الصحابة والتابعين تفسيرها على ظاهرها ثم وردت في القرآن آي أخرى قليلة توهم التشبيه مرة في الذات وأخرى في الصفات فأما السلف فغلبوا أدلة التنزيه لكثرتها ووضوح دلالتها وعلموا استحالة التشبيه وقضوا بأن الآيات من كلام الله فآمنوا بها ولم يتعرضوا لمعناها ببحث ولا تأويل وهذا معنى قول الكثير منهم اقرؤها كما جاءت أي آمنوا بأنها من عند الله ولا تتعرضوا لتأويلها ولا تفسيرها لجواز أن تكون ابتلاء فيجب الوقف والاذعان له وشذ لعصرهم مبتدعة اتبعوا ما تشابه من الآيات وتوغلوا في التشبيه ففريق أشبهوا في الذات باعتقاد اليد والقدم والوجه عملا بظواهر وردت بذلك فوقعوا في التجسيم الصريح ومخالفة آي التنزيه المطلق التي هي أكثر موارد وأوضح دلالة لان معقولية الجسم تقتضي النقص والافتقار وتغليب آيات السلوب في التنزيه المطلق التي هي أكثر موارد وأوضح دلالة أولى من التعلق بظواهر هذه التي لنا عنها غنية وجمع بين الدليلين بتأويلهم ثم يفرون من شناعة ذلك بقولهم جسم لا كالاجسام وليس ذلك بدافع عنهم لانه قول متناقض وجمع بين نفي واثبات ان كان بالمعقولية واحدة من الجسم وان خالفوا بينهما ونفوا المعقولية المتعارفة فقد وافقونا في التنزيه ولم يبق الا جعلهم لفظ الجسم اسما من أسمائه ويتوقف مثله على الاذن وفريق منهم ذهبوا الى التشبيه في الصفات كاثبات الجهة والاستواء والنزول والصوت والحرف وأمثال ذلك وآل قولهم الى التجسيم فنزعوا مثل الاولين الى قولهم صوت لا كالاصوات جهة لا كالجهات نزول لا كالنزول يعنون من الاجسام واندفع ذلك بما اندفع به الاول ولم يبق في هذه الظواهر الا اعتقادات السلف ومذاهبهم والايمان بها كما هي لئلا يكر النفي على معانيها بنفيها مع أنها صحيحة ثابتة من القرآن ولهذا تنظر ما تراه في عقيدة الرسالة لابن أبي زيد وكتاب المختصر له وفي كتاب الحافظ بن عبد البر وغيرهم فانهم يحومون على هذا المعنى ولا تغمض عينك عن القرائن الدالة على ذلك في غضون كلامهم ثم لما كثرت العلوم والصنائع وولع الناس بالتدوين والبحث في سائر الانحاء وألف المتكلمون في التنزيه حدثت بدعة المعتزلة في تعميم هذا التنزيه في آي السلوب فقضوا بنفي صفات المعاني من العلم والقدرة والارادة والحياة زائدة على أحكامها لما يلزم على ذلك من تعدد القديم بزعمهم وهو مردود بأن الصفات ليست عين الذات ولا غيرها وقضوا بنفي السمع والبصر لكونهما من عوارض الاجسام وهو مردود لعدم

اشتراط البنية في مدلول هذا اللفظ وإنما هو إدراك المسموع أو المبصر وقضوا بنفي الكلام لشبهه بما في السمع والبصر ولم يعقلوا صفة الكلام التي تقوم بالنفس فقضوا بأن القرآن مخلوق بدعة صرح السلف بخلافها وعظم ضرر هذه البدعة ولقنها بعض الخلفاء عن أئمتهم فحمل الناس عليها وخالفهم أئمة السلف فاستحل لخلافهم إبشار كثير منهم ودماؤهم وكان ذلك سببا لانتهاض أهل السنة بالأدلة العقلية على هذه العقائد دفعا في صدور هذه البدع وقام بذلك الشيخ أبو الحسن الأشعري إمام المتكلمين فتوسط بين الطرق ونفى التشبيه وأثبت الصفات المعنوية وقصر التنزيه على ما قصره عليه السلف وشهدت له الأدلة المخصصة لعمومه فأثبت الصفات الأربع المعنوية والسمع والبصر والكلام القائم بالنفس بطريق النقل والعقل ورد على المبتدعة في ذلك كله وتكلم معهم فيما مهدوه لهذه البدع من القول بالصلاح والأصلح والتحسين والتقبيح وكمل العقائد في البعثة وأحوال الجنة والنار والثواب والعقاب وألحق بذلك الكلام في الإمامة لما ظهر حينئذ من بدعة الإمامية من قولهم إنها من عقائد الإيمان وإنه يجب على النبي تعيينها والخروج عن العهدة في ذلك لمن هي له وكذلك على الأمة وقصارى أمر الإمامة أنها قضية مصلحية إجماعية ولا تلحق بالعقائد فلذلك ألحقوها بمسائل هذا الفن وسموا مجموعه علم الكلام إما لما فيه من المناظرة على البدع وهي كلام صرف وليست براجعة إلى عمل وإما لأن سبب وضعه والخوض فيه هو تنازعهم في إثبات الكلام النفسي وكثر أتباع الشيخ أبي الحسن الأشعري واقتفى طريقته من بعده تلميذه كابن مجاهد وغيره وأخذ عنهم القاضي أبو بكر الباقلاني فتصدر للإمامة في طريقتهم وهذبها ووضع المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الأدلة والأنظار وذلك مثل إثبات الجوهر الفرد والخلاء وأن العرض لا يقوم بالعرض وأنه لا يبقى زمانين وأمثال ذلك مما تتوقف عليه أدلتهم وجعل هذه القواعد تبعا للعقائد الإيمانية في وجوب اعتقادها لتوقف تلك الأدلة عليها وأن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول وجملت هذه الطريقة وجاءت من أحسن الفنون النظرية والعلوم الدينية إلا أن صور الأدلة تعتبر بها الأقيسة ولم تكن حينئذ ظاهرة في الملة ولو ظهر منها بعض الشيء فلم يأخذ به المتكلمون لملابستها للعلوم الفلسفية المباينة للعقائد الشرعية بالجملة فكانت مهجورة عندهم لذلك ثم جاء بعد القاضي أبي بكر الباقلاني إمام الحرمين أبو المعالي فأملى في الطريقة كتاب الشامل وأوسع القول فيه ثم لخصه في كتاب الإرشاد واتخذه الناس إماما لعقائدهم ثم انتشرت من بعد ذلك علوم المنطق في الملة وقرأه الناس وفرقوا بينه وبين العلوم الفلسفية بأنه قانون ومعيار للأدلة فقط يسبر به الأدلة منها كما يسبر من سواها ثم نظروا

فى تلك القواعد والمقدمات فى فن الكلام للاقدمين فخالفوا الكثير منها بالبراهين التى أدلت الى ذلك وربما أن كثيرا منها مقتبس من كلام الفلاسفة فى الطبيعيات والالهيات فلما سبروها بالمعيار المنطقى ردهم الى ذلك فيها ولم يعتقدوا ببطلان المدلول من بطلان دليله كما صار اليه القاضى فصارت هذه الطريقة من مصطلحهم مباينة للطريقة الاولى وتسمى طريقة المتأخرين وربما أدخلوا فيها الرد على الفلاسفة فيما خالفوا فيه من العقائد الايمانية وجعلوهم من خصوم العقائد لتناسب الكثير من مذاهب المبتدعة ومذاهبهم وأول من كتب فى طريقة الكلام على هذا المنحى الغزالى رحمه الله وتبعه الامام ابن الخطيب وجماعة قفوا أثرهم واعتمدوا تقليدهم ثم توغل المتأخرون من بعدهم فى مخالطة كتب الفلسفة والتبس عليهم شأن الموضوع فى العلمين فحسبوه فيهما واحدا من اشتباه المسائل فيهما * واعلم أن المتكلمين لما كانوا يستدلون فى أكثر أحوالهم بالكائنات وأحوالها على وجود البارى وصفاته وهو نوع استدلالهم غالبا والجسم الطبيعى ينظر فيه الفيلسوف فى الطبيعيات وهو بعض من هذه الكائنات الا أن نظره فيها مخالف لنظر المتكلم وهو ينظر فى الجسم من حيث يتحرك ويسكن والمتكلم ينظر فيه من حيث يدل على الفاعل وكذا نظر الفيلسوف فى الالهيات انما هو نظر فى الوجود المطلق وما يقتضيه لذاته ونظر المتكلم فى الوجود من حيث انه يدل على الموجد وبالجملة فموضوع علم الكلام عند أهله انما هو العقائد الايمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع من حيث يمكن أن يستدل عليها بالادلة العقلية فترفع البدع وتزول الشكوك والشبه عن تلك العقائد واذا تأملت حال الفن فى حدوثه وكيف تدرج كلام الناس فيه صدرا بعد صدر وكلهم يفرض العقائد صحيحة ويستنهض الحجج والادلة علمت حينئذ ما قررناه لك فى موضوع الفن وأنه لا يعدوه ولقد اختلطت الطريقتان عند هؤلاء المتأخرين والتبست مسائل الكلام بمسائل الفلسفة بحيث لا يتميز أحد الفنين من الآخر ولا يحصل عليه طالبه من كتبهم كما فعله البيضاوى فى الطوالع ومن جاء بعده من علماء العجم فى جميع تآليفهم الا أن هذه الطريقة قد يعنى بها بعض طلبة العلم للاطلاع على المذاهب والاغراق فى معرفة الحجاج لوفور ذلك فيها وأما محاذاة طريقة السلف بعقائد علم الكلام فانما هو الطريقة القديمة للمتكلمين وأصلها كتاب الارشاد وما حذا حذوه ومن أراد ادخال الرد على الفلاسفة فى عقائده فعليه بكتب الغزالى والامام ابن الخطيب فانها وان وقع فيها مخالفة للاصطلاح القديم فليس فيها من الاختلاط فى المسائل والالتباس فى الموضوع ما فى طريقة هؤلاء المتأخرين من بعدهم وعلى الجملة فينبغى أن يعلم أن هذا العلم الذى هو علم الكلام غير ضرورى لهذا العهد على طالب

العلم اذ الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا والائمة من أهل السنة كفونا شأنهم فيما كتبوا ودونوا والادلة العقلية انما احتاجوا اليها حين دافعوا ونصروا وأما الآن فلم يبق منها الا كلام تنزه البارى عن كثير ايهاماته واطلاقه ولقد سئل الجنيد رحمه الله عن قوم مر بهم من المتكلمين يفيضون فيه فقال ما هؤلاء فقيل قوم ينزهون الله بالادلة عن صفات الحدوث وسمات النقص فقال نفى العيب حيث يستحيل العيب عيب لكن فائدته فى آحاد الناس وطلبة العلم فائدة معتبرة اذ لا يحسن بحامل السنة الجهل بالحجج النظرية على عقائدها والله ولى المؤمنين

١١ (علم التصوّف)

هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الامة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع الى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة وكان ذلك عامّا فى الصحابة والسلف فلما فشا الاقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده وجنح الناس الى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوّفة وقال القشيرى رحمه الله ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس والظاهر أنه لقب ومن قال اشتقاقه من الصفاء أو من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوى قال وكذلك من الصوف لانهم لم يختصوا بلبسه * قلت والاظهر ان قيل بالاشتقاق انه من الصوف وهم فى الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس فى لبس فاخر الثياب الى لبس الصوف فلما اختص هؤلاء بمذهب الزهد والانفراد عن الخلق والاقبال على العبادة اختصوا بمآخذ مدركة لهم وذلك أن الانسان بما هو انسان انما يتميز عن سائر الحيوان بالادراك وادراكه نوعان ادراك للعلوم والمعارف من اليقين والظن والشك والوهم وادراك للاحوال القائمة من الفرح والحزن والقبض والبسط والرضا والغضب والصبر والشكر وأمثال ذلك فالروح العاقل والمتصرّف فى البدن تنشأ من ادراكات وارادات وأحوال وهى التى يميز بها الانسان وبعضها ينشأ من بعض كما ينشأ العلم من الادلة والفرح والحزن عن ادراك المؤلم أو المتلذذ به والنشاط عن الحمام والكسل عن الاعياء وكذلك المريد فى مجاهدته وعبادته لابد وأن ينشأ له عن كل مجاهدة حال نتيجة تلك المجاهدة وتلك الحالة اما أن تكون نوع عبادة فترسخ وتصير مقاما للمريد واما أن لا تكون عبادة وانما تكون

صفة حاصلة للنفس من حزن أو سرور أو نشاط أو كسل أو غير ذلك من المقامات ولا يزال المريد يترقى من مقام الى مقام الى أن ينتهى الى التوحيد والمعرفة التى هى الغاية المطلوبة للسعادة قال صلى الله عليه وسلم من مات يشهد أن لا اله الا الله دخل الجنة فالمريد لابد له من الترقى فى هذه الاطوار وأصلها كلها الطاعة والاخلاص ويتقدمها الايمان ويصاحبها وتنشأ عنها الاحوال والصفات نتائج وثمرات ثم تنشأ عنها أخرى وأخرى الى مقام التوحيد والعرفان واذا وقع تقصير فى النتيجة أو خلل فنعلم أنه انما أتى من قبل التقصير فى الذى قبله وكذلك فى الخواطر النفسانية والواردات القلبية فلهذا يحتاج المريد الى محاسبة نفسه فى سائر أعماله وينظر فى حقائقها لان حصول النتائج عن الاعمال ضرورى وقصورها من الخلل فيها كذلك والمريد يجد ذلك بذوقه ويحاسب نفسه على أسبابه ولا يشاركهم فى ذلك الا القليل من الناس لان الغفلة عن هذا كأنها شاملة وغاية أهل العبادات اذا لم ينتهوا الى هذا النوع أنهم يأتون بالطاعات مخلصة من نظر الفقه فى الاجزاء والامتثال وهؤلاء يبحثون عن نتائجها بالاذواق والمواجد ليطلعوا على أنها خالصة من التقصير أولا فظهر أن أصل طريقتهم كلها محاسبة النفس على الافعال والتروك والكلام فى هذه الاذواق والمواجد التى تحصل عن المجاهدات ثم تستقر للمريد مقاما ويترقى منها الى غيرها ثم لهم مع ذلك آداب مخصوصة بهم واصطلاحات فى ألفاظ تدور بينهم اذ الاوضاع اللغوية انما هى للمعانى المتعارفة فاذا عرض من المعانى ما هو غير متعارف اصطلحنا عن التعبير عنه بلفظ يتيسر فهمه منه فلهذا اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذى ليس لواحد غيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه وصار علم الشريعة على صنفين صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا وهى الاحكام العامة فى العبادات والعادات والمعاملات وصنف مخصوص بالقوم فى القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليها والكلام فى الاذواق والمواجد العارضة فى طريقها وكيفية الترقى منها من ذوق الى ذوق وشرح الاصطلاحات التى تدور بينهم فى ذلك فلما كتبت العلوم ودونت وألف الفقهاء فى الفقه وأصوله والكلام والتفسير وغير ذلك كتب رجال من أهل هذه الطريقة فى طريقهم فمنهم من كتب فى الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء فى الاخذ والترك كما فعله القشيرى فى كتاب الرسالة والسهروردى فى كتاب عوارف المعارف وأمثالهم وجمع الغزالى رحمه الله بين الامرين فى كتاب الاحياء فدون فيه أحكام الورع والاقتداء ثم بين آداب القوم وسننهم وشرح اصطلاحاتهم فى عباراتهم وصار علم التصوف فى الملة علما مدونا بعد ان كانت الطريقة عبادة فقط وكانت أحكامها انما تتلقى من صدور

الرجال كما وقع فى سائر العلوم التى دوّنت بالكتاب من التفسير والحديث والفقه والاصول وغير ذلك * ثم ان هذه المجاهدة والخلوة والذكر يتبعها غالبا كشف حجاب الحس والاطلاع على عوالم من أمر الله ليس لصاحب الحس ادراك شئ منها والروح من تلك العوالم وسبب هذا الكشف أن الروح اذا رجع عن الحس الظاهر الى الباطن ضعفت أحوال الحس وقويت أحوال الروح وغلب سلطانه وتجدد نشوه وأعان على ذلك الذكر فانه كالغذاء لتنمية الروح ولا يزال فى نمو وتزيد الى أن يصير شهودا بعد ان كان علما ويكشف حجاب الحس ويتم وجود النفس الذى لها من ذاتها وهو عين الادراك فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية والعلوم اللدنية والفتح الالهى وتقرب ذاته فى تحقق حقيقتها من الافق الاعلى أفق الملائكة وهذا الكشف كثيرا ما يعرض لاهل المجاهدة فيدركون من حقائق الوجود ما لا يدرك سواهم وكذلك يدركون كثيرا من الواقعات قبل وقوعها ويتصرفون بهممهم وقوى نفوسهم فى الموجودات السفلية وتصير طوع ارادتهم فالعظماء منهم لا يعتبرون هذا الكشف ولا يتصرفون ولا يخبرون عن حقيقة شئ لم يؤمروا بالتكلم فيه بل يعدّون ما يقع لهم من ذلك محنة ويتعوّذون منه اذا هاجمهم وقد كان الصحابة رضى الله عنهم على مثل هذه المجاهدة وكان حظهم من هذه الكرامات أوفر الحظوظ لكنهم لم يقع لهم بها عناية وفى فضائل أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم كثير منها وتبعهم فى ذلك أهل الطريقة ممن اشتملت رسالة القشيرى على ذكرهم ومن تبع طريقتهم من بعدهم * ثم ان قوما من المتأخرين انصرفت عنايتهم الى كشف الحجاب والمدارك التى وراءه واختلفت طرق الرياضة عنهم فى ذلك باختلاف تعليمهم فى اماتة القوى الحسية وتغذية الروح العاقل بالذكر حتى يحصل للنفس ادراكها الذى لها من ذاتها بتمام نشوتها وتغذيتها فاذا حصل ذلك زعموا أن الوجود قد انحصر فى مداركها حينئذ وأنهم كشفوا ذوات الوجود وتصوّروا حقائقها كلها من العرش الى الطش هكذا قال الغزالى رحمه الله فى كتاب الاحياء بعد أن ذكر صورة الرياضة * ثم ان هذا الكشف لا يكون صحيحا كاملا عندهم الا اذا كان ناشئا عن الاستقامة لان الكشف قد يحصل لصاحب الجوع والخلوة وان لم يكن هناك استقامة كالسحرة والنصارى وغيرهم من المرتاضين وليس مرادنا الا الكشف الناشئ عن الاستقامة ومثاله أن المرآة الصقيلة اذا كانت محدبة أو مقعرة وحوذى بها جهة المرئى فانه يتشكل فيه معوجا على غير صورته وان كانت مسطحة تشكل فيها المرئى صحيحا فالاستقامة للنفس كالانبساط للمرآة فيما ينطبع فيها من الاحوال ولما عنى المتأخرون بهذا النوع من الكشف تكلموا فى

حقائق الموجودات العلوية والسفلية وحقائق الملك والروح والعرش والكرسى وأمثال ذلك وقصرت مدارك من لم يشاركهم فى طريقهم عن فهم أذواقهم ومواجدهم فى ذلك وأهل الفتيا بين منكر عليهم ومسلم لهم وليس البرهان والدليل بنافع فى هذا الطريق ردّا وقبولا اذ هى من قبيل الوجدانيات وربما قصد بعض المصنفين بيان مذهبهم فى كشف الوجود وترتيب حقائقه فأتى بالاغمض فالاغمض بالنسبة الى أهل النظر والاصطلاحات والعلوم كما فعل الفرغانى شارح قصيدة ابن الفارض فى الديباجة التى كتبها فى صدر ذلك الشرح فانه ذكر فى صدور الوجود عن الفاعل وترتيبه أن الوجود كله صادر عن صفة الوحدانية التى هى مظهر الاحدية وهما معا صادران عن الذات الكريمة التى هى عين الوحدة لا غير ويسمون هذا الصدور بالتجلى وأوّل مراتب التجليات عندهم تجلى الذات على نفسه وهو يتضمن الكمال بافاضة الايجاد والظهور لقوله فى الحديث الذى يتناقلونه كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق ليعرفونى وهذا الكمال فى الايجاد المتنزل فى الوجود وتفصيل الحقائق وهو عندهم عالم المعانى والحضرة الكمالية والحقيقة المحمدية وفيها حقائق الصفات واللوح والقلم وحقائق الانبياء والرسل أجمعين والكمل من أهل الملة المحمدية وهذا كله تفصيل الحقيقة المحمدية ويصدر عن هذه الحقائق حقائق أخرى فى الحضرة الهبائية وهى مرتبة المثال ثم عنها العرش ثم الكرسى ثم الافلاك ثم عالم العناصر ثم عالم التركيب هذا فى عالم الرتق فاذا تجلت فهى فى عالم الفتق ويسمى هذا المذهب مذهب أهل التجلى والمظاهر والحضرات وهو كلام لا يقتدر أهل النظر على تحصيل مقتضاه لغموضه وانغلاقه وبعد ما بين كلام صاحب المشاهدة والوجدان وصاحب الدليل وربما أنكر بظاهر الشرع هذا الترتيب وكذلك ذهب آخرون منهم الى القول بالوحدة المطلقة وهو رأى أغرب من الاول فى تعقله وتفاريعه يزعمون فيه أن الوجود له قوى فى تفاصيله بها كانت حقائق الموجودات وصورها وموادها والعناصر انما كانت بما فيها من القوى وكذلك مادتها لها فى نفسها قوة بها كان وجودها ثم ان المركبات فيها تلك القوى متضمنة فى القوة التى كان بها التركيب كالقوة المعدنية فيها قوى العناصر بهيولاها وزيادة القوة المعدنية ثم القوة الحيوانية تتضمن القوة المعدنية وزيادة قوتها فى نفسها وكذا القوة الانسانية مع الحيوانية ثم الفلك يتضمن القوة الانسانية وزيادة وكذا الذوات الروحانية والقوة الجامعة للكل من غير تفصيل هى القوة الالهية التى انبثت فى جميع الموجودات كلية وجزئية وجمعتها وأحاطت بها من كل وجه لا من جهة الظهور ولا من جهة الخفاء ولا من جهة الصورة ولا من جهة

المادة فالكل واحد وهو نفس الذات الالهية وهي في الحقيقة واحدة بسيطة والاعتبار هو المفصل لها كالانسانية مع الحيوانية ألا ترى أنها مندرجة فيها وكائنة بكونها فتارة يمثلونها بالجنس مع النوع في كل موجود كما ذكرناه وتارة بالكل مع الجزء على طريقة المثال وهم في هذا كله يفرون من التركيب والكثرة بوجه من الوجوه وانما أوجبها عندهم الوهم والخيال والذي يظهر من كلام ابن دهقان في تقرير هذا المذهب أن حقيقة ما يقولونه في الوحدة شبيه بما تقوله الحكماء في الالوان من أن وجودها مشروط بالضوء فاذا عدم الضوء لم تكن الالوان موجودة بوجه وكذا عندهم الموجودات المحسوسة كلها مشروطة بوجود المدرك الحسي بل والموجودات المعقولة والمتوهمة أيضا مشروطة بوجود المدرك العقلي فاذا الوجود المفصل كله مشروط بوجود المدرك البشري فلو فرضنا عدم المدرك البشري جملة لم يكن هناك تفصيل الوجود بل هو بسيط واحد فالحر والبرد والصلابة واللين بل والارض والماء والنار والسماء والكواكب انما وجدت لوجود الحواس المدركة لها لما جعل في المدرك من التفصيل الذي ليس في الموجود وانما هو في المدارك فقط فاذا فقدت المدارك المفصلة فلا تفصيل انما هو ادراك واحد وهو أنا لا غيره ويعتبرون ذلك بحال النائم فانه اذا نام وفقد الحس الظاهر فقد كل محسوس وهو في تلك الحالة الا ما يفصله له الخيال قالوا فكذا اليقظان انما يعتبر تلك المدركات كلها على التفصيل بنوع مدركه البشري ولو قدر فقد مدركه فقد التفصيل وهذا هو معنى قولهم الموهم لا الوهم الذي هو من جملة المدارك البشرية هذا ملخص رأيهم على ما يفهم من كلام ابن دهقان وهو في غاية السقوط لانا نقطع بوجود البلد الذي نحن مسافرون عنه واليه يقينا مع غيبته عن أعيننا وبوجود السماء المظلة والكواكب وسائر الاشياء الغائبة عنا والانسان قاطع بذلك ولا يكابر أحد نفسه في اليقين مع ان المحققين من المتصوفة المتأخرين يقولون ان المريد عند الكشف ربما يعرض له توهم هذه الوحدة ويسمى ذلك عندهم مقام الجمع ثم يترقى عنه الى التمييز بين الموجودات ويعبرون عن ذلك بمقام الفرق وهو مقام العارف المحقق ولا بد للمريد عندهم من عقبة الجمع وهي عقبة صعبة لانه يخشى على المريد من وقوفه عندها فتخسر صفقته فقد تبينت مراتب أهل هذه الطريقة ثم ان هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس توغلوا في ذلك فذهب الكثير منهم الى الحلول والوحدة كما أشرنا اليه وملؤا الصحف منه مثل الهروي في كتاب المقامات له وغيره وتبعهم ابن العربي وابن سبعين وتلميذهما ابن العفيف وابن الفارض والنجم الاسرائيلي في قصائدهم وكان سلفهم مخالطين للاسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضا

بالحلول والهيئة الائمة مذهبا لم يعرف لاولهم فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب ومعناه رأس العارفين يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان وقد أشار الى ذلك ابن سينا في كتاب الاشارات في فصول التصوف منها فقال جل جناب الحق أن يكون شرعة لكل وارد أو يطلع عليه الا الواحد بعد الواحد وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل شرعي وانما هو من أنواع الخطابة وهو بعينه ما تقوله الرافضة ودانوا به ثم قالوا بترتيب وجود الابدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في النقباء حتى انهم لما أسندوا لباس خرقة التصوف ليجعلوه أصلا لطريقتهم وتخليهم رفعوه الى علي رضي الله عنه وهو من هذا المعنى أيضا والا فعلي رضي الله عنه لم يختص من بين الصحابة بتخلية ولا طريقة في لباس ولا حال بل كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما أزهد الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكثرهم عبادة ولم يختص أحد منهم في الدين بشئ يؤثر عنه في الخصوص بل كان الصحابة كلهم اسوة في الدين والزهد والمجاهدة يشهد لذلك من كلام هؤلاء المتصوفة في أمر الفاطمي وما شحنوا كتبهم في ذلك مما ليس لسلف المتصوفة فيه كلام بنفي أو اثبات وانما هو مأخوذ من كلام الشيعة والرافضة ومذاهبهم في كتبهم والله يهدي الى الحق ثم ان كثيرا من الفقهاء وأهل الفتيا انتدبوا للرد على هؤلاء المتأخرين في هذه المقالات وأمثالها وشملوا بالنكير سائر ما وقع لهم في الطريقة والحق أن كلامهم معهم فيه تفصيل فان كلامهم في أربعة مواضع أحدها الكلام على المجاهدات وما يحصل من الاذواق والمواجد ومحاسبة النفس على الاعمال لتحصل تلك الاذواق التي تصير مقاما ويترقى منه الى غيره كما قلناه وثانيها الكلام في الكشف والحقيقة المدركة من عالم الغيب مثل الصفات الربانية والعرش والكرسي والملائكة والوحي والنبوة والروح وحقائق كل موجود غائب أو شاهد وتركيب الاكوان في صدورها عن موجدها وتكونها كما مر وثالثها التصرفات في العوالم والاكوان بأنواع الكرامات ورابعها ألفاظ موهمة الظاهر صدرت من الكثير من أئمة القوم يعبرون عنها في اصطلاحهم بالشطحات تستشكل ظواهرها فمنكر ومحسن ومتأول فأما الكلام في المجاهدات والمقامات وما يحصل من الاذواق والمواجد في نتائجها ومحاسبة النفس على التقصير في أسبابها فأمر لا مدفع فيه لاحد وأذواقهم فيه صحيحة والتحقق بها هو عين السعادة وأما الكلام في كرامات القوم واخبارهم بالمغيبات وتصرفهم في الكائنات فأمر صحيح غير منكر وان مال بعض العلماء الى انكارها فليس ذلك من

الحق وما احتج به الاستاذ أبو اسحق الاسفرايني من أئمة الاشعرية على انكارها لالتباسها بالمعجزة فقد فرق المحققون من أهل السنة بينهما بالتحدي وهو دعوى وقوع المعجزة على وفق ما جاء به قالوا ثم ان وقوعها على وفق دعوى الكاذب غير مقدور لان دلالة المعجزة على الصدق عقلية فان صفة نفسها التصديق فلو وقعت مع الكاذب لتبدلت صفة نفسها وهو محال هذا مع أن الوجود شاهد بوقوع الكثير من هذه الكرامات وانكارها نوع مكابرة وقد وقع للصحابة وأكابر السلف كثير من ذلك وهو معلوم مشهور وأما الكلام في الكشف واعطاء حقائق العلويات وترتيب صدور الكائنات فأكثر كلامهم فيه نوع من المتشابه لما أنه وجداني عندهم وفاقد الوجدان عندهم بمعزل عن أذواقهم فيه واللغات لا تعطي دلالة على مرادهم منه لانها لم توضع الا للمتعارف وأكثره من المحسوسات فينبغي أن لا نتعرض لكلامهم في ذلك ونتركه فيما تركناه من المتشابه ومن رزقه الله فهم شيء من هذه الكلمات على الوجه الموافق لظاهر الشريعة فأكرم بها سعادة وأما الالفاظ الموهمة التي يعبرون عنها بالشطحات ويؤاخذهم بها أهل الشرع فاعلم ان الانصاف في شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحس والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه وصاحب الغيبة غير مخاطب والمجبور معذور فمن علم منهم فضله واقتداؤه حمل على القصد الجميل من هذا وان العبارة عن المواجد صعبة لفقدان الوضع لها كما وقع لابي يزيد وأمثاله ومن لم يعلم فضله ولا اشتهر فمؤاخذ بما صدر عنه من ذلك اذا لم يتبين لنا ما يحملنا على تأويل كلامه وأما من تكلم بمثلها وهو حاضر في حسه ولم يملكه الحال فمؤاخذ أيضا ولهذا أفتى الفقهاء وأكابر المتصوفة بقتل الحلاج لانه تكلم في حضور وهو مالك لحاله والله أعلم وسلف المتصوفة من أهل الرسالة أعلام الملة الذين أشرنا اليهم من قبل لم يكن لهم حرص على كشف الحجاب ولا هذا النوع من الادراك انما همهم الاتباع والاقتداء ما استطاعوا ومن عرض له شيء من ذلك أعرض عنه ولم يحفل به بل يفرون منه ويرون انه من العوائق والمحن وأنه ادراك من ادراكات النفس مخلوق حادث وأن الموجودات لا تنحصر في مدارك الانسان وعلم الله أوسع وخلقه أكبر وشريعته بالهداية أملك فلا ينطقون بشيء مما يدركون بل حظروا الخوض في ذلك ومنعوا من يكشف له الحجاب من أصحابهم من الخوض فيه والوقوف عنده بل يلتزمون طريقتهم كما كانوا في عالم الحس قبل الكشف من الاتباع والاقتداء ويأمرون أصحابهم بالتزامها وهكذا ينبغي أن يكون حال المريد والله الموفق للصواب

هذا العلم من العلوم الشرعية وهو حادث في الملة عندما صارت العلوم صنائع وكتب الناس فيها وأما الرؤيا والتعبير لها فقد كان موجودا في السلف كما هو في الخلف وربما كان في الملوك والامم من قبل الا أنه لم يصل الينا للاكتفاء فيه بكلام المعبرين من أهل الاسلام والا فالرؤيا موجودة في صنف البشر على الاطلاق ولا بد من تعبيرها فلقد كان يوسف الصديق صلوات الله عليه يعبر الرؤيا كما وقع في القرآن وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أبي بكر رضي الله عنه والرؤيا مدرك من مدارك الغيب وقال صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة وقال لم يبق من المبشرات الا الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له وأول مابدئ به النبي صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح وكان النبي صلى الله عليه وسلم اذا انفتل من صلاة الغداة يقول لاصحابه هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا يسألهم عن ذلك ليستبشر بما وقع من ذلك مما فيه ظهور الدين واعزازه وأما السبب في كون الرؤيا مدركا للغيب فهو ان الروح القلبي وهو البخار اللطيف المنبعث من تجويف القلب اللحمي ينتشر في الشريانات ومع الدم في سائر البدن وبه تكمل أفعال القوى الحيوانية واحساسها فاذا أدركه الملال بكثرة التصرف في الاحساس بالحواس الخمس وتصريف القوى الظاهرة وغشي سطح البدن مايغشاه من برد الليل انخنس الروح من سائر أقطار البدن الى مركزه القلبي فيستجم بذلك لمعاودة فعله فتعطلت الحواس الظاهرة كلها وذلك هو معنى النوم كما تقدم في أول الكتاب ثم ان هذا الروح القلبي هو مطية للروح العاقل من الانسان والروح العاقل مدرك لجميع ما في عالم الامر بذاته اذ حقيقته وذاته عين الادراك وانما يمنع من تعقله للمدارك الغيبية ماهو فيه من حجاب الاشتغال بالبدن وقواه وحواسه فلو قد خلا من هذا الحجاب وتجرد عنه لرجع الى حقيقته وهو عين الادراك فيعقل كل مدرك فاذا تجرد عن بعضها خفت شواغله فلا بد له من ادراك لمحة من عالمه بقدر ما تجرد له وهو في هذه الحالة قد خفت شواغل الحس الظاهر كلها وهي الشاغل الاعظم فاستعد لقبول ما هنالك من المدارك اللائقة من عالمه واذا أدرك ما يدرك من عوالمه رجع الى بدنه اذ هو مادام في بدنه جسماني لا يمكنه التصرف الا بالمدارك الجسمانية والمدارك الجسمانية للعلم انما هي الدماغية والمتصرف منها هو الخيال فانه ينتزع من الصور المحسوسة صورا خيالية ثم يدفعها الى الحافظة تحفظها له الى وقت الحاجة اليها عند النظر والاستدلال وكذلك تجرد النفس منها صورا أخرى نفسانية عقلية فيترقى التجريد من المحسوس الى المعقول والخيال واسطة بينهما ولذلك اذا أدركت النفس من عالمها

ماتدركه ألقته الى الخيال فيصوّره بالصورة المناسبة له ويدفعه الى الحس المشترك فيراه النائم كأنه محسوس فيتنزل المدرك من الروح العقلي الى الحسي والخيال أيضا واسطة هذه حقيقة الرؤيا ومن هذا التقرير يظهر لك الفرق بين الرؤيا الصالحة وأضغاث الاحلام الكاذبة فانهما كلها صور في الخيال حالة النوم لكن ان كانت تلك الصور متنزلة من الروح العقلي المدرك فهو رؤيا وان كانت مأخوذة من الصور التي في الحافظة التي كان الخيال أودعها اياها منذ اليقظة فهي أضغاث أحلام * وأمّا معنى التعبير فاعلم أنّ الروح العقلي اذا أدرك مدركه وألقاه الى الخيال فصوره فانما يصوره في الصور المناسبة لذلك المعنى بعض الشئ كما يدرك معنى السلطان الاعظم فيصوّره الخيال بصورة البحر أو يدرك العداوة فيصوّرها الخيال في صورة الحية فاذا استيقظ وهو لم يعلم من أمره الا أنه رأى البحر أو الحية فينظر المعبر بقوة التشبيه بعد أن يتيقن أن البحر صورة محسوسة وأنّ المدرك وراءها وهو يهتدي بقرائن أخرى تعين له المدرك فيقول مثلا هو السلطان لانّ البحر خلق عظيم يناسب أن يشبه به السلطان وكذلك الحية يناسب أن تشبه بالعدوّ لعظم ضررها وكذا الاواني تشبه بالنساء لانهنّ أوعية وأمثال ذلك ومن المرئي ما يكون صريحا لا يفتقر الى تعبير لجلائها ووضوحها أو لقرب الشبه فيها بين المدرك وشبهه ولهذا وقع في الصحيح الرؤيا ثلاث رؤيا من الله ورؤيا من الملك ورؤيا من الشيطان فالرؤيا التي من الله هي الصريحة التي لا تفتقر الى تأويل والتي من الملك هي الرؤيا الصادقة تفتقر الى التعبير والرؤيا التي من الشيطان هي الاضغاث * واعلم أيضا أن الخيال اذا ألقى اليه الروح مدركه فانما يصوّره في القوالب المعتادة للحس ما لم يكن الحس أدركه قط فلا يصوّر فيه فلا يمكن من ولد أعمى أن يصوّر له السلطان بالبحر ولا العدوّ بالحية ولا النساء بالاواني لانه لم يدرك شيأ من هذه وانما يصوّر له الخيال أمثال هذه في شبهها ومناسبها من جنس مداركه التي هي المسموعات والمشمومات وليتحفظ المعبر من مثل هذا فربما اختلط به التعبير وفسد قانونه ثم ان علم التعبير علم بقوانين كلية يبني عليها المعبر عبارة ما يقص عليه وتأويله كما يقولون البحر يدل على السلطان وفي موضع آخر يقولون البحر يدل على الغيظ وفي موضع آخر يقولون البحر يدل على الهم والامر الفادح ومثل ما يقولون الحية تدل على العدوّ وفي موضع آخر يقولون هي كاتم سرّ وفي موضع آخر يقولون تدل على الحياة وأمثال ذلك فيحفظ المعبر هذه القوانين الكلية ويعبر في كل موضع بما تقتضيه القرائن التي تعين من هذه القوانين ما هو أليق بالرؤيا وتلك القرائن منها في اليقظة ومنها في النوم ومنها ما ينقدح في نفس المعبر بالخاصية التي خلقت فيه وكل ميسر لما خلق له ولم يزل

هـذا العلم متناقلا بين السلف وكان محمد بن سيرين فيه من أشهر العلماء وكتب عنه في ذلك القوانين وتناقلها الناس لهـذا العهد وألف الكرماني فيه من بعده ثم ألف المتكلمون المتأخرون وأكثروا والمتداول بين أهل المغرب لهـذا العهد كتب ابن أبي طالب القيرواني من علماء القيروان مثل الممتع وغيره وكتاب الاشارة للسالمي وهو علم مضيء بنور النبوة للمناسبة بينهما كما وقع في الصحيح والله علام الغيوب

١٣ (العلوم العقلية واصنافها)

وأما العلوم العقلية التي هي طبيعية للانسان من حيث انه ذو فكر فهي غير مختصة بملة بل يوجد النظر فيها لاهل الملل كلهم ويستوون في مداركها ومباحثها وهي موجودة في النوع الانساني منذ كان عمران الخليقة وتسمى هـذه العلوم علوم الفلسفة والحكمة وهي مشتملة على أربعة علوم الاول علم المنطق وهو علم يعصم الذهن عن الخطا في اقتناص المطالب المجهولة من الامور الحاصلة المعلومة وفائدته تمييز الخطا من الصواب فيما يلتمسه الناظر في الموجودات وعوارضها ليقف على تحقيق الحق في الكائنات بمنتهى فكره ثم النظر بعد ذلك عندهم اما في المحسوسات من الاجسام العنصرية والمكونة عنها من المعدن والنبات والحيوان والاجسام الفلكية والحركات الطبيعية والنفس التي تنبعث عنها الحركات وغير ذلك ويسمى هـذا الفن بالعلم الطبيعي وهو الثاني منها واما أن يكون النظر في الامور التي وراء الطبيعة من الروحانيات ويسمونه العلم الالهي وهو الثالث منها والعلم الرابع وهو الناظر في المقادير ويشتمل على أربعة علوم وتسمى التعاليم أولها علم الهندسة وهو النظر في المقادير على الاطلاق اما المنفصلة من حيث كونها معدودة أو المتصلة وهي اما ذو بعد واحد وهو الخط أو ذو بعدين وهو السطح أو ذو أبعاد ثلاثة وهو الجسم التعليمي ينظر في هـذه المقادير وما يعرض لها اما من حيث ذاتها أو من حيث نسبة بعضها الى بعض وثانيها علم الارتماطيقي وهو معرفة ما يعرض للكم المنفصل الذي هو العدد ويؤخذ له من الخواص والعوارض اللاحقة وثالثها علم الموسيقى وهو معرفة نسب الاصوات والنغم بعضها من بعض وتقديرها بالعدد وثمرته معرفة تلاحين الغناء ورابعها علم الهيئة وهو تعيين الاشكال للافلاك وحصر أوضاعها وتعددها لكل كوكب من السيارة والقيام على معرفة ذلك من قبل الحركات السماوية المشاهدة الموجودة لكل واحد منها ومن رجوعها واستقامتها واقبالها وادبارها فهذه أصول العلوم الفلسفية وهي سبعة المنطق وهو المتقدم منها وبعده التعاليم فالارتماطيقي أولا ثم الهندسة ثم الهيئة ثم

الموسيقى ثم الطبيعيات ثم الالهيات ولكل واحد منها فروع تتفرع عنه فمن فروع الطبيعيات الطب ومن فروع علم العدد علم الحساب والفرائض والمعاملات ومن فروع الهيئة الازياج وهي قوانين لحسابات حركات الكواكب وتعديلها للوقوف على مواضعها متى قصد ذلك ومن فروع النظر في النجوم علم الاحكام النجومية ونحن نتكلم عليها واحدا بعد واحد الى آخرها واعلم أن أكثر من عني بها في الاجيال الذين عرفنا أخبارهم الامتان العظيمتان في الدولة قبل الاسلام وهما فارس والروم فكانت أسواق العلوم نافقة لديهم على ما بلغنا لما كان العمران موفورا فيهم والدولة والسلطان قبل الاسلام وعصره لهم فكان لهذه العلوم بحور زاخرة في آفاقهم وأمصارهم وكان للكلدانيين ومن قبلهم من السريانيين ومن عاصرهم من القبط عناية بالسحر والنجامة وما يتبعها من الطلاسم وأخذ ذلك عنهم الامم من فارس ويونان فاختص بها القبط وطمى بحرها فيهم كما وقع في المتلو من خبر هاروت وماروت وشأن السحرة وما نقله أهل العلم من شأن البرابي بصعيد مصر ثم تتابعت الملل بحظر ذلك وتحريمه فدرست علومه وبطلت كأن لم تكن الا بقايا يتناقلها منتحلو هذه الصنائع والله أعلم بصحتها مع أن سيوف الشرع قائمة على ظهورها مانعة من اختبارها وأما الفرس فكان شأن هذه العلوم العقلية عندهم عظيما ونطاقها متسعا لما كانت عليه دولتهم من الضخامة واتصال الملك ولقد يقال ان هذه العلوم انما وصلت الى يونان منهم حين قتل الاسكندر دارا وغلب على مملكة الكينية فاستولى على كتبهم وعلومهم مالا يأخذه الحصر ولما فتحت أرض فارس ووجدوا فيها كتبا كثيرة كتب سعد بن أبي وقاص الى عمر بن الخطاب ليستأذنه في شأنها وتنقيلها للمسلمين فكتب اليه عمر أن اطرحوها في الماء فان يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه وان يكن ضلالا فقد كفانا الله فطرحوها في الماء أو في النار وذهبت علوم الفرس فيها عن أن تصل الينا *

واما الروم فكانت الدولة منهم ليونان أولا وكان لهذه العلوم بينهم مجال رحب وحملها مشاهير من رجالهم مثل أساطين الحكمة وغيرهم واختص فيها المشاؤن منهم أصحاب الرواق بطريقة حسنة في التعليم كانوا يقرؤن في رواق يظلهم من الشمس والبرد على ما زعموا واتصل فيها سند تعليمهم على ما يزعمون من لدن لقمان الحكيم في تلميذه بقراط الدن ثم الى تلميذه افلاطون ثم الى تلميذه ارسطو ثم الى تلميذه الاسكندر الافرودسي وتامسطيون وغيرهم وكان ارسطو معلما للاسكندر ملكهم الذي غلب الفرس على ملكهم وانتزع الملك من أيديهم وكان أرسخهم في هذه العلوم قدما وأبعدهم فيها صيتا وكان يسمى المعلم الاول فطار له في العالم ذكر * ولما انقرض

أمر اليونان وصار الامر للقياصرة وأخذوا بدين النصرانية هجروا تلك العلوم كما تقتضيه الملل والشرائع فيها وبقيت في صحفها ودواوينها مخلدة باقية في خزائنهم ثم ملكوا الشام وكتب هذه العلوم باقية فيهم ثم جاء الله بالاسلام وكان لاهله الظهور الذي لا كفاء له وابتزوا الروم ملكهم فيما ابتزوه للامم وابتداء أمرهم بالسذاجة والغفلة عن الصنائع حتى اذا تبحبح السلطان والدولة وأخذوا من الحضارة بالحظ الذي لم يكن لغيرهم من الامم وتفننوا في الصنائع والعلوم تشوقوا الى الاطلاع على هذه العلوم الحكمية بما سمعوا من الاساقفة والاقسة المعاهدين بعض ذكر منها وبما تسمو اليه افكار الانسان فيها فبعث أبو جعفر المنصور الى ملك الروم أن يبعث اليه بكتب التعاليم مترجمة فبعث اليه بكتاب أوقليدس وبعض كتب الطبيعيات فقرأها المسلمون واطلعوا على ما فيها وازدادوا حرصا على الظفر بما بقي منها وجاء المأمون بعد ذلك وكانت له في العلم رغبة بما كان ينتحله فانبعث لهذه العلوم حرصا وأوفد الرسل على ملوك الروم في استخراج علوم اليونانيين وانتساخها بالخط العربي وبعث المترجمين لذلك فأوعى منه واستوعب وعكف عليها النظار من أهل الاسلام وحذقوا في فنونها وانتهت الى الغاية أنظارهم فيها وخالفوا كثيرا من آراء المعلم الاول واختصوه بالرد والقبول لوقوف الشهرة عنده ودونوا في ذلك الدواوين وأربوا على من تقدمهم في هذه العلوم وكان من أكابرهم في الملة أبو نصر الفارابي وأبو علي بن سينا بالمشرق والقاضي أبو الوليد بن رشد والوزير أبو بكر بن الصائغ بالاندلس الى آخرين بلغوا الغاية في هذه العلوم واختص هؤلاء بالشهرة والذكر واقتصر كثير على انتحال التعاليم وما ينضاف اليها من علوم النجامة والسحر والطلسمات ووقفت الشهرة في هذا المنتحل على مسلمة بن أحمد المجريطي من أهل الاندلس وتلميذه ودخل على الملة من هذه العلوم وأهلها داخلة واستهوت الكثير من الناس بما جنحوا اليها وقلدوا آراءها والذنب في ذلك لمن ارتكبه ولو شاء الله ما فعلوه * ثم ان المغرب والاندلس لما ركدت ريح العمران بهما وتناقصت العلوم بتناقصه اضمحل ذلك منهما الا قليلا من رسومه تجدها في تفاريق من الناس وتحت رقبة من علماء السنة ويبلغنا عن أهل المشرق أن بضائع هذه العلوم لم تزل عندهم موفورة وخصوصا في عراق العجم وما بعده فيما وراء النهر وأنهم على ثبج من العلوم العقلية لتوفر عمرانهم واستحكام الحضارة فيهم ولقد وقفت بمصر على تآليف متعددة لرجل من عظماء هراة من بلاد خراسان يشهر بسعد الدين التفتازاني منها في علم الكلام وأصول الفقه والبيان تشهد بأن له ملكة راسخة في هذه العلوم وفي أثنائها ما يدل له على أن له اطلاعا على العلوم

الحكمية وقدما عالية في سائر الفنون العقلية والله يؤيد بنصره من يشاء كذلك بلغنا لهذا العهد أن هذه العلوم الفلسفية ببلاد الافرنجة من أرض رومة وما إليها من العدوة الشمالية نافقة الاسواق وان رسومها هنالك متجددة ومجالس تعليمها متعددة ودواوينها جامعة متوفرة وطلبتها متكثرة والله أعلم بما هنالك وهو يخلق ما يشاء ويختار

(العلوم العددية)

وأولها الارتماطيقي وهو معرفة خواص الاعداد من حيث التأليف اما على التوالي أو بالتضعيف مثل أن الاعداد اذا توالت متفاضلة بعدد واحد فان جمع الطرفين منها مساو لجمع كل عددين بعدهما من الطرفين بعد واحد ومثل ضعف الواسطة ان كانت عدة تلك الاعداد فردا مثل الافراد على تواليها والازواج على تواليها ومثل أن الاعداد اذا توالت على نسبة واحدة يكون أولها نصف ثانيها وثانيها نصف ثالثها الخ أو يكون أولها ثلث ثانيها وثانيها ثلث ثالثها الخ فان ضرب الطرفين أحدهما في الآخر كضرب كل عددين بعدهما من الطرفين بعد واحد أحدهما في الآخر ومثل مربع الواسطة ان كانت العدة فردا وذلك مثل أعداد زوج الزوج المتوالية من اثنين فأربعة فثمانية فستة عشر ومثل ما يحدث من الخواص العددية في وضع المثلثات العددية والمربعات والمخمسات والمسدسات اذا وضعت متتالية في سطورها بأن يجمع من الواحد الى العدد الاخير فتكون مثلثة وتتوالى المثلثات هكذا في سطر تحت الاضلاع ثم تزيد على كل مثلث ثلث الضلع الذي قبله فتكون مربعة وتزيد على كل مربع مثلث الضلع الذي قبله فتكون مخمسة وهلم جرا وتتوالى الاشكال على توالي الاضلاع ويحدث جدول ذو طول وعرض ففي عرضه الاعداد على تواليها ثم المثلثات على تواليها ثم المربعات ثم المخمسات الخ وفي طوله كل عدد واشكاله بالغا ما بلغ وتحدث في جمعها وقسمة بعضها على بعض طولا وعرضا خواص غريبة استقريت منها وتقررت في دواوينهم مسائلها وكذلك ما يحدث للزوج والفرد وزوج الزوج وزوج الفرد وزوج الزوج والفرد فان لكل منها خواص مختصة به تضمنها هذا الفن وليست في غيره وهذا الفن أول أجزاء التعاليم وأثبتها ويدخل في براهين الحساب وللحكماء المتقدمين والمتأخرين فيه تآليف وأكثرهم يدرجونه في التعاليم ولا يفردونه بالتأليف فعل ذلك ابن سينا في كتاب الشفاء والنجاة وغيره من المتقدمين وأما المتأخرون فهو عندهم مهجور اذ هو غير متداول ومنفعته في البراهين لا في الحساب فهجروه لذلك بعد أن استخلصوا زبدته في البراهين الحسابية كما فعله ابن البناء في كتاب رفع الحجاب والله سبحانه وتعالى أعلم

* (ومن فروع علم العدد صناعة الحساب) * وهي صناعة عملية في حساب الاعداد
بالضم والتفريق فالضم يكون في الاعداد بالافراد وهو الجمع وبالتضعيف تضاعف
عددا باحاد عدد آخر وهذا هو الضرب والتفريق أيضا يكون في الاعداد اما بالافراد
مثل ازالة عدد من عدد ومعرفة الباقي وهو الطرح أو تفصيل عدد بأجزاء متساوية
تكون عدتها محصلة وهو القسمة وسواء كان هذا الضم والتفريق في الصحيح من العدد
أو الكسر ومعنى الكسر نسبة عدد الى عدد وتلك النسبة تسمى كسرا وكذلك يكون
بالضم والتفريق في الجذور ومعناها العدد الذي يضرب في مثله فيكون منه العدد
المربع فان تلك الجذور أيضا يدخلها الضم والتفريق وهذه الصناعة حادثة احتيج
اليها للحساب في المعاملات وألف الناس فيها كثيرا وتداولوها في الامصار بالتعليم
للولدان ومن أحسن التعليم عندهم الابتداء بها لانها معارف متضحة وبراهين منتظمة
فينشأ عنها في الغالب عقل مضيء درب على الصواب وقد يقال من أخذ نفسه بتعليم
الحساب أول أمره انه يغلب عليه الصدق لما في الحساب من صحة المباني ومناقشة
النفس فيصير ذلك خلقا ويتعود الصدق ويلازمه مذهبا ومن أحسن التآليف
المبسوطة فيها لهذا العهد بالمغرب كتاب الحصار الصغير ولابن البناء المراكشي فيه
تلخيص ضابط لقوانين أعماله مفيد ثم شرحه بكتاب سماه رفع الحجاب وهو مستغلق
على المبتدئ بما فيه من البراهين الوثيقة المباني وهو كتاب جليل القدر أدركنا المشيخة
تعظمه وهو كتاب جدير بذلك وانما جاءه الاستغلاق من طريق البرهان ببيان علوم
التعاليم لان مسائلها وأعمالها واضحة كلها واذا قصد شرحها فانما هو اعطاء العلل
في تلك الاعمال وفي ذلك من العسر على الفهم ما لا يوجد في أعمال المسائل فتأمله
والله يهدي بنوره من يشاء وهو القوي المتين * (ومن فروعه الجبر والمقابلة) *
وهي صناعة يستخرج بها العدد المجهول من قبل المعلوم المفروض اذا كان بينهما
نسبة تقتضي ذلك فاصطلحوا فيها على أن جعلوا للمجهولات مراتب من طريق
التضعيف بالضرب أولها العدد لانه به يتعين المطلوب المجهول باستخراجه من نسبة
المجهول اليه وثانيها الشيء لان كل مجهول فهو من جهة ابهامه شيء وهو أيضا جذر
لما يلزم من تضعيفه في المرتبة الثانية وثالثها المال وهو أمر مبهم وما بعد ذلك فعلى
نسبة الاس في المضروبين ثم يقع العمل المفروض في المسألة فتخرج الى معادلة بين
مختلفين أو أكثر من هذه الاجناس فيقابلون بعضها ببعض ويجبرون ما فيها من الكسر
حتى يصير صحيحا ويحطون المراتب الى أقل الاسوس ان أمكن حتى يصير الى الثلاثة
التي عليها مدار الجبر عندهم وهي العدد والشيء والمال فان كانت المعادلة بين واحد

وواحد تعين فالمال والجذر يزول ابهامه بمعادلة العدد ويتعين والمال وان عادل الجذور يتعين بعدتها وان كانت المعادلة بين واحد واثنين أخرجه العمل الهندسي من طريق تفصيل الضرب في الاثنين وهي مبهمة فيعينها ذلك الضرب المفصل ولا يمكن المعادلة بين اثنين واثنين وأكثر ما انتهت المعادلة بينهم الى ست مسائل لان المعادلة بين عدد وجذر ومال مفردة أو مركبة تجيء ستة وأول من كتب في هذا الفن أبو عبد الله الخوارزمي وبعده أبو كامل شجاع بن أسلم وجاء الناس على أثره فيه وكتابه في مسائله الست من أحسن الكتب الموضوعة فيه وشرحه كثير من أهل الاندلس فأجادوا ومن أحسن شروحاته كتاب القرشي وقد بلغنا أن بعض أئمة التعاليم من أهل المشرق أنهى المعاملات الى أكثر من هذه الستة أجناس وبلغها الى فوق العشرين واستخرج لها كلها أعمالا وأتبعه ببراهين هندسية والله يزيد في الخلق ما يشاء سبحانه وتعالى *(ومن فروعه أيضا المعاملات)* وهو تصريف الحساب في معاملات المدن في البياعات والمساحات والزكوات وسائر ما يعرض فيه العدد من المعاملات يصرف في ذلك صناعتا الحساب في المجهول والمعلوم والكسر والصحيح والجذور وغيرها والغرض من تكثير المسائل المفروضة فيها حصول المران والدربة بتكرار العمل حتى ترسخ الملكة في صناعة الحساب ولاهل الصناعة الحسابية من أهل الاندلس تآليف فيها متعددة من أشهرها معاملات الزهراوي وابن السمح وأبي مسلم بن خلدون من تلميذ مسلمة المجريطي وأمثالهم *(ومن فروعه أيضا الفرائض)* وهي صناعة حسابية في تصحيح السهام لذوي الفروض في الوراثات اذا تعددت وهلك بعض الوارثين وانكسرت سهامه على ورثته أو زادت الفروض عند اجتماعها وتزاحمها على المال كله أو كان في الفريضة اقرار وانكار من بعض الورثة فيحتاج في ذلك كله الى عمل يعين به سهام الفريضة من كم تصح وسهام الورثة من كل بطن مصححا حتى تكون حظوظ الوارثين من المال على نسبة سهامهم من جملة سهام الفريضة فيدخلها من صناعة الحساب جزء كبير من صحيحه وكسره وجذره ومعلومه ومجهوله وترتب على ترتيب أبواب الفرائض الفقهية ومسائلها فتشتمل حينئذ هذه الصناعة على جزء من الفقه وهو أحكام الوراثة من الفروض والعول والاقرار والانكار والوصايا والتدبير وغير ذلك من مسائلها وعلى جزء من الحساب وهو تصحيح السهمان باعتبار الحكم الفقهي وهي من أجل العلوم وقد يورد أهلها أحاديث نبوية تشهد بفضلها مثل الفرائض ثلث العلم وانها أول ما يرفع من العلوم وغير ذلك وعندي أن ظواهر تلك الاحاديث كلها انما هي في الفرائض العينية كما تقدم لا فرائض الوراثات فانها أقل

من أن تكون في كتبها ثلث المال وأما الفرائض العينية فكثيرة وقد ألف الناس في هذا
الفن قديماً وحديثاً وأوعبوا ومن أحسن التآليف فيه على مذهب مالك رحمه الله
كتاب ابن ثابت ومختصر القاضي أبي القاسم الحوفي وكتاب ابن المنمر والجعدي
والصردي وغيرهم لكن الفضل للحوفي فكتابه مقدم على جميعها وقد شرحه من
شيوخنا أبو عبد الله سليمان الشطي كبير مشيخة فاس فأوضح وأوعب ولإمام الحرمين
فيها تآليف على مذهب الشافعي تشهد باتساع باعه في العلوم ورسوخ قدمه وكذا
للحنفية والحنابلة ومقامات الناس في العلوم مختلفة والله يهدي من يشاء بمنه وكرمه
لا رب سواه

(العلوم الهندسية)

هذا العلم هو النظر في المقادير إما المتصلة كالخط والسطح والجسم وإما المنفصلة
كالأعداد وفيما يعرض لها من العوارض الذاتية مثل أن كل مثلث فزواياه مثل
قائمتين ومثل أن كل خطين متوازيين لا يلتقيان في وجه ولو خرجا إلى غير نهاية ومثل
أن كل خطين متقاطعين فالزاويتان المتقابلتان منهما متساويتان ومثل
أن الأربعة مقادير المتناسبة ضرب الأول منها في الثالث كضرب الثاني في الرابع
وأمثال ذلك والكتاب المترجم لليونانيين في هذه الصناعة كتاب أوقليدس ويسمى كتاب
الأصول وكتاب الأركان وهو أبسط ما وضع فيها للمتعلمين وأول ما ترجم من كتاب
اليونانيين في الملة أيام أبي جعفر المنصور ونسخه مختلفة باختلاف المترجمين فمنها لحنين
ابن إسحاق ولثابت بن قرة وليوسف بن الحجاج ويشتمل على خمس عشرة مقالة أربعة
في السطوح وواحدة في الأقدار المتناسبة وأخرى في نسب السطوح بعضها إلى بعض
وثلاث في العدد والعاشرة في المنطقات والقوى على المنطقات ومعناه الجذور
وخمس في المجسمات وقد اختصره الناس اختصارات كثيرة كما فعله ابن سينا
في تعاليم الشفاء أفرد له جزءاً منها اختصه به وكذلك ابن الصلت في كتاب الاقتصار
وغيرهم وشرحه آخرون شروحاً كثيرة وهو مبدأ العلوم الهندسية بإطلاق واعلم أن
الهندسة تفيد صاحبها إضاءة في عقله واستقامة في فكره لأن براهينها كلها بينة
الانتظام جلية الترتيب لا يكاد الغلط يدخل أقيستها لترتيبها وانتظامها فيبعد الفكر
بممارستها عن الخطأ وينشأ لصاحبها عقل على ذلك المهيع وقد زعموا أنه كان مكتوباً
على باب أفلاطون من لم يكن مهندساً فلا يدخلن منزلنا وكان شيوخنا رحمهم الله يقولون
ممارسة علم الهندسة للفكر بمثابة الصابون للثوب الذي يغسل منه الأقذار وينقيه
من الأوضار والأدران وإنما ذلك لما أشرنا إليه من ترتيبه وانتظامه * (ومن فروع

هـذا الفن الهندسة المخصوصة بالاشكال الكرية والمخروطات) * أما الاشكال الكرية ففيها كتابان من كتب اليونانيين اثاودوسيوس وميلاوش في سطوحها وقطوعها وكتاب ثاودوسيوس مقدم في التعليم على كتاب ميلاوش لتوقف كثير من براهينه عليه ولا بد منهما لمن يريد الخوض في علم الهيئة لان براهينها متوقفة عليهما فالكلام في الهيئة كله كلام في الكرات السماوية وما يعرض فيها من القطوع والدوائر بأسباب الحركات كما نذكره فقد يتوقف على معرفة أحكام الاشكال الكرية سطوحها وقطوعها وأما المخروطات فهو من فروع الهندسة أيضا وهو علم ينظر فيما يقع في الاجسام المخروطة من الاشكال والقطوع ويبرهن على ما يعرض لذلك من العوارض ببراهين هندسية متوقفة على التعليم الاول وفائدتها تظهر في الصنائع العملية التي موادها الاجسام مثل النجارة والبناء وكيف تصنع التماثيل الغريبة والهياكل النادرة وكيف يتحيل على جر الاثقال ونقل الهياكل بالهندام والمنجال وأمثال ذلك وقد أفرد بعض المؤلفين في هذا الفن كتابا في الحيل العملية يتضمن من الصناعات الغريبة والحيل المستظرفة كل عجيبة وربما استغلق على الفهوم لصعوبة براهينه الهندسية وهو موجود بأيدي الناس ينسبونه الى بني شاكر والله تعالى أعلم * (ومن فروع الهندسة المساحة) * وهو فن يحتاج اليه في مسح الارض ومعناه استخراج مقدار الارض المعلومة بنسبة شبر أو ذراع أو غيرهما أو نسبة أرض من أرض اذا قويست بمثل ذلك ويحتاج الى ذلك في توظيف الخراج على المزارع والفدن وبساتين الغراسة وفي قسمة الحوائط والاراضي بين الشركاء أو الورثة وأمثال ذلك وللناس فيها موضوعات حسنة وكثيرة والله الموفق للصواب بمنه وكرمه * (المناظر من فروع الهندسة) * وهو علم يتبين به أسباب الغلط في الادراك البصري بمعرفة كيفية وقوعها بناء على أن ادراك البصر يكون بمخروط شعاعي رأسه نقطة الباصر وقاعدته المرئي ثم يقع الغلط كثيرا في رؤية القريب كبيرا والبعيد صغيرا وكذا رؤية الاشباح الصغيرة تحت الماء ووراء الاجسام الشفافة كبيرة ورؤية النقطة النازلة من المطر خطا مستقيما والسلعة دائرة وأمثال ذلك فيتبين في هذا العلم أسباب ذلك وكيفياته بالبراهين الهندسية ويتبين به أيضا اختلاف المنظر في القمر باختلاف العروض الذي ينبني عليه معرفة رؤية الاهلة وحصول الكسوفات وكثير من امثال هذا وقد ألف في هذا الفن كثير من اليونانيين وأشهر من ألف فيه من الاسلاميين ابن الهيثم ولغيره فيه أيضا تآليف وهو من هذه الرياضة وتفاريعها

وهو علم ينظر في حركات الكواكب الثابتة والمتحركة والمتحيرة ويستدل بكيفيات تلك الحركات على أشكال وأوضاع للأفلاك لزمت عنها هذه الحركات المحسوسة بطرق هندسية كما يبرهن على أن مركز الارض مباين لمركز فلك الشمس بوجود حركة الاقبال والادبار وكما يستدل بالرجوع والاستقامة للكواكب على وجود أفلاك صغيرة حاملة لها متحركة داخل فلكها الاعظم وكما يبرهن على وجود الفلك الثامن بحركة الكواكب الثابتة وكما يبرهن على تعدد الافلاك للكوكب الواحد بتعداد الميول له وأمثال ذلك وادراك الموجود من الحركات وكيفياتها وأجناسها انما هو بالرصد فانا انما علمنا حركة الاقبال والادبار به وكذا تركيب الافلاك في طبقاتها وكذا الرجوع والاستقامة وأمثال ذلك وكان اليونانيون يعتنون بالرصد كثيرا ويتخذون له الآلات التي توضع ليرصد بها حركة الكوكب المعين وكانت تسمى عندهم ذات الحلق وصناعة عملها والبراهين عليه في مطابقة حركتها بحركة الفلك منقول بأيدي الناس وأما في الاسلام فلم تقع به عناية الا في القليل وكان في أيام المأمون شيء منه وصنع الآلة المعروفة للرصد المسماة ذات الحلق وشرع في ذلك فلم يتم ولما مات ذهب رسمه وأغفل واعتمد من بعده على الارصاد القديمة وليست بمغنية لاختلاف الحركات باتصال الاحقاب وان مطابقة حركة الآلة في الرصد بحركة الافلاك والكواكب انما هو بالتقريب ولا يعطي التحقيق فاذا طال الزمان ظهر تفاوت ذلك بالتقريب وهذه الهيئة صناعة شريفة وليست على ما يفهم في المشهور أنها تعطي صورة السموات وترتيب الافلاك والكواكب بالحقيقة بل انما تعطي أن هذه الصور والهيآت للافلاك لزمت عن هذه الحركات وأنت تعلم أنه لا يبعد أن يكون الشيء الواحد لازما لمختلفين وان قلنا ان الحركات لازمة فهو استدلال باللازم على وجود الملزوم ولا يعطي الحقيقة بوجه على أنه علم جليل وهو أحد أركان التعاليم ومن أحسن التآليف فيه كتاب المجسطي منسوب لبطليموس وليس من ملوك اليونان الذين أسماؤهم بطليموس على ما حققه شراح الكتاب وقد اختصره الائمة من حكماء الاسلام كما فعله ابن سينا وأدرجه في تعاليم الشفاء ولخصه ابن رشد أيضا من حكماء الاندلس وابن السمح وابن الصلت في كتاب الاقتصار ولابن الفرغاني هيئة ملخصة قربها وحذف براهينها الهندسية والله علم الانسان ما لم يعلم سبحانه لا اله الا هو رب العالمين * (ومن فروعه علم الازياج) * وهي صناعة حسابية على قوانين عددية فيما يخص كل كوكب من طريق حركته وما أدى اليه برهان الهيئة في وضعه من سرعة وبطء واستقامة ورجوع وغير ذلك يعرف به مواضع الكواكب في أفلاكها لأي وقت فرض من قبل حسبان حركاتها على تلك

القوانين المستخرجة من كتب الهيئة ولهذه الصناعة قوانين كالمقدمات والاصول لها في معرفة الشهور والايام والتواريخ الماضية وأصول متقررة من معرفة الاوج والحضيض والميول وأصناف الحركات واستخراج بعضها من بعض يضعونها في جداول مرتبة تسهيلا على المتعلمين وتسمى الازياج ويسمى استخراج مواضع الكواكب للوقت المفروض لهذه الصناعة تعديلا وتقويما وللناس فيه تآليف كثيرة للمتقدمين والمتأخرين مثل البتاني وابن الكماد وقد عوّل المتأخرون لهذا العهد بالمغرب على زيج منسوب لابن اسحاق من منجمي تونس في أول المائة السابعة ويزعمون أنّ ابن اسحاق عوّل فيه على الرصد وان يهوديا كان بصقلية ماهرا في الهيئة والتعاليم وكان قد عني بالرصد وكان يبعث اليه بما يقع في ذلك من أحوال الكواكب وحركاتها فكان أهل المغرب لذلك عنوا به لوثاقة مبناه على ما يزعمون ولخصه ابن البنا في آخر سماه المنهاج فولع به الناس لما سهل من الاعمال فيه وانما يحتاج الى مواضع الكواكب من الفلك لتنبني عليها الأحكام النجومية وهو معرفة الآثار التي تحدث عنها بأوضاعها في عالم الانسان من الملك والدول والمواليد البشرية كما نبينه بعد ونوضح فيه أدلتهم ان شاء الله تعالى والله الموفق لما يحبه ويرضاه لا معبود سواه

(علم المنطق)

وهو قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود المعرفة للماهيات والحجج المفيدة للتصديقات وذلك أنّ الاصل في الادراك انما هو المحسوسات بالحواس الخمس وجميع الحيوانات مشتركة في هذا الادراك من الناطق وغيره وانما يتميز الانسان عنها بادراك الكليات وهي مجردة من المحسوسات وذلك بأن يحصل في الخيال من الاشخاص المتفقة صورة منطبقة على جميع تلك الاشخاص المحسوسة وهي الكلي ثم ينظر الذهن بين تلك الاشخاص المتفقة وأشخاص أخرى توافقها في بعض فيحصل له صورة تنطبق أيضا عليهما باعتبار ما اتفقا فيه ولا يزال يرتقي في التجريد الى الكلي الذي لا يجد كليا آخر معه يوافقه فيكون لاجل ذلك بسيطا وهذا مثل ما يجرّد من أشخاص الانسان صورة النوع المنطبقة عليها ثم ينظر بينه وبين الحيوان ويجرّد صورة الجنس المنطبقة عليهما ثم بينهما وبين النبات الى أن ينتهي الى الجنس العالي وهو الجوهر فلا يجد كليا يوافقه في شيء فيقف العقل هنالك عن التجريد ثم انّ الانسان لما خلق الله له الفكر الذي به يدرك العلوم والصنائع وكان العلم امّا تصورا للماهيات ويعني به ادراك ساذج من غير حكم معه وامّا تصديقا أي حكما بثبوت أمر لامر فصار سعي الفكر في تحصيل المطلوبات

امابأن تجمع تلك الكليات بعضها الى بعض على جهة التأليف فتحصل صورة فى الذهن كلية منطبقة على أفراد فى الخارج فتكون تلك الصورة الذهنية مفيدة لمعرفة ماهية تلك الاشخاص واما بأن يحكم بأمر على أمر فيثبت له ويكون ذلك تصديقا وغايته فى الحقيقة راجعة الى التصورات فائدة ذلك اذا حصل انما هى معرفة حقائق الاشياء التى هى مقتضى العلم وهذا السعى من الفكر قد يكون بطريق صحيح وقد يكون بطريق فاسد فاقتضى ذلك تمييز الطريق الذى يسعى به الفكر فى تحصيل المطالب العلمية ليتميز فيها الصحيح من الفاسد فكان ذلك قانون المنطق وتكلم فيه المتقدمون أول ما تكلموا به جملا جملا ومفترقا ولم تهذب طرقه ولم تجمع مسائله حتى ظهر فى يونان ارسطو فهذب مباحثه ورتب مسائله وفصوله وجعله أول العلوم الحكمية وفاتحتها ولذلك يسمى بالمعلم الاول وكتابه المخصوص بالمنطق يسمى النص وهو يشتمل على ثمانية كتب أربعة منها فى صورة القياس وأربعة فى مادته وذلك أن المطالب التصديقية على انحاء * فمنها ما يكون المطلوب فيه اليقين بطبعه ومنها ما يكون المطلوب فيه الظن وهو على مراتب فينظر فى القياس من حيث المطلوب الذى يفيده وما ينبغى أن تكون مقدماته بذلك الاعتبار ومن أى جنس يكون من العلم أو من الظن وقد ينظر فى القياس لا باعتبار مطلوب مخصوص بل من جهة انتاجه خاصة ويقال للنظر الاول انه من حيث المادة ونعنى به المادة المنتجة للمطلوب المخصوص من يقين أو ظن ويقال للنظر الثانى انه من حيث الصورة وانتاج القياس على الاطلاق فكانت لذلك كتب المنطق ثمانية * الاول فى الاجناس العالية التى ينتهى اليها تجريد المحسوسات وهى التى ليس فوقها جنس ويسمى كتاب المقولات * والثانى فى القضايا التصديقية وأصنافها ويسمى كتاب العبارة * والثالث فى القياس وصورة انتاجه على الاطلاق ويسمى كتاب القياس وهذا آخر النظر من حيث الصورة * ثم الرابع كتاب البرهان وهو النظر فى القياس المنتج لليقين وكيف يجب أن تكون مقدماته يقينية ويختص بشروط أخرى لافادة اليقين مذكورة فيه مثل كونها ذاتية وأولية وغير ذلك وفى هذا الكتاب الكلام فى المعرفات والحدود اذ المطلوب فيها انما هو اليقين لوجوب المطابقة بين الحد والمحدود لا تحتمل غيرها فلذلك اختصت عند المتقدمين بهذا الكتاب * والخامس كتاب الجدل وهو القياس المفيد قطع المشاغب وافحام الخصم وما يجب أن يستعمل فيه من المشهورات ويختص أيضا من جهة افادته لهذا الغرض بشروط أخرى من حيث افادته لهذا الغرض وهى مذكورة هنالك وفى هذا الكتاب يذكر المواضع التى يستنبط منها صاحب القياس قياسه

وفيه عكوس القضايا * والسادس كتاب السفسطة وهو القياس الذى يفيد خلاف الحق ويغالط به المناظر صاحبه وهو فاسد وهذا انما كتب ليعرف به القياس المغالطى فيحذر منه * والسابع كتاب الخطابة وهو القياس المفيد ترغيب الجمهور وحملهم على المراد منهم وما يجب أن يستعمل فى ذلك من المقالات * والثامن كتاب الشعر وهو القياس الذى يفيد التمثيل والتشبيه خاصة للاقبال على الشئ أو النفرة عنه وما يجب أن يستعمل فيه من القضايا التخيلية هذه هى كتب المنطق الثمانية عند المتقدمين ثم ان حكماء اليونانيين بعد أن تهذبت الصناعة ورتبت رأوا أنه لا بد من الكلام فى الكليات الخمس المفيدة للتصور فاستدركوا فيها مقالة تختص بها مقدمة بين يدى الفن فصارت تسعا وترجمت كلها فى الملة الاسلامية وكتبها وتداولها فلاسفة الاسلام بالشرح والتلخيص كما فعله الفارابى وابن سينا ثم ابن رشد من فلاسفة الاندلس ولابن سينا كتاب الشفاء استوعب فيه علوم الفلسفة السبعة كلها ثم جاء المتأخرون فغيروا اصطلاح المنطق وألحقوا بالنظر فى الكليات الخمس ثمرته وهى الكلام فى الحدود والرسوم نقلوها من كتاب البرهان وحذفوا كتاب المقولات لان نظر المنطق فيه بالعرض لا بالذات وألحقوا فى كتاب العبارة الكلام فى العكس لانه من توابع الكلام فى القضايا ببعض الوجوه ثم تكلموا فى القياس من حيث انتاجه للمطالب على العموم لا بحسب مادة وحذفوا النظر فيه بحسب المادة وهى الكتب الخمسة البرهان والجدل والخطابة والشعر والسفسطة وربما يلم بعضهم باليسير منها الماما وأغفلوها كأن لم تكن وهى المهم المعتمد فى الفن ثم تكلموا فيما وضعوه من ذلك كلاما مستبحرا ونظروا فيه من حيث انه فن برأسه لا من حيث انه آلة للعلوم فطال الكلام فيه واتسع وأول من فعل ذلك الامام فخر الدين بن الخطيب ومن بعده أفضل الدين الخونجى وعلى كتبه معتمد المشارقة لهذا العهد وله فى هذه الصناعة كتاب كشف الاسرار وهو طويل واختصر فيها مختصر الموجز وهو حسن فى التعليم ثم مختصر الجمل فى قدر أربعة أوراق أخذ بجامع الفن وأصوله فتداوله المتعلمون لهذا العهد فينتفعون به وهجرت كتب المتقدمين وطرقهم كأن لم تكن وهى ممتلئة من ثمرة المنطق وفائدته كما قلناه والله الهادى للصواب

١٨ (الطبيعيات)

وهو علم يبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون فينظر فى الاجسام السماوية والعنصرية وما يتولد عنها من حيوان وانسان ونبات ومعدن وما يتكون

فى الارض من العيون والزلازل وفى الجو من السحاب والبخار والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك وفى مبدا الحركة للاجسام وهو النفس على تنوعها فى الانسان والحيوان والنبات وكتب أرسطو فيه موجودة بين أيدى الناس ترجمت مع ما ترجم من علوم الفلسفة أيام المأمون وألف الناس على حذوها وأوعب من ألف فى ذلك ابن سينا فى كتاب الشفاء جمع فيه العلوم السبعة للفلاسفة كما قدمناه ثم لخصه فى كتاب النجاة وفى كتاب الاشارات وكأنه يخالف ارسطو فى الكثير من مسائلها ويقول برأيه فيها وأما ابن رشد فلخص كتب ارسطو وشرحها متبعا له غير مخالف وألف الناس فى ذلك كثيرا لكن هذه هى المشهورة لهذا العهد والمعتبرة فى الصناعة ولاهل المشرق عناية بكتاب الاشارات لابن سينا وللامام ابن الخطيب عليه شرح حسن وكذا الآمدى وشرحه أيضا نصير الدين الطوسى المعروف بخواجه من أهل المشرق وبحث مع الامام فى كثير من مسائله فأوفى على انظاره وبحوثه وفوق كل ذى علم عليم والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

١٩ (علم الطب)

ومن فروع الطبيعيات صناعة الطب وهى صناعة تنظر فى بدن الانسان من حيث يمرض ويصح فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء المرض بالادوية والاغذية بعد أن يتبين المرض الذى يخص كل عضو من أعضاء البدن وأسباب تلك الامراض التى تنشأ عنها وما لكل مرض من الادوية مستدلين على ذلك بأمزجة الادوية وقواها وعلى المرض بالعلامات المؤذنة بنضجه وقبوله الدواء أولا فى السحنة والفضلات والنبض محاذين لذلك قوة الطبيعة فانها المدبرة فى حالتى الصحة والمرض وانما الطبيب يحاذيها ويعينها بعض الشئ بحسب ما تقتضيه طبيعة المادة والفصل والسن ويسمى العلم الجامع لهذا كله علم الطب وربما أفردوا بعض الاعضاء بالكلام وجعلوه علما خاصا كالعين وعللها وأكحالها وكذلك ألحقوا بالفن من منافع الاعضاء ومعناها المنفعة التى لاجلها خلق كل عضو من أعضاء البدن الحيوانى وان لم يكن ذلك من موضوع علم الطب الا أنهم جعلوه من لواحقه وتوابعه وامام هذه الصناعة التى ترجمت كتبه فيها من الاقدمين جالينوس يقال انه كان معاصر العيسى عليه السلام ويقال انه مات بصقلية فى سبيل تغلب ومطاوعة اغتراب وتآليفه فيها هى الامهات التى اقتدى بها جميع الاطباء بعده وكان فى الاسلام فى هذه الصناعة أئمة جاؤا من وراء الغاية مثل الرازى والمجوسى وابن سينا ومن أهل الاندلس أيضا كثير وأشهرهم ابن زهر وهى لهذا العهد فى المدن

الاسلامية كأنها انقصت لوقوف العمران وتناقصه وهي من الصنائع التي لا تستدعيها الا الحضارة والترف كما نبينه بعد

(فصل) وللبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الامر على تجربة قاصرة على بعض الاشخاص متوارثا عن مشايخ الحي وعجائزه وربما يصح منه البعض الا أنه ليس على قانون طبيعي ولا على موافقة المزاج وكان عند العرب من هذا الطب كثير وكان فيهم أطباء معروفون كالحرث بن كلدة وغيره والطب المنقول في الشرعيات من هذا القبيل وليس من الوحي في شيء وانما هو أمر كان عاديا للعرب ووقع في ذكر أحوال النبي صلى الله عليه وسلم من نوع ذكر أحواله التي هي عادة وجبلة لا من جهة ان ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل فانه صلى الله عليه وسلم انما بعث ليعلمنا الشرائع ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديات وقد وقع له في شأن تلقيح النخل ما وقع فقال أنتم أعلم بأمور دنياكم فلا ينبغي أن يحمل شيء من الطب الذي وقع في الاحاديث الصحيحة المنقولة على أنه مشروع فليس هناك ما يدل عليه اللهم الا اذا استعمل على جهة التبرك وصدق العقد الايماني فيكون له أثر عظيم في النفع وليس ذلك في الطب المزاجي وانما هو من آثار الكلمة الايمانية كما وقع في مداواة المبطون بالعسل والله الهادي الى الصواب لا رب سواه

٢٠ (الفلاحة)

هذه الصناعة من فروع الطبيعيات وهي النظر في النبات من حيث تنميته ونشوؤه بالسقي والعلاج وتعهده بمثل ذلك وكان للمتقدمين بها عناية كثيرة وكان النظر فيها عندهم عاما في النبات من جهة غرسه وتنميته ومن جهة خواصه وروحانيته ومشاكلتها لروحانيات الكواكب والهياكل المستعمل ذلك كله في باب السحر فعظمت عنايتهم به لاجل ذلك وترجم من كتب اليونانيين كتاب الفلاحة النبطية منسوبة لعلماء النبط مشتملة من ذلك على علم كبير ولما نظر أهل الملة فيما اشتمل عليه هذا الكتاب وكان باب السحر مسدودا والنظر فيه محظورا فاقتصروا منه على الكلام في النبات من جهة غرسه وعلاجه وما يعرض له في ذلك وحذفوا الكلام في الفن الآخر منه جملة واختصر ابن العوام كتاب الفلاحة النبطية على هذا المنهاج وبقي الفن الآخر منه مغفلا نقل منه مسلمة في كتبه السحرية امهات من مسائله كما نذكره عند الكلام على السحر ان شاء الله تعالى وكتب المتأخرين في الفلاحة كثيرة ولا يعدون فيها الكلام في الغراس والعلاج وحفظ النبات من جوائحه وعوائقه وما يعرض في ذلك كله

وهو علم ينظر في الوجود المطلق فأولاً في الامور العامة للجسمانيات والروحانيات من الماهيات والوحدة والكثرة والوجوب والامكان وغير ذلك ثم ينظر في مبادى الموجودات وانها روحانيات ثم في كيفية صدور الموجودات عنها ومراتبها ثم في أحوال النفس بعد مفارقة الاجسام وعودها الى المبدا وهو عندهم علم شريف يزعمون أنه يوقفهم على معرفة الوجود على ما هو عليه وانّ ذلك عين السعادة في زعمهم وسيأتي الردّ عليهم وهو تال للطبيعيات في ترتيبهم ولذلك يسمونه علم ما وراء الطبيعة وكتب المعلم الاول فيه موجودة بين أيدي الناس ولخصه ابن سينا في كتاب الشفاء والنجاة وكذلك لخصها ابن رشد من حكماء الاندلس ولما وضع المتأخرون في علوم القوم ودوّنوا فيها ورد عليهم الغزالي ما ردّ منها ثم خلط المتأخرون من المتكلمين مسائل علم الكلام بمسائل الفلسفة لعروضها في مباحثهم وتشابه موضوع علم الكلام بموضوع الالهيات ومسائله بمسائلها فصارت كأنها فن واحد ثم غيروا ترتيب الحكماء في مسائل الطبيعيات والالهيات وخلطوهما فنا واحدا قدّموا الكلام في الامور العامة ثم اتبعوه بالجسمانيات وتوابعها ثم بالروحانيات وتوابعها الى آخر العلم كما فعله الامام ابن الخطيب في المباحث المشرقية وجميع من بعده من علماء الكلام وصار علم الكلام مختلطا بمسائل الحكمة وكتبه محشوة بها كأنّ الغرض من موضوعهما ومسائلهما واحد والتبس ذلك على الناس وهو غير صواب لانّ مسائل علم الكلام انما هي عقائد متلقاة من الشريعة كما نقلها السلف من غير رجوع فيها الى العقل ولا تعويل عليه بمعنى انها لا تثبت الا به فان العقل معزول عن الشرع وأنظاره وما تحدّث فيه المتكلمون من اقامة الحجج فليس بحثا عن الحق فيها فالتعليل بالدليل بعد ان لم يكن معلوما هو شأن الفلسفة بل انما هو التماس حجة عقلية تعضد عقائد الايمان ومذاهب السلف فيها وتدفع شبه أهل البدع عنها الذين زعموا أنّ مداركهم فيها عقلية وذلك بعد أن تفرض صحيحة بالادلة النقلية كما تلقاها السلف واعتقدوها وكثير ما بين المقامين وذلك أنّ مدارك صاحب الشريعة أوسع لاتساع نطاقها عن مدارك الانظار العقلية فهي فوقها ومحيطة بها لاستمدادها من الانوار الالهية فلا تدخل تحت قانون النظر الضعيف والمدارك المحاط بها فاذا هدانا الشارع الى مدرك فينبغي أن نقدمه على مداركنا ونثق به دونها ولا ننظر في تصحيحه بمدارك العقل ولو عارضه بل نعتمد ما أمرنا به اعتقادا

وعلما ونسكت عما لم نفقهه من ذلك ونفوّضه الى الشارع ونعزل العقل عنه والمتكلمون انما دعاهم الى ذلك كلام أهل الالحاد فى معارضات العقائد السلفية بالبدع النظرية فاحتاجوا الى الردّ عليهم من جنس معارضاتهم واستدعى ذلك الحجج النظرية ومحاذاة العقائد السلفية بها وأما النظر فى مسائل الطبيعيات والالهيات بالتصحيح والبطلان فليس من موضوع علم الكلام ولا من جنس انظار المتكلمين فاعلم ذلك لتميز به بين الفنين فانهما مختلطان عند المتأخرين فى الوضع والتأليف والحق مغايرة كل منهما لصاحبه بالموضوع والمسائل وانما جاء الالتباس من اتحاد المطالب عند الاستدلال وصار احتجاج أهل الكلام كأنه انشاء لطلب الاعتقاد بالدليل وليس كذلك بل انما هو ردّ على الملحدين والمطلوب مفروض الصدق معلومه وكذا جاء المتأخرون من غلاة المتصوّفة المتكلمين بالمواجد أيضا فخلطوا مسائل الفنين بفنهم وجعلوا الكلام واحدا فيها كلها مثل كلامهم فى النبوات والاتحاد والحلول والوحدة وغير ذلك والمدارك فى هذه الفنون الثلاثة متغايرة مختلفة وابعدها من جنس الفنون والعلوم مدارك المتصوّفة لانهم يدعون فيها الوجدان ويفرون عن الدليل والوجدان بعيد عن المدارك العلمية وابحاثها وتوابعها كما بيناه ونبينه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم والله أعلم بالصواب

٢٢ (علوم السحر والطلسمات)

هو علم بكيفية استعدادات تقتدر النفوس البشرية بها على التأثيرات فى عالم العناصر اما بغير معين أو بمعين من الامور السماوية والاوّل هو السحر والثانى هو الطلسمات ولما كانت هذه العلوم مهجورة عند الشرائع لما فيها من الضرر ولما يشترط فيها من الوجهة الى غير الله من كوكب أو غيره كانت كتبها كالمفقود بين الناس الا ما وجد فى كتب الامم الاقدمين فيما قبل نبوّة موسى عليه السلام مثل النبط والكلدانيين فان جميع من تقدّمه من الانبياء لم يشرعوا الشرائع ولا جاؤا بالاحكام انما كانت كتبهم مواعظ وتوحيد الله وتذكيرا بالجنة والنار وكانت هذه العلوم فى أهل بابل من السريانيين والكلدانيين وفى أهل مصر من القبط وغيرهم وكان لهم فيها التآليف والآثار ولم يترجم لنا من كتبهم فيها الا القليل مثل الفلاحة النبطية من أوضاع أهل بابل فأخذ الناس منها هذا العلم وتفننوا فيه ووضعت بعد ذلك الاوضاع مثل مصاحف الكواكب السبعة وكتاب طمطم الهندى فى صور الدرج والكواكب وغيرهم ثم ظهر بالمشرق جابر بن حيان كبير السحرة فى هذه الملة فتصفح

كتب القوم واستخرج الصناعة وغاص على زبدتها واستخرجها ووضع فيها غيرها من التآليف وأكثر الكلام فيها وفي صناعة السيمياء لانها من توابعها لان احالة الاجسام النوعية من صورة الى أخرى انما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العملية فهو من قبيل السحر كما نذكره في موضعه * ثم جاء مسلمة بن أحمد المجريطي امام أهل الاندلس في التعاليم والسحريات فلخص جميع تلك الكتب وهذبها وجمع طرقها في كتابه الذي سماه غاية الحكيم ولم يكتب أحد في هذا العلم بعده * ولنقدم هنا مقدمة يتبين بها حقيقة السحر وذلك أن النفوس البشرية وان كانت واحدة بالنوع فهي مختلفة بالخواص وهي أصناف كل صنف مختص بخاصية واحدة بالنوع لا توجد في الصنف الآخر وصارت تلك الخواص فطرة وجبلة لصنفها فنفوس الانبياء عليهم الصلاة والسلام لها خاصية تستعد بها للمعرفة الربانية ومخاطبة الملائكة عليهم السلام عن الله سبحانه وتعالى كما مر وما يتبع ذلك من التأثير في الاكوان واستجلاب روحانية الكواكب للتصرف فيها والتأثير بقوة نفسانية أو شيطانية فأما تأثير الانبياء فمدد الهي وخاصية ربانية ونفوس الكهنة لها خاصية الاطلاع على المغيبات بقوى شيطانية وهكذا كل صنف مختص بخاصية لا توجد في الآخر والنفوس الساحرة على مراتب ثلاثة يأتي شرحها فأولها المؤثرة بالهمة فقط من غير آلة ولا معين وهذا هو الذي تسميه الفلاسفة السحر والثاني بمعين من مزاج الافلاك أو العناصر أو خواص الاعداد ويسمونه الطلسمات وهو أضعف رتبة من الاول والثالث تأثير في القوى المتخيلة يعمد صاحب هذا التأثير الى القوى المتخيلة فيتصرف فيها بنوع من التصرف ويلقي فيها أنواعا من الخيالات والمحاكات وصورا مما يقصده من ذلك ثم ينزلها الى الحس من الرائين بقوة نفسه المؤثرة فيه فينظر الراؤن كأنها في الخارج وليس هناك شيء من ذلك كما حكي عن بعضهم أنه يرى البساتين والانهار والقصور وليس هناك شيء من ذلك ويسمى هذا عند الفلاسفة الشعوذة أو الشعبذة هذا تفصيل مراتبه ثم هذه الخاصية تكون في الساحر بالقوة شأن القوى البشرية كلها وانما تخرج الى الفعل بالرياضة ورياضة السحر كلها انما تكون بالتوجه الى الافلاك والكواكب والعوالم العلوية والشياطين بانواع التعظيم والعبادة والخضوع و لتذلل فهي لذلك وجهة الى غير الله وسجود له والوجهة الى غير الله كفر فلهذا كان السحر كفرا والكفر من مواده واسبابه كما رأيت ولهذا اختلف الفقهاء في قتل الساحر هل هو لكفره السابق على فعله أو لتصرفه بالافساد وما ينشأ عنه من الفساد في الاكوان والكل حاصل منه ولما كانت المرتبتان الاوليان من السحر لها حقيقة في الخارج والمرتبة الاخيرة الثالثة

لا حقيقة لها اختلف العلماء في السحر هل هو حقيقة أو انما هو تخييل فالقائلون بأن له حقيقة نظروا الى المرتبتين الاولين والقائلون بأن لا حقيقة له نظروا الى المرتبة الثالثة الاخيرة فليس بينهم اختلاف في نفس الامر بل انما جاء من قبل اشتباه هذه المراتب والله أعلم * واعلم أن وجود السحر لا مرية فيه بين العقلاء من أجل التأثير الذي ذكرناه وقد نطق به القرآن قال الله تعالى ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله وسحر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان يخيل اليه أنه يفعل الشئ ولا يفعله وجعل سحره في مشط ومشاقة وجف طلعة ودفن في بئر ذروان فأنزل الله عز وجل عليه في المعوذتين ومن شر النفاثات في العقد قالت عائشة رضي الله عنها فكان لا يقرأ على عقدة من تلك العقد التي سحر فيها الا انحلت وأما وجود السحر في أهل بابل وهم الكلدانيون من النبط والسريانيين فكثير ونطق به القرآن وجاءت به الاخبار وكان للسحر في بابل ومصر أزمان بعثة موسى عليه السلام أسواق نافقة ولهذا كانت معجزة موسى من جنس ما يدعون ويتناغون فيه وبقي من آثار ذلك في البرابي بصعيد مصر شواهد دالة على ذلك ورأينا بالعيان من يصور صورة الشخص المسحور بخواص أشياء مقابلة لما نواه وحاوله موجودة بالمسحور وأمثال تلك المعاني من أسماء وصفات في التأليف والتفريق ثم يتكلم على تلك الصورة التي أقامها مقام الشخص المسحور عينا أو معنى ثم ينفث من ريقه بعد اجتماعه في فيه بتكرير مخارج تلك الحروف من الكلام السوء ويعقد على ذلك المعنى في سبب أعده لذلك تفاؤلا بالعقد واللزام وأخذ العهد على من أشرك به من الجن في نفثه في فعله ذلك استشعارا للعزيمة بالعزم ولتلك البنية والاسماء السيئة روح خبيثة تخرج منه مع النفخ متعلقة بريقه الخارج من فيه بالنفث فتنزل عنها أرواح خبيثة ويقع عن ذلك بالمسحور ما يحاوله الساحر وشاهدنا أيضا من المنتحلين للسحر وعمله من يشير الى كساء أو جلد ويتكلم عليه في سره فاذا هو مقطوع متخرق ويشير الى بطون الغنم كذلك في مراعيها بالبعج فاذا امعاؤها ساقطة من بطونها الى الارض وسمعنا أن بأرض الهند لهذا العهد من يشير الى انسان فيتحتت قلبه ويقع ميتا وينقب عن قلبه فلا يوجد في حشاه ويشير الى الرمانة وتفتح فلا يوجد من حبوبها شيء وكذلك سمعنا أن بأرض السودان وأرض الترك من يسحر السحاب فيمطر الارض

المخصوصة وكذلك رأينا من عمل الطلسمات عجائب في الاعداد المتحابة وهي رك رفد أحد العددين مائتان وعشرون والآخر مائتان وأربعة وثمانون ومعنى المتحابة أن أجزاء كل واحد التي فيه من نصف وثلث وربع وسدس وخمس وأمثالها اذا جمع كان مساويا للعدد الآخر صاحبه فتسمى لاجل ذلك المتحابة ونقل أصحاب الطلسمات أن لتلك الاعداد أثرا في الالفة بين المتحابين واجتماعهما اذا وضع لهما مثالان أحدهما بطالع الزهرة وهي في بيتها أو شرفها ناظرة الى القمر نظر مودة وقبول ويجعل طالع الثاني سابع الاول ويضع على أحد التمثالين أحد العددين والآخر على الآخر ويقصد بالاكثر الذي يراد ائتلافه أعني المحبوب ما أدري الاكثر كمية أو الاكثر أجزاء فيكون لذلك من التأليف العظيم بين المتحابين ما لا يكاد ينفك أحدهما عن الآخر قاله صاحب الغاية وغيره من أئمة هذا الشأن وشهدت له التجربة وكذا طابع الاسد ويسمى أيضا طابع الحصى وهو أن يرسم في قالب هند اصبع صورة أسد شائلا ذنبه عاضا على حصاة قد قسمها بنصفين وبين يديه صورة حية منسابة من رجليه الى قبالة وجهه فاغرة فاها الى فيه وعلى ظهره صورة عقرب تدب ويتحين برسمه حلول الشمس بالوجه الاول أو الثالث من الاسد بشرط صلاح النيرين وسلامتهما من النحوس فاذا وجد ذلك وعثر عليه طبع في ذلك الوقت في مقدار المثقال فما دونه من الذهب وغمس بعد في الزعفران محلولا بماء الورد ورفع في خرقة حرير صفراء فانهم يزعمون أن لممسكه من العز على السلاطين في مباشرتهم وخدمتهم وتسخيرهم له ما لا يعبر عنه وكذلك للسلاطين فيه من القوة والعز على من تحت أيديهم ذكر ذلك أيضا أهل هذا الشأن في الغاية وغيرها وشهدت له التجربة وكذلك وفق المسدس المختص بالشمس ذكروا أنه يوضع عند حلول الشمس في شرفها وسلامتها من النحوس وسلامة القمر بطالع ملوكي يعتبر فيه نظر صاحب العاشر لصاحب الطالع نظر مودة وقبول ويصلح فيه ما يكون في مواليد الملوك من الادلة الشريفة ويرفع في خرقة حرير صفراء بعد أن يغمس في الطيب فزعموا أن له أثرا في صحابة الملوك وخدمتهم ومعاشرتهم وأمثال ذلك كثير وكتاب الغاية لمسلمة بن أحمد المجريطي هو مدونة هذه الصناعة وفيه استيفاؤها وكمال مسائلها وذكر لنا أن الامام الفخر بن الخطيب وضع كتابا في ذلك وسماه بالسر المكتوم وأنه بالمشرق يتداوله أهله ونحن لم نقف عليه والامام لم يكن من أئمة هذا الشأن فيما نظن ولعل الامر بخلاف ذلك وبالمغرب صنف من هؤلاء المنتحلين لهذه الاعمال السحرية يعرفون بالبعاجين وهم الذين ذكرت أولا أنهم يشيرون الى الكساء أو الجلد فيتخرق ويشيرون الى بطون الغنم بالبعج فتنبعج ويسمى أحدهم لهذا العهد باسم

البعاج لأنّ أكثر ما ينتحل من السحر بعج الأنعام يرهب بذلك أهلها ليعطوه من فضلها وهم متستّرون بذلك في الغاية خوفاً على أنفسهم من الحكام لقيت منهم جماعة وشاهدت من أفعالهم هذه بذلك وأخبروني أنّ لهم وجهة ورياضة خاصة بدعوات كفرية واشراك الروحانيات الجنّ والكواكب سطرت فيها صحيفة عندهم تسمى الخزيرية يتدارسونها وانّ بهذه الرياضة والوجهة يصلون الى حصول هذه الأفعال لهم وانّ التأثير الذي لهم انّما هو فيما سوى الانسان الحرّ من المتاع والحيوان والرقيق ويعبرون عن ذلك بقولهم انّما نفعل فيما تمشي فيه الدراهم أي ما يملك ويباع ويشترى من سائر المتملّكات هذا ما زعموه وسألت بعضهم فأخبرني به وأمّا أفعالهم فظاهرة موجودة وقفنا على الكثير منها وعاينتها من غير ريبة في ذلك هذا شأن السحر والطلسمات وآثارهما في العالم؛ فأمّا الفلاسفة ففرّقوا بين السحر والطلسمات بعد أن أثبتوا أنّهما جميعاً أثر للنفس الانسانية واستدلوا على وجود الاثر للنفس الانسانية بأنّ لها آثاراً في بدنها على غير المجرى الطبيعي وأسبابه الجسمانية بل آثار عارضة من كيفيات الارواح تارة كالسخونة الحادثة عن الفرح والسرور ومن جهة التصوّرات النفسانية أخرى كالذي يقع من قبل التوهم فانّ الماشي على حرف حائط أو على حبل منتصب اذا قوي عنده توهم السقوط سقط بلا شك ولهذا تجد كثيراً من الناس يعوّدون أنفسهم ذلك حتى يذهب عنهم هذا الوهم فتجدهم يمشون على حرف الحائط والحبل المنتصب ولا يخافون السقوط فثبت أنّ ذلك من آثار النفس الانسانية وتصورها للسقوط من أجل الوهم واذا كان ذلك أثراً للنفس في بدنها من غير الاسباب الجسمانية الطبيعية فجائز أن يكون لها مثل هذا الاثر في غير بدنها اذ نسبتها الى الابدان في ذلك النوع من التأثير واحدة لأنها غير حالة في البدن ولا منطبعة فيه فثبت أنها مؤثرة في سائر الاجسام وأما التفرقة عندهم بين السحر والطلسمات فهو انّ السحر لا يحتاج الساحر فيه الى معين وصاحب الطلسمات يستعين بروحانيات الكواكب وأسرار الاعداد وخواص الموجودات وأوضاع الفلك المؤثرة في عالم العناصر كما يقوله المنجمون ويقولون السحر اتحاد روح بروح والطلسم اتحاد روح بجسم ومعناه عندهم ربط الطبائع العلوية السماوية بالطبائع السفلية والطبائع العلوية هي روحانيات الكواكب ولذلك يستعين صاحبه في غالب الامر بالنجامة والساحر عندهم غير مكتسب لسحره بل هو مفطور عندهم على تلك الجبلة المختصة بذلك النوع من التأثير والفرق عندهم بين المعجزة والسحر أنّ المعجزة قوة الهية تبعث في النفس ذلك التأثير فهو مؤيد بروح الله على فعله ذلك؛ والساحر انما يفعل ذلك من عند نفسه وبقوته النفسانية وبامداد

الشياطين في بعض الاحوال فبينهما الفرق في المعقولية والحقيقة والذات في نفس الامر وانما نستدل نحن على التفرقة بالعلامات الظاهرة وهي وجود المعجزة لصاحب الخير وفي مقاصد الخير وللنفوس المتمحضة للخير والتحدي بها على دعوى النبوة والسحر انما يوجد لصاحب الشر وفي أفعال الشر في الغالب من التفريق بين الزوجين وضرر الاعداء وأمثال ذلك وللنفوس المتمحضة للشر هذا هو الفرق بينهما عند الحكماء الالهيين وقد يوجد لبعض المتصوفة وأصحاب الكرامات تأثير أيضا في أحوال العالم وليس معدودا من جنس السحر وانما هو بالامداد الالهي لان طريقتهم ونحلتهم من آثار النبوة وتوابعها ولهم في المدد الالهي حظ على قدر حالهم وايمانهم وتمسكهم بكلمة الله واذا اقتدر أحد منهم على أفعال الشر فلا يأتيها لانه متقيد فيما يأتيه ويذره للامر الالهي فما لا يقع لهم فيه الاذن لا يأتونه بوجه ومن أتاه منهم فقد عدل عن طريق الحق وربما سلب حاله ولما كانت المعجزة بامداد روح الله والقوى الالهية فلذلك لا يعارضها شيء من السحر وانظر شأن سحرة فرعون مع موسى في معجزة العصا كيف تلقفت ما كانوا يأفكون وذهب سحرهم واضمحل كأن لم يكن وكذلك لما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم في المعوذتين ومن شر النفاثات في العقد قالت عائشة رضي الله عنها فكان لا يقرؤها على عقدة من العقد التي سحر فيها الا انحلت فالسحر لا يثبت مع اسم الله وذكره وقد نقل المؤرخون أن زركش كاويان وهي راية كسرى كان فيها الوفق المئيني العددي منسوجا بالذهب في أوضاع فلكية رصدت لذلك الوفق ووجدت الراية يوم قتل رستم بالقادسية واقعة على الارض بعد انهزام أهل فارس وشتاتهم وهو فيما تزعم أهل الطلسمات والاوفاق مخصوص بالغلب في الحروب وأن الراية التي يكون فيها أو معها لا تنهزم أصلا الا أن هذه عارضها المدد الالهي من ايمان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتمسكهم بكلمة الله فانحل معها كل عقد سحري ولم يثبت وبطل ما كانوا يعملون وأما الشريعة فلم تفرق بين السحر والطلسمات وجعلته كله بابا واحدا محظورا لان الافعال انما أباح لنا الشارع منها ما يهمنا في ديننا الذي فيه صلاح آخرتنا أو في معاشنا الذي فيه صلاح دنيانا وما لا يهمنا في شيء منهما فان كان فيه ضرر أو نوع ضرر كالسحر الحاصل ضرره بالوقوع ويلحق به الطلسمات لان أثرهما واحد وكالنجامة التي فيها نوع ضرر باعتقاد التأثير فتفسد العقيدة الايمانية برد الامور الى غير الله فيكون حينئذ ذلك الفعل محظورا على نسبته في الضرر وان لم يكن مهما علينا ولا فيه ضرر فلا أقل من أن تركه قربة الى الله فان من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه فجعلت الشريعة باب السحر والطلسمات والشعوذة بابا واحدا لما فيها من الضرر وخصته بالحظر

والتحريم وأما الفرق عندهم بين المعجزة والسحر فالذى ذكره المتكلمون انه راجع الى التحدى وهو دعوى وقوعها على وفق ما ادعاه قالوا والساحر مصروف عن مثل هذا التحدى فلا يقع منه ووقوع المعجزة على وفق دعوى الكاذب غير مقدور لان دلالة المعجزة على الصدق عقلية لان صفة نفسها التصديق فلو وقعت مع الكاذب لاستحال الصادق كاذبا وهو محال فاذا لا تقع المعجزة مع الكاذب باطلاق وأما الحكماء فالفرق بينهما عندهم كما ذكرناه فرق ما بين الخير والشر فى نهاية الطرفين فالساحر لا يصدر منه الخير ولا يستعمل فى أسباب الخير وصاحب المعجزة لا يصدر منه الشر ولا يستعمل فى أسباب الشر وكأنهما على طرفى النقيض فى أصل فطرتهما والله يهدى من يشاء وهو القوى العزيز لا رب سواه

(فصل) ومن قبيل هذه التأثيرات النفسانية الاصابة بالعين وهو تأثير من نفس المعيان عندما يستحسن بعينه مدركا من الذوات أو الاحوال ويفرط فى استحسانه وينشأ عن ذلك الاستحسان حينئذ أنه يروم معه سلب ذلك الشئ عمن اتصف به فيؤثر فساده وهو جبلة فطرية أعنى هذه الاصابة بالعين والفرق بينها وبين التأثيرات وان كان منها ما لا يكتسب أن صدورها راجع الى اختيار فاعلها والفطرى منها قوة صدورها لا نفس صدورها ولهذا قالوا القاتل بالسحر أو بالكرامة يقتل والقاتل بالعين لا يقتل وما ذلك الا لانه ليس مما يريده ويقصده أو يتركه وانما هو مجبور فى صدوره عنه والله أعلم بما فى الغيوب ومطلع على ما فى السرائر

٢٣ (علم اسرار الحروف)

وهو المسمى لهذا العهد بالسيميا نقل وضعه من الطلسمات اليه فى اصطلاح أهل التصرف من المتصوفة فاستعمل استعمال العام فى الخاص وحدث هذا العلم فى الملة بعد صدر منها وعند ظهور الغلاة من المتصوفة وجنوحهم الى كشف حجاب الحس وظهور الخوارق على أيديهم والتصرفات فى عالم العناصر وتدوين الكتب والاصطلاحات ومزاعمهم فى تنزل الوجود عن الواحد وترتيبه وزعموا أن الكمال الاسمائى مظاهره أرواح الافلاك والكواكب وأن طبائع الحروف واسرارها سارية فى الاسماء فهى سارية فى الاكوان على هذا النظام والاكوان من لدن الابداع الاول تتنقل فى اطواره وتعرب عن أسراره فحدث لذلك علم أسرار الحروف وهو من تفاريع علم السيمياء لا يوقف على موضوعه ولا تحاط بالعدد مسائله تعددت فيه تآليف البونى وابن العربى وغيرهما ممن اتبع آثارهما وحاصله عندهم وثمرته تصرف النفوس الربانية فى عالم

الطبيعة بالاسماء الحسنى والكلمات الالهية الناشئة عن الحروف المحيطة بالاسرار السارية فى الاكوان ثم اختلفوا فى سر التصرف الذى فى الحروف بما هو فمنهم من جعله للمزاج الذى فيه وقسم الحروف بقسمة الطبائع الى أربعة أصناف كما للعناصر واختصت كل طبيعة بصنف من الحروف يقع التصرف فى طبيعتها فعلا وانفعالا بذلك الصنف فتنوعت الحروف بقانون صناعى يسمونه التكسير الى نارية وهوائية ومائية وترابية على حسب تنوع العناصر فالالف للنار والباء للهواء والجيم للماء والدال للتراب ثم ترجع كذلك على التوالى من الحروف والعناصر الى أن تنفد فتعين لعنصر النار حروف سبعة الالف والهاء والطاء والميم والفاء والسين والذال وتعين لعنصر الهواء سبعة أيضا الباء والواو والياء والنون والضاد والتاء والظاء وتعين لعنصر الماء أيضا سبعة الجيم والزاى والكاف والصاد والقاف والثاء والغين وتعين لعنصر التراب أيضا سبعة الدال والحاء واللام والعين والراء والخاء والشين والحروف النارية لدفع الامراض الباردة ولمضاعفة قوة الحرارة حيث تطلب مضاعفتها اما حسا أو حكما كما فى تضعيف قوى المريخ فى الحروب والقتل والفتك والمائية أيضا لدفع الامراض الحارة من حميات وغيرها ولتضعيف القوى الباردة حيث تطلب مضاعفتها حسا أو حكما كتضعيف قوى القمر وأمثال ذلك ومنهم من جعل سر التصرف الذى فى الحروف للنسبة العددية فان حروف أبجد دالة على اعدادها المتعارفة وضعا وطبعا فبينها من أجل تناسب الاعداد تناسب فى نفسها أيضا كما بين الباء والكاف والراء لدلالتها كلها على الاثنين كل فى مرتبته فالباء على اثنين فى مرتبة الآحاد والكاف على اثنين فى مرتبة العشرات والراء على اثنين فى مرتبة المئين وكالذى بينها وبين الدال والميم والتاء لدلالتها على الاربعة وبين الاربعة والاثنين نسبة الضعف وخرج للاسماء أوفاق كما للاعداد يختص كل صنف من الحروف بصنف من الاوفاق الذى يناسبه من حيث عدد الشكل أو عدد الحروف وامتزج التصرف من السر الحرفى والسر العددى لاجل التناسب الذى بينهما فاما سر التناسب الذى بين هذه الحروف وأمزجة الطبائع أو بين الحروف والاعداد فأمر عسر على الفهم اذ ليس من قبيل العلوم والقياسات وانما مستندهم فيه الذوق والكشف قال البونى ولا تظن أن سر الحروف مما يتوصل اليه بالقياس العقلى وانما هو بطريق المشاهدة والتوفيق الالهى وأما التصرف فى عالم الطبيعة بهذه الحروف والاسماء المركبة فيها وتأثر الاكوان عن ذلك فأمر لا ينكر لثبوته عن كثير منهم تواترا وقد يظن أن تصرف هؤلاء وتصرف أصحاب الطلسمات واحد وليس كذلك فان حقيقة الطلسم وتأثيره على ما حققه أهله أنه قوى روحانية من

به وهذا القهر تفعل فيما له ركب فعل غلبة وقهر بأسرار فلكية ونسب عددية وبخورات جالبات لروحانية ذلك الطلسم مشدودة فيه بالهمة فائدتها ربط الطبائع العلوية بالطبائع السفلية وهو عندهم كالخميرة المركبة من هوائية وأرضية ومائية ونارية حاصلة في جملتها تحيل وتصرف ما حصلت فيه الى ذاتها وتقلبه الى صورتها وكذلك الاكسير للاجسام المعدنية كالخميرة تقلب المعدن الذى تسرى فيه الى نفسها بالاحالة ولذلك يقولون موضوع الكيمياء جسد فى جسد لان الاكسير أجزاؤه كلها جسدانية ويقولون موضوع الطلسم روح فى جسد لانه ربط الطبائع العلوية بالطبائع السفلية والطبائع السفلية جسد والطبائع العلوية روحانية وتحقيق الفرق بين تصرف أهل الطلسمات وأهل الاسماء بعد أن تعلم أن التصرف فى عالم الطبيعة كله انما هو للنفس الانسانية والهمم البشرية ان النفس الانسانية محيطة بالطبيعة وحاكمة عليها بالذات الا أن تصرف أهل الطلسمات انما هو فى استنزال روحانية الافلاك وربطها بالصور أو بالنسب العددية حتى يحصل من ذلك نوع مزاج يفعل الاحالة والقلب بطبيعته فعل الخميرة فيما حصلت فيه وتصرف أصحاب الاسماء انما هو بما حصل لهم بالمجاهدة والكشف من النور الالهى والامداد الربانى فيسخر الطبيعة لذلك طائعة غير مستعصية ولا يحتاج الى مدد من القوى الفلكية ولا غيرها لان مدده أعلى منها ويحتاج أهل الطلسمات الى قليل من الرياضة تفيد النفس قوة على استنزال روحانية الافلاك وأهون بها وجهة ورياضة بخلاف أهل الاسماء فان رياضتهم هى الرياضة الكبرى وليست لقصد التصرف فى الاكوان اذ هو حجاب وانما التصرف حاصل لهم بالعرض كرامة من كرامات الله لهم فان خلا صاحب الاسماء عن معرفة أسرار الله وحقائق الملكوت الذى هو نتيجة المشاهدة والكشف واقتصر على مناسبات الاسماء وطبائع الحروف والكلمات وتصرف بها من هذه الحيثية وهؤلاء هم أهل السيمياء فى المشهور كان اذا لا فرق بينه وبين صاحب الطلسمات بل صاحب الطلسمات أوثق منه لانه يرجع الى أصول طبيعية علمية وقوانين مرتبة وأما صاحب اسرار الاسماء اذا فاته الكشف الذى يطلع به على حقائق الكلمات وآثار المناسبات بفوات الخلوص فى الوجهة وليس له فى العلوم الاصطلاحية قانون برهانى يعوّل عليه يكون حاله أضعف رتبة وقد يمزج صاحب الاسماء قوى الكلمات والاسماء بقوى الكواكب فيعين لذكر الاسماء الحسنى أو ما يرسم من أوفاقها بل ولسائر الاسماء أوقاتا تكون من حظوظ الكوكب الذى يناسب ذلك الاسم كما فعله البونى فى كتابه الذى سماه الانماط وهذه المناسبة عندهم هى من لدن الحضرة العمائية وهى برزخية الكمال الاسمائى وانما تنزل تفصيلها

فى الحقائق على ما هى عليه من المناسبة واثبات هذه المناسبة عندهم انما هو بحكم المشاهدة فاذا خلا صاحب الاسماء عن تلك المشاهدة وتلقى تلك المناسبة تقليدا كان عمله بمثابة عمل صاحب الطلسم بل هو أوثق منه كما قلناه وكذلك قد يمزج أيضا صاحب الطلسمات عمله وقوى كواكبه بقوى الدعوات المؤلفة من الكلمات المخصوصة لمناسبة بين الكلمات والكواكب الا أن مناسبة الكلمات عندهم ليست كما هى عند أصحاب الاسماء من الاطلاع فى حال المشاهدة وانما يرجع الى ما اقتضته أصول طريقتهم السحرية من اقتسام الكواكب لجميع ما فى عالم المكونات من جواهر واعراض وذوات ومعانى والحروف والاسماء من جملة ما فيه فلكل واحد من الكواكب قسم منها يخصه ويبنون على ذلك مبانى غريبة منكرة من تقسيم سور القرآن وآيه على هذا النحو كما فعله مسلمة المجريطى فى الغاية والظاهر من حال البونى فى انماطه أنه اعتبر طريقتهم فان تلك الانماط اذا تصفحتها وتصفحت الدعوات التى تضمنتها وتقسيمها على ساعات الكواكب السبعة ثم وقفت على الغاية وتصفحت قيامات الكواكب التى فيها وهى الدعوات التى تختص بكل كوكب يسمونها قيامات الكواكب أى الدعوة التى يقام له بها شهد لذلك اما بأنه من مادتها أو بأن التناسب الذى كان فى أصل الابداع وبرزخ العلم قضى بذلك كله وما أوتيتم من العلم الا قليلا وليس كل ما حرمه الشارع من العلوم بمنكر الثبوت فقد ثبت أن السحر حق مع حظره لكن حسبنا من العلم ما علمنا * (ومن فروع علم السيمياء عندهم استخراج الاجوبة من الاسئلة) * بارتباطات بين الكلمات حرفية يوهمون أنها أصل فى معرفة ما يحاولون علمه من الكائنات الاستقبالية وانما هى شبه المعاياة والمسائل السيالة ولهم فى ذلك كلام كثير من أدعية وأعجبه زايرجة العالم السبتى وقد تقدم ذكرها ونبين هنا ما ذكروه فى كيفية العمل بتلك الزايرجة بدائرتها وجدولها المكتوب حولها ثم نكشف عن الحق فيها وأنها ليست من الغيب وانما هى مطابقة بين مسئلة وجوابها فى الافادة فقط وقد أشرنا الى ذلك من قبل وليس عندنا رواية يعول عليها فى صحة هذه القصيدة الا أننا تحرينا أصح النسخ منها فى ظاهر الامر والله الموفق بمنه وهى هذه

يقول سبيتى ويحمد ربه * مصل على هاد الى الناس أرسلا
محمد المبعوث خاتم الانبيا * ويرضى عن الصحب ومن لهم تلا
الا هذه زايرجة العالم الذى * تراه بحكم وبالعقل قد حلا
فمن أحكم الوضع فيحكم جسمه * ويدرك أحكاما تدبرها العلا
ومن أحكم الربط فيدرك قوة * ويدرك للتقوى وللكل حصلا

ومن أحكم التصريف يحكم سره * ويعقل نفسه وصح له الولا
وفى عالم الامر تراه محققا * وهذا مقام من بالاذكار كلا
فهذى سرائر عليكم بكتمها * أتقها دوائر اولهاء عدلا
قطاءلها عرش وفيه نقوشنا * بنظم ونثر قد تراه مجدولا
ونسب دوائر كنسبة فلكها * وارسم كواكبا لادراجها العلا
وأخرج لاوتار وارسم حروفها * وكور بمثله على حد من خلا
أقم شكل زيرهم وسوّ بيوته * وحقق بهامهم ونورهم جلا
وحصل علوم الطباع مهندسا * وعلم الموسيقى والارباع مثلا
وسوّ لموسيقى وعلم حروفهم * وعلم بآلات فحقق وحصلا
وسوّ دوائرا ونسب حروفها * وعالمها أطلق والاقليم جدولا
أمير لنا فهو نهاية دولة * زناتية آبت وحكم لها خلا
وقطر لاندلس فابن لهودهم * وجاء بنو نصر وظفرهم تلا
ملوك وفرسان واهل لحكمة * فان شئت نصهم وقطرهم حلا
ومهدى توحيد بتونس حكمهم * ملوك وبالشرق بالاوفاق نزلا
واقسم على القطر وكن متفقدا * فان شئت للروم فبالحرش كلا
ففنش وبرشنون الراء حرفهم * وافرنسهم دال وبالطاء كملا
ملوك كناوة ودلولة افهم * واعراب قومنا بترقيق اعملا
فهند حباشى وسند فهرمس * وفرس ططارى وما بعدهم طلا
فقيصرهم حاء ويزدجردهم * الكاف وقبطيهم بلامه طولا
وعباس كلهم شريف معظم * ولاكن تركى بذا الفعل عطلا
فان شئت تدقيق الملوك وكلهم * فختم بيوتا ثم نسب وجدولا
على حكم قانون الحروف وعلمها * وعلم طبائعها وكله مثلا
فمن علم العلوم يعلم علمنا * ويعلم أسرار الوجود واكملا
فيرسخ علمه ويعرف ربه * وعلم دلاحيم بحسابهم فصلا
وحيث أتى اسم والعروض يشقه * فحكم الحكيم فيه قطعا مقتلا
وتأتيك أحرف فسواضربها * وأحرف سيبويه تأتيك فيصلا
فكن بتنكير وقابل وعوضن * بترنيمك الغالى للاجزاء خللا
وفى العقد والمجزور يعرف غالبا * وزد لمح وصفيه فى العقل فعلا
واختر لمطلع وسويه رتبة * واعكس بجذر به وبالدور عدلا

ويدركها المرء فيبلغ قصده * وتعطى حروفها وفى نظمها الفعلا
اذا كان سعد والكواكب أسعدت * فحسبك فى الملك ونيل اسمه العلا
وايقاع دا لهم بحر موزغة * فنسب دنادينا تجد فيه منهلا
وأوتار زيرهم فللماء بهم * ومثناهم المثلث بجيمه قد جلا
وأدخل بأفلاك وعدل بجدول * وارسم أباجادوبا قيه جلا
وجوز شذوذ النحو تجرى و مثله * أتى فى عروض الشعر عن جلة سلا
فأصل لدينا وأصل لفقهنا * وعلم لحونا فاحفظ وحصلا
فادخل لقسطاط على الوفق جذره * وسبح باسمه وكبروهللا
فتخرج أبياتا وفى كل مطلب * بنظم طبيعى وسر من العلا
وتفنى بحصرها كذاحكم عدهم * فعلم الفواتح ترى فيه منهلا
فتخرج أبياتا وعشرون ضعفت * من الالف طبعيا فياصاح جدولا
تريك صنائعا من الضرب اكملت * فصح لك المنى وصح لك العلا
وسجع بن برهم وأنق بنقرة * أمهادوا أرالزير وحصلا
أمهابأوفاق وأصل اعدها * من اسرار أحرفهم فعذبه سلسلا

٣ ٤ كاك وكح واه عمله رلاسع كطا ل م ن ح ع ف و ل
منافرة

الكلام على استخراج نسبة الاوزان وكيفياتها ومقادير المقابل منها وقوة الدرجة المتميزة بالنسبة الى موضع المعلق من امتزاج طبائع وعلم طب وصناعة الكيميا

أياطالبا للطب مع علم جابر * وعالم مقدار المقادير بالولا
اذا شئت علم الطب لابد نسبة * لاحكام ميزان تصادف منهلا
فيشفى عليلكم والاكسير محكم * وأمزاج وضعكم بتصحيح انجلا

(الطب الروحاني)

وشئت ايلاوش ٥٦٥ بودهنه بجلا * لبهرام برجيس وسبعا كملا
لتعليل أوجاع البوارد صححوا * كذلك والتركيب حيث تنقلا
كد منع مهم ٥ ٥ ٣ وهم ٦ صح لهاى ولم ا آ ا وهم وى سكره لا ل ح
مهمهت ممهمع ع مى مرح ح ٢ ٢ ٤ ٢ ٢ ل ك عاعر

(مطاريح الشعاعات في مواليد الملوك وبنيهم)

وعلم مطارح الشعاعات مشكل * وضلع قسيها بمنطقة جــــلا
ولكن فى ج مقام امامنا * ويبدو واذا عرض الكواكب عدلا
بدال مراكز بين طول وعرضها * فمن أدرك المعنى علا ثم فوضـلا
مواقع تربيع وسـدس مسـقط * انسدينهم تثليث بيت الذى تلا
يزادل تربيع وهـذا قياسـه * يقينا وحـذره وبالعـين أعملا
ومن نسبة الربعين ركب شعاعك * بصاد وضعـفه وتربيعـه انجـلا
اختص صع صد عـ ٨ سع و ى هذا العمل هنا للملوك والقانون مطرد عمله ولم ير
أعجب منه

مقامات الملوك المقام الاول ه المقام الثانى سه مهمه صع عر المقام الثالث
ع ع والمقام الرابع لح المقام الخامس لا ى المقام السادس ع بير المقام السابع عره

خط الاتصال والانفصال عـ ا ٥ ع ط به ع ع

خط الاتصال ١٨ د ا ح ع

خط الانفصال ط د ا ع ع و ،

الوتر الجميع وتابع الجزر التام ســـ و ـــ و ع ١١ د ى ع

الاتصال والانفصال عـ ع

الواجب التام فى الاتصالات ع ى ع ٥ ع

اقامة الانوار يه ع ع

الجزر المجيب فى العمل صح ا ســه ع عم ع

اقامة السوال عن الملوك ع ح ٥١ لا خ لح ١١ ى

مقام الاولا نور عـ عـو مقام بها هـ ج لا

أيا طالب السرّ لتهليل ربه * لدى أسمائه الحسنى تصادف منهلا
تطيعك أخيار الانام بقلبهم * كذلك ريسهم وفي الشمس أعملا
ترى عامة الناس الملك تقيدوا * وما قلته حقا وفي الغير آهلا
طريقك هذا السبيل والسبل الذي * أقوله غيركم ونصر كوا جتلى
اذا شئت تحيا في الوجود مع التقى * ودينا متينا أو تكن متوصلا
كذى النون والجنيد مع سر صنعة * وفي سر بسطام أرانك مسربلا
وفي العالم العلوى تكون محدثا * كذا قالت الهند وصوفية الملا
طريق رسول الله بالحق ساطع * وما حكم صنع مثل جبريل أنزلا
فبطشك تهليل وقوسك مطلع * ويوم الخميس البدء والاحد انجلى
وفي جمعة أيضا بالاسماء شلد * وفي اثنين للحسنى تكون مكملا
وفي طائه سرّ وفي هائه اذا * أرانك بها مع نسبة الكل أعطلا
وساعة سعد شرطهم في نقوشها * وعود وصطكى بخور تحصلا
وتتلو عليها آخر الحشر دعوة * والاخلاص والسبع المثاني مرتلا
(اتصال أنوار الكواكب) * بلمعاني لاهي ي لا ظ غ ش لد سع ق صم مف و ى
وفي يدك اليمنى حديد وخاتم * وكل برأسك وفي دعوة فلا
وآية حشر فاجعل القلب وجهها * واتلو اذا نام الانام ورتلا
هي السر في الاكوان لا شئ غيرها * هي الآية العظمى فحقق وحصلا
تكون بها قطبا اذا جدت خدمة * وتدرك أسرارا من العالم العلا
سرى بها ناجى ومعروف قبله * وباح بها الحلاج جهرا فأعقلا
وكان بها الشبلى يدأب دائما * الى أن رقى فوق المريدين واعتلى
فصف من الادناس قلبك جاهدا * ولازم لاذكار وصم وتنفلا
فما نال سرّ القوم الا محقق * عليم بأسرار العلوم محصلا

ع ححم وكلم ع ٤٤ ٤ كلم ٥ ااا كلم ـــــ سحاع 88 ح اا ح ٤ د ٤ صرح ٨ ٢

مقامات المحبة وميل النفوس والمجاهدة والطاعة والعبادة وحب
وتعشق وفناء الغناء وتوجه ومراقبة وخلة دائمة

الانفعال الطبيعي

ابرجيس في المحبة الوفق صرفوا * بقزديراً ونحاس الخلط أكملا
وقيل بفضة صحيحا رأيته * فجعلك طالعا خطوطه ماعلا
توخ به زيادة النور للقمر * وجعلك للقبول شمسه أصلا
ويومه والبخور عود لهندهم * ووقت لساعة ودعوته ألا
ودعوته بغاية فهي أعملت * وعن طسيمان دعوة وإلها جلا
وقيل بدعوة حروف لوضعها * بحر هواء أو مطالب أهلا
فتنقش أحرفا بدال ولامها * وذلك وفق للمربع حصلا
اذا لم يكن يهوى هو الدلالها * فدال ليبدو واو زينب معطلا
فحسن اباته وباتهم اذا * هوالك وباقيهم قليله تجملا
ونقش مشاكل بشرط لوضعهم * ومازدت انسبه لفعلك عدلا
ومفتاح مريم ففعلهما سوا * فبوري وبسطامي بسورتها تلا
وجعلك بالقصد وكن متفقدا * ادلة وحشي لقبضة ميلا
فاعكس بيوتها بألف ونيف * فباطنها سر وفي سرها انجلا

(فصل في المقامات للنهاية)

لك الغيب صورة من العالم العلا * وتوجدها دارا وملبسها الحلا
ويوسف في الحسن وهذا شبيهه * بشر وترتيل حقيقة ازلا
وفي يده طول وفي الغيب ناطق * فيحكي الى عود يجاوب بلبلا
وقد جن بهلول بعشق جمالها * وعند تجليها البطام أخذلا
ومات اجليه واشرب حبها * جنيد وبه مري والجسم أهملا
فتطلب في التهليل غايته ومن * بأسمائه الحسنى بلا نسبة خلا
ومن صاحب الحسنى له الفوز بالمنى * ويسهم بالزلفى لدى حيرة العلا
وتخبر بالغيب اذا جدت خدمة * تريك عجبا بسابقين كان موئلا
فهذا هو الفوز وحسن تناله * ومنها زيادات لتفسيرها تلا

(الوصية والتختم والايمان والاسلام والتحريم والابهلية)

فهذا قصيدنا وتسعون عده * ومازاد خطبة وختما وجدولا
عجبت لابيات وتسعون عدها * تولد أبياتا وما حصرها انجلا
فمن فهم السر فيفهم نفسه * ويفهم تفسيرا تشابه أشكلا

حرام وشرعي لاظهار سرنا * لناس وان خصوا وكان النأ هلا
فان شئت أهليه فغلظ يمينهم * وتفهم برحلة ودين تطوّلا
املك أن تنجو وسامع سرهم * من القطع والافشا فترأس بالعلا
فتحل لعباس لسره كاتم * فنال سادات وتابعه علا
وقام رسول الله في الناس خاطبا * فمن رأس عرشا فذلك أكملا
وقد ركب الارواح أجسادمظهر * فالك لقتلهم بدق تطوّلا
الى العالم العلوي يفني فناؤنا * ويلبس أثواب الوجود على الولا
فقد تم نظما وصل الهنا * على خاتم الرسل صلاة بها العلا
وصلى اله العرش ذو الجد والعلا * على سيد ساد الانام وكملا
محمد الهادي الشفيع امامنا * وأصحابه أهل المكارم والعلا

مرتبة ١ اسه عن الحد سرح اسمع ح مه ٨ ٣ ١ سه ٦ و ط ع ١١١ ههصهه نصحح المرن

وتعديل الكواكب عند كل تاريخ مطلوب ب سر ك ل و و ١٥ 8 لوطرح الاوتار الكلية

١ ٢ د ٤ ٤ ٤ ال ٥ ح الاول تم ٨ ٤ سه ٤ ٥ ٤ ح ٤ و ٩ ٤ و ٤ و ٨ ٤ و ح

ح ١ ح ٤ و ٤ و ٤ و ٤ و ح كلمة الزايرجه

كيفية العمل في استخراج اجوبة المسائل من زايرجة العالم بحول الله
منقولا عمن لقيناه من القائمين علمها

السؤال له ثلثمائة وستون جوابا عدة الدرج وتختلف الاجوبة عن سؤال واحد في طالع مخصوص باختلاف الاسئلة المضافة الى حروف الاوتار وتناسب العمل من استخراج الاحرف من بيت القصيد *(تنبيه)* تركيب حروف الاوتار والجدول على ثلاثة أصول حروف عربية تنقل على هيآتها وحروف برسم الغبار وهذه تتبدل فمنها ما ينقل على هيئته متى لم تزد الادوار عن أربعة فان زادت عن اربعة نقلت الى المرتبة الثانية من مرتبة العشرات وكذلك لمرتبة المئين على حسب العمل كما

سنينه ومنها حروف برسم الزمام كذلك غير أن رسم الزمام يعطى نسبة ثانية فهى بمنزلة واحد ألف وبمنزلة عشرة ولها نسبة من خمسة بالعرفى فاستحق البيت من الجدول أن توضع فيه ثلاثة حروف فى هذا الرسم وحرفان فى الرسم فانتصروا من الجدول بيوتا خالية فمتى كانت أصول الادوار زائدة على أربعة حسبت فى العدد فى طول الجدول وان لم تزد على أربعة لم يحسب الا العامر منها. *(والعمل فى السؤال يفتقر الى سبعة أصول)* عدة حروف الاوتار وحفظ ادوارها بعد طرحها اثنى عشر اثنى عشر وهى ثمانية أدوار فى الكامل وستة فى الناقص أبدا ومعرفة درج الطالع وسلطان البرج والدور الاكبر الاصلى وهو واحد أبدا وما يخرج من اضافة الطالع للدور الاصلى وما يخرج من ضرب الطالع والدور فى سلطان البرج واضافة سلطان البرج للطالع والعمل جميعه ينتج عن ثلاثة أدوار مضروبة فى أربعة تكون اثنى عشر دورا ونسبة هذه الثلاثة الادوار التى هى كل دور من أربعة نشأة ثلاثية كل نشأة لها ابتداء ثم انها تضرب أدوارا رباعية أيضا ثلاثية ثم انها من ضرب ستة فى اثنين فكان لها نشأة يظهر ذلك فى العمل ويتبع هذه الادوار الاثنى عشر نتائج وهى فى الادوار اما أن تكون نتيجة أو أكثر الى ستة فأول ذلك نفرض سؤالا عن الزايرجة هل هى علم قديم أو محدث بطالع أول درجة من القوس اثناء حروف الاوتار ثم حروف السؤال فوضعنا حروف وتر رأس القوس ونظيره من رأس الجوزاء وثالثه وتر رأس الدلو الى حد المركز وأضفنا اليه حروف السؤال ونظرنا عدتها وأقل ما تكون ثمانية وثمانين وأكثر ما تكون ستة وتسعين وهى جملة الدور الصحيح فكانت فى سؤالنا ثلاثة وتسعين ويختصر السؤال ان زاد عن ستة وتسعين بأن يسقط جميع أدواره الاثنى عشرية ويحفظ ما خرج منها وما بقى فكانت فى سؤالنا سبعة أدوار الباقى تسعة أثبتها فى الحروف ما لم يبلغ الطالع اثنى عشرة درجة فان بلغها لم تثبت لها عدة ولا دور ثم اثبت أعدادها أيضا ان زاد الطالع عن أربعة وعشرين فى الوجه الثالث ثم تثبت الطالع وهو واحد وسلطان الطالع وهو أربعة والدور الاكبر وهو واحد وأجمع ما بين الطالع والدور وهو اثنان فى هذا السؤال واضرب ما خرج منه فى سلطان البرج يبلغ ثمانية وأضف السلطان للطالع فيكون خمسة فهذه سبعة أصول فما خرج من ضرب الطالع والدور الاكبر فى سلطان القوس مما لم يبلغ اثنى عشر فبه تدخل فى ضلع ثمانية من أسفل الجدول صاعدا وان زاد على اثنى عشر طرح أدوارا وتدخل بالباقى فى ضلع ثمانية وتعلم على منتهى العدد بالخمسة المستخرجة من السلطان والطالع يكون الطالع فى ضلع السطح المبسوط الاعلى من الجدول وتعد متوالى الخمسات أدوارا وتحفظها الى أن

يقف العدد على حرف من أربعة وهي ألف أو باء أو جيم أو زاي فوقع العدد في عملنا على حرف الالف وخلف ثلاثة أدوار فضربنا ثلاثة في ثلاثة كانت تسعة وهو عدد الدور الاول فأثبته واجمع ما بين الضلعين القائم والمبسوط يكن في بيت ثمانية في مقابلة البيوت العامرة بالعدد من الجدول وان وقف في مقابلة الخالي من بيوت الجدول على أحدها فلا يعتبر وتستمر على أدوارك وادخل بعدد ما في الدور الاول وذلك تسعة في صدر الجدول مما يلي البيت الذي اجتمعا فيه وهي ثمانية مارا الى جهة اليسار فوقع على حرف لام ألف ولا يخرج منها أبدا حرف مركب وانما هو اذن حرف تاء أربعمائة برسم الزمام فعلم عليها بعد نقلها من بيت القصيد واجمع عدد الدور للسلطان يبلغ ثلاثة عشر ادخل بها في حروف الاوتار وأثبت ما وقع عليه العدد وعلم عليه من بيت القصيد ومن هذا القانون تدري كم تدور الحروف في النظم الطبيعي وذلك أن تجمع حروف الدور الاول وهو تسعة لسلطان البرج وهو أربعة تبلغ ثلاثة عشر أضعفها بمثلها تكون ستة وعشرين أسقط منها درج الطالع وهو واحد في هذا السؤال الباقي خمسة وعشرون فعلى ذلك يكون نظم الحروف الاول ثم ثلاثة وعشرون مرتين ثم اثنان وعشرون مرتين على حسب هذا الطرح الى أن ينتهي للواحد من آخر البيت المنظوم ولا تقف على أربعة وعشرين لطرح ذلك الواحد أولا ثم ضع الدور الثاني وأضف حروف الدور الاول الى ثمانية الخارجة من ضرب الطالع والدور في السلطان تكن سبعة عشر الباقي خمسة فاصعد في ضلع ثمانية بخمسة من حيث انتهيت في الدور الاول وعلم عليه وادخل في صدر الجدول بسبعة عشر ثم بخمسة ولا تعد الخالي والدور عشرين فوجدنا حرف تاء خمسمائة وانما هو نون لان دورنا في مرتبة العشرات فكانت الخمسمائة بخمسين لان دورها سبعة عشر فلو لم تكن سبعة عشر لكانت مثينا فأثبت نونا ثم ادخل بخمسة أيضا من أوله وانظر ما حاذى ذلك من السطح تجد واحدا فقهقر العدد واحدا يقع على خمسة أضف لها واحد السطح تكن ستة أثبت واوا وعلم عليهما من بيت القصيد أربعة وأضفها للثمانية الخارجة من ضرب الطالع مع الدور في السلطان تبلغ اثنى عشر أضف لها الباقي من الدور الثاني وهو خمسة تبلغ سبعة عشر وهو ما للدور الثاني فدخلنا بسبعة عشر في حروف الاوتار فوقع العدد على واحد أثبت الالف وعلم عليه من بيت القصيد وأسقط من حروف الاوتار ثلاثة حروف عدة الخارج من الدور الثاني وضع الدور الثالث وأضف خمسة الى ثمانية تكن ثلاثة عشر الباقي واحد انقل الدور في ضلع ثمانية بواحد وادخل في بيت القصيد بثلاثة عشر وخذ ما وقع عليه

العدد وهو ق وعلم عليه وادخل بثلاثة عشر في حروف الاوتار وأثبت ما خرج وهو سين وعلم عليه من بيت القصيد ثم ادخل مما يلي السين الخارجة بالباقي من دور ثلاثة عشر وهو واحد فخذ ما يلي حرف سين من الاوتار فكان ب أثبتها وعلم عليها من بيت القصيد وهذا يقال له الدور المعطوف وميزانه صحيح وهو أن تضعف ثلاثة عشر بمثلها وتضيف اليها الواحد الباقي من الدور تبلغ سبعة وعشرين وهو حرف باء المستخرج من الاوتار من بيت القصيد وادخل في صدر الجدول بثلاثة عشر وانظر ما قابله من السطح واضعفه بمثله وزد عليه الواحد الباقي من ثلاثة عشر فكان حرف جيم وكانت للجملة سبعة فذلك حرف زاي فأثبتناه وعلمنا عليه من بيت القصيد وميزانه أن تضعف السبعة بمثلها وزد عليها الواحد الباقي من ثلاثة عشر يكن خمسة عشر وهو الخامس عشر من بيت القصيد وهذا آخر أدوار الثلاثيات وضع الدور الرابع وله من العدد تسعة باضافة الباقي من الدور السابق فاضرب الطالع مع الدور في السلطان وهذا الدور آخر العمل في البيت الاول من الرباعيات فاضرب على حرفين من الاوتار واصعد بتسعة في ضلع ثمانية وادخل بتسعة من دور الحرف الذي أخذته آخرا من بيت القصيد فالتاسع حرف راء فأثبته وعلم عليه وادخل في صدر الجدول بتسعة وانظر ما قابلها من السطح يكون ج فهقر العدد واحدا يكون ألف وهو الثاني من حرف الراء من بيت القصيد فاثبته وعلم عليه وعد مما يلي الثاني تسعة يكون ألف أيضا أثبته وعلم عليه واضرب على حرف من الاوتار واضعف تسعة بمثلها تبلغ ثمانية عشر ادخل بها في حروف الاوتار تقف على حرف راء أثبتها وعلم عليها من بيت القصيد ثمانية وأربعين وادخل بثمانية عشر في حروف الاوتار تقف على س أثبتها وعلم عليها اثنين وأضف اثنين الى تسعة تكون أحد عشر ادخل في صدر الجدول بأحد عشر تقابلها من السطح ألف أثبتها وعلم عليها ستة وضع الدور الخامس وعدته سبعة عشر الباقي خمسة اصعد بخمسة في ضلع ثمانية واضرب على حرفين من الاوتار وأضعف خمسة بمثلها وأضفها الى سبعة عشر عدد دورها الجملة سبعة وعشرون ادخل بها في حروف الاوتار تقع على ب أثبتها وعلم عليها اثنين وثلاثين واطرح من سبعة عشر اثنين التي هي في أس اثنين وثلاثين الباقي خمسة عشر ادخل بها في حروف الاوتار تقف على ت أثبتها وعلم عليها ستة وعشرين وادخل في صدر الجدول بست وعشرين تقف على اثنين بالغبار وذلك حرف ب أثبته وعلم عليه أربعة وخمسين واضرب على حرفين من الاوتار وضع الدور السادس وعدته ثلاثة عشر الباقي منه واحد فتبين اذ ذاك أن دور النظم خمسة وعشرين فان الادوار خمسة وعشرون وسبعة عشر وخمسة وثلاثة عشر وواحد

فاضرب خمسة فى خمسة تكن خمسة وعشرين وهو الدور فى نظم البيت فانقل الدور فى
ضلع ثمانية بواحد ولكن لم يدخل فى بيت القصيد بثلاثة عشر كما قدمناه لانه دور ثان
من نشأة تركيبية ثانية بل أضفنا الاربعة التى من أربعة وخمسين الخارجة على حروف
ب من بيت القصيد الى الواحد تكون خمسة تضيف خمسة الى ثلاثة عشر التى للدور تبلغ
ثمانية عشر ادخل بها فى صدر الجدول وخذ ما قابلها من السطح وهو ألف أثبته وعلم
عليه من بيت القصيد اثنى عشر واضرب على حرفين من الاوتار ومن هذا الجدول تنظر
أحرف السؤال فاخرج منها زده مع بيت القصيد من آخره وعلم عليه من حروف
السؤال ليكون داخلا فى العدد فى بيت القصيد وكذلك تفعل بكل حرف حرف بعد
ذلك مناسبا لحروف السؤال فاخرج منها زده الى بيت القصيد من آخره وعلم عليه ثم
أضف الى ثمانية عشر ما علمته على حرف الالف من الآحاد فكان اثنين تبلغ الجملة
عشرين ادخل بها فى حروف الاوتار تقف على حرف راء أثبته وعلم عليه من بيت القصيد
ستة وتسعين وهو نهاية الدور فى الحرف الوترى فاضرب على حرفين من الاوتار وضع
الدور السابع وهو ابتداء لمخترع ثان ينشأ من الاختراعين ولهذا الدور من العدد تسعة
تضيف لها واحدا تكون عشرة للنشأة الثانية وهذا الواحد تزيده بعد الى اثنى عشر دورا
اذا كان من هذه النسبة أو تنقصه من الاصل تبلغ الجملة خمسة عشر فاصعد فى ضلع
ثمانية وتسعين وادخل فى صدر الجدول بعشرة تقف على خمسمائة وانما هى خمسون
نون مضاعفة بمثلها وتلك ق أثبتها وعلم عليها من بيت القصيد اثنين وخمسين وأسقط
من اثنين وخمسين اثنين وأسقط تسعة التى للدور الباقى واحد وأربعون فادخل بها فى
حروف الاوتار تقف على واحد أثبته وكذلك ادخل بها فى بيت القصيد تجد واحدا
فهذا ميزان هذه النشأة الثانية فعلم عليه من بيت القصيد علامتين علامة على الالف
الاخير الميزانى وأخرى على الالف الاولى فقط والثانية أربعة وعشرون واضرب على
حرفين من الاوتار وضع الدور الثامن وعدته سبعة عشر الباقى خمسة ادخل فى ضلع
ثمانية وخمسين وادخل فى بيت القصيد بخمسة تقع على عين بسبعين أثبتها وعلم عليها
وادخل فى الجدول بخمسة وخذ ما قابلها من السطح وذلك واحد أثبته وعلم عليه من
البيت ثمانية وأربعين وأسقط واحدا من ثمانية وأربعين للاس الثانى وأضف اليها
خمسة الدور الجملة اثنان وخمسون ادخل بها فى صدر الجدول تقف على حرف ب
غبارية وهى مرتبة مئينية لتزايد العدد فتكون مائتين وهى حرف راء أثبتها وعلم عليها
من القصيد أربعة وعشرين فانتقل الامر من ستة وتسعين الى الابتداء وهو أربعة
وعشرون فأضف الى أربعة وعشرين خمسة الدور وأسقط واحدا تكون الجملة ثمانية

وعشرين ادخل بالنصف منها في بيت القصيد تقف على ثمانية أثبت ٢ وعلم عليها
وضع الدور التاسع وعدده ثلاثة عشر الباقي واحد اصعد في ضلع ثمانية بواحد وليست
نسبة العمل هنا كنسبتها في الدور السادس لتضاعف العدد ولانه من النشأة الثانية
ولانه أول الثلث الثالث من مربعات البروج وآخر الستة الرابعة من المثلثات فاضرب
ثلاثة عشر التي للدور في أربعة التي هي مثلثات البروج السابقة الجملة اثنان وخمسون
ادخل بها في صدر الجدول تقف على حرف اثنين غبارية وانما هي مئينية لتجاوزها في
العدد عن مرتبتي الآحاد والعشرات فاثبته مائتين راء وعلم عليها من بيت القصيد ثمانية
وأربعين وأضف الى ثلاثة عشر الدور واحد الاس وادخل بأربعة عشر في بيت القصيد
تبلغ ثمانية فعلم عليها ثمانية وعشرين واطرح من أربعة عشر سبعة يبقى سبعة اضرب
على حرفين من الاوتار وادخل بسبعة تقف على حرف لام أثبته وعلم عليه من البيت
وضع الدور العاشر وعدده تسعة وهذا ابتداء المثلثة الرابعة واصعد في ضلع ثمانية
بتسعة تكون خلاء فاصعد بتسعة ثانية تصير في السابع من الابتداء اضرب تسعة في
أربعة لصعودنا بتسعتين وانما كانت تضرب في اثنين وادخل في الجدول بستة وثلاثين
تقف على أربعة زمامية وهي عشرية فأخذناها أحادية لقلة الادوار فأثبت حرف دال
وان أضفت الى ستة وثلاثين واحد الاس كان حدها من بيت القصيد فعلم عليها ولو
دخلت بالتسعة لا غير من غير ضرب في صدر الجدول لوقف على ثمانية فاطرح من ثمانية
أربعة الباقي أربعة وهو المقصود ولو دخلت في صدر الجدول بثمانية عشر التي هي تسعة
في اثنين لوقف على واحد زمامي وهو عشري فاطرح منه اثنين تكرار التسعة الباقي
ثمانية نصفها المطلوب ولو دخلت في صدر الجدول بسبعة وعشرين بضربها في ثلاثة
لوقعت على عشرة زمامية والعمل واحد ثم ادخل بتسعة في بيت القصيد وأثبت
ماخرج وهو ألف ثم اضرب تسعة في ثلاثة التي هي مركب تسعة الماضية وأسقط
واحدا وادخل في صدر الجدول بستة وعشرين وأثبت ماخرج وهو مائتان بحرف
راء وعلم عليه من بيت القصيد ستة وتسعين واضرب على حرفين من الاوتار وضع الدور
الحادي عشر وله سبعة عشر الباقي خمسة اصعد في ضلع ثمانية بخمسة وتحسب ما تكرر
عليه المشي في الدور الاول وادخل في صدر الجدول بخمسة تقف على خال فخذ ما قابله
من السطح وهو واحد فادخل بواحد في بيت القصيد تكن سين أثبته وعلم عليه أربعة
ولو يكون الوقف في الجدول على بيت عامر لاثبتنا الواحد ثلاثة وأضعف سبعة عشر
بمثلها وأسقط واحدا وأضعفها بمثلها وزدها أربعة تبلغ سبعة وثلاثين ادخل بها في
الاوتار تقف على ستة أثبتها وعلم عليها وأضعف خمسة بمثلها وادخل في البيت تقف على

لام أثبتها وعلم عليها عشرين واضرب على حرفين من الاوتار وضع الدور الثانى عشر وله
ثلاثة عشر الباقى واحدا صعد فى ضلع ثمانية بواحد وهذا الدور آخر الادوار وآخر
الاختراعين وآخر المربعات الثلاثية وآخر المثلثات الرباعية والواحد فى صدر الجدول
يقع على ثمانين زمامية وانما هى آحاد ثمانية وليس معنا من الادوار الا واحد فلو زاد
عن أربعة من مربعات اثنى عشر أو ثلاثة من مثلثات اثنى عشر لكانت ح وانما هى
د فاثبتها وعلم عليها من بيت القصيد أربعة وسبعين ثم انظر ما ناسبها من السطح تكن
خمسة أضعفها بمثلها للاس تبلغ عشرة أثبت ى وعلم عليها وانظر فى أى المراتب وقعت
وجدناها فى الرابعة دخلنا بسبعة فى حروف الاوتار وهذا المدخل يسمى التوليد
الحرفى فكانت ف اثبتها وأضف الى سبعة واحد الدور الجملة ثمانية ادخل بها فى
الاوتار تبلغ س أثبتها وعلم عليها ثمانية واضرب ثمانية فى ثلاثة الزائدة على عشرة لدور
فانها آخر مربعات الادوار بالمثلثات تبلغ أربعة وعشرين ادخل بها فى بيت القصيد
وعلم على ما يخرج منها وهو مائتان وعلامتها ستة وتسعون وهو نهاية الدور الثانى فى
الادوار الحرفية واضرب على حرفين من الاوتار وضع النتيجة الاولى ولها تسعة
وهذا العدد يناسب أبدا الباقى من حروف الاوتار بعد طرحها أدوارا وذلك تسعة
فاضرب تسعة فى ثلاثة التى هى زائدة على تسعين من حروف الاوتار وأضف لها واحدا
الباقى من الدور الثانى عشر تبلغ ثمانية وعشرين فادخل بها فى حروف الاوتار تبلغ
ألف اثبته وعلم عليه ستة وتسعين وان ضربت سبعة التى هى أدوار الحروف التسعينية
فى أربعة وهى الثلاثة الزائدة على تسعين والواحد الباقى من الدور الثانى عشر
كان كذلك واصعد فى ضلع ثمانية بتسعة وادخل فى الجدول بتسعة تبلغ اثنين
زمامية واضرب تسعة فيما ناسب من السطح وذلك ثلاثة وأضف لذلك سبعة عدد
الاوتار الحرفية واطرح واحدا الباقى من دور اثنى عشر تبلغ ثلاثة وثلاثين ادخل بها
فى البيت تبلغ خمسة فاثبتها وأضف تسعة بمثلها وادخل فى صدر الجدول بثمانية عشر
وخذ ما فى السطح وهو واحد ادخل به فى حروف الاوتار تبلغ م أثبته وعلم عليه
واضرب على حرفين من الاوتار وضع النتيجة الثانية ولها سبعة عشر الباقى خمسة
فاصعد فى ضلع ثمانية بخمسة واضرب خمسة فى ثلاثة الزائدة على تسعين تبلغ خمسة عشر
أضف لها واحدا الباقى من الدور الثانى عشر تكن تسعة وادخل بستة عشر فى بيت
القصيد تبلغ ت اثبته وعلم عليه أربعة وستين وأضف الى خمسة الثلاثة الزائدة على
تسعين وزد واحدا الباقى من الدور الثانى عشر يكن تسعة ادخل بها فى صدر الجدول
تبلغ ثلاثين زمامية وانظر ما فى السطح تجد واحدا أثبته وعلم عليه من بيت القصيد

وهو التاسع أيضا من البيت وادخل بتسعة فى صدر الجدول تقف على ثلاثة وهى عشرات فاثبت لام وعلم عليه وضع النتيجة الثالثة وعددها ثلاثة عشر الباقى واحد فانقل فى ضلع ثمانية بواحد وأضف الى ثلاثة عشر الثلاثة عشر الزائدة على التسعين وواحد الباقى من الدور الثانى عشر تبلغ سبعة عشر وواحد النتيجة تكن ثمانية عشر ادخل بها فى حروف الاوتار تكن لا ما اثبتها فهذا آخر العمل * والمثال فى هذا السؤال السابق أردنا أن نعلم أن هذه الزايرجة علم محدث أو قديم بطالع أول درجة من القوس أثبتنا حروف الاوتار ثم حروف السؤال ثم الاصول وهى عدة الحروف ثلاثة وتسعون أدوارها سبعة الباقى منها تسعة الطالع واحد سلطان القوس أربعة الدور الاكبر واحد درج الطالع مع الدور اثنان ضرب الطالع مع الدور فى السلطان ثمانية اضافة السلطان للطالع خمسة بيت القصيد

سؤال عظيم الخلق حزت فصن اذن * غرائب شك ضبطه الجد مثلا

حروف الاوتار ص ط ه ر ث ك ه م ص ص و ن ب ه س ا
ن ل م ن ص ع ف ص و ر س ك ل م ن ص ع ف
ض ق ر س ت ث خ ذ ظ غ ش ط ى ع ح ص ر و ح ر
و ح ل ص ك ل م ن ص ا ب ج د ه و ز ح ط ى
(حروف السؤال) ا ل ز ا ى ر ج ة ع ل م م ح د ث ا م ق د ى م
الدور الاول ٩ الدور الثانى ١٧ الباقى ٥ الدور الثالث ١٣ الباقى ١ الدور الرابع ٩
الدور الخامس ١٧ الباقى ٥ الدور السادس ١٣ الباقى ١ الدور السابع ٩
الدور الثامن ١٧ الباقى ٥ الدور التاسع ١٣ الباقى ١ الدور العاشر ١٣
الدور الحادى عشر ١٧ الباقى ٥ الدور الثانى عشر ١٣ الباقى ١ النتيجة الاولى ٩
النتيجة الثانية ١٧ الباقى ٥ النتيجة الثالثة ١٣ الباقى ١

ه ع ح و ٦ ٦ ف ا ــــ ٦

س	١	غ	٢٣
و	٢	ر	٢٤
ا	٣	ا	٢٥
ل	٤	ى	٢٦
ع	٥	ب	٢٧
ظ	٦	ش	٢٨
ى	٧	ك	٢٩
م	٨	ض	٣٠
ا	٩	ب	٣١
ل	١٠	ط	٣٢
خ	١١	ه	٣٣
ل	١٢	ا	٣٤
ق	١٣	ل	٣٥
ح	١٤	ج	٣٦
ز	١٥	د	٣٧
ت	١٦	م	٣٨
ف	١٧	ث	٣٩
ص	١٨	ل	٤٠
ن	١٩	ا	٤١
ا	٢٠		
ذ	٢١		
ن	٢٢		

ف و ز ا و س ر ر ا ا س ا ب ا ا ر ق ا ع ا ر ص ح ر
ح ل د ا ر س ا ل د ى و س ر ا د م ن ا ل ل

دورها على خمسة وعشرين ثم على ثلاثة وعشرين مرتين ثم على واحد وعشرين مرتين الى أن تنتهي الى الواحد من آخر البيت وتنتقل الحروف جميعا والله أعلم ن ف ر و
ح روح ال و د س ا د ر ر س ر ه ا ل د ر ى س و ان
س د ر و ا ب لا ا م ر ب و ا ا ل ع ل ل

هذا آخر الكلام في استخراج الاجوبة من زايرجة العالم منظومة وللقوم طرائق أخرى من غير الزايرجة يستخرجون بها أجوبة المسائل غير منظومة وعندهم أن السر في استخراج الجواب منظوما من الزايرجة انما هو مزجهم بيت مالك بن وهيب وهو * سؤال عظيم الخلق البيت ولذلك يخرج الجواب على رويه وأما الطرق الاخرى فيخرج الجواب غير منظوم فمن طرائقهم في استخراج الاجوبة ما ننقله عن بعض المحققين منهم

(فصل في الاطلاع على الاسرار الخفية من جهة الارتباطات الحرفية)

اعلم أرشدنا الله واياك أن هذه الحروف أصل الاسئلة في كل قضية وانما تستنتج الاجوبة على تجزئته بالكلية وهي ثلاثة وأربعون حرفا كما ترى والله علام الغيوب

ا و ل ا ع ظ س ا ل م خ ى د ل ز ق ت ا ر ذ س ف ن

غ ش ا لا لا ى ب م ض ب ح ط ل ج ه د ن ل ث ا

وقد نظمها بعض الفضلاء في بيت جعل فيه كل حرف مشدد من حرفين وسماه القطب فقال سؤال عظيم الخلق حزت فصن اذن * غرائب شك ضبطه الجد مثلا

فاذا أردت استنتاج المسئلة فاحذف ما تكرر من حروفها واثبت ما فضل منه ثم احذف من الاصل وهو القطب لكل حرف فضل من المسئلة حرفا عيانه وأثبت مافضل منه ثم امزج الفضلين في سطر واحد تبدأ بالاول من فضله والثاني من فضل المسئلة وهكذا الى أن يتم الفضلان أو ينفذ أحدهما قبل الآخر فتضع البقية على ترتيبها فاذا كان عدد الحروف الخارجة بعد المزج موافقا لعدد حروف الاصل قبل الحذف فالعمل صحيح فحينئذ تضيف اليها خمس نونات لتعدل بها الموازين الموسيقية وتكمل الحروف ثمانية وأربعين حرفا فتعمر بها جدولا مربعا يكون آخر ما في السطر الاول أول ما في السطر الثاني وتنقل البقية على حالها وهكذا الى أن تتم عمارة الجدول ويعود السطر الاول بعينه وتتوالى الحروف في القطر على نسبة الحركة ثم تخرج وتر كل حرف بقسمة مربعة على أعظم جزء يوجد له وتضع الوتر مقابلا لحرفه ثم تستخرج النسب العنصرية للحروف الجدولية وتعرف قوتها الطبيعية وموازينها الروحانية وغرائزها النفسانية وأسوسها الاصلية من الجدول الموضوع لذلك وهذه صورته

ا	القوى	الموازين	الغرائز	الاسوس	و
ب	٢٨ هـ	[illegible]	[illegible]	صح ح	الموازين
جـ	٤ [illegible]	[illegible] ٣ [illegible]	[illegible] ٥ [illegible]	[illegible] ح	
د	٤لج [illegible]	[illegible] سع	[illegible]	[illegible]	
٥	٨لج	[illegible]	[illegible]	[illegible] سع	ط
و			[illegible] ح	٨ [illegible]	
ز			ك لج	[illegible] ٥	ك

[illegible]

ثم تأخذ وتر كل حرف بعد ضربه فى أسوس أوتاد الفلك الاربعة واحذر ما يلى الاوتاد
وكذلك السواقط لان نسبتها مضطربة وهذا الخارج هو أول رتب السريان ثم تأخذ
مجموع العناصر وتحط منها أسوس المولدات يبقى أس عالم الخلق بعد عروضه للمدد
الكونية فتحمل عليه بعض المجردات عن المواد وهى عناصر الامداد يخرج أفق
النفس الاوسط وتطرح أول رتب السريان من مجموع العناصر يبقى عالم التوسط
وهذا مخصوص بعوالم الاكوان البسيطة لا المركبة ثم تضرب عالم التوسط فى أفق
النفس الاوسط يخرج الافق الاعلى فتحمل عليه أول رتب السريان ثم تطرح من
الرابع أول عناصر الامداد الاصلى يبقى ثالث رتبة السريان فتضرب مجموع أجزاء
العناصر الاربعة أبدا فى رابع مرتبة السريان يخرج أول عالم التفصيل والثانى فى
الثانى يخرج ثانى عالم التفصيل والثالث فى الثالث يخرج ثالث عالم التفصيل والرابع
فى الرابع يخرج رابع عالم التفصيل فتجمع عوالم التفصيل وتحط من عالم الكل تبقى
العوالم المجردة فتقسم على الافق الاعلى يخرج الجزء الاول ويقسم المنكسر على
الافق الاوسط يخرج الجزء الثانى وما انكسر فهو الثالث ويتعين الرابع هذا فى
الرباعى وان شئت أكثر من الرباعى فتستكثر من عوالم التفصيل ومن رتب السريان
ومن الاوفاق بعدد الحروف والله يرشدنا واياك وكذلك اذا قسم عالم التجريد على أول
رتب السريان خرج الجزء الاول من عالم التركيب وكذلك الى نهاية الرتبة الاخيرة من
عالم الكون فافهم وتدبر والله المرشد المعين * ومن طريقهم أيضا فى استخراج الجواب
قال بعض المحققين منهم اعلم أيدنا الله واياك بروح منه أن علم الحروف جليل يتوصل
العالم به لما لا يتوصل بغيره من العلوم المتداولة بين العالم وللعمل به شرائط تلتزم وقد
يستخرج العالم أسرار الخليقة وسرائر الطبيعة فيطلع بذلك على نتيجتى الفلسفة أعنى
السيميا وأختها ويرفع له حجاب المجهولات ويطلع بذلك على مكنون خبايا القلوب وقد
شهدت جماعة بأرض المغرب ممن اتصل بذلك فأظهر الغرائب وخرق العوائد وتصرف
فى الوجود بتأييد الله واعلم أن ملاك كل فضيلة الاجتهاد وحسن الملكة مع الصبر
مفتاح كل خير كما أن الخرق والعجلة رأس الحرمان فأقول اذا أردت أن تعلم قوة كل
حرف من حروف الفابيطوس أعنى أبجد الى آخر العدد وهذا أول مدخل من علم
الحروف فانظر ما لذلك الحرف من الاعداد فتلك الدرجة التى هى مناسبة للحرف هى
قوته فى الجسمانيات ثم اضرب العدد فى مثله تخرج لك قوته فى الروحانيات وهى وتره
وهذا فى الحروف المنقوطة لا يتم بل يتم لغير المنقوطة لان المنقوطة منها مراتب لمعان
يأتى عليها البيان فيما بعد واعلم أن لكل شكل من أشكال الحروف شكلا فى العالم

العلوى أعنى الكرسى ومنها المتحرك والساكن والعلوى والسفلى كما هو مرقوم فى أماكنه من الجداول الموضوعة فى الزايرج واعلم أن قوى الحروف ثلاثة أقسام الاول وهو أقلها قوة تظهر بعد كتابتها فتكون كتابته لعالم روحانى مخصوص بذلك الحرف المرسوم فمتى خرج ذلك الحرف بقوة نفسانية وجمع همة كانت قوى الحروف مؤثرة فى عالم الاجسام الثانى قوتها فى الهيئة الفكرية وذلك مايصدر من تصريف الروحانيات لها فهى قوة فى الروحانيات العلويات وقوة شكلية فى عالم الجسمانيات الثالث وهو مايجمع الباطن أعنى القوة النفسانية على تكوينه فتكون قبل النطق به صورة فى النفس بعد النطق به صورة فى الحروف وقوة فى النطق وأما طبائعها فهى الطبيعيات المنسوبة للمتولدات فى الحروف وهى الحرارة واليبوسة والحرارة والرطوبة والبرودة واليبوسة والبرودة والرطوبة فهذا سر العدد الثمانى والحرارة جامعة للهواء والنار وهما ا ه ط م ف ش ذ ج ز ك س ق ث ظ والبرودة جامعة للهواء والماء ب و ى ن ص ت ض د ح ل ع ر خ غ واليبوسة جامعة للنار والارض ا ه ط م ف ش ذ ب و ى ن ص ت ض فهذه نسبة حروف الطبائع وتداخل أجزاء بعضها فى بعض وتداخل أجزاء العالم فيها علويات وسفليات بأسباب الامهات الاول أعنى الطبائع الاربع المنفردة فمتى أردت استخراج مجهول من مسئلة ما فحقق طالع السائل أو طالع مسئلته واستنطق حروف أوتادها الاربعة الاول والرابع والسابع والعاشر مستوية مرتبة واستخرج أعداد القوى والاوتاد كما سنبين واجمل وانسب واستنتج الجواب يخرج لك المطلوب اما بصريح اللفظ أو بالمعنى وكذلك فى كل مسئلة تقع لك بيانه اذا أردت أن تستخرج قوى حروف الطالع مع اسم السائل والحاجة فاجمع أعدادها بالجمل الكبير فكان الطالع الحمل رابعه السرطان سابعه الميزان عاشره الجدى وهو أقوى هذه الاوتاد فأسقط من كل برج حرف التعريف وانظر ما يخص كل برج من الاعداد المنطقة الموضوعة فى دائرتها واحذف أجزاء الكسر فى النسب الاستنطاقية كلها وأثبت تحت كل حرف ما يخصه من ذلك ثم أعداد حروف العناصر الاربعة وما يخصها كالاول وارسم ذلك كله أحرفا ورتب الاوتاد والقوى والقرائن سطرا ممتزجا وكسرها واضرب ما يضرب لاستخراج الموازين واجمع واستنتج الجواب يخرج لك الضمير وجوابه مثاله افرض ان الطالع الحمل كما تقدم ترسم ح م ل فللحاء من العدد ثمانية لها النصف والربع والثمن د ب ا الميم لها من العدد اربعون لها النصف والربع والثمن والعشر ونصف العشر اذا أردت التدقيق م ك ى ه

د اللام لها من العدد ثلاثون لها النصف والثلثان والثلث والخمس والسدس والعشر ك ى و ه ج وهكذا تفعل بسائر حروف المسئلة والاسم من كل لفظ يقع لك وأما استخراج الاوتاد فهو أن تقسم مربع كل حرف على أعظم جزء يوجد له مثاله حرف د له من الاعداد أربعة مربعها ستة عشر اقسمها على أعظم جزء يوجد لها وهو اثنان يخرج وتر الدال ثمانية ثم ضع كل وتر مقابلا لحرفه ثم تستخرج النسب العنصرية كما تقدم في شرح الاستنطاق ولها قاعدة تطرد في استخراج ما هي طبع الحروف وطبع البيت الذي يحل فيه من الجدول كما ذكر الشيخ لمن عرف الاصطلاح والله أعلم

(فصل في الاستدلال على ما في الضمائر الخفية بالقوانين الحرفية)

وذلك لو سأل سائل عن عليل لم يعرف مرضه ما علته وما الموافق لبرئه منه فمر السائل أن يسمي ما شاء من الاشياء على اسم العلة المجهولة لتجعل ذلك الاسم قاعدة لك ثم استنطق الاسم مع اسم الطالع والعناصر والسائل واليوم والساعة ان أردت التدقيق في المسئلة والا اقتصرت على الاسم الذي سماه السائل وفعلت به كما بينا فأقول مثلا سمى لسائل فرسا فأثبت الحروف الثلاثة مع أعدادها المنطقة بيانه ان للفاء من العدد ثمانين ولها م ك ى ح ب ثم الراء لها من العدد مائتان ق ن ك ى ثم السين لها من العدد ستون ولها م ل ك فالواو عدد تام له د ج ب والسين مثله ولها م ل ك فاذا بسطت حروف الاسماء وجدت عنصرين متساويين فاحكم لاكثرهما حروفا بالغلبة على الآخر ثم احمل عدد حروف عناصر اسم المطلوب وحروفه دون بسط وكذلك اسم الطالب واحكم للاكثر والاقوى بالغلبة

وصفة قوى استخراج العناصر

فتكون الغلبة هنا للتراب وطبعه البرودة واليبوسة طبع السوداء فتحكم على المريض بالسوداء فاذا ألفت من حروف الاستنطاق كلاما على نسبة تقريبية تخرج موضع الوجع في الحلق ويوافقه من الادوية حقنة ومن الاشربة شراب الليمون هذا ما خرج من قوى أعداد حروف اسم فرس وهو مثال تقريبي مختصر وأما استخراج قوى العناصر

من الاسماء العلمية فهو أن تسمى مثلا محمدا فترسم أحرفه مقطعة ثم تضع أسماء العناصر الاربعة على ترتيب الفلك يخرج لك ما فى كل عنصر من الحروف والعدد ومثاله

ناري	ترابي	هوائي	مائي
ا ا ا	ب ب ب	ج ج ج ج ج ج	د د د د د د
ه ه ه	و و و	ز ز ز ز ز ز	ح ح ح ح ح ح ح
ط ط ط	ى ى ى	ك ك ك ك ك ك	ل ل ل ل ل ل
م م م	ن ن ن	ص ص ص ص ص ص	ع ع ع ع ع ع ع
ف ف ف	ض ض ض	ق ق ق ق ق	ر ر ر ر ر ر
س س س	ت ت ت	ث ث ث ث ث ث	خ خ خ خ خ خ
ذ ذ ذ	ظ ظ ظ	غ غ غ غ غ غ	ش ش ش ش ش ش

فتجد أقوى هذه العناصر من هذا الاسم المذكور عنصر الماء لان عدد حروفه عشرون حرفا فجعلت له الغلبة على بقية عناصر الاسم المذكور وهكذا يفعل بجميع الاسماء حينئذ تضاف الى أوتارها وللوتر المنسوب للطالع فى الزايرجة أو لوتر البيت المنسوب لمالك بن وهيب الذى جعله قاعدة لمزج الاسئلة وهو هذا

سؤال عظيم الخلق حزت فصن اذن * غرائب شك ضبطه الجد مثلا

وهو وتر مشهور لاستخراج المجهولات وعليه كان يعتمد ابن الرقام وأصحابه وهو عمل تام قائم بنفسه فى المثالات الوضعية وصفة العمل بهذا الوتر المذكور أن ترسمه مقطعا ممتزجا بألفاظ السؤال على قانون صنعة التكسير وعدة حروف هذا الوتر أعنى البيت ثلاثة وأربعون حرفا لان كل حرف مشدد من حرفين ثم تحذف ما تكرر عند المزج من الحروف ومن الاصل لكل حرف فضل من المسئلة حرفا يماثله وتثبت الفضلتين سطرا ممتزجا بعضه ببعض الحروف الاول من فضلة القطب والثانى من فضلة السؤال حتى يتم الفضلتان جميعا فتكون ثلاثة وأربعين فتضيف اليها خمس نونات ليكون ثمانية وأربعين لتعدل بها الموازين الموسيقية ثم تضع الفضلة على ترتيبها فان كان عدد الحروف الخارجة بعد المزج يوافق العدد الاصلى قبل الحذف فالعمل صحيح ثم عمر بما امتزجت جدولا مربعا يكون آخر ما فى السطر الاول أول ما فى السطر الثانى وعلى هذا النسق حتى يعود السطر الاول بعينه وتتوالى الحروف فى القطر على نسبة الحركة ثم تخرج وتر كل حرف كما تقدم وتضعه مقابلا له حرفه ثم تستخرج النسب العنصرية للحروف الجدولية لتعرف قوتها الطبيعية وموازينها الروحانية وغرائزها النفسانية وأسوسها

الاصلية من الجدول الموضوع لذلك وصفة استخراج النسب العنصرية هو أن تنظر الحرف الاول من الجدول ما طبيعته وطبيعة البيت الذى حل فيه فان اتفقت فحسن والا فاستخرج بين الحرفين نسبة ويتسع هذا القانون فى جميع الحروف الجدولية وتحقيق ذلك سهل على من عرف قوانينه كما هو مقرر فى دوائرها الموسيقية ثم تأخذ تركل حرف بعد ضربه فى أسوس أوتاد الفلك الاربعة كما تقدم واحذر ما يلى الاوتاد وكذلك السواقط لان نسبتها مضطربة وهذا الذى يخرج لك هو أول مراتب السريان ثم تأخذ مجموع العناصر وتحط منها أسوس المولدات يبقى اس عالم الخلق بعد عروضه للمدد الكونية فتحمل عليه بعض المجردات عن المواد وهى عناصر الامداد يخرج أفق النفس الاوسط وتطرح أول رتب السريان من مجموع العناصر يبقى عالم التوسط وهذا مخصوص بعوالم الاكوان البسيطة لا المركبة ثم تضرب عالم التوسط فى أفق النفس الاوسط يخرج الافق الاعلى فتحمل عليه أول رتب السريان ثم تطرح من الرابع أول عناصر الامداد الاصلى يبقى ثالث رتبة السريان ثم تضرب مجموع أجزاء العناصر الاربعة أبدا فى رابع رتب السريان يخرج أول عالم التفصيل والثانى فى الثانى يخرج ثانى عالم التفصيل وكذلك الثالث والرابع فتجمع عوالم التفصيل وتحطها من عالم الكل تبقى العوالم المجردة فتقسم على الافق الاعلى يخرج الجزء الاول ومن هنا يطرد العمل فى التامة وله مقامات فى كتب ابن وحشية والبونى وغيرهما وهذا التدبير يجرى على القانون الطبيعى الحكمى فى هذا الفن وغيره من فنون الحكمة الالهية وعليه مدار وضع الزايرجة الحرفية والصنعة الالهية والنيرجات الفلسفية والله الملهم وبه المستعان وعليه التكلان وحسبنا الله ونعم الوكيل

٢٤ (علم الكيمياء)

وهو علم ينظر فى المادة التى يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة ويشرح العمل الذى يوصل الى ذلك فيتصفحون المكونات كلها بعد معرفة أمزجتها وقواها لعلهم يعثرون على المادة المستعدة لذلك حتى من الفضلات الحيوانية كالعظام والريش والبيض والعذرات فضلا عن المعادن ثم يشرح الاعمال التى تخرج بها تلك المادة من القوة الى الفعل مثل حل الاجسام الى أجزائها الطبيعية بالتصعيد والتقطير وجمد الذائب منها بالتكليس وامهاء الصلب بالفهر والصلاية وأمثال ذلك وفى زعمهم أنه يخرج بهذه الصناعات كلها جسم طبيعى يسمونه الاكسير وأنه يلقى منه على الجسم المعدنى المستعد لقبول صورة الذهب أو الفضة بالاستعداد القريب من الفعل مثل الرصاص

والقصدير والنحاس بعد أن يحمى بالنار فيعود ذهباً ابريزاً ويكنون عن ذلك الاكسير اذا ألغزوا اصطلاحاتهم بالروح وعن الجسم الذي يلقى عليه بالجسد فشرح هذه الاصطلاحات وصورة هذا العمل الصناعي الذي يقلب هذه الاجساد المستعدة الى صورة الذهب والفضة هو علم الكيمياء ومازال الناس يؤلفون فيها قديماً وحديثاً وربما يعزى الكلام فيها الى من ليس من أهلها وامام المدونين فيها جابر بن حيان حتى انهم يخصونها به فيسمونها علم جابر وله فيها سبعون رسالة كلها شبيهة بالالغاز وزعموا أنه لا يفتح مقفلها الا من أحاط علماً بجميع ما فيها والطغرائي من حكماء المشرق المتأخرين له فيها دواوين ومناظرات مع أهلها وغيرهم من الحكماء وكتب فيها مسلمة المجريطي من حكماء الاندلس كتابه الذي سماه رتبة الحكيم وجعله قرينا لكتابه الآخر في السحر والطلسمات الذي سماه غاية الحكيم وزعم أن هاتين الصناعتين هما نتيجتان للحكمة وثمرتان للعلوم ومن لم يقف عليهما فهو فاقد ثمرة العلم والحكمة أجمع وكلامه في ذلك الكتاب وكلامهم أجمع في تآليفهم هي ألغاز يتعذر فهمها على من لم يعان اصطلاحاتهم في ذلك * ونحن نذكر سبب عدولهم الى هذه الرموز والالغاز ولابن المغيربي من أئمة هذا الشأن كلمات شعرية على حروف المعجم من أبدع ما يجيء في الشعر ملغوزة كلها لغز الأحاجي والمعاياة فلا تكاد تفهم وقد ينسبون للغزالي رحمه الله بعض التآليف فيها وليس بصحيح لان الرجل لم تكن مداركه العالية لتقف عن خطأ ما يذهبون اليه حتى ينتحله وربما نسبوا بعض المذاهب والاقوال فيها لخالد بن يزيد بن معاوية ربيب مروان بن الحكم ومن المعلوم البين ان خالدا من الجيل العربي والبداوة اليه أقرب فهو بعيد عن العلوم والصنائع بالجملة فكيف له بصناعة غريبة المنحى مبنية على معرفة طبائع المركبات وأمزجتها وكتب الناظرين في ذلك من الطبيعيات والطب لم تظهر بعد ولم تترجم اللهم الا أن يكون خالد بن يزيد آخر من أهل المدارك الصناعية تشبه باسمه فممكن * وأنا أنقل لك هنا رسالة أبي بكر بن بشرون لابي السمح في هذه الصناعة وكلاهما من تلاميذ مسلمة فيستدل من كلامه فيها على ما ذهب اليه في شأنها اذا أعطيته حقه من التأمل قال ابن بشرون بعد صدر من الرسالة خارج عن الغرض والمقدمات التي لهذه الصناعة الكريمة قد ذكرها الاولون واقتص جميعها أهل الفلسفة من معرفة تكوين المعادن وتخلق الاحجار والجواهر وطباع البقاع والاماكن فمنعنا اشتهارها من ذكرها ولكن أبين لك من هذه الصنعة ما يحتاج اليه فنبدأ بمعرفته فقد قالوا ينبغي لطلاب هذا العلم أن يعلموا أولاً ثلاث خصال أولها هل تكون والثانية من أي تكون والثالثة من أي كيف تكون فاذا عرف هذه الثلاثة

وأحكمها فقد ظفر بمطلوبه وبلغ نهايته من هذا العلم فأما البحث عن وجودها والاستدلال عن تكونها فقد كفيناكه بما بعثنا به اليك من الاكسير وأما من أي شئ تكون فانما يدون بذلك البحث عن الحجر الذي يمكنه العمل وان كان العمل موجودا من كل شئ بالقوة لانها من الطبائع الاربع منها تركبت ابتداء واليها ترجع انتهاء ولكن من الاشياء ما يكون فيه بالقوة ولا يكون بالفعل وذلك ان منها ما يمكن تفصيلها ومنها مالا يمكن تفصيلها فالتي يمكن تفصيلها تعالج وتدبر وهي التي تخرج من القوة الى الفعل والتي لا يمكن تفصيلها لا تعالج ولا تدبر لانها فيها بالقوة فقط وانما لم يمكن تفصيلها لاستغراق بعض طبائعها في بعض وفضل قوة الكبير منها على الصغير فينبغي لك وفقك الله أن تعرف أوفق الاحجار المنفصلة التي يمكن فيها العمل وجنسه وقوته وعمله وما يدبر من الحل والعقد والتنقية والتكليس والتنشيف والتقليب فان من لم يعرف هذه الاصول التي هي عمدة هذه الصنعة لم ينجح ولم يظفر بخير أبدا وينبغي لك ان تعلم هل يمكن أن يستعان عليه بغيره أو يكتفي به وحده وهل هو واحد في الابتداء أو شاركه غيره فصار في التدبير واحدا فسمي حجرا وينبغي لك أن تعلم كيفية عمله وكمية أوزانه وأزمانه وكيف تركيب الروح فيه وادخال النفس عليه وهل تقدر النار على تفصيلها منه بعد تركيبها فان لم تقدر فلاي علة وما السبب الموجب لذلك فان هذا هو المطلوب فافهم * واعلم ان الفلاسفة كلها مدحت النفس وزعمت انها المدبرة للجسد والحاملة له والدافعة عنه والفاعلة فيه وذلك ان الجسد اذا خرجت النفس منه مات وبرد فلم يقدر على الحركة والامتناع من غيره لانه لا حياة فيه ولا نور وانما ذكرت الجسد والنفس لان هذه الصفات شبيهة بجسد الانسان الذي تركيبه على الغداء والعشاء وقوامه وتمامه بالنفس الحية النورانية التي بها يفعل العظائم والاشياء المتقابلة التي لا يقدر عليها غيرها بالقوة الحية التي فيها وانما انفعل الانسان لاختلاف تركيب طبائعه ولو اتفقت طبائعه لسلمت من الاعراض والتضاد ولم تقدر النفس على الخروج من بدنه ولكان خالدا باقيا فسبحان مدبر الاشياء تعالى * واعلم ان الطبائع التي يحدث عنها هذا العمل كيفية دافعة في الابتداء فيضية محتاجة الى الانتهاء وليس لها اذا صارت في هذا الحد أن تستحيل الى ما منه تركبت كما قلناه آنفا في الانسان لان طبائع هذا الجوهر قد لزم بعضها بعضا وصارت شيئا واحدا شبيها بالنفس في قوتها وفعلها وبالجسد في تركيبه ومجسته بعد ان كانت طبائع مفردة بأعيانها فيا عجبا من أفاعيل الطبائع أن القوة للضعيف الذي يقوى على تفصيل الاشياء وتركيبها وتمامها فلذلك قلت قوي وضعيف وانما وقع التغيير والفناء في التركيب الاول للاختلاف وعدم ذلك في الثاني للاتفاق

* وقد قال بعض الاولين التفصيل والتقطيع فى هذا العمل حياة وبقاء والتركيب موت وفناء وهذا الكلام دقيق المعنى لان الحكيم أراد بقوله حياة وبقاء خروجه من العدم الى الوجود لانه مادام على تركيبه الاول فهو فان لا محالة فاذا ركب التركيب الثانى عدم الفناء والتركيب الثانى لا يكون الا بعد التفصيل والتقطيع فاذا التفصيل والتقطيع فى هذا العمل خاصة فاذا بقى الجسد المحلول انبسط فيه لعدم الصورة لانه قد صار فى الجسد بمنزلة النفس التى لا صورة لها وذلك أنه لا وزن له فيه وسترى ذلك ان شاء الله تعالى وقد ينبغى لك أن تعلم أن اختلاط اللطيف باللطيف أهون من اختلاط الغليظ بالغليظ وانما أريد بذلك التشاكل فى الارواح والاجساد لان الاشياء تتصل باشكالها وذكرت لك ذلك لتعلم أن العمل أوفق وأيسر من الطبائع اللطائف الروحانية منها من الغليظة الجسمانية وقد يتصور فى العقل ان الاحجار أقوى وأصبر على النار من الارواح كما ترى الذهب والحديد والنحاس أصبر على النار من الكبريت والزيبق وغيرهما من الارواح فأقول ان الاجساد قد كانت أرواحا فى بدنها فلما أصابها حر الكيان قلبها أجسادا لزجة غليظة فلم تقدر النار على أكلها لافراط غلظها وتلزجها فاذا أفرطت النار عليها صيرتها أرواحا كما كانت أول خلقها وان تلك الارواح اللطيفة اذا أصابتها النار أبقت ولم تقدر على البقاء عليها فينبغى لك أن تعلم ما صير الاجساد فى هذه الحالة وصير الارواح فى هذا الحال فهو أجل ما تعرفه * أقول انما أبقت تلك الارواح لاشتعالها ولطافتها وانما اشتعلت لكثرة رطوبتها ولان النار اذا أحست بالرطوبة تعلقت بها لانها هوائية تشاكل النار ولا تزال تغتذى بها الى أن تفنى وكذلك الاجساد اذا أحست بوصول النار اليها لقلة تلزجها وغلظها وانما صارت تلك الاجساد لا تشتعل لانها مركبة من أرض وماء صابر على النار فلطيفه متحد بكثيفه لطول الطبخ اللين المازج للاشياء وذلك أن كل متلاش انما يتلاشى بالنار لمفارقة لطيفه من كثيفه ودخول بعضه فى بعض على غير التحليل والموافقة فصار ذلك الانضمام والتداخل مجاورة لا ممازجة فسهل بذلك افتراقهما كالماء والدهن وما أشبههما وانما وصفت ذلك لتستدل به على تركيب الطبائع وتقابلها فاذا علمت ذلك علما شافيا فقد أخذت حظك منها وينبغى لك أن تعلم أن الاخلاط التى هى طبائع هذه الصناعة موافقة بعضها لبعض مفصلة من جوهر واحد يجمعها نظام واحد بتدبير واحد لا يدخل عليه غريب فى الجزء منه ولا فى الكل كما قال الفيلسوف انك اذا أحكمت تدبير الطبائع وتأليفها ولم تدخل عليها غريبا فقد أحكمت ما أردت احكامه وقوامه اذ الطبيعة واحدة لا غريب فيها فمن أدخل عليها غريبا فقد زاغ عنها ووقع

في الخطا * واعلم ان هذه الطبيعة اذا حل لها جسد من قرائنها على ما ينبغي في الحل حتى يشا كلها في الرقة والطافة انبسطت فيه وجرت معه حيثما جرى لان الاجساد ما دامت غليظة جافية لا تنبسط ولا تتزاوج وحل الاجساد لا يكون بغير الارواح فافهم هداك الله هذا القول واعلم هداك الله أن هذا الحل في جسد الحيوان هو الحق الذي لا يضمحل ولا ينتقض وهو الذي يقلب الطبائع ويمسكها ويظهر لها ألوانا وأزهارا عجيبة وليس كل جسد يحل خلاف هذا هو الحل التام لانه مخالف للحياة وانما حله بما يوافقه ويدفع عنه حرق النار حتى يزول عن الغلظ وتنقلب الطبائع عن حالاتها الى مالها أن تنقلب من اللطافة والغلظ فاذا بلغت الاجساد نهايتها من التحليل والتلطيف ظهرت لها هنالك قوة تمسك وتغوص وتقلب وتنفذ وكل عمل لا يرى له مصداق في أوله فلا خير فيه * واعلم ان البارد من الطبائع هو ييبس الاشياء ويعقد رطوبتها والحار منها يظهر رطوبتها ويعقد يبسها وانما أفردت الحر والبرد لانهما فاعلان والرطوبة واليبس منفعلان وعلى انفعال كل واحد منهما لصاحبه تحدث الاجسام وتتكون وان كان الحر أكثر فعلا في ذلك من البرد لان البرد ليس له نقل الاشياء ولا تحركها والحر هو علة الحركة ومتى ضعفت علة التكون وهو الحرارة لم يتم منها شيء أبدا كما أنه اذا أفرطت الحرارة على شيء ولم يكن ثم برد أحرقته وأهلكته فمن أجل هذه العلة احتيج الى البارد في هذه الاعمال ليقوى به كل ضد على ضده ويدفع عنه حر النار ولم يحذر الفلاسفة أكثر شيء الا من النيران المحرقة وأمرت بتطهير الطبائع والانفاس واخراج دنسها ورطوبتها ونفي آفاتها وأوساخها عنها على ذلك استقام رأيهم وتدبيرهم فانما عملهم انما هو مع النار أولا واليها يصير آخرا فلذلك قالوا اياكم والنيران المحرقات وانما أراد وا بذلك نفي الآفات التي معها فتجتمع على الجسد آفتين فتكون أسرع لهلاكه وكذلك كل شيء انما يتلاشى ويفسد من ذاته لتضاد طبائعه واختلافه فيتوسط بين شيئين فلم يجد ما يقويه ويعينه الا قهرته الآفة وأهلكته واعلم أن الحكماء كلها ذكرت ترداد الارواح على الاجساد مرارا ليكون ألزم اليها وأقوى على قتال النار اذا هي باشرتها عند الالفة أعني بذلك النار العنصرية فاعلمه * ولننقل الآن على الحجر الذي يمكن منه العمل على ما ذكرته الفلاسفة فقد اختلفوا فيه فمنهم من زعم أنه في الحيوان ومنهم من زعم أنه في النبات ومنهم من زعم أنه في المعادن ومنهم من زعم أنه في الجميع وهذه الدعاوى ليست بنا حاجة الى استقصائها ومناظرة أهلها عليها لان الكلام يطول جدا وقد قلت فيما تقدم ان العمل يكون في كل شيء بالقوة لان الطبائع موجودة في كل شيء فهو كذلك فنريد أن تعلم من أي شيء يكون العمل بالقوة والفعل فنقصد الى ما قاله الحراني ان الصبغ

كله أحد صبغين اما صبغ جسد كالزعفران فى الثوب الابيض حتى يحول فيه وهو مضمحل منتقض التركيب والصبغ الثانى تقليب الجوهر من جوهر نفسه الى جوهر غيره ولونه كتقلب الشجر بل التراب الى نفسه وقلب الحيوان والنبات الى نفسه حتى يصير التراب نباتا والنبات حيوانا ولا يكون الا بالروح الحى والكيان الفاعل الذى له توليد الاجرام وقلب الاعيان فاذا كان هذا هكذا فنقول ان العمل لابد أن يكون اما فى الحيوان واما فى النبات وبرهان ذلك انهما مطبوعان على الغذاء وبه قوامهما وتمامهما فأما النبات فليس فيه ما فى الحيوان من اللطافة والقوة ولذلك قل خوض الحكماء فيه وأما الحيوان فهو آخر الاستحالات الثلاث ونهايتها وذلك أن المعدن يستحيل نباتا والنبات يستحيل حيوانا والحيوان لا يستحيل الى شئ هو ألطف منه الا أن ينعكس راجعا الى الغلظ وأنه أيضا لا يوجد فى العالم شئ تتعلق به الروح الحية غيره والروح ألطف ما فى العالم ولم تتعلق الروح بالحيوان الا بشاكلته اياها فأما الروح التى فى النبات فانها يسيرة فيها غلظ وكثافة وهى مع ذلك مستغرقة كامنة فيه لغلظها وغلظ جسد النبات فلم يقدر على الحركة لغلظه وغلظ روحه والروح المتحركة ألطف من الروح الكامنة كثيرا وذلك أن المتحركة لها قبول الغذاء والتنقل والتنفس وليس للكامنة غير قبول الغذاء وحده ولا تجرى اذا قيست بالروح الحية الا كالارض عند الماء كذلك النبات عند الحيوان فالعمل فى الحيوان أعلى وأرفع وأهون وأيسر فينبغى للعاقل اذا عرف ذلك أن يجرب ما كان سهلا ويترك ما يخشى فيه عسرا * واعلم أن الحيوان عند الحكماء ينقسم أقساما من الامهات التى هى الطبائع والحديثة التى هى المواليد وهذا معروف متيسر الفهم فلذلك قسمت الحكماء العناصر والمواليد أقساما حية وأقساما ميتة فجعلوا كل متحرك فاعلا حيا وكل ساكن مفعولا ميتا وقسموا ذلك فى جميع الاشياء وفى الاجساد الذائبة وفى العقاقير المعدنية فسموا كل شئ يذوب فى النار ويطير ويشتعل حيا وما كان على خلاف ذلك سموه ميتا فأما الحيوان والنبات فسموا كل ما انفصل منها طبائع أربعا حيا وما لم ينفصل سموه ميتا ثم انهم طلبوا جميع الاقسام الحية فلم يجدوا لوفق هذه الصناعة مما ينفصل فصولا أربعة ظاهرة للعيان ولم يجدوه غير الحجر الذى فى الحيوان فبحثوا عن جنسه حتى عرفوه وأخذوه ودبروه فتكيف لهم منه الذى أرادوا وقد يتكيف مثل هذا فى المعادن والنبات بعد جمع العقاقير وخلطها ثم تفصل بعد ذلك فأما النبات فمنه ما ينفصل ببعض هذه الفصول مثل الاشنان وأما المعادن ففيها أجساد وأرواح وأنفاس اذا امزجت ودبرت كان منها ماله تأثير وقد دبرنا كل ذلك فكان الحيوان منها أعلى وأرفع

وتدبيره أسهل وأيسر فينبغي لك أن تعلم ماهو الحجر الموجود في الحيوان وطريق وجوده انا بينا أن الحيوان أرفع المواليد وكذا ماتركب منه فهو ألطف منه كالنبات من الارض وانما كان النبات ألطف من الارض لانه انما يكون من جوهره الصافي وجسده اللطيف فوجب له بذلك اللطافة والرقة وكذا هذا الحجر الحيواني بمنزلة النبات في التراب وبالجملة فانه ليس في الحيوان شئ ينقص لي طبائع أربعا غيره فافهم هذا القول فانه لا يكاد يخفى الا على جاهل بين الجهالة ومن لا عقل له فقد أخبرتك ماهية هذا الحجر وأعلمتك جنسه وأنا أبين لك وجوه تدابيره حتى يكمل الذي شرطناه على أنفسنا من الانصاف ان شاء الله سبحانه (التدبير على بركة الله) خذ الحجر الكريم فاودعه القرعة والانبيق وفصل طبائعه الاربع التي هي النار والهواء والارض والماء وهي الجسد والروح والنفس والصبغ فاذا عزلت الماء عن التراب والهواء عن النار فارفع كل واحد في انائه على حدة وخذ الهابط أسفل الاناء وهو الثفل فاغسله بالنار الحارة حتى تذهب النار عنه سواده ويزول غلظه وجفاؤه وبيضه تبييضا محكما وطير عنه فضول الرطوبات المستجنة فيه فانه يصير عند ذلك ماء أبيض لا ظلمة فيه ولا وسخ ولا تضاد ثم اعمد الى تلك الطبائع الاول الصاعدة منه فطهرها ايضا من السواد والتضاد وكرر عليها الغسل والتصعيد حتى تلطف وترق وتصفو فاذا فعلت ذلك فقد فتح الله عليك فابدأ بالتركيب الذي عليه مدار العمل وذلك أن التركيب لا يكون الا بالتزويج والتعفين فأما التزويج فهو اختلاط اللطيف بالغليظ وأما التعفين فهو التمشية والسحق حتى يختلط بعضه ببعض ويصير شيئا واحدا لا اختلاف فيه ولا نقصان بمنزلة الامتزاج بالماء فعند ذلك يقوى الغليظ على امساك اللطيف وتقوى الروح على مقابلة النار وتصبر عليها وتقوى النفس على الغوص في الاجساد والدبيب فيها وانما وجد ذلك بعد التركيب لان الجسد المحلول لما ازدوج بالروح مازجه بجميع أجزائه ودخل بعضها في بعض لتشاكلها فصار شيئا واحدا ووجب من ذلك أن يعرض للروح من الصلاح والفساد والبقاء والثبوت ما يعرض للجسد لموضع الامتزاج وكذلك النفس اذا امتزجت بهما ودخلت فيهما بخدمة التدبير اختلطت أجزاؤهما بجميع أجزاء الآخرين أعني الروح والجسد وصارت هي وهما شيئا واحدا لا اختلاف فيه بمنزلة الجزء الكلي الذي سلمت طبائعه واتفقت أجزاؤه فاذا لقي هذا المركب الجسد المحلول وألح عليه النار وأظهر مافيه من الرطوبة على وجهه ذاب في الجسد المحلول ومن شأن الرطوبة الاشتعال وتعلق النار بها فاذا أرادت النار التعلق بها منعها من الاتحاد بالنفس ممازجة الماء لها فان النار لا تتحد بالدهن حتى يكون خالصا وكذلك

الماء من شأنه النفور من النار فاذا ألحت عليه النار وأرادت تطييره حبسه الجسد اليابس الممازج له في جوفه فمنعه من الطيران فكان الجسد علة لامساك الماء والماء علة لبقاء الدهن والدهن علة لثبات الصبغ والصبغ علة لظهور الدهن واظهار الدهنية في الاشياء المظلمة التي لا نور لها ولا حياة فيها فهذا هو الجسد المستقيم وهكذا يكون العمل وهذه التصفية التي سألت عنها وهي التي سمتها الحكماء بيضة واياها يعنون لا بيضة الدجاج * واعلم أن الحكماء لم تسمها بهذا الاسم لغير معنى بل أشبهتها ولقد سألت مسلمة عن ذلك يوما وليس عنده غيري فقلت له أيها الحكيم الفاضل اخبرني لاى شئ سمت الحكماء مركب الحيوان بيضة أختيارا منهم لذلك أم لمعنى دعاهم اليه فقال بل لمعنى غامض فقلت أيها الحكيم وما ظهر لهم من ذلك من المنفعة والاستدلال على الصناعة حتى شبهوها وسموها بيضة فقال لشبهها وقرابتها من المركب ففكر فيه فانه سيظهر لك معناه فبقيت بين يديه مفكرا لا أقدر على الوصول الى معناه فلما رأى ما بي من الفكر وان نفسي قد مضت فيها أخذ بعضدي وهزني هزة خفيفة وقال لي يا أبا بكر ذلك للنسبة التي بينهما في كمية الالوان عند امتزاج الطبائع وتأليفها فلما قال ذلك انجلت عني الظلمة وأضاء لي نور قلبي وقوي عقلي على فهمه فنهضت شاكرا الله عليه الى منزلي وأقمت على ذلك شكلا هندسيا يبرهن به على صحة ما قاله مسلمة وأنا واضعه لك في هذا الكتاب مثال ذلك أن المركب اذا تم وكمل كان نسبة ما فيه من طبيعة الهواء الى ما في البيضة من طبيعة الهواء كنسبة ما في المركب من طبيعة النار الى ما في البيضة من طبيعة النار وكذلك الطبيعتان الاخريان الارض والماء فأقول ان كل شيئين متناسبين على هذه الصفة فهما متشابهان ومثال ذلك أن تجعل لسطح البيضة هزوح فاذا أردنا ذلك فانا نأخذ أقل طبائع المركب وهي طبيعة اليبوسة ونضيف اليها مثلها من طبيعة الرطوبة وندبرهما حتى تنشف طبيعة اليبوسة طبيعة الرطوبة وتقبل قوتها وكان في هذا الكلام رمزا ولكنه لا يخفى عليك ثم تحمل عليهما جميعا مثليهما من الروح وهو الماء فيكون الجميع ستة أمثال ثم تحمل على الجميع بعد التدبير مثلا من طبيعة الهواء التي هي النفس وذلك ثلاثة أجزاء فيكون الجميع تسعة أمثال اليبوسة بالقوة وتجعل تحت كل ضلعين من المركب الذي طبيعته محيطة بسطح المركب طبيعتين فتجعل أولا الضلعين المحيطين بسطحه طبيعة الماء وطبيعة الهواء وهما ضلعا ا ح د وسطح أبجد وكذلك الضلعان المحيطان بسطح البيضة اللذان هما الماء والهواء ضلعا هزوح فأقول ان سطح أبجد يشبه سطح هزوح طبيعة الهواء التي تسمى نفسا وكذلك بجـ من سطح المركب والحكماء لم تسم شيئا باسم شئ الا لشبهه به

والكلمات التي سألت عن شرحها الارض المقدسة وهي المنعقدة من الطبائع العلوية والسفلية والنحاس هو الذي أخرج سواده وقطع حتى صار هباء ثم حمر بالزاج حتى صار نحاسيا والمغنيسيا حجرهم الذي تجمد فيه الارواح وتخرجه الطبيعة العلوية التي تستجن فيها الارواح لتقابل عليها النار والفرفرة لون أحمر فان يحدثه الكيان والرصاص حجر له ثلاث قوى مختلفة الشخوص ولكنها متشاكلة ومتجانسة فالواحدة روحانية نيرة صافية وهي الفاعلة والثانية نفسانية وهي متحركة حساسة غير أنها أغلظ من الاولى ومركزها دون مركز الاولى والثالثة قوة أرضية حاسة قابضة منعكسة الى مركز الارض لثقلها وهي الماسكة الروحانية والنفسانية جميعا والمحيطة بهما وأما سائر الباقية فمبتدعة ومخترعة الباسا على الجاهل ومن عرف المقدمات استغنى عن غيرها * فهذا جميع ما سألتني عنه وقد بعثت به اليك مفسرا ونرجو بتوفيق الله أن تبلغ أملك والسلام انتهى كلام ابن بشرون وهو من كبار تلاميذ مسلمة المجريطي شيخ الاندلس في علوم الكيمياء والسيمياء والسحر في القرن الثالث ومابعده * وأنت ترى كيف صرف ألفاظهم كلها في الصناعة الى الرمز والالغاز التي لا تكاد تبين ولا تعرف وذلك دليل على أنها ليست بصناعة طبيعية * والذي يجب أن يعتقد في أمر الكيمياء وهو الحق الذي يعضده الواقع أنها من جنس آثار النفوس الروحانية وتصرفها في عالم الطبيعة اما من نوع الكرامة ان كانت النفوس خيرة أو من نوع السحر ان كانت النفوس شريرة فاجرة فأما الكرامة فظاهرة وأما السحر فلان الساحر كما ثبت في مكان تحقيقه يقلب الاعيان المادية بقوته السحرية ولا بد له مع ذلك عندهم من مادة يقع فعله السحري فيها كتخليق بعض الحيوانات من مادة التراب أو الشعر والنبات وبالجملة من غير مادتها المخصوصة بها كما وقع لسحرة فرعون في الحبال والعصي وكما ينقل عن سحرة السودان والهنود في قاصية الجنوب والترك في قاصية الشمال انهم يسحرون الجو للامطار وغير ذلك * ولما كانت هذه تخليقا للذهب في غير مادته الخاصة به كان من قبيل السحر والمتكلمون فيه من اعلام الحكماء مثل جابر ومسلمة ومن كان قبلهم من حكماء الامم انما نحوا هذا المنحى ولهذا كان كلامهم فيه الغازا حذرا عليها من انكار الشرائع على السحر وأنواعه لا أن ذلك يرجع الى الضنانة بها كما هو رأي من لم يذهب الى التحقيق في ذلك وانظر كيف سمى مسلمة كتابه فيها رتبة الحكيم وسمى كتابه في السحر والطلسمات غاية الحكيم اشارة الى عموم موضوع الغاية وخصوص موضوع هذه لان الغاية أعلى من الرتبة فكأن مسائل الرتبة بعض من مسائل الغاية وتشاركها في الموضوعات ومن كلامه في الفنين يتبين ما قلناه ونحن نبين

فيما بعده غلط من يزعم ان مدارك هذا الامر بالصناعة الطبيعية والله العليم الخبير

٢٥ (فصل في ابطال الفلسفة وفساد منتحلها)

هذا الفصل وما بعده مهم لان هذه العلوم عارضة فى العمران كثيرة فى المدن وضررها فى الدين كثير فوجب أن يصدع بشأنها ويكشف عن المعتقد الحق فيها وذلك أن قوما من عقلاء النوع الانسانى زعموا أن الوجود كله الحسى منه وماوراء الحسى تدرك ذواته وأحواله بأسبابها وعللها بالانظار الفكرية والاقيسة العقلية وأن تصحيح العقائد الايمانية من قبل النظر لا من جهة السمع فانها بعض من مدارك العقل وهؤلاء يسمون فلاسفة جمع فيلسوف وهو باللسان اليونانى محب الحكمة فبحثوا عن ذلك وشمروا له وحوّموا على اصابة الغرض منه ووضعوا قانونا يهتدى به العقل فى نظره الى التمييز بين الحق والباطل وسموه بالمنطق ومحصل ذلك أن النظر الذى يفيد تمييز الحق من الباطل انما هو للذهن فى المعانى المنتزعة من الموجودات الشخصية فيجرّد منها أوّلا صورا منطبقة على جميع الاشخاص كما ينطبق الطابع على جميع النقوش التى ترسمها فى طين أو شمع وهذه المجرّدة من المحسوسات تسمى المعقولات الاوائل ثم تجرّد من تلك المعانى الكلية اذا كانت مشتركة مع معانى أخرى وقد تميزت عنها فى الذهن فتجرد منها معانى أخرى وهى التى اشتركت بها ثم تجرّد ثانيا ان شاركها غيرها وثالثا الى أن ينتهى التجريد الى المعانى البسيطة الكلية المنطبقة على جميع المعانى والاشخاص ولا يكون منها تجريد بعد هذا وهى الاجناس العالية وهذه المجرّدات كلها من غير المحسوسات هى من حيث تأليف بعضها مع بعض لتحصيل العلوم منها تسمى المعقولات الثوانى فاذا نظر الفكر فى هذه المعقولات المجرّدة وطلب تصوّر الوجود كما هو فلا بدّ للذهن من اضافة بعضها الى بعض ونفى بعضها عن بعض بالبرهان العقلى اليقينى ليحصل تصور الوجود تصورا صحيحا مطابقا اذا كان ذلك بقانون صحيح كما مرّ وصنف التصديق الذى هو تلك الاضافة والحكم متقدم عندهم على صنف التصوّر فى النهاية والتصوّر متقدّم عليه فى البداية والتعليم لان التصور التام عندهم هو غاية الطلب الادراكى وانما التصديق وسيلة له وما تسمعه فى كتب المنطقيين من تقدم التصوّر وتوقف التصديق عليه فبمعنى الشعور لا بمعنى العلم التام وهذا هو مذهب كبيرهم ارسطو ثم يزعمون أن السعادة فى ادراك الموجودات كلها ما فى الحس وما وراء الحس بهذا النظر وتلك البراهين * وحاصل مداركهم فى الوجود على الجملة وما آلت اليه وهو الذى فرّعوا عليه قضايا انظارهم أنهم عثروا أوّلا على الجسم

السفلى بحكم الشهود والحس ثم ترقى ادراكهم قليلا فشعروا بوجود النفس من قبل الحركة والحس فى الحيوانات ثم أحسوا من قوى النفس بسلطان العقل ووقف ادراكهم فقضوا على الجسم العالى السماوى بنحو من القضاء على أمر الذات الانسانية ووجب عندهم أن يكون للفلك نفس وعقل كما للانسان ثم انهوا ذلك نهاية عدد الآحاد وهى العشر تسع مفصلة ذواتها جمل وواحد أول مفرد وهو العاشر ويزعمون أن السعادة فى ادراك الوجود على هذا النحو من القضاء مع تهذيب النفس وتخلقها بالفضائل وان ذلك ممكن للانسان ولو لم يرد شرع لتمييزه بين الفضيلة والرذيلة من الافعال بمقتضى عقله ونظره وميله الى المحمود منها واجتنابه للمذموم بفطرته وان ذلك اذا حصل للنفس حصلت لها البهجة واللذة وان الجهل بذلك هو الشقاء السرمدى وهذا عندهم هو معنى النعيم والعذاب فى الآخرة الى خبط لهم فى تفاصيل ذلك معروف من كلماتهم وامام هذه المذاهب الذى حصل مسائلها ودون علمها وسطر حجاجها فيما بلغنا فى هذه الاحقاب هو ارسطو المقدونى من أهل مقدونية من بلاد الروم من تلاميذ أفلاطون وهو معلم الاسكندر ويسمونه المعلم الاول على الاطلاق يعنون معلم صناعة المنطق اذ لم تكن قبله مهذبة وهو أول من رتب قانونها واستوفى مسائلها وأحسن بسطها ولقد أحسن فى ذلك القانون ما شاء لو تكفل له بقصدهم فى الالهيات ثم كان من بعده فى الاسلام من اخذ بتلك المذاهب واتبع فيها رأيه حذو النعل بالنعل الا فى القليل وذلك أن كتب أولئك المتقدمين لما ترجمها الخلفاء من بنى العباس من اللسان اليونانى الى اللسان العربى تصفحها كثير من أهل الملة وأخذ من مذاهبهم من أضله الله من منتحلى العلوم وجادلوا عنها واختلفوا فى مسائل من تفاريعها وكان من أشهرهم أبو نصر الفارابى فى المائة الرابعة لعهد سيف الدولة وأبو على بن سينا فى المائة الخامسة لعهد نظام الملك من بنى بويه باصبهان وغيرهما * واعلم أن هذا الرأى الذى ذهبوا اليه باطل بجميع وجوهه فأما اسنادهم الموجودات كلها الى العقل الاول واكتفاؤهم به فى الترقى الى الواجب فهو قصور عما وراء ذلك من رتب خلق الله فالوجود أوسع نطاقا من ذلك ويخلق ما لا تعلمون وكأنهم فى اقتصارهم على اثبات العقل فقط والغفلة عما وراءه بمثابة الطبيعيين المقتصرين على اثبات الاجسام خاصة المعرضين عن النقل والعقل المعتقدين أنه ليس وراء الجسم فى حكمة الله شئ وأما البراهين التى يزعمونها على مدعياتهم فى الموجودات ويعرضونها على معيار المنطق وقانونه فهى قاصرة وغير وافية بالغرض أما ما كان منها فى الموجودات الجسمانية ويسمونه العلم الطبيعى فوجه قصوره أن المطابقة بين تلك النتائج الذهنية

التي تستخرج بالحدود والاقيسة كما في زعمهم وبين ما في الخارج غير يقيني لان تلك
أحكام ذهنية كلية عامة والموجودات الخارجية متشخصة بموادها ولعل في المواد
ما يمنع من مطابقة الذهني الكلي للخارجي الشخصي اللهم الا ما يشهد له الحس من
ذلك فدليله شهوده لا تلك البراهين فأين اليقين الذي يجدونه فيها وربما يكون تصرف
الذهن أيضا في المعقولات الاول المطابقة للشخصيات بالصور الخيالية لا في المعقولات
الثواني التي تجريدها في الرتبة الثانية فيكون الحكم حينئذ يقينيا بمثابة المحسوسات
اذ المعقولات الاول أقرب الى مطابقة الخارج لكمال الانطباق فيها فنسلم لهم حينئذ
دعاويهم في ذلك الا أنه ينبغي لنا الاعراض عن النظر فيها اذ هو من ترك المسلم لما
لا يعنيه فان مسائل الطبيعيات لا تهمنا في ديننا ولا معاشنا فوجب علينا تركها *
وأما ما كان منها في الموجودات التي وراء الحس وهي الروحانيات ويسمونه العلم الالهي
وعلم ما بعد الطبيعة فان ذواتها مجهولة رأسا ولا يمكن التوصل اليها ولا البرهان عليها
لان تجريد المعقولات من الموجودات الخارجية الشخصية انما هو ممكن فيما هو
مدرك لنا ونحن لا ندرك الذوات الروحانية حتى نجرد منها ماهيات أخرى بحجاب
الحس بيننا وبينها فلا يتأتى لنا برهان عليها ولا مدرك لنا في اثبات وجودها على الجملة الا
ما نجده بين جنبينا من أمر النفس الانسانية وأحوال مداركها وخصوصا في الرؤيا
التي هي وجدانية لكل أحد وما وراء ذلك من حقيقتها وصفاتها فأمر غامض لا سبيل
الى الوقوف عليه وقد صرح بذلك محققوهم حيث ذهبوا الى أن ما لا مادة له لا يمكن
البرهان عليه لان مقدمات البرهان من شرطها أن تكون ذاتية وقال كبيرهم
افلاطون ان الالهيات لا يوصل فيها الى يقين وانما يقال فيها بالاحق والاولى يعني الظن
واذا كنا انما نحصل بعد التعب والنصب على الظن فقط فيكفينا الظن الذي كان أولا فأي
فائدة لهذه العلوم والاشتغال بها ونحن انما عنايتنا بتحصيل اليقين فيما وراء الحس من
الموجودات وهذه هي غاية الافكار الانسانية عندهم وأما قولهم ان السعادة في ادراك
الموجودات على ما هي عليه بتلك البراهين فقول مزيف مردود وتفسيره أن الانسان
مركب من جزأين أحدهما جسماني والآخر روحاني ممتزج به ولكل واحد من الجزأين
مدارك مختصة به والمدرك فيهما واحد وهو الجزء الروحاني يدرك تارة مدارك روحانية
وتارة مدارك جسمانية الا أن المدارك الروحانية يدركها بذاته بغير واسطة والمدارك
الجسمانية بواسطة آلات الجسم من الدماغ والحواس وكل مدرك فله ابتهاج بما يدركه
واعتبره بحال الصبي في أول مداركه الجسمانية التي هي بواسطة كيف يبتهج بما يبصره
من الضوء وبما يسمعه من الاصوات فلا شك أن الابتهاج بالادراك الذي للنفس من

ذاتها بغير واسطة يكون أشد وألذ فالنفس الروحانية اذا شعرت بادراكها الذى لها من ذاتها بغير واسطة حصل لها ابتهاج ولذة لا يعبر عنها وهذا الادراك لا يحصل بنظر ولا علم وانما يحصل بكشف حجاب الحس ونسيان المدارك الجسمانية بالجملة والمتصوفة كثيرا ما يعنون بحصول هذا الادراك للنفس بحصول هذه البهجة فيحاولون بالرياضة اماتة القوى الجسمانية ومداركها حتى الفكر من الدماغ ليحصل للنفس ادراكها الذى لها من ذاتها عند زوال الشواغب والموانع الجسمانية فيحصل لهم بهجة ولذة لا يعبر عنها وهذا الذى زعموه بتقدير صحته مسلم لهم وهو مع ذلك غير واف بمقصودهم فأما قولهم ان البراهين والادلة العقلية محصلة لهذا النوع من الادراك والابتهاج عنه فباطل كما رأيته اذ البراهين والادلة من جملة المدارك الجسمانية لانها بالقوى الدماغية من الخيال والفكر والذكر ونحن أول شئ نعنى به فى تحصيل هذا الادراك اماتة هذه القوى الدماغية كلها لانها منازعة له قادحة فيه وتجد الماهر منهم عاكفا على كتاب الشفاء والاشارات والنجاء وتلاخيص ابن رشد للنص من تأليف ارسطو وغيره يبعثر أوراقها ويتوثق من براهينها ويلتمس هذا القسط من السعادة فيها ولا يعلم أنه يستكثر بذلك من الموانع عنها ومستندهم فى ذلك ما ينقلونه عن ارسطو والفارابى وابن سينا أن من حصل له ادراك العقل الفعال واتصل به فى حياته فقد حصل حظه من هذه السعادة والعقل الفعال عندهم عبارة عن أول رتبة ينكشف عنها الحس من رتب الروحانيات ويحملون الاتصال بالعقل الفعال على الادراك العلمى وقد رأيت فساده وانما يعنى ارسطو وأصحابه بذلك الاتصال والادراك ادراك النفس الذى لها من ذاتها وبغير واسطة وهو لا يحصل الا بكشف حجاب الحس وأما قولهم ان البهجة الناشئة عن هذا الادراك هى عين السعادة الموعود بها فباطل أيضا لانا انما تبين لنا بما قرروه أن وراء الحس مدركا آخر للنفس من غير واسطة وانها تبتهج بادراكها ذلك ابتهاجا شديدا وذلك لا يعين لنا أنه عين السعادة الاخروية ولا بد بل هى من جملة الملاذ التى لتلك السعادة وأما قولهم ان السعادة فى ادراك هذه الموجودات على ما هى عليه فقول باطل مبنى على ما كنا قدمناه فى أصل التوحيد من الاوهام والاغلاط فى أن الوجود عند كل مدرك منحصر فى مداركه وبينا فساد ذلك وأن الوجود أوسع من أن يحاط به أو يستوفى ادراكه بجملته روحانيا أو جسمانيا والذى يحصل من جميع ما قررناه من مذاهبهم أن الجزء الروحانى اذا فارق القوى الجسمانية أدرك ادراكا ذاتيا له مختصا بصنف من المدارك وهى الموجودات التى أحاط بها علمنا وليس بعام الادراك فى الموجودات كلها اذ لم تنحصر وانه يبتهج بذلك النحو من الادراك ابتهاجا شديدا كما

يبتهج الصبي بمداركه الحسية في أول نشوه ومن لنا بعد ذلك بادراك جميع الموجودات
أو بحصول السعادة التي وعدنا بها الشارع ان لم نعمل لها هيهات هيهات لما توعدون
وأما قولهم ان الانسان مستقل بتهذيب نفسه واصلاحها بملابسة المحمود من الخلق
ومجانبة المذموم فأمر مبني على أن ابتهاج النفس بادراكها الذي لها من ذاتها هو عين
السعادة الموعود بها لان الرذائل عائقة للنفس عن تمام ادراكها ذلك بما يحصل لها من
الملكات الجسمانية وألوانها وقد بينا ان أثر السعادة والشقاوة من وراء الادراكات
الجسمانية والروحانية فهذا التهذيب الذي توصلوا الى معرفته انما نفعه في البهجة
الناشئة عن الادراك الروحاني فقط الذي هو على مقاييس وقوانين وأما ما وراء ذلك
من السعادة التي وعدنا بها الشارع على امتثال ما أمر به من الاعمال والاخلاق
فأمر لا يحيط به مدارك المدركين وقد تنبه لذلك زعيمهم أبو علي بن سينا فقال في كتاب
المبدإ والمعاد ما معناه ان المعاد الروحاني وأحواله هو مما يتوصل اليه بالبراهين العقلية
والمقاييس لانه على نسبة طبيعية محفوظة ووتيرة واحدة فلنا في البراهين عليه سعة وأما
المعاد الجسماني وأحواله فلا يمكن ادراكه بالبرهان لانه ليس على نسبة واحدة وقد
بسطته لنا الشريعة الحقة المحمدية فلينظر فيها وليرجع في أحواله اليها فهذا العلم كما
رأيته غير واف بمقاصدهم التي حوموا عليها مع ما فيه من مخالفة الشرائع وظواهرها
وليس له فيما علمنا الا ثمرة واحدة وهي شحذ الذهن في ترتيب الادلة والحجاج لتحصيل
ملكة الجودة والصواب في البراهين وذلك ان نظم المقاييس وتركيبها على وجه
الاحكام والاتقان هو كما شرطوه في صناعتهم المنطقية وقولهم بذلك في علومهم الطبيعية
وهم كثيرا ما يستعملونها في علومهم الحكمية من الطبيعيات والتعاليم وما بعدها
فيستولي الناظر فيها بكثرة استعمال البراهين بشروطها على ملكة الاتقان والصواب
في الحجاج والاستدلالات لانها وان كانت غير وافية بمقصودهم فهي أصح ما علمناه من
قوانين الانظار هذه هي ثمرة هذه الصناعة مع الاطلاع على مذاهب أهل العلم وآرائهم
ومضارها ما علمت فليكن الناظر فيها متحرزا جهده من معاطبها وليكن نظر من ينظر فيها
بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه ولا يكبن أحد عليها وهو
خلو من علوم الملة فقل أن يسلم لذلك من معاطبها والله الموفق للصواب وللحق والهادي
اليه وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

٢٦ (فصل في ابطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها)

هذه الصناعة يزعم أصحابها أنهم يعرفون بها الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها

من قبل معرفة قوى الكواكب وتأثيرها في المولدات العنصرية مفردة ومجتمعة فتكون لذلك أوضاع الافلاك والكواكب دالة على ماسيحدث من نوع نوع من أنواع الكائنات الكلية والشخصية فالمتقدمون منهم يرون أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها بالتجربة وهو أمر تقصر الاعمار كلها لو اجتمعت عن تحصيله اذ التجربة انما تحصل في المرات المتعددة بالتكرار ليحصل عنها العلم أو الظن وأدوار الكواكب منها ما هو طويل الزمن فيحتاج تكرره الى آماد وأحقاب متطاولة يتقاصر عنها ما هو طويل من أعمار العالم وربما ذهب ضعفاء منهم الى أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها كانت بالوحي وهو رأي فائل وقد كفونا مؤنة ابطاله ومن أوضح الادلة فيه أن تعلم أن الانبياء عليهم الصلاة والسلام أبعد الناس عن الصنائع وأنهم لا يتعرضون للاخبار عن الغيب الا أن يكون عن الله فكيف يدعون استنباطه بالصناعة ويشيرون بذلك لتابعيهم من الخلق وأما بطليموس ومن تبعه من المتأخرين فيرون أن دلالة الكواكب على ذلك دلالة طبيعية من قبل مزاج يحصل للكواكب في الكائنات العنصرية قال لان فعل النيرين وأثرهما في العنصريات ظاهر لا يسع أحدا جحده مثل فعل الشمس في تبدل الفصول وأمزجتها ونضج الثمار والزرع وغير ذلك وفعل القمر في الرطوبات والماء وانضاج المواد المتعفنة وفواكه القثاء وسائر أفعاله ثم قال ولنا فيما بعدهما من الكواكب طريقان الاولى التقليد لمن نقل ذلك عنه من أئمة الصناعة الا أنه غير مقنع للنفس الثانية الحدس والتجربة بقياس كل واحد منها الى النير الاعظم الذي عرفنا طبيعته وأثره معرفة ظاهرة فننظر هل يزيد ذلك الكوكب عند القران في قوته ومزاجه فتعرف موافقته له في الطبيعة أو ينقص عنها فتعرف مضادته ثم اذا عرفنا قواها مفردة عرفناها مركبة وذلك عند تناظرها بأشكال التثليث والتربيع وغيرهما ومعرفة ذلك من قبل طبائع البروج بالقياس أيضا الى النير الاعظم واذا عرفنا قوى الكواكب كلها فهي مؤثرة في الهواء وذلك ظاهر والمزاج الذي يحصل منها للهواء يحصل لما تحتها من المولدات وتتخلق به النطف والبزر فتصير حالا للبدن المتكون عنها وللنفس المتعلقة به الفائضة عليه المكتسبة لما لها منه ولما يتبع النفس والبدن من الاحوال لان كيفيات البزرة والنطفة كيفيات لما يتولد عنهما وينشأ منهما قال وهو مع ذلك ظني وليس من اليقين في شيء وليس هو أيضا من القضاء الالهي يعني القدر انما هو من جملة الاسباب الطبيعية للكائن والقضاء الالهي سابق على كل شيء هذا محصل كلام بطليموس وأصحابه وهو منصوص في كتابه الاربع وغيره ومنه يتبين ضعف مدرك هذه الصناعة وذلك أن العلم الكائن

أو الظن به انما يحصل عن العلم بجملة أسبابه من الفاعل والقابل والصورة والغاية على ما تبين فى موضعه والقوى النجومية على ما قرروه انما هى فاعلة فقط والجزء العنصرى هو القابل ثم ان القوى النجومية ليست هى الفاعل بجملتها بل هنالك قوى أخرى فاعلة معها فى الجزء المادى مثل قوة التوليد للاب والنوع التى فى النطفة وقوى الخاصة التى تميز بها صنف صنف من النوع وغير ذلك فالقوى النجومية اذا حصل كمالها وحصل العلم فيها انما هى فاعل واحد من جملة الاسباب الفاعلة للكائن ثم انه يشترط مع العلم بقوى النجوم وتأثيراتها مزيد حدس وتخمين وحينئذ يحصل عنده الظن بوقوع الكائن والحدس والتخمين قوى للناظر فى فكره وليس من علل الكائن ولا من أصول الصناعة فاذا فقد هذا الحدس والتخمين رجعت ادراجها عن الظن الى الشك هذا اذا حصل العلم بالقوى النجومية على سداده ولم تعترضه آفة وهذا معوز لما فيه من معرفة حسبانات الكواكب فى سيرها لتتعرف به أوضاعها ولما أن اختصاص كل كوكب بقوة لا دليل عليه ومدرك بطليموس فى اثبات القوى للكواكب الخمسة بقياسها الى الشمس مدرك ضعيف لان قوة الشمس غالبة لجميع القوى من الكواكب ومستولية عليها فقل أن يشعر بالزيادة فيها أو النقصان منها عند المقارنة كما قال وهذه كلها قادحة فى تعريف الكائنات الواقعة فى عالم العناصر بهذه الصناعة ثم ان تأثير الكواكب فيما تحتها باطل اذ قد تبين فى باب التوحيد أن لا فاعل الا الله بطريق استدلالى كما رأيته واحتج له أهل علم الكلام بما هو غنى عن البيان من أن اسناد الاسباب الى المسببات مجهول الكيفية والعقل متهم على ما يقضى به فيما يظهر بادئ الرأى من التأثير فلعل استنادها على غير صورة التأثير المتعارف والقدرة الالهية رابطة بينهما كما ربطت جميع الكائنات علوا وسفلا سيما والشرع يرد الحوادث كلها الى قدرة الله تعالى ويبرأ مما سوى ذلك والنبوات أيضا منكرة لشأن النجوم وتأثيراتها واستقراء الشرعيات شاهد بذلك فى مثل قوله ان الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته وفى قوله أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر بى فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب الحديث الصحيح فقد بان لك بطلان هذه الصناعة من طريق الشرع وضعف مداركها مع ذلك من طريق العقل مع ما لها من المضار فى العمران الانسانى بما تبعث فى عقائد العوام من الفساد اذا اتفق الصدق من احكامها فى بعض الاحايين اتفاقا لا يرجع الى تعليل ولا تحقيق فيلهج بذلك من لا معرفة له ويظن اطراد الصدق فى سائر أحكامها وليس كذلك فيقع فى رد الاشياء الى غير خالقها ثم ما ينشأ عنها كثيرا

فى الدول من توقع القواطع وما يبعث عليه ذلك التوقع من تطاول الاعداء والمتربصين بالدولة الى الفتك والثورة وقد شاهدنا من ذلك كثيرا فينبغى أن تحظر هذه الصناعة على جميع أهل العمران لما ينشأ عنها من المضار فى الدين والدول ولا يقدح فى ذلك كون وجودها طبيعيا للبشر بمقتضى مداركهم وعلومهم فالخير والشر طبيعتان موجودتان فى العالم لا يمكن نزعهما وانما يتعلق التكاليف باسباب حصولهما فيتعين السعى فى اكتساب الخير بأسبابه ودفع أسباب الشر والمضار هذا هو الواجب على من عرف مفاسد هذا العلم ومضاره وليعلم من ذلك أنها وان كانت صحيحة فى نفسها فلا يمكن أحدا من أهل الملة تحصيل علمها ولا ملكتها بل ان نظر فيها ناظر وظن الاحاطة بها فهو فى غاية القصور فى نفس الامر فان الشريعة لما حظرت النظر فيها فقد الاجتماع من أهل العمران لقراءتها والتحليق لتعليمها وصار المولع بها من الناس وهم الاقل وأقل من الاقل انما يطالع كتبها ومقالاتها فى كسر بيته متسترا عن الناس وتحت ربقة الجمهور مع تشعب الصناعة وكثرة فروعها واعتياصها على الفهم فكيف يحصل منها على طائل ونحن نجد الفقه الذى عم نفعه دينا ودنيا وسهلت مآخذه من الكتاب والسنة وعكف الجمهور على قراءته وتعليمه ثم بعد التحقيق والتجميع وطول المدارسة وكثرة المجالس وتعددها انما يحذق فيه الواحد بعد الواحد فى الاعصار والاجيال فكيف بعلم مهجور للشريعة مضروب دونه سد الحظر والتحريم مكتوم عن الجمهور صعب المأخذ محتاج بعد الممارسة والتحصيل لاصوله وفروعه الى مزيد حدس وتخمين يكتنفان به من الناظر فأين التحصيل والحذق فيه مع هذه كلها ومدعى ذلك من الناس مردود على عقبه ولا شاهد له يقوم بذلك لغرابة الفن بين أهل الملة وقلة حملته فاعتبر ذلك تتبين لك صحة ما ذهبنا اليه والله أعلم بالغيب فلا يظهر على غيبه أحدا * ومما وقع فى هذا المعنى لبعض أصحابنا من أهل العصر عندما غلب العرب عساكر السلطان أبى الحسن وحاصروه بالقيروان وكثر ارجاف الفريقين الاولياء والاعداء وقال فى ذلك أبو القاسم الروحى من شعراء أهل تونس

أستغفر الله كل حين * قد ذهب العيش والهناء
أصبح فى تونس وأمسى * والصبح لله والمساء
الخوف والجوع والمنايا * يحدثها الهرج والوباء
والناس فى مرية وحرب * وما عسى ينفع المراء
فاحمدى ترى عليا * حل به الهلك والتواء
وآخر قال سوف يأتى * به اليكم صبا رخاء

والله من فوق ذا وهـــذا * يقضي لعبديه ما يشاء
يا راصـــد الخنس الجواري * ما فعلت هـــذه السماء
مطلقونا وقـــد زعمـــتم * أنكـــم اليوم أمليـاء
مـــر خميس على خميس * وجاء سبت وأربعاء
ونصف شـهر وعشر ثان * وثالث ضمـه القضاء
ولا نرى غـير زور قـول * أذاك جهل أم ازدراء
انا الى الله قـــد علمنا * أن ليس يستدفع القضاء
رضيت بالله لي الهـــا * حسبكم البدر أو ذكاء
ماهـذه الانجـم السواري * الا عباد يد أو اماء
يقضي عليها وليس تقضي * وما لها في الورى اقتضاء
ضـلت عقول ترى قـديما * ما شأنه الجرم والفناء
وحكمت في الوجود طبعا * يحدثه الماء والهواء
لم ترحـــلوا ازاء مر * تغـذوهـ موتربة وماء
الله ربي ولســت أدري * ما الجوهر الفرد والخلاء
ولا الهـيولى التي تنادى * مالى عن صورة عـراء
ولا وجـود ولا انعـــدام * ولا ثبوت ولا انتفاء
ولست أدري ما الكسب الا * ما جلب البيع والشراء
وانما مـذهـبي ودينى * ما كان والناس أولياء
اذ لا فصـول ولا أصـول * ولا جـدال ولا ارتياء
ما تبـع الصـدر واقتفينا * يا حبذا كان الاقتفاء
كانوا كما يعلمون منهم * ولم يكن ذلك الهـذاء
يا أشـعري الزمان انى * أشعرنى الصيف والشتاء
أنا أجزى بالشر شرا * والخير عن مثـله جزاء
وانى ان أكـن مطيعا * فرب أعصى ولى رجاء
وانى تحت حكـم بار * أطاعه العرش والثراء
ليس باستطاركم ولكـن * أتاحه الحكم والقضاء
لوحـدث الاشـعرى عمن * له الى رأيه انتمـــاء
فقال أخبرهـــم بأني * مما يقولونه بـراء

اعلم ان كثيرا من العاجزين عن معاشهم تحملهم المطامع على انتحال هذه الصنائع ويرون انها أحد مذاهب المعاش ووجوهه وأن اقتناء المال منها أيسر وأسهل على مبتغيه فيرتكبون فيها من المتاعب والمشاق ومعاناة الصعاب وعسف الحكام وخسارة الاموال فى النفقات زيادة على النيل من غرضه والعطب آخرا اذا ظهر على خيبة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا وانما أطمعهم فى ذلك رؤية أن المعادن تستحيل وينقلب بعضها الى بعض للمادة المشتركة فيحاولون بالعلاج صيرورة الفضة ذهبا والنحاس والقصدير فضة ويحسبون أنها من ممكنات عالم الطبيعة ولهم فى علاج ذلك طرق مختلفة لاختلاف مذاهبهم فى التدبير وصورته وفى المادة الموضوعة عندهم للعلاج المسماة عندهم بالحجر المكرم هل هى العذرة أو الدم أو الشعر أو البيض أو كذا أو كذا مما سوى ذلك وجملة التدبير عندهم بعد تعين المادة أن تمهى بالفهر على حجر صلد أملس وتسقى أثناء امهائها بالماء بعد أن يضاف اليها من العقاقير والادوية ما يناسب القصد منها ويؤثر فى انقلابها الى المعدن المطلوب ثم تجفف بالشمس من بعد السقى أو تطبخ بالنار أو تصعد أو تكلس لاستخراج مائها أو ترابها فاذا رضى بذلك كله من علاجها وتم تدبيره على ما اقتضته أصول صنعته حصل من ذلك كله تراب أو مائع يسمونه الاكسير ويزعمون أنه اذا ألقى على الفضة المحماة بالنار عادت ذهبا أو النحاس المحمى بالنار عاد فضة على حسب ما قصد به فى عمله ويزعم المحققون منهم أن ذلك الاكسير مادة مركبة من العناصر الاربعة حصل فيها بذلك العلاج الخاص والتدبير مزاج ذو قوى طبيعية تصرف ما حصلت فيه اليها وتقلبه الى صورتها ومزاجها وتبث فيه ما حصل فيها من الكيفيات والقوى كالخميرة للخبز تقلب العجين الى ذاتها وتعمل فيه ما حصل لها من الانفشاش والهشاشة ليحسن هضمه فى المعدة ويستحيل سريعا الى الغذاء وكذا اكسير الذهب والفضة فيما يحصل فيه من المعادن يصرفه اليهما ويقلبه الى صورتهما هذا محصل زعمهم على الجملة فتجدهم عاكفين على هذا العلاج يبتغون الرزق والمعاش فيه ويتناقلون أحكامه وقواعده من كتب لأئمة الصناعة من قبلهم يتداولونها بينهم ويتناظرون فى فهم لغوزها وكشف أسرارها اذ هى فى الاكثر تشبه المعمى كتآليف جابر بن حيان فى رسائله السبعين ومسلمة المجريطى فى كتابه رتبة الحكيم والطغرائى والمغيربى فى قصائده العريقة فى اجادة النظم وأمثالها ولا يحلون من بعد هذا كله بطائل منها * فاوضت يوما شيخنا أبا البركات التلفيقى كبير مشيخة الاندلس فى مثل ذلك ووقفته على بعض التآليف فيها فتصفحه طويلا ثم رده الى وقال لى وأنا الضامن له

أن لا يعود الى بيته الا بالخيبة ثم منهم من يقتصر في ذلك على الدلسة فقط اما الظاهرة كتمويه الفضة بالذهب أو النحاس بالفضة أو خلطهما على نسبة جزء أو جزأين او ثلاثة أو الخفية كالقاء الشبه بين المعادن بالصناعة مثل تبييض النحاس وتليينه بالزوق المصعد فيجيء جسما معدنيا شبيها بالفضة ويخفى الا على النقاد المهرة فيقدر أصحاب هذه الدلس مع دلستهم هذه سكة يسربونها في الناس و يطبعونها بطابع السلطان تمويها على الجمهور بالخلاص وهؤلاء أخس الناس حرفة وأسوأهم عاقبة لتلبسهم بسرقة أموال الناس فان صاحب هذه الدلسة انما هو يدفع نحاسا في الفضة وفضة في الذهب ليستخلصها لنفسه فهو سارق أو أشر من السارق ومعظم هذا الصنف لدينا بالمغرب من طلبة البربر المنتبذين باطراف البقاع ومساكن الاغمار يأوون الى مساجد البادية ويموهون على الاغنياء منهم بأن بأيديهم صناعة الذهب والفضة والنفوس مولعة بحبهما والاستهلاك في طلبهما فيحصلون من ذلك على معاش ثم يبقى ذلك عندهم تحت الخوف والرقبة الى أن يظهر العجز وتقع الفضيحة فيفرون الى موضع آخر ويستجدون حالا أخرى في استهواء بعض أهل الدنيا باطماعهم فيما لديهم ولا يزالون كذلك في ابتغاء معاشهم وهذا الصنف لا كلام معهم لانهم بلغوا الغاية في الجهل والرداءة والاحتراف بالسرقة ولا حاسم لعلتهم الا اشتداد الحكام عليهم وتناولهم من حيث كانوا وقطع أيديهم متى ظهروا على شأنهم لان فيه افسادا للسكة التي تعم بها البلوى وهي متمول الناس كافة والسلطان مكلف باصلاحها والاحتياط عليها والاشتداد على مفسديها وأما من انتحل هذه الصناعة ولم يرض بحال الدلسة بل استنكف عنها ونزه نفسه عن افساد سكة المسلمين ونقودهم وانما يطلب احالة الفضة للذهب والرصاص والنحاس والقزدير الى الفضة بذلك النحو من العلاج وبالاكسير الحاصل عنده فلنا مع هؤلاء متكلم وبحث في مداركهم لذلك مع انا لا نعلم أن أحدا من أهل العلم تم له هذا الغرض أو حصل منه على بغية انما تذهب أعمارهم في التدبير والفهر والصلاية والتصعيد والتكليس واعتيام الاخطار بجمع العقاقير والبحث عنها ويتناقلون في ذلك حكايات وقعت لغيرهم ممن تم له الغرض منها أو وقف على الوصول يقنعون باستماعها والمفاوضة فيها ولا يستريبون في تصديقها شأن الكلفين المغرمين بوساوس الاخبار فيما يكلفون به فاذا سئلوا عن تحقيق ذلك بالمعاينة أنكروه وقالوا انما سمعنا ولم نره هكذا شأنهم في كل عصر وجيل واعلم أن انتحال هذه الصنعة قديم في العالم وقد تكلم الناس فيها من المتقدمين والمتأخرين فلننقل مذاهبهم في ذلك ثم نتلوه بما يظهر فيها من التحقيق الذي عليه الامر في نفسه فنقول ان مبنى الكلام في هذه الصناعة عند الحكماء على حال المعادن السبعة

المنطرقة وهي الذهب والفضة والرصاص والقزدير والنحاس والحديد والخارصين هل هي مختلفات بالفصول وكلها أنواع قائمة بأنفسها أو أنها مختلفة بخواص من الكيفيات وهي كلها أصناف لنوع واحد فالذي ذهب اليه أبو نصر الفارابي وتابعه عليه حكماء الأندلس أنها نوع واحد وأن اختلافها انما هو بالكيفيات من الرطوبة واليبوسة واللين والصلابة والالوان من الصفرة والبياض والسواد وهي كلها أصناف لذلك النوع الواحد والذي ذهب اليه ابن سينا وتابعه عليه حكماء المشرق انها مختلفة بالفصول وأنها أنواع متباينة كل واحد منها قائم بنفسه متحقق بحقيقته له فصل وجنس شأن سائر الانواع وبنى أبو نصر الفارابي على مذهبه في اتفاقها بالنوع امكان انقلاب بعضها الى بعض لامكان تبدل الاعراض حينئذ وعلاجها بالصنعة فمن هذا الوجه كانت صناعة الكيمياء عنده ممكنة سهلة المأخذ وبنى أبو على ابن سينا على مذهبه في اختلافها بالنوع انكاره هذه الصنعة واستحالة وجودها بناء على ان الفصل لا سبيل بالصناعة اليه وانما يخلقه خالق الاشياء ومقدرها وهو الله عز وجل والفصول مجهولة الحقائق رأسا بالتصور فكيف يحاول انقلابها بالصنعة وغلطه الطغرائي من أكابر أهل هذه الصناعة في هذا القول ورد عليه بأن التدبير والعلاج ليس في تخليق الفصل وابداعه وانما هو في اعداد المادة لقبوله خاصة والفصل يأتي من بعد الاعداد من لدن خالقه وبارئه كما يفيض النور على الاجسام بالصقل والامهاء ولا حاجة بنا في ذلك الى تصوره ومعرفته قال واذا كنا قد عثرنا على تخليق بعض الحيوانات مع الجهل بفصولها مثل العقرب من التراب والنتن ومثل الحيات المتكونة من الشعر ومثل ما ذكره أصحاب الفلاحة من تكوين النحل اذا فقدت من عجاجيل البقر وتكوين القصب من قرون ذوات الظلف وتصييره سكرا بحشو القرون بالعسل بين يدي ذلك الفلح للقرون فما المانع اذا من العثور على مثل ذلك في الذهب والفضة فتتخذ مادة تضيفها للتدبير بعد أن يكون فيها استعداد أول لقبول صورة الذهب والفضة ثم تحاولها بالعلاج الى أن يتم فيها الاستعداد لقبول فصلها انتهى كلام الطغرائي بمعناه وهذا الذي ذكره في الرد على ابن سينا صحيح لكن لنا في الرد على أهل هذه الصناعة مأخذا آخر يتبين منه استحالة وجودها وبطلان مزعمهم أجمعين لا الطغرائي ولا ابن سينا وذلك أن حاصل علاجهم انهم بعد الوقوف على المادة المستعدة بالاستعداد الاول يجعلونها موضوعا ويحاذون في تدبيرها وعلاجها تدبير الطبيعة في الجسم المعدني حتى احالته ذهبا أو فضة ويضاعفون القوى الفاعلة والمنفعلة ليتم في زمان أقصر لانه تبين في موضعه أن مضاعفة قوة الفاعل تنقص من زمن فعله وتبين أن

الذهب انما يتم كونه في معدنه بعد ألف وثمانين من السنين دورة الشمس الكبرى فاذا تضاعفت القوى والكيفيات في العلاج كان زمن كونه أقصر من ذلك ضرورة على ما قلناه أو يتحرون بعلاجهم ذلك حصول صورة مزاجية لتلك المادة تصيرها كالخميرة فتفعل في الجسم المعالج الافاعيل المطلوبة في احالته وذلك هو الاكسير على ما تقدم * واعلم أن كل متكون من المولدات العنصرية فلا بد فيه من اجتماع العناصر الاربعة على نسبة متفاوتة اذ لو كانت متكافئة في النسبة لما تم امتزاجها فلا بد من الجزء الغالب على الكل ولا بد في كل ممتزج من المولدات من حرارة غريزية هي الفاعلة لكونه الحافظة لصورته ثم كل متكون في زمان فلا بد من اختلاف أطواره وانتقاله في زمن التكوين من طور الى طور حتى ينتهي الى غايته وانظر شأن الانسان في طور النطفة ثم العلقة ثم المضغة ثم التصوير ثم الجنين ثم المولود ثم الرضيع ثم ثم الى نهايته ونسب الاجزاء في كل طور تختلف في مقاديرها وكيفياتها والا لكان الطور بعينه الاول هو الآخر وكذا الحرارة الغريزية في كل طور مخالفة لها في الطور الآخر فانظر الى الذهب ما يكون له في معدنه من الاطوار منذ ألف سنة وثمانين وما ينتقل فيه من الاحوال فيحتاج صاحب الكيميا الى أن يساوق فعل الطبيعة في المعدن ويحاذيه بتدبيره وعلاجه الى أن يتم ومن شرط الصناعة أبدا تصور ما يقصد اليه بالصنعة فمن الامثال السائرة للحكماء أول العمل آخر الفكرة وآخر الفكرة أول العمل فلا بد من تصور هذه الحالات للذهب في أحواله المتعددة ونسبها المتفاوتة في كل طور واختلاف الحار الغريزي عند اختلافها ومقدار الزمان في كل طور وما ينوب عنه من مقدار القوى المضاعفة ويقوم مقامه حتى يحاذى بذلك كله فعل الطبيعة في المعدن أو تعد لبعض المواد صورة مزاجية تكون كصورة الخميرة للخبز وتفعل في هذه المادة بالمناسبة لقواها ومقاديرها وهذه كلها انما يحصرها العلم المحيط والعلوم البشرية قاصرة عن ذلك وانما حال من يدعي حصوله على الذهب بهذه الصنعة بمثابة من يدعي بالصنعة تخليق انسان من المني ونحن اذا سلمنا له الاحاطة بأجزائه ونسبته وأطواره وكيفية تخليقه في رحمه وعلم ذلك علما محصلا بتفاصيله حتى لا يشذ منه شيء عن علمه سلمنا له تخليق هذا الانسان وأنى له ذلك * ولنقرب هذا البرهان بالاختصار ليسهل فهمه فنقول حاصل صناعة الكيميا وما يدعونه بهذا التدبير أنه مساوقة الطبيعة المعدنية بالفعل الصناعي ومحاذاتها به الى أن يتم كون الجسم المعدني أو تخليق مادة بقوى وأفعال وصورة مزاجية تفعل في الجسم فعلا طبيعيا فتصيره وتقلبه الى صورتها والفعل الصناعي مسبوق بتصورات أحوال الطبيعة المعدنية التي يقصد مساوقتها أو محاذاتها أو فعل

المادة ذات القوى فيها تصورا مفصلا واحدة بعد أخرى وتلك الاحوال لا نهاية لها والعلم البشري عاجز عن الاحاطة بما دونها وهو بمثابة من يقصد تخليق انسان أو حيوان أو نبات هذا محصل هذا البرهان وهو أوثق ما علمته وليست الاستحالة فيه من جهة الفصول كما رأيته ولا من الطبيعة انما هو من تعذر الاحاطة وقصور البشر عنها وما ذكره ابن سينا بمعزل عن ذلك وله وجه آخر في الاستحالة من جهة غايته وذلك أن حكمة الله في الحجرين وندورهما انهما قيم لمكاسب الناس ومتمولاتهم فلو حصل عليهما بالصنعة لبطلت حكمة الله في ذلك وكثر وجودهما حتى لا يحصل أحد من اقتنائهما على شيء وله وجه آخر من الاستحالة أيضا وهو ان الطبيعة لا تترك أقرب الطرق في أفعالها وترتكب الاعوص والابعد فلو كان هذا الطريق الصناعي الذي يزعمون أنه صحيح وأنه أقرب من طريق الطبيعة في معدنها وأقل زمانا لما تركته الطبيعة الى طريقها الذي سلكته في كون الفضة والذهب وتخلقهما وأما تشبيه الطغرائي هذا التدبير بما عثر عليه من مفردات لامثاله في الطبيعة كالعقرب والنحل والحية وتخليقها فأمر صحيح في هذه أدى اليه العثور كما زعم وأما الكيميا فلم ينقل عن أحد من أهل العلم أنه عثر عليها ولا على طريقها وما زال منتحلوها يخبطون فيها خبط عشواء الى هلم جرا ولا يظفرون الا بالحكايات الكاذبة ولو صح ذلك لاحد منهم لحفظه عنه أولاده أو تلميذه وأصحابه وتنوقل في الاصدقاء وضمن تصديقه صحة العمل بعده الى أن ينتشر ويبلغ الينا أو الى غيرنا وأما قولهم ان الاكسير بمثابة الخميرة وانه مركب يحيل ما يحصل فيه ويقلبه الى ذلك فاعلم أن الخميرة انما تقلب العجين وتعده للهضم وهو فساد والفساد في المواد سهل يقع بأيسر شيء من الافعال والطبائع والمطلوب بالاكسير قلب المعدن الى ما هو أشرف منه وأعلى فهو تكوين وصلاح والتكوين أصعب من الفساد فلا يقاس الاكسير بالخميرة وتحقيق الامر في ذلك أن الكيميا ان صح وجودها كما تزعم الحكماء المتكلمون فيها مثل جابر بن حيان ومسلمة بن أحمد المجريطي وأمثالهم فليست من باب الصنائع الطبيعية ولا تتم بأمر صناعي وليس كلامهم فيها من منحى الطبيعيات انما هو من منحى كلامهم في الامور السحرية وسائر الخوارق وما كان من ذلك للحلاج وغيره وقد ذكر مسلمة في كتاب الغاية ما يشبه ذلك وكلامه فيها في كتاب رتبة الحكيم من هذا المنحى وهذا كلام جابر في رسائله ونحو كلامهم فيه معروف ولا حاجة بنا الى شرحه وبالجملة فأمرها عندهم من كليات المواد الخارجة عن حكم الصنائع فكما لا يتدبر ما منه الخشب والحيوان في يوم أو شهر خشبا أو حيوانا فيما عدا مجرى تخليقه كذلك لا يتدبر ذهب من مادة الذهب في يوم ولا شهر ولا يتغير طريق عادته الا بارفاد مما

وراء عالم الطبائع وعمل الصنائع فكذلك من طلب الكيمياء طلبا صناعيا ضيع ماله وعمله ويقال لهذا التدبير الصناعي التدبير العقيم لان نيلها ان كان صحيحا فهو واقع مما وراء الطبائع والصنائع فهو كالمشي على الماء وامتطاء الهواء والنفوذ في كثائف الاجساد ونحو ذلك من كرامات الاولياء الخارقة للعادة أو مثل تخليق الطير ونحوها من معجزات الانبياء قال تعالى واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني فتنفخ فيها فتكون طيرا باذني وعلى ذلك فسبيل تيسيرها مختلف بحسب حال من يؤتاها فربما أوتيها الصالح ويؤتيها غيره فتكون عنده معارة وربما أوتيها الصالح ولا يملك ايتاءها فلا تتم في يد غيره ومن هذا الباب يكون عملها سحريا فقد تبين أنها انما تقع بتأثيرات النفوس وخوارق العادة اما معجزة أو كرامة أو سحرا ولهذا كان كلام الحكماء كلهم فيها الغازا لا يظفر بحقيقته الا من خاض لجة من علم السحر واطلع على تصرفات النفس في عالم الطبيعة وأمور خرق العادة غير منحصرة ولا يقصد أحد الى تحصيلها والله بما يعملون محيط وأكثر ما يحمل على التماس هذه الصناعة وانتحالها هو كما قلناه العجز عن الطرق الطبيعية للمعاش وابتغاؤه من غير وجوهه الطبيعية كالفلاحة والتجارة والصناعة فيستصعب العاجز ابتغاءه من هذه ويروم الحصول على الكثير من المال دفعة بوجوه غير طبيعية من الكيميا وغيرها وأكثر من يعنى بذلك الفقراء من أهل العمران حتى في الحكماء المتكلمين في انكارها واستحالتها فان ابن سينا القائل باستحالتها كان علية الوزراء فكان من أهل الغنى والثروة والفارابي القائل بامكانها كان من أهل الفقر الذين يعوزهم أدنى بلغة من المعاش وأسبابه وهذه تهمة ظاهرة في انظار النفوس المولعة بطرقها وانتحالها والله الرزاق ذو القوة المتين لا رب سواه

٢٨ (فصل في ان كثرة التآليف في العلوم عائقة عن التحصيل)

(اعلم) أنه مما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التآليف واختلاف الاصطلاحات في التعليم وتعدد طرقها ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك وحينئذ يسلم له منصب التحصيل فيحتاج المتعلم الى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها ولا يفي عمره بما كتب في صناعة واحدة اذا تجرد لها فيقع القصور ولا بد دون رتبة التحصيل ويمثل ذلك من شأن الفقه في المذهب المالكي بكتاب المدونة مثلا وما كتب عليها من الشروحات الفقهية مثل كتاب ابن يونس واللخمي وابن بشير والتنبيهات والمقدمات والبيان والتحصيل على العتبية وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كتب عليه ثم انه يحتاج الى تمييز الطريقة القيروانية من القرطبية

والبغدادية والمصرية وطرق المتأخرين عنهم والاحاطة بذلك كله وحينئذ يسلم له منصب الفتيا وهي كلها متكررة والمعنى واحد والمتعلم مطالب باستحضار جميعها وتمييز ما بينها والعمر ينقضي في واحد منها ولو اقتصر المعلمون بالمتعلمين على المسائل المذهبية فقط لكان الامر دون ذلك بكثير وكان التعليم سهلا ومأخذه قريبا ولكنه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه فصارت كالطبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تحويلها ويمثل أيضا علم العربية من كتاب سيبويه وجميع ما كتب عليه وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والاندلسيين من بعدهم وطرق المتقدمين والمتأخرين مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب في ذلك وكيف يطالب به المتعلم وينقضي عمره دونه ولا يطمع أحد في الغاية منه الا في القليل النادر مثل ما وصل الينا بالمغرب لهذا العهد من تآليف رجل من أهل صناعة العربية من أهل مصر يعرف بابن هشام ظهر من كلامه فيها انه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة لم تحصل الا لسيبويه وابن جني وأهل طبقتهما لعظم ملكته وما أحاط به من أصول ذلك الفن وتفاريعه وحسن تصرفه فيه ودل ذلك على أن الفضل ليس منحصرا في المتقدمين سيما مع ما قدمناه من كثرة الشواغب بتعدد المذاهب والطرق والتآليف ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء وهذا نادر من نوادر الوجود والا فالظاهر أن المتعلم ولو قطع عمره في هذا كله فلا يفي له بتحصيل علم العربية مثلا الذي هو آلة من الآلات ووسيلة فكيف يكون في المقصود الذي هو الثمرة ولكن الله يهدي من يشاء

٢٩ (فصل في ان كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم)

ذهب كثير من المتأخرين الى اختصار الطرق والانحاء في العلوم يولعون بها ويدونون منها برنامجا مختصرا في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار في الالفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن وصار ذلك مخلا بالبلاغة وعسرا على الفهم وربما عمدوا الى الكتب الامهات المطولة في الفنون للتفسير والبيان فاختصروها تقريبا للحفظ كما فعله ابن الحاجب في الفقه وأصول الفقه وابن مالك في العربية والخونجي في المنطق وأمثالهم وهو فساد في التعليم وفيه اخلال بالتحصيل وذلك لان فيه تخليطا على المبتدي بالقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد وهو من سوء التعليم كما سيأتي ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم بتتبع الفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعاني عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها لان ألفاظ المختصرات تجدها لاجل ذلك صعبة عويصة فينقطع في فهمها حظ صالح

عن الوقت ثم بعد ذلك فالملكة الحاصلة من التعليم في تلك المختصرات اذا تم على سداده ولم تعقبه آفة فهي ملكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة بكثرة ما يقع في تلك من التكرار والاحالة المفيدين لحصول الملكة التامة واذا اقتصر على التكرار قصرت الملكة لقلته كشأن هذه الموضوعات المختصرة فقصدوا الى تسهيل الحفظ على المتعلمين فاركبوهم صعبا يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكنها ومن يهدي الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له والله سبحانه وتعالى أعلم

٣٠ (فصل في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق افادته)

(اعلم) أن تلقين العلوم للمتعلمين انما يكون مفيدا اذا كان على التدريج شيأ فشيأ وقليلا قليلا يلقى عليه أولا مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب ويقرب له في شرحها على سبيل الاجمال ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي الى آخر الفن وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم الا أنها جزئية وضعيفة وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله ثم يرجع به الى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة الى أعلى منها ويستوفي الشرح والبيان ويخرج عن الاجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه الى أن ينتهي الى آخر الفن فتجود ملكته ثم يرجع به وقد شدا فلا يترك عويصا ولا مهما ولا منغلقا الا وضحه وفتح له مقفله فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته هذا وجه التعليم المفيد وهو كما رأيت انما يحصل في ثلاث تكرارات وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم وافادته ويحضرون المتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم ويطالبونه باحضار ذهنه في حلها ويحسبون ذلك مرانا على التعليم وصوابا فيه ويكلفونه رعي ذلك وتحصيله ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مباديها وقبل أن يستعد لفهمها فان قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجا ويكون المتعلم أول الامر عاجزا عن الفهم بالجملة الا في الاقل وعلى سبيل التقريب والاجمال وبالامثال الحسية ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا قليلا بمخالفة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب الى الاستيعاب الذي فوقه حتى تتم الملكة في الاستعداد ثم في التحصيل ويحيط هو بمسائل الفن واذا ألقيت عليه الغايات في البدايات وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعي وبعيد عن الاستعداد له كل ذهنه عنها وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى في هجرانه وانما

أتى ذلك من سوء التعليم ولا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذي أكب على التعليم منه بحسب طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئا كان أو منتهيا ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله الى آخره ويحصل اغراضه ويستولى منه على ملكة بها ينفذ في غيره لان المتعلم اذا حصل ملكة ما في علم من العلوم استعد بها لقبول ما بقي وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض الى ما فوق حتى يستولى على غايات العلم واذا خلط عليه الامر عجز عن الفهم وأدركه الكلال وانطمس فكره ويئس من التحصيل وهجر العلم والتعليم والله يهدي من يشاء وكذلك ينبغي لك أن لا تطوّل على المتعلم في الفن الواحد بتفريق المجالس وتقطيع ما بينها لانه ذريعة الى النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض فيعسر حصول الملكة بتفريقها واذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرة عند الفكرة مجانبة للنسيان كانت الملكة أيسر حصولا وأحكم ارتباطا وأقرب صبغة لان الملكات انما تحصل بتتابع الفعل وتكراره واذا تنوسي الفعل تنوسيت الملكة الناشئة عنه والله علمكم ما لم تكونوا تعلمون ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعليم أن لا يخلط على المتعلم علمان معا فانه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما الى تفهم الآخر فيستغلقان معا ويستصعبان ويعود منهما بالخيبة واذا تفرّغ الفكر لتعليم ما هو بسبيله مقتصرا عليه فربما كان ذلك أجدر بتحصيله والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب

(فصل) واعلم أيها المتعلم أني أتحفك بفائدة في تعلمك فان تلقيتها بالقبول وأمسكتها بيد الصناعة ظفرت بكنز عظيم وذخيرة شريفة وأقدم لك مقدمة تعينك في فهمها وذلك ان الفكر الانساني طبيعة مخصوصة فطرها الله كما فطر سائر مبتدعاته وهو وجدان حركة للنفس في البطن الاوسط من الدماغ تارة يكون مبدأ للافعال الانسانية على نظام وترتيب وتارة يكون مبدأ العلم ما لم يكن حاصلا بأن يتوجه الى المطلوب وقد تصوّر طرفيه ويروم نفيه أو اثباته فيلوح له الوسط الذي يجمع بينهما أسرع من لمح البصر ان كان واحدا او ينتقل الى تحصيل آخر ان كان متعددا ويصير الى الظفر بمطلوبه هذا شأن هذه الطبيعة الفكرية التي تميز بها البشر من بين سائر الحيوانات ثم الصناعة المنطقية هي كيفية فعل هذه الطبيعة الفكرية النظرية تصفه لتعلم سداده من خطئه لانها وان كان الصواب لها ذاتيا الا أنه قد يعرض لها الخطأ في الاقل من تصوّر الطرفين على غير صورتهما من اشتباه الهيآت في نظم القضايا وترتيبها للنتاج فتعين المنطق للتخلص من ورطة هذا الفساد

اذا عرض فالمنطق اذا أمر صناعي مساوق للطبيعة الفكرية ومنطبق على صورة فعلها ولكونه أمرا صناعيا استغنى عنه فى الاكثر ولذلك تجد كثيرا من فحول النظار فى الخليقة يحصلون على المطالب فى العلوم دون صناعة المنطق ولاسيما مع صدق النية والتعرض لرحمة الله فان ذلك أعظم معين ويسلكون بالطبيعة الفكرية على سدادها فيفضى بالطبع الى حصول الوسط والعلم بالمطلوب كما فطرها الله عليه ثم من دون هذا الامر الصناعى الذى هو المنطق مقدمة أخرى من التعلم وهى معرفة الالفاظ ودلالتها على المعانى الذهنية تردها من مشافهة الرسوم بالكتاب ومشافهة اللسان بالخطاب فلا بد أيها المتعلم من مجاوزتك هذه الحجب كلها الى الفكر فى مطلوبك فأولا دلالة الكتابة المرسومة على الالفاظ المقولة وهى أخفها ثم دلالة الالفاظ المقولة على المعانى المطلوبة ثم القوانين فى ترتيب المعانى للاستدلال فى قوالبها المعروفة فى صناعة المنطق ثم تلك المعانى مجردة فى الفكر اشتراطا يقتنص بها المطلوب بالطبيعة الفكرية بالتعرض لرحمة الله ومواهبه وليس كل أحد يتجاوز هذه المراتب بسرعة ولا يقطع هذه الحجب فى التعليم بسهولة بل ربما وقف الذهن فى حجب الالفاظ بالمناقشات أو عثر فى اشتراك الادلة بشغب الجدال والشبهات وقعد عن تحصيل المطلوب ولم يكد يتخلص من تلك الغمرة الا قليلا ممن هداه الله فاذا ابتليت بمثل ذلك وعرض لك ارتباك فى فهمك أو تشغيب بالشبهات فى ذهنك فاطرح ذلك وانتبذ حجب الالفاظ وعوائق الشبهات واترك الامر الصناعى جملة واخلص الى فضاء الفكر الطبيعى الذى فطرت عليه وسرح نظرك فيه وفرغ ذهنك فيه للغوص على مرامك منه واضعا لها حيث وضعها أكابر النظار قبلك مستعرضا للفتح من الله كما فتح عليهم من ذهنهم من رحمته وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون فاذا فعلت ذلك أشرقت عليك أنوار الفتح من الله بالظفر بمطلوبك وحصل الامام الوسط الذى جعله الله من مقتضيات هذا الفكر وفطره عليه كما قلناه وحينئذ فارجع به الى قوالب الادلة وصورها فأفرغه فيها ووفه حقه من القانون الصناعى ثم اكسه صور الالفاظ وأبرزه الى عالم الخطاب والمشافهة وثيق العرى صحيح البنيان * وأما ان وقفت عند المناقشة والشبهة فى الادلة الصناعية وتمحيص صوابها من خطئها وهذه أمور صناعية وضعية تستوى جهاتها المتعددة وتتشابه لاجل الوضع والاصطلاح فلا تتميز جهة الحق منها اذ جهة الحق انما تستبين اذا كانت بالطبع فيستمر ما حصل من الشك والارتياب وتسدل الحجب على المطلوب وتقعد بالناظر عن تحصيله وهذا شأن الاكثرين من النظار والمتأخرين سيما من سبقت له عجمة فى لسانه فربطت عن ذهنه ومن حصل له شغب بالقانون المنطقى تعصب

له فاعتقد أنه الذريعة الى ادراك الحق بالطبع فيقع فى الحيرة بين شبه الادلة وشكوكها ولا يكاد يخلص منها والذريعة الى درك الحق بالطبع انما هو الفكر الطبيعى كما قلناه اذا جرد عن جميع الاوهام وتعرض الناظر فيه الى رحمة الله تعالى وأما المنطق فانما هو واصف لفعل هذا الفكر فيساوقه لذلك فى الاكثر فاعتبر ذلك واستمطر رحمة الله تعالى متى أعوزك فهم المسائل تشرق عليك أنواره بالالهام الى الصواب والله الهادى الى رحمته وما العلم الا من عند الله

٣١ ﴿فصل فى أن العلوم الآلية لا توسع فيها الانظار ولا تفرع المسائل﴾

(اعلم) أن العلوم المتعارفة بين أهل العمران على صنفين علوم مقصودة بالذات كالشرعيات من التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام وكالطبيعيات والالهيات من الفلسفة وعلوم هى آلية وسيلة لهذه العلوم كالعربية والحساب وغيرهما للشرعيات وكالمنطق للفلسفة وربما كان آلة لعلم الكلام ولاصول الفقه على طريقة المتأخرين فأما العلوم التى هى مقاصد فلا حرج فى توسعة الكلام فيها وتفريع المسائل واستكشاف الادلة والانظار فان ذلك يزيد طالبها تمكنا فى ملكته وايضاحا لمعانيها المقصودة وأما العلوم التى هى آلة لغيرها مثل العربية والمنطق وأمثالها فلا ينبغى أن ينظر فيها الا من حيث هى آلة لذلك الغير فقط ولا يوسع فيها الكلام ولا تفرع المسائل لان ذلك مخرج لها عن المقصود اذ المقصود منها ما هى آلة له لا غير فكلما خرجت عن ذلك خرجت عن المقصود وصار الاشتغال بها لغوا مع ما فيه من صعوبة الحصول على ملكتها بطولها وكثرة فروعها وربما يكون ذلك عائقا عن تحصيل العلوم المقصودة بالذات لطول وسائلها مع أن شأنها أهم والعمر يقصر عن تحصيل الجميع على هذه الصورة فيكون الاشتغال بهذه العلوم الآلية تضييعا للعمر وشغلا بما لا يعنى وهذا كما فعل المتأخرون فى صناعة النحو وصناعة المنطق وأصول الفقه لانهم أوسعوا دائرة الكلام فيها وأكثروا من التفاريع والاستدلالات بما أخرجها عن كونها آلة وصيرها من المقاصد وربما يقع فيها انظار لا حاجة بها فى العلوم المقصودة فهى من نوع اللغو وهى أيضا مضرة بالمتعلمين على الاطلاق لان المتعلمين اهتمامهم بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم بوسائلها فاذا قطعوا العمر فى تحصيل الوسائل فمتى يظفرون بالمقاصد فلهذا يجب على المعلمين لهذه العلوم الآلية أن لا يستبحروا فى شأنها وينبهوا المتعلم على الغرض منها ويقفوا به عنده فمن نزعت به همته بعد ذلك الى شىء من التوغل فليرق له ما شاء من المراقى صعبا أو سهلا وكل ميسر لما خلق له

(اعلم) أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعار الدين أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسبق فيه الى القلوب من رسوخ الايمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الاحاديث وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعد من الملكات وسبب ذلك أن تعليم الصغر أشد رسوخا وهو أصل لما بعده لان السابق الاول للقلوب كالاساس للملكات وعلى حسب الاساس وأساليبه يكون حال ما ينبني عليه واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للولدان باختلافهم باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه لا يخلطون ذلك بسواه في شئ من مجالس تعليمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب الى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة وهذا مذهب أهل الامصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر أمم المغرب في ولدانهم الى أن يجاوزوا حد البلوغ الى الشبيبة وكذا في الكبير اذا راجع مدارسة القرآن بعد طائفة من عمره فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم وأما أهل الاندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو وهذا هو الذي يراعونه في التعليم الا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسه ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلا في التعليم فلا يقتصرون لذلك عليه فقط بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها الى أن يخرج الولد من عمر البلوغ الى الشبيبة وقد شدا بعض الشئ في العربية والشعر والبصر بهما وبرز في الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة لو كان فيها سند لتعليم العلوم لكنهم ينقطعون عند ذلك لانقطاع سند التعليم في آفاقهم ولا يحصل بأيديهم الا ما حصل من ذلك التعليم الاول وفيه كفاية لمن أرشده الله تعالى واستعداد اذا وجد المعلم وأما أهل افريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القران بالحديث في الغالب ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها الا أن عنايتهم بالقرآن واستظهار الولدان اياه ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءته أكثر مما سواه وعنايتهم بالخط تبع لذلك وبالجملة فطريقهم في تعليم القرآن أقرب الى طريقة أهل الاندلس لان سند طريقتهم في ذلك متصل بمشيخة الاندلس الذين أجازوا عند تغلب النصارى على

شرق الاندلس واستقرّوا بتونس ومنهم أخذ ولدانهم بعد ذلك وأمّا أهل المشرق فيخلطون فى التعليم كذلك على ما يبلغنا ولا أدرى بم عنايتهم منها والذى ينقل لنا أنّ عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه فى زمن الشبيبة ولا يخلطون بتعليم الخط بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراده كما تتعلم سائر الصنائع ولا يتداولونها فى مكاتب الصبيان واذا كتبوا لهم الالواح فبخط قاصر عن الاجادة ومن أراد تعلم الخط فعلى قدر ما يسنح له بعد ذلك من الهمة فى طلبه ويبتغيه من أهل صنعته فأمّا أهل افريقية والمغرب فأفادهم الاقتصار على القرآن القصور عن ملكة الانسان جملة وذلك أنّ القرآن لا ينشأ عنه فى الغالب ملكة لما أنّ البشر مصروفون عن الاتيان بمثله فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه والاحتذاء بها وليس لهم ملكة فى غير أساليبه فلا يحصل لصاحبه ملكة فى اللسان العربى وحظه الجمود فى العبارات وقلة التصرّف فى الكلام وربما كان أهل افريقية فى ذلك أخف من أهل المغرب لما يخلطون فى تعليمهم القرآن بعبارات العلوم فى قوانينها كما قلناه فيقتدرون على شئ من التصرّف ومحاذاة المثل بالمثل الاأنّ ملكتهم فى ذلك قاصرة عن البلاغة لما أنّ أكثر محفوظهم عبارات العلوم النازلة عن البلاغة كما سيأتى فى فصله وأما أهل الاندلس فأفادهم التفنن فى التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسة العربية من أوّل العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف فى اللسان العربى وقصروا فى سائر العلوم لبعدهم عن مدارسة القرآن والحديث الذى هو أصل العلوم وأساسها فكانوا لذلك أهل خط وأدب بارع أو مقصر على حسب ما يكون التعليم الثانى من بعد تعليم الصبا ولقد ذهب القاضى أبو بكر بن العربى فى كتاب رحلته الى طريقة غريبة فى وجه التعليم وأعاد فى ذلك وأبدأ وقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الاندلس قال لانّ الشعر ديوان العرب ويدعوا الى تقديمه وتعليم العربية فى التعليم ضرورة فساد اللغة ثم ينتقل منه الى الحساب فيتمرّن فيه حتى يرى القوانين ثم ينتقل الى درس القرآن فانه يتيسر عليه بهذه المقدمة ثم قال ويا غفلة أهل بلادنا فى أن يؤخذ الصبى بكتاب الله فى أوّل أمره يقرأ ما لا يفهم وينصب فى أمر غيره أهمّ عليه ثم قال ينظر فى أصول الدين ثم أصول الفقه ثم الجدل ثم الحديث وعلومه ونهى مع ذلك أن يخلط فى التعليم علمان الاأن يكون المتعلم قابلا لذلك بجودة الفهم والنشاط هذا ما أشار اليه القاضى أبو بكر رحمه الله وهو لعمرى مذهب حسن الاأنّ العوائد لا تساعد عليه وهى أملك بالاحوال ووجه ما اختصت به العوائد من تقدّم دراسة القرآن ايثارا للتبرك والثواب وخشية ما يعرض للولد فى جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم

فيقونه القرآن لانه مادام في الحجر منقاد للحكم فاذا تجاوز البلوغ وانحل من ربقة القهر فربما عصفت به رياح الشبيبة فألقته بساحل البطالة فيغتنمون في زمان الحجر وربقة الحكم تحصيل القرآن لئلا يذهب خلوا منه ولو حصل اليقين باستمراره في طلب العلم وقبوله التعليم لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي أولى ما أخذ به أهل المغرب والمشرق ولكن الله يحكم ما يشاء لا معقب لحكمه سبحانه

٣٣ (فصل في ان الشدة على المتعلمين مضرّة بهم)

وذلك أن ارهاف الحد في التعليم مضرّ بالمتعلم سيما في أصاغر الولد لانه من سوء الملكة ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها وذهب بنشاطها ودعاه الى الكسل وحمل على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفا من انبساط الايدي بالقهر عليه وعلمه المكر والخديعة لذلك وصارت له هذه عادة وخلقا وفسدت معاني الانسانية التي له من حيث الاجتماع والتمرّن وهي الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله وصار عيالا على غيره في ذلك بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل فانقبضت عن غايتها ومدى انسانيتها فارتكس وعاد في أسفل السافلين وهكذا وقع لكل أمة حصلت في قبضة القهر ونال منها العسف واعتبره في كل من يملك أمره عليه ولا تكون الملكة الكافلة له رفيقة به وتجد ذلك فيهم استقراء وانظره في اليهود وما حصل بذلك فيهم من خلق السوء حتى انهم يوصفون في كل أفق وعصر بالحرج ومعناه في الاصطلاح المشهور التخابث والكيد وسببه ما قلناه فينبغي للمعلم في متعلمه والوالد في ولده أن لا يستبدّوا عليهم في التأديب وقد قال محمد بن أبي زيد في كتابه الذي ألفه في حكم المعلمين والمتعلمين لا ينبغي لمؤدّب الصبيان أن يزيد في ضربهم اذا احتاجوا اليه على ثلاثة أسواط شيأ ومن كلام عمر رضي الله عنه من لم يؤدّبه الشرع لا أدّبه الله حرصا على صون النفوس عن مذلة التأديب وعلما بأن المقدار الذي عينه الشرع لذلك أملك له فانه أعلم بمصلحته ومن أحسن مذاهب التعليم ما تقدّم به الرشيد لمعلم ولده محمد الامين فقال يا أحمر ان أمير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه وثمرة قلبه فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين أقرئه القرآن وعرّفه الاخبار وروّه الاشعار وعلمه السنن وبصره بمواقع الكلام وبدئه وامنعه من الضحك الا في أوقاته وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم اذا دخلوا عليه ورفع مجالس القوّاد اذا حضروا مجلسه ولا تمرّن بك ساعة الا وأنت مغتنم فائدة تفيده اياها من غير

أن تحزنه فتميت ذهنه ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فان أباهما فعليك بالشدّة والغلظة انتهى

٣٤ (فصل في ان المرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم)

والسبب في ذلك أنّ البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما والقاء وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة الا أنّ حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشدّ استحكاما وأقوى رسوخا فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها والاصطلاحات أيضا في تعليم العلوم مخلطة على المتعلم حتى لقد يظنّ كثير منهم أنها جزء من العلم ولا يدفع عنه ذلك الا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين فلقاء أهل العلوم وتعدّد المشايخ يفيده تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها فيجرّد العلم عنها ويعلم أنها أنحاء تعليم وطرق توصيل وتنهض قواه الى الرسوخ والاستحكام في الملكات ويصحح معارفه ويميزها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهما من المشيخة عند تعدّدهم وتنوّعهم وهذا لمن يسر الله عليه طرق العلم والهداية فالرحلة لا بدّ منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

٣٥ (فصل في ان العلماء من بين البشر ابعد عن السياسة ومذاهبها)

والسبب في ذلك أنهم معتادون النظر الفكري والغوص على المعاني وانتزاعها من المحسوسات وتجريدها في الذهن أمورا كلية عامة ليحكم عليها بأمر العموم لا بخصوص مادّة ولا شخص ولا جيل ولا أمّة ولا صنف من الناس ويطبقون من بعد ذلك الكلي على الخارجيات وأيضا يقيسون الامور على أشباهها وأمثالها بما اعتادوه من القياس الفقهي فلا تزال أحكامهم وأنظارهم كلها في الذهن ولا تصير الى المطابقة الا بعد الفراغ من البحث والنظر ولا تصير بالجملة الى مطابقة وانما يتفرّع ما في الخارج عما في الذهن من ذلك كالاحكام الشرعية فانها فروع عما في المحفوظ من أدلة الكتاب والسنة فتطلب مطابقة ما في الخارج لها عكس الانظار في العلوم العقلية التي تطلب في صحتها مطابقتها لما في الخارج فهم متعوّدون في سائر أنظارهم الامور الذهنية والانظار الفكرية لا يعرفون سواها والسياسة يحتاج صاحبها الى مراعاة ما في الخارج وما يلحقها من الاحوال ويتبعها فانها خفية ولعل أن يكون فيها ما يمنع من الحاقها بشبه أو مثال وينافي الكلي الذي يحاول تطبيقه عليها ولا يقاس شيء من أحوال العمران على

الآخر اذ كما اشتبها فى أمر واحد فلعلهما اختلفا فى أمور فتكون العلماء لاجل ماتعودوه من تعميم الاحكام وقياس الامور بعضها على بعض اذا نظروا فى السياسة أفرغوا ذلك فى قالب انظارهم ونوع استدلالاتهم فيقعون فى الغلط كثيرا ولا يؤمن عليهم ويلحق بهم أهل الذكاء والكيس من أهل العمران لانهم ينزعون بثقوب أذهانهم الى مثل شأن الفقهاء من الغوص على المعانى والقياس والمحاكاة فيقعون فى الغلط والعامى السليم الطبع المتوسط الكيس لقصور فكره عن ذلك وعدم اعتياده اياه يقتصر لكل مادة على حكمها وفى كل صنف من الاحول والاشخاص على ما اختص به ولا يعدى الحكم بقياس ولا تعميم ولا يفارق فى أكثر نظره المواد المحسوسة ولا يجاوزها فى ذهنه كالسابح لا يفارق البر عند الموج قال الشاعر

فلا توغلن اذا ما سبحت * فان السلامة فى الساحل

فيكون مأمونا من النظر فى سياسته مستقيم النظر فى معاملة أبناء جنسه فيحسن معاشه وتندفع آفاته ومضاره باستقامة نظره وفوق كل ذى علم عليم ومن هنا يتبين أن صناعة المنطق غير مأمونة الغلط لكثرة مافيها من الانتزاع وبعدها عن المحسوس فانها تنظر فى المعقولات الثوانى ولعل المواد فيها ما يمانع تلك الاحكام وينافيها عند مراعاة التطبيق اليقينى وأما النظر فى المعقولات الاول وهى التى تجريدها قريب فليس كذلك لانها خيالية وصور المحسوسات حافظة مؤذنة بتصديق انطباقه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٣٦ (فصل فى ان حملة العلم فى الاسلام اكثرهم العجم)

من الغريب الواقع أن حملة العلم فى الملة الاسلامية أكثرهم العجم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية الا فى القليل النادر وان كان منهم العربى فى نسبته فهو عجمى فى لغته ومرباه ومشيخته مع أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربى والسبب فى ذلك أن الملة فى أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة وانما أحكام الشريعة التى هى أوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها فى صدورهم وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ولا دفعوا اليه ولا دعتهم اليه حاجة وجرى الامر على ذلك زمن الصحابة والتابعين وكانوا يسمون المختصين بحمل ذلك ونقله القراء أى الذين يقرؤون الكتاب وليسوا أميين لان الامية يومئذ صفة عامة فى الصحابة بما كانوا عربا فقيل لحملة القرآن يومئذ قراء اشارة الى

هذا فهم قراء الكتاب الله والسنة المأثورة عن الله لانهم لم يعرفوا الاحكام الشرعية الا منه ومن الحديث الذى هو فى غالب موارده تفسير له وشرح قال صلى الله عليه وسلم تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتى فلما بعد النقل من لدن دولة الرشيد فما بعد احتيج الى وضع التفاسير القرآنية وتقييد الحديث مخافة ضياعه ثم احتيج الى معرفة الاسانيد وتعديل الناقلين للتمييز بين الصحيح من الاسانيد وما دونه ثم كثر استخراج أحكام الواقعات من الكتاب والسنة وفسد مع ذلك اللسان فاحتيج الى وضع القوانين النحوية وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات فى الاستنباطات والاستخراج والتنظير والقياس واحتاجت الى علوم أخرى وهى وسائل لها من معرفة قوانين العربية وقوانين ذلك الاستنباط والقياس والذب عن العقائد الايمانية بالادلة لكثرة البدع والالحاد فصارت هذه العلوم كلها علوما ذات ملكات محتاجة الى التعليم فاندرجت فى جملة الصنائع وقد كنا قدمنا أن الصنائع من منتحل الحضر وأن العرب أبعد الناس عنها فصارت العلوم لذلك حضرية وبعد عنها العرب وعن سوقها والحضر لذلك العهد هم العجم أو من فى معناهم من الموالى وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم فى الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف لانهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسى من بعده والزجاج من بعدهما وكلهم عجم فى أنسابهم وانما ربوا فى اللسان العربى فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب وصيروه قوانين وفنا لمن بعدهم وكذا حملة الحديث الذين حفظوه عن أهل الاسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربى وكان علماء أصول الفقه كلهم عجما كما يعرف وكذا حملة علم الكلام وكذا أكثر المفسرين ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه الا الاعاجم وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم لو تعلق العلم بأكناف السماء لناله قوم من أهل فارس وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا اليها عن البداوة فشغلتهم الرياسة فى الدولة العباسية وما دفعوا اليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم والنظر فيه فانهم كانوا أهل الدولة وحاميتها وأولى سياستها مع ما يلحقهم من الانفة عن انتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع والرؤساء أبدا يستنكفون عن الصنائع والمهن وما يجر اليها ودفعوا ذلك الى من قام به من العجم والمولدين وما زالوا يرون لهم حق القيام به فانه دينهم وعلومهم ولا يحتقرون حملتها كل الاحتقار حتى اذا خرج الامر من العرب جملة وصار للعجم صارت العلوم الشرعية غريبة النسبة عند أهل الملك بما هم عليه من البعد عن نسبتها وامتهن حملتها بما يرون أنهم بعداء عنهم مشتغلين بما لا يغنى ولا يجدى عنهم فى الملك والسياسة كما

ذكرناه في نقل المراتب الدينية فهذا الذي قررناه هو السبب في أن حملة الشريعة أو عامتهم من العجم وأما العلوم العقلية أيضا فلم تظهر في الملة الا بعد أن تميز حملة العلم ومؤلفوه واستقر العلم كله صناعة فاختصت بالعجم وتركتها العرب وانصرفوا عن انتحالها فلم يحملها الا المعربون من العجم شأن الصنائع كما قلناه أولا فلم يزل ذلك في الامصار ما دامت الحضارة في العجم وبلادهم من العراق وخراسان وما وراء النهر فلما خربت تلك الامصار وذهبت منها الحضارة التي هي سر الله في حصول العلم والصنائع ذهب العلم من العجم جملة لما شملهم من البداوة واختص العلم بالامصار الموفورة الحضارة ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر فهي أم العالم وايوان الاسلام وينبوع العلم والصنائع وبقي بعض الحضارة فيما وراء النهر لما هنالك من الحضارة بالدولة التي فيها فلهم بذلك حصة من العلوم والصنائع لا تنكر وقد دلنا على ذلك كلام بعض علمائهم في تآليف وصلت الينا الى هذه البلاد وهو سعد الدين التفتازاني وأما غيره من العجم فلم نر لهم من بعد الامام ابن الخطيب ونصير الدين الطوسي كلاما يعول على نهايته في الاصابة فاعتبر ذلك وتأمله تر عجبا في أحوال الخليقة والله يخلق ما يشاء لا اله الا هو وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير وحسبنا الله ونعم الوكيل والحمد لله

٣٧ (فصل في علوم اللسان العربي)

أركانه أربعة وهي اللغة والنحو والبيان والادب ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة اذ مأخذ الاحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهي بلغة العرب ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب وشرح مشكلاتهما من لغاتهم فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة وتتفاوت في التأكيد بتفاوت مراتبها في التوفية بمقصود الكلام حسبما يتبين في الكلام عليها فنا فنا والذي يتحصل أن الاهم المقدم منها هو النحو اذ به يتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدا من الخبر ولولاه لجهل أصل الافادة وكان من حق علم اللغة التقدم لولا أن أكثر الاوضاع باقية في موضوعاتها لم تتغير بخلاف الاعراب الدال على الاسناد والمسند والمسند اليه فانه تغير بالجملة ولم يبق له أثر فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة اذ في جهله الاخلال بالتفاهم جملة وليست كذلك اللغة والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

(علم النحو)

اعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده وتلك العبارة فعل لساني فلا

بد أن تصير ملكة متقررة فى العضو الفاعل لها وهو اللسان وهو فى كل أمة بحسب
اصطلاحاتهم وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها ابانة
عن المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعانى مثل الحركات التى تعين
الفاعل من المفعول من المجرور أعنى المضاف ومثل الحروف التى تفضى بالافعال الى
الذوات من غير تكلف ألفاظ أخرى وليس يوجد ذلك الا فى لغة العرب وأما غيرها من
اللغات فكل معنى أو حال لا بد له من ألفاظ تخصه بالدلالة ولذلك نجد كلام العجم فى
مخاطباتهم أطول مما نقدره بكلام العرب وهذا هو معنى قوله صلى الله عليه وسلم
أوتيت جوامع الكلم واختصر لى الكلام اختصارا فصار للحروف فى لغتهم والحركات
والهيآت أى الاوضاع اعتبار فى الدلالة على المقصود غير متكلفين فيه لصناعة
يستفيدون ذلك منها انما هى ملكة فى ألسنتهم يأخذها الآخر عن الاول كما تأخذ
صبياننا لهذا العهد لغاتنا فلما جاء الاسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذى كان فى
أيدى الامم والدول وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة بما ألقى اليها السمع من المخالفات
التى للمتعربين والسمع أبو الملكات اللسانية ففسدت بما ألقى اليها مما يغايرها
لجنوحها اليه باعتياد السمع وخشى أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأسا
ويطول العهد بها فينغلق القرآن والحديث على المفهوم فاستنبطوا من مجارى كلامهم
قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام
ويلحقون الاشباه بالاشباه مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمبتدا
مرفوع ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات فاصطلحوا على تسميته اعرابا
وتسمية الموجب لذلك التغير عاملا وأمثال ذلك وصارت كلها اصطلاحات خاصة
بهم فقيدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو
وأول من كتب فيها أبو الاسود الدؤلى من بنى كنانة ويقال باشارة على رضى الله عنه
لانه رأى تغير الملكة فأشار عليه بحفظها ففزع الى ضبطها بالقوانين الحاضرة المستقرأة
ثم كتب فيها الناس من بعده الى أن انتهت الى الخليل بن أحمد الفراهيدى أيام
الرشيد أحوج ما كان الناس اليها لذهاب تلك الملكة من العرب فهذب الصناعة وكمل
أبوابها وأخذها عنه سيبويه فكمل تفاريعها واستكثر من أدلتها وشواهدها ووضع
فيها كتابه المشهور الذى صار اماما لكل ما كتب فيها من بعده ثم وضع أبو على الفارسى
وأبو القاسم الزجاج كتبا مختصرة للمتعلمين يحذون فيها حذو الامام فى كتابه ثم طال
الكلام فى هذه الصناعة وحدث الخلاف بين أهلها فى الكوفة والبصرة المصرين
القديمين للعرب وكثرت الادلة والحجاج بينهم وتباينت الطرق فى التعليم وكثر الاختلاف

فى اعراب كثير من آى القرآن باختلافهم فى تلك القواعد وطال ذلك على المتعلمين وجاء المتأخرون بمذاهبهم فى الاختصار فاختصروا كثيرا من ذلك الطول مع استيعابهم لجميع ما نقل كما فعله ابن مالك فى كتاب التسهيل وأمثاله أو اقتصارهم على المبادى للمتعلمين كما فعله الزمخشرى فى المفصل وابن الحاجب فى المقدمة له وربما نظموا ذلك نظما مثل ابن مالك فى الارجوزتين الكبرى والصغرى وابن معطى فى الارجوزة الالفية وبالجملة فالتآليف فى هذا الفن أكثر من أن تحصى أو يحاط بها وطرق التعليم فيها مختلفة فطريقة المتقدمين مغايرة لطريقة المتأخرين والكوفيون والبصريون والبغداديون والاندلسيون مختلفة طرقهم كذلك وقد كادت هذه الصناعة أن تؤذن بالذهاب لما رأينا من النقص فى سائر العلوم والصنائع بتناقص العمران ووصل الينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب الى جمال الدين ابن هشام من علمائها استوفى فيه أحكام الاعراب مجملة ومفصلة وتكلم على الحروف والمفردات والجمل وحذف ما فى الصناعة من المتكرر فى أكثر أبوابها وسماه بالمغنى فى الاعراب وأشار الى نكت اعراب القرآن كلها وضبطها بأبواب وفصول وقواعد انتظمت سائرها فوقفنا منه على علم جم يشهد بعلو قدره فى هذه الصناعة ووفور بضاعته منها وكأنه ينحو فى طريقته منحاة أهل الموصل الذين اقتفوا أثر ابن جنى واتبعوا مصطلح تعليمه فأتى من ذلك بشئ عجيب دال على قوة ملكته واطلاعه والله يزيد فى الخلق ما يشاء

(علم اللغة)

هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية وذلك أنه لما فسدت ملكة اللسان العربى فى الحركات المسماة عند أهل النحو بالاعراب واستنبطت القوانين لحفظها كما قلناه ثم استمر ذلك الفساد بملابسة العجم ومخالطتهم حتى تأدى الفساد الى موضوعات الالفاظ فاستعمل كثير من كلام العرب فى غير موضوعه عندهم ميلا مع هجنة المتعربين فى اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية فاحتيج الى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث فشمر كثير من أئمة اللسان لذلك وأملوا فيه الدواوين وكان سابق الحلبة فى ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدى ألف فيها كتاب العين فحصر فيه مركبات حروف المعجم كلها من الثنائى والثلاثى والرباعى والخماسى وهو غاية ما ينتهى اليه التركيب فى اللسان العربى وتأتى له حصر ذلك بوجوه عددية حاصرة وذلك أن جملة الكلمات الثنائية تخرج من جميع

الاعداد على التوالي من واحد الى سبعة وعشرين وهو دون نهاية حروف المعجم بواحد لان الحرف الواحد منها يؤخذ مع كل واحد من السبعة والعشرين فتكون سبعة وعشرين كلمة ثنائية ثم يؤخذ الثاني مع الستة والعشرين كذلك ثم الثالث والرابع ثم يؤخذ السابع والعشرون مع الثامن والعشرين فيكون واحدا فتكون كلها اعدادا على توالي العدد من واحد الى سبعة وعشرين فتجمع كما هي بالعمل المعروف عند أهل الحساب ثم تضاعف لاجل قلب الثنائي لان التقديم والتأخير بين الحروف معتبر في التركيب فيكون الخارج جملة الثنائيات وتخرج الثلاثيات من ضرب عدد الثنائيات فيما يجمع من واحد الى ستة وعشرين لان كل ثنائية يزيد عليها حرفا فتكون ثلاثية فتكون الثنائية بمنزلة الحرف الواحد مع كل واحد من الحروف الباقية وهي ستة وعشرون حرفا بعد الثنائية فتجمع من واحد الى ستة وعشرين على توالي العدد ويضرب فيه جملة الثنائيات ثم تضرب الخارج في ستة جملة مقلوبات الكلمة الثلاثية فيخرج مجموع تراكيبها من حروف المعجم وكذلك في الرباعي والخماسي فانحصرت له التراكيب بهذا الوجه ورتب أبوابه على حروف المعجم بالترتيب المتعارف واعتمد فيه ترتيب المخارج فبدأ بحروف الحلق ثم ما بعده من حروف الحنك ثم الاضراس ثم الشفة وجعل حروف العلة آخرا وهي الحروف الهوائية وبدأ من حروف الحلق بالعين لانه الاقصى منها فلذلك سمي كتابه بالعين لان المتقدمين كانوا يذهبون في تسمية دواوينهم الى مثل هذا وهو تسميته بأول ما يقع فيه من الكلمات والالفاظ ثم بين المهمل منها من المستعمل وكان المهمل في الرباعي والخماسي أكثر لقلة استعمال العرب له لثقله ولحق به الثنائي لقلة دورانه وكان الاستعمال في الثلاثي أغلب فكانت أوضاعه أكثر لدورانه وضمن الخليل ذلك كله في كتاب العين واستوعبه أحسن استيعاب وأوعاه وجاء أبو بكر الزبيدي وكتب لهشام المؤيد بالاندلس في المائة الرابعة فاختصره مع المحافظة على الاستيعاب وحذف منه المهمل كله وكثيرا من شواهد المستعمل ولخصه للحفظ أحسن تلخيص وألف الجوهري من المشارقة كتاب الصحاح على الترتيب المتعارف لحروف المعجم فجعل البداءة منها بالهمزة وجعل الترجمة بالحروف على الحرف الاخير من الكلمة لاضطرار الناس في الاكثر الى أواخر الكلم وحصر اللغة اقتداء بحصر الخليل ثم ألف فيها من الاندلسيين ابن سيده من أهل دانية في دولة علي بن مجاهد كتاب المحكم على ذلك المنحى من الاستيعاب وعلى نحو ترتيب كتاب العين وزاد فيه التعرض لاشتقاقات الكلم وتصاريفها فجاء من أحسن الدواوين ولخصه محمد بن أبي الحسين صاحب المستنصر

من ملوك الدولة الحفصية بتونس وقلب ترتيبه الى ترتيب كتاب الصحاح فى اعتبار أواخر الكلم وبناء التراجم عليها فكانا توأمى رحم وسليلى أبوة هذه أصول كتب اللغة فيما علمناه وهنالك مختصرات أخرى مختصة بصنف من الكلم ومستوعبة لبعض الابواب أو لكلها الا أن وجه الحصر فيها خفى ووجه الحصر فى تلك جلى من قبل التراكيب كما رأيت ومن الكتب الموضوعة أيضا فى اللغة كتاب الزمخشرى فى المجاز بين فيه كل ما تجوزت به العرب من الالفاظ وفيما تجوزت به من المدلولات وهو كتاب شريف الافادة ثم لما كانت العرب تضع الشئ على العموم ثم تستعمل فى الامور الخاصة ألفاظا أخرى خاصة بها فرق ذلك عندنا بين الوضع والاستعمال واحتاج الى فقه فى اللغة عزيز المأخذ كما وضع الابيض بالوضع العام لكل ما فيه بياض ثم اختص ما فيه بياض من الخيل بالاشهب ومن الانسان بالازهر ومن الغنم بالاملح حتى صار استعمال الابيض فى هذه كلها لحنا وخروجا عن لسان العرب واختص بالتأليف فى هذا المنحى الثعالبى وأفرده فى كتاب له سماه فقه اللغة وهو من آكد ما يأخذ به اللغوى نفسه أن يحرف استعمال العرب عن مواضعه فليس معرفة الوضع الاول بكاف فى التركيب حتى يشهد له استعمال العرب لذلك وأكثر ما يحتاج الى ذلك الاديب فى فنى نظمه ونثره حذرا من أن يكثر لحنه فى الموضوعات اللغوية فى مفرداتها وتراكيبها وهو أشد من اللحن فى الاعراب وأفحش وكذلك ألف بعض المتأخرين فى الالفاظ المشتركة وتكفل بحصرها وان لم تبلغ الى النهاية فى ذلك فهو مستوعب للاكثر وأما المختصرات الموجودة فى هذا الفن المخصوصة بالمتداول من اللغة الكثير الاستعمال تسهيلا لحفظها على الطالب فكثيرة مثل الالفاظ لابن السكيت والفصيح لثعلب وغيرهما وبعضها أقل لغة من بعض لاختلاف نظرهم فى الاهم على الطالب للحفظ والله الخلاق العليم لا رب سواه

(علم البيان)

هذا العلم حادث فى الملة بعد علم العربية واللغة وهو من العلوم اللسانية لانه متعلق بالالفاظ وما تفيده ويقصد بها الدلالة عليه من المعانى وذلك أن الامور التى يقصد المتكلم بها افادة السامع من كلامه هى اما تصور مفردات تسند ويسند اليها ويفضى بعضها الى بعض والدالة على هذه هى المفردات من الاسماء والافعال والحروف وأما تمييز المسندات من المسند اليها والازمنة ويدل عليها بتغير الحركات وهو الاعراب وأبنية الكلمات وهذه كلها هى صناعة النحو ويبقى من الامور المكتنفة بالواقعات

المحتاجة للدلالة أحوال المخاطبين أو الفاعلين وما يقتضيه حال الفعل وهو محتاج الى الدلالة عليه لانه من تمام الافادة واذا حصلت للمتكلم فقد بلغ غاية الافادة في كلامه واذا لم يشتمل على شئ منها فليس من جنس كلام العرب فان كلامهم واسع ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الاعراب والابانة ألا ترى أن قولهم زيد جاءني مغاير لقولهم جاءني زيد من قبل أن المتقدم منهما هو الاهم عند المتكلم فمن قال جاءني زيد أفاد أن اهتمامه بالمجيء قبل الشخص المسند اليه ومن قال زيد جاءني أفاد أن اهتمامه بالشخص قبل المجيء المسند وكذا التعبير عن أجزاء الجملة بما يناسب المقام من موصول أو مبهم أو معرفة وكذا تأكيد الاسناد على الجملة كقولهم زيد قائم وان زيدا قائم وان زيدا القائم متغايرة كلها في الدلالة وان استوت من طريق الاعراب فان الاول العاري عن التأكيد انما يفيد الخالي الذهن والثاني المؤكد بان يفيد المتردد والثالث يفيد المنكر فهي مختلفة وكذلك تقول جاءني الرجل ثم تقول مكانه بعينه جاءني رجل اذا قصدت بذلك التنكير تعظيمه وأنه رجل لا يعادله أحد من الرجال ثم الجملة الاسنادية تكون خبرية وهي التي لها خارج تطابقه أولا وانشائية وهي التي لا خارج لها كالطلب وأنواعه ثم قد يتعين ترك العاطف بين الجملتين اذا كان للثانية محل من الاعراب فينشزل بذلك منزلة التابع المفرد نعتا وتوكيدا وبدلا بلا عطف أو يتعين العطف اذا لم يكن للثانية محل من الاعراب ثم يقتضي المحل الاطناب والايجاز فيورد الكلام عليهما ثم قد يدل باللفظ ولا يريد منطوقه ويريد لازمه ان كان مفردا كما تقول زيد أسد فلا تريد حقيقة الاسد المنطوقة وانما تريد شجاعته اللازمة وتسندها الى زيد وتسمى هذه استعارة وقد تريد باللفظ المركب الدلالة على ملزومه كما تقول زيد كثير الرماد وتريد به ما لزم ذلك عنه من الجود وقرى الضيف لان كثرة الرماد ناشئة عنهما فهي دالة عليهما وهذه كلها دلالة زائدة على دلالة الالفاظ المفرد والمركب وانما هي هيآت وأحوال لواقعات جعلت للدلالة عليها أحوال وهيآت في الالفاظ كل بحسب ما يقتضيه مقامه فاشتمل هذا العلم المسمى بالبيان على البحث عن هذه الدلالات التي للهيآت والاحوال والمقامات وجعل على ثلاثة أصناف الصنف الاول يبحث فيه عن هذه الهيآت والاحوال التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال ويسمى علم البلاغة والصنف الثاني يبحث فيه عن الدلالة على اللازم اللفظي وملزومه وهي الاستعارة والكناية كما قلناه ويسمى علم البيان وألحقوا بهما صنفا آخر وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق اما بسجع يفصله أو تجنيس يشابه بين ألفاظه أو ترصيع يقطع أوزانه أو تورية عن المعنى المقصود بايهام معنى أخفى منه

لاشتراك اللفظ بينهما وأمثال ذلك ويسمى عندهم علم البديع وأطلق على الاصناف
الثلاثة عند المحدثين اسم البيان وهو اسم الصنف الثاني لان الاقدمين أول
ما تكلموا فيه ثم تلاحقت مسائل الفن واحدة بعد أخرى وكتب فيها جعفر بن يحيى
والجاحظ وقدامة وأمثالهم املاآت غير وافية فيها ثم لم تزل مسائل الفن تكمل
شيأ فشيأ الى أن محض السكاكي زبدته وهذب مسائله ورتب أبوابه على نحو ما ذكرناه
آنفا من الترتيب وألف كتابه المسمى بالمفتاح في النحو والتصريف والبيان فجعل هذا
الفن من بعض أجزائه وأخذه المتأخرون من كتابه ولخصوا منه أمهات هي المتداولة
لهذا العهد كما فعله السكاكي في كتاب التبيان وابن مالك في كتاب المصباح وجلال الدين
القزويني في كتاب الايضاح والتلخيص وهو أصغر حجما من الايضاح والعناية به لهذا
العهد عند أهل المشرق في الشرح والتعليم منه أكثر من غيره وبالجملة فالمشارقة على
هذا الفن أقوم من المغاربة وسببه والله أعلم أنه كمالي في العلوم اللسانية والصنائع
الكمالية توجد في العمران والمشرق أوفر عمرانا من المغرب كما ذكرناه أو نقول لعناية
العجم وهم معظم أهل المشرق كتفسير الزمخشري وهو كله مبني على هذا الفن وهو أصله
وانما اختص بأهل المغرب من أصنافه علم البديع خاصة وجعلوه من جملة علوم الادب
الشعرية وفرعوا له ألقابا وعددوا أبوابا ونوعوا أنواعا وزعموا أنهم أحصوها من
لسان العرب وانما حملهم على ذلك الولوع بتزيين الالفاظ وأن علم البديع سهل المأخذ
وصعبت عليهم مآخذ البلاغة والبيان لدقة أنظارهما وغموض معانيهما فتجافوا
عنهما وممن ألف في البديع من أهل افريقية ابن رشيق وكتاب العمدة له مشهور وجرى
كثير من أهل افريقية والاندلس على منحاه واعلم أن ثمرة هذا الفن انما هي في فهم
الاعجاز من القرآن لان اعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الاحوال
منطوقة ومفهومة وهي أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالالفاظ في انتقائها
وجودة رصفها وتركيبها وهذا هو الاعجاز الذي تقصر الافهام عن دركه وانما يدرك
بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي وحصول ملكته فيدرك من
اعجازه على قدر ذوقه فلهذا كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبلغه أعلى مقاما
في ذلك لانهم فرسان الكلام وجهابذته والذوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأصحه
وأحوج ما يكون الى هذا الفن المفسرون وأكثر تفاسير المتقدمين غفل عنه حتى ظهر
جار الله الزمخشري ووضع كتابه في التفسير وتتبع آي القرآن بأحكام هذا الفن بما
يبدي البعض من اعجازه فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير لولا أنه يؤيد عقائد
أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة ولاجل هذا يتحاماه كثير من

أهل السنة مع وفور بضاعته من البلاغة فمن أحكم عقائد السنة وشارك في هذا الفن بعض المشاركة حتى يقتدر على الرد عليه من جنس كلامه أو يعلم انه بدعة فيعرض عنها ولا تضر في معتقده فانه يتعين عليه النظر في هذا الكتاب للظفر بشيء من الاعجاز مع السلامة من البدع والاهواء والله الهادى من يشاء الى سواء السبيل

(علم الادب)

هذا العلم لا موضوع له ينظر في اثبات عوارضه أو نفيها وانما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهي الاجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة من شعر عالى الطبقة وسجع متساو في الاجادة ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة يستقرى منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية مع ذكر بعض من أيام العرب يفهم به ما يقع في أشعارهم منها وكذلك ذكر المهم من الانساب الشهيرة والاخبار العامة والمقصود بذلك كله أن لا يخفى على الناظر فيه شيء من كلام العرب وأساليبهم ومناحى بلاغتهم اذا تصفحه لانه لا تحصل الملكة من حفظه الا بعد فهمه فيحتاج الى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه ثم انهم اذا أرادوا حد هذا الفن قالوا الادب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والاخذ من كل علم بطرف يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط وهي القرآن والحديث اذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب الا ما ذهب اليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ الى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائما على فهمها وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي أدب الكاتب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لابى على القالى البغدادى وما سوى هذه الاربعة فتبع لها وفروع عنها وكتب المحدثين في ذلك كثيرة وكان الغناء في الصدر الاول من أجزاء هذا الفن لما هو تابع للشعر اذ الغناء انما هو تلحينه وكان الكتاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصا على تحصيل أساليب الشعر وفنونه فلم يكن انتحاله قادحا في العدالة والمروءة وقد ألف القاضى أبو الفرج الاصبهانى وهو ما هو كتابه في الاغانى جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم وجعل مبناه على الغناء في المائة صوت التى اختارها المغنون للرشيد فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه ولعمرى

أنه ديوان العرب وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الاحوال ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه وهو الغاية التي يسمو اليها الاديب ويقف عندها وأنى له بها ونحن الآن نرجع بالتحقيق على الاجمال فيما تكلمنا عليه من علوم اللسان والله الهادي للصواب

٣٨ (فصل في ان اللغة ملكة صناعية)

(اعلم) أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة اذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها وليس ذلك بالنظر الى المفردات وانما هو بالنظر الى التراكيب فاذا حصلت الملكة التامة في تركيب الالفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال بلغ المتكلم حينئذ الغاية من افادة مقصوده للسامع وهذا هو معنى البلاغة والملكات لا تحصل الا بتكرار الافعال لان الفعل يقع أولا وتعود منه للذات صفة ثم تتكرر فتكون حالا ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقنها أولا ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرر الى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم هكذا تصيرت الالسن واللغات من جيل الى جيل وتعلمها العجم والاطفال وهذا هو معنى ما تقوله العامة من أن اللغة للعرب بالطبع أي بالملكة الاولى التي أخذت عنهم ولم يأخذوها عن غيرهم ثم انه لما فسدت هذه الملكة لمضر بمخالطتهم الاعاجم وسبب فسادها أن الناشئ من الجيل صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب فيعبر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم ويسمع كيفيات العرب أيضا فاختلط عليه الامر وأخذ من هذه وهذه فاستحدث ملكة وكانت ناقصة عن الاولى وهذا معنى فساد اللسان العربي ولهذا كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني أسد وبني تميم وأما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان واياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لامم الفرس والروم والحبشة فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الاعاجم وعلى نسبة

بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٣٩ (فصل في ان لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير)

وذلك انا نجدها في بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سنن اللسان المضري ولم يفقد منها الا دلالة الحركات على تعين الفاعل من المفعول فاعتاضوا منها بالتقديم والتأخير وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد الا أن البيان والبلاغة في اللسان المضري أكثر وأعرف لان الالفاظ بأعيانها دالة على المعاني بأعيانها ويبقى ما تقتضيه الاحوال ويسمى بساط الحال محتاجا الى ما يدل عليه وكل معنى لابد وأن تكتنفه أحوال تخصه فيجب أن تعتبر تلك الاحوال في تأدية المقصود لانها صفاته وتلك الاحوال في جميع الالسن أكثر ما يدل عليها بألفاظ تخصها بالوضع وأما في اللسان العربي فانما يدل عليها بأحوال وكيفيات في تراكيب الالفاظ وتأليفها من تقديم أو تأخير أو حذف أو حركة اعراب وقد يدل عليها بالحروف غير المستقلة ولذلك تفاوتت طبقات الكلام في اللسان العربي بحسب تفاوت الدلالة على تلك الكيفيات كما قدمناه فكان الكلام العربي لذلك أوجز وأقل ألفاظا وعبارة من جميع الالسن وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصارا واعتبر ذلك بما يحكى عن عيسى بن عمر وقد قال له بعض النحاة اني أجد في كلام العرب تكرارا في قولهم زيد قائم وان زيدا قائم وان زيدا القائم والمعنى واحد فقال له ان معانيها مختلفة فالاول لافادة الخالي الذهن من قيام زيد والثاني لمن سمعه فأنكره والثالث لمن عرف بالاصرار على انكاره فاختلفت الدلالة باختلاف الاحوال وما زالت هذه البلاغة والبيان ديدن العرب ومذهبهم لهذا العهد ولا تلتفتن في ذلك الى خرفشة النحاة أهل صناعة الاعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت وأن اللسان العربي فسد اعتبارا بما وقع أواخر الكلم من فساد الاعراب الذي يتدارسون قوانينه وهي مقالة دسها التشيع في طباعهم وألقاها القصور في أفئدتهم والا فنحن نجد اليوم الكثير من ألفاظ العرب لم تزل في موضوعاتها الاولى والتعبير عن المقاصد والتعاون فيه بتفاوت الابانة موجود في كلامهم لهذا العهد وأساليب اللسان وفنونه من النظم والنثر موجودة في مخاطباتهم وفهم الخطيب المصقع في محافلهم ومجامعهم والشاعر المفلق على أساليب لغتهم والذوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك ولم يفقد من أحوال اللسان

المدوّن الا حركات الاعراب فى أواخر الكلم فقط الذى لزم فى لسان مضر طريقة واحدة ومهيعا معروفا وهو الاعراب وهو بعض من أحكام اللسان وانما وقعت العناية بلسان مضر لما فسد بمخالطتهم الاعاجم حين استولوا على ممالك العراق والشأم ومصر والمغرب وصارت ملكته على غير الصورة التى كانت أولا فانقلب لغة أخرى وكان القرآن متنزلا به والحديث النبوى منقولا بلغته وهما أصلا الدين والملة فخشى تناسيهما وانغلاق الافهام عنهما بفقدان اللسان الذى تنزلا به فاحتيج الى تدوين أحكامه ووضع مقاييسه واستنباط قوانينه وصار علما ذا فصول وأبواب ومقدمات ومسائل سماه أهله بعلم النحو وصناعة العربية فأصبح فنا محفوظا وعلما مكتوبا وسلما الى فهم كتاب الله وسنة رسوله وافيا ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربى لهذا العهد واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الاعرابية فى دلالتها بأمور أخرى موجودة فيه فتكون لها قوانين تخصها ولعلها تكون فى أواخره على غير المنهاج الاول فى لغة مضر فليست اللغات وملكاتها مجانا ولقد كان اللسان المضرى مع اللسان الحميرى بهذه المثابة وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميرى وتصاريف كلماته تشهد بذلك الانقال الموجودة لدينا خلافا لمن يحمله القصور على أنهما لغة واحدة ويلتمس اجراء اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المضرية وقوانينها كما يزعم بعضهم فى اشتقاق القيل فى اللسان الحميرى أنه من القول وكثير من أشباه هذا وليس ذلك بصحيح ولغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر فى الكثير من أوضاعها وتصاريفها وحركات اعرابها كما هى لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر الا أن العناية بلسان مضر من أجل الشريعة كما قلناه حمل ذلك على الاستنباط والاستقراء وليس عندنا لهذا العهد ما يحملنا على مثل ذلك ويدعونا اليه ومما وقع فى لغة هذا الجيل العربى لهذا العهد حيث كانوا من الاقطار شأنهم فى النطق بالقاف فانهم لا ينطقون بها من مخرج القاف عند أهل الامصار كما هو مذكور فى كتب العربية انه من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الاعلى وما ينطقون بها أيضا من مخرج الكاف وان كان أسفل من موضع القاف وما يليه من الحنك الاعلى كما هى بل يجيئون بها متوسطة بين الكاف والقاف وهو موجود للجيل أجمع حيث كانوا من غرب أو شرق حتى صار ذلك علامة عليهم من بين الامم والاجيال ومختصا بهم لا يشاركهم فيها غيرهم حتى ان من يريد التعرب والانتساب الى الجيل والدخول فيه يحاكيهم فى النطق بها وعندهم أنه انما يتميز العربى الصريح من الدخيل فى العروبية والحضرى بالنطق بهذه القاف ويظهر بذلك أنها لغة مضر بعينها فان هذا الجيل الباقين معظمهم ورؤساؤهم شرقا وغربا فى ولد منصور بن

عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان من سليم بن منصور ومن بني عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور وهم لهذا العهد أكثر الامم في المعمور وأغلبهم وهم من أعقاب مضر وسائر الجيل منهم في النطق بهذه القاف أسوة وهذه اللغة لم يبتدعها هذا الجيل بل هي متوارثة فيهم متعاقبة ويظهر من ذلك أنها لغة مضر الاولين ولعلها لغة النبي صلى الله عليه وسلم بعينها وقد ادعى ذلك فقهاء أهل البيت وزعموا أن من قرأ في أم القرآن اهدنا الصراط المستقيم بغير القاف التي لهذا الجيل فقد لحن وأفسد صلاته ولم أدر من أين جاء هذا فان لغة أهل الامصار أيضا لم يستحدثوها وانما تناقلوها من لدن سلفهم وكان أكثرهم من مضر لما نزلوا الامصار من لدن الفتح وأهل الجيل أيضا لم يستحدثوها الا أنهم أبعد من مخالطة الاعاجم من أهل الامصار فهذا يرجح فيما يوجد من اللغة لديهم أنه من لغة سلفهم هذا مع اتفاق أهل الجيل كلهم شرقا وغربا في النطق بها وأنها الخاصية التي يتميز بها العربي من الهجين والحضري فتفهم ذلك والله الهادي المبين

٤ (فصل في ان لغة اهل الحضر والامصار لغة قائمين بنفسها مخالفة للغة مضر)

اعلم أن عرف التخاطب في الامصار وبين الحضر ليس بلغة مضر القديمة ولا بلغة أهل الجيل بل هي لغة أخرى قائمة بنفسها بعيدة عن لغة مضر وعن لغة هذا الجيل العربي الذي لعهدنا وهي عن لغة مضر أبعد فاما أنها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر يشهد له ما فيها من التغاير الذي يعد عند صناعة أهل النحو لحنا وهي مع ذلك تختلف باختلاف الامصار في اصطلاحاتهم فلغة أهل المشرق مباينة بعض الشيء للغة أهل المغرب وكذا أهل الاندلس معهما وكل منهم متوصل بلغته الى تأدية مقصوده والابانة عما في نفسه وهذا معنى اللسان واللغة وفقدان الاعراب ليس بضائر لهم كما قلناه في لغة العرب لهذا العهد واما أنها أبعد عن اللسان الاول من لغة هذا الجيل فلأن البعد عن اللسان انما هو بمخالطة العجمة فمن خالط العجم أكثر كانت لغته عن ذلك اللسان الاصلي أبعد لان الملكة انما تحصل بالتعليم كما قلناه وهذه ملكة ممتزجة من الملكة الاولى التي كانت للعرب ومن الملكة الثانية التي للعجم فعلى مقدار ما يسمعونه من العجمة ويربون عليه يبعدون عن الملكة الاولى واعتبر ذلك في أمصار افريقية والمغرب والاندلس والمشرق أما افريقية والمغرب فخالطت العرب فيها البرابرة من العجم بوفور عمرانها بهم ولم يكد يخلو عنهم مصر ولا جيل فغلبت العجمة فيها على اللسان العربي الذي كان لهم وصارت لغة أخرى ممتزجة والعجمة فيها أغلب لما ذكرناه فهي عن اللسان الاول أبعد

وكذا المشرق لما غلب العرب على أممه من فارس والترك فخالطوهم وتداولت بينهم لغاتهم في الاكرة والفلاحين والسبي الذين اتخذوهم خولا ودايات وأظئارا ومراضع ففسدت لغتهم بفساد الملكة حتى انقلبت لغة أخرى وكذا أهل الاندلس مع عجم الجلالقة والافرنجة وصار أهل الامصار كلهم من هذه الاقاليم أهل لغة أخرى مخصوصة بهم تخالف لغة مضر ويخالف أيضا بعضها بعضا كما نذكره وكأنها لغة أخرى لاستحكام ملكتها في أجيالهم والله يخلق ما يشاء ويقدر

٤١ (فصل في تعليم اللسان المضري)

اعلم أن ملكة اللسان المضري لهذا العهد قد ذهبت وفسدت ولغة أهل الجيل كلهم مغايرة للغة مضر التي نزل بها القرآن وانما هي لغة أخرى من امتزاج العجمة بها كما قدمناه الا أن اللغات لما كانت ملكات كما مر كان تعلمها ممكنا شأن سائر الملكات ووجه التعليم لمن يبتغي هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم وكلمات المولدين أيضا في سائر فنونهم حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عباراتهم وتأليف كلماتهم وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال ويزداد بكثرتهما رسوخا وقوة ويحتاج مع ذلك الى سلامة الطبع والتفهم الحسن لمنازع العرب وأساليبهم في التراكيب ومراعاة التطبيق بينها وبين مقتضيات الاحوال والذوق يشهد بذلك وهو ينشأ ما بين هذه الملكة والطبع السليم فيهما كما نذكر وعلى قدر المحفوظ وكثرة الاستعمال تكون جودة المقول المصنوع نظما ونثرا ومن حصل على هذه الملكات فقد حصل على لغة مضر وهو الناقد البصير بالبلاغة فيها وهكذا ينبغي أن يكون تعلمها والله يهدي من يشاء بفضله وكرمه

٤٢ (فصل في ان ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعليم

والسبب في ذلك أن صناعة العربية انما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة فهو علم بكيفية لا نفس كيفية فليست نفس الملكة وانما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علما ولا يحكمها عملا مثل أن يقول بصير بالخياطة غير محكم لملكتها في التعبير عن بعض أنواعها الخياطة هي أن يدخل الخيط في خرت الابرة ثم يغرزها في لفقي الثوب مجتمعين ويخرجها من الجانب الآخر بمقدار كذا ثم يردها الى حيث

ابتدأت ويخرجها قدام منفذها الاول بطرح ما بين الثقبين الاولين ثم يتمادى على ذلك الى آخر العمل ويعطي صورة الحبك والتنبيت والتفتيح وسائر أنواع الحياطة وأعمالها وهو اذا طولب أن يعمل ذلك بيده لا يحكم منه شيأ وكذا لو سئل عالم بالنجارة عن تفصيل الخشب فيقول هو أن تضع المنشار على رأس الخشبة وتمسك بطرفه وآخر قبالتك ممسك بطرفه الآخر وتتعاقبانه بينكما وأطرافه المضرسة المحددة تقطع ما مرّت عليه ذاهبة وجائية الى أن ينتهي الى آخر الخشبة وهو لو طولب بهذا العمل أو شئ منه لم يحكمه وهكذا العلم بقوانين الاعراب مع هذه الملكة في نفسها فان العلم بقوانين الاعراب انما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل ولذلك نجد كثيرا من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين اذا سئل في كتابة سطرين الى أخيه أو ذي مودته أو شكوى ظلامة أو قصد من قصوده أخطأ فيها عن الصواب وأكثر من اللحن ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربي وكذا نجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور وهو لا يحسن اعراب الفاعل من المفعول ولا المرفوع من المجرور ولا شيأ من قوانين صناعة العربية فمن هذا تعلم أن تلك الملكة هي غير صناعة العربية وأنها مستغنية عنها بالجملة وقد نجد بعض المهرة في صناعة الاعراب بصيرا بحال هذه الملكة وهو قليل واتفاقي وأكثر ما يقع للمخالطين لكتاب سيبويه فانه لم يقتصر على قوانين الاعراب فقط بل ملأ كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم فكان فيه جزء صالح من تعليم هذه الملكة فتجد العاكف عليه والمحصل له قد حصل على حظ من كلام العرب واندرج في محفوظه في أماكنه ومفاصل حاجاته وتنبه به لشأن الملكة فاستوفى تعليمها فكان أبلغ في الافادة ومن هؤلاء المخالطين لكتاب سيبويه من يغفل عن التفطن لهذا فيحصل على علم اللسان صناعة ولا يحصل عليه ملكة وأما المخالطون لكتب المتأخرين العارية عن ذلك الا من القوانين النحوية مجردة عن أشعار العرب وكلامهم فقلما يشعرون لذلك بأمر هذه الملكة أو يتنبهون لشأنها فتجدهم يحسبون أنهم قد حصلوا على رتبة في لسان العرب وهم أبعد الناس عنه وأهل صناعة العربية بالاندلس ومعلموها أقرب الى تحصيل هذه الملكة وتعليمها ممن سواهم لقيامهم فيها على شواهد العرب وأمثالهم والتفقه في الكثير من التراكيب في مجالس تعليمهم فيسبق الى المبتدى كثير من الملكة أثناء التعليم فتنقطع النفس لها وتستعد الى تحصيلها وقبولها وأما من سواهم من أهل المغرب وافريقية وغيرهم فأجروا صناعة العربية مجرى العلوم بحثا وقطعوا النظر عن التفقه في تراكيب كلام العرب

الا ان أعربوا شاهداً أو ربحوا مذهباً من جهة الاقتضاء الذهني لا من جهة محامل اللسان وتراكيبه فأصبحت صناعة العربية كأنها من جملة قوانين المنطق العقلية أو الجدل وبعدت عن مناحي اللسان وملكته وما ذلك الا لعدولهم عن البحث في شواهد اللسان وتراكيبه وتمييز أساليبه وغفلتهم عن المران في ذلك للمتعلم فهو أحسن ما تفيده الملكة في اللسان وتلك القوانين انما هي وسائل للتعليم لكنهم أجروها على غير ما قصد بها وأصاروها علماً بحتاً وبعدوا عن ثمرتها وتعلم مما قررناه في هذا الباب أن حصول ملكة اللسان العربي انما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم فينسج هو عليه ويتنزل بذلك منزلة من نشأ معهم وخالط عباراتهم في كلامهم حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم والله مقدر الامور كلها والله أعلم بالغيب

---

٤٣ فصل في تفسير الذوق في مصطلح اهل البيان وتحقيق معناه وبيان ان لا يحصل غالباً للمستعربين من العجم

اعلم أن لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفنون البيان ومعناها حصول ملكة البلاغة للسان وقد مر تفسير البلاغة وأنها مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه بخواص تقع للتراكيب في افادة ذلك فالمتكلم بلسان العرب والبليغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطباتهم وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده فاذا اتصلت مقاماته بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة في نظم الكلام على ذلك الوجه وسهل عليه أمر التركيب حتى لا يكاد ينحو فيه غير منحى البلاغة التي للعرب وان سمع تركيباً غير جار على ذلك المنحى مجه ونبا عنه سمعه بأدنى فكر بل وبغير فكر الا بما استفاده من حصول هذه الملكة فان الملكات اذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب في لغتهم اعراباً وبلاغة أمر طبيعي ويقول كانت العرب تنطق بالطبع وليس كذلك وانما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في بادئ الرأي أنها جبلة وطبع وهذه الملكة كما تقدم انما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها أهل صناعة اللسان فان هذه القوانين انما تفيد علماً بذلك اللسان ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في محلها وقد مر ذلك، واذا تقرر ذلك فملكة البلاغة في اللسان تهدي البليغ الى وجود النظم وحسن

التركيب الموافق لتراكيب العرب فى لغتهم ونظم كلامهم ولو رام صاحب هذه الملكة
حيدا عن هذه السبيل المعينة والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه ولا وافقه عليه
لسانه لانه لا يعتاده ولا تهديه اليه ملكته الراسخة عنده واذا عرض عليه الكلام
حائدا عن أسلوب العرب وبلاغتهم فى نظم كلامهم أعرض عنه ومجه وعلم أنه ليس
من كلام العرب الذين مارس كلامهم وربما يعجز عن الاحتجاج لذلك كما تصنع أهل
القوانين النحوية والبيانية فان ذلك استدلالى بما حصل من القوانين المفادة
بالاستقراء وهذا أمر وجدانى حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم
ومثاله لو فرضنا صبيا من صبيانهم نشأ وربى فى جيلهم فانه يتعلم لغتهم ويحكم شأن
الاعراب والبلاغة فيها حتى يستولى على غايتها وليس من العلم القانونى فى شئ وانما هو
بحصول هذه الملكة فى لسانه ونطقه وكذلك تحصل هذه الملكة لمن بعد ذلك الجيل بحفظ
كلامهم وأشعارهم وخطبهم والمداومة على ذلك بحيث يحصل الملكة ويصير كواحد
ممن نشأ فى جيلهم وربى بين أجيالهم والقوانين بمعزل عن هذا واستعير لهذه الملكة عندما
ترسخ وتستقر اسم الذوق الذى اصطلح عليه أهل صناعة البيان وانما هو موضوع
لادراك الطعوم لكن لما كان محل هذه الملكة فى اللسان من حيث النطق بالكلام كما
هو محل لادراك الطعوم استعير لها اسمه وأيضا فهو وجدانى اللسان كما أن الطعوم
محسوسة له فقيل له ذوق واذا تبين لك ذلك علمت منه أن الاعاجم الداخلين فى اللسان
العربى الطارئين عليه المضطرين الى النطق به لمخالطة أهله كالفرس والروم والترك
بالمشرق وكالبربر بالمغرب فانه لا يحصل لهم هذا الذوق لقصور حظهم فى هذه الملكة
التى قررنا أمرها لان قصاراهم بعد طائفة من العمر وسبق ملكة أخرى الى اللسان
وهى لغاتهم أن يعتنوا بما يتداوله أهل مصر بينهم فى المحاورة من مفرد ومركب لما
يضطرون اليه من ذلك وهذه الملكة قد ذهبت لاهل الامصار وبعدوا عنها كما تقدم وانما
لهم فى ذلك ملكة أخرى وليست هى ملكة اللسان المطلوبة ومن عرف تلك الملكة
من القوانين المسطرة فى الكتب فليس من تحصيل الملكة فى شئ انما حصل أحكامها
كما عرفت وانما تحصل هذه الملكة بالممارسة والاعتياد والتكرر لكلام العرب فان
عرض لك ما تسمعه من أن سيبويه والفارسى والزمخشرى وأمثالهم من فرسان
الكلام كانوا أعجاما مع حصول هذه الملكة لهم فاعلم أن أولئك القوم الذين تسمع عنهم
انما كانوا عجما فى نسبهم فقط وأما المربى والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من
العرب ومن تعلمها منهم فاستولوا بذلك من الكلام على غاية لا وراءها وكأنهم فى أول
نشأتهم من العرب الذين نشؤا فى أجيالهم حتى أدركوا كنه اللغة وصاروا من أهلها

بهم وان كانوا عجما في النسب فليسوا باعجام في اللغة والكلام لانهم ادركوا الملة في عنفوانها واللغة في شبابها ولم تذهب آثار الملكة ولا من اهل الامصار ثم عكفوا على الممارسة والمدارسة لكلام العرب حتى استولوا على غايته واليوم الواحد من العجم اذا خالط اهل اللسان العربي بالامصار فاول ما يجد تلك الملكة المقصودة من اللسان العربي ممتحية الآثار ويجد ملكتهم الخاصة بهم ملكة اخرى مخالفة لملكة اللسان العربي ثم اذا فرضنا انه اقبل على الممارسة لكلام العرب واشعارهم بالمدارسة والحفظ يستفيد تحصيلها فقل ان يحصل له ما قدمناه من ان الملكة اذا سبقتها ملكة اخرى في المحل فلا تحصل الا ناقصة مخدوشة وان فرضنا عجميا في النسب سلم من مخالطة اللسان العجمي بالكلية وذهب الى تعلم هذه الملكة بالمدارسة فربما يحصل له ذلك لكنه من الندور بحيث لا يخفى عليك بما تقرر وربما يدعي كثير ممن ينظر في هذه القوانين البيانية حصول هذا الذوق له بها وهو غلط او مغالطة وانما حصلت له الملكة ان حصلت في تلك القوانين البيانية وليست من ملكة العبارة في شيء والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

٤ فصل في ان اهل الامصار على الاطلاق قاصرون في تحصيل هذه الملكة اللسانية التي تستفاد بالتعليم ومن كان منهم ابعد عن اللسان العربي كان حصولها اصعب واعسر

والسبب في ذلك ما يسبق الى المتعلم من حصول ملكة منافية للملكة المطلوبة بما سبق اليه من اللسان الحضري الذي افادته العجمة حتى نزل بها اللسان عن ملكته الاولى الى ملكة اخرى هي لغة الحضر لهذا العهد ولهذا نجد المعلمين يذهبون الى المسابقة بتعليم اللسان للولدان وتعتقد النحاة ان هذه المسابقة بصناعتهم وليس كذلك وانما هي بتعليم هذه الملكة بمخالطة اللسان وكلام العرب نعم صناعة النحو اقرب الى مخالطة ذلك وما كان من لغات اهل الامصار اعرق في العجمة وابعد عن لسان مضر قصر بصاحبه عن تعلم اللغة المضرية وحصول ملكتها لتمكن المنافاة حينئذ واعتبر ذلك في اهل الامصار فاهل افريقية والمغرب لما كانوا اعرق في العجمة وابعد عن اللسان الاول كان لهم قصور تام في تحصيل ملكته بالتعليم ولقد نقل ابن الرقيق ان بعض كتاب القيروان كتب الى صاحب له يا اخي ومن لا عدمت فقده اعلمني ابو سعيد كلاما انك كنت ذكرت انك تكون مع الذين تاتي وعاقنا اليوم فلم يتهيأ لنا الخروج واما اهل المنزل الكلاب من امر الشين فقد كذبوا هذا باطلا ليس من هذا حرفا واحدا وكتابي اليك وانا مشتاق اليك ان شاء الله وهكذا كانت ملكتهم في اللسان المضري

شبيه ما ذكرنا وكذلك أشعارهم كانت بعيدة عن الملكة نازلة عن الطبقة ولم تزل كذلك لهذا العهد ولهذا ما كان بافريقية من مشاهير الشعراء الا ابن رشيق وابن شرف وأكثر ما يكون فيها الشعراء طارئين عليها ولم تزل طبقتهم في البلاغة حتى الآن مائلة الى القصور وأهل الاندلس أقرب منهم الى تحصيل هذه الملكة بكثرة معاناتهم وامتلائهم من المحفوظات اللغوية نظما ونثرا وكان فيهم ابن حيان المؤرخ امام أهل الصناعة في هذه الملكة ورافع الراية لهم فيها وابن عبد ربه والقسطلي وأمثالهم من شعراء ملوك الطوائف لما زخرت فيها بحار اللسان والادب وتداول ذلك فيهم مئين من السنين حتى كان الانفضاض والجلاء أيام تغلب النصرانية وشغلوا عن تعلم ذلك وتناقص العمران فتناقص ذلك شأن الصنائع كلها فقصرت الملكة فيهم عن شأنها حتى بلغت الحضيض وكان من آخرهم صالح بن شريف ومالك بن المرحل من تلاميذ الطبقة الاشبيليين بسبتة وكتاب دولة ابن الاحمر في أولها وألقت الاندلس أفلاذ كبدها من أهل تلك الملكة بالجلاء الى العدوة العدوة الاشبيلية الى سبتة ومن شرق الاندلس الى افريقية ولم يلبثوا الى أن انقرضوا وانقطع سند تعليمهم في هذه الصناعة لعسر قبول العدوة لها وصعوبتها عليهم بعوج ألسنتهم ورسوخهم في العجمة البربرية وهي منافية لما قلناه ثم عادت الملكة من بعد ذلك الى الاندلس كما كانت ونجم بها ابن بشرين وابن جابر وابن الجياب وطبقتهم ثم ابراهيم الساحلي الطريجي وطبقته وقفاهم ابن الخطيب من بعدهم الهالك لهذا العهد شهيدا بسعاية أعدائه وكان له في اللسان ملكة لا تدرك واتبع أثره تلميذه بعده وبالجملة فشأن هذه الملكة بالاندلس أكثر وتعليمها أيسر وأسهل بما هم عليه لهذا العهد كما قدمناه من معاناة علوم اللسان ومحافظتهم عليها وعلى علوم الادب وسند تعليمها ولأن أهل اللسان العجمي الذين تفسد ملكتهم انما هم طارئون عليهم وليست عجمتهم أصلا للغة أهل الاندلس والبربر في هذه العدوة وهم أهلها ولسانهم لسانها الا في الامصار فقط وهم فيها منغمسون في بحر عجمتهم ورطانتهم البربرية فيصعب عليهم تحصيل الملكة اللسانية بالتعليم بخلاف أهل الاندلس واعتبر ذلك بحال أهل المشرق لعهد الدولة الاموية والعباسية فكان شأنهم شأن أهل الاندلس في تمام هذه الملكة واجادتها لبعدهم لذلك العهد عن الاعاجم ومخالطتهم الا في القليل فكان أمر هذه الملكة في ذلك العهد أقوم وكان فحول الشعراء والكتاب أوفر لتوفر العرب وأبنائهم بالمشرق وانظر ما اشتمل عليه كتاب الاغاني من نظمهم ونثرهم فان ذلك الكتاب هو كتاب العرب وديوانهم وفيه لغتهم وأخبارهم وأيامهم وملتهم العربية وسيرتهم وآثار خلفائهم وملوكهم وأشعارهم وغناؤهم وسائر مغانيهم له فلا كتاب أوعب منه لاحوال

العرب وبقي أمر هذه الملكة مستحكما في المشرق في الدولتين وربما كانت فيهم أبلغ ممن سواهم ممن كان في الجاهلية كما نذكره بعد حتى تلاشى أمر العرب ودرست لغتهم وفسد كلامهم وانقضى أمرهم ودولتهم وصار الامر للاعاجم والملك في أيديهم والتغلب لهم وذلك في دولة الديلم والسلجوقية وخالطوا أهل الامصار والحواضر حتى بعدوا عن اللسان العربي وملكته وصار متعلمها منهم مقصرا عن تحصيلها وعلى ذلك نجد لسانهم لهذا العهد في فني المنظوم والمنثور وان كانوا مكثرين منه والله يخلق ما يشاء ويختار والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب سواه

٤٥ (فصل في انقسام الكلام الى فني النظم والنثر)

(اعلم) أن لسان العرب وكلامهم على فنين في الشعر المنظوم وهو الكلام الموزون المقفى ومعناه الذي تكون أوزانه كلها على روي واحد وهو القافية وفي النثر وهو الكلام غير الموزون وكل واحد من الفنين يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام فأما الشعر فمنه المدح والهجاء والرثاء وأما النثر فمنه السجع الذي يؤتى به قطعا ويلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة يسمى سجعا ومنه المرسل وهو الذي يطلق فيه الكلام اطلاقا ولا يقطع أجزاء بل يرسل ارسالا من غير تقييد بقافية ولا غيرها ويستعمل في الخطب والدعاء وترغيب الجمهور وترهيبهم وأما القرآن وان كان من المنثور الا أنه خارج عن الوصفين وليس يسمى مرسلا مطلقا ولا مسجعا بل تفصيل آيات ينتهي الى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها ثم يعاد الكلام في الآية الاخرى بعدها ويثني من غير التزام حرف يكون سجعا ولا قافية وهو معنى قوله تعالى الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم وقال قد فصلنا الآيات ويسمى آخر الآيات منها فواصل اذ ليست أسجاعا ولا التزم فيها ما يلتزم في السجع ولا هي أيضا قواف واطلق اسم المثاني على آيات القرآن كلها على العموم لما ذكرناه واختصت بأم القرآن للغلبة فيها كالنجم للثريا ولهذا سميت السبع المثاني وانظر هذا مع ما قاله المفسرون في تعليل تسميتها بالمثاني يشهد لك الحق برجحان ما قلناه * واعلم أن لكل واحد من هذه الفنون أساليب تختص به عند أهله لا تصلح للفن الآخر ولا تستعمل فيه مثل النسيب المختص بالشعر والحمد والدعاء المختص بالخطب والدعاء المختص بالمخاطبات وأمثال ذلك وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الاسجاع والتزام التقفية وتقديم النسيب بين يدي الاغراض وصار هذا المنثور اذا تأملته من باب الشعر وفنه ولم يفترقا الا في الوزن واستمر

المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية وقصروا الاستعمال في المنثور كله على هذا الفن الذي ارتضوه وخلطوا الاساليب فيه وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصاً أهل المشرق. وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الغفل جارية على هذا الاسلوب الذي أشرنا اليه وهو غير صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال من أحوال المخاطب والمخاطب وهذا الفن المنثور المقفى أدخل المتأخرون فيه أساليب الشعر فوجب أن تنزه المخاطبات السلطانية عنه اذ أساليب الشعر تنافيها اللوذعية وخلط الجد بالهزل والاطناب في الاوصاف وضرب الامثال وكثرة التشبيهات والاستعارات حيث لا تدعو ضرورة الى ذلك في الخطاب والتزام التقفية أيضاً من اللوذعة والتزيين وجلال الملك والسلطان وخطاب الجمهور عن الملوك بالترغيب والترهيب ينافي ذلك ويباينه والمحمود في المخاطبات السلطانية الترسل وهو اطلاق الكلام وارساله من غير تسجيع الا في الاقل النادر وحيث ترسله الملكة ارسالا من غير تكلف له ثم اعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال فان المقامات مختلفة ولكل مقام أسلوب يخصه من اطناب أو ايجاز أو حذف أو اثبات أو تصريح أو اشارة وكناية واستعارة وأما اجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذي هو على أساليب الشعر فمذموم وما حمل عليه أهل العصر الا استيلاء العجمة على ألسنتهم وقصورهم لذلك عن اعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد أمده في البلاغة وانفساح خطوبه وولعوا بهذا المسجع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال فيه ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالاسجاع والالقاب البديعة ويغفلون عما سوى ذلك وأكثر من أخذ بهذا الفن وبالغ فيه في سائر أنحاء كلامهم كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد حتى انهم ليخلون بالاعراب في الكلمات والتصريف اذا دخلت لهم في تجنيس أو مطابقة لا يجتمعان معها فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس ويدعون الاعراب ويفسدون بنية الكلمة عساها تصادف التجنيس فتأمل ذلك بما قدمناه لك تقف على صحة ما ذكرناه والله الموفق للصواب بمنه وكرمه والله تعالى أعلم

٤٦ (فصل في انه لا تتفق الاجادة في فني المنظوم والمنثور معاً الا للاقل)

والسبب في ذلك أنه كما بيناه ملكة في اللسان فاذا تسبقت الى محله ملكة أخرى قصرت بالمحل عن تمام الملكة اللاحقة لان تمام الملكات وحصولها للطبائع التي على الفطرة

الاولى أسهل وأيسر واذا تقدمتها ملكة أخرى كانت منازعة لها في المادة القابلة وعائقة عن سرعة القبول فوقعت المنافاة وتعذر التمام في الملكة وهذا موجود في الملكات الصناعية كلها على الاطلاق وقد برهنا عليه في موضعه بنحو من هذا البرهان فاعتبر مثله في اللغات فانها ملكات اللسان وهي بمنزلة الصناعة وانظر من تقدم له شيء من العجمة كيف يكون قاصرا في اللسان العربي أبدا فالاعجمي الذي سبقت له اللغة الفارسية لا يستولي على ملكة اللسان العربي ولا يزال قاصرا فيه ولو تعلمه وعلمه وكذا البربري والرومي والافرنجي قل أن تجد أحدا منهم محكما لملكة اللسان العربي وما ذلك الا لما سبق الى ألسنتهم من ملكة اللسان الآخر حتى ان طالب العلم من أهل هذه الالسن اذا طلبه بين أهل اللسان العربي جاء مقصرا في معارفه عن الغاية والتحصيل وما أتى الا من قبل اللسان وقد تقدم لك من قبل أن الالسن واللغات شبيهة بالصنائع وقد تقدم لك أن الصنائع وملكاتها لا تزدحم وان من سبقت له اجادة في صناعة فقل أن يجيد أخرى أو يستولي فيها على الغاية والله خلقكم وما تعملون

٤٧ (فصل في صناعة الشعر ووجه تعلمه)

هذا الفن من فنون كلام العرب وهو المسمى بالشعر عندهم ويوجد في سائر اللغات الا أنا الآن انما نتكلم في الشعر الذي للعرب فان أمكن أن تجد فيه أهل الالسن الاخرى مقصودهم من كلامهم والا فلكل لسان أحكام في البلاغة تخصه وهو في لسان العرب غريب النزعة عزيز المنحى اذ هو كلام مفصل قطعا قطعا متساوية في الوزن متحدة في الحرف الاخير من كل قطعة وتسمى كل قطعة من هذه القطعات عندهم بيتا ويسمى الحرف الاخير الذي تتفق فيه رويا وقافية ويسمى جملة الكلام الى آخره قصيدة وكلمة وينفرد كل بيت منه بافادته في تراكيبه حتى كأنه كلام وحده مستقل عما قبله وما بعده واذا أفرد كان تاما في بابه في مدح أو تشبيب أو رثاء فيحرص الشاعر على اعطاء ذلك البيت ما يستقل في افادته ثم يستأنف في البيت الآخر كلاما آخر كذلك ويستطرد للخروج من فن الى فن ومن مقصود الى مقصود بأن يوطئ المقصود الاول ومعانيه الى أن تناسب المقصود الثاني ويبعد الكلام عن التنافر كما يستطرد من التشبيب الى المدح ومن وصف البيداء والطلول الى وصف الركاب أو الخيل أو الطيف ومن وصف الممدوح الى وصف قومه وعساكره ومن التفجع والعزاء في الرثاء الى التأثر وأمثال ذلك ويراعي فيه اتفاق القصيدة كلها في الوزن الواحد حذرا من أن يتساهل الطبع في الخروج من وزن الى وزن يقاربه فقد يخفى ذلك من اجل المقاربة

على كثير من الناس ولهذه الموازين شروط وأحكام تضمنها علم العروض وليس كل وزن يتفق في الطبع استعملته العرب في هذا الفن وانما هي أوزان مخصوصة تسميها أهل تلك الصناعة البحور وقد حصروها في خمسة عشر بحرا بمعنى انهم لم يجدوا للعرب في غيرها من الموازين الطبيعية نظما * واعلم أن فن الشعر من بين الكلام كان شريفا عند العرب ولذلك جعلوه ديوان علومهم واخبارهم وشاهد صوابهم وخطائهم وأصلا يرجعون اليه في الكثير من علومهم وحكمهم وكانت ملكته مستحكمة فيهم شأن الملكات كلها والملكات اللسانية كلها انما تكتسب بالصناعة والارتياض في كلامهم حتى يحصل شبه في تلك الملكة والشعر من بين فنون الكلام صعب المأخذ على من يريد اكتساب ملكته بالصناعة من المتأخرين لاستقلال كل بيت منه بأنه كلام تام في مقصوده ويصلح أن ينفرد دون ماسواه فيحتاج من أجل ذلك الى نوع تلطف في تلك الملكة حتى يفرغ الكلام الشعري في قوالبه التي عرفت له في ذلك المنحى من شعر العرب ويبرزه مستقلا بنفسه ثم يأتي ببيت آخر كذلك ثم ببيت ويستكمل الفنون الوافية بمقصوده ثم يناسب بين البيوت في موالاة بعضها مع بعض بحسب اختلاف الفنون التي في القصيدة ولصعوبة منحاه وغرابة فنه كان محكا للقرائح في استجادة أساليبه وشحذ الافكار في تنزيل الكلام في قوالبه ولا يكفي فيه ملكة الكلام العربي على الاطلاق بل يحتاج بخصوصه الى تلطف ومحاولة في رعاية الاساليب التي اختصته العرب بها واستعمالها ولنذكر هنا سلوك الاسلوب عند أهل هذه الصناعة وما يريدون بها في اطلاقهم فاعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذي ينسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه ولا يرجع الى الكلام باعتبار افادته أصل المعنى الذي هو وظيفة الاعراب ولا باعتبار افادته كمال المعنى من خواص التراكيب الذي هو وظيفة البلاغة والبيان ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية وانما يرجع الى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الاعراب والبيان فيرصها فيه رصا كما يفعله البناء في القالب أو النساج في المنوال حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه فان لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على انحاء مختلفة فسؤال الطلول في الشعر يكون بخطاب الطلول كقوله

* يا دارمية بالعلياء فالسند * ويكون باستدعاء الصحب للوقوف والسؤال كقوله * قفا نسأل الدار التي خف أهلها * أو باستبكاء الصحب على الطلل كقوله * قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين كقوله * ألم تسأل فتخبرك الرسوم * ومثل تحية الطلول بالامر لمخاطب غير معين بتحيتها كقوله * حي الديار بجانب الغزل * أو بالدعاء لها بالسقيا كقوله

اسقى طلولهم أجش هزيم * وغدت عليهم نضرة ونعيم

أو سؤاله السقيا لها من البرق كقوله

يا برق طالع منزلا بالابرق * واحد السحاب لها حداء الانيق

أو مثل التفجع في الجزع باستدعاء البكاء كقوله

كذا فليجل الخطب وليفدح الامر * وليس لعين لم يفض ماؤها عذر

أو باستعظام الحادث كقوله * أرأيت من حملوا على الاعواد * أو بالتسجيل على الاكوان بالمصيبة لفقده كقوله

منابت العشب لا حام ولا راع * مضى الردى بطويل الرمح والباع

أو بالانكار على من لم يتفجع له من الجمادات كقول الخارجية

أيا شجر الخابور مالك مورقا * كأنك لم تجزع على ابن طريف

أو بتهنئة فريقه بالراحة من ثقل وطأته كقوله

ألق الرماح ربيعة بن نزار * أودى الردى بفريقك المغوار

وأمثال ذلك كثير في سائر فنون الكلام ومذاهبه وتنتظم التراكيب فيه بالجمل وغير الجمل انشائية وخبرية اسمية وفعلية متفقة وغير متفقة مفصولة وموصولة على ما هو شأن التراكيب في الكلام العربي في مكان كل كلمة من الاخرى يعرفك فيه ما تستفيده بالارتياض في أشعار العرب من القالب الكلي المجرد في الذهن من التراكيب المعينة التي ينطبق ذلك القالب على جميعها فان مؤلف الكلام هو كالبناء أو النساج والصورة الذهنية المنطبقة كالقالب الذي يبني فيه أو المنوال الذي ينسج عليه فان خرج عن القالب في بنائه أو على المنوال في نسجه كان فاسدا ولا تقولن ان معرفة قوانين البلاغة كافية في ذلك لانا نقول قوانين البلاغة انما هي قواعد علمية قياسية تفيد جواز استعمال التراكيب على هيأتها الخاصة بالقياس وهو قياس علمي صحيح مطرد كما هو قياس القوانين الاعرابية وهذه الاساليب التي نحن نقررها ليست من القياس في شئ انما هي هيئة ترسخ في النفس من تتبع التراكيب في شعر العرب

بجريانها على اللسان حتى تستحكم صورتها فيستفيد بها العمل على مثالها والاحتذاء
بها فى كل تركيب من الشعر كما قدمنا ذلك فى الكلام باطلاق وان القوانين العلمية من
العربية والبيان لا تفيد تعليمه بوجه وليس كل ما يصح فى قياس كلام العرب وقوانينه
العلمية استعملوه وانما المستعمل عندهم من ذلك أنحاء معروفة يطلع عليها الحافظون
لكلامهم تندرج صورتها تحت تلك القوانين القياسية فاذا نظر فى شعر العرب على
هذا النحو وبهذه الاساليب الذهنية التى تصير كالقوالب كان نظرا فى المستعمل من
تراكيبهم لا فيما يقتضيه القياس ولهذا قلنا ان المحصل لهذه القوالب فى الذهن انما
هو حفظ أشعار العرب وكلامهم وهذه القوالب كما تكون فى المنظوم تكون فى
المنثور فان العرب استعملوا كلامهم فى كلا الفنين وجاؤا به مفصلا فى النوعين
ففى الشعر بالقطع الموزونة والقوافى المقيدة واستقلال الكلام فى كل قطعة وفى
المنثور يعتبرون الموازنة والتشابه بين القطع غالبا وقد يقيدونه بالاسجاع وقد
يرسلونه وكل واحدة من هذه معروفة فى لسان العرب والمستعمل منها عندهم هو
الذى يبنى مؤلف الكلام عليه تأليفه ولا يعرفه الا من حفظ كلامهم حتى يتجرد فى
ذهنه من القوالب المعينة الشخصية قالب كلى مطلق يحذو حذوه فى التأليف كما
يحذو البناء على القالب والنساج على المنوال فلهذا كان من تأليف الكلام منفردا
عن نظر النحوى والبيانى والعروضى نعم ان مراعاة قوانين هذه العلوم شرط فيه
لا يتم بدونها فاذا تحصلت هذه الصفات كلها فى الكلام اختص بنوع من النظر لطيف
فى هذه القوالب التى يسمونها أساليب ولا يفيده الا حفظ كلام العرب نظما ونثرا
واذا تقرر معنى الاسلوب ما هو فلنذكر بعده حدا أو رسما للشعر به تفهم حقيقته
على صعوبة هذا الغرض فانا لم نقف عليه لاحد من المتقدمين فيما رأيناه وقول
العروضيين فى حده انه الكلام الموزون المقفى ليس بحد لهذا الشعر الذى نحن بصدده
ولا رسم له وصناعتهم انما تنظر فى الشعر باعتبار ما فيه من الاعراب والبلاغة والوزن
والقوالب الخاصة فلا جرم أن حدهم ذلك لا يصلح له عندنا فلا بد من تعريف يعطينا
حقيقته من هذه الحيثية فنقول الشعر هو الكلام البليغ المبنى على الاستعارة
والاوصاف المفصل بأجزاء متفقة فى الوزن والروى مستقل كل جزء منها فى
غرضه ومقصده عما قبله وبعده الجارى على أساليب العرب المخصوصة به فقولنا
الكلام البليغ جنس وقولنا المبنى على الاستعارة والاوصاف فصل عما يخلو من هذه
فانه فى الغالب ليس بشعر وقولنا المفصل بأجزاء متفقة الوزن والروى فصل له عن
الكلام المنثور الذى ليس بشعر عند الكل وقولنا مستقل كل جزء منها فى غرضه

ومقصده عما قبله وبعده بيان للحقيقة لان الشعر لا تكون أبياته الا كذلك ولم يفصل به شيء وقولنا الجاري على الاساليب المخصوصة به فصل له عما لم يجر منه على أساليب العرب المعروفة فانه حينئذ لا يكون شعرا انما هو كلام منظوم لان الشعر له أساليب تخصه لا تكون للمنثور وكذا أساليب المنثور لا تكون للشعر فما كان من الكلام منظوما وليس على تلك الاساليب فلا يكون شعرا وبهذا الاعتبار كان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الادبية يرون أن نظم المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شيء لانهما لم يجريا على أساليب العرب من الامم عند من يرى أن الشعر يوجد للعرب وغيرهم ومن يرى أنه لا يوجد لغيرهم لا يحتاج الى ذلك ويقول مكانه الجاري على الاساليب المخصوصة واذ قد فرغنا من الكلام على حقيقة الشعر فلنرجع الى الكلام في كيفية عمله فنقول * اعلم ان لعمل الشعر واحكام صناعته شروطا أولها الحفظ من جنسه أي من جنس شعر العرب حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها ويتخير المحفوظ من الحر النقي الكثير الاساليب وهذا المحفوظ المختار أقل ما يكفي فيه شعر شاعر من الفحول الاسلاميين مثل ابن أبي ربيعة وكثير وذي الرمة وجرير وأبي نواس وحبيب والبحتري والرضي وأبي فراس وأكثره شعر كتاب الاغاني لانه جمع شعر أهل الطبقة الاسلامية كله والمختار من شعر الجاهلية ومن كان خاليا من المحفوظ فنظمه قاصر رديء ولا يعطيه الرونق والحلاوة الا كثرة المحفوظ فمن قل حفظه أو عدم لم يكن له شعر وانما هو نظم ساقط واجتناب الشعر أولى بمن لم يكن له محفوظ ثم بعد الامتلاء من الحفظ وشحذ القريحة للنسج على المنوال يقبل على النظم وبالاكثار منه تستحكم ملكته وترسخ وربما يقال ان من شرطه نسيان ذلك المحفوظ لتمحي رسومه الحرفية الظاهرة اذ هي صادة عن استعمالها بعينها فاذا نسيها وقد تكيفت النفس بها انتقش الاسلوب فيها كأنه منوال يأخذ بالنسج عليه بأمثالها من كلمات أخرى ضرورة ثم لا بد له من الخلوة واستجادة المكان المنظور فيه من المياه والازهار وكذا المسموع لاستنارة القريحة باستجماعها وتنشيطها بملاذ السرور ثم مع هذا كله فشرطه أن يكون على جمام ونشاط فذلك أجمع له وأنشط للقريحة أن تأتي بمثل ذلك المنوال الذي في حفظه قالوا وخير الاوقات لذلك أوقات البكر عند الهبوب من النوم وفراغ المعدة ونشاط الفكر وفي هؤلاء الجمام وربما قالوا ان من بواعثه العشق والانتشاء ذكر ذلك ابن رشيق في كتاب العمدة وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة واعطاء حقها ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله قالوا فان استصعب عليه بعد هذا كله فليتركه الى وقت آخر ولا يكره نفسه عليه وليكن بناء البيت على القافية من أول صوغه ونسجه

بعضها او يبنى الكلام عليها الى آخره لانه ان غفل عن بناء البيت على القافية صعب عليه وضعها فى محلها فربما تجىء نافرة قلقة واذا سمح الخاطر بالبيت ولم يناسب الذى عنده فليتركه الى موضعه الاليق به فان كل بيت مستقل بنفسه ولم تبق الا المناسبة فليتخير فيها كما يشاء وليراجع شعره بعد الخلاص منه بالتنقيح والنقد ولا يضن به على الترك اذا لم يبلغ الاجادة فان الانسان مفتون بشعره اذ هو نبات فكره واختراع قريحته ولا يستعمل فيه من الكلام الا الافصح من التراكيب والخالص من الضرورات اللسانية فليهجرها فانها تنزل بالكلام عن طبقة البلاغة وقد حظر أئمة اللسان عن المولد ارتكاب الضرورة اذ هو فى سعة منها بالعدول عنها الى الطريقة المثلى من الملكة ويجتنب أيضا المعقد من التراكيب جهده وانما يقصد منها ما كانت معانيه تسابق ألفاظه الى الفهم وكذلك كثرة المعانى فى البيت الواحد فان فيه نوع تعقيد على الفهم وانما المختار منه ما كانت ألفاظه طبقا على معانيه أو أوفى فان كانت المعانى كثيرة كان حشوا واستعمل الذهن بالغوص عليها فمنع الذوق عن استيفاء مدركه من البلاغة ولا يكون الشعر سهلا الا اذا كانت معانيه تسابق ألفاظه الى الذهن ولهذا كان شيوخنا رحمهم الله يعيبون شعر أبى بكر بن خفاجة شاعر شرق الاندلس لكثرة معانيه وازدحامها فى البيت الواحد كما كانوا يعيبون شعر المتنبى والمعرى بعدم النسج على الاساليب العربية كما مر فكان شعرهما كلاما منظوما نازلا عن طبقة الشعر والحاكم بذلك هو الذوق وليجتنب الشاعر أيضا الحوشى من الالفاظ والمقصر وكذلك السوقى المبتذل بالتداول بالاستعمال فانه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة أيضا فيصير مبتذلا ويقرب من عدم الافادة كقولهم النار حارة والسماء فوقنا وبمقدار ما يقرب من طبقة عدم الافادة يبعد عن رتبة البلاغة اذ هما طرفان ولهذا كان الشعر فى الربانيات والنبويات قليل الاجادة فى الغالب ولا يحذق فيه الا الفحول وفى القليل على العسر لان معانيها متداولة بين الجمهور فتصير مبتذلة لذلك واذا تعذر الشعر بعد هذا كله فليراوضه ويعاوده فان القريحة مثل الضرع يدر بالامتراء ويجف بالترك والاهمال وبالجملة فهذه الصناعة وتعلمها مستوفى فى كتاب العمدة لابن رشيق وقد ذكرنا منها ما حضرنا بحسب الجهد ومن أراد استيفاء ذلك فعليه بذلك الكتاب ففيه البغية من ذلك وهذه نبذة كافية والله المعين وقد نظم الناس فى أمر هذه الصناعة الشعرية ما يجب فيها ومن أحسن ما قيل فى ذلك وأظنه لابن رشيق

لعن الله صنعة الشعر ماذا * من صنوف الجهال منه لقينا
يؤثرون الغريب منه على ما * كان سهلا للسامعين مبينا

ويرون المحال معنى صحيحا * وخسيس الكلام شيأ ثمينا
يجهلون الصواب منه ولايد * رون للجهل انهم يجهلونا
فهم عند من سوانا يلامو * ن وفي الحق عندنا يعذرونا
انما الشعر ما يناسب في النظـ * ـم وان كان في الصفات فنونا
فأتى بعضه يشاكل بعضا * وأقامت له الصدور المتونا
كل معنى أتاك منه على ما * تتمنى ولم يكن أو يكونا
فتناهى من البيان الى أن * كاد حسنا يبين للناظرينا
فكأن الالفاظ منه وجوه * والمعاني ركبن فيها عيونا
ان ما في المرام حسب الاماني * يتحلى بحسنه المنشدونا
فاذا ما مدحت بالشعر حرا * رمت فيه مذاهب المشتهينا
فجعلت النسيب سهلا قريبا * وجعلت المديح صدقا مبينا
وتعليت ما يهجن في السمـ * ـع وان كان لفظه موزونا
واذا ما عرضته بهجاء * عبت فيه مذاهب المرقبينا
فجعلت التصريح منه دواء * وجعلت التعريض داء دفينا
واذا ما بكيت فيه على الغا * دين يوما للبين والظاعنينا
حلت دون الاسى وذلت ما كا * ن من الدمع في العيون مصونا
ثم ان كنت عاتبا جئت بالوعـ * ـد وعيدا وبالصعوبة لينا
فتركت الذي عتبت عليه * حذرا آمنا عزيزا مهينا
وأصح القريض ما قارب النظـ * ـم وان كان واضحا مستبينا
فاذا قيل أطمع الناس طرا * واذا ريم أعجز المعجزينا

ومن ذلك أيضا قول بعضهم

الشعر ما قومت ربع صدوره * وشددت بالتهذيب أس متونه
ورأبت بالاطناب شعب صدوعه * وفتحت بالايجاز عور عيونه
وجمعت بين قريبه وبعيده * وجمعت بين مجمه ومعينه
واذا مدحت به جوادا ماجدا * وقضيته بالشكر حق ديونه
أصفيته نفيس رضيته * وخصصته بخطيره وثمينه
فيكون جزلا في مساق صنوفه * ويكون سهلا في اتفاق فنونه
واذا بكيت به الديار وأهلها * أجريت للمحزون ماء شؤونه
واذا أردت كناية عن ريبة * باينت بين ظهوره وبطونه

بفعلات سامعه يشوب شكوكه * بثبوته وظنونه بيقينه

٤٨ (فصل في ان صناعة النظم والنثر انما هي في الالفاظ لا في المعاني)

(اعلم) أن صناعة الكلام نظما ونثرا انما هي في الالفاظ لا في المعاني وانما المعاني تبع لها وهي أصل فالصانع الذي يحاول ملكة الكلام في النظم والنثر انما يحاولها في الالفاظ بحفظ أمثالها من كلام العرب ليكثر استعماله وجريه على لسانه حتى تستقر له الملكة في لسان مضر ويتخلص من العجمة التي ربي عليها في جيله ويفرض نفسه مثل وليد ينشأ في جيل العرب ويلقن لغتهم كما يلقنها الصبي حتى يصير كأنه واحد منهم في لسانهم وذلك انا قدمنا أن للسان ملكة من الملكات في النطق يحاول تحصيلها بتكرارها على اللسان حتى تحصل والذي في اللسان والنطق انما هو الالفاظ وأما المعاني فهي في الضمائر وأيضا فالمعاني موجودة عند كل واحد وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى فلا تحتاج الى صناعة وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه وهو بمثابة القوالب للمعاني فكما ان الاواني التي يغترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف والماء واحد في نفسه وتختلف الجودة في الاواني المملوأة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء كذلك جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه باعتبار تطبيقه على المقاصد والمعاني واحدة في نفسها وانما الجاهل بتأليف الكلام وأساليبه على مقتضى ملكة اللسان اذا حاول العبارة عن مقصوده ولم يحسن بمثابة المقعد الذي يروم النهوض ولا يستطيعه لفقدان القدرة عليه والله يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون

٤٩ (فصل في ان حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ)

قد قدمنا أنه لابد من كثرة الحفظ لمن يروم تعلم اللسان العربي وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته في جنسه وكثرته من قلته تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ فمن كان محفوظه شعر حبيب أو العتابي أو ابن المعتز أو ابن هانئ أو الشريف الرضي أو رسائل ابن المقفع أو سهل بن هرون أو ابن الزيات أو البديع أو الصابي تكون ملكته أجود وأعلى مقاما ورتبة في البلاغة ممن يحفظ شعر ابن سهل من المتأخرين أو ابن النبيه أو ترسل البيساني أو العماد الاصبهاني لنزول طبقة هؤلاء عن أولئك يظهر ذلك للبصير الناقد صاحب الذوق وعلى مقدار جودة المحفوظ أو المسموع تكون جودة الاستعمال من بعده ثم اجادة الملكة من بعدهما فبارتقاء المحفوظ في طبقته من

الكلام ترتقي الملكة الحاصلة لان الطبع انما ينسج على منوالها وتنمو قوى الملكة بتغذيتها وذلك أن النفس وان كانت في جبلتها واحدة بالنوع فهي تختلف في البشر بالقوة والضعف في الادراكات واختلافها انما هو باختلاف ما يرد عليها من الادراكات والملكات والالوان التي تكيفها من خارج فبهذه يتم وجودها وتخرج من القوة الى الفعل صورتها والملكات التي تحصل لها انما تحصل على التدريج كما قدمناه فالملكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر وملكة الكتابة بحفظ الاسجاع والترسيل والعلمية بمخالطة العلوم والادراكات والابحاث والانظار والفقهية بمخالطة الفقه وتنظير المسائل وتفريعها وتخريج الفروع على الاصول والتصوفية الربانية بالعبادات والاذكار وتعطيل الحواس الظاهرة بالخلوة والانفراد عن الخلق ما استطاع حتى تحصل له ملكة الرجوع الى حسه الباطن وروحه وينقلب ربانيا وكذا سائرها وللنفس في كل واحد منها لون تتكيف به وعلى حسب ما نشأت الملكة عليه من جودة أو رداءة تكون تلك الملكة في نفسها فملكة البلاغة العالية الطبقة في جنسها انما تحصل بحفظ العالي في طبقته من الكلام ولهذا كان الفقهاء وأهل العلوم كلهم قاصرين في البلاغة وما ذلك الا لما يسبق الى محفوظهم ويمتلئ به من القوانين العلمية والعبارات الفقهية الخارجة عن أسلوب البلاغة والنازلة عن الطبقة لان العبارات عن القوانين والعلوم لاحظ لها في البلاغة فاذا سبق ذلك المحفوظ الى الفكر وكثر وتلونت به النفس جاءت الملكة الناشئة عنه في غاية القصور وانحرفت عباراته عن أساليب العرب في كلامهم وهكذا نجد شعر الفقهاء والنحاة والمتكلمين والنظار وغيرهم ممن لم يمتلئ من حفظ النقي الحر من كلام العرب (أخبرني) صاحبنا الفاضل أبو القاسم بن رضوان كاتب العلامة بالدولة المرينية قال ذاكرت يوما صاحبنا أبا العباس بن شعيب كاتب السلطان أبي الحسن وكان المقدم في البصر باللسان لعهده فأنشدته مطلع قصيدة ابن النحوي ولم أنسبها له وهو هذا

لم أدر حين وقفت بالاطلال * ما الفرق بين جديدها والبالي

فقال لي على البديهة هذا شعر فقيه فقلت له ومن أين لك ذلك قال من قوله ما الفرق اذ هي من عبارات الفقهاء وليست من أساليب كلام العرب فقلت لله أبوك انه ابن النحوي * وأما الكتاب والشعراء فليسوا كذلك لتخيرهم في محفوظهم ومخالطتهم كلام العرب وأساليبهم في الترسل وانتقائهم له الجيد من الكلام * ذاكرت يوما صاحبنا أبا عبد الله بن الخطيب وزير الملوك بالاندلس من بني الاحمر وكان الصدر المقدم في الشعر والكتابة فقلت له أجد استصعابا علي في نظم الشعر متى رمته مع بصري به

وحفظي للجيد من الكلام من القرآن والحديث وفنون من كلام العرب وان كان محفوظي قليلا وانما أتيت والله أعلم من قبل ما حصل في حفظي من الاشعار العلمية والقوانين التأليفية فاني حفظت قصيدتي الشاطبي الكبرى والصغرى في القرآت وتدارست كتابي ابن الحاجب في الفقه والاصول وجمل الخونجي في المنطق وبعض كتاب التسهيل وكثيرا من قوانين التعليم في المجالس فامتلأ محفوظي من ذلك وخدش وجه الملكة التي استعددت لها بالمحفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب فعاق القريحة عن بلوغها فنظر الي ساعة متعجبا ثم قال لله أنت وهل يقول هذا الا مثلك *

ويظهر لك من هذا الفصل وما تقرر فيه سر آخر وهو اعطاء السبب في أن كلام الاسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية في منثورهم ومنظومهم فانا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق ونصيب وغيلان ذي الرمة والاحوص وبشار ثم كلام السلف من العرب في الدولة الاموية وصدرا من الدولة العباسية في خطبهم وترسيلهم ومحاوراتهم للملوك أرفع طبقة في البلاغة من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة بن عبدة وطرفة بن العبد ومن كلام الجاهلية في منثورهم ومحاوراتهم والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة والسبب في ذلك ان هؤلاء الذين أدركوا الاسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الاتيان بمثليهما لكونها ولجت في قلوبهم ونشأت على أساليبها نفوسهم فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأصفى رونقا من أولئك وأرصف مبنى وأعدل تثقيفا بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة وتأمل ذلك يشهد لك به ذوقك ان كنت من أهل الذوق والتبصر بالبلاغة * ولقد سألت يوما شيخنا الشريف أبا القاسم قاضي غرناطة لعهدنا وكان شيخ هذه الصناعة أخذ بسبتة عن جماعة من مشيختها من تلاميذ الشلوبين واستبحر في علم اللسان وجاء من وراء الغاية فيه فسألته يوما ما بال العرب الاسلاميين أعلى طبقة في البلاغة من الجاهليين ولم يكن ليستنكر ذلك بذوقه فسكت طويلا ثم قال لي والله ما أدري فقلت أعرض عليك شيئا ظهر لي في ذلك ولعله السبب فيه وذكرت له هذا الذي كتبت فسكت معجبا ثم قال لي يا فقيه هذا كلام من حقه أن يكتب بالذهب وكان من بعدها يؤثر محلي ويصيخ في مجالس التعليم الى قولي ويشهد لي بالنباهة في العلوم والله خلق الانسان وعلمه البيان

(اعلم) أن الشعر كان ديوانا للعرب فيه علومهم وأخبارهم وحكمهم وكان رؤساء العرب منافسين فيه وكانوا يقفون بسوق عكاظ لانشاده وعرض كل واحد منهم ديباجته على فحول الشان وأهل البصر لتمييز حوله حتى انتهوا الى المناغاة فى تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت ابراهيم كما فعل امرؤ القيس بن حجر والنابغة الذبيانى وزهير بن أبى سلمى وعنترة بن شداد وطرفة بن العبد وعلقمة بن عبدة والاعشى وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع فانه انما كان يتوصل الى تعليق الشعر بها من كان له قدرة على ذلك بقومه وعصبيته ومكانه فى مضر على ما قيل فى سبب تسميتها بالمعلقات ثم انصرف العرب عن ذلك أول الاسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحى وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض فى النظم والنثر زمانا ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة ولم ينزل الوحى فى تحريم الشعر وحظره وسمعه النبى صلى الله عليه وسلم وأثاب عليه فرجعوا حينئذ الى ديدنهم منه وكان لعمر بن أبى ربيعة كبير قريش لذلك العهد مقامات فيه عالية وطبقة مرتفعة وكان كثيرا ما يعرض شعره على ابن عباس فيقف لاستماعه معجبا به ثم جاء من بعد ذلك الملك والدولة العزيزة وتقرب اليهم العرب بأشعارهم يمتدحونهم بها ويجيزهم الخلفاء بأعظم الجوائز على نسبة الجودة فى أشعارهم ومكانهم من قومهم ويحرصون على استهداء أشعارهم يطلعون منها على الآثار والاخبار واللغة وشرف اللسان والعرب يطالبون ولدهم بحفظها ولم يزل هذا الشأن أيام بنى أمية وصدرا من دولة بنى العباس وانظر ما نقله صاحب العقد فى مسامرة الرشيد للاصمعى فى باب الشعر والشعراء تجد ما كان عليه الرشيد من المعرفة بذلك والرسوخ فيه والعناية بانتحاله والتبصر بجيد الكلام ورديئه وكثرة محفوظه منه ثم جاء خلق من بعدهم لم يكن اللسان لسانهم من أجل العجمة وتقصيرها باللسان وانما تعلموه صناعة ثم مدحوا باشعارهم أمراء العجم الذين ليس اللسان لهم طالبين معروفهم فقط لا سوى ذلك من الاغراض كما فعله حبيب والبحترى والمتنبى وابن هانئ ومن بعدهم الى هلم جرا فصار غرض الشعر فى الغالب انما هو الكذب والاستجداء لذهاب المنافع التى كانت فيه للاولين كما ذكرناه آنفا وأنف منه لذلك أهل الهمم والمراتب من المتأخرين وتغير الحال وأصبح تعاطيه هجنة فى الرياسة ومذمة لاهل المناصب الكبيرة والله مقلب الليل والنهار

٥١ (فصل في اشعار العرب واهل الامصار لهذا العهد)

(اعلم) ان الشعر لا يختص باللسان العربى فقط بل هو موجود فى كل لغة سواء كانت

عربية أو عجمية وقد كان في الفرس شعراء وفي يونان كذلك وذكر منهم ارسطو في كتاب المنطق أوميروس الشاعر وأثنى عليه وكان في حمير أيضا شعراء متقدمون ولما فسد لسان مضر ولغتهم التي دونت مقاييسها وقوانين اعرابها وفسدت اللغات من بعد بحسب ما خالطها ومازجها من العجمة فكانت تحصل العرب بأنفسهم لغة خالفت لغة سلفهم من مضر في الاعراب جملة وفي كثير من الموضوعات اللغوية وبناء الكلمات وكذلك الحضر أهل الامصار نشأت فيهم لغة أخرى خالفت لسان مضر في الاعراب وأكثر الاوضاع والتصاريف وخالفت أيضا لغة الجيل من العرب لهذا العهد واختلفت هي في نفسها بحسب اصطلاحات أهل الآفاق فلاهل الشرق وأمصاره لغة غير لغة أهل المغرب وأمصاره وتخالفهما أيضا لغة اهل الاندلس وأمصاره ثم لما كان الشعر موجودا بالطبع في أهل كل لسان لان الموازين على نسبة واحدة في اعداد المتحركات والسواكن وتقابلها موجودة في طباع البشر فلم يهجر الشعر بفقدان لغة واحدة وهي لغة مضر الذين كانوا فحوله وفرسان ميدانه حسبما اشتهر بين أهل الخليقة بل كل جيل وأهل كل لغة من العرب المستعجمين والحضر أهل الامصار يتعاطون منه ما يطاوعهم في انتحاله ووصف بنائه على مهيع كلامهم فأما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الاعاريض على ما كان عليه سلفهم المستعربون ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجاء ويستطردون في الخروج من فن الى فن في الكلام وربما هجموا على المقصود لاول كلامهم وأكثر ابتدائهم في قصائدهم باسم الشاعر ثم بعد ذلك ينسبون فأهل أمصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد بالاصمعيات نسبة الى الاصمعي راوية العرب في أشعارهم وأهل المشرق من العرب يسمون هذا النوع من الشعر بالبدوي وربما يلحنون فيه ألحانا بسيطة لا على طريقة الصناعة الموسيقية ثم يغنون به ويسمون الغناء به باسم الحوراني نسبة الى حوران من أطراف العراق والشأم وهي من منازل العرب البادية ومساكنهم الى هذا العهد * ولهم فن آخر كثير التداول في نظمهم يجيئون به معصبا على أربعة أجزاء يخالف آخرها الثلاثة في رويه ويلتزمون القافية الرابعة في كل بيت الى آخر القصيدة شبيها بالمربع والمخمس الذي أحدثه المتأخرون من المولدين ولهؤلاء العرب في هذا الشعر بلاغة فائقة وفيهم الفحول والمتأخرون والكثير من المنتحلين للعلوم لهذا العهد وخصوصا علم اللسان يستنكر هذه الفنون التي لهم اذا سمعها ويمج نظمهم اذا أنشد ويعتقد أن ذوقه انما نبا عنها لاستهجانها وفقدان الاعراب منها وهذا انما أتى من فقدان الملكة في لغتهم فلو حصلت

له ملكة من ملكاتهم أشهدله طبعه وذوقه بلاغتها ان كان سليما من الآفات فى فطرته ونظره والا فالاعراب لا مدخل له فى البلاغة انما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال من الوجود فيه سواء كان الرفع دالا على الفاعل والنصب دالا على المفعول أو بالعكس وانما يدل على ذلك قرائن الكلام كما هو لغتهم هذه فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل الملكة فاذا عرف اصطلاح فى ملكة واشتهر صحت الدلالة واذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة ولا عبرة بقوانين النحاة فى ذلك وأساليب الشعر وفنونه موجودة فى أشعارهم هذه ماعدا حركات الاعراب فى أواخر الكلم فان غالب كلماتهم موقوفة الآخر ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدا من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الاعراب فمن أشعارهم على لسان الشريف بن هاشم يبكى الجازية بنت سرحان ويذكر ظعنها مع قومها الى المغرب

قال الشريف ابن هاشم على * ترى كبدى حرا شكت من زفيرها
يعز للاعلام اين ما رأت خاطرى * يرد اعلام البدو يلقى عصيرها
وماذا شكات الروح مما طرا لها * عذاب ودائع تلف الله خبيرها
بحسن قطاع عامرى ضميرها * طوى وهند جافى ذكيرها
وعادت كما خوارة فى يد غاسل * على مثل شوك الطلح عقدوا بسيرها
تجابدوها اثنين والنزع بينهم * على شول لعيه والمعانى جريرها
وباتت دموع العين ذارفات اشانها * شبيه دوار السوانى يديرها
تدارك منها الجم حذر اورادها * مروان يجى مترا كامن صبيرها
اصب من القيعان من جانب الصفا * عيون ولهمان البرق فى غديرها
ها أيقن منى سنابلت غدوة * بغداد ناحت منى حتى فقيرها
ونادى المنادى بالرحيل وشدوا * وعرج غار بها على مستعيرها
وشد لها الادهم دياب بن غانم * على يد ماضى وليد مقرب مسيرها
وقال لهم حسن بن سرحان غربوا * وسوقوا النجوع ان كان ناهو غريرها
ويد أص وسده سهيا بالتسامح * وبالبين لا يجحدوا فى صغيرها
غدرنى زمان السفع من عابس الوغى * وما كان يرمى من حيروه سيرها
غدرنى وهو زعما صديق وصاحبى * ونالبه ما من درى ما يديرها
ورجع يقول لهم بلاد ابن هاشم * لخير البلاد المعطشة ما يخيرها
حرام على باب بغداد وأرضها * داخل ولا عائد له من بعيرها
فصدق درى من بلاد ابن هاشم * على الشمس او حول الغطا من هجيرها

وباتت نيران العذارى قوادح * بجرّوا بجرحان فيبزوا أسيرها

ومن قولهم في رثاء أمير زناتة أبي سعدى البقرى مقارعهم بافريقية وأرض الزاب ورثاؤهم له على جهة التهكم

تقول فتاة الحيّ سعدى وهاضها * ولها في ظعون الباكين عويل

أيا سائلي عن قبر الزناتي خليفه * خذ النعت مني لا تكون هبيل

تراه العالي الواردات وفوقه * من الربط عيساوي بناه طويل

وله جيل الغور من سائر النقا * به الواد شرقا والبراع دليل

أيا لهف كبدي على الزناتي خليفه * قد كان لاعقاب الجياد سليل

قتيل فتى الهيجا دياب بن غانم * جراحه كافواه المزاد تسيل

يا جارنا مات الزناتي خليفه * لا ترحل الا أن تريد رحيل

وبالامس رحلنا الثلاثين مرة * وعشرا وستا في النهار قليل

ومن قولهم على لسان الشريف بن هاشم يذكر عتابا وقع بينه وبين ماضي بن مقرب

تبدّى لي ماضي الجياد وقال لي * أيا شكر ما احناشي عليك رضاش

أيا شكر عدّى مابقى ودّ بيننا * وراناعر يب عربالابسين غباش

نحن عديناقصاد فوا ماقضى لنا * كما صادفت طعم الزناد طشاش

يا عدنا يا شكر عدّى لبر سلامه * لنجد ومن عمر بلاده عاش

ان كانت بنت سيدهم بأرضهم * هي العرب ماردنا لهن طياش

ومن قولهم في ذكر رحلتهم الى الغرب وغلبهم زناتة عليه

وأيّ جميل ضاع لي في الشريف بن هاشم * وأي جميل ضاع قبلي جميلها

أنا كنت انا وياه في زهو بيتنا * عناني لجبه ماعناني دليلها

وعدت كاني شارب من مدامة * من الخمر قهوة ماقدر من يميلها

أو مثل شمطامات مضيون كبدها * غريبا وهي مدّوخه عن قبيلها

أتاها زمان السوء حتى ادّوخت * وهي بين عرب غافلا عن نزيلها

كذلك أنا مما لحاني من الوحي * شاكي بكبد باديا من عليلها

وأمرت قومي بالرحيل وبكروا * وقوّوا وشدّاد الحوايا حميلها

قعدنا سبعة أيام محبوس ضعننا * والبدو ماترفع عمود يقيلها

تظلّ على احداث الثنايا سوارى * يضل الحزفوق التصاوى تصيلها

ومن شعر سلطان بن مظفر بن يحيى من الزواودة أحد بطون رياح وأهل الرياسة فيهم يقولها وهو معتقل بالمهدية في سجن الامير أبي زكريا بن أبي حفص أوّل ملوك افريقية

من الموحدين

يقول وفي نوح الدجا بعد ذهبة * حرام على أجفان عين منامها
أيا من لقي حالف الوجد والاسى * وروحا هيامي طال ما في سقامها
حجازية بدوية عربيـــة * عداوية ولها بعيد امرامها
مولعة بالبدو لا تألف القرى * سوا عابل الوعد ابوالى خيامها
عمان ومشتهيا بها كل سرية * مصونة بها ولها صحيح غرامها
ومرباعها عشب الاراضي من الحما * لواني من الحور الحلا يا حسامها
تسوق بسوق العين مما تداركت * عليها من السحب السواري غمامها
وماذا بكت بالما وماذا تبلجت * عيون عذارى المزن عذبا جمامها
كأن عروس البكر لاحت ثيابها * عليها ومن نور الاقاحي حزامها
فلاة ودهنا واتساع ومنـــة * ومرعى سوى ما في مراعي نعامها
ومشروبها من محض ألبان شولها * عليهم ومن لحم الحواري طعامها
تعاتب على الابواب والموقف الذي * يشيب الفتى مما يقاسي زحمها
سقى الله ذا الوادي المشجر بالحيا * وبلا ويحيي ما بلي من رمامها
فكافأتها بالود مني وليتني * ظفرت بأيام مضت في ركامها
ليالي أقواس الصبا في سواعدي * اذا قت لا تخطي من ايدي سهامها
وفرسي عديدا تحت سرجي مسافة * زمان الصبا سرجا وبيدي لجامها
وكم من رداح أسهرتني ولم أرى * من الخلق أبهى من نظام ابتسامها
وكم غيرها من كاعب مرجحنة * مطرزة الاجفان باهي وشامها
وصفقت من وجدي عليها طريحة * بكفي ولم ينسى جداها ذمامها
ونار بخطب الوجد توهج في الحشى * ولو حج لا يطفا من الماء مرامها
أيا من وعدتي الوعد هذا الى متى * فني العمر في دار عماني ظلامها
ولكن رأيت الشمس تكسف ساعة * ويغمى عليها ثم يسري غمامها
بنود ورايات من السعد أقبلت * الينا بعون الله يهفو علامها
أرى في الفلا بالعين أظعان عزوتي * ورمحي على كتفي وسيري امامها
بجرعا عتاق النوق من عود شامس * أحب بلاد الله عندي حشامها
الى منزل بالجعفرية للذي * مقيم بها ما الذ عندي مقامها
وتأتي سراة من هلال بن عامر * يزيل الصدا والغل عني سلامها
بهم تضرب الامثال شرقا ومغربا * اذا قاتلوا قوما سريع انهزامها

عليهم ومن هو في حماهم تحية * من الدهر ما غنى بقبة حمامها
فدع ذا ولا تأسف على سالف مضى * ترى الدنيا ما دامت لاحد دوامها

ومن أشعار المتأخرين منهم قول خالد بن حمزة بن عمر شيخ الكعوب من أولاد أبي الليل يعاتب أقتالهم أولاد مهلهل ويجيب شاعرهم شبل بن مسكيانة بن مهلهل عن أبيات فخر عليهم فيها بقومه

يقول وذا قول المصاب الذي نشا * قوارع قيعان يعاني صعابها
يريح بها حادي المصاب اذا انتشى * فنونا من أنشاد القوافي عرابها
محبرة مختارة من نشادنا * تحدى بها تام الوشا ملتهابها
مغربلة عن نا قد في غضونها * محكمة القيعان دابي ودابها
وهيض بتذكاري لها يا ذوي الندى * قوارع من شبل وهذي جوابها
اشبل جنينا من حبالك طرائقا * فراح بريح الموجهين الغنابها
تخرت ولم تقصر ولا أنت عادم * سوى قلت في جمهورها ما أعابها
اقوالك في أم المتين بن حمزة * وحامي حماها عاديا في حرابها
أما تعلم انه قامها بعد ما لقي * رصاص بني يحيى وعلاق دابها
شم ابا من آهل الامر يا شبل خارق * وهل ريت من جا للوغى واصطلى بها
شواهد طفاها أضرمت بعد طفيه * وأثنا طفاها حاسر الأهابها
واضرم بعد الطفيتين التي مضت * نعاسا الى بيت المنايقتدي بها
كما كان هو يطالب على ذا تجنبت * رجال بني كعب الذي يتقى بها

ومنها في العتاب

وليد انعاتبتوا أنا أغنى لانني * غنيت بعلاق الثنا واغتصابها
على ونا ندفع بها كل مبضع * بالاسياف ننتاش العدا من رقابها
فان كانت الاملاك تبغت عرايس * علينا باطراف القنا اختضابها
ولا نقرها الارهاف ودبل * وزرق السبايا والمطايا ركابها
بني عمنا ما نرتضي الذل عله * تسير كالسنة الحناش انسلابها
وهي عالما بان المنايا تقيلها * بلا شك والدنيا سريع انقلابها

ومنها في وصف الظعائن

بظعن قطوع البيد لا تختشي العدا * قنوف بجوبات مخوف جنابها
ترى العين فيها قل لشبل عرائف * وكل مهاة محتظيها ربابها
ترى أهلها غض الصباح أن يقلها * بكل حلوب الجوف ماسد بابها

اهاكل يوم في الارامى قتائـل * وراالفاجرالمزوح عفواصبابها

ومن قولهم في الامثال الحكمية

وطلبك في الممنوع منك سفاهة * وصدك عمن صد عنك صواب

اذارايت ناسايغلقواعنك بابهم * ظهورالمطايا يفتح الله باب

ومن قول شبل يذكر انتساب الكعوب الى برجم

فشايب وشباب من أولاد برجم * جميع البرايا تشتكى من نهادها

ومن قوله يعاتب اخوانه في موالاة شيخ الموحدين أبي محمد بن تافراكين المستبد بحجابة السلطان بتونس على سلطانهم كفولة أبي اسحق ابن السلطان أبي يحيى وذلك فيما قرب من عصرنا

يقول بلا جهـل فتى الجود خالد * مقالة قوال وقال صـواب

مقالة حيران بذهن ولم يكن * هريجاولافيمايقول ذهاب

تهجست معنا نابهاالا لحاجة * ولاهرج ينقاد منه معاب

وليت بها كبدى وهي نعم صاحبه * حزينة فكرو الحزين يصاب

نفوهت بادى شرحها عن ما آرب * جرت من رجال في القبيل قراب

بني كعب أدنى الاقربين لدمّنا * بني عم منهـم شايب وشـباب

جرى عند فتح الوطن منا لبعضهم * مصافاة ودوا اتساع جـناب

وبعضهـم ملناله عن خصيمه * كما يعلموا قولي بقينه صاب

وبعضهمو مرهوب من بعض ملكنا * ضرابا وفي حز الظاهـر كتاب

وبعضهـمو جانا جريحا تسجمت * خواطـرهـا للتزيـل وهاب

وبعضهمو نظار فينا بسـوة * نقهـناه حتى ماعنا به ساب

رجع ينتهى مماسـنهنا تبجـه * مرارا وفي بعض المـرا ريهاب

وبعضهمو شاكى من اوغاد قادر * غلق عنه في احكام السقائف باب

فصمناه عنه واقتضى منه مورد * عـلى كره مولى البالى ودياب

ونحن على داني المدا نطلب العلا * لهـم ماحطنا للفجور نقاب

وحزنا حي وطن بترشيش بعدما * نفقنا عليها سـبقا ورقاب

ومهد من الاملاك ماكان خارج * على احكام والى أمرها ناب

بردع قروم من قروم قبيلنا * بني كعب لاواها الانريم وطاب

جرينابهم عن كل تاليف في العدا * وقنالهـم عن كل قبـد مناب

الى ان عاد من لا كان فيهم بهمة * ربيها وخيرانه عليـه نصاب

وركبوا السبايا المثمنات من آهلها * ولبسوا من آنواع الحرير ثياب
وساقوا المطايا بالشمر الانسواله * جماهيرما يغلوبها جلاب
وكسبوا من آصناف السعايا دشائر * ضخام لحزات الزمان تصاب
وعادوا نظيرالبرمكيين قبل دا * والا هلالا فى زمان دياب
وكانوا النادرعالكل مهمة * الى آن بان من نار العدو شهاب
خلوا الدار فى جنح الظلام ولا اتقوا * ملامه ولادار الكرام عتاب
كسوا الحى جلباب البهيم لستره * وهم لودروا البسوا قبيح جباب
لذلك منهم حابس مادار القنا * ذهل حلى ان كان عقله غاب
يظن ظنونا ليس نحن بأهلها * تمنى يكن له فى السماح شعاب
خطاهو ومن واتاه فى سوظنه * بالاثبات من ظن القبايح عاب
فواعزوتى ان الفتى بومحمد * وهوب لا آلاف بغير حساب
وبرحت الاوغادمنه وحسبوا * بروحه ما يحيى بروح سحاب
حروا بالمبواتحت السحاب شرائع * لقوا كل ما يستاملوه سراب
وهو لوعطى ما كان للراى عارف * ولا كان فى قلة عطاه صواب
وان نحن ما انستا ملوا عنه راحة * وانه بامهام التلاف مصاب
وان ماوطا ترشيش يضياق وسعها * عليه ويمشى بالفزوع لزاب
وانه منها عن قريب مفاصل * خنوج عناز هوالهنا وقباب
وعن فاتنات المارف بيض غوانج * ربوا خلف استار وخلف حجاب
يتيه اذا تاهوا ويصبوا اذا صبوا * بحسن قوانين وصوت رباب
يضلوه من عدم اليقين وربما * يطارح حتى ما كأنه شاب
بهم حازله زمه وطوع أوامر * ولذة ماكول وطيب شراب
حرام على ابن تافرا كين ما مضى * من الود الا ما بل بجراب
وان كان له عقل رجيح وفطنة * يلجج فى اليم الفريق غراب
وأما البدا لابدها من فياعل * كبار الى آن تبقى الرجال كباب
ويحمى بهاسوق علينا سلاعه * ويعمار موصوف القنا وحعاب
ويسى غلام طالب ربح ملكا * ندوما ولايمسى صحيح شباب
أناوا كلين الخبز تبغوا ادامه * غلطتوا أدمتوا فى السموم لباب

ومن شعر على بن عمر بن ابراهيم من رؤساء بنى عامر لهذا العهد أحد بطون زغبة يعاتب بنى عمه المتطاولين الى رياسته

محبرة كالدر في يد صانع * اذا كان في سلك الحرير نظام
أباحها منها فيه أسباب ما مضى * وشاء تبارك والضعون تسام
غدا منه لام الحي حين وانشطت * عصاها ولا صيد عليه حكام
ولكن ضميري يوم بان بهم البينا * تبرم على شوك القتاد برام
والا كأنّ براص التهامى قوادح * وبين عواج الكانفات ضرام
والا لكان القلب في يد قابض * أتاهم بمنشار القطيع غشام
لما قلت سما من شقا البين زارني * اذا كان ينادي بالفراق وخام
ألا يا ربوع كان بالامس عامر * بحي وحله والقطين لمام
وغيد تداني للخطاف ملاعب * دجى الليل فيهم ساهر ونيام
ونعم يشوف الناظرين اتجاهها * لنا ما بدا من مهرق وكظام
وعرود باسمها البدعو لسربها * واطلاق من شرب المها ونعام
واليوم ما فيها سوى البوم حولها * ينوح على اطلالها وخيام
وقفنا بها طورا طويلا نسالها * بعين سفينة والدموع سجام
ولاصح لي منها سوى وحش خاطري * وسقمي من أسباب ان عرفتها وهام
ومن بعد ذا تدى لمنصور بوعلى * سلام ومن بعد السلام سلام
وقولوا له يابو الوفا كلح رأيكم * دخلتم بحور غامقات دهام
زواخر ما تنقاس بالعود انما * اهاسلات على الفضا وأكام
ولا قستمو فيها قياسا يدلكم * وليس الجسور الطامينات تمام
وعانوا على هلكاتكم في ورودها * من الناس عدمان العقول اثام
أبا عزوة ركبوا الضلالة ولالهم * قرار ولا دنيا لهن دوام
الاعناهمو لوترى كيف رأيهم * مثل سرور فلاه مالهن تمام
خلوا القنا وبقوا في مرقب العلا * مواضع ماهيا لهم بمقام
وحق النبي والبيت واركانه الذي * ومازارها في كل دهر وعام
لبرّ الليالي فيه ان طالت الحيا * يذوقون من خط الكماع مدام
ولابرّ هاتيق البوادي عوا كف * بكل رديني مطرب وحسام
عليها من اولاد الكرام غلام * وكل مسافه كالستد اياه عابر
وكل كميت يكتعص عض نابه * يظل يصارع في العنان لجام
وتحمل بنا الارض العقيم مدة * وتولدنا من كل ضيق كظام
بالابطال والقود الهجان وبالقنا * لها وقت وجنات البدور زحام

أنجعه لي وأنا عقيد نقودها * وفي سن رمحي للحروب علام
ونحن كأضراس الموافي بجمعكم * حتى يقاضوا من ديون غرام
متى كان يوم القحط يامير ابو على * يلقى سعايا صايرين قدام
كذالك بوحمو الى السمر ابعته * وخلى الجياد العاليات تسام
وخلى رجالا لايرى الضيم جارهم * ولا يجمعوا ابدهي العدو زمام
الا يقهروها وعقد بؤسهم * وهم عذرعنه دائما ودوام
وكم ثار طعنها على البدوسابق * مابين صحاصيح ومابين حسام
فتى ثار قطار الصوبي يومنا على * لنا ارض ترك الظاعنين زمام
وكم ذا يجيبوا اثرها من غنيمة * حليف النبا سماع كل غيام
وان جا فأجفوا الملوك وسعوا * غدا طبعه يجدي عليه قيام
عليكم سلام الله من لدن فاهم * ما غنت الورقا وناح حمام

ومن شعر عرب غربنواحي حوران لامرأة قتل زوجها فبعثت الى احلافه من قيس تغريهم بطلب ثاره تقول

تقول فتاة الحي أم سلامه * بعين أراع الله من لا رثى لها
تبيت بطول الليل ماتألف الكرى * موجعة كان الشقا في مجالها
على ماجرى في دارها وبوعيالها * بلحظة عين البين غير حالها
فقد تاوى شهاب الدين ياقيس كلهم * وغمّوا عن أخذ الثار ماذا مقالها
أناقلت اذا وردا لكتاب يسرني * و يبرد من نيران قلبي ذبالها
أيا حين تسريح الذوائب واللحى * وبيض العذارى ماحبنوا جمالها

(الموشحات والازجال للاندلس)

وأما أهل الاندلس فلما كثر الشعر في قطارهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فنا منه سموه بالموشح ينظمونه أسماطا أسماطا وأغصانا أغصانا يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ويسمون المتعدد منها بيتا واحدا ويلتزمون عند قوافي تلك الاغصان وأوزانها متتاليا فيما بعد الى آخر القطعة وأكثر ما تنتهي عندهم الى سبعة أبيات ويشتمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الاغراض والمذاهب وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل في القصائد وتجاروا في ذلك الى الغاية واستظرفه الناس جملة الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقه وكان المخترع لها بجزيرة الاندلس مقدم بن معافر الفريري من شعراء الامير عبد الله بن محمد المرواني

وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما فكان أول من برع في هذا الشأن عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية وقد ذكر الاعلم البطليوسي أنه سمع أبا بكر بن زهير يقول كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله

بدر تم * شمس ضحا * غصن نقا * مسك شم

ما أتم * ما أوضحا * ما أورقا * ما أنم

لا جرم * من لمحا * قد عشقا * قد حرم

وزعموا أنه لم يسبق عبادة وشاح من معاصريه الذين كانوا في زمن الطوائف * وجاء مصليا خلفه منهم ابن ارفع راس شاعر المأمون ابن ذي النون صاحب طليطلة قالوا وقد أحسن في ابتدائه في موشحته التي طارت له حيث يقول

العود قد ترنم * بابدع تلحين * وسقت المذانب * رياض البساتين

وفي انتهائه حيث يقول

تخطر ولا تسلم * عساك المأمون * مروع الكتائب * يحيى بن ذي النون

ثم جاءت الحلبة التي كانت في دولة الملثمين فظهرت لهم البدائع وسابق فرسان حلبتهم الاعمى الطليطلي ثم يحيى ابن بقي وللطليطلي من الموشحات المهذبة قوله

كيف السبيل الى * صبري وفي المعالم أشجان

والركب في وسط الفلا * بالخرد النواعم قد بان

وذكر غير واحد من المشايخ أن أهل هذا الشأن بالاندلس يذكرون أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا في مجلس باشبيلية وكان كل واحد منهم اصطنع موشحة وتأنق فيها فتقدم الاعمى الطليطلي للانشاد فلما افتتح موشحته المشهورة بقوله

ضاحك عن جمان * سافر عن در * ضاق عنه الزمان * وحواه صدري

صرف ابن بقي موشحته وتبعه الباقون وذكر الاعلم البطليوسي أنه سمع ابن زهير يقول ما حسدت قط وشاحا على قول الا ابن بقي حين وقع له

أما ترى أحمد * في مجده العالي لا يلحق * أطلعه الغرب * فأرنا مثله يا مشرق

وكان في عصرهما على الموشحين المطبوعين ابو بكر الابيض وكان في عصرهما أيضا الحكيم أبو بكر بن باجة صاحب التلاحين المعروفة ومن الحكايات المشهورة أنه حضر مجلس مخدومه ابن تيفلويت صاحب سرقسطة فالقى على بعض قيناته موشحته

جرر الذيل أيما جر * وصل الشكر منك بالشكر

نطرب الممدوح لذلك فلما ختمها بقوله

عقد الله راية النصر * لامير العلا أبي بكر

فلما طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت صاح واطرباه وشق ثيابه وقال ما أحسن ما بدأت وما ختمت وحلف بالايمان المغلظة لا يمشي ابن باجة الى داره الا على الذهب فخاف الحكيم سوء العاقبة فاحتال بأن جعل ذهبا في نعله ومشى عليه * وذكر أبو الخطاب بن زهر أنه جرى في مجلس أبي بكر بن زهير ذكر أبي بكر الابيض الوشاح المتقدم الذكر فغض منه بعض الحاضرين فقال كيف تغض ممن يقول

ما لذ لي شرب راح * على رياض الاقاح * لولا هضيم الوشاح * اذا أسى في الصباح أو في الاصيل * أضحى يقول * ما للشمول * لطمت خدي وللشمال * هبت فمال * غصن اعتدال * ضمه بردي مما أباد القلوبا * يمشي لنا مستريبا * يالحظه ردنوبا * ويالماه الشنيبا برد غليل * صب عليل * لا يستحيل * فيه عن عهدي ولا يزال * في كل حال * يرجو الوصال * وهو في الصد

واشتهر بعد هؤلاء في صدر دولة الموحدين محمد بن أبي الفضل بن شرف قال الحسن بن دويدة رأيت حاتم بن سعيد على هذا الافتتاح شمس قارنت بدرا * راح ونديم

وابن هردوس الذي له يا ليلة الوصل والسعود * بالله عودي

وابن موهل الذي له * ما العيد في حلة وطاق * وشم طيب

وانما العيد في التلاق * مع الحبيب

وأبو اسحق الرويني قال ابن سعيد سمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول انه دخل على ابن زهير وقد أسن وعليه زي البادية اذ كان يسكن بحصن استبه فلم يعرفه فجلس حيث انتهى به المجلس وجرت المحاضرة فأنشد لنفسه موشحة وقع فيها

كحل الدجى يجري * من مقلة الفجر * على الصباح

ومعصم النهر * في حلل خضر * من البطاح

فتحرك ابن زهير وقال أنت تقول هذا قال اختبر قال ومن تكون فعرفه فقال ارتفع فوالله ما عرفتك قال ابن سعيد وسابق الحلبة التي أدركت هؤلاء أبو بكر بن زهير وقد شرقت موشحاته وغربت قال وسمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول قيل لابن زهير لو قيل لك ما أبدع وأرفع ما وقع لك في التوشيح قال كنت أقول

ما للموله * من سكره لا يفيق * ياله سكرانا

من غير خمر * ما للكئيب المشوق * يندب الاوطانا

هل تستعاد * أيامنا بالخليج * ولياليناً

أو نستفاد * من النسيم الأريج * مسك دارينا
واد يكاد * حسن المكان البهيج * أن يحيينا
ونهر ظله * دوح عليه أنيق * مورق فينان
والماء يجرى * وعائم وغريق * من جنى الريحان

واشتهر بعده ابن حيون الذى له من الزجل المشهور قوله

تفوق بينهم كل حين * بما سبب من يد وعين

وينشد فى القصيد

علقت مليح علمت رامى * فليس يخل ساع من قتالى
ويعمل بذى العينين منامى * مايعمل فينا بذى النبال

واشتهر معهما يومئذ بغرناطة المهر بن الفرس قال ابن سعيد ولما سمع ابن زهير قوله

لله ما كان من يوم بهيج * بنهر حمص على تلك المروج
ثم انعطفنا على فم الخليج * نفض فى حانه مسك الختام
عن عسجد زانه صافى المدام * ورداء الاصيل ضمه كف الظلام

قال ابن زهير كنا عن عند هذا الرداء وكان معه فى بلده مطرف * أخبر ابن سعيد عن والده أن مطرفا هذا دخل على ابن الفرس فقام له وأكرمه فقال لا تفعل فقال ابن الفرس كيف لا أقوم لمن يقول

قلوب مصائب * بألحاظ تصيب * فقل كيف يبقى بلا وجد

وبعد هذا ابن حرمون بمرسية * ذكر ابن الراس أن يحيى الخزرجى دخل عليه فى مجلسه فأنشده موشحة لنفسه فقال له ابن حرمون لا يكون الموشح بموشح حتى يكون عاريا عن التكلف قال على مثل ماذا قال على مثل قولى

ياهاجرى هل الى الوصال * منك سبيل
أو هل ترى عن هواك سالى * قلب العليل

وأبو الحسن سهل بن مالك بغرناطة * قال ابن سعيد كان والدى يعجب بقوله

ان سيل الصباح فى الشرق * عاد بحرا فى أجمع الافق * فتداعت نوادب الورق
أتراها خافت من الغرق * فبكت سحرة على الورق

واشتهر باشبيلية لذلك العهد أبو الحسن بن الفضل قال ابن سعيد عن والده سمعت سهل ابن مالك يقول يا ابن الفضل لك على الوشاحين الفضل بقولك

واحسرتا لزمان مضى * عشية بان الهوى وانقضى
وأفردت بالرغم لا بالرضى * وبت على جمرات الغضى

أعانق بالفكر تلك الطلول * وألثم بالوهم تلك الرسوم

قال وسمعت أبا بكر بن الصابوني ينشد الاستاذ أبا الحسن الزجاج موشحاته غير ما مرة فما سمعته يقول له لله درك الا في قوله

قسما بالهوى لذى حجر * ما لليل المشوق من فجر
خمد الصبح ليس يطرد * ما لليلي فيما أظن غد * صح يا ليل انك الابد
أو قطعت قوادم النسر * فنجوم السماء لا تسرى

ومن موشحات ابن الصابوني قوله

ماحال صب ذى ضنى واكتئاب * أمرضه يا ويلتاه الطبيب
عامله محبوبه باجتناب * ثم اقتدى فيه الكرى بالحبيب
جفا جفونى النوم لكننى * لم أبكه الا لفقد الخيال
وذا الوصال اليوم قد غرنى * منه كما شاء وساء الوصال
فلست باللائم من صدنى * بصورة الحق ولا بالمثال

واشتهر بين أهل العدوة ابن خلف الجزايرى صاحب الموشحة المشهورة

يد الاصباح قد قدحت * زناد الانوار * فى مجامر الزهر

وابن هزر البجائى وله من موشحة

ثغر الزمان موافق * حياك منه بابتسام

ومن محاسن الموشحات للمتأخرين موشحة ابن سهل شاعر اشبيلية وسبتة من بعدها فمنها قوله

هل درى ظبى الحمى أن قد حمى * قلب صب حله عن مكنس
فهو فى نار وخفق مثل ما * لعبت ريح الصبا بالقبس

وقد نسج على منواله فيها صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب شاعر الاندلس والمغرب لعصره وقد مر ذكره فقال

جادك الغيث اذا الغيث همى * يا زمان الوصل بالاندلس
لم يكن وصلك الا حلما * فى الكرى أو خلسة المختلس
اذ يقود الدهر أسباب المنى * تنقل الخطو على ما ترسم
زمرا بين فرادى وثنى * مثل ما يدعو الوفود الموسم
والحيا قد جلل الروض سنا * فسنا الازهار فيه تبسم
وروى النعمان عن ماء السما * كيف يروى مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوبا معلما * يزدهى منه بأبهى ملبس

في ليال كتمت سر الهوى * بالدجى لولا شموس الغرر
مال نجم الكاس فيها وهوى * مستقيم السير سعد الاثر
وطر ما فيه من عيب سوى * انه مر كلمح البصر
حين لذ النوم منا أو كما * هجم الصبح نجوم الحرس
غارت الشهب بنا أو ربما * أثرت فينا عيون النرجس
أي شيء لامرئ قد خلصا * فيكون الروض قد مكن فيه
تنهب الازهار فيه الفرصا * أمنت من مكره ما تتقيه
فاذا الماء تناجى والحصا * وخلا كل خليل بأخيه
تبصر الورد غيورا برما * يكتسي من غيظه ما يكتسي
وترى الآس لبيبا فهما * يسرق الدمع بأذني فرس
يا أهيل الحي من وادي الغضى * وبقلبي مسكن أنتم به
ضاق عن وجدي بكم رحب الفضا * لا أبالي شرقه من غربه
فأعيدوا عهد أنس قد مضى * تنقذوا عائدكم من كربه
واتقوا الله وأحيوا مغرما * يتلاشى نفسا في نفس
حبس القلب عليكم كرما * أفترضون خراب الحبس
وبقلبي منكم مقترب * باحاديث المنى وهو بعيد
قمر اطلع منه المغرب * شقوة المغرى به وهو سعيد
قد تساوى محسن أو مذنب * في هواه بين وعد ووعيد
ساحر المقلة معسول اللمى * جال في النفس مجال النفس
سدد السهم وسمى ورمى * بفؤادي نهبة المفترس
ان يكن جار وخاب الامل * وفؤاد الصب بالشوق يذوب
فهو للنفس حبيب أول * ليس في الحب لمحبوب ذنوب
أمره معتمل ممتثل * في ضلوع قد براها وقلوب
حكم اللحظ بها فاحتكما * لم يراقب في ضعاف الانفس
ينصف المظلوم ممن ظلما * ويجازي البر منها والمسي
ما لقلبي كلما هبت صبا * عاده عيد من الشوق جديد
كان في اللوح له مكتتبا * قوله ان عذابي لشديد
جلب الهم له والوصبا * فهو للاشجان في جهد جهيد
لاعج في أضلعي قد أضرما * فهي نار في هشيم اليبس

لم تدع من مهجة الا الدما * كبقاء الصبح بعد الغلس

سلى يا نفس فى حكم القضا * واعمرى الوقت برجعى ومتاب

واتركى ذكرى زمان قد مضى * بين عتبى قد تقضت وعتاب

واصرفى القول الى المولى الرضى * ملهم التوفيق فى أم الكتاب

الكريم المنتهى والمنتمى * أسد السرح وبدر المجلس

ينزل النصر عليه مثل ما * ينزل الوحى بروح القدس

وأما المشارقة فالتكلف ظاهر على ما عانوه من الموشحات ومن أحسن ما وقع لهم فى ذلك موشحة ابن سنا الملك المصرى اشتهرت شرقا وغربا وأولها

يا حبيبى ارفع حجاب النور * عن العذار

تنظر المسك على الكافور * فى جلنار

كالى يا سحب تيجان الربى بالحلى * واجعلى سوارها منعطف الجدول

ولما شاع فن التوشيح فى أهل الاندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه نسجت العامة من أهل الامصار على منواله ونظموا فى طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها اعرابا واستحدثوه فنا سموه بالزجل والتزموا النظم فيه على مناحيهم الى هذا العهد فجاؤا فيه بالغرائب واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة * وأول من أبدع فى هذه الطريقة الزجلية أبو بكر بن قزمان وان كانت قيلت قبله بالاندلس لكن لم يظهر حلاها ولا انسبكت معانيها واشتهرت رشاقتها الا فى زمانه وكان لعهد الملثمين وهو امام الزجالين على الاطلاق قال ابن سعيد ورأيت أزجاله مروية ببغداد أكثر مما رأيتها بحواضر المغرب قال وسمعت أبا الحسن بن جحدر الاشبيلى امام الزجالين فى عصرنا يقول ما وقع لاحد من أئمة هذا الشأن مثل ما وقع لابن قزمان شيخ الصناعة وقد خرج الى منتزه مع بعض أصحابه فجلسوا تحت عريش وأمامهم تمثال أسد من رخام يصب الماء من فيه على صفائح من الحجر مدرجة فقال

وعريش قد قام على دكان * بحال رواق

وأسد قد ابتلع ثعبان * فى غلظ ساق

وفتح فمه بحال انسان * فيه الفواق

وانطلق يجرى على الصفاح * ولقى الصياح

وكان ابن قزمان مع أنه قرطبى الدار كثيرا ما يتردد الى اشبيلية وينتاب نهرها فاتفق أن اجتمع ذات يوم جماعة من اعلام هذا الشأن وقد ركبوا فى النهر للنزهة ومعهم غلام جميل الصورة من سروات أهل البلد وبيوتهم وكانوا مجتمعين فى زورق للصيد فنظموا

فى وصف الحال و بدأ منهم عيسى البليدى فقال

يطمع بالخلاص قلبى وقد فاتو * و قد ضمو عشقو بسهماتو
تراه قد حصل مسكين حلاتو * فقلق ولذلك أمر عظيم صاباتو
توحش الجفون الكحل اذا عاتو * وذيك الجفون الكحل أبلاتو

ثم قال أبو عمرو بن الزاهر الاشبيلى

نشب والهوى من لج فيه ينشب * ترى اش كان دعاه يشقى و يتعذب
مع العشق قام فى مالو يلعب * وخلق كثير من ذا اللعب ماتو

ثم قال أبو الحسن المقرى الدانى

نهار مليح تعجبنى أوصافو * شراب وملاح من حولى طافو
والمعلمين يقولوا بصفصافو * والنورى أخرى بقلاتو

ثم قال أبو بكر بن مرتين

الحق يريد حديث تعالى عاد * فى الواد الجبر والمتنزه والصاد
تتنبه حيتان ذلك الذى يصطاد * قلوب الورى هى فى شبيكاتو

ثم قال أبو بكر بن قزمان

اذا شمراكما مويرميها * ترى النور يرشق لذيك الجيها
وايس مراده أن يقع فيها * الا ان يقبل يديداتو

وكان فى عصرهم بشرق الاندلس مخلف الاسود وله محاسن من الزجل منها قوله

قد كنت مشبوب واختشيت الشيب * وردنى ذا العشق لامر صعب

يقول فيه

حين تنظر الخد الشريف البهى * تنتهى فى الحمره الى ما تنتهى
ياطالب الكيميا فى عينى هى * تنظر بها الفضة ترجع ذهب

وجاءت بعدهم حلبة كان سابقها مدغيس وقعت له العجائب فى هذه الطريقة فمن قوله فى زجله المشهور

ورذاذ دق ينزل * وشعاع الشمس يضرب
فترى الواحد يفضض * وترى الآخر يذهب
والنبات يشرب ويسكر * والغصون ترقص وتطرب
وتريد تجى الينا * ثم تستحى وتهرب

ومن محاسن أزجاله قوله

لاح الضياء والنجوم حيارى * فقم بنا ننزع الكسل

شربت ممزوجا من قراعا * أحلى هى عندى من العسل
يامن يلمنى كما تقلد * قال لك الله بما تقول
يقول بان الذنوب مولد * وأنه يفسد العقول
لارض الحجاز يكون لك ارشد * اش ما اداقلك لذا الفضول
مر أنت للحج وا لزيارا * ودعنى فى الشرب منهمل
من ليس لو قدره ولا استطاعا * النية ابلغ من العمل

وظهر بعد هؤلاء باشبيلية ابن جحدر الذى فضل على الزجالين فى فتح ميورقة بالزجل الذى أوله هذا

من عاند التوحيد بالسيف يمحق * أنا برى ممن يعاند الحق

قال ابن سعيد لقيته ولقيت تلميذه المعمع صاحب الزجل المشهور الذى أوله

ياليتنى ان رأيت حبيبى * أقبل اذنو بالرسيلا
ليس أخذ عنق الغزيل * وأسرق فم الحجيلا

ثم جاء من بعدهم أبو الحسن سهل بن مالك امام الادب ثم من بعدهم لهذه العصور صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب امام النظم والنثر فى الملة الاسلامية من غير مدافع فن محاسنه فى هذه الطريقة

امزج الاكواس واملالى تجدد * ماخلق المال الا أن يبدد

ومن قوله على طريقة الصوفية وينحو منحى الششترى منهم

بين طلوع ونزول * اختلطت بالغزول * ومضى من لم يكن * وبقى من لم يزول

ومن محاسنه أيضا قوله فى ذلك المعنى

البعد عنك يابنى أعظم مصايبى * وحين حصل لى قربك نسيت قرابى

وكان لعصر الوزير ابن الخطيب بالاندلس محمد بن عبد العظيم من أهل وادى آش وكان اماما فى هذه الطريقة وله من زجل يعارض به مدغيس فى قوله

لاح الضياء والنجوم حيارى * بقوله

حل المجون يا أهل الشطارا * مذحلت الشمس بالحمل
جددوا كل يوم خلاعا * لاتجعلوا اسمهاعل
اليها يتخلعوا فى سبيل * على خضورة ذاك النبات
وصل بغداد واجتياز النيل * أحسن عندى فى ذيك الجهات
وطاقتها أصلح من اربعين ميل * ان مرت الريح عليه وجات
لم يلتق الغبار امارا * ولا بمقدار مايكتحل

وكيف ولا فيه موضع رفاعا * الا و يسرح فيه النحل

وهذه الطريقة الزجلية لهذا العهد هى فن العامة بالاندلس من الشعر وفيها نظمهم حتى انهم اينظمون بها فى سائر البحور الخمسة عشر لكن بلغتهم العامية ويسمونه الشعر الزجلى" مثل قول شاعرهم

لى دهر بعشق جفونك وسنين * وأنت لا شفقة ولا قلب يلين
حتى ترى قلبى من أجلك كيف رجع * صنعة السكة ما بين الحدادين
الدموع ترشرش والنار تلتهب * والمطارق من شمال ومن يمين
خلق الله النصارى للغــزو * وأنت تغزو فى قلوب العاشقين

وكان من المجيدين لهذه الطريقة لاول هذه المائة الاديب أبو عبد الله الالوسى وله من قصيدة يمدح فيها السلطان ابن الاحمر

طل الصباح قم يا نديمى نشربوا * ونضحكو من بعد ما نطربو
سبيكة الفجر أحلت شفقا * فى ملق الليل وقوم قلبو
ترى غبارا خالص أبيض نقى * فضه هو لكن الشفق ذهبو
وسقوا كتوا عند البشر * نور الجفون من نورها تكسبو
فهو النهار يا صاحبى للمعاش * عيش الفتى فيه بالله ما أطيبو
والليل نصا للقبل والعناق * على سرير الوصل يتقلبو
جاد الزمان من بعد ما كان بخيل * واش كقلته من ريه عقربو
كما جرع مر رفيما قدمضى * يشرب سواه ويا كل طيبو
قال الرقيب يا أدبا لاش ذا * فى الشرب والعشق ترى تحبو
وتعجبوا عذالى من ذا الخبر * قلت يا قوم مما تعجبوا
يعشق مليح الارقيق الطباع * علاش تكفروا بالله أو تكذبوا
لبس يريح الحس الاشاعر أديب * يفض بكرو ويدع ثيبو
اما الكاس فحرام نعم هو حرام * على الذى ما يدرى كيف يشربوا
ويدالذى يحسن حسابه ولم * يقدر يحسن الفاظ أن يحلبوا
وأهل العقل والفكر والمجون * يغفر ذنوبهم لهذا ان أذنبوا
ظبى بهى فيها يطفى الجمر * وقلبى فى جمر الغضى يلهبو
غزال بهى ينظر قلوب الاسود * ومالهم قبل النظر يذهبوا
ثم يحييهم اذا ابتسم بضحكوا * ويفرحوا من بعد ما ينـدبوا
ذو يم كالخاتم وثغر نقى * خطيب الامة للقبل يخطبو

جوهر ومرجان أي عقد يا فلان * قد صففه الناظم ولم يثقبو
وشارب اخضر يريد لاش يريد * من شبهه بالمسك قد عيبو
يسبل دلال مثل جناح الغراب * ليالي هجري منه يستغربوا
على بدن أبيض بلون الحليب * ماقط راعي للغنم يحلبو
وزوج هندات ما علمت قبلها * ديك الصلايا ريت ما أصلبو
تحت العكاكن منها خصر رقيق * من رقتو يخفى اذا تطلبو
أرق هو من ديني فيما تقول * جديد عتبك حق ما أكذبو
أي دين بقى لي معاك وأي عقل * من يتبعك من ذا وذا تسلبو
تحمل ارداف ثقال كالرقيب * حين ينظر العاشق وحين يرقبو
ان لم ينفس غدر أو ينقشع * في طرف ديبا والبشر تطلبو
يصير ليك المكان حين تجي * وحين تغيب ترجع في عيني تبو
محاسنك مثل خصال الامير * أو الرمل من هو الذي يحسبو
عماد الامصار وفصيح العرب * من فصاحة لفظه يتقربوا
يحمل العلم انفرد والعمل * ومع بديع الشعر ما أكتبو
في الصدور بالرمح ما أطعنه * وفي الرقاب بالسيف ما أضربو
من السما يحسد في أربع صفات * فمن يعد قلبي أو يحسبو
الشمس نورو والقمر همتو * والغيث جودو والنجوم منصبو
يركب جواد الجود ويطلق عنان * الاغنيا والجند حين يركبوا
من خلعتو يلبس كل يوم بطيب * منه بنات المعالي تطيبوا
نعمتو تظهر على كل من يجيه * قاصد ووارد قط ما خيبوا
قد أظهر الحق وكان في حجاب * لاش يقدر الباطل بعد ما يحجبو
وقد بنى بالسمر ركن التقى * من بعد ما كان الزمان خربو
تخاف حين تلقاه كما ترتجيه * فمع سماحة وجهو ما أسيبو
يلقى الحروب ضاحكا وهي عابسه * غلاب هو لا شي في الدنيا يغلبو
اذا جبد سيفه ما بين الردود * فليس شي يغني من يضربو
وهو سمي المصطفى والاله * للسلطنة اختار واستنخبو
تراه خليفة أمير المؤمنين * يقود جيوشو ويزين موكبو
لذى الامارة تخضع الرؤس * نعم وفي تقبيل يديه يرغبوا
بيته بقي بدور الزمان * يطلعوا في المجد ولا يغربوا

وفي المعالي والشرف يعدو * وفي التواضع والحيا يقربو
والله يبقيهم ما دار الفلك * وأشرقت شمسه ولاح كوكبو
وما يغني ذا القصيد في عروض * يا شمس خدر مالها مغربو

ثم استحدث أهل الامصار بالمغرب فنا آخر من الشعر في أعاريض مزدوجة كالموشح نظموا فيه بلغتهم الحضرية أيضا وسموه عروض البلد وكان أول من استحدثه فيهم رجل من أهل الاندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير فنظم قطعة على طريقة الموشح ولم يخرج فيها عن مذاهب الاعراب مطلعها

أبكاني بشاطي النهر نوح الحمام * على الغصن في البستان قريب الصباح
وكف السحر يمحو مداد الظلام * وماء الندى يجري بثغر الاقاح
باكرت الرياض والطل فيها افتراق * سر الجواهر في نحور الجوار
ودمع النواعير ينهرق انهراق * يحاكي ثعابين حلقت بالثمار
لووا بالغصون خلخال على كل ساق * ودار الجميع بالروض دور السوار
وأيدي الندى تخرق جيوب الكمام * ويحمل نسيم المسك عنها رياح
وعاج الصبا يطلي بمسك الغمام * وجر النسيم ذيلو عليها وفاح
رأيت الحمام بين الورق في القضيب * قد ابتلت أرياشو بقطر الندى
تنوح مثل ذاك المستهام الغريب * قد التف من توبو الجديد في ردا
ولكن بما أحمر وساقو خضيب * ينظم سلوك جوهر ويتقلدا
جلس بين الاغصان جلسة المستهام * جناحا توسد والتوى في جناح
وصار يشتكي ما في الفؤاد من غرام * منها ضم منقاره لصدره وصاح
قلت يا حمام احرمت عيني الهجوع * أراك ما تزال تبكي بدمع سفوح
قال لي بكيت حتى صفت لي الدموع * بلا دمع نبقى طول حياتي تنوح
على فرخ طار لي لم يكن لو رجوع * ألفت البكا والحزن من عهد نوح
كذا هو الوفا وكذا هو الزمام * انظر جفون صارت بحال الجراح
وانتم من بكى منكم اذا تم عام * يقول عناني ذا البكا والنواح
قلت يا حمام لو خضت بحر الضني * كنت تبكي وترثي لي بدمع هتون
ولو كان بقلبك ما بقلبي أنا * ما كان يصير تحتك فروع الغصون
اليوم نقاسي الهجر كم من سنا * حتى لا سبيل يجلو تراني العيون
وبما كسا جسمي النحول والسقام * أخفاني نحولي عن عيون اللواح
لو جتني المنايا كان يموت في المقام * ومن مات بعد ياقوم لقد استراح

قال لى لورقدت لاوراق الرياض * من خوفى عليه ودالنفوس للفؤاد
وتخضبت من دمعى وذا البياض * طوق العهد فى عنقى ليوم التناد
أما طرف منقارى حديثو استفاض * باطراف البلد والجسم صار فى الرماد

فاستحسنه أهل فاس وولعوا به ونظموا على طريقته وتركوا الاعراب الذى ليس من شأنهم وكثر سماعه بينهم واستفحل فيه كثير منهم ونوعوه أصنافا الى المزدوج والكارى والملعبة والغزل واختلفت أسماؤها باختلاف ازدواجها وملاحظاتهم فيها فمن المزدوج ما قاله ابن شجاع من فحولهم وهو من أهل تازا

المال زينة الدنيا وعز النفوس * يبهى وجوها ليس هى باهيا
فها كل من هو كثير الفلوس * ولوه الكلام والرتبة العاليا
يكبر من كثر مالو ولو كان صغير * ويصغر عزيز القوم اذ يفتقر
من ذا ينطبق صدرى ومن ذا يصبر * يكاد ينفقع لولا الرجوع للقدر
حتى يلتجى من هو فى قومو كبير * لمن لا أصل عندو ولا لو خطر
لذا ينبغى يحزن على ذى العكوس * ويصبغ عليه ثوب فراش صافيا
اللى صارت الاذناب امام الرؤس * وصار يستفيد الواد من الساقيا
ضعف الناس على ذا وفسد ذا الزمان * مايدروا على من يكثروا اذا العتاب
اللى صار فلان يصبح با بو فلان * ولو رايت كيف يردّ الجواب
عشنا والسلام حتى رأينا عيان * أنفاس السلاطين فى جلود الكلاب
كبار النفوس جدا ضعاف الاسوس * هم ناحيا والمجد فى ناحيا
يروا أنهم والناس يروهم تيوس * وجوه البلد والعمدة الراسيا

ومن مذاهبهم قول ابن شجاع منهم فى بعض مزدوجاته

تعب من تبع قلبو ملاح ذا الزمان * اهمل يافلان لا يلعب الحسن فيك
ما منهم مليح عاهد الا وخان * قليل من عليه تحبس ويحبس عليك
يهبوا على العشاق ويتمنعوا * ويستعمدوا تقطيع قلوب الرجال
وان واصلوا من حينهم يقطعوا * وان عاهدوا خانوا على كل حال
مليح كان هويتو وشت قلبى معو * وصيرت من خدى لقدمو نعال
ومهدت لو من وسط قلبى مكان * وقلت لقلبى اكرم لمن حل فيك
وهوّن عليك مايعتريك من هوان * فلا بدّ من هول الهوى يعتريك
حكمتوا على وارتضيت وأمير * فلو كان يرى حالى اذا يصرو
يرجع مثل درحولى بوجه الغدير * مرديه ويتعطس بحال الحروا

وتعلمت من ساعا بستى الضمير * ويفهم مرادو قبل أن يذكرو
ويحتل فى مطلو ولو ان كان * عصر فى الربيع أو فى الليالى بريك
ويمشى بسوق كان ولو باصبهان * وايش ما يقل يحتاج يقل لو يحيك

حتى أتى على آخرها * وكان منهم على بن المؤذن سلمان * وكان لهذه العصور القريبة من فحولهم بزرهون من ضواحى مكناسة رجل يعرف بالكفيف أبدع فى مذاهب هذا الفن * ومن أحسن ما علق له بحفوظى قوله فى رحلة السلطان ابى الحسن وبنى مرين الى افريقية يصف هزيمتهم بالقيروان ويعزيهم عنها ويؤنسهم بما وقع لغيرهم بعد أن عيبهم على غزاتهم الى افريقية فى ملعبة من فنون هذه الطريقة يقول فى مفتتحها وهو من أبدع مذاهب البلاغة فى الاشعار بالمقصد فى مطلع الكلام وافتتاحه ويسمى براعة الاستهلال

سبحان مالك خواطر الامرا * ونواصيها فى كل حين وزمان
ان طعناه عطفهم لنا قسرا * وان عصيناه عاقب بكل هوان

الى أن يقول فى السؤال عن جيوش المغرب بعد التخلص

كن مرعى قل ولا تكن راعى * فالراعى عن رعيته مسؤل
واستفتح بالصلاة على الداعى * للاسلام والرضا النبى المكمول
على الخلفاء الراشدين والاتباع * واذكر بعدهم اذا تحب وقول
أحجاجا تحللوا الصحرا * ودواسرح البلاد مع سكان
عسكر فاس المنيرة الغرا * وين سارت بو عزائم السلطان
أحجاجا بالنبى الذى زرتم * وقطعتم لو كلا كل البيدا
عن جيش الغرب حين يسألكم * المتلوف فى افريقيا السودا
ومن كان بالعطايا يزودكم * ويدع بربة الحجاز رغدا
تمام قل للتصادف الجزرا * ويحز شوط بعد ما يخفان
ويزف كردوم وتهب فى الغبرا * أى ما زاد غزالهم سبحان
لو كان ما بين تونس الغربا * وبلاد الغرب سد السكندر
مبنى من شرقها الى غربا * طبقا بحديد اوثانيا بصفر
لابد الطير أن تجيب نبأ * أو يأتى الريح عنهم بفرد خبر
ما أعوصها من أمور وما شرا * لو تقرا كل يوم على الديوان
لجرت بالدم وانصدع حجرا * وهوت الخراب وخافت الغزلان
أدولى بعقلك الفحاص * وتفكر لى بخاطرك جما

ان كان تعلم حمام ولارقاص * عن السلطان شهروقبله سبعا
تظهر عند المهين القصاص * وعلا مات تنشر على الصمعا
الاقوم عاريين فلا سترا * مجهولين لا مكان ولا امكان
مايدروا كيف يصوروا كسرا * وكيف دخلوا مدينة القيروان
امولاى أبو الحسن خطينا الباب * قضية سيرنا الى تونس
فقنا كنا على الجريد والزاب * واش لك فى أعراب افريقيا القويس
مابلغك من عمر فتى الخطاب * الفارو قفاتح القرى المولس
ملك الشام والحجاز وتاج كسرى * وفتح من افريقيا وكان
رد ولدت لو كره ذكرى * ونقلى فيها تفرق الاخوان
هذا الفاروق مردى الاعوان * صرح فى افريقيا بذا التصريح
وبقت حتى الى زمن عثمان * وفتحها ابن الزبير عن تصحيح
لمن دخلت غنائمها الديوان * مات عثمان وانقلب علينا الريح
وافترق الناس على ثلاثة أمرا * وبقى ماهو للسكوت عنوان
اذا كان ذا فى مدة البزرا * اش نعمل فى أواخر الازمان
وأصحاب الحضر فى مكا ساتا * وفى تاريخ كانا وكبوا نا
تذكر فى صحتها أبياتا * شق وسطيح وابن مرانا
ان مرين اذا تكف برايانا * بالجدا وتونس قد سقط بنيانا
قد ذكرنا ماقال سيد الوزرا * عيسى بن الحسن الرفيع الشان
قال لى رايت وانا بذا أدرى * لكن اذا جاء القدر عميت الاعيان
ويقول لك مادهى المرينيا * من حضرة فاس الى عرب دياب
أراد المولى يموت ابن يحيى * سلطان تونس وصاحب الابواب

ثم أخذ فى ترحيل السلطان وجيوشه الى آخر رحلته ومنتهى أمره مع اعراب افريقية وأتى فيها بكل غريبة من الابداع وأما أهل تونس فاستحدثوا فى الملعبة أيضا على لغتهم الحضرية الاأن أكثره ردىء ولم يعلق بحفوظى منه شئ لرداءته * وكان لعامة بغداد أيضا فن من الشعر يسمونه المواليا وتحته فنون كثيرة يسمون منها القوما وكان وكان ومنه مفرد ومنه فى بيتين ويسمونه دوبيت على الاختلافات المعتبرة عندهم فى كل واحد منها وغالبها مزدوجة من أربعة أغصان وتبعهم فى ذلك أهل مصر القاهرة وأتوا فيها بالغرائب وتبحروا فيها فى أساليب البلاغة بمقتضى لغتهم الحضرية فجاؤا بالعجائب ومن أعجب ما علق بحفظى منه قول شاعرهم

هذا جراحى طريا * والدما تنضح
وقا تلى يا أخيا * فى الفلا يمرح
قالوا وناخذ بثارك * قلت ذا أقبح

ولغيره

طرقت باب الخبا قالت من الطارق * فقلت مفتون لا ناهب ولا سارق
تبسمت لاح لى من ثغرها بارق * رجعت حيران فى بحر ادمعى غارق

ولغيره

عهدى بها وهى لا تأمن على البين * وان شكوت الهوى قالت فدتك العين
لمن تعنى لها غيرى غليم زين * ذكرتها العهد قالت لك على دين

ولغيره فى وصف الحشيش

دى خمر صرف التى عهدى بها باق * تغنى عن الخمر والخمار والساق
لحبا ومن لحبها تعمل على احراق * خبيتها فى الحشى طلت من احداق

ولغيره

يامن وصالو لأطفال المحبة مح * كم توجد القلب بالهجران أوه أح
أودعت قلبى حرو والتصبر مح * كل الورى كخ فى عينى وشخصك دح

ولغيره

ناديتها ومشيبى قد طوانى طى * جودى على بقبلة فى الهوى يا مى
قالت وقد لى كوت داخل فؤادى كى * ماهكذا القطن يحشى فم من هو حى

ولغيره

رانى ابتسم سبقت سحب ادمعى برقه * ماط اللثام تبدى بدر فى شرقه
اسبل دجى الشعر تاه القلب فى طرقه * رجع هدانا بخيط الصبح من فرقه

ولغيره

ياحادى العيس ازجر بالمطايا زجر * وقف على منزل احبابى قبيل الفجر
وصيح فى حيهم يامن يريد الاجر * ينهض يصلى على ميت قتيل الهجر

ولغيره

عينى التى كنت أرعا كم بها باتت * ترعى النجوم وبالتسهيد اقتاتت
وأسهم البين صابتنى ولا فاتت * وسلوتى عظم الله أجركم ماتت

ولغيره

هويت فى قنطرتكم ياملاح الحكر * غزال يلى الاسود الضارى بالفكر

غصن اذا ما انثنى يسبى البنات البكر * وان تهلل فالبدر عند وذكر

ومن الذى يسمونه دوبيت

قد أقسم من أحبه بالبارى * أن يبعث طيفه مع الاسحار

يا نار شويق به فاتقدى * ليلا فعساه يهتدى بالنار

واعلم أن الاذواق فى معرفة البلاغة كلها انما تحصل لمن خالط تلك اللغة وكثر استعماله لها ومخاطبته بين أجيالها حتى يحصل ملكتها كما قلناه فى اللغة العربية فلا الاندلسى بالبلاغة التى فى شعر اهل المغرب ولا المغربى بالبلاغة التى فى شعر أهل الاندلس والمشرق ولا المشرقى بالبلاغة التى فى شعر أهل الاندلس والمغرب لان اللسان الحضرى وتراكيبه مختلفة فيهم وكل واحد منهم مدرك لبلاغة لغته وذائق محاسن الشعر من أهل جلدته وفى خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم آيات * وقد كدنا أن نخرج عن الغرض وعزمنا أن نقبض العنان عن القول فى هذا الكتاب الاول الذى هو طبيعة العمران وما يعرض فيه وقد استوفينا من مسائله ما حسبناه كفاية ولعل من يأتى بعدنا ممن يؤيده الله بفكر صحيح وعلم مبين يغوص من مسائله على أكثر مما كتبنا فليس على مستنبط الفن احصاء مسائله وانما عليه تعيين موضع العلم وتنويع فصوله وما يتكلم فيه والمتأخرون يلحقون المسائل من بعده شيأ فشيأ الى أن يكمل والله يعلم وأنتم لا تعلمون

قال مؤلف الكتاب عفا الله عنه أتممت هذا الجزء الاول بالوضع والتأليف قبل التنقيح والتهذيب فى مدة خمسة أشهر آخرها منتصف تمام تسعة وسبعين وسبعمائة ثم نقحته بعد ذلك وهذبته وألحقت به تواريخ الامم كما ذكرت فى أوله وشرطته وما العلم الا من عند الله العزيز الحكيم

تم طبع الجزء الاول المعروف بمقدمة ابن خلدون

ويليه الجزء الثانى أوله الكتاب الثانى فى

اخبار العرب وأجيالهم ودولهم

منذ بدا الخليقة

الى هذا

العهد

م

صحيفة

صحيفة

صحيفة

---

١٢٩ الفصل الثالث من الكتاب الاول فى الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية وما يعرض فى ذلك كله من الاحوال وفيه قواعد ومتممات

صحيفة

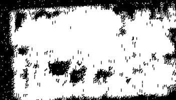
صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة



تاريخ
ابن خلدون

المسمّى

بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر
ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر

[illegible] العلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي
المتوفى سنة [illegible] هجرية

المجلد الأول

مؤسسة جمال للطباعة والنشر

بيروت - لبنان